

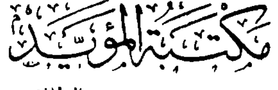
تأليف

القاضي علي بن علي بن محمد ابن أبي العز الدمشقي

(المتوفى سنة ٧٩٢ هـ)

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه

بشير محمد عيون



ص. ب.: ١٠ — الطائف



ص. ب ٢٨٥٤ - دمشق

الطبعة الثانية

بيروت

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله ، [نحمدُه ، و](*) نستعينه ، ونستغفِرُه ، [و](*) نعوذُ بالله مِن شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهدِه الله ، فلا مُضِلَّ لَه ، ومن يُضْلِلْ ، فلا هاديَ له .

ونشهد أن لا إلَه إلا الله وحدَه لا شريك له ، ونشهد أن سيدَنا محمداً عبدُه ورسولُه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فإنه لما كان علمُ أصولِ الدين أشرفَ العلوم ، إذ شرفُ العِلم بِشرَفِ المعلوم ، وهو الفِقهُ الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع ، ولهذا سمى الإمامُ أبو حنيفة رحمة الله عليه ما قاله وجمعه في أوراق مِن أصول الدين : « الفقهَ الأكبر » وحاجةُ العباد إليه فوقَ كلِّ حاجة ، وضرورتهُم إليه فوقَ كُلِّ ضرورة ، لأنه لا حياة للقلوب ، ولا نعيمَ ولا طُمأنينة ، إلا بأن تَعْرفَ ربَّها ومعبودها وفاطِرها ، بأسمائه وصِفاته وأفعاله ، ويكونَ مع ذلك كُلِّه أحَبَّ إليها مما سواه ، ويكونَ سعيُها فيما يُقرِّبها إليه دونَ غيرِه من سائر خلقه .

ومِن المحال أن تستقِلَّ العقولُ بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل ، فاقتضت رحمةُ العزيز الرحيم أن بعث الرسلَ به معرِّفين ، وإليه داعين ، ولمن

(*) زيادة من طبعة أحمد شاكر رحمه الله .

أجابهم مبِّشرين ، ولِمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاحَ دعوتهم ، وزُبدَةَ رِسالتهم معرفةَ المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، إذ على هذه المعرفة تُبنى مطالبُ الرسالة كُلها مِن أولها إلى آخرها .

ثم يتبع ذلك أصلانِ عظيمان :

أحدهما : تعريفُ الطريق المُوصلِ إليه ، وهي شريعتُه المتضمنة لأمره ونهيه .

والثاني : تعريفُ السالِكين ما لهم بعد الوصولِ إليه مِن النعيم المقيم .

فأعرفُ الناسِ بالله عزِ وجل أتبعُهم لِلطريق الموصِل إليه ، وأعرفُهم بحال السالكين عند القدُوم عليه ، ولهذا سمى اللهُ ما أنزله على رسوله روحاً ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونوراً لتوقف الهداية عليه ، فقال [الله] تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [المؤمن : ١٥] وقال تعالى : ﴿ وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ الله الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّماواتِ وَمَا فِي الأَرْضِ/ألا إلَى الله تَصِيرُ الأمورُ ﴾ [الشورى : ٥٢ ـ ٥٣] فلا روحَ إلا فيما جاء به الرسولُ ، ولا نور إلا في الاستضاءة به . ٢/ب

وهو الشفاءَ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وشِفَاءُ ﴾ [فصلت : ٤٤] . فهو وإن كان هُدى وشفاءً مطلقاً ، لكن لما كان المنتفعُ بذلك هم المؤمنين[١] ، خُصُّوا بالذكر .

والله تعالى أرسل رسولَه بالهُدَى ودِين الحقِّ ، فلا هُدى إلا فيما جاء به .

ولا ريب أنه يجب على كلِّ أحد أن يُؤْمن بما جاء به الرسولُ إيماناً عاماً مجملاً ، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسولُ على التفصيل فرضٌ على الكفاية ،

---

(١) في مطبوعة مكة : المؤمنون وكلاهما صحيح .

فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسولَه ، وداخِلٌ في تدبُّر القرآن وعقلِه وفهمِه ، وعلمِ الكتاب والحكمةِ ، وحفظِ الذِّكر ، والدُّعاءِ إلى الخير ، والأمرِ بالمعروف ، والنهي عن المنكر ،والدُّعاءِ إلى سبيلِ الربِّ بالحِكمة والموعظة الحَسَنة ، والمُجادلة بالتي هي أحسن ، ونحو ذلك ، مما أوجبه الله على المؤمنين ، فهو واجبٌ على الكِفاية منهم .

وأما ما يجب على أعيانهم ، فهذا يتنوَّعُ بتنوع قُدَرِهم ، وحاجتهم ومعرفتهم ، وما أمر به أعيانهم ، ولا يَجِبُ على العاجز عن سماع بعض العلم ، أو عن فهم دقيقِه ما يجبُ على القادر على ذلك .

ويجب على من سمع النصوصَ وفهمها من علم التفصيل ما لا يجبُ على من لم يسمعْها ، ويجب على المفتي والمحدِّث والحاكم ما لا يجب على من ليس كذلك .

وينبغي [أن يُعرف](*) أن عامة مَنْ ضَلَّ في هذا الباب ، أو عَجَز فيه عن معرفة الحق ، فإنما هو لِتفريطه في اتباع ما جاء به الرسولُ ، وتركه النظر والاستدلال الموصِلِ إلى معرفته ، فلما أعرضوا عن كتاب الله ، ضلُّوا ، كما قال تعالى : ﴿ فإمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدَىً فَمَنِ اتَّبعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ولا يَشْقَى * ومَنْ أعْرَض عَنْ ذِكْرِي فَإنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً ونَحشرُهُ يوْمَ القِيَامَةِ أعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آياتُنَا فَنَسيتَها وكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسى ﴾ [طه : ١٢٣ ـ ١٢٦] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : تكفَّل الله لمن قرأ القرآن ، وعَمِلَ بما فيه [أن] لا يَضِلُّ في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة ، ثم قرأ هذه الآية .

وكما في الحديث الذي رواه الترمذي[1] وغيره عن علي رضي الله عنه

(*) زيادة من مطبوعة مكة .

(١) رقم (٢٩٠٨) في ثواب القرآن : باب ما جاء في فضل القرآن . والدارمي رقم (٣٣٣٤) في فضائل=

قال : قال رسول الله ﷺ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ » قُلْتُ : فَما المَخْرَجُ مِنْهَا يَا رسُولَ الله ؟ فقال : « كِتَابُ الله ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُم ، وَخَبرُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ الفَصْلُ ، لَيْسَ بَالهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ ، قَصَمَهُ الله ، وَمَنِ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ الله ، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِينُ ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِي لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسُنُ ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُه ، ولا يَشبعُ مِنْهُ العُلَماءُ ، مَنْ قَالَ بِهِ ، صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِه أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ ، عَدَلَ ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ ، هُدِيَ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على مثل هذا المعنى .

ولا يقبلُ الله مِن الأولين والآخِرين ديناً يدينون به إلا أن يكونَ مُوافِقاً لِدينه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم السلام .

٣/أ وقد نزَّه الله تعالى نفسه/عما يَصِفُه به العبادُ إلا ما وصفه به المرسَلون

= القرآن : باب فضل من قرأ القرآن ، من حديث حمزة الزيات عن أبي المختار الطائي ، عن ابن أخي الحارث الأعور، عن الحارث، ورواه أحمد في «المسند» ١ / ٩١ من طريق محمد بن اسحاق، قال: وذكر محمد بن كعب القرظي عن الحارث بن عبد الله . . الحديث ، وفي سنده الحارث بن عبد الله الأعور ، والجمهور على توهينه ، وقال الحافظ ابن كثير في « فضائل القرآن » ص ١٠ : والحديث مشهور من رواية الحارث الأعور ، وقد تكلموا فيه ، بل قد كذبه بعضهم من جهة رأيه واعتقاده ، أما إنه تعمد الكذب في الحديث ، فلا ، وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقد وهم بعضهم في رفعه ، وهو كلام حسن صحيح على أنه قد روي له شاهد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه « فضائل القرآن » : ثنا أبو اليقظان ،ثنا عمار بن محمد الثوري أو غيره ، عن أبي إسحاق الهجري ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، وهو النور المبين والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه ، فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول: آلم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر ، وميم عشر » . وأبو إسحاق الهجري وهو إبراهيم بن مسلم : لين الحديث رفع الموقوفات ، فيحتمل أن يكون وهم في رفع هذا الحديث ، وإنما هو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه .

بقوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُونَ * وسَلاَمٌ عَلَى المُرْسَلِينَ * والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ - ١٨٢] فنزَّه نفسه سبحانه عما يَصِفُه به الكافرون ، ثم سلَّم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به مِن النقائص والعيوب ، ثم حَمِدَ نفسه على تفرده بالأوصاف التي يستحق عليها كمالَ الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسولُ ﷺ خيرُ القرون ، وهُم الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان ، يُوصي به الأولُ الآخِرَ ، ويقتدي فيه اللاحقُ بالسابق ، وهم في ذلك كُلِّه بنبيهم محمدٍ ﷺ مُقتدون ، وعلى مِنهاجه سالِكون ، كما قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿ قُلْ هٰذِهِ سَبِيلي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] فإن كان قولُه : ﴿ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ معطوفاً على الضمير في ﴿ أدعو ﴾ ، فهو دليل على أن أتباعه هم الدعاةُ إلى الله ، وإن كان معطوفاً على الضمير المنفصل ، فهو صريحٌ أن أتباعه هُمْ أهلُ البصيرة فيما جاء به دُون غيرهم ، وكلا المعنيين حق .

وقد بلَّغ الرسولُ ﷺ البلاغَ المبين ، وأوضح الحُجة للمُستبصرين ، وسلك سَبيلَه خير القرون ، ثم خلف مِن بعدهم خَلْفٌ اتَّبعوا أهواءَهم ، وافترقوا ، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصولَ دينها ، كما أخبر الصادِق ﷺ بقوله : « لا تَزالُ طَائِفَةٌ مِن أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ »(٢) .

(٢) رواه مسلم رقم (١٩٢٠) في الإمارة : باب قوله ﷺ : لا تزال طائفة في أمتي ظاهرين على الحق ، وأبو داود رقم (٤٢٥٢) في الفتن : باب ذكر الفتن ودلائلها ، والترمذي رقم (٢١٧٧) و (٢٢٣٠) في الفتن : باب ما جاء في سؤال النبي ﷺ ثلاثاً لأمته ، وباب ما جاء في الأئمة المضلين ، وابن ماجه رقم (١٠) في المقدمة : باب اتباع سنة رسول الله ﷺ : وأحمد في «المسند» ٥/٢٧٨ و ٢٧٩ من حديث ثوبان رضي الله عنه .

=

وممن قام بهذا الحقِّ مِن علماء المسلمين : الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي ، تغمَّده الله برحمته ، بعد المـئتين ، فإن مولده سنة تسع وثلاثين ومئتين ، ووفاته سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة .

فأخبر رحمه الله عما كان عليه السلفُ ، ونقل عن الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكُوفي ، وصاحِبَيْه : أبي يوسف يعقوبَ بنِ إبراهيم الحِميري الأنصاري(*) ، ومحمد بنِ الحسنِ الشَّيباني(**) رضي الله عنهم ـ ما كانوا يعتقِدونه مِن أصول الدين ، ويَدينون به ربَّ العالمين .

= ورواه البخاري ١٣/٢٥٠ في الاعتصام : باب قول النبي ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، ومسلم رقم (١٠٣٧) في الزكاة ، من حديث معاوية رضي الله عنه . ورواه البخاري ١٣/٢٤٩ ومسلم رقم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه ، ورواه مسلم رقم (١٧٤) من حديث جابر ابن سمرة رضي الله عنه ، ورقم (١٩٢٣) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما . ورقم (١٩٢٤) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه .

وفي الباب عن عمران بن حصين، وعمر بن الخطاب، وأبي هريرة، وقـرة بن إياس رضي الله عنهم.

انظر «جامع الأصول» بتحقيق أستاذنا المحدث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط ، الحديث رقم (١٠٤٨) و (٦٧٧٦) و(٦٧٧٧) و(٦٧٧٨) و(٦٧٧٩) و(٧٤٩٦) و(٧٨٣٢) و (٧٩١٧) و(٨٨٧٩) وهو من منشوراتنا .

قال الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» ١٣/٦٦ ـ ٦٧ : «وأما هذه الطائفة، فقال البخاري: هم أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم ؟ ،» انظر بقية كلامه رحمه الله تعالى .

(*) هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، ولد بالكوفة سنة ١١٣ هـ صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه ، وأول من نشر مذهبه . كان فقيهاً ، من حفاظ الحديث . ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد ، ومات في بغداد سنة ١٨٢ هـ . وهو أول من وضع الكتب في أصول الفقه ، من تصانيفه : « الخراج » و « اختلاف الأمصار » و « أدب القاضي » و « الأمالي في الفقه » ، وغيرها .

(**) هو أبو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد ، من موالي بني شيبان ، أصله من دمشق من قرية حرستا . ولد بـ « واسط » بالعراق سنة ١٣١ هـ ، ونشأ بالكوفة وصحب أبا حنيفة وأخذ عنه الفقه ، ثم عن أبي يوسف . مات بالري سنة ١٨٩ هـ . نعته الخطيب البغدادي بإمام أهل الرأي ، من تصانيفه : « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » كلاهما في الفقه الحنفي ، و « المخارج في الحيل » و « السير » وغيرها .

وكلما بعُد العهدُ ، ظهرت البدعُ ، وكثُر التَّحريفُ الذي سماه أهلُه تأويلاً، ليقبل، وقلَّ من يهتدي إلى الفرق بين التحريفِ والتأويل، إذ قد سُمي صرفُ الكلام عن ظاهرة إلى معنى آخر يحتمِلُه اللفظ في الجملة تأويلاً ، وإن لم يكن ثَمَّ قرينةٌ تُوجِبُ ذلك ، ومِن هنا حصل الفَساد ، فإذا سمَّوه تأويلاً ، قُبِلَ وراج على من لا يهتدي إلى الفرق بينهما .

فاحتاج المؤمنون بعد ذلك إلى إيضاح الأدلة ، ودفع الشُّبَهِ الوارِدَةِ عليها ، وكثر الكلام والشَّغَب ، وسببُ ذلك إصغاؤُهم إلى شُبَه المبطلين ، وخوضُهم في الكلام المذموم الذي عابه السلف ، ونَهَوْا عن النظرِ فيه ، والاشتغال به ، والإصغاء إليه ، امتثالاً لأمر ربهم ، حيث قال : ﴿ وإذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِه ﴾ [الأنعام : ٦٨]، فإن معنى الآية يشملهم .

وكلٌ مِن التحريف والانحراف على مراتب ، فقد يكون كفراً ، وقد يكون فسقاً ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ .

فالواجب اتباعُ المرسلين ، واتباعُ ما أنزله/الله عليهم . وختمهم الله بمحمَّدٍ ﷺ ، فجعله آخِرَ الأنبياء ، وجعل كِتابه مُهَيْمِناً على ما بين يديه من كتب السماء ، وأنزل عليه الكتاب والحِكمة ، وجَعَل دعوتَه عامة لجميع الثقلين : الجِنِّ والإنْسِ ، باقيةً إلى يوم القيامة ، وانقطعت به حُجَّةُ العباد على الله ، وقد بين الله به كلَّ شيء ، وأكملَ له ولأمته الدين خبراً وأمراً ، وجعل طاعتَه طاعة له ، ومعصيتَه معصية له ، وأقسم بنفسه أنهم لا يُؤمِنُون حتى يُحكِّموه فيما شجر بينهم ، وأخبرَ أن المنافقين يُريدُون أن يتحاكمُوا إلى غيره ، وأنَّهم إذَا دُعوا إلى الله والرسول ـ وهو الدعاءُ إلى كِتاب الله وسنةِ رسوله ـ صَدُّوا صُدوداً ، وأنَّهم يزعمون أنهم إنما أرادوا إحساناً وتوفيقاً ، كما

٣/ب

يقوله كثيرٌ من المتكلمة والمتفلسفة وغيرهم : إنما نريد أن نُحِسَّ الأشياء بحقيقتها ، أي : ندركها ونعرفها ، ونريدُ التوفيق بين الدلائل التي يُسمونها العقليات ، ـ وهي في الحقيقة جهليات ـ وبينَ الدلائل النقلية المنقولة عن الرسولِ ، أو نريدُ التوفيق بين الشريعة والفلسفة .

وكما يقولُه كثيرٌ مِن المبتدعة ، من المتنسّكة والمتصوفة : إنما نريد للأعمال بالعمل الحسن ، والتوفيق بين الشريعة وبين ما يدَّعونه مِن الباطل الذي يسمونه : حقائق ، وهي جهل وضلال .

وكما يقولُه كثيرٌ مِن المتملكة والمتأمِّرة : إنما نريد الإحسانَ بالسياسة الحسنة ، والتوفيق بينها وبين الشريعة ، ونحو ذلك.

وكُلُّ من طَلَب أن يُحكِّم في شيء من أمر الدين غيرَ ما جاء به الرسولُ ، ويظن أن ذلك حسن ، وأن ذلك جمعٌ بين ما جاء به الرسولُ وبين ما يخالفه ـ فله نصيبٌ مِن ذٰلك ، بل ما جاء به الرسولُ كافٍ كامل ، يدخُلُ فيه كُلُّ حق ، وإنما وقع التقصيرُ مِن كثيرٍ من المنتسبين إليه ، فلم يعلموا ما جاء به الرسولُ في كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية ، ولا في كثير من الأحوال العبادية ، ولا في كثير من الإمارة السياسية ، أو نسبوا إلى شريعة الرسول بظنهم وتقليدهم ما ليس منها ، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها .

فَبِسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، وبسبب عُدوان أولٰئك وجهلهم ونفاقهم ، كَثُرَ النفاقُ ، وَدَرَس كثيرٌ مِن علم الرسالة .

بل البحثُ التام ، والنظرُ القوي ، والاجتهادُ الكامل ، فيما جاء به الرسولُ ﷺ ، لِيُعلَمَ ويعتقد ، ويعمل به ظاهراً وباطناً ، فيكون قد تُلي حَقَّ تلاوته ، وأن لا يُهمل منه شيء .

وإن كان العبد عاجزاً عن معرفة بعضِ ذٰلك ، أو العملِ به ، فلا ينهى

٤/أ

عما عَجَز عنه مما جاء به الرسولُ ،/بل حَسْبُهُ أن يسقُطَ عنه اللومُ لعجزه ، لكن عليه أن يفرح بِقيام غيره بِهِ ، ويرضى بذلك ، ويود أن يكون قائماً به ، وأن لا يُؤمِنَ ببعضه ويتركَ بعضه ، بل يؤمنَ بالكِتابِ كُلِّه ، وأن يُصان عن أن يُدخِلَ فيه ما ليس منه : من رواية أو رأي ، أو يتَّبعَ ما ليس من عند الله اعتقاداً أو عملاً ، كما قال تعالى : ﴿ ولَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُموا الحَقَّ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٢] .

وهذه كانت طريقةَ السابقين الأولين ، وهي طريقة التابعين لهم بإحسان إلى يوم القيامة ، وأولهم السلف القديم من التابعين للأولين ، ثُمَّ من بعدهم ، ومِن هؤلاء أئمة الدين المشهود لهم عند الأمة الوسط بالإمامة .

فَعن أبي يوسف ، رحمه الله تعالى ، أنه قال لِبشر المريسي(*) : العلم بالكلام هو الجهل ، والجهلُ بالكلام هو العلم ، وإذا صار الرجل رأساً في الكلام ، قيل : زِنديق ، أو رُمي بالزندقة . أراد بالجهل به اعتقادَ عدم صحته ، فإن ذلك علم نافع ، أو أراد به الإعراضَ عنه ، أو تركَ الالتفات إلى اعتباره ، فإن ذلك يصونُ علم الرجل وعقلَه ، فيكون علماً بهذا الاعتبار . والله أعلم .

وعنه أيضاً أنه قال : مَن طلب العلم بالكلام ، تزندق ، ومن طلب المال بالكيمياء ، أفلس ، ومن طلب غريب الحديث ، كَذَّبَ .

(*) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي ، فقيه ، معتزلي ، عارف بالفلسفة ، يرمى بالزندقة ، وإليه تنسب الطائفة المريسية ، القائلة بالإرجاء ، أخذ الفقه عن أبي يوسف ، إلا أنه اشتغل وجَرَّد القول بخلق القرآن .

قال الذهبي عنه في « لسان الميزان » ٢/٢٩ : مبتدع ضال ، لا ينبغي أن يروى عنه ولا كرامة ، ولم يدرك جهم بن صفوان وإنما تقلد مقالته في خلق القرآن ، واحتج لها ودعا لها .

وللدارمي كتاب « النقض على بشر المريسي » في الرد على مذهبه وهو مطبوع ضمن مجموع « عقائد السلف » بعنوان رد الامام الدارمي عثمان بن سعيد على المريسي العنيد » توفي سنة ٢١٨هـ ببغداد ، وقد عاش نحواً من ٧٠ عاماً .

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى : حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجَرِيدِ والنعال ، ويُطاف بهم في العشائر [القبائل](*) ، ويُقال : هذا جزاءُ من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام .

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

كُلُّ العُلُومِ سِوَى القُرآنِ مَشْغَلَةٌ إلاَّ الحَدِيثَ وَإلاَّ الفِقْهَ في الدِّينِ
العِلْمُ مَا كَانَ فِيهِ قَالَ حَدَّثَنَا وَمَا سِوَى ذَاكَ وَسْوَاسُ الشَّيَاطين

وذكر الأصحاب في الفتاوى : أنه لو أوصى لِعلماء بلده : لا يدخل المتكلمون ، ولو أوصى إنسان أن يُوقف مِن كتبه ما هو مِن كتب العلم ، فأفتى السلف أن يُباع ما فيها مِن كتب الكلام . ذكر ذلك بمعناه في « الفتاوى الظهيرية »(*) ، فكيف يُرام الوصولُ إلى علم الأصول ، بغير اتباعِ ما جاء به الرسول ؟! ولقد أحسن القائل :

أيُّها المُغْتَـدِي** لِيَطْلُبَ عِلْمَاً كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ
تَطْلُبُ الفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلاً كيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أصلِ الأُصُولِ

ونبيُّنا ﷺ أُوتِيَ فَوَاتِحَ الكَلِمِ وَخَواتِمَه وَجَوامِعَه[3] ، فبُعِثَ بالعلوم

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(*) هي لظهير الدين محمد بن أحمد بن عمر البخاري ، أبي بكر . فقيه حنفي ، أصولي ، من القضاة ، تولى الحسبة ببخارى . من كتبه : « الفتاوى الظهيرية » و« الفوائد الظهيرية » في الفقه .

(**) في مطبوعة مكة : المقتدي .

(3) رواه البخاري ٩٠/٦ في الجهاد : باب قول النبي ﷺ : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، و ٣٥٣/١٢ في التعبير : باب رؤ يا الليل ، وباب المفاتيح في اليد ، و٢٠٩/١٣ في الاعتصام : باب قول النبي ﷺ : بعثت بجوامع الكلم ، ومسلم رقم (٥٢٣) في المساجد : في فاتحته ، والترمذي رقم (١٥٥٣) في السير : باب ما جاء في الغنيمة ، والنسائي ٣/٦ ـ ٤ في الجهاد : باب وجوب الجهاد ، وأحمد في « المسند » ٤١١/٢ و ٤١٢ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ولفظه : «بعثت بجوامع الكلم» وفي رواية لمسلم : « أوتيت » وفي أخرى : « أعطيت » .

الكلية والعلوم الأولية والأخروية على أتمِّ الوجوه ، ولكن كلما ابتدع شخص بدعة ، اتسعُوا في جوابها ، فلذلك صار كلامُ المتأخرين كثيراً ، قليلَ البركة ، بخلاف كلام المتقدمين ، فإنه قليلٌ ، كثير البركة ، [لا][*] كما يقولُه ضُلَّالُ المتكلمين وجهلتُهم : إن طريقة القومِ أسلمُ ، وإن طريقتنا أحكمُ وأعلمُ ! ولا كما يقولُه من لم يُقَدِّرْهُم مِن/ المنتسبين إلى الفقه : إنهم لم يتفرَّغوا لاستنباطه ، وضبطِ قواعده وأحكامه اشتغالاً منهم بغيره ! والمتأخرون تفرَّغوا لذلك ، فهم أفقه !! ٤/ب

فكُلُّ هؤلاء محجوبون عن معرفة مقاديرِ السلف ، وعُمقِ علومهم ، وقِلةِ تكلُّفهم ، وكمالِ بصائرهم . وتالله ما امتازَ عنهم المتأخّرُون إلا بالتكلُّف والاشتغالِ بالأطراف التي كانت هِمةُ القوم مراعاةَ أصولها ، وضبطَ قواعدها ، وشدَّ معاقِدها ، وهِمَمُهم مشمّرة إلى المطالب العالية في كل شيء ، فالمتأخرون في شأن ، والقومُ في شأن آخر ، وقد جعل الله لكل شيء قدراً .

وقد شرح هذه العقيدة غيرُ واحد مِن العلماء ، ولكن رأيتُ بعض الشارحين قد أصغى إلى أهل الكلام المذموم ، واستمد منهم ، وتكلم بعباراتهم .

والسلف لم يكرهوا التكلم بالجوهر والجسم والعَرَض ونحوِ ذلك لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معان صحيحة ، كالاصطلاح على ألفاظ العلومِ الصحيحة ، ولا كرِهوا أيضاً الدلالة على الحق والمحاجّة لأهل الباطل ، بل كرهوه لاشتمالِه على أمورٍ كاذبة مخالفة للحق ، ومن ذلك مخالفتُها الكتاب والسنة ، ولهذا لا تجدُ عند أهلها مِن اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين ، فضلاً عن علمائهم .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

ولاشتمال مقدماتهم على الحقِّ والباطل ، كَثُرَ المِراءُ والجدالُ ، وانتشر القيل والقالُ ، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيقُ عنه المجال ، وسيأتي لذلك زيادةُ بيان عند قوله : « فمن رام علم ما حظر عنه علمه »(*) .

وقد أحببتُ أن أشرحها سالكاً طريقَ السلف في عباراتهم ، وأنسجَ على منوالهم ، متطفِّلاً عليهم ، لعلي أن أُنْظَمَ في سلكهم ، وأدخلَ في عِدادهم ، وأُحْشَرَ في زُمرتهم ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : ٦٩] . ولما رأيتُ النفوس مائلة إلى الاختصار ، آثرتُه على التطويل والإسهاب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] [وهو حسبُنا ونعم الوكيل](**) .

* * *

(*) انظر ص ١٨٤ وما بعدها .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

قوله : نَقُولُ في تَوْحِيدِ الله مُعْتَقِدِينَ بِتَوْفِقِ الله : إنَّ الله وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ .

اعلم أن التوحيد أولُ دعوةِ الرُّسل ، وأولُ منازِلِ الطريق ، وأولُ مقامٍ يقومُ فيه السالكُ إلى الله عزَّ وجلّ ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] . وقال هودٌ عليه السلام لقومه : ﴿ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٦٥] . وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] . وقال شعيب عليه السلام لقومِهِ : ﴿ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٨٥] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾/[النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّه لَا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وقال رسول الله ﷺ: « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله »(٤) .

٥/أ

---

(٤) رواه البخاري ١/٧٠ ـ ٧١ في الإيمان : باب ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة﴾ ، ومسلم (٢٢) في الإيمان : باب الأمر بقتال الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

ورواه البخاري ٣/٢١١ في الزكاة ، ومسلم رقم (٢١) والترمذي رقم (٢٦١٠) في الإيمان : في فاتحته ، والنسائي ٥/١٤ في الزكاة : باب مانع الزكاة ، وأبو داود رقم (٢٦٤٠) في الجهاد : باب على ما =

ولهذا كان الصحيحُ أن أوَّل وَاجِبٍ يجب على المكلَّف شهادةُ أن لا إلٰهَ إلا الله ، لا النظرُ ، ولا القصدُ إلى النظر ، ولا الشَّكُّ ، كما هي أقوالُ لأرباب الكلام المذموم ، بل أئمة السلف كُلُّهم متفقون على أن أول ما يُؤمر به العبدُ الشهادتان ، ومتَّفِقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يُؤمر بتجديد ذلك عقيبَ بلوغه ، بل يُؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذٰلك ، ولم يُوجب على أحد منهم على وليه أن يُخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين ، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجباً باتفاق المسلمين ، ووجوبُه يسبِقُ وجوبَ الصلاة ، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك .

وهنا مسائل تكلَّم فيها الفقهاءُ : كمن صلَّى ولم يتكلم بالشهادتين ، أو أتى بغير ذٰلك مِن خصائص الإسلام ، ولم يتكلَّم بهما : هل يصيرُ مسلماً أم لا ؟ والصحيحُ أنه يصير مسلماً بكل ما هو مِن خصائص الإسلام .

فالتوحيد أولُ ما يدخل به في الإسلام ، وآخِرُ ما يخرج به من الدنيا ، كما قال النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إلٰهَ إلاَّ الله دَخَلَ الجَنَّة »[٥] . وهو

= يقاتل المشركون ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه مسلم والترمذي من حديث جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما .

ورواه البخاري والترمذي وأبو داود والنسائي من حديث أنس رضي الله عنه .

ورواه النسائي من حديث النعمان بن بشير وأوس بن حذيفة رضي الله عنهما .

ورواه مالك في «الموطأ» من حديث عبيد الله بن عدي بن خيار رضي الله عنه .

ورواه مسلم من حديث طارق الأشجعي رضي الله عنه .

انظر «جامع الأصول» رقم (٣٥) و (٣٦) و (٣٧) و(٣٨) و(٣٩) و(٤٠) و(٢٦٥٦) .

(٥) رواه أبو داود رقم (٣١١٦) في الجنائز : باب التلقين ، وأحمد في المسند ٥/ ٢٣٣ ، والحاكم (١/ ٣٥١) وقال صحيح الاسناد ، ووافقه الذهبي وهو كما قالا ، وللحديث شاهد عند ابن حبان رقم (٧١٩ « موارد » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « لَقِنُوا مَوْتَاكُمْ لاَ إله إلاَّ اللَّهُ ، مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إلهَ إلاَّ اللَّهُ عِنْدَ المَوْتِ دَخَلَ الْجَنَّةَ يَوْماً مِنَ الدَّهْرِ ، وَإنْ أَصَابَهُ قَبْلَ ذَلِكَ مَا أَصَابَهُ » ا هـ ملخصاً من « الإرواء » رقم (٦٨٧) .

أول واجب وآخر واجب .

فالتوحيدُ أولُ الأمرِ وآخِرُهُ ، أعني : توحيدَ الإلٰهية ، فإن التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع :

أحدها : الكلامُ في الصفات ،

والثاني : توحيدُ الربوبية ، وبيان أن الله وحده خالق كل شيء ،

والثالث : توحيدُ الإلٰهية ، وهو استحقاقُه سبحانه وتعالى أن يُعبد وحدَه لا شريك له .

أما الاول ، فإن نفاةَ الصفاتِ أدخلُوا نفي الصفات في مسمَّى التوحيد ، كجهم بن صفوان(*) ومن وافقه ، فإنهم قالُوا : إثباتُ الصفات يستلزِمُ تعدُّد الواجِبِ ، وهذا القولُ معلومُ الفسادِ بالضرورة ، فإن إثبات ذات مجرَّدة عن جميع الصفات لا يُتصور لها وجودٌ في الخارج ، وإنما الذِّهنُ قد يفرِضُ المحال ويتخيلُه ، وهذا غايةُ التعطيل . وهذا القولُ قد أفضى بقومٍ إلَى القولِ بالحُلول والاتحاد ، وهو أقبحُ مِن كفر النصارى ، فإن النصارى خصُّوه بالمسيح ، وهؤلاء عمَّموا جميعَ المخلوقات .

(*) هو أبو محرز جهم بن صفوان الترمذي ، من موالي بني راسب ، رأس الجهمية . قال الذهبي : الضال المبتدع . هلك سنة ١٢٨ هـ في زمن صغار التابعين ، وقد زرع شراً عظيماً . قبض عليه نصر بن سيار ، وأمر بقتله .

من عقائد الجهمية أن الجنة والنار تفنيان ، وأن الإيمان هو المعرفة فقط دون سائر الطاعات ، وأنه لا فعل لأحد على الحقيقة إلا الله ، والإنسان مجبر على أفعاله . . .

انظر « ميزان الاعتدال » ١/١٩٧ و« الكامل » لابن الأثير حوادث سنة ١٢٨ هـ ، و« لسان الميزان » ٢/١٤٢ ، و« خطط المقريزي » ٢/٣٤٩ - ٣٥١ و« الحور العين » ص ٢٥٥ ، و« الطبري » ٧/٢٢٠ - ٢٢١ و ٢٣٦ و ٢٣٧ و« تاريخ الجهمية والمعتزلة » للقاسمي ص ١٠ .

ومن فُروع هذا التوحيد : أن فرعون وقومه كـامِلو الإيمانِ ، عارِفُون بالله على الحقيقة .

ومن فروعه : أن عُبَّاد الأصنام على الحق والصواب ، وأنهم إنما عبدُوا الله لا غيره .

٥/ب ومن فروعه : أنه لا فرقَ في التحريم والتحليل بين الأم والأخت/ والأجنبية ، ولا فرق بين الماء والخمر ، والزنى والنكاح ، الكُلُّ مِن عين واحدة ، لا بل هو العين الواحدة .

ومِن فروعه : أن الأنبياء ضيَّقوا على النَّاس ، تعالى الله عما يقولُون عُلوّاً كبيراً .

وأما الثاني : وهو توحيد الربوبية ، كالإقرار بأنه خالق كُلِّ شيء ، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال ، وهذا التوحيدُ حقٌ لا ريب فيه ، وهو الغايةُ عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية ، وهذا التوحيدُ لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوبُ مفطورة على الإقرار به أعظَمَ مِن كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرُّسُلُ عليهم السلام فيما حكى الله عنهم : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوٰاتِ والأرْضِ ﴾ [إبراهيم : ١٠] .

وأشهرُ من عُرِفَ تجاهلُه وتظاهُره بإنكار الصانع فرعونُ ، وقد كان مستيقناً به في الباطن ، كما قال له موسى عليه السلام : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤلاءِ إلَّا رَبُّ السَّمَوٰاتِ والأَرْضِ بِصَائِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] . وقال تعالى عنه وعن قومه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْمَاً وَعُلُوّاً ﴾ [النمل : ١٤] . ولهذا لما قال : وما ربُّ العالمين ؟ على وجه الإنكار له تجاهلَ العارف ، قال له موسى : ﴿ رَبُّ السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُما إنْ كُنْتُمْ

مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٤ ـ ٢٨] .

وقد زعم طائفة أن فرعونَ سأل موسى مستفهماً عن الماهية ، وأن المسؤول عنه لما لم يكن له ماهية ، عَجَزَ موسى عن الجواب ، وهذا غلط ، وإنما هذا استفهامُ إنكار وجَحْدٍ ، كما دل سائرُ آيات القرآن على أن فرعون كان جاحداً لله ، نافياً له ، لم يكن مثبتاً له ، طالباً للعلم بماهيته . فلهذا بين لهم موسى أنه معروف . وأن آياتِه ودلائلَ ربوبيته أظهرُ وأشهر من أن يُسأل عنه بما هو ؟ بل هو سبحانه أعرفُ وأظهرُ وأبْيَنُ مِنْ أن يُجهل ، بل معرفتُه مستقرة في الفِطَر أعظَمَ مِن معرفة كُلِّ معروف .

ولم يُعرف عن أحد مِن الطوائف أنه قال : إن العالم له صانعان متماثلان في الصفات والأفعال ، فإن الثنوية من المجوس ، والمانوية القائلين بالأصلين : النورِ والظُّلمةِ ، وأن العالم صدر عنهما ـ : متفقون على أن النورَ خير من الظلمة ، وهو الإله المحمود ، وأن الظلمة شريرة مذمومة ، وهم متنازعون في الظُّلمة : هل هي قديمة أو محدثَة ؟ فلم يثبتوا ربَّينِ متماثلين .

وأما النصارى القائلون بالتثليث ، فإنهم لم يُثبتوا للعالم ثلاثة أرباب /ينفصِلُ بعضُهم عن بعض ، بل هم متفقون على أن صانع العَالم واحد ، ٦/أ
ويقولون : باسم الأب والابن وروحِ القُدس إله واحد .

وقولهم في التثليث متناقض في نفسه ، وقولُهم في الحلول أفسدُ منه ، ولهذا كانوا مضطربينَ في فهمه ، وفي التعبيرِ عنه ، لا يَكادُ واحد منهم يُعبِّرُ عنه بمعنى معقول ، ولا يكاد اثنانِ يتفقانِ على معنى واحد ، فإنهم يقولون : هو واحد بالذات ، ثلاثةٌ بالأقنوم ! والأقانيم يفسرونها تارة بالخواص ، وتارة

بالصفات ، وتارة بالأشخاص ، وقد فطر الله العباد على فساد هذه الأقوال بعد التصور التام ، وفي الجملة فهم لا يقولون بإثبات خالقين متماثلين(*) .

والمقصودُ هنا : أنه ليس في الطوائف من يُثبِتُ لِلعالَم صانعين متماثلين ، مع أن كثيراً من أهل الكلام والنظر والفلسفة تَعِبُوا في إثبات هذا المطلوب وتقريره ، ومنهم من اعترف بالعجز عن تقرير هذا بالعقل ، وزعم أنه يُتلقى من السمع .

والمشهور عند أهل النظر إثباتُه بدليل التمانع ، وهو : أنه لو كان لِلعالَم صانعان ، فعند اختلافِهما مثل أن يُريدَ أحدهُما تحريكَ جسم وآخر تسكينه ، أو يريد أحدهُما إحياءه والآخر إماتته ـ : فإما أن يَحْصُلَ مرادُهما ، أو مرادُ أحدهما ، أو لا يحصلُ مرادُ واحد منهما ، والأول ممتنع ، لأنه يستلزم الجمعَ بين الضدين ، والثالث ممتنع ، لأنه يلزم خلوّ الجسم عن الحركة والسكون ، وهو ممتنع ، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون إلهاً ، وإذا حصل مرادُ أحدهما دون الآخر ، كان هذا هو الإلٰه القادر ، والآخر عاجزاً لا يصلح للإلٰهية . وتمام الكلام على هذا الأصل معروف في موضعه .

وكثير من أهل النظر(**) يزعمون أن دليلَ التمانع هو معنى قولِه تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِما آلِهةٌ إلَّا الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] . لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيدُ الإلٰهية الذي بيَّنه القرآنُ ، ودعت إليه الرسلُ عليهم السلامُ ، وليس الأمرُ كذلك ، بل التوحيدُ الذي دعت إليه الرسل ، ونزلت به الكُتُب : هو توحيد الإلٰهية المتضمنُ توحيدَ الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن المشركينَ مِن العرب كانوا يُقِرُّون بتوحيد الربوبية ،

(*) انظر بسط هذا في « الجواب الصحيح » ٢/١٥٨، ١٧٠ لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

(**) انظر « منهاج السنة » ٢/٧٣ لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى .

وأن خالق السماواتِ والأرض واحد ، كما أخبر تعالى عنهم بقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] . ﴿ قُلْ لِمن الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ / [المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٥] . ومثل هذا كثير في القرآن . ٦/ب

ولم يكونوا يعتقِدُون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم ، بل كان حالُهم فيها كحال أمثالهم مِن مشركي الأمم مِن الهند والترك والبربر وغيرهم ، تارة يعتقدون أن هذه تماثيلُ قومٍ صالحين من الأنبياء والصالحين ، ويتخذونهم شُفعاءَ ، ويتوسَّلُون بهم إلى الله ، وهذا كان أصلَ شركِ العرب ، قال تعالى حِكاية عن قوم نوح : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُم وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُواعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً ﴾ [نوح : ٢٣] .

وقد ثبت في « صحيح البخاري »(*) وكتب التفسير ، وقصص الأنبياء وغيرها ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره من السلف ، أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح ، فلما ماتُوا ، عكفوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثِيلَهم ، ثم طال عليهم الأمدُ ، فعبدُوهم ، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب ، ذكرها ابنُ عباس رضي الله عنهما ، قبيلةً قبيلةً .

وقد ثبت في « صحيح مسلم »(٦) عن أبي الهَيَّاجِ الأسدي ، قال : قال لي عَلِيُّ بنُ أبي طـالب رضي الله عنـه : ألا أَبْعَثُـكَ عَلَى مَـا بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ « أَمَرَنِي أَلَّا أَدَعَ قَبْراً مُشْرِفاً إلَّا سَوَّيْتُهُ ، وَلَا تِمْثَالاً إلَّا طَمَسْتُهُ » .

(*) انظر « الفتح الباري » ٨/٥١١ في تفسير سورة نوح .

(٦) رواه مسلم رقم (٩٦٩) في الجنائز : باب الأمر بتسوية القبر ، وأبو داود رقم (٣٢١٨) في الجنائز : باب في تسوية القبر ، والترمذي رقم (١٠٤٩) في الجنائز : باب ما جاء في تسوية القبور، والنسائي ٤/٨٨ و ٨٩ في الجنائز : باب تسوية القبور إذا رفعت ، وأحمد في «المسند» ١/٩٦ و ١٢٩ ، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وفي «الصحيحين» [٧] عن النبي ﷺ أنه قال في مرض موته : «لَعَنَ اللَّهُ اليَهُودَ والنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبيائِهِمْ مَسَاجِدَ» يحذِّر ما فعلوا ، قالت عائِشَةُ رضي الله عنها : ولَوْلاَ ذَلِكَ لأُبْرِزَ قَبْرُهُ ، ولكن كَرِهَ أن يُتَّخذ مسجداً .

وفي «الصحيحين» [٨] أنه ذُكِرَ له في مرض موته كنيسةً بأرض الحبشة ، وذُكِرَ له مِن حُسنها وتصاويرَ فيها ، فقال : «إنَّ أُولئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجَداً ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التَّصَاوِيرَ ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ» .

وفي «صحيح مسلم» [٩] عنه ﷺ أنه قال قبل أن يموتَ بخمس : «ألا وإنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ وَصَالِحِيهمْ مَسَاجِدَ ، ألاَ فلا

---

(٧) رواه البخاري ١/٤٤٤ في الصلاة : باب الصلاة في البيعة ، ومسلم رقم (٥٣٠) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، وأبو داود رقم (٣٢٢٧) في الجنائز : باب في البناء على القبر ، والنسائي ٤/٩٥ ـ ٩٦ في الجنائز : باب اتخاذ القبور مساجد ، وأحمد في «المسند» ٢/٢٦٠ و ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٣٦٦ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وورواه البخاري ٣/١٦١ في الجنائز : باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور ، و ٣/٢٠٣ : باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ، ومسلم رقم (٥٢٩) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، وأحمد في «المسند» ٦/٨٠ و ١٢١ و ١٤٦ و ٢٥٢ و ٢٥٥ من حديث عائشة رضي الله عنها .

والبخاري ١/٤٤٤ و ١٠/٢٣٤ و ٦/٣٥٩ ومسلم رقم (٥٣١) والدارمي رقم (١٤١٠) في الصلاة : باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، وأحمد في «المسند» ١/٢١٨ و٦/٣٤ و٢٢٩ و٢٧٥ من حديث ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم .

(٨) رواه البخاري ١/٤٣٨ في الصلاة : باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ، وباب الصلاة في البيعة ، وفي الجنائز : باب بناء المسجد على القبر ، و٧/١٤٥ في فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب هجرة الحبشة ، ومسلم رقم (٥٢٨) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور ، والنسائي ٢/٤١ ـ ٤٢ في المساجد : باب النهي عن اتخاذ القبور مساجد ، وأحمد في «المسند» ٦/٥١ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٩) رقم (٥٣٢) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور . من حديث جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه .

تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، إنِّي أنْهَاكُمْ عَنْ ذٰلِكَ» .

ومن أسباب الشرك عبادةُ الكواكب ، واتخاذُ الأصنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها ، وشِركُ قوم إبراهيم عليه السلام كان ـ فيما يُقال ـ من هذا الباب . وكذلك الشركُ بالملائكة والجن واتخاذ الأصنام لهم .

وهؤلاء كانوا مقرِّين بالصانع ، وأنه ليس لِلعالَم صانعان ، ولكن اتخذوا هؤلاء(*) شفعاءَ، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِـهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونا إلى الله زُلْفى﴾ [الزمر : ٣] وقال تعالى . ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَضرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُم وَيَقُولُونَ هٰؤلاءِ شُفَعَاؤُنا عِنْدَ الله قُلْ أَتُنَبِّئُونَ الله بِمَا لاَ يَعْلَمُ في السَّمٰوَاتِ وَلاَ في الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ [يونس : ١٨] .

وكذلك/كان حالُ الأمم السالفة المشركين الذين كَذَّبوا الرسلَ كما حكى الله تعالى عنهم في قصة صالحٍ عليه السلام عن التسعة الرَّهْطِ الذين تقاسمُوا بالله ـ أي : تحالفوا بالله ـ لنبيتنّه وأهله . فهٰؤلاء المفسدون المشركون تحالفُوا بالله على قتل نبيهم وأهله ، وهذا بَيِّنٌ أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمانَ المشركين . ٧/أ

فَعُلِمَ أن التوحيدَ المطلوبَ : هو توحيد الإلٰهية ، الذي يتضمن توحيدَ الربوبية ، قال تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْـرَةَ الله الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ المُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقوا دِيْنَهمُ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * وَإذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنيبينَ إلَيْهِ ثُمَّ إذا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ

(*) في مطبوعة مكة : اتخذوا هذه الوسائط .

بِمَا كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ * وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بها وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم : ٣٠ ـ ٣٦] وقال تعالى : ﴿أَفي الله شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ﴾ [إبراهيم : ١٠] وقال ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ »[١٠] ولا يقال : إن معناه يُولَد سَاذَجاً لا يعرف توحيداً ولا شركاً ، كما قال بعضهم ـ لما تلونا .

ولِقوله ﷺ فيما يَروي عن ربِّه عز وجل «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم ، فَاجْتَالَتْهُم الشَّيَاطِينُ» الحديث[١١] .

وفي الحديث المتقدِّم ما يدل على ذلك حيث قال : « يُهَـوِّدَانِهِ و يُنَصِّرَانِهِ ويُمَـجِّسَانِهِ » ولم يقل : ويُسْلِمانِهِ ، وفي رواية «يُولَدُ على المِلَّةِ» وفي أخرى : «عَلَى هٰذِهِ المِلَّةِ »[١٢] .

وهذا الذي أخبر به ﷺ هو الذي تشهدُ الأدِلَّة العقليةُ بصدقه .

منها : أن يُقال : لا ريبَ أن الإنسان قد يحصُل له من الاعتقادات

---

(١٠) رواه البخاري ١٦٧/٣ في الجنائز: باب إذا أسلم الصبي و١٩٧/٣ باب ما قيل في أولاد المشركين ، و٣٩٤/٨ في التفسير : باب ومن سورة الروم ، و٤٣٢/١١ في القدر : باب الله أعلم بما كانوا يعملون ، ومسلم رقم (٢٦٥٨) في القدر : باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، والترمذي رقم (٢١٣٩) في القدر: باب كل مولود يولد على الملة ، وأبو داود رقم (٤٧١٤) في السنة : باب ذراري المشركين ، وأحمد في «المسند» ٢٣٣/٢ و ٢٧٥ و ٣٩٣ و ٤١٠ و ٤٨١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وتمامه : «كما تُنْتَجُ البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤ وا إن شئتم ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله . . .﴾ .

(١١) جزء من حديث طويل رواه مسلم رقم (٢٨٦٥) في الجنة وصفة نعيمها، وأحمد في «المسند» ١٦٢/٤ من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه .

ومعنى : اجتالتهم : استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه ، وجالوا معهم في الباطل . قال شمر : اجتال الرجل الشيء ذهب به ، واجتال أموالهم : ساقها وذهب بها .

(١٢) كلتاهما من رواية مسلم .

والإرادات ، ما يكون حقاً . وتارة ما يكون باطلاً ، وهو حساسٌ متحرك بالارادة ، فلا بُد له من أحدهما ، ولا بُدَّ له مِن مرجِّح لأحدهما ، ونعلم أنه إذا عُرِضَ على كُلِّ أحد أن يُصدِّق وينتفع ، وان يُكذِّب ويتضرَّر ، مال بفطرته إلى أن يُصدَّقَ وينتفِعَ ، وحينئذ فالاعترافُ بوجود الصانع والإيمانُ به هو الحقُّ أو نقيضُه ، والثاني فاسد قطعاً ، فتعين الأول ، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفةَ الصانع والإيمانَ به ، وبعد ذلك : إما أن تكون محبتُه أنفعَ للعبد أو لا ، والثاني فاسد قطعاً ، فوجب أن يكون في فطرته محبة ما ينفعه .

ومنها : أنه مفطور على جلب المنافع ، ودفعِ المضار بحسِّه ، وحينئذ لم تكن فطرة كل واحد مستقلة بتحصيل ذلك ، بل يحتاج الى سبب مُعينٍ للفطرة ، كالتعليم ونحوه ، فاذا وُجِدَ الشرط وانتفى المانع ، استجابت لما فيها من المقتضي لذلك .

ومنها : أن يقال : من المعلوم أن كُلَّ نفس قابلةٌ للعلم وإرادة الحق ، ومجردُ التعليم والتحضيض لَا يُوجب العلم والإرادة ، لولا أن في النفس قوةً تقبل ذلك ، وإلا فلو عُلِّم الجماد(*) والبهائم وحُضَضا لم يقبلا . ومعلوم أن حصولَ إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من خارج ، ويكون الذاتُ كافيةً في ذلك ، فإذا كان المقتضي قائماً في النفس ، وقُدِّر عدمُ المعارض ،/فالمقتضي السالم عن المعارض يُوجب مقتضاه ، فعُلِمَ أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها ما يفسدها ، كانت مقرَّةً بالصانع عابدةً له . ٧/ب

ومنها : أن يُقال : إنه إذا لم يحصل المفسد الخارج ، ولا المصلح الخارج ، كانت الفطرةُ مقتضيةً للصلاح ، لأن المقتضي فيها للعلم والإرادة قائم ، والمانع منتفٍ .

ويُحكى عن أبي حنيفة رضي الله عنه : أن قوماً من أهل الكلام أرادوا

(*) في مطبوعة مكة : الجهال .

البحث معه في تقرير توحيد الربوبية ، فقال لقومه : أخبروني - قبل أن نتكلم في هذه المسألة - عن سفينة في دِجلة ، تذهب ، فتمتلىء من الطعام والمتاع وغيره بنفسها ، وتعودُ بنفسها ، فترسي بنفسها وترجع ، كل ذلك من غير أن يدبِّرها أحد ؟ فقالوا : هذا محال لا يُمكن أبداً ! فقال لهم : إذا كان هذا محالاً في سفينة ، فكيف في هذا العالم كُلِّه عُلوهِ وسُفْلِهِ ؟ ! وتحكى هذه الحكاية عن غير أبي حنيفة أيضاً .

فلو أقر الرجل بتوحيد الربوبية ، الذي يُقِرُّ به هؤلاء النُّظَّار ، ويفنى فيه كثيرٌ من أهل التصوف ، ويجعلونه غاية السالكين ، كما ذكره صاحب «منازل السائرين»(*) وغيره ، وهو مع ذلك إن لم يعبد الله وحده ، ويتبرأ من عبادة ما سواه ، كان مشركاً من جنس أمثاله من المشركين .

والقرآن مملوء مِن تقرير هذا التوحيد ، وبيانِه ، وضرب الأمثال له . ومن ذلك أنه يُقرِّر توحيدَ الربوبية ، ويُبيِّن أنه لا خالِقَ إلا الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبَد إلا الله ، فيجعل الأول دليلاً على الثاني ، إذ كانوا يُسلِّمون للأول ، ويُنازعون في الثاني ، فيبين لهم سبحانه أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده ، وانه هو الذي يأتي العباد بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرُّهم ، لا شريكَ له في ذلك ، فَلِمَ تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهةً أخرى ؟ ! كقوله تعالى :﴿ قُلِ الحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ، ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

(*) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور الأنصاري ، الهروي ، الحنبلي ، أصولي ، محدث ، مفسر ، ولد بقندهار سنة ٣٩٦ هـ ، وكان شديداً على أهل البدع امتحن وأوذي وسمع يقول : « عُرضت عليّ السيف خمس مرات ، لا يقال لي : ارجع عن مذهبك ، ولكن يقال لي : اسكت عمن خالفك ، فأقول : لا أسكت » . من تصانيفه : « منازل السائرين إلى الحق المبين » - وقد شرحه ابن القيم رحمه الله وسماه « مدارج السالكين » - . و « الفاروق في الصفات » و « مناقب الإمام أحمد بن حنبل » . توفي رحمه الله تعالى في ذي الحجة سنة ٤٨١ هـ بهراة .

بِهِ حدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجرَهَا أَإِلهٌ مَعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . . ﴾ الآيات [النمل : ٥٩ ـ ٦٠] .

يقول الله تعالى في آخرُ كلِّ آية ﴿أَإِلَهٌ مَعَ الله﴾ أي : أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهام إنكار ، يتضمَّن نفي ذلك ، وهم كانوا مقرِّين بأنه لم يفعل ذلك غير الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى أنه استفهام : هَلْ مع الله إله ، كما ظَنَّهُ بعضهم ، لأن هذا المعنى لا يُناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى ، كما قال تعالى : ﴿أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ الله آلهةً أُخْرى قُلْ لَا أَشْهدُ﴾ [الأنعام : ١٩] . وكانوا يقولون : ﴿أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحِداً إنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ﴾ [ص : ٥] . لكنهم ما كانوا يقولون : إن مَعَه إلهاً ﴿جعَلَ الأَرض قَراراً وجَعَلَ خِلالَها أنهاراً وَجَعَلَ لَها رَوَاسِيَ وجعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً﴾ [النمل : ٦١] ، بل هم مُقُّرون بأن الله وحده فعل هذا ، وهكذا سائرُ الآيات .

وكذلك قوله تعالى : ﴿يا أَيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ [البقرة : ٢١] ، وكذلك قولُه في سورة الأنعام : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إلهُ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الانعام : ٤٦] وأمثال ذلك .

وإذا كان توحيدُ/الربوبية الذي يجعله هؤلاء النُّظَّارُ ، ومن وافقهم من الصوفية هو الغاية في التوحيد : داخلاً في التوحيد الذي جاءت به الرسلُ عليهم السلام ، ونزلت به الكتبُ، فليعلم أن دلائله متعددة ، كدلائل إثبات الصانع ، ودلائل صدق الرسول ، فإنَّ العلم كلما كان الناس إليه أحوجَ ، كانت أدلته أظهرَ ، رحمة من الله بخلقه . ٨/أ

والقرآنَ قد ضرب الله للناس فيه من كل مَثل ، وهي المقاييس العقلية

المفيدة للمطالب الدينية ، لكن القرآن يُبيِّنُ الحقَّ في الحكم والدليل ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ وما كان من المقدِّمات معلومةً ضروريةً متفقاً عليها ، استُدِلَّ بها ، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها .

والطريقة الفصيحة في البيان أن تحذف ، وهي طريقة القرآن ، بخلاف ما يدَّعيه الجهال ، الذين يظنون أن القرآن ليس فيه طريقة برهانية ، بخلاف ما قد يشتبه ويقع فيه نزاع ، فإنه يُبيِّنُه ويدل عليه .

ولما كان الشرك في الربوبية معلومَ الامتناع عند الناس كُلِّهم ، باعتبار إثبات خالِقَيْنِ متماثِلَيْن في الصفات والأفعال ، وإنما ذهب بعضُ المشركين إلى أن ثَمَّ خالقاً خلق بعضَ العالم ، كما يقوله الثنوية في الظلمة ، وكما يقوله القدرية في أفعال الحيوان ، وكما يقوله الفلاسفة الدُّهرية في حركة الأفلاك ، أو حركات النفوس ، أو الأجسام الطبيعية ، فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدَثة بدون إحداث الله إياها ، فهم مشركون في بعض الرُّبوبية ، وكثير من مشركي العرب وغيرهم قد يظنُّ في آلهتِه شيئاً من نَفْعٍ أو ضُرٍّ ، بدون أن يَخْلُقَ الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجوداً في الناس ، بيَّن القرآن بطلانه ، كما في قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ الله مِنْ وَلَدٍ ومَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إلٰهٍ إذاً لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون : ٩١] . فتأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر ، فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقاً فاعلاً ، يوصل إلى عابده النَّفْع ، ويدفعُ عنهم الضُّرَّ ، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركُه في ملكه ، لكان له خلقٌ وفعل ، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة ، بل إن قَدَرَ على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل ، وإن لم يَقْدِر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق ، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكه ، وإذا لم يقدر المنفردُ منهم على

قهر الآخر والعلو عليه ، فلا بد من أحد ثلاثة أمور :

إما أن يذهب كُلُّ إله بخلقه وسلطانه .

وإما أن يعلو بعضهم على بعض .

وإما أن يكونوا تحت قهر إلهٍ واحد يتصرَّفُ فيهم كيف يشاء ، ولا يتصرفون فيه ، بل يكون وحدَه هو الإله الحق ، وهم العبيدُ المربوبون المقهورون من كل وجه .

وانتظام أمر العالم كلِّه، وإحكامُ أمره ، من أدل دليل على أن مدبِّره إله واحد ، ومَلِكٌ واحد ، وربٌّ واحد ، لا إله للخلق غيره ، ولا رب لهم سواه . كما قد دلَّ دليلُ التمانع على أن خالق العالم واحد ، لا رب غيره ولا إله سواه ، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع في العبادة والإلهية ، فكما يستحيلُ أن يكون للعالم ربّان خالقان متكافئان ، كذلك يستحيل أن يكونَ لهم إلهان معبودان .

فالعِلم بأن وجود/العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لِذاته ، مستقر في الفِطَر ، معلوم بصريح العقل بُطلانُه ، فكذا تبطل إلهية اثنين . ٨/ب

فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفِطَر من توحيد الربوبية ، دالة مثبتة ملزمة(*) لتوحيد الإلهية .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إلا الله لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

وقد ظن طوائفُ أن هذا دليل التمانع الذي تقدَّم ذِكْره ، وهو أنه لو كان للعالم صانعان . . إلخ ، وغَفَلُوا عن مضمون الآية ، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كان فيهما آلهةٌ غيره ، ولم يقل : أرباب .

(*) في مطبوعة مكة : مستلزمة .

وأيضاً فإن هذا إنما هو بعد وجودهما ، وأنه لو كان فيهما وهما موجودتان آلهة سواه لفسدتا .

وأيضاً فإنه قال : ﴿لَفَسَدَتَا﴾ ، وهذا فساد بعد الوجود ، ولم يقل : لم يوجدا . ودلَّت الآية على أنه لا يجوز أن يكون فيهما آلة متعددة ، بل لا يكون الإله إلاَّ واحداً ، وعلى أنه لا يجوز أن يكون هذا الإله الواحد إلا الله سبحانه وتعالى ، وأن فساد السماوات والأرض يلزم من كون الآلهة فيهما متعددة ، ومِنْ كون الإله الواحد غير الله ، وأنه لا صلاح لهما إلا بأن يكون الإله فيهما هو الله وحده لا غيره ، فلو كان للعالم إلٰهان معبودان ، لفسد نظامُهُ كُلُّه ، فإن قيامه إنما هو بالعدل ، وبه قامت السَّماوات والأرض . وأظلمُ الظُّلْم على الإطلاق الشركُ ، وأعدَلُ العدلِ التوحيدُ .

وتوحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس ، فمن لا يَقْدِرُ على أن يخلق يكون عاجِزاً ، والعاجز لا يصلُح أن يكون إلٰهاً قال تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُون ﴾ [الأعراف : ١٩١] .وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرون ﴾ [النحل : ١٧] . وكذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذاً لابْتَغَوا إلى ذي العَرْشِ سَبيلاً ﴾ [الاسراء : ٤٢] .

وفيها للمتأخرين قولان : أحدهما : لاتخذوا سبيلاً الى مغالبته . والثاني : وهو الصحيح المنقول عن السلف ، كقتادة وغيره ، وهو الذي ذكره ابن جرير ولم يذكر غيره : لاتخذوا سبيلاً بالتقرب إليه ، كقوله تعالى : ﴿إنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إلى رَبِّهِ سَبِيلاً) [الدهر : ٢٩] . وذلك أنه قال ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَما يَقُولُونَ﴾ وهم لم يقولوا : إن العالم له صانعان ، بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء ، وقالوا : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقرِّبونا الى الله زُلْفى﴾ [الزمر : ٣] ، بخلاف الآية الأولى .

* * *

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان : توحيد في الإثبات والمعرفة ، وتوحيد في الطلب والقصد .

فالأول : هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ليس كمثله شيء في ذلك كُلِّه ، كما أخبر به عن نفسه ، وكما أخبر رسوله ﷺ . وقد أفصح القرآن عن هذا [النوع](*) كُلَّ الإفصاح ، كما في أول ﴿الحديد﴾ و﴿ طـه ﴾ وآخر ﴿ الحشـر ﴾ وأول ﴿ آلم تنـزيـل السجـدة ﴾ وأول ﴿ آل عمران ﴾ وسورة ﴿ الإخلاص ﴾ بكمالها ، وغير ذلك .

والثاني : وهو توحيد الطلب والقصد ، مثل ما تضمنته سورة ﴿ قُلْ يَا أيُّها الكافرون ﴾ ، و﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوْا إِلَى كَلِمةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكم ﴾ [آل عمران : ٦٤] ، وأول سورة ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتابِ ﴾ وآخرها ، وأول سورة ﴿ يونس ﴾ وأوسطها وآخرها ، وأول سورة ﴿ الأعراف ﴾ وآخرها ، وجملة سورة ﴿ الأنعام ﴾ .

وغالبُ سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد، بل كل سورة من القرآن. فالقرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو التوحيدُ العِلمي الخبري ، وإما دعوةٌ إلى عبادته وحدَه لا شريكَ له ، وخلعُ ما يُعبَدُ من دونه ، فهو التوحيدُ الإرادي الطلبي . وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته ، فذلك من حقوق التوحيد ومكمِّلاته . وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده ، وما فعل بهم في الدنيا وما يُكرمهم به في الآخرة ، فهو جزاء توحيده ، وإما خبر عن أهل الشرك ، وما فعل بهم في الدنيا من النكال ، وما يحلُّ بهم في العقبى من العذاب ، فهو جزاء مَنْ خرج عن حكم التوحيد .

فالقرآن كُلُّه في التوحيد وحقوقه وجزائِه ، وفي شأن/الشركِ وأهله وجزائهم . فـ ﴿ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ ﴾ توحيد ، ﴿ الرَّحْمٰنِ الرَّحيمِ ﴾ توحيد ، ﴿ مالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ توحيد ، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد ، ٩/أ

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيمَ ﴾ توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد ، ﴿ الَّذينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمُ ﴾ ، ﴿ غيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّين ﴾ الذين فارقوا التوحيد .

وكذلك شهِدَ الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله : قال تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ والمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُـوَ العَزِيـزُ الحَكِيمُ * إِنَّ الدِّينَ عِنْـدَ الله الإِسْلاَمُ ﴾ [آل عمران : ١٨ ـ ١٩] . فتضمنت هذه الآية الكريمةُ إثبات حقيقة التوحيد ، والرد على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجلَّ شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها ، من أجلِّ شاهد ، بأجلِّ مشهود به .

وعبارات السلف في ﴿ شهد ﴾ تدور على الحكم والقضاء ، والإعلام ، والبيان ، والإخبار ، وهذه الأقوال كُلُّها حق لا تنافي بينها : فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره ، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه ، فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ، وإن لم يُعْلِمْ بِهِ غَيْرَهُ ، بل يتكلم هو به مع نفسه ويذكرها وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يُعْلِمَ غيرَهُ بها يشهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

ورابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع : علمه سبحانه بذلك ، وتكلمه به ، وإعلامه ، وإخباره خلقه به ، وأمرهم وإلزامهم به .

فأما مرتبة العلم ، فإن الشهادة بالحق تضمنتها ضرورةً ، وإلا كان

الشاهد شاهداً بما لا علم له به . قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وهُمْ يَعْلمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] . وقال ﷺ : « عَلَى مِثْلِهَا فَاشْهَدْ »[١٣] ، وأشار إلى الشمس .

وأما مرتبة التكلم والخبر ، فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا الملائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمٰنِ إناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] فجعل ذلك منهم شهادة ، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة ولم يُؤَدُّوها عند غيرهم .

وأمَّا مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان : إعلام بالقول ، وإعلام بالفعل . وهذا شأن كل مُعلمٍ لغيره بأمر : تارةً يُعْلِمُهُ به بقوله ، وتارة بفعله . ولهذا كان من جعل داره مسجداً وفتح بابها وأفرزها بطريقها ، وأَذِنَ للناس بالدخول والصلاة فيها : مُعْلِماً أنها وقف ، وإن لم يتلفظ به . وكذلك من وجد متقرباً إلى غيره بأنواع المسارِّ ، يكون مُعْلِماً له ولغَيرِهِ أنه يحبه ، وإن لم يتلفظ بقوله ، وكذلك بالعكس .

وكذلك شهادةُ الربِّ عزَّ وجل وبيانُه وإعلامُه ، يكون بقوله تارة ، وبفعله أخرى ، فالقول : هو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه . وأمّا بيانه وإعلامه بفعله فكما قال ابن كيسان : شهد الله بتدبيره العجيب ، وأموره المحكمة عند خلقه : أنه لا إله إلا هو ، وقال آخر(*) :

وفي كُلِّ شيءٍ لَهُ آيةٌ ... تدُلُّ عَلى أنّهُ واحدُ

(١٣) في سنده محمد بن سليمان المسمولي ضعفه النسائي وأبو حاتم وابن عدي والحميدي . وصححه الحاكم في « المستدرك » ٤/٩٨، قال الحافظ ابن حجر في « بلوغ المرام » رقم (١٤٣٣) : وصححه الحاكم فأخطأ . ولفظه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الشهادة ، فقال : « هَلْ تَرَىٰ الشَّمْسَ ؟ » قال : نعم ، قال : « عَلَى مِثْلِها فَاشْهَدْ ، أَوْ دَعْ » .

(*) هو أبو العتاهية اسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان مولى عنزة والبيت في الأغاني ٤/ ٣٥ وقبله :

فيا عجباً كيف يعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاهد

ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل قولُه تعالى : ﴿ ما كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُروا مَساجِدَ الله شَاهِدِينَ على أنفُسِهِمْ بالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٧] فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه .

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالةً عليه ، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله .

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به ، وإن كان مجرد الشهادة لا يستلزمه ، لكن الشهادة في هذا الموضع تدُلُّ عليه وتتضمنه ، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به ، وقضى وأمر ، وألزمَ عباده به ، كما قال تعالى : ﴿ وقَضَى رَبُّك أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وقال [الله] تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُوا إلٰهينِ اثْنَيْنِ ﴾ [النحل: ٥١) . وقال تعالى : ﴿ ومَا أُمِروا إلَّا ليَعْبُدُوا الله مُخْلِصينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البيِّنة : ٥] . وقال تعالى : ﴿ ومَا أُمِرُوا إلَّا لِيعْبُدُوا إلٰهاً واحِداً ﴾ [التوبة : ٣١] .

وقال تعالى : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ ﴾ [الإسراء : ٣٩] . وقال تعالى :﴿ ولَا تَدْعُ مَعَ الله إلٰهاً آخَرَ ﴾ [القصص : ٨٨] . والقرآن كُلُّه شاهد/ بذلك . ٩/ب

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك : أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ، فقد أخبر وبيَّن وأعلم وحكم وقضى أنَّ ما سواه ليس بإله ، وأن إلٰهيَّة ما سواه باطلة ، فلا يستحق العبادة سواه ، كما لا تصلح الإلٰهيَّةُ لغيره ، وذلك يستلزمُ الأمر باتخاذه وحده إلٰهاً ، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلٰهاً ، وهذا يفهمه المخاطَبُ من هذا النفي والإثبات ، كما إذا رأيتَ رجلاً يستفتي رجلاً ، أو يستشهده ، أو يستطبّه وهو ليس أهلاً لِذلك ، ويَدعُ من هو أهل له ، فتقول : هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب ، المفتي فلان ، والشاهد فلان ، والطبيبُ فلان ، فإن هذا أمر منه ونهي .

وأيضاً : فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة ، فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة ، تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الربُّ تعالى عليهم ، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم .

وأيضاً : فلفظ « الحكم » و « القضاء » يستعمل في الجملة الخبرية ، ويقال للجملة الخبرية : قضية ، وحكم ، وقد حكم فيها بكذا ، قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [الصافات : ١٥١ ـ ١٥٤] . فجعل هذا الإخبار المجرَّد منهم حكماً، وقال تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم : ٣٥ ـ ٣٦] . لكن هذا حكم لا إلزام معه ، والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمِّن للإلزام .

ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها ، ولم ينتفعوا بها ، ولم تقُمْ عليهم بها الحجةُ ، بل قد تضمنت البيانَ للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به ، كما أن الشاهدَ مِن العباد إذا كانت عنده شهادة ، ولم يُبينها ، بل كتمها ، لم ينتفع بها أحد ، ولم تقم بها حجةٌ .

وإذا كان لا يُنتفع بها إلا ببيانها ، فهو سبحانه قد بيَّنها غاية البيان بطرق ثلاثة : السمعِ ، والبصر ، والعقل .

أما السمعُ : فبسمع آياتِه المتلوَّة المبينة لما عرفنا إياه مِن صفات كماله كلِّها ، الوحْدانيةِ وغيرها ، غاية البيان ، لا كما يزعمُه الجهميةُ ومَنْ وافقهم من المعتزلة ومُعطِّلة بعض الصفات مِن دعوى احتمالات تُوقع في الحيرة ، تُنافي البيانَ الذي وصف الله بِه كتابَه العزيز ورسولَه الكريم ، كما قال تعالى : ﴿حمٓ * وَالكِتَابِ المُبِينِ ﴾[الزخرف : ١ ـ ٢] . ﴿الٓر * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ﴾ [يوسف : ١ ـ ٢] . ﴿الٓر * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾[الحجر : ١] . ﴿هٰذَا

بيانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٨] . ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة : ٩٢ والتغابن : ١٢] . ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل : ٤٤] .

وكذلك السنةُ تأتي مبينة أو مقرِّرة لما دلَّ عليه القرآن ، لم يُحوجْنا ربُّنا سبحانه وتعالى إلى رأي فلان ، ولا إلى ذوق فلان ووجده في أصول ديننا .

ولهذا نَجِدُ مَنْ خَالف الكِتابَ والسنة مختلفين مضطربين ، بل قد قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي ورَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة : ٣] . فلا يحتاج في تكميله إلى أمر خارج عن الكتاب والسنة .

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ أبو جعفر الطحاوي رحمه الله تعالى فيما يأتي من كلامه بقوله : لَا نَدْخُلُ في ذلك متأوِّلين بآرائنا، ولا متوهِّمين بأهوائنا(*) فإنه ما سلِم في دينه إلا من سلَّمَ لله عزَّ وجلَّ ولرسولهِ ﷺ .

وأما آياتُه العيانية الخلقية : فالنظرُ فيها والاستدلالُ بها يدل على ما تدُلُّ عليه آياتُه القولية السمعية ، والعقلُ يجمع بين هٰذه وهذه ، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسلُ ، فتتفق شهادةُ السمع والبصر والعقل والفطرة .

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومجبته للعذر وإقامته الحُجة لم يبعث نبياً من الأنبياء إلَّا ومعه آية تَدُلُّ على صِدقه فيما أخبر به ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ وأَنْزَلنا معهُمُ الكِتابَ والميزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] . وقال تعالى : ﴿ ومَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إلَّا رِجالاً نُوحي إليهم فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُون * بالبيِّنَاتِ والزُّبُر ﴾

(*) انظر ص ١٦٣ وما بعدها .

[النحل : ٤٣ ـ ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بالْبَيِّناتِ وبالَّذِي قُلْتُم﴾/[آل عمران : ١٨٣] . وقال تعالى : ﴿ فإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بالْبَيِّنَاتِ والزُّبُر والْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [آل عمران : ١٨٤] . وقال تعالى : ﴿ الله الَّذي أَنْزَلَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ والمِيْزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] .

١٠/أ

حتى إن من أخفى آيات الرسل آياتِ هود عليه السلام ، حتى قالَ له قومُه ﴿ يا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَة ﴾ ومع هذا فبيِّنتُه من أوضح البينات لمن وفَّقه الله لتدبرها ، وقد أشار إليها بقوله : ﴿ إني أُشْهِدُ الله واشْهَدُوا أَنِّي بريءٌ ممَّا تُشْرِكون * مِنْ دُونِهِ فَكِيدوني جَمِيعاً ثُمَّ لا تُنْظِرونِ * إني تَوكَّلتُ عَلَى الله ربِّي ورَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنَّ ربِّي على صِراطٍ مُسْتَقيمٍ ﴾ [هود : ٥٤ ـ ٥٦] . فهذا من أعظم الآيات : أن رجلاً واحداً يُخاطب أمةً عظيمة بهذا الخطاب ، غير جزعٍ ولا فزع ولا خوار ، بل هو واثق بما قاله، جازم به ، فأشهدَ الله أولاً على براءته من دينهم ، وما هم عليه من إشهاده واثق به معتمدٍ عليه، معلمٍ لقومه أنه وليُّه وناصرُه وغير مسلِّطهم عليه ، ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة أنه بريءٌ من دينهم وآلهتهم التي يُوالون عليها ، ويُعادون عليها ، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نُصرتهم لها ، ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة بهم ، واحتقارهم وازدرائهم ، لو يجتمعون كلُّهم على كيده وشفاء غيظهم منه ، ثم يعاجلونه ولا يُمهلونه ، [لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه](*) ، ثم قرر دعوتهم أحسنَ تقرير ، وبَين أن ربَّه تعالى وربَّهم الذي نواصيهم بيده هو وليه ووكيله القائم بنصره وتأييده ، وأنه على صراط مستقيم ، فلا يخذُل من توكَّل عليه وأقر به ، ولا يُشمتُ به أعداءه .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

فأيُّ آية وبيان أحسن من آيات الأنبياء عليهم السلام وبراهينهم وأدلتهم ؟ وهي شهادة من الله سبحانه لهم ، بَيَّنَها لعباده غاية البيان .

ومن أسمائه تعالى « المؤمن » وهو في أحد التفسيرين : المصدِّق الذي يصدق الصادقين بما يُقيم لهم مِن شواهد صدقهم ، فإنه لا بُدَّ أن يُريَ العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يُبيِّن لهم أن الوحي الذي بلَّغه رسولُه حق ، قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِم آياتِنَا في الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حتى يَتبيَّن لهم أَنَّهُ الحقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] أي : القرآن ، فإنه هو المتقدمُ في قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ الله ﴾ [فصلت : ٥٢] . ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكفِ بِرَبِّك أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت : ٥٣] . فشهد سبحانه لرسوله بقوله أن ما جاء به حق ، ووعد أنه يُري العباد من آياته الفعلية الخَلقية ما يشهد بذلك أيضاً ، ثم ذكر ما هو أعظمُ من ذلك كُلِّه وأجلُّ ، وهو شهادته سبحانه بأنه على كل شيء شهيد ، فإن من أسمائه الشهيدَ الذي لا يغيبُ عنه شيء ، ولا يَعْزُب عنه ، بل هو مُطَّلع على كل شَيءٍ مشاهد له ، عليم بتفاصيله .

وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، والأول استدلال بقوله وكلماته ، واستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته .

فإن قلت : كيف يُستدل بأسمائه وصفاته ، فإن الاستدلالَ بذلك لا يعهد في الاصطلاح ؟

فالجواب : أن الله تعالى قد أَودع في الفطرة التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل ، ولا بالتشبيه والتمثيل ، أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته ، وأنَّه الموصوفُ بما وصف به نفسَه ووصفَه به رسلُه ، وما خفي عن الخلق من كماله أعظمُ وأعمق مما عرفوه منه .

ومن كماله المقدَّس شهادته على كل شيء واطلاعه عليه ، بحيث لا يغيب عنه ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض باطناً وظاهراً ، ومَنْ هذا شأنُه

كيف يليقُ بالعِباد أن يُشركوا به ، وأن يعبدُوا غيرَه ويجعلوا معه إلهاً آخر ؟ وكيف يليقُ بكماله أن يقرَّ من يكذِبُ عليه أعظمَ الكذب ، ويخبرَ عنه بخلاف ما الأمرُ عليه ، ثم ينصرَه على ذلك ويؤيدَه ويُعْليَ شأنه ويُجيبَ دعوته ، ويهلكَ عدوَّه ، ويظهر على يديْهِ من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوى البشر ، وهو مع ذلك كاذب عليه مفتر ؟!

ومعلوم أن شهادته سبحانه على كل شيء وقدرتَه وحِكمته وعزَّته وكماله المقدس يأبى ذلك ، ومن جوَّز ذلك ، فهو مِن أبعد الناس عن معرفته .

والقرآن مملوء من هٰذه الطريق ، وهي طريق الخواص ، يستدِلُّون بالله على أفعاله وما يليق به أن يفعله وما لا يفعله ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ/حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٧] . وسيأتي لذلك زيادة بيان إن شاء الله تعالى . ١٠/ب

ويُستدل أيضاً بأسمائه وصفاته على وحدانيته وعلى بُطلان الشرك كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الحشر : ٢٣] . وأضعاف ذلك في القرآن .

وهٰذه الطريق قليل سالكها ، لا يهتدي إليها إلا الخواصُّ . وطريقةُ الجمهور الاستدلال بالآيات المشاهدة ، لأنها أسهلُ تناولاً وأوسع ، والله سبحانه يُفَضِّلُ بعضَ خلقه على بعض .

فالقرآن العظيم قد اجتمع فيه ما لم يجتمع في غيره، فإنه الدليلُ والمدلولُ عليه ، والشاهد والمشهودُ له قال تعالى لمن طلب آية تدل على صِدق رسوله : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الآيات [العنكبوت : ٥١] .

وإذا عرف أن توحيدَ الإلٰهية هو التوحيدُ الذي أرسِلَتْ به الرُّسُل وأنزِلت به الكُتب ، كما تقدَّمت إليه الإشارةُ ، فلا يُلتفت إلى قول من قسم التوحيد إلى ثلاثة أنواع ، وجعل هذا النوعَ توحيدَ العامَّة ، والنوعَ الثاني توحيدَ الخاصة ، وهو الذي يَثْبُتُ بالحقائق ، والنوعُ الثالثُ توحيد قائم بالقِدم ، وهو توحيد خاصَّة الخاصَّة ، فإن أكملَ الناس توحيداً الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم ، والمرسلون منهم أكملُ [في ذلك](*) ، وأولو العزمِ من الرسل أكملُهُم توحيداً ، وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، صلى الله وسلم عليهم أجمعين .

وأكملهُم توحيداً الخليلان : محمد وإبراهيم صلوات الله عليهما وسلامه ، فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرُهما علماً ، ومعرفةً ، وحالاً ، ودعوةً للخلق وجهاداً ، فلا توحيد أكملُ من الذي قامت به الرسلُ ، ودَعوا إليه ، وجاهدُوا الأمم عليه ، ولهذا أمر سبحانه نبيَّه ﷺ أن يقتديَ بهم فيه ، كما قال تعالى بعد ذكر مناظرة إبراهيم قومَه في بُطلانِ الشرك ، وصحةِ التوحيد وذكر الأنبياءِ من ذريته : ﴿أُولئك الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُداهُمُ اقْتَدِه﴾ [الأنعام : ٩٠] . فلا أكمل من توحيد من أُمِرَ رسولُ الله ﷺ أن يقتديَ بهم .

وكان صلَّى الله عليه وسلم يُعلِّم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا : « أَصْبَحْنَا عَلَى فِطْرةِ الإسْلَامِ ، وكَلِمَةِ الإخْلاصِ ، وَدينِ نَبِيِّنا مُحَمَّدٍ، ومِلَّةِ أبِينَا إبْراهيم حَنِيفاً مُسْلماً ومَا كَانَ مِنَ المُشرِكين »(١٤) .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(١٤) رواه الدارمي رقم (٢٦٩١) في الاستئذان : باب ما يقول اذا أصبح ، وأحمد في «المسند» ٤٠٦/٣ و ٤٠٧ ، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٣٤) من حديث عبد الرحمن بن أبـزي رضي الله عنه ، وإسناده صحيح ، كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في «الأذكار» رقم (٢٣٤) من طبعتنا.

فمِلَّة إبراهيم : التوحيد ، ودينُ محمد ﷺ : ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً ، وكلمةُ الإخلاص : هي شهادة أن لا إله إلا الله ، وفطرة الإسلام : هي ما فَطَر عليه عباده من محبته وعبادته وحدَه لا شريكَ له ، والاستسلام له عبوديةً وذلاً وانقياداً وإنابة .

فهذا توحيد خاصة الخاصة الذي مَن رَغِبَ عنه ، فهو مِن أسفهِ السُّفهاءِ ، قال تعالى : ﴿ ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَد اصْطَفَيْناهُ في الدُّنْيا وإنَّهُ في الآخرَةِ لَمِنَ الصَّالِحينَ * إذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣٠ ـ ١٣١] . وكل من له حسٌّ سليم ، وعقلٌ يميز به ، لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهلِ الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة ، بل ربما يقع بسببها في شكوك وشُبه يحصُلُ له بها الحيرة والضلال والريبة ، فإن التوحيدَ إنما ينفع إذا سلِم قلبُ صاحبه من ذلك ، وهذا هو القلبُ السليم الذي لا يُفلح إلا من أتى الله به .

ولا شك أن النوعَ الثاني والثالثَ من التوحيد ، الذي ادَّعوا أنه توحيد الخاصة وخاصة الخاصة ، ينتهي إلى الفناء الذي يشمِّر إليه غالبُ الصوفية ، وهو دربٌ خَطِرٌ ، يُفضي إلى الاتحاد ، انظر/إلى ما أنشد شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري رحمه الله تعالى حيث يقول : ١١/أ

ما وحَّدَ الواحِدَ مِنْ وَاحِدٍ ... إذْ كُلُّ مَنْ وحَّدهُ جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يَنْطِقُ عَنْ نَعْتِهِ ... عارِيَّةٌ أَبْطَلَهَا الوَاحِدُ
تَوْحِيدُهُ إيَّاهُ تَوْحِيدُهُ ... ونَعْتُ مَنْ يَنْعَتُهُ لاَحِدُ(*)

وإن كان قائله رحمه الله لم يُرد به الاتحادَ ، لكن ذكر لفظاً مجملاً محتملاً جذبه به الاتحادي إليه ، وأقسم بالله جَهْدَ أيمانِه إنه معه ، ولو سلك

(*) انظر ما قاله ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين» ٣/٥١٨ على هذه الأبيات .

الألفاظ الشرعية التي لا إجمال فيها كان أحقَّ ، مع أن المعنى الذي حام حوله لو كان مطلوباً منا ، لنبه الشارعُ عليه ، ودعا الناس إليه وبيَّنَهُ ، فإن على الرسول البلاغَ المبين ، فأين قال الرسولُ : هذا توحيدُ العامة ، وهذا توحيدُ الخاصة ، وهذا توحيدُ خاصة الخاصة ؟ أو ما يقرب من هذا المعنى ؟ أو أشار إليه ، فهذه النقول والعقول حاضرة .

فهذا كلامُ الله المنزل على رسوله ﷺ، وهذه سنةُ الرسول ، وهذا كلامُ خيرِ القرون بعد الرسول ، وسادات العارفين من الأئمة ، هل جاء ذِكرُ الفناءِ فيها ، وهذا التقسيمُ عن أحد منهم ؟ وإنما حصل هذا من زيادة الغلوِّ في الدين ، المُشبه لِغُلوِّ الخوارج ، بل لِغُلُوِّ النصارى في دينهم ، وقد ذمَّ الله تعالى الغلوَّ في الدين ونهى عنه ، فقال : ﴿ يا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُو في دِينكُمْ وَلَا تقُولُوا علَى اللهِ إلَّا الحقَّ ﴾ [النساء : ١٧١] ﴿ قُلْ يَا أَهْل الكِتابِ لَا تَغْلُو في دِينكُم غيْرَ الحقِّ وَلَا تتَّبعوا أَهْواءَ قَوْم قدْ ضَلُّوا من قبْلُ وأَضلُّوا كثِيراً وضَلُّوا عنْ سَواءِ السَّبيلِ ﴾ [المائدة : ٧٧] . وقال ﷺ: « لَا تُشدِّدُوا فَيُشدِّدَ اللهُ علَيْكُمْ ، فإنَّ منْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّد اللهُ علَيْهِمْ ، فَتِلْكَ بَقَاياهُمْ في الصَّوامِعِ والدِّياراتِ ، رَهْبانِيَّةً ابْتَدَعُوها ما كتَبْناهَا عَلَيْهِمْ » رواه أبو داود(١٥) .

* * *

قوله : وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ .

اتفق أَهلُ السُّنّة على أن الله ليس كمثله شيء ، لا في ذاتِه ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، ولكن لفظُ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظاً

---

(١٥) رقم (٤٩٠٤) في الأدب : باب في الحسد ، وإسناده قابل للتحسين ، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٤/٣١٦ عن أبي يعلى الموصلي ، وفي سنده سعيد بن عبد الرحمن بن أبي العمياء الراوي عن سهل بن أبي أمامة ، لم يوثقه غير ابن حبان .

مجملاً يُراد به المعنى الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ، ودل عليه العقول من أن خصائصَ الرَّبِّ تعالى لا يُوصف بها شيءٌ من المخلوقات ، ولا يُماثِله شيء مِن المخلوقات في شيء من صفاته : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ردٌّ على الممثِّلة المشبِّهة ﴿ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ ردٌّ على النُفاة المُعطلة ، فمن جعل صِفاتِ الخالقِ مِثْلَ صفات المخلوق ، فهو المشبِّه المبطلُ المذموم ، ومن جعل صِفاتِ المخلوق مثلَ صفات الخالق ، فهو نظير النصارى في كفرهم .

ويراد به أنه لا يثبُت لله شيء مِن الصفات ، فلا يُقال : له قدرة ، ولا عِلم ، ولا حَياة ، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ! ولازم هذا القول أنه لا يُقال له : حي ، عليم ، قدير ، لأن العبدُ يُسمى بهذه الأسماء ، وكذلك كلامه وسمعُه وبصره ورؤيته وغير ذلك ، وهم يُوافقون أهلَ السنة على أنه موجود ، عليم ، قدير ، حي ، والمخلوق يقال له : موجود حي عليم قدير ، ولا يُقال : هذا تشبيهٌ يجب نفيه ، وهذا مما دل عليه الكتابُ والسنة ، وصريحُ العقل ، ولا يُخالف فيه عاقل ، فإن الله سمى نفسه بأسماء ، وسمى بعض عباده بها ، وكذلك سمى صفاته بأسماء ، وسمَّى ببعضها صفات خلقه ، وليس المسمَّى كالمسمي فسمَّى نفسه : حياً ، عليماً ، قديراً ، رؤوفاً ، رحيماً ، عزيزاً ، حكيماً ، سميعاً ، بصيراً ، ملكاً ، مؤمناً ، جباراً ، متكبراً . وقد سمى بعض عباده بهذه الاسماء ، فقال : ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ ﴾ [الأنعام : ٩٥ ، والروم ١٩] ﴿ وَبشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَليمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] ١١/ب ﴿ فَبشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَليمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] ﴿ بَالمُؤْمِنِينَ رَؤوفٌ رَحيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ [الدهر : ٢] ﴿ قَالَتِ امْرَأةُ العَزِيزِ ﴾ [يوسف : ٥١] ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ ﴾ [الكهف : ٧٩] ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً ﴾ [السجدة : ١٨] ﴿ كَذلِكَ يَطْبَعُ الله عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

[المؤمن : ٣٥] ، ومعلوم أنه لا يُماثل الحيُّ الحيَّ ، ولا العَليمُ العليمَ ، ولا العزيزُ العزيزَ ، وكذلك سائر الأسماء .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيءٍ مِنْ عِلْمِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ أَنْزَلَهُ بِعلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦] ﴿ وما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر : ١١] ﴿ إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٨] ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ الله الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [حم السجدة : ١٥] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « كانَ رسولُ الله صلَّىٰ الله عليه وسلم يُعَلِّمُنَا الاستخارَةَ في الأمُورِ كُلِّها كما يُعَلِّمُنا السُّورَةَ من القُرآنِ ، يَقُولُ : إذَا هَمَّ أَحَدُكُم بِالأَمْرِ ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ ، ثُمَّ ليقُلْ : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخيرُك بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ ، فَإنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لي في دِيني وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ : في عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِه ـ فَاقْدُرْهُ لي ، وَيَسِّرْهُ [لي] ، ثُمَّ بَارِكْ لي فِيه ، وإنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هٰذَا الأَمْرَ شرٌّ لي في دِيني وَمَعاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ـ أَوْ قَالَ : في عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ـ فَاصْرِفْهُ عَنِّي ، وَاصْرِفْني عَنْهُ ، وَاقْدُر ليَ الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ رَضِّني بِهِ . قَالَ : ويُسَمِّي حَاجَتَهُ » ، رواه البخاري[١٦] .

وفي حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه الذي رواه النسائيُّ[١٧] وغيرُه، عن

---

(١٦) رواه البخاري ٣/ ٤٠ في التهجد: باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ، و١١/ ١٥٥ ـ ١٥٦ في الدعوات : باب الدعاء عند الاستخارة ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى ﴿وهو القادر﴾ ، ورواه أيضاً أبو داود رقم (١٥٣٨) في الصلاة : باب في الاستخارة ، والترمذي رقم (٤٨٠) في الصلاة : باب ما جاء في صلاة الاستخارة ، والنسائي ٦/ ٨٠ ـ ٨١ في النكاح : باب كيف الاستخارة ، وابن ماجه رقم (١٣٨٣) في إقامة الصلاة: باب ما جاء في صلاة الاستخارة ، وأحمد في « المسند » ٣/ ٣٤٤ .

(١٧) ٣/ ٥٤ ـ ٥٥ في السهو : باب نوع آخر من الدعاء ، ورواه أيضاً أحمد في «المسند» ٤/ ٢٦٤ =

النبي ﷺ ، أنه كان يدعو بهذا الدعاء : «اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الخَلْقِ ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ(*) الحَيَاةَ خَيْراً لي ، وَتَوَفَّنِي إذا عَلِمْتَ(*) الوَفَاةَ خَيْراً لي ، اللَّهُمَّ وأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ في الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ، وأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الحَقِّ في الرِّضى والغَضَبِ(**) ، وَأَسْأَلُكَ القَصْدَ في الغِنَى والفَقْرِ ، وأَسْأَلُكَ نَعِيماً لا يَنْفَدُ ، وأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لا تَنْقَطِعُ ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَى بَعْدَ القَضَاءِ ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ العَيْشِ بَعْدَ المَوْتِ ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلَى وَجْهِكَ الكَرِيمِ(***) ، والشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ ، في غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الإِيمانِ ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ » .

فقد سمى الله ورسولُه صفاتِ الله علماً وقدرة وقوة ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ﴾ [الروم : ٥٤] ﴿ وَإِنَّه لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ [يوسف : ٦٨] ، ومعلوم أنه ليس العلمُ كالعلم ، ولا القوةُ كالقوة ، ونظائرُ هذا كثيرة ، وهذا لازمٌ لجميع العقلاء .

فإن من نفى صفة من صفاته التي وصف الله بها نفسه ، كالرضى والغضب ، والمحبة والبغض ، ونحو ذلك ، وزعم أن ذلك يستلزمُ التشبيه والتجسيمَ !

قيل له : فأنت تثبت له الإرادةَ والكلامَ والسمعَ والبصرَ ، مع أن ما تثبته له ليس مثلَ صفات المخلوقين ، فَقُلْ فيما نفيتَه وأثبته الله ورسولُه مثلَ قولك فيما أثبتَّه ، إذ لا فرق بينهما .

= من طريق آخر من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما ، وإسناده صحيح ، وصححه الحاكم ١/٥٢٤ ووافقه الذهبي .

(*) في الأصل : « كانت » في الموضعين والتصحيح من « سنن النسائي » و « المسند » .

(**) في الأصل : في الغضب والرضى ، والتصحيح من « سنن النسائي » .

(***) عبارة « الكريم » ليست في المطبوع ولا في « المسند » ولا في النسائي ، ولعلها في « الكبرى » .

فإن قال : أنا لا أثبت شيئاً من الصفات !

قيل له : فأنت تُثبت له الأسماء الحسنى ، مثل : عليم ، حي ، قادر ، والعبد يُسمى بهذه الأسماء ، وليس ما يثبُت للرب من هٰذه الأسماء مماثلاً لما يثبُت للعبد ، فَقُلْ في صفاته نظيرَ قولك في مسمى أسمائه .

فإن قال : وأنا لا أثبت له الأسماء الحسنى ، بل أقول : هي مجاز ، وهي أسماء لبعض مبتدعاته ، كقول غُلاة الباطنية والمتفلسفة !

قيل له : فلا بد أن تعتقد أنه موجود ، وحقٌّ قائم بنفسه ، والجسم موجود قائم بنفسه ، وليس هو مماثلاً له .

فإن قال : أنا لا أُثبتُ شيئاً ، بل أُنكر وجودَ الواجب .

قيل له : معلوم بصريح العقل أن الموجود إما واجب بنفسه ، وإما غيرُ واجب/ بنفسه ، وإما قديم أزلي ، وإما حادث كائن بعد أن لم يكن ، وإما مخلوق مفتقر إلى خالق ، وإما غيرُ مخلوق ولا مفتقرٌ إلى خالق ، وإما فقيرٌ إلى ما سواه ، وإما غني عما سواه . ١٢/أ

وغيرُ الواجب بنفسه لا يكون إلا بالواجب بنفسه ، والحادث لا يكون إلا بقديم ، والمخلوق لا يكون إلا بخالق ، والفقير لا يكون إلا بغني عنه ، فقد لزم على تقدير النقيضين وجود موجود واجب بنفسه قديم أزلي خالق غني عما سواه ، وما سواه بخلاف ذلك .

وقد عُلِمَ بالحس والضرورة وجودُ موجود حادث كائن بعد أن لم يكن ، والحادثُ لا يكون واجباً بنفسه ، ولا قديماً أزلياً ، ولا خالقاً لما سواه ، ولا غنيًّاً عما سواه ، فثبت بالضرورة وجودُ موجودين : أحدهما واجب ، والآخر ممكن ، أحدهما قديم ، والآخر حادث ، أحدهما غني ، والآخر فقير ،

أحدهما خالق ، والآخر مخلوق ، وهما متفقان في كونِ كُلٍّ منهما شيئاً موجوداً ثابتاً .

ومن المعلوم أيضاً أن أحدهما ليس مُماثِلاً للآخر في حقيقته ، إذ لو كان كذلك ، لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وأحدهما يجب قِدَمُهُ وهو موجودٌ بنفسه ، والآخر لا يجب قِدمُه ولا هو موجودٌ بنفسه ، وأحدُهما خالق ، والآخر ليس بخالق ، وأحدهما غني عما سواه ، والآخر فقير .

فلو تماثلا ، للزم أن يكون كلٌّ منهما واجبَ القدم ليس بواجب القدم ، موجوداً بنفسه غيرَ موجود بنفسه ، خالقاً ليس بخالق ، غنياً غير غني ، فيلزم اجتماع الضدين على تقدير تماثُلِهما ، فعلم أن تماثلهما منتف بصريح العقل ، كما هو مُنتفٍ بنصوص الشرع .

فَعُلِمَ بهٰذه الأدلة اتفاقُهما من وجه ، واختلافُهما مِن وجه ، فمن نفى ما اتفقا فيه كان معطلاً قائلاً بالباطل ، ومن جعلهما متماثلين ، كان مشبهاً قائلاً بالباطل ، والله أعلم . وذلك لأنهما وإن اتفقا في مسمى ما اتفقا فيه ، فالله تعالى مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته ، والعبد لا يَشْرَكُه في شيء من ذلك ، والعبد أيضاً مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، والله تعالى منزه عن مشاركة العبد في خصائصه .

واذا اتفقا في مسمى الوجود والعلم والقدرة ، فهذا المشتركُ مطلق كُلي يُوجد في الأذهان لا في الأعيان ، والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه .

وهذا موضع اضطرب فيه كثيرٌ من النُّظَّار ، حيث توهَّموا أن الاتفاق في مسمى هذه الأشياء يُوجب أن يكون الوجودُ الذي للرب كالوجود الذي للعبد .

وطائفة ظنت أن لفظَ الوجود يقال بالاشتراك اللفظي ، وكابروا عقولهم ،

فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم ، كما يقال : الموجود ينقسم إلى واجب وممكن ، وقديم وحادث ، ومورد التقسيم مشترك بين الأقسام ، واللفظ المشترك كلفظ المشتري الواقع على المبتاع والكوكب ، لا ينقسم معناه ، ولكن يقال : لفظ المشتري يقال على كذا وعلى كذا ، وأمثال هذه المقالات التي قد بُسِطَ الكلامُ عليها في موضعه .

وأصلُ الخطأ والغلط : توهُّمهم أن هذه الأشياء العامة الكُلِّية يكون مسماها المطلق الكلي هو بعينه ثابتاً في هذا المعينِ وهذا المعينِ ، وليس كذلك ، فإن ما يُوجد في الخارج لا يُوجد مطلقاً كلياً ، بل لا يُوجد إلا معيناً مختصاً ، وهذه الأسماء إذا سمي الله بها ، كان مسماها معيَّناً مختصاً به ، فإذا سُمي بها العبدُ كان مسماها مختصاً به ، فوجود الله وحياتُه لا يُشاركه فيها غيرُه ، بل وجودُ هذا الموجود المعين لا يَشْرَكُه فيه غيرُه ، فكيف بوجود الخالق ؟

١٢/ب ألا ترى أنك تقولُ : هذا هو ذاك ، فالمشار إليه واحد ، لكن/بوجهين مختلفين .

وبهذا ومِثله يتبينُ لك أن المشبِّهَةَ أخذوا هذا المعنى ، وزادوا فيه على الحق فضلُّوا .

وأن المعطِّلة أخذوا نفي المماثلة بوجه من الوجوه . وزادُوا فيه على الحق حتى ضلُّوا ، وأن كتاب الله دل على الحقِّ المحض الذي تعقِلُه العقولُ السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدِل الذي لا انحراف فيه .

فالنفاة أحسنوا في تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشيء من خلقه ، ولكن أساؤوا في نفي المعاني الثابتةِ لله تعالى في نفس الأمر . والمشبهة أحسنوا في إثبات الصفات ، ولكن أساؤوا بزيادة التشبيه .

واعلم ان المخاطَب لا يفهم المعاني المعبَّر عنها باللفظ إلا أن يَعْرِفَ عينها ، أو ما يُناسب عينها ، ويكون بينها قدر مشترك ومشابهة في أصل المعنى ، وإلا فلا يُمكن تفهيمُ المخاطبين بدون هذا قط ، حتى في أول تعليم معاني الكلام بتعليم معاني الألفاظ المفردة ، مثل تربية الصبي الذي يُعلم البيان واللغة ، ينطق له باللفظ المفرد ، ويُشار له إلى معناه إن كان مشهوداً بالإحساس الظاهر أو الباطن ، فيقال له : لبن ، خبز ، أم ، أب ، سماء ، أرض ، شمس ، قمر ، ماء ، ويُشار له مع العبارة إلى كلٍّ مسمًّى مِن هذه المسميات ، وإلا لم يفهم معنى اللفظ ومرادَ الناطق به ، وليس أحد من بني آدم يستغني عن التعليم السمعي ، كيف وآدم أبو البشر أول ما علمه الله تعالى أصولَ الأدلة السمعية وهي الأسماء كُلُّها ، وكلمه وعلمه بخطاب الوحي ما لم يُعلمه بمجرد العقل .

فدلالة اللفظ على المعنى هي بواسطة دلالته على ما عناه المتكلم وأراده ، وإرادته وعنايته في قلبه ، فلا يُعرف باللفظ ابتداء ، ولكن يُعرف للمعنى بغير اللفظ حتى يُعلم أولاً أن هذا المعنى المراد هو الذي يُراد بذلك اللفظ ويُعنى به ، فإذا عرف ذلك ، ثم سمع اللفظ مرة ثانية ، عرف المعنى المراد بلا إشارة إليه ، وإن كانت الإشارة إلى ما يحس بالباطن مثل الجوع والشبع والرِّي والعطش والحزن والفرح ، فإنه لا يعرف اسم ذلك حتى يجده من نفسه ، فإذا وجده ، أشير له إليه ، وعرف أن اسمه كذا .

والإشارة تارة تكون إلى جوع نفسه أو عطش نفسه ، مثل أن يراه أنه قد جاع ، فيقول له : جعت ، أنا جائع ، فيسمع اللفظ ويعلمُ ما عينه بالإشارة ، أو ما يجري مجراها من القرائن التي تُعيِّنُ المراد ، مثل نظر أمه إليه في حال جوعه وإدراكه بنظرها أو نحوه أنها تعني جوعه ، أو يسمعهم يعبرون بذلك عن جوع غيره .

إذا عُرف ذلك ، فالمخاطب المتكلم إذا أراد بيانَ معانٍ ، فلا يخلُو إما أن يكون مما أدركها المخاطب المستمع بإحساسه وشهوده ، أو بمعقوله، وإما ألا يكون كذلك ، فإن كانت من القسمين الأولين ، لم يحتج إلا إلى معرفة اللغة ، بأن يكون قد عرف معاني الألفاظ المفردة ، ومعنى التركيب ، فإذا قيل له بعد ذلك : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَين * وَلِسَاناً وَشَفَتَينِ ﴾ [البلد ٨ ـ ٩]، أو قيل له : ﴿ والله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] ، ونحو ذلك ، فهم المخاطب بما أدركه بحسه .

وإن كانت المعاني التي يُراد تعريفُه بها ليست مما أحسه وشهده بعينه ، ولا بحيث صار له معقول كُلي يتناولُها حتى يفهَمَ به المرادَ بتلك الألفاظ ، بل هي مما لا يُدركه بشيء من حواسه الباطنة والظاهرة ، فلا بُدَّ في تعريفه من طريق القياسِ والتمثيل والاعتبار بما بينه وبين معقولات الأمور التي شاهدها من/التشابه والتناسب ، وكلما كان التمثيلُ أقوى ، كان البيانُ أحسنَ ، والفهمُ أكملَ . ١٣/أ

فالرسولُ صلوات الله وسلامه عليه لمَّا بين لنا أموراً لم تكن معروفة قبل ذلك ، وليس في لغتهم لفظ يدل عليها بعينها ، أتى بألفاظ تُناسب معانيها تلك المعاني ، وجعلها أسماء لها ، فيكون بينها قدر مشترك ، كالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والإيمان ، والكفر .

وكذلك لما أخبرنا بأمورٍ تتعلق بالإيمان بالله وباليوم الآخر ، وهم لم يكونوا يعرفونها قبل ذلك حتى يكونَ لهم ألفاظ تدل عليها بعينها ، أخذ من اللغة الألفاظ المناسبة لتلك بما تدل عليه من القدر المشترك بين تلك المعاني الغيبية ، والمعاني الشهودية التي كانوا يعرفونها ، وقرن بذلك من الإشارة ونحوها ما يُعلم به حقيقة المراد ، كتعليم الصبي ، كما قال ربيعة بن

أبي عبد الرحمن(*) : الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم .

وأما ما يُخبر به الرسول من الأمور الغائبة ، فقد يكون مما أدركوا نظيره بحسهم وعقلهم ، كإخبارهم بأن الريح قد أهلكت عاداً ، فإن عاداً من جنسهم والريحُ من جنس ريحهم ، وإن كانت أشد ، وكذلك غرقُ فرعون في البحر ، وكذا بقية الأخبار عن الأمم الماضية .

ولهذا كان الإخبار بذلك فيه عبرة لنا ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف : ١١١]. وقد يكون الذي يُخبر به الرسولُ ما لم يُدركوا مثله الموافق له في الحقيقة من كل وجه ، لكن في مفرداته ما يُشبه مفرداتهم من بعض الوجوه ، كما إذا أخبرهم عن الأمور الغيبية المتعلقة بالله واليوم الآخر ، فلا بُدَّ أن يعلموا معنى مشتركاً وشبهاً بين مفردات تلك الألفاظ وبين مفردات ما علموه في الدنيا بحسهم وعقلهم .

فإذا كان ذلك المعنى الذي في الدنيا لم يشهدوه بعد ، ويريد أن يجعلهم يشهدونه مشاهدة كاملة ليفهموا به القدر المشترك بينه وبين المعنى الغائب ، أشهدَهم إياه ، وأشار لهم إليه ، وفعل قولاً يكون حكاية له وشبهاً به يعلم المستمعون أن معرفتهم بالحقائق المشهودة هي الطريق التي يعرفون بها الأمور الغائبة ، فينبغي أن يعرف هذه الدرجات :

أولها : إدراك الإنسان المعاني الحسية المشاهدة .

وثانيها : عقله لمعانيها الكلية .

وثالثها : تعريف الألفاظ الدالة على تلك المعاني الحسية والعقلية .

(*) هو ربيعة بن فروخ المدني ، أبو عثمان ، ويقال له : ربيعة الرأي ، إمام حافظ فقيه مجتهد ، وكان من الأجواد ، أنفق على إخوانه أربعين ألف دينار . سمع أنساً وابن المسيب ، قال ابن الماجشون : ما رأيت أحداً أحفظ لسنّة من ربيعة . وكان صاحب الفتوى بالمدينة ، وأخذ عنه مالك وغيره . توفي بالهاشمية من أرض الأنبار سنة ١٣٦ هـ رحمه الله تعالى .

فهذه المراتب الثلاث لا بد منها في كل خطاب . فإذا أخبرنا عن الأمور الغائبة ، فلا بد من تعريفنا المعاني المشتركة بينها وبين الحقائق المشهودة والاشتباه الذي بينهما ، وذلك بتعريفنا الأمور المشهودة ، ثم إن كانت مثلها ، لم يحتج إلى ذكر الفارق ، كما تقدم في قصص الأمم ، وإن لم يكن مثلها ، بيّن ذلك بذكر الفارق ، بأن يقال : ليس ذلك مثل هذا ، ونحو ذلك ، وإذا تقرر انتفاء المماثلة كانت الإضافة وحدها كافية في بيان الفارق ، وانتفاء التساوي لا يمنع [منه](*) وجود القدر المشترك الذي هو مدلول اللفظ المشترك ، وبه صرنا نفهم الأمور الغائبة ، ولولا المعنى المشترك ما أمكن ذلك قط .

* * *

قوله : وَلاَ شَيْءَ يُعْجِزُهُ

لكمال قدرته ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٠] ﴿وكَانَ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ [الكهف : ٤٥] ﴿ومَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيءٍ في السَّمواتِ وَلا في الأرضِ إنَّه كَانَ عَليماً قَدِيراً﴾ [فاطر : ٤٤] ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُما وَهُو العَلِيُّ العَظِيمُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . ﴿لا يؤوده﴾ أي : يكْرِثُه(**) ولا يُثْقِلُهُ ولا يُعجزه . فهذا النفي لثبوت كمال ضِدِّه ، وكذلك كُلُّ/ نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضِدِّه ، كقوله تعالى : ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَاً﴾ [الكهف : ٤٩] ، لكمال عدله ، ﴿لا يَعزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولاَ في الأَرْضِ﴾ [سبأ : ٣] لكمال علمه . وقوله تعالى ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق : ٣٨] لكمال قدرته . ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] لِكمال حياته وقيوميته . ﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] لكمال

١٣/ب

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(**) قال في « اللسان » : كرثه الأمر ساءه واشتد عليه وبلغ منه المشقة .

جلاله وعظمته وكبريائه ، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه ، ألا ترى أن قول الشاعر(*) :

قُبَيِّلَةٌ لَا يَغْدِرُونَ بِذِمَّةٍ　　وَلَا يَظْلِمُونَ النَّاسَ حَبَّةَ خَرْدَلِ

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده ، وتصغيرهم بقوله: «قبيلة» عُلم أن المراد عجزهم وضعفهم ،لا كمال قدرتهم ، وقول الآخر(**) :

لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ　　لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ في شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يدل على ذمهم ، علم أن المراد عجزُهم وضعفهم أيضاً .

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلاً ، والنفي مجملاً ، عكس طريقة أهل الكلام المذموم ، فإنهم يأتون بالنفي المفصَّل والإثبات المجمل ، يقولون : ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض ولا بذي لون ولا طعم ، ولا رائحة ، ولا مجسَّة ، ولا بذي حرارة ولا برودة ولا رطوبة ولا يبوسة ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا اجتماع ولا افتراق . ولا يتحرك ولا يسكن،ولا يتبعَّض ، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء ، وليس بذي جهات ، ولا بذي يمين ولا شمال وأمام وخلف وفوق وتحت ، ولا يُحيط به مكان ولا يجري عليه زمان ، ولا يجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول في الأماكن ، ولا يُوصف بشيء من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ، ولا يُوصف بأنه متناه ، ولا يُوصف بمساحة ولا ذهاب في الجهات ، وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، ولا تُحيط به الأقدار

(*) هو قيس بن عمرو بن مالك الحارثي الملقب بالنجاشي ، وهو شاعر مخضرم بين الجاهلية والاسلام .

(**) هو أحد شعراء بني العنبر ، والقصيدة ذكرها أبو تمام في « الحماسة » .

ولا تَحجُبُه الأستار. . .الى آخر ما نقله أبو الحسن الأشعري رحمه الله عن المعتزلة(*).

وفي هذه الجملة حق وباطل ، ويظهر ذلك لمن يعرف الكتابَ والسنة .

وهذا النفي المجرَّد مع كونه لا مدح فيه ، فيه إساءة أدب ، فإنك لو قلتَ للسلطان : أنت لست بزبال ولا كسَّاح ولا حجام ولا حائك ، لأدَّبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً ، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي ، فقلت : أنت لست مثل أحد من رعيتك ، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل ، فإذا أجملت في النفي ، أجملت في الأدب .

والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية ، هو سبيل أهل السنة والجماعة .

والمعطِّلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات ، ولا يتدبَّرون معانيها ، ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكَمَ الذي يجب اعتقادُهُ واعتمادُه .

وأما أهل الحق والسنة والإيمان ، فيجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحقَّ الذي يجب اعتقادُهُ واعتمادُه ، والذي قاله هؤلاء إما أن يُعرضوا عنه إعراضاً جمليَّاً ، أو يبينوا حاله تفصيلاً ، ويُحكم عليه بالكتاب والسنة ، لا يحكم به على الكتاب والسنة .

والمقصودُ : أن غالب عقائدهم السلوب ، ليس بكذا ، ليس بكذا .

وأما الإثبات ، فهو قليل ، وهي أنه عالم قادر حيّ ، وأكثر النفي المذكور ليس متلقى عن الكتاب والسنة ، ولا عن الطرق العقلية التي سلكها غيرهم من مثبتة الصفات ، فإن الله تعالى قال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] . ففي هذا الإثبات ما يُقرر معنى النفي ، ففهم أن المراد/انفرادُهُ سبحانه بصفات الكمال ، فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه ، ووصفه به رسُله ، ليس كمثله شيء في صفاته ولا في ١٤/أ

(*) انظر « مقالات الاسلاميين » ٢١٦/١ ط . مصر .

أسمائه ولا في أفعاله ، مما أخبرنا به من صفاته ، وله صفات لم يَطَّلِعْ عليها أحدُ من خلقه ، كما قال رسوله الصادقُ صلى الله عليه وسلم في دعاء الكرب : «اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْم هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ ، أوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ ، أَنْ تَجْعَلَ القُرآنَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَنُورَ صَدْرِي ، وَجَلاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي »(١٨) .

وسيأتي التنبيه على فساد طريقتهم في الصفات إن شاء الله تعالى .

وليس قولُ الشيخ رحمه الله تعالى «ولا شيء يُعْجِزُهُ» من النفي المذموم ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ في السَّمٰواتِ وَلَا في الأَرْضِ إِنَّه كَانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ [فاطر : ٤٤] فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز ، وهو كمالُ العلم والقدرة ، فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يُريده الفاعل ، وإما من عدم علمه به ، والله تعالى لا يعزُبُ عنه مثقال ذرة ، وهو على كل شيء قدير ، وقد علم ببداته العقولِ والفطر كمال قدرته وعلمه ، فانتفى العجزُ ، لما بينه وبين القدرة من التضاد ، ولأن العاجز لا يصلح أن يكون إلهاً ، تعالى الله عن ذكر ذلك علوّاً كبيراً .

* * *

قوله : وَلَا إِلٰهَ غَيْرُهُ

هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم ، كما تقدم ذكره ، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفي والإثبات المقتضي للحصر ، فإن الإثبات المجرد قد يتطرَّق إليه الاحتمال ، ولهذا ـ والله أعلمُ ـ لما قال تعالى : ﴿وَإِلٰهكُم إلٰهٌ واحِدٌ﴾ قال بعده : ﴿لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ الرَّحمٰنُ الرَّحِيمُ﴾

(١٨) رواه أحمد في «المسند» ٣٩١/١ و ٤٥٢ ، وابن حبان في صحيحه رقم (٢٣٧٢) «موارد» في الأذكار : باب ما يقول إذا أصابه هم أو حزن ، والحاكم ٥٠٩/١ ، وهو حديث صحيح ، وله شاهد عن أبي موسى انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٩٨) .

[البقرة : ١٦٣] . فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني : هب أن إلهنا واحد ، فَلغيرنا إله غيره ، فقال تعالى : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ .

وقد اعترض صاحب «المنتخب» على النحويين في تقدير الخبر في «لا إله إلا هو» فقالوا : تقديره : لا إله في الوجود إلا الله(*)، فقال : يكون ذلك نفياً لوجود الإله ، ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصِّرف من نفي الوجود ، فكان إجراءُ الكلام على ظاهره والإعـراض عن هذا الإضمار أولى .

وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي(**) في «ري الظمآن»

(*) ما قاله صاحب المنتخب ليس بجيد وهكذا ما قاله النحاة وأيّده الشيخ أبو عبد الله المرسي من تقدير الخبر بكلمة « في الوجود » ، ليس بصحيح ، لأن الآلهة المعبودة من دون الله كثيرة وموجودة ، وتقدير الخبر بلفظ « في الوجود لا يحصل به المقصود من بيان أحقية الوهية الله سبحانه وبطلان ما سواها » لأنّ لقائل أنْ يقول : كيف تقولان « لا إله في الوجود إلاّ الله » ؟ وقد أخبر الله سبحانه عن وجود آلهة كثيرة للمشركين ، كما في قوله سبحانه ، ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوْا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمْ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُوْنِ اللهِ قُرْبَاناً آلِهَة ﴾ الآية .

فلا سبيل إلى التخلص من هذا الإعتراض ، وبيان عظمة هذه الكلمة ، وأنّها كلمة التوحيد المبطلة لآلهة المشركين وعبادتهم من دون الله ، إلاّ بتقدير الخبر بغير ما ذكره النحاة ، وهو كلمة « حق » لأنها هي التي توضح بطلان جميع الآلهة ، وتبين أنّ الإله الحق والمعبود بالحق هو الله وحده كما نبه على ذلك جَمْعٌ من أهل العلم منهم أبو العباس ابن تيمية وتلميذه العلامة ابن القيم وآخرون رحمهم الله .

ومن أدلة ذلك قوله سبحانه : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقّ وَأَنَّ مَا يَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ فَأَوْضَحَ سبحانه في هذه الآية أنه هو الحق ، وأنّ ما دعاه الناس من دونه هو الباطل ، فشمل ذلك جميع الآلهة المعبودة من دون الله من البشر والملائكة والجن وسائر المخلوقات ، واتضح بذلك أنّه المعبود بالحق وحده ، ولهذا أنكر المشركون هذه الكلمة ، وامتنعوا من الإقرار بها لعلمهم بأنها تبطل آلهتهم ، لأنهم فهموا أنّ المراد بها نفي الألوهية بحق عن غير الله سبحانه ، ولهذا قالوا جواباً لنبينا محمد ﷺ ، لما قال لهم : قولوا ، لا إله إلا الله ﴿ أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهً وَاحِدَاً إِنَّ هٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ، وَقَالُوا أيضاً : ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوْا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُوْنٍ ﴾ ، وما في معنى ذلك من الآيات .

وبهذا التقدير يزول جميع الإشكال ويتضح الحق المطلوب .

والله ولي التوفيق — عبد العزيز بن عبد الله بن باز

(**) أديب نحوي ، مفسر ، محدث ، فقيه ، ولد بمصر سنة ٥٧٠ هـ ، ورحل في طلب العلم وتوفي وهو في طريقه إلى دمشق سنة ٦٢٤ هـ وكتابه « ري الظمآن في تفسير القرآن » بين فيه تناسب الآي وارتباط بعضها مع بعض وقد سبق في ذلك البقاعي .

فقال : هذا كلام من لا يعرف لسان العرب ، فإن «إله» في موضع المبتدأ على قول سيبويه ، وعند غيره اسم «لا» ، وعلى التقديرين فلا بد من خبر المبتدأ ، و إلا فما قاله من الاستغناء عن الإضمار فاسد . و أما قوله : إذا لم يضمر يكون نفياً للماهية ، فليس بشيء ، لأن نفي الماهية هو نفي الوجود ، لا تتصور الماهية إلا مع الوجود ، فلا فرق بين «لا ماهية» و«لا وجود» . وهذا مذهب أهل السنة ، خلافاً للمعتزلة ، فإنهم يثبتون ماهية عارية من الوجود ، و« إلا الله » مرفوع ، بدلاً من « لا إله » لا يكون خبراً لـ « لا » ، ولا للمبتدأ . وذكر الدليل على ذلك .

وليس المراد هنا ذكر الإعراب ، بل المراد رفع الإشكال الوارد على النحاة في ذلك ، وبيان أنه من جهة المعتزلة . وهو فاسد ؛ فإن قولهم : نفي الوجود ليس تقييداً ، لأن العدم ليس بشيء ، قال تعالى : ﴿وقد خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلَ ولَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم : ٩] . ولا يُقال : ليس قوله : «غيره» كقوله : «إلا الله» لأن «غير» تُعرب بإعراب الاسم الواقع بعد «إلَّا» فيكون التقدير للخبر فيهما واحداً ، فلهذا ذكرتُ هذا الإشكال وجوابه هنا .

* * *

قوله : قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٌ ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٌ

قال/الله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ﴾ [الحديد : ٣] . وقال ﷺ : ١٤/ب «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ، وأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[١٩] .

---

(١٩) قطعة من حديث طويل رواه مسلم رقم (٢٧١٣) في الذكر : باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ، وأبو داود رقم (٥٠٥١) في الأدب : باب ما يقول عند النوم ، والترمذي رقم (٣٣٩٧) في الدعوات : باب من الأدعية عند النوم ، وأحمد في «المسند» ٢/ ٣٨١ و ٤٠٤ ، وابن ماجه رقم (٣٨٧٣) في الدعاء : باب ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فقول الشيخ رحمه الله تعالى : قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء ، هو معنى اسمه : الأول والآخر .

والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقرٌ في الفِطَرِ ، فإن الموجودات لا بد أن تنتهي الى واجب الوجود لذاته ، قطعاً للتسلسل ، فإنا نشاهد حُدوث الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وحوادث الجو ، كالسحاب ، والمطر ، وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيرها ليست ممتنعة ، فإن الممتنع لا يُوجد ، ولا واجبة الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجود بنفسه لا يقبلُ العدم ، وهذه كانت معدومة ، ثم وُجِدَت ، فَعَدَمُها ينفي وجودَها ، ووجودُها ينفي امتناعها ، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجودُه بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ﴾ [الطور : ٣٥] . يقول سبحانه : أَحْدَثُوا مِن غير مُحْدث أم هم أحدثوا أنفُسهم ؟ ومعلوم أن الشيء المحدَث لا يُوجِدُ نفسه ، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسه ، بل إن حصل ما يوجده ، وإلا كان معدوماً ، وكل ما أمكن وجوده بدلاً عن عدمه ، وعدمه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجود ولا عدم لازم له .

وإذا تأمل الـفاضل غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفةُ من الطرق العقلية ، وجدَ الصوابَ منها يعودُ الى بعض ما ذكر في القرآن من الطرق العقلية بأفصح عبارة وأوجزها ، وفي طرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ، ما لا يُوجد عندهم مثلُه ، قال تعالى : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان : ٣٣] .

ولا نقول : لا ينفع الاستدلال بالمقدِّمات الخفية ، والأدلة النظرية ،

فإن الخفاء والظهور من الأمور النسبية ، فربما ظهر لبعض الناس ما خفيَ على غيره ، ويظهرُ للإنسان الواحد في حالٍ ما خفي عليه في حال أخرى .

وأيضاً فالمقدّمات وإن كانت خفية ، فقد يُسلِّمها بعضُ الناس ، ويُنازِعُ فيما هو أجلى منها ، وقد تفرَحُ النفس بما عَلِمتْه من البحث والنظر ، ما لا تفرَحُ بما علمته من الأمور الظاهرة ، ولا شك أن العلمَ بإثبات الصانع ووجوبِ وجوده أمرٌ ضروري فِطْري ، وإن كان يحصُل لبعض الناس من الشُّبه ما يُخرجه الى الطرق النظرية .

وقد أدخل المتكلِّمون في أسماء الله تعالى «القديم» ، وليس هو من الأسماء الحسنى ، فإن «القديم» في لغة العرب التي نزل بها القرآن : هو المتقدِّم على غيره ، فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد ، ولم يستعملوا هذا الاسم إلا في المتقدِّم على غيره ، لا فيما لم يَسْبِقْه عدم ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس : ٣٩] . والعُرجُون القديم : الذي يبقى الى حين وجود العرجونِ الثاني ، فإذا وُجِدَ الجديدُ قيل للأول : قديم ، وقال تعالى : ﴿وَإِذْ لَمْ يهتدوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هٰذا إفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف : ١١] ، أي : متقدِّم في الزمان . وقال تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ﴾ [الشعراء : ٧٥ ـ ٧٦] . فالأقدم مبالغة في القديم ، ومنه : القول القديم والجديد للشافعي رحمه الله تعالى ، وقال تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود : ٩٨] ، أيْ : يتقدَّمهم ، ويستعمل منه الفعل لازماً ومتعدياً ، كما يقالُ : أخذت ما قدُمَ وما حدُثَ ، ويقال : هذا أقدَمُ هذا ، وهو يَقْدُمُهُ ، ومنه سميت القدم قدماً لأنها تقدَم بقية بدن الإنسان .

وأما إدخال «القديم» في أسماء الله تعالى ، فهو مشهور عند أكثر أهل

١٥/أ الكلام ، وقد أنكر ذلك كثيرٌ من السلف والخلف ، منهم ابن حزم(*) ./

ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً في نفس التقدُّم ، فإن ما تقدَّم على الحوادِثِ كلِّها ، فهو أحقُّ بالتقدم من غيره ، لكن أسماء الله تعالى هي الأسماء الحسنى التي تدل[على](**) خصوص ما يُمْدَحُ به،والتقدُّم في اللغة مطلق ، لا يختصُّ بالتقدم على الحوادث كُلِّها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه « الأول » وهـو أحسنُ من « القديم » ، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه ، وتابع له ، بخلاف « القديم » . والله تعالى له الأسماء الحسنى ، لا الحسنة .

* * *

قوله : لَا يَفْنَى وَلَا يَبِيدُ .

إقرار بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عزَّ مِن قائل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ - ٢٧] . والفناء والبَيْد متقاربان في المعنى ، والجمعُ بينهما في الذِّكر للتأكيد ، وهو أيضاً مقرِّر ومؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

* * *

قوله : وَلَا يَكُونُ إِلَّا ما يُرِيدُ .

هذا رد لقول القدَرِية والمعتزلة ، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من

(*) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأندلسي القرطبي ، عالم الأندلس في زمانه ، أصله من فارس ، وولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ ، وتوفي سنة ٤٥٦ هـ ، قال ابن كثير : واشتغل بالعلوم النافعة ، وبرز فيها وفاق أهل زمانه ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً فقيهاً صاحب تصانيف جليلة إلا أنه كان كثير الوقيعة في العلماء بلسانه وقلمه ، والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهرياً في الفروع لا يقول بشيء من القياس الجلي ولا غيره ، ومع هذا من أشد الناس تأويلاً في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديث الصفات . ١ هـ . « البداية » ١٢/ ٩٢ من مؤلفاته « المحلى » و « الفصل في الملل والنحل » وغيرها .

(**) زيادة من مطبوعة مكة .

الناس كُلِّهِم والكافرُ أراد الكفر ، وقولُهم فاسد مردود لمخالفته الكتابَ والسنةَ والمعقولَ الصحيح ، وهي مسألة القَدَر المشهورة ، وسيأتي لها زيادة بيان إن شاء الله تعالى .

وسُـمُّوا قَدَريةً لإنكارهم القَدَر ، وكذلك تُسمى الجبرية المحتجون بالقَدَر قدريةً أيضاً ، والتسمية على الطائفة الأولى أغلب .

أما أهل السنة ، [فيقولون](*) : إن الله وإن كان يُريد المعاصي قَدَراً فهو لا يُحِبُّها ولا يرضاها ، ولا يأمُرُ بها ، بل يُبغِضُها ، ويَسخَطُها ، ويكرهها ، وينهى عنها ، وهذا قولُ السلف قاطبة ، فيقولون : ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

ولهذا اتفق الفقهاءُ على أن الحالف لو قال : والله لأفعلنَّ كذا إن شاءَ الله ، لم يحنث إذا لم يفعله ، وإن كان واجباً أو مستحباً ، ولو قال : إن أحبَّ الله ، حنِث ، إذا كان واجباً أو مستحباً .

والمحققون من أهل السنة يقولون : الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادة قدرية كونية خَلقية ، وإرادة دينية أمرية شرعية .

فالإرادة الشرعية : هي المتضمنة للمحبة والرضى .

والكونية : هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلاَمِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] . وقوله تعالى عن نوح عليه السلامُ : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحي إنْ أَردتُ أَنْ أَنصَحَ لكُم إنْ كانَ الله

(*) زيادة من مطبوعة مكة .

يُرِيدُ أنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] . وقوله تعالى : ﴿ وَلٰكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] .

وأما الإرادة الدينية الشرعية الأمرية ، فكقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسرَ وَلا يُريدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] . وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ الله لِيُبيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦] . ﴿ والله يُريدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَواتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ۞ يُرِيدُ الله أنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وخُلِقَ الإنسانُ ضَعيفاً ﴾ [النساء : ٢٧ ـ ٢٨] . وقوله تعالى : ﴿ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلكِنْ يُريدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم ﴾ [المائدة : ٦] . وقوله تعالى : ﴿ إنَّما يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب : ٣٣] .

فهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح : هذا يفعل ما لا يُريدُه الله ، أي : لا يُحِبُّه ، ولا يرضاه ، ولا يأمر به .

١٥/ب وأما الإرادة الكونية، فهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء / الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل ، وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فإذا أراد الفاعلُ أن يفعل فعلاً ، فهٰذه الإرادة المعلَّقة بفعله ، وإذا أراد مِن غيره أن يفعل فعلاً فهذه الإرادة لفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والأمرُ يستلزِمُ الإرادة الثانية دون الأولى ، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر ، فقد يُريد إعانة المأمور على ما أمر به ، وقد لا يُريد ذلك ، وإن كان مريداً منه فعله .

وتحقيق هذا مما يبين فصلَ النزاع في أمر الله تعالى : هل هو مستلزم

لإرادته ، أم لا ؟ فهو سبحانه أَمَرَ الخلقَ على أَلسُن رُسِله عليهم السلام بما ينفعُهم،ونهاهم عما يضرُّهم ، ولكن منهم من أراد أن يخلُق فعله ، فأراد سبحانه أن يخلُق ذلك الفعل ، ويجعله فاعلاً له ، ومنهم من لم يُرد أن يخلق فعله ، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها من المخلوقات غيرُ جهة أمره للعبد على وجه البيان ، لما هو مصلحةٌ للعبد أو مفسدة ، وهو سبحانه إذ أمر فرعون وأبا لهب وغيرَهما بالإيمان ، كان قد بيَّن لهم ما ينفعُهُمْ ويُصلحهم إذا فعلوه ، ولا يلزم إذا أمرهم أن يُعينهم ، بل قد كان في خلقِه لهم ذلك الفعل وإعانتِهم عليه وجهُ مفسدة من حيث هو فعل له ، فإنه يخلُق ما يخلُق لِحِكمة ، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحةً للمأمور إذا فعله أن يكونَ مصلحةً للآمر إذا فعله هو أو جعل المأمورَ فاعلاً له ، فأينَ جهةُ الخلق مِن جهة الأمر ؟ فالواحد مِن الناس يأمُرُ غيره وينهاه مريداً لنصحه ، ومبيِّناً لما ينفعه ، وإن كان مع ذلك لا يُريد أن يُعينَه على ذلك الفعل ، إذ ليس كُلُّ ما كان مصلحتي في أن آمُرَ به غيري وأنصحه ، يكون مصلحتي في أن أُعاوِنَه أنا عليه ، بل قد تكونُ مصلحتي إرادة ما يُضادُّه ، فجهةُ أمره لغيره نصحاً غيرُ جهة فعله لنفسه ، وإذا أمكن الفرقُ في حق المخلوقين ، فهو في حق الله أولى بالإمكان .

والقَدَرية تضرب مثلاً بمن أمر غيرَه بأمره ، فإنه لا بُدَّ أن يفعل ما يكونُ المأمورُ أقربَ إلى فعله ، كالبِشرِ ، والطلاقة ، وتهيئة المساند ، والمقاعد ، ونحو ذلك .

فيقال لهم : هذا يكون على وجهين .

أحدهما : أن تكون مصلحةُ الأمرِ تعود إلى الآمر ، كأمر الملك جندَه بما يُؤيد مُلكَه ، وأمرِ السيد عبدَه بما يُصْلِحُ مِلكَه ، وأمرِ الإنسانِ شركاءه بما يصلح الأمور المشترك بينهما ، ونحو ذلك .

الثاني : أن يكون الآمر يرى الإعانة للمأمور مصلحةً له ، كالأمر بالمعروف ، وإذا أعان المأمور على البر والتقوى ، فإنه قد علم أن الله يُثيبه على إعانته على الطاعة ، وأنه في عون العبد ما كان العبدُ في عون أخيه ، فأما إذا قدِّر أن الآمر إنما أمر المـأمـورَ لمصلحة المأمور ، لا لِنفع يعودُ على الآمر مِن فعل المأمور ، كالناصح المشير ، وقُدِّر أنه إذا أعانه لم يكن ذلك مصلحة للآمر ، وأن فـي حصول مصلحة المأمور مضرةً على الآمر ، مثل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ، وقال لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إني لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [القصص : ٢٠] . فهذا مصلحته في أن يأمر موسى عليه السلام بالخروج ، لا في أن يُعينه على ذلك ، إذ لو أعانه ، لضرَّه قومُه ، ومثلُ هذا كثير .

وإذا قيل : إن الله أمرَ العباد بما يُصلحهم ، لم يلزم من ذلك أن يُعينهم على ما أمرهم به ، لا سيما وعند القَدَرية لا يقدِرُ أن يُعين/أحداً على ما به يصير فاعلاً ، وإذا علَّلت أفعاله بالحكمة ، فهي ثابتة في نفس الأمر ، وإن كنا نحن لا نعلمُها ، فلا يلزم إذا كان في نفس الآمر له حكمة في الأمر أن يكون في الإعانة على فعل المأمور به حكمة ، بل قد تكون الحكمة تقتضي أن لا يُعينه على ذلك ، فإنه إذا أمكن في المخلوق أن يكون مقتضى الحكمة والمصلحة أن يأمر لمصلحة المأمور ، وأن تكون الحكمة والمصلحة للآمر أن لا يُعينه على ذلك ، فإمكان ذلك في حقِّ الرَّب أولى وأحرى .

١٦/أ

والمقصود : أنه يمكن في حق المخلوق الحكيم أن يأمُرَ غيرَه بأمر ،ولا يُعينه عليه ، فالخالقُ أولى بإمكان ذلك في حقه مع حكمته ، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور ، كان ذلك المأمور به قد تعلَّق به خلقُه وأمره إنشاءَه خلقاً ومحبةً ، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمر ، ومن لم يُعِنْه على فعل المأمور ؛ كان ذلك المأمور قد تعلَّق به أمرُه ، ولم يتعلق به خلقه ، لعدم

الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده . وخلق أحد الضدين يُنافي خلق الضِّد الآخر ، فإن خلق المرض الذي يحصل به ذُلَّ العبدِ لربه ، ودعاؤه ، وتوبته ، وتكفير خطاياه ، ويَرِقُّ به قلبُه ، ويذهب عنه الكبرياء ، والعظمة ، والعُدوان ، يُضاد خلق الصحة التي لا تَحصُل معها هذه المصالح ، ولذلك كان خلق ظلم الظالم الذي يحصُل به للمظلوم من جنس ما يحصُل بالمرض ، يُضاد خلق عدله الذي لا يحصُل به هٰذه المصالح ، وإن كانت مصلحتُه هو في أن يعدِلَ .

وتفصيلُ حِكمة الله عز وجل في خلقه وأمره ، تعجز عن معرفتها(*) عقولُ البشر ، والقَدَرية دخلوا في التعليل على طريقة فاسدة مثَّلوا الله فيها بخلقه ، ولم يُثبتوا حِكمة تعودُ إليه .

* * *

قوله : لَا تَبْلُغُهُ الأَوْهَامُ ، وَلَا تُدْرِكُهُ الأَفْهَامُ .

قال الله تعالى : ﴿ ولَا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : ١١٠] .

قال في « الصحاح » : توهَّمتُ الشيء : ظَنَنته ، وفهمتُ الشيء : عَلِمْتُه . فمرادُ الشيخ رحمه الله : أنه لا ينتهي إليه وهم ، ولا يُحيط به علم .

قيل : الوهم ما يُرجى كونه ، أي : يظن أنه على صفة كذا ، والفهم : هو ما يُحَصِّلُه العقل ويُحيط به ، والله تعالى لا يعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى ، وإنما نعرِفُه سبحانه بصفاته ، وهو أنه أحد ، صمد ، لم يَلِدْ ، ولم يُولَدْ ، ولم يكن له كُفُواً أحد ، ﴿ الله لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ القَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ لَهُ مَا في السَّمٰوَاتِ ومَا في الأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . ﴿ هُوَ الله الَّذِي لا إِلٰه إِلَّا هُوَ الْملكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ

(*) في الأصل معرفته ، والتصحيح من مطبوعة مكة .

الْمُتَكَبِّرُ سُبْحانَ الله عَمَّا يُشْرِكُون * هُوَ الله الْخَالِقُ الْبَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْماءُ الحُسْنٰى يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٣ - ٢٤] .

* * *

قوله : وَلاَ يُشْبِهُ الأَنَامُ .

هذا رد لقول المشبِّهة الذين يشبِّهون الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى ، قال عز وجل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] . وليس المرادُ نفيَ الصفات كما يقول أهلُ البدع ، فمِن كلام أبي حنيفة رحمه الله في « الفقه الأكبر » : لا يشبه شيئاً من خلقه ، ولا يُشبهه شيء من خلقه ، ثم قال بعد ذلك : وصفاته كلُّها بخلاف صِفاتِ المخلوقين ، يعلم لا كعلمنا ، ويَقْدِرُ لا كقُدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا . انتهى .

وقال نعيم بن حماد(*) : من شَبَّه الله بشيءٍ مِنْ خلقه ، فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه ، فقد كَفَر ، وليس فيما وصفَ الله به نفسه ولا رسولُه تشبيه .

وقال إسحاق بن راهويه(**) : من وصف الله فشبَّه صفاته بصفات أحد

(*) هو أبو عبد الله نعيم بن حماد الخزاعي المروزي ، كان من أعلم الناس بالفرائض ، وأول من جمع المسند في الحديث . أقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث ثم سكن مصر ولم يزل فيها إلى أن حمل إلى العراق في خلافة المعتصم وسئل عن القرآن أمخلوق هو ؟ فأبى أن يجيب ، فحبس في « سر من رأى » ومات في سجنه سنة ٢٢٨ هـ. قال الحافظ في « التقريب » ٢ / ٣٠٥ : صدوق يخطىء كثيراً .

(**) هو أبو يعقوب إسحاق بن أبي الحسن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم بن عبد الله التميمي المروزي ، المعروف بابن راهويه عالم خراسان في عصره ، قال فيه الخطيب البغدادي : اجتمع له الحديث =

من خلق الله ، فهو كافر بالله العظيم .

وقال : عَلَامَةُ جَهْمٍ وأصحابِه : دعواهم على أهل السنة والجماعة ما أُولعوا به من الكذب أنهم مشبِّهة ،/ بل هم المعطلة . ١٦/ب

وكذلك قال خلق كثير من أئمة السلف : علامةُ الجهمية تسميتُهم أهل السنة مشبهة ، فإنه ما مِن أحد من نُفاة شيء من الأسماء والصفات إلَّا يُسمي المثبتَ لها مشبِّهاً .

فمن أنكر أسماء الله بالكُلّيَّةِ من غالية الزنادقة : القرامطة والفلاسفة ، وقال : إن الله لا يُقال له : عالم ولا قادر ، يزعُم أن من سماه بذلك ، فهو مشبه ، لأن الاشتراك في الاسم يُوجب الاشتباهَ في معناه ، ومن أثبت الاسمَ وقال : هو مجاز ، كغالية الجهمية ، يزعمُ أن من قال : إن الله عالم حقيقة ، قادر حقيقة فهو مشبه .

ومن أنكر الصفات وقال : إن الله ليس له علم ولا قُدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة ، قال لمن أثبت الصفات : إنه مشبِّه ، وإنه مجسم ، ولهذا كُتُب نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم ، كلها مشحونة بتسمية مثبتة الصفات مشبِّهة ومجسِّمة ، ويقولون في كتبهم : إن من جُملة المجسِّمة قوماً يقال لهم : المالكية ، يُنسبون إلى رجل يقال له : مالك بن أنس ، وقوماً يقال لهم : الشافعية ، ينسبون إلى رجل يقال له : محمد بن إدريس ! حتى الذين يُفسرون القرآن منهم ، كعبد الجبَّار(*) ،

= والفقه والصدق والورع والزهد .

قال الإمام أحمد : إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين ، وما عبر الجسر أفقه من إسحاق . سمع من سفيان بن عيينة ومن في طبقته ، وسمع منه البخاري ومسلم والترمذي . ولد سنة ١٦١ هـ توفي في نيسابور سنة ٢٣٨ هـ رحمه الله تعالى .

(*) هو أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني ، الأسترابادي . رأس المعتزلة في =

والـزمخشري(*) ، وغيرهما ، يسمُّون كل من أثبت شيئاً من الصفات وقال بالرؤ ية مشبِّهاً ، وهذا الاستعمالُ قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف .

ولكن المشهورَ مِن استعمال هذا اللفظِ عند علماء السنة المشهورين : أنهم لا يُريدون بنفي التشبيه نفيَ الصفات ، ولا يَصِفُون به كلَّ من أثبت الصفات ، بل مرادُهُم أنه لا يُشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله ، كما تقدَّم مِن كلام أبي حنيفة رحمه الله أنه تعالى يعلم لا كعلمنا ، ويقدِرُ لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤ يتنا ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] . فَنَفَى المِثْلَ وأثبت الصفة .

وسيأتي في كلام الشيخ إثبات الصفات ، تنبيهاً على أنه ليس نفيُ التشبيه مستلزماً لنفي الصفات .

ومما يوضح هذا : أن العلم الإلٰهي لا يجوزُ أن يُستدل فيه بقياسٍ تمثيلي يستوي فيه الأصلُ والفرعُ ، ولا بقياس شُمولي يستوي فيه أفرادُه ، فإن الله سُبحانه ليس كمثله شيء ، فلا يجوزُ أن يُمثَّل بغيره ، ولا يجوزُ أن يُدخل هو وغيرُه تحت قضية كلية يستوي أفرادُها ،

ولهذا لما سلكت طوائفُ مِن المتفلسفة والمتكلمة مثلَ هذه الأقيسة في

= الأصول ، كان مقلداً للشافعي في الفروع ولقب بـ « قاضي القضاة » . تولى القضاء بالري ، ومات بها سنة ٤١٥ هـ من تصانيفه : « تنزيه القرآن عن المطاعن » و « الأمالي » و « شرح الأصول الخمسة » و « المغني في أبواب التوحيد والعدل » وغيرها .

(*) هو أبو القاسم ، جار الله محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري ، ولد بزمخر من قرى خوارزم ، من أئمة العلم والدين والتفسير واللغة ، وقدم بغداد ، ورحل إلى مكة فجاور بها وسمي جار الله ، وتوفي بجرجانية خوارزم ليلة عرفة بعد رجوعه من مكة ، سنة ٥٣٨ هـ رحمه الله من تصانيفه : « ربيع الأبرار ونصوص الأخبار » و « الكشاف في حقائق التنزيل » و « الفائق في غريب الحديث » و « المعضل في صنعة الأعراب » و « أساس البلاغة » وغيرها .

المطالب الإلٰهية ، لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضت أدلتُهم ، وغلب عليهم بعدَ التناهي الحيرةُ والاضطرابُ ، لما يرونه من فساد أدلتهم أو تكافئها .

ولكن يُستعمل في ذلك قياس الأَوْلى ، سواءً كان تمثيلاً أو شُمولاً ، كما قال تعالى : ﴿وَلله المَثَلُ الأَعْلىٰ﴾ [النحل : ٦٠] . مثل أن يعلم أن كل كمال ثبت للممكن أو للمحدَث ، لا نقص فيه بوجه مِن الوجوه ـ وهو ما كان كمالاً للوجود غيرَ مستلزم للعدم بوجه ـ : فالواجب القديمُ أولى به .

وكُلُّ كمال لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، ثبت نوعُه للمخلوق والمربوب المدبَّر ، ـ فإنما استفاده مِن خالقه وربِّه ومدبِّره ، وهو أحقُّ به منه ، وأن كل نقص وعيب في نفسه ، وهو ما تضمَّن سلبَ هذا الكمال ، إذا وجَب نفيُه عن شيءٍ من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ، ـ : فإنه يجب نفيُه عن الرب تعالى بطريق الأولى .

ومن أعجب العجب : أن من غُلاة نُفاة الصفات الذين يستدِلون بهذه الآية الكريمة على نفي الصفات والأسماء ، ويقولون : واجبُ الوجود لا يكون كذا ولا يكون كذا ، ثم يقولون : أصلُ الفلسفة هي التشبيه بالإلٰه على قدر الطاقة ، ويجعلون هذا غايةَ الحِكمة ونهايةَ الكمال الإنساني ، ويُوافقهم على ذلك بعضُ من يُطلق هذه العبارة ، ويروي عن النبي ﷺ أنه قال : «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ الله»(*) ، فاذا كانوا ينفون الصفاتِ فبأي شيء يتخلَّق العبدُ على زعمهم ؟ ! وكما أنه لا يُشبه شيئاً من مخلوقاته تعالى ، لا يُشبهه شيء مِن مخلوقاته ، لكن المخالف في هذا النصارى والحُلُولية والاتحادية لعنهم الله تعالى .

(*) لا أصل له يعرف في الأصول .

ونفي مشابهة شيءٍ من مخلوقاته له ، مستلزِمٌ لنفي مشابهته لشيء مِن مخلوقاته ، فلذلك اكتفى الشيخُ رحمه الله بقوله : «ولا يُشبهه الأنام» ، والأنام : الناس ، وقيل : الخلق/كلهم وقيل : كُلُّ ذي روح ، وقيل : الثقلان ، وظاهر قوله تعالى : ﴿وَالأَرْضَ وَضَعَهَا للأنام ِ﴾ [الرحمن : ١٠] يشهد للأول أكثر من الباقي . والله أعلم .

١٧/أ

* * *

قوله : حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، قَيُّومٌ لا يَنَامُ .

قال تعالى : ﴿الله لا إله إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، فنفيُ السِّنة والنوم دليل على كمال حياته وقيُّوميته ، وقال تعالى : ﴿آلم * الله لا إله إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٣] . وقال تعالى : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلحَيِّ القَيُّومِ﴾ [طه : ١١١] . وقال تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان : ٥٨] وقال تعالى : ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إله إلَّا هُوَ﴾ [غافر : ٦٥] وقال ﷺ : «إنَّ الله لَا يَنَامُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَام» ، الحديث[٢٠] .

لما نفى الشيخُ رحمهَ الله التشبيه ، أشار الى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه ، بما يتَّصِفُ به تعالى دون خلقه ، فمن ذلك : أنه حَيٌّ لا يموت ، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه ، فإنهم يموتون .

ومنه : أنه قَيُّوم لا ينام ، إذ هو مختص بعدم النوم والسِّنة دون خلقه ،

---

(٢٠) رواه مسلم رقم (١٧٩) في الإيمان: باب قوله عليه السلام: إن الله لا ينام ، وأحمد في «المسند» ٣٩٥/٤ و ٤٠٥ ، وابن ماجه رقم (١٩٥) و (١٩٦) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه . وسيرد لفظه بتمامه في الصحة (١٧٦) .

فإنهم ينامون ، وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المرادُ منه **نفيَ** الصفات ، بل هو سبحانه موصوفٌ بصفات الكمال ، لكمال ذاته .

فالحي بحياة باقية لا يُشبه بحياة زائلة ، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً ، وإن الدار الآخرة لهي الحَيَوانُ ، فالحياة الدنيا كالمنام ، والحياةُ الآخرة كاليقظة ، ولا يُقال : فهذه الحياة الآخرة كاملة ، وهي للمخلوق ـ : لأنا نقولُ : الحي الذي الحياةُ مِن صفات ذاته اللازمة لها ، هو الذي وهبَ المخلوق تلك الحياة الدائمة ، فهي دائمةٌ بإدامة الله لها ، لا أن الدوام وصفٌ لازم لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى . وكذلك سائرُ صفاته ، فصفاتُ الخالق كما يليقُ به ، وصفاتُ المخلوق كما يليق به .

واعلم أن هذين الاسمين ، أعني : الحيَّ القيُّومَ ، مذكوران في القرآن معاً في ثلاث سور كما تقدم ، وهما مِن أعظم أسماء الله الحسنى ، حتى قيل : إنهما الاسم الأعظم ، فإنهما يتضمنان إثباتَ صفاتِ الكمال أكمل تضمُّن وأصدقَهُ ، ويَدلُّ القيوم على معنى الأزلية والأبدية ما لا يَدلُّ عليه لفظ القديم ، ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه ، وهو معنى كونه واجب الوجود .

والقيوم أبلغ من «القَيَّام» لأن الواو أقوى من الألف ، ويفيد قيامه بنفسه ، باتفاق المفسرين وأهل اللغة ، وهو معلوم بالضرورة . وهل تفيد إقامته لغيره وقيامه عليه ؟ فيه قولان ، أصحهما : أنه يفيد ذلك ، وهو يفيد دوام قيامه وكمال قيامه ، لما فيه من المبالغة ، فهو سُبحانه لا يزول ولا يأفل ، فإن الآفل قد زال قطعاً ، أي : لا يغيب ، ولا ينقص ، ولا يفنى ، ولا يعدَم ، بل هو الدائم الباقي لم يزل ، ولا يزال ، موصوفاً بصفات الكمال .

واقترانُه بالحيِّ ، يستلزِمُ سائرَ صفات الكمال ، ويدُلُّ على دوامها

وبقائها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً .

ولهذا كان قوله : ﴿الله لا إلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، أعظم آية في القرآن ، كما ثبت ذلك في «الصحيح»(٢١) عن النبي ﷺ .

فعلى هٰذين الاسمين مدارُ الأسماء الحسنى كلِّها ، وإليهما ترجعُ معانيها ، فإن الحياة مستلزِمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلَّف عنها صِفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياتُه تعالى أكملَ حياة وأتمها ، استلزم إثباتُها إثبات كل كمال يُضاد نفيه كمال الحياة .

وأما القيوم ، فهو متضمِّن كمالَ غِناه وكمالَ قُدرته ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج الى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره ، فلا قِيام لغيره إلا بإقامته ، فانتظم هذان الاسمان صفاتِ الكمال أتمَّ انتظام .

* * *

قوله : خَالِقٌ بِلاَ حَاجَةٍ ، رَازِقٌ بِلاَ مؤُنَةٍ .

قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدون * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ومَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون * إنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إلى الله والله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾ [فاطر : ١٥]. ﴿والله الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد : ٣٨] . ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِيّاً

---

(٢١) رواه مسلم رقم (٨١٠) في صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، وأبو داود رقم (١٤٦٠) في الصلاة : باب ما جاء في آية الكرسي ، وأحمد في «المسند» ١٤٢/٥ ، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه .

ولفظه : «يَا أَبَا المُنْذِرِ ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ ؟» قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : «يَا أَبَا المُنْذِرِ ! أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ الله مَعَكَ أَعْظَمُ ؟؟ قال : قلت : الله لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ، قال : فضرب في صدري وقال : «وَالله ! لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ» .

فَاطِرِ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام : ١٤] . وقال ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه : «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ/أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ ١٧/ب وَجِنَّكُمْ كانُوا عَلى أَتْقى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا زَادَ ذٰلِكَ في مُلْكي شَيئاً ، يَا عبادي! لَوْ أن أولَكم وآخِرَكُم وإِنْسَكُم وجنَّكم كَانُوا عَلى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُم مَا نَقَصَ ذٰلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئاً ، يا عبادي! لَوْ أَنَّ أولَكُم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صَعِيدٍ واحدٍ ، فسألوني ، فأعطيتُ كل إنسان مسألَتَهُ ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخيطُ إذا أدخل البحر» الحديث . رواه مسلم(٢٢) .

وقوله : بلا مؤنة : بلا ثِقَل ولا كُلْفَةٍ .

* * *

قوله : مميتٌ بِلاَ مَخَافَةٍ ، بَاعِثٌ بِلاَ مَشَقَّةٍ .

الموت صفة وجودية ، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى : ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك : ٢] والعدم لا يوصف بكونه مخلوقاً ، وفي الحديث : «إنَّه يُؤتَى بالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْش أَمْلَحَ ، فيُذْبَحُ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ»(٢٣) .

---

(٢٢) رواه مسلم رقم (٢٥٧٧) في البر والصلة والآداب : باب تحريم الظلم ، وأحمد في «المسند» ١٥٤/٥ و ١٦٠ و ١٧٧ ، والترمذي رقم (٢٤٩٧) في صفة القيامة : باب رقم ٤٩ ، وابن ماجه رقم (٤٢٥٧) في الزهد : باب ذكر التوبة .

وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام ، وقد اشتمل على قواعد عظيمة في أصول الدين ، وقد شرحه العلماء وأفردوه بالتأليف ، منهم شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى الذي أفرده في رسالة سماها «شرح حديث أبي ذر» . وقد طبعناها بتحقيق أستاذنا المحدث الشيخ عبد القادر الأرناؤوط حفظه الله .

(٢٣) رواه البخاري ٣٢٥/٨ في تفسير سورة مريم : باب قوله عز وجل ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ ، ومسلم رقم (٢٨٤٩) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها=

وهو وإن كان عرضاً ، فالله تعالى يقلبه عيناً ، كما ورد في العمل الصالح : «إنَّه يأتي صَاحِبَه في صُورَةِ الشَّابِّ الحَسَنِ ، والعَمَل القبيح على أقبح صورة»[٢٤] .

وورد في القرآن : «إنه يَأْتِي عَلَى صُورَةِ الشَّابِ الشَّاحِبِ اللَّوْنِ»[٢٥] الحديث . أي : قراءة القارىء ، وورد في الأعمال : «أنها تُوْضَعُ في الميزان»[٢٦] ، والأعيانُ هي التي تقبلُ الوزن دون الأعراض .

وورد في سورة البقرة وآل عمران : أنهما يَوْمَ القِيامَة «يُظلَّان صاحبَهما كأنهما غَمامتان أو غَيَايتان أو فِرْقانِ من طير صوافْ»[٢٧] .

= الضعفاء ، والترمذي رقم (٣١٥٥) في التفسير : باب ومن سورة مريم ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ورواه أيضاً الدارمي رقم (٢٨١٤) في الرقاق : باب ذبح الموت ، والترمذي رقم (٢٨٤٩) في الجنة : باب ما جاء في خلود أهل الجنة وأهل النار ، وأحمد في المسند » ٣٧٧/٢ و ٤٢٣ و ٥١٣ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢٤) قطعة من حديث رواه أحمد في «المسند» ٢٨٧/٤ و ٢٩٥ و ٢٩٦ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح ، وسيأتي لفظه ص (٤٥٢) وما بعدها .

(٢٥) قطعة من حديث رواه أحمد في «المسند» ٣٤٨/٥ و ٣٥٢ ، والدارمي رقم (٣٣٩٤) في فضائل القرآن : باب في فضل سورة البقرة وآل عمران ، وابن ماجه رقم (٣٧٨١) في الأدب : باب ثواب القرآن ، والحاكم ١/ ٢٥٦ ، من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه وهو حديث حسن .

(٢٦) روى الترمذي رقم (٢٦٤١) في الإيمان : باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ، وأحمد في « المسند » ٢١٣/٢ ، وابن ماجه رقم (٤٣٠٠) في الزهد : باب ما يرجى من رحمة الله عز وجل يوم القيامة ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٥٢٣) « موارد » في الزهد : باب في الخوف والرجاء ، والحاكم في « المستدرك » ٦/١ في الإيمان : باب فضيلة شهادة أن لا إله إلا الله وثقلها في الميزان ، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما .

ولفظه : « إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلاً ، . . . . » الحديث وسيرد لفظه في الصفحة ٤٨٠ - ٤٨١ .

(٢٧) تقدم تخريجه قبل الحديث السابق وأخرجه مسلم (٨٠٤) في صلاة المسافرين وقصرها ، =

وفي الصحيح : «أن أعمالَ العِبَادِ تَصْعَدُ الى السَّماءِ»(٢٨) .

وسيأتي الكلام على البعث والنشور إن شاء الله تعالى .

***

قوله : مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَديماً قَبْلَ خَلْقِهِ ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيئاً لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُم مِنْ صِفَتِه ، وكَما كَانَ بِصِفَاتِهِ أزلياً ، كَذلِكَ لا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِياً .

أي : أن الله سبحانه وتعالى لم يزل متصفاً بصفات الكمال : صفاتِ الذات ، وصفات الأفعال ، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها ، لأن صفاتِه سبحانه صفاتُ كمال ، وفقدها صفة نقص ، ولا يجوز أن يكونَ قد حصل له الكمالُ بعد أن كان متصفاً بِضِدِّه . ولا يرد على هذه ، صفات الفعل ، والصفات الاختيارية ، ونحوها ، كالخَلْق والتصوير ، والإماتة ، والإحياء ، والقبض ، والبسط ، والطَّيِّ ، والاستواء ، والإتيان ، والمجيء ،

= باب : فضل قراءة سورة البقرة ، من حديث أبي أمامة الباهلي . قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «اقرَؤُوا القُرْآنَ. فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ. اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ ـ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا ، اقْرَؤُوا سُورَةَ البَقَرَةِ . فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ . وَلَا يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ » .

(٢٨) روى البخاري ٢/٢٣٧ ـ ٢٣٨ في صفة الصلاة : باب فضل اللهم ربنا لك الحمد ، و«الموطأ» ١/٢١١ ـ ٢١٢ في القرآن : باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى ، وأبو داود رقم (٧٧٠) و(٧٧٣) في الصلاة : باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذي رقم (٤٠٤) في الصلاة : باب ما جاء في الرجل يعطس في الصلاة ، والنسائي ٢/١٩٦ في الافتتاح : باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، وأحمد في « المسند » ٤/٢٥٥ ـ ٣٥٦ من حديث رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه . ولفظه : « قال : كنا نصلي يوماً وراء النبي ﷺ ، فلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع الله لمن حمده » قال رجل : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف قال : « مَنِ المُتَكَلِّمُ ؟ » قال : أنا ، قال : « رَأَيْتُ بِضْعَةَ وَثَلَاثِينَ مَلَكاً يَبْتَدِرونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ» .

والنزول، والغضب ، والرضى ، ونحو ذلك مما وصف به نفسَه ، ووصفه به رسولُه ، وإن كنا لا نُدْرِكُ كُنْهَهُ وحقيقته التي هي تأويلُه ، ولا ندخل في ذلك متأوِّلين بآرائنا ، ولا متوهِّمين بأهوائنا ، ولكن أصلُ معناه معلوم لنا ، كما قال الإمام مالك رضي الله عنه ، لما سُئِلَ عن قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول(*) . وإن كانت هذه الأحوال تحدُث في وقت دون وقت ، كما في حديث الشفاعة(٢٩) : «إنَّ ربِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ» . لأن هذا الحدوث بهذا الاعتبار غيرُ ممتنع ، ولا يُطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن .

ألا ترى أن من تكلَّم اليوم وكان متكلماً بالأمس لا يقال : إنه حدث له الكلام ، ولو كان غيرَ متكلم ، لأنه لآفةٍ كالصِّغَر والخَرَسِ ، ثم تكلم يقال : حدث له الكلامُ ، فالساكت لغير آفةٌ يسمى متكلماً بالقوة ، بمعنى أنه يتكلم إذا شاء ، وفي حال تكلمه يُسمى متكلِّماً بالفعل ، وكذلك الكاتبُ في حال الكتابة هو كاتب بالفعل ،/ ولا يخرج عن كونه كاتباً في حال عدم مباشرته الكتابة . ١٨/أ

وحلولُ الحوادث بالربِّ تعالى ، المنفيُّ في علم الكلام المذموم ، لم يرد نفيُه ولا إثباته في كتاب ولا سنة ، وفيه إجمال ، فإن أُريد بالنفي أنه سبحانه لا

(*) اقتصر المؤلف من جواب الإمام مالك على هذا ، وتتمته : والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . انظر ص ٢٩١ و٥٤١ .

(٢٩) قطعة من حديث الشفاعة رواه البخاري ٦/٢٦٤ ـ ٢٦٥ في الأنبياء : باب قول الله عز وجل : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾ ، وباب قول الله تعالى : ﴿واتخذ الله ابراهيم خليلاً﴾ ، و٨/٣٠٠ في تفسير سورة بني إسرائيل : باب ﴿ذرية من حملنا من نوح إنه كان عبداً شكوراً﴾ ، ومسلم رقم (١٩٤) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، والترمذي رقم (٢٤٣٦) في صفة القيامة : باب ما جاء في الشفاعة ، وأحمد في «المسند» ٢/ ٤٣٥ و ٥٤٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وسيرد لفظه بتمامه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

يَحِلُّ في ذاته المقدسة شيءٌ من مخلوقاته المحدثة ، أو لا يحدُث له وصف متجدِّد لم يكن ـ فهذا نفيٌ صحيح ، وإن أُريد به نفي الصفاتِ الاختيارية من أنه لا يفعلُ ما يُريد ، ولا يتكلَّم بما شاء إذا شاء ، ولا أنه يغضبُ ويرضي لا كأحد من الورى ، ولا يُوصف بما وصف به نفسه مِن النزول والاستواء والإتيان كما يليق بجلاله وعظمته ـ فهذا نفيٌ باطل .

وأهلُ الكلامِ المذموم يُطلقون نفيَ حلولِ الحوادث ، فيُسلِّمُ السُّنِّيُّ للمتكلم ذلك ، عَلى ظنٍّ أنه نفى عنه سبحانه ما لا يليق بجلاله ، فإذا سلَّم له هذا النفيَ ، ألزمه نفيَ الصفات الاختيارية وصفاتِ الفعل ، وهو [غيرُ](*) لازم له ، وإنما أُتي السني مِن تسليم هذا النفي المجمل ، وإلا فلو استفسر واستفصل ، لم ينقطع معه .

وكذلك مسألةُ الصفة : هل هي زائدة على الذات أم لا ؟ لفظها مجمل ، وكذلك لفظُ الغير ، فيه إجمال ، فقد يُراد به ما ليس هو إياه ، وقد يُراد به ما جاز مفارقته له .

ولهذا كان أئمة السنة رحمهم الله تعالى لا يُطلقون على صفات الله وكلامه أنه غيرُه ، ولا أنه ليس غيرَه لأن إطلاق الإثبات قد يُشعِرُ أن ذلك مباين له ، وإطلاق النفي قد يُشعر بأنه هو هو ، إذَ كـان لفظُ الغير فيه إجمال ، فلا يُطلق إلا مع البيان والتفصيل .

فإن أريدَ به أن هناك ذاتاً مجردة قائمة بنفسها ، منفصلةً عن الصفات الزائدة عليها ـ فهذا غيرُ صحيح .

وإن أُريد به أن الصفاتِ زائدةٌ على الذات التي يُفهم مِن معناها غيرُ ما يفهم من معنى الصفة ـ فهذا حق ، ولكن ليس في الخارج ذات مجردة عن الصفات ، بل الذاتُ الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها ،

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

وإنما يفرض الذهن ذاتاً وصفة ، كلاً وحدَه ، ولكن ليس في الخارج ذات غير موصوفة ، فإن هذا محال . ولو لم يكن إلا صفة الوجود ، فإنها لا تنفكُّ عن الموجود ، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً ، يتصور هذا وحده ، وهذا وحدَه ، لكن لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخر في الخارج .

وقد يقول بعضُهم : الصفة لا عينُ الموصوف ولا غيرُه ، هذا له معنى صحيح ، وهو : أن الصفة ليست عينَ ذات الموصوف التي يفرضها الذهن مجردةً بل هي غيرُها ، وليست غير الموصوف ، بل الموصوفُ بصفاته شيء واحد غيرُ متعدد(*) .

فإذا قلت : أعوذ بالله ، فقد عُذت بالذات المقدَّسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبلُ الانفصال بوجه من الوجوه .

وإذا قلتُ : أعوذُ بعزة الله ، فقد عُذتُ بصفة من صفات الله تعالى ، ولم أعُذ بغير الله .

وهذا المعنى يُفهم من لفظ الذات ، فإن « ذات » في أصل معناها لا تُستعمل إلا مضافة ، أي : ذات وجود ، ذات قدرة ، ذات عز ، ذات علم ، ذات كرم ، إلى غير ذلك من الصفات ، فذات كذا بمعنى صاحبة كذا : تأنيث ذو ، هذا أصل معنى الكلمة ، فعُلِمَ أن الذات لا يُتصور انفصالُ الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وإن كان الذهن قد يفرض ذاتاً مجردة عن

(*) في هامش الأصل مانصه : والتحقيق أن يفرق بين قول القائل : الصفات غير الذات ، وبين قوله : صفات الله غير الله ، فإن ثاني باطل لأن مسمى الله يدخل في صفاته بخلاف مسمى الذات ، فإنه لا يدخل فيه الصفات لأن المراد أن الصفات زائدة على ما أثبته المثبتون ، بل الذات ، والله تعالى هو الذات الموصوفة بصفاته الملازمة . ولهذا قال الشيخ رحمه الله : لا زال بصفاته ، ولم يقل لا زال وصفاته ، لأن العطف يؤذن بالمغايرة ، وكذلك قال الإمام أحمد رضي الله عنه في مناظرته الجهمية : لا نقول : الله وعلمه ، والله وقدرته ، الله ونوره ، ولكن نقول الله بعلمه وقدرته ونوره ، هو إله واحد سبحانه وتعالى .

الصفات ؛ كما يفرض المحال . وقد قال ﷺ: « أعُوذُ بِعزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وأُحَاذِرُ »[30] وقال ﷺ: « أَعُوذُ بِكلِماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَق »[31] . ولا يعوذ ﷺ بغير الله .

وكذا قال/ﷺ: « اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ برضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وأَعُوذُ بِك مِنْكَ »[32] . ١٨/ب

---

(٣٠) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (٢٢٠٢) في السلام : باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ، و« الموطأ » ٩٤٢/٢ في العين : باب التعوذ والرقية في المرضى ، وأبو داود رقم (٣٨٩١) في الطب : باب كيف الرقى ، والترمذي رقم (٢٠٨١) في الطب : باب رقم ٢٩ ، وأحمد في «المسند » ٢١٧/٤ وابن ماجه رقم (٣٥٢٢) في الطب : باب ما عوَّذ به النبي ﷺ وما عُوِّذ به . من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه من أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً ، يجده في جسده منذ أسلم ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضَعْ يَدَكَ عَلَىٰ الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ ، وَقُلْ : بِاسْمِ الله ، ثَلاثاً ، وقل : سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِالله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ » .

(٣١) قطعة من حديث ، رواه مسلم (٢٧٠٨) في الذكر والدعاء : باب في التعوذ من سوء القضاء ، وأحمد في « المسند » ٣٣٧/٦ و٣٧٨ و٤٠٩ ، والترمذي رقم (٣٤٣٣) في الدعوات : باب ما يقول إذا نزل منزلاً ، والدارمي رقم (٢٦٨٣) في الاستئذان : باب ما يقول إذا نزل منزلاً من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها ، ولفظه : « مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ، ثُمَّ قَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضُرُّهُ شَيْءٌ حَتَّىٰ يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ » .

وهو قطعة من حديث آخر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة ، قال : « أَمَا لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرُّكَ » .

رواه مسلم رقم (٢٧٠٩) وأبو داود رقم (٣٨٩٨) و« الموطأ » ٩٥١/٢ وأحمد في « المسند » ٢٩٠/٢ و٢٧٥ ، والترمذي رقم (٣٦٠٠) وابن ماجه (٣٥١٨) .

(٣٢) قطعة من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقول في آخر وتره : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ » رواه أبو داود رقم (١٤٢٧) في الصلاة : باب القنوت في الوتر ، والترمذي رقم (٣٥٦١) في الدعوات : باب في دعاء الوتر ، والنسائي ٢٤٨/٣ في الصلاة : باب الدعاء في الوتر ، وابن ماجه رقم (١١٧٩) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في القنوت في الوتر ، وأحمد في « المسند » ٩٦/١ و١١٨ و١٥٠ واسناده صحيح .

وقطعة من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : « فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، =

وقال ﷺ : « وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أن نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا »(٣٣) .

وقال ﷺ : « أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ »(٣٤) .

وكذلك قولُهم : الاسمُ عين المسمَّى وغيرُه ؟ وطالما غَلِطَ كثير من الناس في ذٰلك ، وجهلوا الصوابَ فيه : فالاسم يُراد به المسمى تارة ، ويُراد به اللفظُ الدالُّ عليه أخرى ، فإذا قلتَ : قال الله كذا ، أو سَمِعَ الله لمن حمده ، ونحو ذلك ـ فهذا المرادُ به المسمَّى نفسُه ، وإذا قلتَ : الله اسمٌ عربي ، والرحمنُ اسم عربي ، والرحمن من أسماء الله تعالى ونحو ذلك ،

= فالتمسته ، فوقعت يدي على بطن قدميه ـ وهو في المسجد ـ وهما منصوبتان ، وهو يقول : اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ » .

ورواه مسلم رقم (٤٨٦) في الصلاة : باب ما يقال في الركوع والسجود ، وأبو داود رقم (٨٧٩) ، والترمذي رقم (٣٤٩١) والنسائي ٢/٢٢٢ ، وابن ماجه رقم (٣٨٤١) وأحمد في « المسند » ٦/٥٨ و٢٠١ .

(٣٣) قطعة من حديث رواه أحمد في « المسند » ٢/٢٥ ، وأبو داود رقم (٥٠٧٤) في الأدب : باب ما يقول : إذا أصبح ، والنسائي ٨/٢٨٢ في الاستعاذة : باب الاستعاذة من الخسف ، وابن ماجه رقم (٣٨٧١) في الدعاء : باب ما يدعو به الرجل إذا أصبح وأمسى ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ولفظه : « لَمْ يَكُنْ رَسُولُ الله ﷺ يَدَعْ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ العَفْوَ وَالعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وأَهْلِي وَمَالِي ، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي ، وَآمِنْ رَوْعَاتِي ، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَمِنْ خَلْفِي ، وَعَنْ يَمِينِي ، وَعَنْ شِمَالِي ، وَمِنْ فَوْقِي ، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي » ، وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان رقم (٢٣٥٦) « موارد » في الأذكار : باب ما يقول إذا أصبح . . . ، والحاكم ١/٥١٧ ووافقه الذهبي .

قال الحافظ في « أمالي الأذكار » : حديث حسن ، كما في « الفتوحات الربانية » لابن علان ٣/١٠٨ .

(٣٤) رواه ابن هشام في « السيرة » ١/٤٢٠ ، وابن جرير في « تفسيره » ١/٨٠ بغير سند ، قال الزرقاني في « شرح المواهب اللدنية » ١/٣٠٥ : أورده ابن اسحاق في « السيرة » ورواه الطبراني في كتاب « الدعاء » ، من حديث عبد الله بن جعفر ، وقال : وهذا مرسل صحابي ، لأنه ولد بالحبشة فلم يدرك ما حدث به .

قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٦/٣٥ : وفيه ابن اسحاق ، وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات .

فالاسم ها هنا هو المراد لا المسمَّى ، ولا يُقال غيره ، لما في لفظ الغيرِ من الإجمال : فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غيرُ المعنى فحق ، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له ، حتى خلق لِنفسه اسماً ، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا مِن أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى .

والشيخ رحمه الله أشار بقوله : « ما زال بصفاته قديماً قبل خَلْقَه . . . » إلى آخر كلامه إلى الرد على المعتزلة والجهمية ومَنْ وافقهم من الشيعة ، فإنهم قالوا : إنه تعالى صار قادراً على الفعل والكلام بعد أن لم يكن قادراً عليه ، لكونه صار الفعل والكلام ممكناً بعد أن كان ممتنعاً ، وأنه انقلب من الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي !

وعلى ابن كُلَّاب(*) والأشعري(**) ومَن وافقهما ، فإنهم قالوا : إن الفعل صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً منه .

وأما الكلامُ عندهم ، فلا يدخل تحتَ المشيئة والقدرة ، بل هو شيء واحد لازم لذاته .

وأصل هذا الكلام من الجهمية ، فإنهم قالوا : إن دوامَ الحوادث ممتنع ، وإنه يجب أن يكون للحوادث مبدأ، لامتناع حوادث لا أول لها،

(*) هو عبد الله بن كلَّاب ، إمام أهل السنّة في عصره وإليه مرجعها ، وقد نقل عنه شيخ الإسلام ابن تيمية بعض آرائه ومدحه في عدة مواضع من كتابه العظيم « منهاج السنّة » . توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٤٠ هـ .

(**) هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن عامر ابن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري ، البصري ، أبو الحسن . إليه تنسب الطائفة الأشعرية ولد بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ وتوفي ببغداد سنة ٣٣٠ هـ رحمه الله تعالى ، من تصانيفه : « الفصول في الرد على الملحدين والخارجين عن الملة » و « خلق الأعمال » و « الرد على المجسمة » و « الإبانة عن أصول الديانة » وقد طبعناه ، وتفضل بالنظر في أحاديثه أستاذي المحدّث الشيخ عبد القادر الأرناؤ وط .

فيمتنعُ أن يكون الباري عز وجل لم يزل فاعلاً متكلماً بمشيئة ، بل يمتنعُ أن يكون قادراً على ذلك ، لأن القُدرة على الممتنع ممتنعة !

وهذا فاسد ، فإنه يدل على امتناع حدوث العالم وهو حادث ، والحادث إذا حدث بعد أن لم يكن محدثاً ، فلا بد أن يكون ممكناً ، والإمكان ليس له وقت محدود ، وما مِن وقت يُقدر إلا والإمكان ثابت فيه ، فليس لإمكان الفعل وجوازه وصحته مبدأ ينتهي إليه ، فيجب أنه لم يزل الفعل ممكناً جائزاً صحيحاً ، فيلزم أنه لم يزل الربُّ قادراً عليه ، فيلزم جوازُ حوادث لا نهاية لأولها .

قالت الجهمية ومن وافقهم : نحن لا نسلِّم أن إمكان الحوادث لا بدايةَ له ، لكن نقول : إمكانُ الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا بدايةَ له ، وذلك لأن الحوادث عندنا تمتنع أن تكون قديمةَ النوع،[بل][*] يجب حدوثُ نوعها ، ويمتنع قِدمُ نوعها ، لكن لا يجب الحدوثُ في وقت بعينه ، فإمكانُ الحوادث بشرط كونها مسبوقة بالعدم لا أول له ، بخلاف جنس الحوادث .

فيقال لهم : هب أنكم تقولُون ذٰلك ، لكن يُقال : إمكان جنس الحوادث عندكم له بداية ، فإنه صار جنسُ الحدوث عندكم ممكناً بعد أن لم يكن ممكناً ، وليس لهذا الإمكان وقتٌ معين ، بل ما مِن وقت يفرض إلا والإمكان ثابت قبله ، فيلزم دوام الإمكان وإلا لزم انقلاب الجنس من الامتناع إلى الإمكان من غير حدوث شيء ، ومعلوم أن انقلاب حقيقة جنس الحدوث ، أو جنس الحوادث ، أو جنس الفعل ، أو جنس الأحداث ، أو ما يشبه هذا من العبارات من الامتناع إلى الإمكان ، وهو يصير ذلك ممكناً جائزاً بعد أن كان ممتنعاً من غير سبب تجدد ، وهذا ممتنع في صريح العقل .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

١٩/أ وهو أيضاً انقلاب الجنس من/الامتناع الذاتي إلى الإمكان الذاتي ، فإن ذاتَ جنس الحوادث عندهم تصير ممكِنة بعد أن كانت ممتنعة ، وهذا الانقلابُ لا يختصُّ بوقت معين ، فإنه ما من وقت يقدَّر إلا والإمكان ثابت قبله ، فيلزم أنه لم يزل هذا الانقلاب ممكناً ، فيلزم أنه لم يزل الممتنع ممكناً ! وهذا أبلغُ في الامتناع من قولنا : لم يزل الحادث ممكناً ، فقد لزمهم فيما فرُّوا إليه أبلغ مما لزمهم فيما فرُّوا منه ! فإنه يُعقل كون الحادث ممكناً ، ويعقل أن هذا الإمكان لم يزل ، وأما كون الممتنع ممكناً ، فهو ممتنع في نفسه ، فكيف إذا قيل : لم يزل إمكان هذا الممتنع ؟ ! وهذا مبسوط في موضعه .

فالحاصل : أن نوعَ الحوادث هل يُمكن دوامُها في المستقبل والماضي أم لا ؟ أو في المستقبل فقط ؟ أو الماضي فقط ؟ .

فيه ثلاثةُ أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم :

أضعفها : قول من يقول : لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل ، كقول جهم بن صفوان وأبي الهُذيل العلاف(*) .

وثانيهما : قولُ من يقول : يُمكن دوامُها في المستقبل دون الماضي ، كقول كثير من أهل الكلام ، ومَن وافقهم مِن الفقهاء وغيرهم .

والثالث : قولُ من يقول : يُمكن دوامُها في الماضي والمستقبل ، كما يقوله أئمة الحديث ، وهي من المسائل الكبار . ولم يقل أحد يُمكنُ دوامُها

(*) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي ، أبو الهذيل المعروف بالعلاف . كان شيخ البصريين في الاعتزال ومن أكبر علمائهم ، وهو صاحب مقالات في مذهبهم ومجالسهم ومناظراتهم . كان حسن الجدال ، قوي الحجة ، كثير الاستعمال للأدلة والإلزامات . وكان الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق يعظمونه ويقدمونه ، وكان الوزير ابن أبي داود من تلامذته ، ولد سنة ١٣٥ هـ وتوفي سنة ٢٣٥ هـ بـ « سرّ من رأى » .

في الماضي دون المستقبل .

ولا شك أن جمهورَ العالم من جميع الطوائف يقولون : إن كل ما سوى الله تعالى مخلوق ، كـائن بعد أن لم يكن ، وهذا قولُ الرسل وأتباعهم مِن المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم .

ومن المعلوم بالفطرة أن كون المفعول مقارناً لفاعله لم يزل ولا يزال معه ـ ممتنع محال ، ولما كان تسلسُلُ الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء ، فكذا تسلسلُ الحوادث في الماضي لا يمنعُ أن يكونَ سبحانه وتعالى هو الأولَ الذي ليس قبله شيء ، فإن الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعلُ ما يشاء ويتكلم إذا شاء ، قال تعالى :﴿ قالَ كَذٰلِكَ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلٰكِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] . وقال تعالى : ﴿ ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٥ ـ ١٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّه مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ﴾[لقمان : ٢٧] . وقال تعالى : ﴿قُلْ لَوْكَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

والمثَبَت إنما هو الكمال الممكن الوجود ، وحينئذ فإذا كان النوعُ دائماً ، فالممكن والأكمل هو التقدم على كل فرد من الأفراد بحيث لا يكون في أجزاء العالم شيء يُقارنه بوجه من الوجوه .

وأما دوامُ الفعل ، فهو أيضاً من الكمال ، فإن الفعل إذا كان صفة كمال ، فدوامه دوام الكمال .

قالوا : والتسلسلُ لفظ مجمل ، لم يَرِدْ بنفيه ولا إثباته كتابٌ ولا سنة ، ليجب مراعاةُ لفظه ، وهو ينقسم إلى واجب وممتنع وممكن .

فكان التسلسلُ في المؤثرين محال ممتنع لذاته ، وهو أن يكون مؤثرون كل واحد منهم استفاد تأثيره مما قبله لا إلى غاية .

والتسلسل الواجب : ما دل عليه العقلُ والشرع مِن دوام أفعال الرب تعالى في الأبد ، وأنه كلما انقضى لأهل الجنة نعيم أحدث لهم نعيماً آخر لا نفاذَ له .

وكذلك التسلسلُ في أفعاله سبحانه من طرف الأزل، وأن كل فعل مسبوق بفعل آخر ، فهذا واجب في/كلامه ، فإنه لم يزل متكلماً إذا شاء ، ١٩/ب ولم تحدث له صفةُ الكلام في وقت ، وهكذا أفعالُه التي هي مِن لوازم حياته ، فإن كل حي فعَّال ، والفرقُ بين الحي والميت : بالفعل ، ولهذا قال غيرُ واحد من السلف : الحي الفعَّال .

وقال عثمانُ بنُ سعيد : كُلُّ حي فعَّال ، ولم يكن ربُّنا تعالى قطُّ في وقت من الأوقات معطَّلاً عن كماله ، من الكلام والإرادة والفعل .

وأما التسلسل الممكن ، فالتسلسل في مفعولاته مِن هذا الطرف ، كما تتسلسل في طرف الأبد ، فإنه إذا لم يزل حيّاً قادراً مريداً متكلماً ، وذلك مِن لوازم ذاته ـ فالفعل ممكن له بموجب هذه الصفات له ، وأن يفعل أكمل من أن لا يفعل ، ولا يلزمُ مِن هذا أنه لم يزل الخلق معه ، فإنه سبحانه متقدِّم على كل فرد من مخلوقاته تقدماً لا أول له ، فلكل مخلوق أول ، والخالقُ سبحانه لا أول له ، فهو وحدَه الخالق ، وكل ما سواه مخلوق كائن بعد أن لم يكن .

قالوا : وكلُّ قول سوى هذا ، فصريحُ العقل يردُّه ويقضي ببطلانه .

وكل من اعترف بأنّ الربَّ لم يزل قادراً على الفعل لزمه أحدُ أمرين ، لا بد له منهما : إما أن يقول : بأن الفعل لم يزل ممكناً ، وإما أن يقول : لم

يزل واقعاً ، وإلا تناقض تناقضاً بيناً ، حيث زعم أن الرب تعالى لم يزل قادراً على الفعل ، والفعل محالٌ ممتنع لذاته ، لو أراده لم يمكن وجوده ، بل فرض إرادته عنده محال وهو مقدور له ، وهذا قول ينقُض بعضُهُ بعضاً .

والمقصود : أن الذي دل عليه الشرعُ والعقلُ ، أن كل ما سوى الله تعالى محدَث كائن بعد أن لم يكن .

أما كونُ الربِّ تعالى لم يزل معطّلاً عن الفعل ، ثم فعل ، فليس في الشرع ولا في العقل ما يُثبته ، بل كِلاهما يدل على نقيضه .

وقد أورد أبو المعالي(*) في « إرشاده » وغيره من النُّظار على التسلسل في الماضي ، فقالوا : إنك لو قلتَ : لا أعطيك درهماً إلا أعطيك بعده درهماً ، كان هذا ممكناً ، ولو قلتَ : لا أعطيك درهماً حتى أُعطيك قبله درهماً ، كان هذا ممتنعاً .

وهذا التمثيلُ والموازنة ليست صحيحة ، بل الموازنة الصحيحة أن تقول : ما أعطيتُكَ درهماً إلا أعطيتُك قبله درهماً ، فتجعل ماضياً قبل ماض ، كما جعلت هناك مستقبلاً بعد مستقبل ، وأما قول القائل : لا أعطيك حتى أعطيك قبله ، فهو نفي للمستقبل حتى يحصل في المستقبل ويكون قبله ، فقد نفى المستقبل حتى يوجد المستقبل ، وهذا ممتنع ، لم ينف الماضي حتى يكونَ قبله ماض ، فإن هذا ممكن ، والعطاء المستقبل ابتداؤه من

(*) هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حَيُّوَيْهْ ، الجويني ، النيسابوري ، الفقيه الشافعي والمعروف بإمام الحرمين ، أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق ، المجمع على إمامته ، المتفق على غزارة مادته ، وتفننه في الأصول والفروع والأدب وغير ذلك .
من تصانيفه : « الشامل في أصول الدين » و« البرهان في أصول الفقه » و« تلخيص التقريب » و« الإرشاد » و« العقيدة النظامية » وغيرها .
ولد في « جوين » من نواحي نيسابور سنة ٤١٩ هـ ، توفي بنيسابور رحمه الله تعالى سنة ٤٧٨ هـ .

المستقبل والمعطي الذي له ابتداء وانتهاء لا يكون قبله ما لا نهاية له ، فإن وجود ما لا نهاية له فيما يتناهى ممتنع .

* * *

قوله : لَيْسَ مُنْذُ(*) خَلْق الخَلْق اسْتَفَادَ اسْم « الخَالِقِ » وَلَا بِإحْدَاثِهِ البَرِيَّة اسْتَفَادَ اسْمَ « البارِي » .

ظاهر كلام الشيخ رحمه الله تعالى أنه يمنع تسلسلَ الحوادث في الماضي ، ويأتي في كلامه ما يدُلُّ على أنه لا يمنعه في المستقبل ، وهو قوله « والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان »(**) ، وهذا مذهبُ الجمهور كما تقدم ، ولا شكَّ في فساد قولِ من منع من ذلك في الماضي والمستقبل ، كما ذهب اليه جهمُ وأتباعه ، وقال بفناء الجنة والنار ، لما يأتي من الأدلة إن شاء الله تعالى .

وأما قولُ من قال بجواز حوادث لا أول لها ، من القائلين بحوادث لا آخر لها ـ فأظهرُ في الصحة من قول من فرَّق بينهما ، فإنه سبحانه لم يزل حيّاً ، والفعلُ مِن لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلاً لما يُريد ، كما وصف بذلك نفسه ، حيث يقول : ﴿ ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٥ ـ ١٦] .

والآية تدل على أمور :

أحدها : أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته .

(*) في مطبوعة مكة : بعد .

(**) انظر ص ٤٨٤ وما بعدها .

٢٠/أ الثاني : أنه لم يـزل كـذلك ، لأنه ساق ذلك في/مَعْرِض المدح والثناء على نفسه ، وأن ذلك من كماله سبحانه ، ولا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات ، وقد قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرون ﴾ [النحل : ١٧] . ولما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله ، لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن .

الثالث : أنه إذا أراد شيئاً فعله ، فإن « ما » موصولة عامة ، أي : يفعل كُلَّ ما يُريد أن يفعله ، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد ، فتلك لها شأن آخر ؛ فإن أراد فعلَ العبد ، ولم يرُد من نفسه أن يُعينه عليه ويجعله فاعلاً ، لم يُوجد الفعل ، وإن أراده حتى يُريدَ من نفسه أن يجعله فاعلاً . وهذه هي النكتة التي خفيت على القَدَرِيَّةِ والجَبْرِيَّة ، وخبطُوا في مسألة القدر ، لغفلتهم عنها ، وفرق بين إرادته أن يفعل العبد ، وإرادته أن يجعله فاعلاً . وسيأتي الكلام على مسألة القدر في موضعه إن شاء الله تعالى(*) .

الرابع : أن فعله وإرادته متلازمان ، فما أراد أن يفعل فَعَل ، وما فعله فقد أراده ، بخلاف المخلوق ، فإنه يُريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريده ، فما ثَمَّ فعَّال لما يريد إلا الله وحده .

الخامس : إثباتُ إرادات متعدِّدةٍ بحسب الأفعال ، وأن كلَّ فعل له إرادةٌ تَخُصُّه ، هذا هو المعقولُ في الفِطَرِ ، فشأنُه سبحانه أنه يريد على الدوام ، ويفعل ما يريد .

السادس : أن كلَّ ما صح أن تتعلق به إرادتُهُ ، جاز فِعلُه ، فإذا أراد أن يَنْزِلَ كُلَّ ليلة إلى سماء الدنيا ، وأن يجيء يومَ القيامة لِفصل القضاء ، وأن يُرِيَ عباده نفسه ، وأن يتجلَّى لهم كيف شاء ، ويُخَاطبهم ، ويضحك إليهم ،

(*) انظر ص ٢٥٠ وما بعدها .

وغير ذلك مما يريد سبحانه ـ لم يمتنِعْ عليه فعلُه ، فإنه تعالى فعَّال لما يريد .
وإنما يتوقف صحةُ ذلك على إخبار الصادق به ، فإذا أخبر وجبَ التصديقُ ، وكذلك محوُ ما يشاء ، وإثبات ما يشاء ، كلَّ يوم هو في شأن ، سبحانه وتعالى .

والقول بأن الحوادِثَ لها أوَّل ، يلزمُ منه التعطيلُ قبلَ ذلك ، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غيرَ فاعل ، ثم صار فاعلاً .

ولا يلزم من ذلك قِدَمُ العالم ، لأن كل ما سوى الله تعالى محدَث ممكن الوجود ، موجود بإيجاد الله تعالى له ، ليس له من نفسه إلا العدمُ ، والفقرُ والاحتياجُ وصف ذاتي لازم لِكُل ما سوى الله تعالى ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، غني لذاته ، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى .

وللناس قولان في هذا العالم : هل هو مخلوق من مادة أم لا ؟ واختلفوا في أول هذا العالم ما هو؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَهوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ في سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ﴾ [هود : ٧] .

وروى البخاري(٣٥) وغيرُه عن عِمران بن حُصين رضي الله عنه ، قال : قال أهلُ اليمن لِرسول الله ﷺ : جِئناك لنتفقَّه في الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمرِ ، فقال : « كَانَ الله وَلَمْ يَكُنْ شَيءٌ قبله » ، وفي رواية: « وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ » . وفي رواية « غَيْرَهُ » « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الماءِ ، وَكَتَبَ في الذِّكرِ كُلَّ شيءٍ ، وَخَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ » ، وفي لفظ : « ثُمَّ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ » .

---

(٣٥) رواه البخاري ٦٦/٨ في المغازي : باب وفد تميم ، وباب قدوم الأشعريين وأهل اليمن ، و٢٠٧/٦ في بدء الخلق : باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وهو يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ و٣٤٥/١٣ في التوحيد : باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم ، وأحمد في « المسند » ٤٢٦/٤ و٤٣١ و٤٣٣ و٤٣٦ .

ورواية « وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ » التي ذكر المصنف رحمه الله تعالى لم ترد في « الصحيح » ولا في غيره إلا أن رواية « وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ » بمعناها .

فقوله: « كَتَبَ في الذِّكْرِ » يعني: اللوحَ المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ [الانبياء: ١٠٥] يُسمى ما يُكتب في الذكر ذكراً، كما يُسمَّى ما يُكتب في الكتاب كتاباً.

والناس في هذا الحديث على قولين، منهم من قال: إن المقصودَ إخبارُه بأن الله كان موجوداً وحده، ولم يزل كذلك دائماً، ثم إنه ابتدأ إحداث جميعِ الحوادث، فجنسُها وأعيانُها مسبوقةٌ بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكناً.

والقول الثاني: المراد إخبارُه عن مبدإ خلقِ هذا العالم المشهودِ الذي خلقه الله في ستة أيام، ثم استوى على العرش، كما أخبر القُرآن بذلك في غير موضع.

٢٠/ب وفي « صحيح مسلم »[٣٦] عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن/ النبي ﷺ أنه قال: « قَدَّرَ الله تَعَالَى مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السَّماوَاتِ والأرْضَ بِخَمْسِينَ ألْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ المَاءِ ». فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلقه السَّماواتِ بخمسين ألف سنة، وأن عرش الربِّ تعالى كان حينئذ على الماء.

دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه:

أحـدها: أن قول أهل اليمن « جئناكِ لِنسألك عن أول هذا الأمر »، وهو إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور، أي: الذي كوَّنه الله بأمره، فقد أجابهم النبيُّ ﷺ عن بـدء هذا العـالم الموجـود، لا عن

---

(٣٦) رقم (٢٦٥٣) في القدر: باب حجاج آدم وموسى بلفظ « كتب الله مقادير الخلق قبل ان يخلق السموات والأرض بخمسين سنة، قال: وعرشه على الماء » وأحمد في « المسند » ٢/١٦٩، ورواه البيهقي بلفظ « قدر الله المقادير ».

جنس المخلوقات ، لأنهم لم يسألوه عنه ، وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حالَ كونِ عرشه على الماء ، ولم يُخبرهم عن خلق العرش ، وهو مخلوق قبل خلق السماوات والأرض .

وأيضاً فإنه قال : « كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ » ، وقد روى « مَعَهُ »(*) ، وروي « غَيْرَهُ » ، والمجلس كان واحداً ، فعُلِمَ أنه قال أحدَ الألفاظ ، والآخران رُويا بالمعنى ، ولفظ « القَبْل » ثبت عنه في غير هذا الحديث .

ففي حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عن النبي ﷺ : أنه كان يقولُ في دعائه : « اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيءٌ » ، الحديثَ(**) . واللفظان الآخران لم يثبُتْ واحد منهما في موضع آخر ، ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ القَبْل ، كالحُميدي والبغوي ، وابن الأثير ، وإذا كان كذلك ، لم يكن في هذا اللفظ تعرُّض لابتداء الحوادث ، ولا لأول مخلوق .

وأيضاً : فإنه قال : « كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ »أو« مَعَهُ»أو « غَيْرَهُ » ، « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ » فأخبر عن هذه الثلاثة بالواو ، و« خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ » روي بالواو وبثم ، فظهر أن مقصوده إخباره إياهم ببدء خلق السماواتِ والأرض وما بينهما ، وهي المخلوقات التي خُلِقَت في ستة أيام ، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك ، وَذَكَرَ السماوات والأرضَ بما يدل على خلقهما ، وذكر ما قَبلهما بما يدل على كونه ووجوده ، ولم يتعرَّض لابتداء خلقه له .

(*) هذه اللفظة لم ترد في الصحيح ولا في غيره . انظر « الفتح » ٦/ ٢٠٦ .

(**) تقدم تخرجه ص ٥٧ رقم ١٩ .

وأيضاً ، فإنه إذا كان الحديثُ قد ورد بهذا وهذا ، فلا يُجزم بأحدهما إلا بدليل ، فإذا رجح أحدهما ، فمن جزم بأن الرسولَ أراد المعنى الآخر ، فهو مخطىء قطعاً ، ولم يأت في الكتاب ، ولا في السنة ما يَدُلُّ على المعنى الآخر ، فلا يجوزُ إثباتُهُ بما يُظن أنه معنى الحديث ، ولم يرد « كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ » مجرداً ، وانما ورد على السياق المذكور ، فلا يُظن أن معناه : الإخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السماوات والأرض .

وأيضاً، فقوله ﷺ : «كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ» «أَوْ مَعَهُ» أَوْ «غَيْرَهُ» «وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَىٰ الماءِ » ، لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجودٌ وحدَه لا مخلوق معه أصلاً ، لأن قوله : « وكان عرشه على الماء » ، يرد ذلك ، فإن هذه الجملة وهي « وكان عرشه على الماء » إما حالية ، أو معطوفة ، وعلى كلا التقديرين ، فهو مخلوق موجود في ذلك الوقت ، فَعُلِمَ أن المرادَ : ولم يكن شيء من هذا العالم المشهود .

* * *

قوله : لَهُ مَعْنَى الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا مَرْبُوبَ ، وَمَعْنَى الخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ

يعني : أن الله موصوفُ بأنه « الربُّ » قبل أن يُوجد مربوب ، وموصوف بأنه « خالق » قبل أن يُوجد مخلوق ، قال بعضُ المشايخ الشارحين : وإنما قال : « له معنى الربوبية ومعنى الخالق » دون الخالقية ، لأن الخالق هو المخرجُ للشيء من العدم إلى الوجودِ لا غير ، والربُّ يقتضي معانيَ كثيرة ، هي : المُلك والحفظُ والتدبير والتربية وهي تبليغُ الشيء كماله بالتدريج ، فلا جرم أتى بلفظ يشمَلُ هٰذه المعاني ، وهي الربوبية . انتهى .

وفيه نظر ، لأن الخلق يكون بمعنى التقدير أيضاً .

* * *

قوله : وَكَمَا أنه مُحْيي المَوْتَى بَعْدَ مَا أَحْيَا استَحَقَّ هٰذَا الإِسمَ قَبْلَ إحْيَائِهِمْ ، كَذٰلكَ استَحَقَّ اسْمَ الخَالِقِ قَبْلَ إنْشَائِهِمْ .

يعني : أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه محيي الموتى قبل إحيائهم ، فكذلك يُوصف بأنه خالقٌ قبل/خلقهم ، إلزاماً للمعتزلة ومَنْ قال بقولهم ، كما حكينا عنهم فيما تقدم ، وتقدم تقريرُ أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء . ٢١/أ

* * *

قوله : ذَلْكَ بأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَكُلُّ شَيْءٍ إلَيْهِ فَقِيرٌ ، وَكُلُّ أمْرٍ عَلَيْهِ يَسيرٌ ، لا يَحْتَاجُ إلى شَيْءٍ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ،وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ .

ذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه ، والكلام على « كل» وشمولها وشمول « كل » في كلِّ مقام بحسب ما يَحْتَفُّ به من القرائن ـ يأتي في مسألة الكلام إن شاء الله تعالى .

وقد حرَّفت المعتزلة المعنى المفهوم مِن قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] فقالُوا : إنه قادر على كل ما هو مقدورٌ له ، وأما نفسُ أفعالِ العبادِ ، فلا يَقْدِرُ عليها عندهم .

وتنازعُوا : هل يَقْدِرُ على مِثلها أم لا ؟ ! ولو كان المعنى على ما قالوا لكان هذا بمنزلة أن يقالُ : وهو عالم بِكُلِّ ما يعلمه ، وخالقٌ لكل ما يخلُقه ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها ، فسلبُوا صفة كمال قُدرته على كُلِّ شيء .

وأما أهلُ السنة ، فعندهم أن الله على كل شيء قديرٌ ، وكُلُّ ممكن ،

فهو مندرج في هذا ، وأما المُحال لِذاته مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً في حال واحدة ، فهذا لا حقيقة له ، ولا يُتصور وجودُه ، ولا يُسمى شيئاً باتفاق العقلاء ، ومن هذا الباب خلقُ مثل نفسه ، وإعدامُ نفسه ، وأمثال ذلك من المحال .

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة ،فإنه لا يؤمن بأنه ربُّ كلِّ شيء إلا مَنْ آمن أنه قادر على تلك الأشياء ، ولا يُؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا مَنْ آمن بأنه على كلِّ شيء قدير .

وإنما تنازعوا في المعدوم الممكن : هل هو شيء أم لا ؟ والتحقيقُ : أن المعدومَ ليس بشيءٍ في الخارج ، ولكن الله يعلمُ ما يكون قبل أن يكون ، ويكتُبُه ، وقد يذكره ويُخبِرُ به ، كقوله تعالى : ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : ١] فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب ، لا في الخارج ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّمـا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ [مريم : ٩] أي : لم تكن شيئاً في الخارج ، وإن كان شيئاً في علمه تعالى ، وقال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ [الدهر : ١] .

وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه شَيءٌ ﴾ ، رد على المشبِّهة ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، رد على المعطِّلة ، فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبيه ، فالمخلوقُ وإن كان يُوصف بأنه سميع بصير ، فليس سمعُه وبصرُه كسمع الربِّ وبصره ، ولا يلزمُ مِن إثباتِ الصفة تشبيهٌ ، إذ صفاتُ المخلوق كما يليق به ، وصفاتُ الخالق كما يليق به .

ولا تنف عن الله ما وصف به نفسه ، وما وصفه به أعرفُ الخلق بربه

وما يجب له وما يمتنع عليه ، وأنصحُهُم لأمته ، [وأفصحهم](*) وأقدرهم على البيان ، فإنك إن نفيتَ شيئاً من ذلك ، كنتَ كافراً بما أُنْزِلَ على محمد ﷺ ، وإذا وصفته بما وصف به نفسه ، فلا تُشَبِّهْهُ بخلقه ، فليس كمثله شيء . فإذا شبهتَه بخلقه ، كنت كافراً به .

قال نُعَيْمُ بنُ حماد الخُزاعي شيخ البخاري : من شبَّه الله بخلقه ، فقد كفَرَ ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه ، فقد كفر ، وليس ما وصف الله به نفسه ، ولا ما وصفه به رسولُه تشبيهاً .

وسيأتي في كلام الشيخ الطحاوي رحمه الله «ومَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ والتَّشْبيه ، زَلَّ وَلَم يُصِبِ التَّنْزِيهَ»(**) .

وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثلَ الأعلى ، فقال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ لا يُؤمِنُونَ بالآخِرةِ مَثَلُ السَّوءِ ولله المَثَلُ الأَعْلَى﴾ [النحل : ٦٠] ، وقال تعالى : ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى في السَّمٰوات والأَرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [الروم : ٢٧] فجعل سبحانه مثلَ السَّوءِ ـ المتضمن للعيوبِ والنقائِص وسلبِ الكمال ـ لأعدائه المشركين وأوثانِهم ، وأخبر أن المثلَ الأعلى ـ المتضمنَ لإثبات الكمال كله ـ لله وحده ، فمن سلب صفةَ الكمال عن الله تعالى ، فقد جعل له مَثَلَ السَّوْءِ ونفى عنه ما وصفَ به نفسه مِن المثلِ الأعلى ، وهو الكمالُ المطلقُ ، المتضمنُ للأمور الوجودية /والمعاني الثبوتية ، التي كلما كانت أكثرَ في الموصوف وأكمل ـ كان بها أكمل وأعلى مِن غيره .

٢١/ب

ولما كانت صفاتُ الربِّ سبحانه وتعالى أكثرَ وأكملَ ، كان له المثَلُ الأعلى ، وكان أحقَّ به مِن كل ما سواه ، بل يستحيلُ أن يشترِكَ في المثل الأعلى المطلق اثنان ، لأنهما إن تكافآ مِن كل وجه ، لم يكن أحدهما أعلى

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(**) انظر ص ٢٠٣ وما بعدها .

من الآخر ، وإن لم يتكافآ ، فالموصوفُ به أحدهما وحدَه ، فيستحيلُ أن يكونَ لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير .

واختلفت عباراتُ المفسرين في المثَل الأعلى ، ووفق بين أقوالهم مَن [بعض] وفقه الله وهداه ، فقال : المَثَلُ الأعلى يتضمن : الصفة العُليا ، وعلمَ العالمين بها ، ووجودَها العلمي ، والخبرَ عنها وذكـرها ، وعبـادَةَ الرب تعـالى بواسطة العلم والمعرفة القائمة بقلوبِ عابديه وذاكريه .

فها هنا أمور أربعة :

الأول : ثبوتُ الصفات العليا لله سبحانه وتعالى ، سواء علمها العبادُ أو لا ، وهذا معنى قول من فسرها بالصفة .

الثاني : وجودُها في العلم والشعور ، وهذا معنى قولِ مَنْ قال مِن السلف والخلف : إنه ما في قلوب عابديه وذاكريه ، من معرفته وذكره ، ومحبته وإجلاله ، وتعظيمه ، وخوفه ورجائه ، والتوكُّل عليه ، والإنابة إليه . وهذا الذي في قلوبهم مِن المثل الأعلى لا يشركُه فيه غيرُه أصلاً ، بل يختص به في قلوبهم ، كما اختص به في ذاته ، وهذا معنى قول من قال من المفسرين : إن معناه : أهلُ السماوات يُعظمونه ويُحبونه ويعبدُونه ، وأهلُ الأرضِ كذلك ، وإن أشرك به مَنْ أشرك ، وعصاه مَنْ عصاه ، وجحد صفاتِه مَن جحدها ، فأهلُ الأرض معظِّمون له ، مُجِلُّون ، خاضعون لعظمته ، مستكينون لِعزته وجبروته ، قال تعالى : ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [الروم : ٢٦] .

الثالث : ذكرُ صفاته ، والخبرُ عنها ، وتنزيهُها مِن العيوب والنقائص والتمثيل .

الرابع : محبةُ الموصوف بها وتوحيدُهُ ، والإخلاصُ له ، والتوكل

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

عليه ، والإنابة إليه ، وكلما كان الإيمانُ بالصفات أكملَ ، كان هذا الحبُّ والإخلاصُ أقوى .

فعباراتُ السلف كلها تدورُ على هٰذه المعاني الأربعة .

فمن أضلُّ ممن يُعارض بين قوله تعالى : ﴿وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلى﴾ [الروم : ٢٧] وبين قوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى : ١١] ويستدل بقوله : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾ على نفي الصفات ويَعمى عن تمام الآية وهو قولُه ﴿وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ! حتى أفضى هذا الضلالُ ببعضهم - وهو أحمد بن أبي دُؤَاد القاضي - إلى أن أشار على الخليفة المأمون أن يكتب على ستر الكعبة : ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم ، حرَّف كلامَ الله لينفي وصفَه تعالى بأنه السميع البصيرُ ، كما قال الضالُّ الآخر جهمُ بن صفوان : وَدِدتُ أني أحُكُّ من المصحف قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ﴾ [الأعراف : ٥٤] فنسأل الله العظيمَ السميعَ البصيرَ أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، بمنه وكرمه .

وفي إعراب «كمثله» وجوه :

أحدها : أن الكاف صلة زيدت للتأكيد .

قال أوس بن حَجَر :

لَيْسَ كَمِثْلِ الفَتَى زُهَيْرٍ خُلُقٌ يُوَازِيهِ في الفَضَائِلِ

وقال آخَر : .... مَا إن كَمِثْلِهِمُ في النَّاسِ مِنْ بَشَرِ (*)

وَقَالَ آخر : وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلْ (**) ....

(*) ذكره بتمامه الطبري في التفسير ٢٥/ ٩ .

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم ما إن كمثلهم في الناس من أحد

(**) ذكر الطبري البيت بتمامه ٢٥/ ٩ ونسبه لأوس بن حجر .

وقتلى كمثل جذوع النخيـ .... ـل تغشاهم مسبل منهمر

فيكون «مثله» خبرَ «ليس» واسمها «شيء» . وهذا وجه قوي حسن ، تعرف العربُ معناه في لغتها ، ولا يخفى عنها إذا خُوطِبَتْ به .

وقد جاء عن العرب أيضاً زيادةُ الكاف للتأكيد في قول بعضهم(*) :

وصَالِياتٍ كَكَما يُؤَثْفَيْنْ

وقال الآخر(**) : . . . . فأَصْبَحَتْ مِثْل كَعَصْفٍ مَأكول

الوجه الثاني : أن الزائد «مثل» أي : ليس كهو شيء ، وهذا القولُ بعيد ، لأن «مثل» اسم ، والقول بزيادة الحرف للتأكيد أولى من القول بزيادة الاسم .

الوجه الثالث : أنه ليس ثم زيادة أصلاً ، بل هذا من باب قولهم : مثلك لا يفعل كذا ، أي : أنت لا تفعله ، وأتى بمثل للمبالغة ، وقالوا في معنى المبالغة هنا أي : ليس كمثله مثل لو فرض المثل ، فكيف ولا مثل له . وقيل غير ذلك ، والأول أظهر .

* * *

قوله : خَلَقَ الخَلْقَ بِعِلْمِهِ .

خلق : أي أوجد وأنشأ وأبدع ، ويأتي «خلق» أيضاً بمعنى : قدر ، والخلق : مصدر ،/وهو هنا بمعنى المخلوق ، وقوله : « بعلمه » في محل نصب على الحال ، أي : خلقهم عالماً بهم ، قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] . وقال تعالى : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُها إلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البَرِّ والبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُهَا

٢٢/أ

(*) هو حطام المجاشعي .

(**) هو رؤبة بن العجاج والبيت بتمامه :

ترميهم حجارة من سجيل فصيّروا مثل كعصف مأكول

وَلا حَبَّةٍ في ظُلُماتِ الأرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُبينٍ * وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنَّهَارِ﴾ [الأنعام : ٥٩ - ٦٠] . وفي ذلك رد على المعتزلة .

قال الإمام عبدُ العزيز المكيُّ(*) صاحبُ الإمام الشافعي رحمه الله وجليسُه ، في كتاب «الحيْدة» ، الذي حكى فيه مناظرته بِشراً المريسي عند المأمون حين سأله عن علمه تعالى : فقال بشر : أقولُ : لا يجهل ، فجعل يُكرِّرُ السؤال عن صفة العلم تقريراً له ، وبشر يقول : لا يجهل ، ولا يعترف له أنه عالم بعلم ، فقال الإمام عبدُ العزيز : نفيُ الجهل لا يكونُ صفةَ مدح ، فإن هذه الاسطوانة لا تجهل وقد مدح الله تعالى الأنبياء والملائكة والمؤمنين بالعلم ، لا بنفي الجهل ، فمن أثبت العلم ، فقد نفى الجهل ، ومن نفى الجهل ، لم يثبت العلم ، وعلى الخلق أن يُثبتوا ما أثبته الله تعالى لنفسه ، وينفوا ما نفاه ، ويمسكوا عما أمسك عنه .

والدليل العقلي على علمه تعالى : أنه يستحيلُ ايجادُه الأشياء مع الجهل ، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته ، والإرادة تستلزم تصوُّرَ المراد ، وتصور المراد : هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة ، والإرادة مستلزمة للعلم ، فالإيجاد مستلزم للعلم . ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها ، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدورُه عن غير عالم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع ألا يكون الخالق عالماً . وهذا له طريقان :

(*) هو أبو الحسن عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني ، من أصحاب الشافعي تفقه عليه . قدم بغداد أيام الخليفة المأمون وجرت بينه وبين بشر المريسي مناظرة في القرآن ، وإليه ينسب كتاب « الحيدة » . توفي رحمه الله تعالى سنة ٢٤٠ هـ .

انظر ترجمته في « تهذيب التهذيب » ٣٦٢/٦ ، و «ميزان الاعتدال » ١٤١/٢ و «الطبقات الكبرى » للسبكي ٢٦٥/١ .

أحدهما : أن يُقال : نحن نعلمُ بالضرورة أن الخالقَ أكملُ مِن المخلوق ، وأن الواجب أكملُ من الممكن ، ونعلم ضرورة أنا لو فرضنا شيئين ، أحدهما : عالم والآخر غيرُ عالم ـ كان العالِمُ أكملَ ، فلو لم يكن الخالقُ عالماً ، لزم أن يكون الممكنُ أكملَ منه ، وهو ممتنع .

الثاني : أن يُقال : كل علم في الممكنات التي هي المخلوقات فهو منه ، ومِن الممتنع أن يكونَ فاعل الكمال ومبدعه عارياً منه ، بل هو أحقُّ به ، والله تعالى له المثلُ الأعلى ، ولا يستوي هو والمخلوقات ، لا في قياس تمثيلي ، ولا في قياسٍ شُمولي ، بل كُلُّ ما ثبت للمخلوق مِن كمال فالخالقُ به أحقُّ ، وكُلُّ نقص تَنزَّه عنه مخلوق ما ، فتنزيهُ الخالق عنه أولى .

* * *

قوله : وقَدَّرَ لَهُمْ أَقْدَاراً .

قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] وقال تعالى : ﴿ إنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً ﴾ [الأحزاب :٣٨] . وقال تعالى : ﴿ الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى* والَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ [الأعلى : ٢ ـ ٣] . وفي « صحيح مسلم » عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : « قَدَّرَ الله مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَكَانَ عَرْشُه عَلَى المَاءِ »(*) .

(*) تقدم تخرجه ص ٩٠ ، رقم (٣٦) .

قوله : وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالاً .

يعني : أن الله سبحانه وتعالى قدَّر آجال الخلائق ، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، قال تعالى : ﴿ فإذا جاءَ أَجَلُهُم لَا يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل : ٦١] وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلَّا بإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً ﴾ [آل عمران : ١٤٥] .

وفي « صحيح مسلم »[٣٧] عن عبد الله بن مسعود قال : « قالت أمُّ حبيبةَ زوجُ النبي ﷺ ورضي الله عنها : اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بزَوْجِي رَسُولِ الله ، وبِأَبِي أبي سُفْيان ، وبأَخِي مُعَاوِيَة ، قال : فقال النبيُّ ﷺ : « قَدْ سَأَلْتِ الله لآجالٍ مَضْروبةٍ ، وأَيَّامٍ مَعْدودةٍ ، وَأَرزاقٍ مَقْسُومَةٍ ، لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ أجَلِهِ ، وَلَنْ يُؤَخِّرُ شيئاً عَنْ أَجَلِهِ ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ الله أَنْ يُعِيْذَكِ مِنْ عَذَابٍ في النَّارِ وَعَذَابٍ في القبرِ - : كانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ » .

فالمقتولُ مَيِّت بأجله ، فعلم الله تعالى وقدَّر وقضى أن هذا يموتُ بسبب المرض ، وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدم ، وهذا بسبب الحرق ، وهذا بالغرق ، إلى غير ذلك من الأسباب ، والله سبحانه خلق الموت والحياة ، وخلق سببَ الموت والحياة .

وعند المعتزلة : المقتول مقطوع عليه أجلُه ، ولو لم يُقتل ، لعاش إلى أجله ، فكان له أجلان وهذا باطل ، لأنه/لا يليقُ أن يُنسب إليه تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه ألبتة ، أو يجعلُ أجلَه أحدَ الأمرين ، كفعل الجاهل بالعواقب . ووجوبُ القِصاص ، والضمان على القاتل ، لارتكابه المنهي عنه ، ومباشرته السبب المحظور . وعلى هذا يُخرج قولُه ﷺ : « صِلَةُ

٢٢/ب

(٣٧) رقم (٢٦٦٣) (٣٢) و(٣٣) في القدر : باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر ، وأحمد في « المسند » ١/ ٣٩٠ و٤١٣ و٤٣٣ و٤٤٥ و٤٦٦ .

الرَّحِمِ تَزيدُ في العُمُرِ »[٣٨] أي : سبب طول العمر ، وقد قدَّر الله أن هذا يَصل رحمه ، فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية ، ولولا ذلك السببُ لم يصل إلى هٰذه الغاية ؟ ، ولكن قدَّر هذا السبب وقضاه ، وكذلك قدَّر أن هذا يقطع رحمه ، فيعيش إلى كذا ، كما قلنا في القتل وعدمه .

فان قيل : هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثيرُ الدعاء في ذلك أم لا ؟

فالجواب : أن ذلك غير لازم ، لقوله ﷺ لأم حبيبة رضي الله عنها : « قَدْ سَأَلْتِ الله تَعَالى لآجالٍ مَضْروبةٍ » الحديث ، كما تقدم ، فَعُلِمَ أن الأعمار مقدرة ، لم يشرع الدعاءُ بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فإن الدعاء مشروع له ، نافع فيه .

ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمَّن النفعَ الأخروي شُرِعَ كما في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « اللّٰهُمَّ بِعِلْمِكَ الغَيْبَ ، وَقُدْرَتِكَ عَلَىٰ الخَلْقِ أَحْيِني مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لِي ، وَتَوَفَّني إذَا كَانتِ الوَفَاةُ خَيْراً لِي » ، إلى آخر الدعاء[*] .

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في « صحيحه »[**] من حديث ثَـوْبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لَا يَرُدُّ القَدَرَ إلَّا الدُّعاءُ ، وَلَا يَزيدُ في العُمُرِ إلَّا

---

(٣٨) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨ / ١٥١ :رواه أبو يعلى من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه ، وفي سنده صالح بن بشير بن وادع المري ، وهو ضعيف ، لكن معناه صحيح يشهد له الحديث الذي رواه البخاري ٣٤٨/١٠ في الأدب : باب من بسط له الرزق في صلة الرحم ، ومسلم رقم (٢٥٥٧) وأبو داود رقم (١٦٩٣) ، وأحمد في « المسند » ١٥٦/٣ و٢٤٧ و٢٦٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المرفوع : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ فَلْيَصِلْ رَحْمَهُ » .

(*) تقدم تخرجه رقم (١٧) ص ٤٤ .

(**) الحذاق من المحدثين لا يطلقون لفظ الصحيح على « المستدرك » لكثرة الأحاديث الضعيفة والمنكرة الواقعة فيه ، وإنما يقولون : أخرجه الحاكم في « مستدركه » .

البِرُّ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيُحَرمُ الرِّزقَ بالذَّنبِ يُصِيبُهُ »[39] .

وفي الحديثِ ردٌّ على من يَظُنُّ أن النذَر سببٌ في دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت في « الصحيحين »[40] عن النبي ﷺ: أَنَّهُ نَهَى عَنَ النَّذْرِ ، وقَالَ : « إِنَّهُ لَا يأتي بخيرٍ ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ البَخِيلِ » .

واعلم أن الدعاء يكون مشروعاً نافعاً في بعض الأشياء دونَ بعض ، وكذلك هو ، ولهذا لا يُجيب الله المعتدين في الدعاء ، وكان الإمام أحمد رحمه الله يكره أن يدعى له بطولِ العمر ، ويقول : هذا أمر قد فُرِغَ منه .

وأما قولُه تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّر وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلَّا في كِتَابٍ ﴾ [فاطر : 11] ، فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى ﴿ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ أنه بمنزلة قولهم : عندي درهمٌ ونصفه ، أي : ونصف درهم آخَرَ ، فيكون المعنى : ولا ينقصُ مِنْ عمره معمَّر آخر .

وقيل : الزيادةُ والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة ، وحُمِلَ قولُه تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ* يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ

---

(39) رواه أحمد في « المسند »5/277 و280 و282 ، وابن ماجه رقم (4022) في الفتن : باب العقوبات ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (1090) « موارد » ، والحاكم في « المستدرك » 1/493 .

قال البوصيري في « الزوائد » : إسناده حسن . دوّن قوله : « وإن الرجل ليحرم . . . » انظر « الأحاديث الصحيحة » للألباني رقم (154) .

(40) رواه البخاري 11/437 في القدر : باب إلقاء العبد النذر إلى القدر و11/512 في الأيمان والنذور : باب الوفاء بالنذر ، ومسلم رقم (1639) في النذر : باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئاً ، وأبو داود رقم (3287) في الأيمان والنذور : باب النهي عن النذر ، والنسائي 7/15 - 16 فيه : باب النهي عن النذر ، وأحمد في « المسند » 2/61 و 86 من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

ورواه البخاري 11/437 ، ومسلم رقم (1640) ، وأبو داود رقم (3288) والترمذي رقم (1538) في النذور والأيمان : باب ما جاء في كراهية النذر والنسائي 7/16 ، وأحمد في « المسند » 2/235 و301 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الكِتاب ﴾ [الرعد : ٣٨ ـ ٣٩] على أن المحوَ والإثباتَ مِن الصحف التي في أيدي الملائكة ، وأن قوله : ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ اللوح المحفوظ ، ويدل على هذا الوجه سياق الآية ، وهو قوله : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، ثم قال : ﴿ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : ٣٩] أي : من ذلك الكتاب ، ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ ﴾ أي : أصله ، وهو اللوحُ المحفوظ . وقيل : يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ، ويُثبتُ ما يشاءُ ، فلا ينسخه ، والسياقُ أدل على هذا الوجه من الوجه الأولِ ، وهو قولُه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتيَ بِآيَةٍ إلّا بإذْنِ الله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ . فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات مِنْ قِبل نفسه ، بل مِنْ عند الله، ثم قال :﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ*يَمْحُو الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : ٣٨ ـ ٣٩] ، أي : أن الشرائع لها أجل وغاية تنتهي إليها ، ثم تُنسخ بالشريعة الأخرى ، فينسخُ الله ما يشاء مِن الشرائع عند انقضاء الأجل ، ويُثبت ما يشاء .

وفي الآية أقوال أخرى ، والله أعلم بالصواب .

* * *

قوله : وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلِقَهُمْ .

فإنَّه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون . كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ [الأنعام : ٢٨] وإن كان يعلمُ أنهم لا يُردُّون . ولكن أخبر أنهم لو رُدُّوا لعادوا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَو عَلِمَ الله فِيهِم خَيْراً لأسْمَعَهُم وَلَو أسْمَعَهُمْ لَتوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] . وفي ذلك رد على الرافضة والقَدَرية ،الذين قالوا : إنه لا يعلمُ الشيء قبل أن يخلُقَه | ٢٣/أ وَيُوجده ، وهي من فروع مسألة القدر ، وسيأتي لها زيادةُ بيان ، إن شاء الله تعالى .

قوله : وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَنَهاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ .

ذكر الشيخ رحمه الله الأمر والنهي ، بعد ذكره الخلقَ والقدرَ ، إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات : ٥٦] وقال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك : ٢] .

* * *

قوله : وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ ، إلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ .

قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ الله إنَّ الله كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الدهر : ٣٠] وقال تعالـى : ﴿ وما تَشَاؤُونَ إلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إلَيْهِمُ المَلائكَةَ وَكَلَّمَهُم المَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلَّا أَنْ يَشَاءَ الله ﴾ [الأنعام : ١١١] وقال تعالى : ﴿ وَلَو شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام : ١١٢] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعاً ﴾ [يونس : ٩٩] وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِد الله أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] وقال تعالى حِكاية عن نوح عليه السلام إذ قال لقومه : ﴿ وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إنْ كَانَ الله يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُم ﴾ [هود : ٣٤] وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَشَإِ الله يُضلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩] إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وكيف يكون في مُلكه ما لا يشاؤه ! ومن

أضلُّ سبيلاً وأكفر ممن يزعُم أن الله شاء الإيمان مِن الكافر ، والكافر شاء الكفرَ ، فغلبت مشيئةُ الكافِرِ مشيئةَ الله ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فإن قيل : يُشكِلُ على هذا قولُه تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ الآية [الأنعام : ١٤٨] ، وقولُه تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية [النحل : ٣٥] وقولُه تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَا لَهُمْ بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٠] فقد ذمَّهم الله تعالى حيث جَعَلوا الشركَ كائناً منهم بمشيئة الله ، وكذلك ذمَّ إبليسَ حيث أضاف الإغواءَ إلى الله تعالى ، إذ قال : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الآية [الحجر : ٣٩] .

قيل : قد أُجيب على هذا بأجوبة ، من أحسنها : أنه أنكر عليهم ذلك ، لأنهم احتجوا بمشيئته على رِضاه ومحبته ، وقالوا : لو كره ذلك وسخطه ، لما شاءه فجعلوا مشيئته دليلَ رضاه ، فرد الله عليهم ذلك .

أو أنه أنكر عليهم اعتقادَهم أن مشيئة الله دليلٌ على أمره به .

أو أنه أنكر عليهم معارضَتَه شرعه ، وأمره الذي أرسلَ به رسُلَه ، وأنزل به كُتُبَه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعةً للأمر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره ، دافعين بها لشرعه ، كفعل الزنادقة والجهال ، إذا أمِروا أو نُهوا احتجُّوا بالقدر ، وقد احتجَّ سارق على عمر رضي الله عنه بالقدَر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره ، يشهد لذلك قوله تعالى في الآية : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] فعلم أن مرادَهم التكذيب ، فهو من قبل الفعل ، مِنْ أين له أن الله لم يقدره ؟ أطَّلع الغيب ؟

فإن قيل : فما تقولون في احتجاج آدم على موسى عليهما السلام بالقدر ، إذ قال له : « أتلومني على أمر قد كتبه الله عليّ قبل أن أخلق بأربعين عاماً ؟ » وشهد النبيُّ ﷺ أن آدم حجَّ موسى [41] ، أي : غلب عليه بالحُجة .

قيل : نتلقاه بالقَبولِ والسمع والطاعةِ ، لصحته عن رسول الله ﷺ ، ولا نتلقاه بالردِّ والتكذيب لراويه ، كما فعلت القدرية ، ولا بالتأويلات الباردة ، بل الصحيحُ أن آدم لم يحتجَّ بالقضاء والقدر على الذنب ، وهو كان أعلمَ بربه وذنبه ، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتجُّ بالقدر ، فإنه باطل ، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلومَ آدم عليه السلام على ذنب قد تاب منه وتابَ الله عليه واجتباه وهداه ، وإنما وقع اللومُ على المصيبة التي أخرجت أولادَه من الجنة ، فاحتجَّ آدَمُ عليه السلام بالقَدَرِ على المصيبة ، لا على الخطيئة ، فإن القدَر يحتجُّ به عندَ المصائب ، لا عند المعايب. وهذا المعنى أحسنُ ما قيل في الحديث .

فما قُدِّر من المصائب يجب الاستسلام له ، فإنه من تمام الرضى بالله ربّاً ، وأما/الذنوبُ فليس للعبد أن يذنب ، وإذا أذنب ، فعليه أن يستغفرَ ويتوب ٢٣/ب فيتوبَ من المعايب ، ويصبرَ على المصائب قال تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [المؤمن : ٥٥] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

وأما قولُ إبليس : ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ ، إنماذُمَّ على احتجاجه بالقدر ،

---

(٤١) حديث محاجة آدم وموسى رواه البخاري ٤٤١/١١ في القدر : باب حجاج آدم وموسى عند الله ، وفي عدة أبواب ، ومسلم رقم (٢٦٥٢) في القدر : باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ، وأبو داود رقم (٤٧٠١) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢١٣٥) في القدر : باب رقم ٢ ، وابن ماجة رقم (٨٠) في المقدمة : باب في القدر ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، انظر « جامع الأصول » رقم (٧٥٩٨) .

لا على اعترافه بالقدر وإثباته له ، ألم تسمع قولَ نوح عليه السلام : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [هود : ٣٤] ولقد أحسن القائل :

فَمَا شِئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ وَمَا شِئْتُ إِنْ لَمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

وعن وَهْبِ بن مُنَبِّه(*) ، قال : نظرتُ في القدر فتحيرتُ ، ثم نظرتُ فيه فتحيرتُ ، ووجدتُ أعلمَ الناس بالقدر أكفَّهم عنه ، وأجهلَ الناس بالقدر أنطقَهم فيه .

* * *

قوله : يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً ، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي ، عَدْلاً .

هذا رد على المعتزلة : قولهم بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله ، وهي مسألة الهُدى والضلال .

قالت المعتزلة : الهُدى من الله : بيانُ طريق الصواب ، والإضلالُ : تسميةُ العبد ضالاً ، وحُكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلالَ في نفسه ، وهذا مبني على أصلهم الفاسد : أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، والدليل على ما قلناه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

(*) هو أبو عبد الله وهب بن منبه الأبناوي الصنعاني الذماري ، كثير الإخبار عن الكتب القديمة ، عالم بأساطير الأولين ولا سيما الاسرائيليات ، يعد في التابعين توفي سنة ١١٤ هـ . ولد ومات بصنعاء .
من تصانيفه : « ذكر الملوك المتوجه من حمير وأخبارهم وقصصهم . . . » « قصص الأنبياء » و « قصص الأخيار » .

[القصص : ٥٦] ولو كان الهدى بيانَ الطريق ، لما صح هذا النفيُ عن نبيه ، لأنه ﷺ بيَّنَ الطريقَ لمن أحبَّ وأبغَضَ .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ [السجدة : ١٣] ﴿ يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [المدثر : ٣١] ، ولو كان الهُدى من الله تعالى البيان ،وهو عام في كل نفس ، لما صح التقييد بالمشيئة ، وكذلك قولُه تعالى : ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥٧] وقوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩] .

* * *

قوله : وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ ، بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ .

فإنهم كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُم كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن : ٢] فمن هداه إلى الإيمان، فبفضله، وله الحمد، ومن أضلَّه فبعدله، وله الحمد ، وسيأتي لهذا المعنى زيادةُ إيضاح ، إن شاء الله تعالى ، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد ، بل فرقه ، فأتيت به على ترتيبه .

* * *

قوله : وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الأَضْدَادِ وَالأَنْدَادِ

الضد : المخالف ، والنِّد : المثْل ، فهو سبحانه لا معارِضَ له ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مثْل له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] ويُشيرُ الشيخُ رحمه الله بنفي الضد والند إلى

الرَّد على المعتزلة في زعمهم أن العبد يخلق فعله .

* * *

قوله : لَا رادَّ لِقَضَائِهِ ، وَلَا مُعقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ .

أي : لا يرد قضاء الله رادٌ ، ولا يُعقب ، أي : لا يؤخِّرُ حكمَه مؤخر ، ولا يغلِبُ أمَره غالب ، بل هو الله الواحد القهار .

* * *

قوله : آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَأَيْقَنَّا أَنَّ كَلًّا مِنْ عِنْدِهِ .

أما الإيمان ، فسيأتي الكلامُ عليه إن شاء الله تعالى(*)، والإيقان : الاستقرار ، من يقن(**) الماءُ في الحوض: إذا استقر، والتنوين في «كلًا» بدل الإضافة ، أي : كل كائن محدث مِن عند الله ، أي : بقضائه وقدره وإرادته ومشيئته وتكوينه. وسيأتي الكلامُ على ذلك في موضعه، إن شاء الله تعالى(***) .

* * *

قوله: وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ المُصْطَفَىٰ ، وَنَبِيُّهُ المُجْتَبَىٰ ، وَرَسُولُهُ المُرْتَضَىٰ.

الاصطفاء والاجتباء والارتضاء : متقارب المعنى .

(*) انظر ص ٣٥٩ وما بعدها .
(**) جاء في « اللسان » : ويقن ييقن يقناً فهو يقن ، واليقين : العلم وازاحة الشكر وتحقيق الأمر .
(***) انظر ص ٤١٣ وما بعدها .

واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى ، وكلما ازداد العبدُ تحقيقاً للعبودية ، ازداد كمالُه ، وعلت درجتُه ، ومن توهَّم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وأن الخروج منها أكمل ، فهو أجهل الخلق وأضلّهم ، قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦] إلى غير ذلك من الآيات . وذكر الله نبيه ﷺ باسم العبد في أشرف المقامات ، فقال في ذكر الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن : ١٩] وقال تعالى : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم : ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وبذلك استحق التقديمَ على الناس في الدنيا والآخرة ، ولذلك يقولُ المسيح عليه السلام يوم القيامة ، إذا طلبوا منه الشفاعة بعد الأنبياء/عليهم السلام : « اذهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ »[٤٢] . فحصلت له تلك المرتبة بتكميل عبوديته لله تعالى .

٢٤/أ

وقوله : « وَإِنَّ مُحَمَّدًا » بكسر الهمزة ، عطفاً على قوله : « إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ » . لأن الكل معمول القول ، أعني : قوله « نقول في توحيد الله » .

والطريقةُ المشهورة عند أهل الكلام والنظر ، تقريرُ نبوة الأنبياء

---

(٤٢) قطعة من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه المطول في الشفاعة ، رواه البخاري ١٣/٣٦٠ في التوحيد: باب قول الله تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾، و١٣/٣٩٥ - ٣٩٧ فيه: باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم ، وباب قول الله تعالى : ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ وباب قوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ، و٨/٣٣٢ في تفسير سورة البقرة : باب قول الله تعالى : ﴿ وعلم آدم الاسماء كلها ﴾ و١١/٣٧٣ - ٣٨٢ في الرقاق : باب صفة الجنة والنار ، ومسلم رقم (١٩٣) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ، وأحمد في « المسند » ٣/١٦٦ و٢٤٤ و٢٤٧ و٢٤٨ ، وابن ماجه رقم (٤٣١٢) في الزهد : باب ذكر الشفاعة . وسيرد لفظه بتمامه ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

بالمعجزات ، لكن كثير منهم لا يعرِفُ نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات ، وقرروا ذلك بطرق مضطربة ، وإلتزم كثيرٌ منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء ، حتى أنكروا كراماتِ الأولياء والسحر ، ونحو ذلك .

ولا ريب أن المعجزاتِ دليلٌ صحيح ، لكن الدليلَ غيرُ محصور في المعجزات ، فإن النبوة إنما يدعيها أصدقُ الصادقين ، أو أكذبُ الكاذبين ، ولا يلتبِسُ هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين ، بل قرائنُ أحوالهما تُعْرِبُ عنهما ، وتُعرِّفُ بهما . والتمييزُ بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة ، فكيف بدعوة النبوة ؟ وما أحسنَ ما قال حسان رضي الله عنه :

لَـوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيـاتٌ مُبيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالخَبَـرِ

وما مِن أحد ادعى النبوَّة مِن الكذابين ، إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذِب والفجور واستحواذِ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز ، فإن الرسول لا بُدَّ أن يخبر الناسَ بأمور ، ويأمرهم بأمور ، ولا بد أن يفعل أموراً ، والكاذبُ يُظِهر في نفس ما يأمر به ، وما يخبر عنه ، وما يفعلُه ما يَبينُ به كذبُه من وجوه كثيرة ، والصادق ضده ، بل كُلُّ شخصين ادعيا أمراً : أحدُهما صادق والآخر كاذب ، لا بد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة ، إذ الصدق مستلزم للبر ، والكذبُ مستلزم للفجور ، كما في « الصحيحين »[٤٣] عن النبي ﷺ أنه قال : «عَلَيْكُم بالصِّدْقِ ، فَإنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البِرِّ ، وإنَّ البِرَّ يَهْدي إلى الجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله

(٤٣) رواه البخاري ٤٢٢/١٠ في الادب : باب قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ مختصراً ، ورواه مسلم رقم (٢٦٠٧) في البر والصلة : باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، وأبو داود رقم (٤٩٨٩) في الأدب : باب التشديد في الكذب ، والترمذي رقم (١٩٦٢) في البر والصلة ، باب ما جاء في الصدق والكذب ، وأحمد في «المسند» ١/ ٢٣٨٤ و ٤٣٢ ، والدارمي رقم (٢٧١٨) في السير : باب في الكذب ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

صِدِّيقاً ، وإِيَّاكُم وَالكَذِبَ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً» .

ولهذا قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيم * يُلقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُون * والشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُم يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٦] فالكهان ونحوهم ، وإن كانوا أحياناً يخبرون بشيء من الغيبيات ، ويكون صدقاً ، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرونه به ليس عن ملَك ، وليسوا بأنبياء . ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صَيّاد : « قَدْ خَبَّأْتُ لَكَ خبْأً ، فقال : هو الدُّخ فَقَال لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : « اخْسَأْ ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ »(٤٤) . يعني : إنما أنت كاهن . وقد قال للنبي ﷺ : « يَأتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ »(٤٥) . وقال : « أَرَى عَرْشاً عَلَى الماءِ »(٤٦) ، وذلك

(٤٤) رواه البخاري ٦/١١٩ - ١٢٠ في الجهاد : باب كيف يعرض الإسلام على الصبي ، و٣/١٧٥ في الجنائز : باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبي الإسلام ، و١٠/٤٦٣ في الادب : باب قول الرجل للرجل : إخسأ ، و١١/٤٤٩ في القدر : باب يحول بين المرء وقلبه ، ومسلم رقم (٢٩٢٤) (٨٦) في الفتن وأشراط الساعة : باب ذكر ابن الصياد ، وأبو داود رقم (٤٣٢٩) في الملاحم : باب خبر ابن الصياد ، والترمذي رقم (٢٢٥٠) في الفتن : باب ما جاء في ذكر ابن الصياد ، وأحمد في « المسند » ٢/١٤٨ و١٤٩ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤٥) قطعة من الحديث السابق رواه البخاري ١٠/٤٦٣ في الأدب ، باب قول الرجل للرجل اخسأ . ومسلم رقم (٢٩٣٠) في الفتن : باب ذكر ابن صياد ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٤٦) رواه مسلم رقم (٢٩٢٥) في الفتن وأشراط الساعة : باب ذكر ابن الصياد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ورواه الترمذي رقم (٢٢٤٨) وأحمد في « المسند » ٣/٣٦٨ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

ولفظه عن أبي سعيد قال : لقيه - أي ابن الصياد - رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر في بعض طرق المدينة ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَتَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ الله ؟ » فقال هو : أتشهد أني رسول الله ؟ ، فقال رسول الله ﷺ : آمَنْتُ بالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِه ، مَا تَرَىٰ ؟ » قَال : أرى عرشاً على الماء ، فقال رسول الله ﷺ : « تَرَىٰ عَرْشَ ابْلِيسَ عَلَىٰ البَحْرِ ، وَمَا تَرَىٰ ؟ » ، قال : أرى صادقين وكاذباً - أو كاذبين وصادقاً - فقال رسول الله ﷺ : « لُبِسَ عَلَيْهِ ، دَعُوهُ » .

هو عرشُ الشيطان ، وبيَّن أن الشعراء يتبعهم الغاوون ، والغاوي : الذي يتبع هواه وشهوتَه ، وإن كان ذلك مضراً له في العاقِبة .

فمن عرف الرسولَ وصِدْقَه ووفاءه ومطابقة قوله لعمله ، علم علماً يقيناً أنه ليس بشاعر ولا كاهن .

والناسُ يُميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة ، حتى في المدعي للصناعات والمقالات ، كمن يدعي الفلاحة والنِّساجة والكِتابة ، وعلَم النحو والطب والفقه وغير ذلك . والنبوة مشتملة على علوم وأعمال لا بُدَّ أن يتَّصِفَ الرسولُ بها ، وهي أشرفُ العلوم وأشرف الأعمال . فكيف يشتبِهُ الصادقُ فيها بالكاذب ؟ ولا ريبَ أن المحققين على خبرَ الواحد والاثنين والثلاثة قد يقترِنُ به مِن القرائِن ما يحصُل معه العلم الضروري ، كما يعرِفُ الرجلُ رضى الرجل وحبَّه وبغضه وفرحَه وحزنه وغير ذلك مما في نفسه بأمور تظهر على وجهه ، قد لا يُمكن التعبيرُ عنها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُم فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيماهُم ﴾ [محمد : ٣٠] ثم قال : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُم في لَحْنِ القَوْلِ ﴾ [محمد : ٣٠] .

وقد قيل : ما أسرَّ أحدٌ سريرة إلا أظهرها الله على صَفحات وجهه ، وفلتاتِ لسانه .

فإذا كان صدقُ المخبر وكذبه يُعلم بما يقترِنُ مِن القرائن ، فكيف بدعوى المدَّعي أنه رسول الله ؟ كيف يخفي صدقُ هذا مِن كذبه ؟ وكيف لا يتميَّز الصادِق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة ؟/ ٢٤/ب

ولهذا لما كانت خديجةُ رضي الله عنها تعلمُ مِن النبي ﷺ أنه الصادق البارُّ ، قال لها لما جاءه الوحي : « إِنِّي قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي(*) » ، فَقَالَتْ : كَلَّا ، والله

(*) في الأصل وفي طبعات الكتاب جميعاً « على عقلي » ، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في =

لَا يُخْزِيكَ الله أبداً ، إنَّكَ تَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ »(٤٧) . فهو لم يخف من تعمد الكذب ، فهو يعلم من نفسه ﷺ أنه لم يكذب ، وإنما خاف أن يكون قد عرض له عارضُ سوءٍ ، وهو المقام الثاني ، فذكرت خديجة ما ينفي هذا ، وهو ما كان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وقد عُلم من سنة الله أن من جبله على الأخلاق المحمودة ، ونزهه عن الأخلاق المذمومة ، فإنه لا يخزيه .

وكذلك قال النجاشيُّ لما استخبرهم عما يُخْبِرُ به ، واستقرأهم القرآنَ فقرؤوا عليه : « إنَّ هذا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ »(٤٨) .

وكذلك ورقةُ بن نوفل ، لمَّا أخبره النبيُّ ﷺ بما رآه ، وكان ورقة قد تنصَّرَ ، وكان يكتبُ الإنجيلَ بالعربية ، فقالت له خديجة : « أَيْ : عَمِّ ، اسمَعْ مِن ابْنِ أَخِيْكَ مَا يَقُولُ ، فأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا رَأى ، فَقَالَ : هَذَا هُو النَّامُوسُ الَّذِي كَانَ يَأْتِي مُوْسَى »(*) .

= ذلك : « هو خطأ فاحش ، لعله من الناسخ ، بل هو كلام غير معقول ، وحاشا رسول الله ﷺ أن يقول هذا ، بل هو كلام العلماء ، فسر خشيته على نفسه ، في هذا الحديث ، بأنه خشي الجنون ، واستنكره الحافظ في « الفتح » ١/٢٣ ، قال : وأبطله أبو بكر بن العربي ، وحق له أن يبطل » .

(٤٧) قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها ، رواه البخاري ١/٢١ - ٢٧ في بدء الوحي ، وفي الأنبياء : باب ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ ، وفي التفسير : سورة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ و١٢/٣٠٨ - ٣١٧ في التعبير : باب أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ، ومسلم رقم (١٦٠) في الإيمان : باب بدء الوحي برسول الله ﷺ .

(٤٨) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٦/٢٤ - ٢٧ : رواه أحمد في « المسند » ١/٢٠١ - ٢٠٣ و٥/٢٩٠ - ٢٩٣ من حديث أم سلمة رضي الله عنها ، ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع .

(*) قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها الذي تقدم أعلاه رقم (٤٧) .

وكذلك هرقلُ ملكُ الروم ، فإن النبيَّ ﷺ لما كتب إليه كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام ، طلبَ مَن كان هناك مِن العرب ، وكان أبو سفيان قد قَدِمَ في طائفة مِن قريش في تجارة إلى الشام ، وسألهم عن أحوال النبي ﷺ ، فسأل أبا سفيان ، وأمر الباقين إن كذب أن يُكَذِّبُوه ، فصاروا بسكوتهم موافقينَ له في الإخبار .

سألهم : هل كان من آبائه مِن مَلِك ؟ فقالوا : لا .

قال : فهل قال هذا القولَ أحدٌ قبلَه فقالوا : لا .

وسألهم : أهو ذو نسب فيكم ؟ فقالوا : نعم .

وسألهم : هل كنتم تتَّهِمونَه بالكذبِ قبل أن يقولَ ما قال ؟ فقالوا : لا ، ما جربنا عليه كذباً .

وسألهم هل اتبعه ضعفاء الناس أم أشرافُهم ؟ فذكروا أن الضعفاء اتبعوه ،

وسألهم : هل يزيدون أم يَنقُصُونَ ؟ فذكروا أنهم يزيدون .

وسألهم : هل يرتدُّ أحد منهم عن دينه سُخطةً له بعد أن يدخل فيه ؟ فقالوا : لا .

وسألهم : هل قاتلتموه ؟ قالوا : نعم .

وسألهم عن الحرب بينهم وبينه ، فقالوا : يُدَالُ علينا مرَّة ، ونُدال عليه أخرى .

وسألهم : هل يَغْدِرُ ؟ فذكروا أنه لا يَغْدِرُ .

وسألهم : بمَاذا يأمركم ؟ فقالوا : يأمرنا أن نعبُدَ الله وحدَه ، لا نُشرِكَ به شيئاً ، وينهانا عما كان يعبدُ آباؤ نا ، ويأمُرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

وهٰذه أكثر من عشر مسائل ، ثم بين لهم ما في هذه المسائل من الأدلة ، فقال :

سألتكم هل كان من آبائه من ملك ؟ فقلتم : لا ، قلت : لو كان من آبائه من ملك لقلتُ : رجلٌ يطلب ملك أبيه .

وسألتُكم : هل قال هذا القولَ فيكم أحدٌ قبله ؟ فقلتم : لا ، فقُلتُ : لو قال هذا القولَ أحد قبله ، لقلتُ : رجل ائتَمَّ بقولٍ قِيل قبله .

وسألتكم : هل كنتُم تتَّهِمُونه بالكذب قبل أن يقولَ ما قال ؟ فقلتُم : لا ، فقلت : قد علمتُ أنه لم يَكُنْ ليدَع الكذبَ على الناس ، ثم يذهب فيكذبَ على الله تعالى .

وسألتكم : أضعفاءُ الناس يَتَّبِعُونَه أم أشرافُهم ؟ فقلتُم : ضعفاؤ هم وهم أتباعُ الرسل ـ يعني في أول أمرهم ـ .

ثم قال : وسألتُكم : هل يزيدون أم يَنْقُصُونَ ؟ فقلتُم : بل يزيدون ، وكذلك الإيمانُ حتى يَتِمَّ .

وسألتكم : هل يرتدُّ أحدٌ مِنهم عن دينه سُخطةً له بعد أن يدخل فيه ؟ فقلتم : لا ، وكذلك الإيمان ، إذا خالط بشاشَةَ القلوبِ لا يسخَطُه أحد » .

ـ وهذا مِن أعظم علامات الصدق والحق ، فإن الكذَب والباطل لا بد أن ينكشِفَ في آخر الأمر ، فيرجعَ عنه أصحابه ، ويمتنِعَ عنه من لم يدخُلْ فيه ، والكذبُ لا يروج إلا قليلاً ثم ينكشِفُ ـ

« وسألتُكم : كيف الحربُ بينكم وبينه ؟ فقلتم : إنها دُوَلٌ ، وكذلك الرُّسل تُبتلى وتكون العاقِبةُ لها .

وسألتُكم هل يَغْدِرُ ؟ فقلتُم : لا ، وكذلك الرسلُ لا تغدِر »[(٤٩)] .

وهو لما كان عنده مِن علمه بعادة الرسل وسنة الله فيهم ، أنه تارة ينصرهم

---

(٤٩) رواه البخاري ١/٣٠ ـ ٤١ في بدء الوحي ، و٨/١٦٠ ـ ١٦٨ في تفسير آل عمران : باب ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن نعبد إلا الله ﴾ وفي أبواب عدة ، ومسلم رقم (١٧٧٣) في الجهاد : باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ، وأحمد في « المسند » ١/٢٦٢ ـ ٢٦٣ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وتارة يبتليهم ، وأنهم لا يغدرون ، علم أنَّ هٰذه علاماتُ الرسل ، وأن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أن يبتليهم بالسراء والضراء ، لينالُوا درجة الشكر والصبر .

كما في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « وَالَّذِي نَفْسي بيده ، لاَ يَقْضِي الله لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلاَّ كَانَ خيراً لَهُ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ ، إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ ،/شَكَرَ ، فَكَانَ خَيْرَاً لَهُ ، وَإنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ ، صَبَرَ ، فَكَانَ خَيْرَاً لَهُ »(٥٠) . ٢٥/أ

والله تعالى قد بيَّن في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أُحد من الحكمة فقال : ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ الآيات : [آل عمران : ١٣٩] . وقال تعالى : ﴿ آلم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ الآيات ، [العنكبوت : ١ ـ ٢] ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالة على سنته في خلقه ، وحكمته التي بهرت العقولَ .

« قال : وسألتُكم عما يأمرُ به ؟ فذكرتم أنه يأمُركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف والصِّلة ، وهٰذه صفة نبي . وقد كنتُ أعلم أن نبيَّاً يُبعث ، ولم أكن أظنُّه منكم ، وَلَودِدْتُ أنّي أَخْلُصُ إليه ، ولولا ما أنا فيه من الملك ، لذهبتُ إليه ، وإن يكن ما تقول حقَّاً ، فسيملِكُ موضِعَ قدميَّ هاتين » .

وكان المخاطبَ بذلك أبو سفيان بن حرب ، وهو حينئذ كافر من أشدِّ الناسِ بغضاً وعداوةً للنبي ﷺ .

« قال أبو سفيان بن حرب : قلت لأصحابي ونحنُ خروج : لقد أَمِرَ أَمْرُ

---

(٥٠) رواه مسلم رقم (٢٩٩٩) في الزهد والرقاق : باب المؤمن من أمره كله خير ، وأحمد في « المسند » ٣٣٢/٤ و ١٦/٦ من حديث صهيب رضي الله عنه .
ولفظه عن مسلم : « عَجَبَاً لأَمْرِ المُؤْمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلاَّ لِلْمُؤْمِنِ . . . » .

ابنُ أبي كبشة ، إنه ليعظمه مَلِكُ بني الأصفر ، وما زِلتُ موقناً بأن أمرَ النبيِّ ﷺ سيظهر ، حتى أدخل الله عليَّ الإسلام وأنا كاره » .

ومما ينبغي أن يُعرف : أن يَحْصُلُ في القلب بمجموع أمور ، قد لا يستقِلُّ بعضُها به ، بل ما يحصُل للإنسان ، من شبع ورِي وشُكر وفرح وغم ، بأمور مجتمعة ، لا يحصل ببعضها ، لكن ببعضها قد يحصل بعضُ الأمر .

وكذلك العلمُ بخبر مِن الأخبار ، فإن خبرَ الواحد يُحصِّل للقلب نوع ظن ، ثم الآخر يُقويه ، إلى أن ينتهيَ إلى العلم ، حتى يتزايدَ ويقوى ، وكذلك الأدلةُ على الصدق والكذب ونحو ذلك .

وأيضاً : فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثارَ الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة ، وما فعله بمكذبيهم مِن العقوبة ، كثبوت الطوفانِ ، وإغراق فرعون وجنودِه ، ولما ذكر سبحانه قصصَ الأنبياء نبيًّاً بعد نبي في سورة الشعراء ، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده ، يقول في آخر كل قصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ .

وبالجملة ، فالعلم بأنه كان في الأرض مَنْ يقولُ : إنه رسولُ الله ، وأن أقواماً اتبعوهم ، وأن أقواماً خالفوهم ، وأن الله نصر الرسلَ والمؤمنين ، وجعل العاقبة لهم ، وعاقب أعداءهم ، هو مِن أظهر العلوم المتواترة وأجلاها .

ونقل أخبار هٰذه الأمور أظهرُ وأوضح مِن نقل أخبار من مضى من الأمم من ملوك الفرس ، وعلماء الطب ، كبُقراط وجالينوس وبطليمُوس وسُقراط وأفلاطون وأرسطو ، وأتباعه .

ونحن اليومَ إذا علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمنا يقيناً أنهم كانوا صادقين على الحق من وجوه متعددة :

منها : أنهم أخبروا الأممَ بما سيكون من انتصارهم وخِذلان أولٰئك وبقاء العاقبة لهم .

ومنها : ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاكِ عدوهم ، إذا عرف الوجه الذي حصل عليه ، كغرق فرعون ، وغرقِ قوم نوح ، وبقية أحوالهم ، عُرف صدقُ الرسل .

ومنها : أن من عَرف ما جاء به الرسلُ مِن الشرائع وتفاصيل أحوالها ، تبيَّن له أنهم أعلمُ الخلق ، وأنه لا يحصُلُ مِثْلُ ذٰلك مِن كذاب جاهل ، وأن فيما جاؤوا به ، مِن المصلحة والرحمة والهدى والخير ودلالة الخلق على ما ينفعُهم ومنع ما يضرهم ، ما يُبين أنه لا يَصْدُرُ إلا عن راحِم بَرٍّ يقصِدُ غاية الخير والمنفعة للخلق .

ولذكر دلائل نبوة محمد ﷺ مِن المعجزات وبسطها موضعٌ آخر ، وقد أفردها الناس بمصنفات ، كالبيهقي وغيره .

بل إنكارُ رسالته ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى ، ونسبته إلى الظلم والسفه ، تعالى الله عن ذٰلك علوّاً كبيراً ، بل جحدٌ للرب بالكلية وإنكار .

وبيان ذلك : أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبيٍ صادق ، بل مَلِكٌ ظالم ، فقد تهيَّأ له أن يفتريَ على الله ، ويتقوَّل عليه ، ويستمِرَّ حتى يُحلِّل ويحرِّم ، ويفرِضَ الفرائض ، ويشرَعَ الشرائع ، وينسخ المِلل ، ويضربَ الرقاب ، ويقتلَ أتباعَ الرسل وهم/ أهلُ الحق ، ويسبيَ نساءهم ، ويغنَمَ أموالهم وذرارِتهم ودِيارهم ، ويتم له ذلك حتى يفتح الأرض ، وينسِبَ ذٰلك كُلَّه إلى أمر الله له به ومحبته له ، والربُّ تعالى يُشاهِدُه وهو يفعلُ بأهل الحق ، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة ، وهو مع ذلك كله يُؤيده وينصره ، ويُعلي أمره ، ويمكِّن له مِن أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر ، وأبلغُ من ذلك أنه يُجيب دعواتِه ، ٢٥/ب

وَيُهلِكُ أعداءه ، ويرفَعُ له ذكره ، هذا وهو عندهم في غاية الكذب والافتراء والظلم ، فإنه لا أظلم ممن كذب على الله ، وأبطل شرائع أنبيائه ، وبدَّلها ، وقتل أولياءه ، واستمرت نصرتُه عليهم دائماً ، والله تعالى يُقِرُّه على ذلك ، ولا يأخذ منه باليمين ، ولا يقطع منه الوتين .

فيلزمهم أن يقولوا : لا صانع للعالم ولا مُدَبِّر ولو كان له مدبر قدير حكيم لأخذ على يديه ، ولقابله أعظمَ مقابلة ، وجعله نكالاً للصالحين ، إذ لا يليق بالملوك غيرُ ذلِك ، فكيفَ بِملكِ الملوك ، وأحكمِ الحاكمين ؟

ولا ريب أن الله تعالى قد رَفع له ذِكرَه ، وأظهر دعوته ، والشهادة له بالنبوة على رؤ وس الأشهاد في سائر البلاد ، ونحن لا نُنْكِرُ أن كثيراً من الكذابين قام في الوجود ، وظهرت له شوكةٌ ، ولكن لم يتم أمره ، ولم تَطُلْ مدَّتُه ، بل سلَّط الله عليه رسلَه وأتباعَهم ، فقطعوا دابِرَه واستأصلوه ، هذه سنةُ الله التي قد خلت من قبل ، حتى إن الكفارَ يعلمون ذلك ، قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقولُون شَاعِرٌ نَترَبَّصُ به رِيْبَ المَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فإِنِّي مَعَكُم مِنَ المُتَرَبِّصِينَ ﴾ [الطور: ٣٠ ـ ٣١] أفلا تراه يُخبر أن كمالَه وحِكمته وقُدرته تأبى أن يُقِرَّ مَنْ تَقوَّل عليه بعضَ الأقاويل ، لا بُدّ أن يجعله عبرةً لعباده كما جرت بذلك سنته في المتقوِّلين عليه . وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُون افْتَرَى عَلَى الله كَذِباً فإِنْ يَشَإِ الله يَخْتِمُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشورى : ٢٤] وهنا انتهى جواب الشرط ، ثم أخبر خبراً جازماً غير مُعَلَّق : أنه يمحو الباطِل ، ويحق الحق . وقال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ إذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ الله عَلَى بَشرٍ مِنْ شيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] فأخبر سبحانَه أن مَن نفى عنه الإرسال والكلام ، لم يَقْدُرُه حَقَّ قدره .

وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول ، وأحسنها : أن مَنْ نبَّأه الله بخبر السماء ، إن أمره أن يُبلغ غيرَه ، فهو نبيٌ رسول ، وإن لم يأمره أن يبلغ غيرَه ، فهو نبي وليس برسول ، فالرسول أخصُّ من النبي ، فكل رسول نبي ، وليس كل نبي

رسولاً ، ولكن الرسالَة أعمٌّ من جهة نفسها ، فالنبوة جزء من الرسالة ، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها ، بخلاف الرسل ، [فإنهم](*) لا يتناولون الأنبياء وغيرهم ، بل الأمر بالعكس . فالرسالة أعمٌّ من جهة نفسها ، وأخصُّ من جهة أهلها .

وإرسال الرسل مِن أعظم نعم الله له على خلقه ، وخصوصاً محمداً ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

* * *

قوله : وأنه خَاتِمُ الأَنْبِياءِ .

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيينَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] وقال ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصرٍ أُحسِنَ بُنْيَانُهُ ، تُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ ، فَطَافَ بِهِ النُّظَّارُ يَتَعَجَّبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ ، إِلَّا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاها ، فَكُنْتُ أنا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَّبِنَةِ خُتِمَ بي البُنْيَانُ ، وَخُتِمَ بِي الرُّسُلُ » ، أخرجاه في « الصحيحين »(٥١) .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(٥١) هذا اللفظ رواه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » كما قال السيوطي في « الجامع الكبير » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

والذي في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً ما لفظه: ﴿ إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ ، وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هٰذِهِ اللَّبِنَةُ ، قَالَ : فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ .

رواه البخاري ٤٠٨/٦ في الأنبياء : باب خاتم النبيين ﷺ ، ومسلم رقم (٢٢٨٦) في الفضائل : باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين . =

وقال ﷺ : « إنَّ لي أَسْماءً : أنا مُحَمَّدٌ ، وَأَنا أَحْمَدُ ، وَأَنا المَاحِي ، يَمْحُو الله بِيَ الكُفْرَ ، وَأَنا الحَاشِرُ، الَّذي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمَيَّ ، وَأَنا العاقِبُ ، وَالعَاقِبُ الَّذي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبيٌّ »[52] .

وفي « صحيح مسلم »[53] عن ثوبان رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « وَإِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلاثُونَ ، كُلُّهُم يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ، لاَ نَبِيَّ بَعْدِي » ، الحديث .

ولمسلم[54] : أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِياءِ بِسِتٍّ :

= وفي الباب عند البخاري ٦/٤٠٧ ومسلم رقم (٢٢٨٧) و الترمذي رقم (٢٨٦٦) من حديث جابر ابن‌عبد الله رضي الله عنهما .

ومسلم رقم (٢٢٨٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والترمذي رقم (٣٦١٧) عن أبي بن كعب رضي الله عنه .

انظر « جامع الأصول » رقم (٦٣٤٠) و (٦٣٤١) و (٦٣٤٢) و(٦٣٤٣) .

(٥٢) رواه البخاري ٨ / ٤٩٢ في التفسير : باب تفسير سورة الصف ، و٦/٤٠٤ في الأنبياء : باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ ، ومسلم رقم (٢٣٥٤) في الفضائل : باب في أسمائه ﷺ ، والترمذي رقم (٢٨٤٢) في الأدب ، باب ما جاء في أسماء النبي ﷺ ، والدارمي رقم (٢٧٧٨) في الرقاق : باب في أسماء النبي ﷺ ، و« الموطأ » ٢/١٠٠٤ في أسماء النبي ﷺ ، وأحمد في « المسند » ٤/٨٠ و ٨١ و ٨٤ من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه .

(٥٣) قطعة من حديث رواه أبو داود رقم (٤٢٥٢) في الفتن والملاحم : باب ذكر الفتن ودلائلها ، وأحمد في « المسند » ٥/٢٧٨ والترمذي رقم (٢٢٢٠) في الفتن : باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون ، وإسناده صحيح .

لقد وهم المصنف رحمه الله في نسبة هذه القطعة من الحديث إلى صحيح مسلم ، فإنها لم ترد فيه ، وإن كان أصل الحديث عنده رقم (١٩٢٠) في الإمارة : باب قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق » ورقم (٢٨٨٩) في الفتن : باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، من حديث ثوبان رضي الله عنه .

(٥٤) رقم (٥٢٣) في المساجد : في فاتحته ، والترمذي رقم (١٥٥٣) في السير : باب ما جاء في الغنيمة ، وأحمد في « المسند » ٢/٤١١ و ٤١٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه البخاري والنسائي بلفظ آخر ، سيرد برقم (٦٧) ص (١٣٤) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً ، وَأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ » .

* * *

٢٦/أ **وقوله : وَإِمَامُ الأَتْقِيَاءِ ﷺ /**

الإمامُ الذي يؤتم به ، أي : يقتدون به ، والنبيُّ ﷺ إنما بُعِثَ للاقتداء به ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : ٣١] وكُلُّ من اتبعه واقتدى به ، فهو من الأتقياء .

* * *

قوله : وَسَيِّدُ المُرْسَلِينَ .

قال ﷺ : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبْرُ ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ » رواه مسلم(٥٥) .

وفي أول حديث الشفاعة : « أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ »(*) .

وروى مسلم ، والترمذي عن واثلة بنِ الأسقع رَضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ الله اصْطَفَىٰ كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إسْماعِيلَ ، واصْطَفَىٰ قُرَيْشاً مِنْ

---

(٥٥) رقم (٢٢٧٨) في الفضائل : باب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلائق ، وأبو داود رقم (٤٦٧٣) في السنة : باب في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٥٤٠ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(*) تقدم تخريجه ص ٧٦ رقم ٢٩ .

كِنَانَةَ ، واصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ واصْطَفَانِي مِن بني هَاشِم »[٥٦] .

فإن قيل : يُشكلُ على هذا قوله ﷺ : « لَا تُفَضِّلُوني عَلَى مُوْسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْم القِيامَةِ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَأَجِدُ مُوْسَى باطِشاً بجانب[*] العَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي هل أفَاقَ قَبْلِي ، أَوْ كَانَ ممَّنْ استَثْنَى الله » أخرجاه في « الصحيحين »[٥٧] ، فكيف يُجمع بينَ هذا وبين قوله « أَنَا سَيِّدُ ولدِ آدم ولا فَخر »[٥٨] .

فالجواب : أن هذا كان له سببٌ ، فإنه كان قد قال يهودي : لا والَّذي اصطفى موسى على البشر ، فلطمه مسلمٌ ، وقال : أتقولُ هذا ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا ؟ فجاء اليهوديُّ ، فاشتكى مِن المسلم الذي لطمه ، فقال النبي ﷺ هذا ، لأن التفضيلَ إذا كان على وجه الحَمِيَّةِ والعصبيَّةِ وهوى النفسِ كان مذموماً ، بل

---

(٥٦) رواه مسلم رقم (٢٢٧٦) في الفضائل : باب فضل نسب النبي ﷺ ، والترمذي رقم (٣٦١٢) في المناقب : باب ما جاء في فضل النبي ﷺ ، وأحمد في « المسند » ٤ / ١٠٧ .

(*) في الأصل : الساق ، والتصحيح من كتب الحديث .

(٥٧) رواه البخاري ٥٢/٥ في الخصومات : باب ما يذكر في الأشخاص و الخصومة بين المسلم واليهود ، و٣١٧/٦ في الأنبياء : باب قوله تعالى ﴿ إن الله يـأمـركم أن تذبحوا بقرة ﴾ وباب قوله تعالى ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾و٣١٨/١١ في الرقائق : باب نفخ الصور ، ومسلم رقم (٢٣٧٣) (١٦٠) في الفضائل : باب من فضائل موسى عليه السلام ، وأبو داود رقم (٤٦٧١) في السنة : باب في التخيير بين الأنبياء عليهم السلام، وأحمد في « المسند » ٢/ ٢٦٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . انظر « جامع الأصول » رقم (٦٣٠٨) .

ورواه البخاري ٥٢/٥ في الخصومات : باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود ، وفي التفسير باب قوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ و٢٣٣/١٢ في الديات ، وأحمد ٤٠/٣ ـ ٤١ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٥٨) رواه أحمد في « المسند » ٢/٣ والترمذي رقم (٣٦١٨) في الزهد : باب ذكر الشفاعة ، وابن ماجة رقم (٤٣٠٨) في الزهد : باب ذكر الشفاعة ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٢٨١/١ و٢٨٢ و٢٩٥ و٢٦٩ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وفي إسنادهما علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف ، وله شاهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . المتقدم برقم (٢٩) ص (٧٦) والآتي ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ بلفظ : « أنا سيد الناس يوم القيامة . . . » .

نفسُ الجِهاد إذا قاتل الرجل حَمِيَّةً وعصبيَّةً كان مذموماً ، فإن الله حرم الفخر ، وقد قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : ٥٥] وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُم عَلَى بَعْضٍ مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ الله ورفع بَعْضَهُم دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] فعُلِمَ أن المذمومَ إنما هو التفضيلُ على وجه الفخر ، أو على وجه الانتقاص بالمفضول ، وعلى هذا يُحْمَلُ أيضاً قولُه ﷺ : « لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ »(٥٩) ، إن كان ثابتاً ، فإن هذا قد رُوي في نفس حديث موسى ، وهو في البخاري وغيره ، ولكن بعض الناس يقول : إن فيه علةً ، بخلاف حديثِ موسى ، فإنه صحيح لا عِلة فيه باتفاقهم .

وقد أجاب بعضُهم بجواب آخر ، وهو : أن قوله ﷺ « لا تُفَضِّلُوني عَلَى مُوسى » ، وقوله : « لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الأَنْبِياءِ » نهي عن التفضيل الخاص ، أي : لا تُفَضَّل بعضُ الرسل على بعض بعينه ، بخلاف قوله : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ » فإنه تفضيل عامٌ ، فلا يمتنع منه ، وهذا كما لو قيل : فلان أفضلُ أهلِ البلد ،

---

(٥٩) رواه البخاري ٦/٣٢٤ـ ٣٢٥ في الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين ﴾ ومسلم رقم (٢٣٧٣) (١٥٩) في الفضائل : باب في فضائل موسى عليه السلام من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه البخاري ٥ /٥٢ ، ومسلم رقم (٢٣٧٤) ، وأحمد في « المسند » ٣ / ٣٣ وأبو داود رقم (٤٦٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، بلفظ : « لا تخيروا بين الأنبياء » .

قال الإمام النووي في « شرح صحيح مسلم » ١٥/ ٣٧ ـ ٣٨ .

جوابه من خمسة أوجه :

أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم ، فلما علم أخبر به .

والثاني : قاله أدباً وتواضعاً .

والثالث : أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلى تنقيص المفضول .

والرابع : إنما نهى عن تفضيل يؤدي إلى الخصومة والفتنة ، كما هو المشهور في سبب الحديث .

والخامس : أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة ، فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرى ، ولا بد من اعتقاد التفضيل ، فقد قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ .

لا يَنصَبُّ على أفرادهم ، بخلاف ما لو قيل لأحدهم : فلان أفضلُ منك .

ثم إني رأيت الطحاوي رحمه الله قد أجاب بهذا الجواب في « شرح معاني الآثار » .

وأما ما يُروى أن النبيَّ ﷺ قال : « لَا تُفَضِّلُوني عَلَى يُونُسَ » ، وأن بعض الشيوخ قال : لا يفسر لهم هذا الحديث حتى يُعطى مالاً جزيلاً ، فلما أعطوْه فسرَّه بأن قُرب يونس من الله ، وهو في بطن الحوت ، كقُربي من الله ليلةَ المعراج ، وعدُّوا هذا تفسيراً عظيماً . وهذا يدل على جهلهم بكلام الله وبكلام رسوله لفظاً ومعنى ، فإن هذا الحديثَ بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب التي يُعتمد عليها ، وإنما اللفظ الذي في «الصحيح» : « لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ: أَنا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى » . وفي رواية : «مَنْ قَالَ: إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ » . وهذا اللفظ يدل على العموم أي« لَا يَنْبَغِي لأحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بنِ مَتَّى »(٦٠) ، ليس فيه نهي المسلمين أن يُفضِّلوا محمداً على يونس ، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت ، وهو مليم ، أي : فاعل ما يُلام عليه وقال تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْه فَنَادى في الظُّلُماتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكملُ مِن يونس ، فلا يحتاج إلى هذا المقام ، إذ لا يفعل ما يُلام عليه ، ومن ظن هذا ، فقد كذب ، بل كلُّ عبد من عباد الله يقول ما قال يونس : ﴿ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ ، كما قال أولُ الأنبياء وآخرهم .

فأولهم : آدم ، قد قال : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا

---

(٦٠) رواه البخاري ٦/ ٣٢٤ ، ومسلم رقم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. ورواه أيضاً البخاري ٦/ ٣٠٧، ومسلم رقم (٢٣٧٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . ورواه البخاري ٦/ ٣٢٤ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وانظر « جامع الأصول » رقم (٦٣١١) و (٦٣١٢) و (٦٣١٣) و (٦٣١٤) .

لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] .

وآخِرُهم وأفضلهم وسيدهم : محمد ﷺ ، قال في الحديث الصحيح ، حديث/الاستفتاح ، من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره ، بعد قوله «وَجَّهْتُ وَجْهِي» إلى آخره : «اللَّهُمَّ أَنْتَ المَلِكُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ ، أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ، ظَلَمْتُ نَفْسِي ، واعتَرَفْتُ بِذَنْبِي ، فَاغْفِرْ لي ذُنُوبي جَمِيعاً ، لَا يغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ» إلى آخر الحديث[٦١] .

٢٦/ب

وكذا قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لي فَغَفَرَ لَهُ إنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [القصص : ١٦] .

وأيضاً فيونسُ ﷺ لما قيل فيه : ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الحُوتِ ﴾ [القلم : ٤٨] ، فَنُهِيَ نبيُّنا ﷺ عن التشبه به ، وأمره بالتشبه بأولي العزم حيث قيل له : ﴿ فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، فقد يقول من يقول : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ، وَلَيْسَ للأفضلِ أن يفخر على مَنْ دونه ، فكيف اذا لم يكن أفضلَ ، فإن الله لا يُحِبُّ كلَّ مختَال فخور .

وفي «صحيح مسلم»[٦٢] عن النبي ﷺ أنه قال : «أُوْحِيَ إلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا ، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ» . فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين ، فكيف على نبي كريم ؟ فلهذا قال : «لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ

---

(٦١) رواه مسلم رقم (٧٧١) في صلاة المسافرين : باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، وأبو داود رقم (٧٦٠) في الصلاة : باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذي رقم (٣٤١٧) و(٣٤١٨) و(٣٤١٩) في الدعوات : باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، والنسائي ٢/ ١٢٩ ـ ١٣٠ في الافتتاح : باب نوع آخر من الذكر والدعاء بين التكبير والقراءة ، وأحمد في « المسند » ١/ ٩٤ و٩٥ و١٠٢ ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (٤٤٥) « موارد » .

(٦٢) رقم (٢٨٦٥) (٦٤) في الجنة وصفة نعيمها : باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ، وأبو داود رقم (٤٨٩٥) في الأدب : باب في التواضع ، وابن ماجه رقم (٤١٧٩) في الزهد : باب البراءة في الكبر والتواضع ، من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه .

يَقُولَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى» . فهذا نهي عام لكل أحد أن يتفضَّل ويفتخرَ على يونس .

وقوله : «مَنْ قَالَ إنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَب» ، فإنه لو قُدِّرَ أنه كان أفضل ، فهذا الكلامُ يصير نقصاً ، فيكون كاذباً ، وهذا لا يقولُه نبي كريم ، بل هو تقدير مطلق ، أي : من قال هذا ، فهو كاذب ، وإن كان لا يقولُه نبي ، كما قال تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وإن كان ﷺ معصوماً من الشرك ، لكن الوعدَ والوعيدَ لبيان مقادير الأعمال .

وإنما أخبر ﷺ أنه سيدُ ولد آدم ، لأنا لا يُمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره ، إذ لا نبيَّ بعده يُخبرنا بعظيم قدره عند الله ، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله صلى الله عليه وسلم أجمعين .

ولهذا أتبعه بقوله : « وَلَا فَخْرَ » كما جاء في رواية ، وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر : إن مقام الذي أُسريَ به إلى ربه ، وهو مقرَّب معظَّم مكرَّم ، كمقام الذي ألقي في بطن الحوت ، وهو مُليم ؟ ! وأين المعظَّم المقرَّبُ من الممتَحنِ المؤدَّب ؟ ! فهذا في غاية التقريب ، وهذا في غاية التأديب . فانظر إلى هذا الاستدلال ، لأنه بهذا المعنى المحرَّف اللفظ لم يقله الرسول ، وهل يُقاوم هذا الدليل على نفي علو الله تعالى عن خلقه الأدلةَ الصحيحةَ الصريحة القطعية على علو الله تعالى على خلقه ، التي تزيد على ألف دليل ، كما يأتي الاشارة إليها عند قول الشيخ رحمه الله «محيط بكل شيء وفوقه» ، إن شاء الله تعالى(*) .

* * *

قوله : وَحَبِيبُ رَبِّ العَالَمِينَ .

ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة ، وهي الخُلَّة ، كما صح عنه ﷺ أنه قال :

(*) انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

«إنَّ الله اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كما اتَّخذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً»[٦٣] . وقال : «وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُم خَلِيلُ الرَّحْمٰن»[٦٤] . والحديثان في «الصحيح» وهما يبطلان قول من قال : الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد ، فإبراهيم خليل الله ، ومحمد حبيبه .

وفي «الصحيح»[٦٥] أيضاً : «إنِّي أَبْرَأُ إلى كُلِّ خَلِيلٍ مِن خُلَّتِهِ» .

والمحبة قد ثبتت لغيره . قال تعـالى : ﴿ والله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ﴿ فَإِنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ٧٦] . ﴿ إِنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] . فبطل قولُ مَنْ خَصَّ الخُلة بإبراهيم ، والمحبة بمحمد ، بل الخُلَّة خاصة بهما ، والمحبة عامة .

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما ، الذي رواه الترمذي ، الذي فيه : «إنَّ إبْراهِيمَ خَلِيلُ الله ، ألاَ وَأَنَا حَبِيبُ الله وَلاَ فَخْرَ»[٦٦] لم يثبت .

---

(٦٣) رواه مسلم رقم (٥٣٢) في المساجد : باب النهي عن بناء المساجد على القبور من حديث جندب رضي الله عنه ، قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « إنِّي أَبْرَأُ إلَىٰ اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ ابْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ ، أَلَا فَلَا تَتخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ ، إنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ » .

(٦٤) رواه مسلم رقم (٢٣٨٣) (٦) في فضائل الصحابة : باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٦٥٦) في المناقب : باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ ابنَ أبي قُحَافَةَ خَلِيلاً ، وَلَكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللهِ » .

وفي الباب عن أبي سعيد الخدري ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤٠٦) و (٦٤٠٧) و (٦٤٠٨) و (٦٤٠٩) .

(٦٥) رواه مسلم رقم (٢٣٨٣) (٧) في فضائل الصحابة : باب مناقب أبي بكر الصديق ، والترمذي رقم (٣٦٥٦) في المناقب : باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وابن ماجه رقم (٩٣) في المقدمة : باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٦٦) هو جزء من حديث طويل رواه الترمذي رقم (٣٦٢٠) في المناقب : باب في فضل النبي =

والمحبة مراتب :

أولها : العَلاقة ، وهي تعلق القلوبِ بالمحبوب .

والثانية : الارادة ، وهي ميل القلب إلى محبوبه وطلبُه له .

الثالثة : الصبابةُ ، وهي انصبابُ القلب إليه بحيث لا يملِكُه صاحبُه ، كانصباب الماء في الحَدور .

الرابعة : الغَرام ، وهي الحُبُّ اللازم للقلب ، ومنه الغريم ، لملازمته ، ومنه : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً﴾ [الفرقان : ٦٥] .

الخامسة : المودةُ ، والود ، وهي صفو المحبة وخالصها ولبُّها ، قال تعالى : ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم : ٩٦] .

السادسة : الشَّغَفُ ، وهي وصولُ المحبة إلى شَغاف القلب .

السابعة : العِشقُ : وهو الحُبُّ المُفرِط الذي يُخاف على صاحبه منه ، ولكن لا يُوصف به الربُّ تعالى ، ولا العبدُ في محبة ربِّه ، وإن كان قد أطلقه بعضُهم .

واختُلِفَ في سبب المنع ، فقيل : عدمُ/التوقيف ، وقيل غير ذلك ، ولعل امتناعَ إطلاقه لأن العشق محبة مع شهوة . ٢٧/أ

الثامنة : التَّيْم ، وهو بمعنى التعبد .

التاسعة : التعبد .

العاشرة : الخُلَّة ، وهي المحبة التي تخللت روحَ المحب وقلبه .

= ﷺ ، والدارمي رقم (٤٨) في المقدمة : باب ما أعطي النبي ﷺ ، من الفضل ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وفيه زمعة بن صالح وسلمة بن وهرام ، وهما ضعيفان ، ولذا قال الترمذي : هذا حديث غريب .

وقيل في ترتيبها غير ذلك ، وهذا الترتيب تقريبُ حسن ، لا يعرف حسنه إلا بالتأمل في معانيه .

واعلم أن وصف الله تعالى بالمحبة والخُلَّة هو كما يليق بجلال الله تعالى وعظمته ، كسائر صفاته تعالى ، وإنما يُوصف الله تعالى من هذه الأنواع بالإرادة والوُدِّ والمحبة والخلة ، حسبما وردَ النص .

وقد اختُلِفَ في تحديد المحبة على أقوال ، نحو ثلاثين قولاً ، ولا تُحد المحبة بحدٍّ أوضح منها ، فالحدود لا تزيدُها إلا خفاء ، وخفاء هذه الأشياء الواضحة لا تحتاج إلى تحديد ، كالماء والهواء والتراب والجوع والشبع ونحو ذلك .

* * *

قوله : وَكُلُّ دَعْوَى النُّبُوَّةِ بَعْدَهُ فَغَيٌّ وَهَوَىٰ .

لما ثبت أنه خاتَمُ النبيين ، عُلِمَ أن من ادعى بعده النبوة ، فهو كاذب ، ولا يقال : فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة ، كيف يقال بتكذيبه ؟ لأنا نقول : هذا لا يُتصوَّر أن يُوجد ، وهو من باب فرض المحال ، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتَمُ النبيين ، فَمِنَ المحال أن يأتي مدَّعٍ يدَّعي النبوة ، ولا يَظْهَرُ أمارة كذبه في دعواه . والغي : ضد الرشاد ، والهوى : عبارة عن شهوة النفس ، أي : أن تلك الدعوى بسبب هوى النفس ، لا عن دليل ، فتكون باطلة .

* * *

قوله : وَهُوَ المَبْعُوثُ إِلَىٰ عَامَّةِ الجِنِّ وَكَافَّةِ الوَرَىٰ ، بِالحَقِّ وَالهَوَىٰ ، وَبِالنُّورِ وَالضِّيَاءِ .

أما كونُه مبعوثاً إلى عامة الجن ، فقال تعالى حِكاية عن قول الجن : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ﴾ الآية [الأحقاف : ٣١] ، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضاً ، قال مقاتِل : لم يبعثِ الله رسولاً إلى الإنس والجن قبله ، وهذا قول بعيد ، فقد قال تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم﴾ الآية [الأنعام : ١٣٠] ، والرسل من الإنس فقط ، وليس مِن الجن رسول ، كذا قال مجاهد وغيرُه من السلف والخلف . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الرسلُ من بني آدم ، ومن الجن نُذرٌ . وظاهر قوله تعالى حكاية عن الجن : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الآية [الأحقاف : ٣٠] ، تدل على أن موسى مرسلٌ إليهم أيضاً . والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم : أنه زعم أن في الجن رسلاً ، واحتج بهذه الآية الكريمة . وفي الاستدلال بها على ذلك نظر ، لأنها محتملة وليست بصريحة ، وهي ـ والله أعلم ـ كقوله : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالمَرْجَانُ﴾ [الرحمن : ٢٢]والمراد : من أحدهما .

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى ، فقد قال تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ [سبأ : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم جَمِيعاً﴾ [الأعراف : ١٥٨] . وقال تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِليَّ هٰذَا القُرْآنُ لأُنْذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام : ١٩] . أي : وأُنْذِرُ من بلغه ، وقال تعالى : ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً وَكَفَى باللهِ شَهِيداً﴾ [النساء : ٧٩] . وقال تعالى : ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلى رَجُلٍ مِنْهُم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُوا أَنَّ لَهُم قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ الآية [يونس : ٢] ، وقال تعالى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي

نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالِمينَ نَذِيراً﴾ [الفرقان : ١] . وقال تعالى : ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُم فَإِنْ أَسْلَموا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّما عَلَيْكَ البَلاَغُ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقال ﷺ : «أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأنْبياءِ قَبْلي : نُصِرْتُ بِالرُّعبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً ، فَأَيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلي ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ ، وَكَانَ النَّبيُّ يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عَامَّةً» ، أخرجاه في «الصحيحين»(٦٧) .

وقال ﷺ : «لاَ يَسْمَعُ بي رَجُلٌ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ لاَ يُؤْمِنُ بِي إلاَّ دَخَلَ النَّارِ» ، رواه مسلم(٦٨) .

وكونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة معلومٌ من دين الإسلام بالضرورة .

وأما قول بعض النصارى : إنه رسولٌ إلى العرب خاصة ، فظاهر البطلان ، فإنهم لما صدَّقوا بالرسالة ، لزمهم تصديقُه في كل ما يُخبرُ به ، وقد قال : إنه رسول الله الى الناس عامة ، والرسول لا يكذِبُ ، فلزم تصديقُه حتماً ، فقد أَرْسَلَ رُسُلَه ، وبَـثَّ كُتُبَه في أقطار الأرض الى كِسرى وقيصَرَ والنجاشيِّ والمقوقِس وسائرِ ملوك/الأطراف ، يدعو إلى الإسلام . ٢٧/ب

(٦٧) رواه البخاري ١/ ٣٦٩ ـ ٣٧١ في أول التيمم ، وفي الصلاة : باب جعلت لي الأرض مسجداً و طهوراً ، وفي الجهاد : باب قول النبي ﷺ : « أحلت لكم الغنائم » ، ومسلم رقم (٥٢١) في المساجد في فاتحته ، والنسائي ١/٢١٩ ـ ٢١١ في الغسل : باب التيمم بالصعيد ، والدارمي رقم (١٣٩٦) في الصلاة : باب الأرض كلها طاهرة ما خلا المقبرة والحمام ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

(٦٨) رقم (١٥٣) في الإيمان : باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته من حديث أ بي هريرة رضي الله عنه .

وقوله : وكافة الورى . في جر «كافة» نظر ، فإنهم قالوا : لم تُستعمل «كافة» في كلام العرب إلا حالاً .

واختلفوا في إعرابها في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ ﴾ [سبأ : ٢٨] على ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها حالٌ من الكاف في «أرسلناك» وهي اسم فاعل ، والتاء فيها للمبالغة ، أي : إلا كافًّا للناس عن الباطل ، وقيل : هي مصدر كفَّ ، فهي بمعنى كفّاً، أي: إلا تكفَّ الناس كفًّا ، ووقوعُ المصدر حالاً كثير .

الثاني : أنها حال من «الناس» ، واعترض بأن حال المجرور لا يتقدم عليه عند الجمهور ، وأُجيب بأنه قد جاء عن العرب كثيراً ، فوجب قبولُه ، وهو اختيارُ ابن مالك رحمه الله ، أي : وما أرسلناك إلا للناس كافة .

الثالث : أنها صفة لمصدر محذوف ، أي : رسالة كافة ، واعترض بما تقدم أنها لم تُستعمل إلا حالاً .

وقوله : بالحق والهدى وبالنور والضياء . هٰذه أوصاف ما جاء به رسول الله ﷺ من الدين والشرع ، المؤيد بالبراهين الباهرة ، من القرآن وسائر الأدلة . والضياء : أكمل من النور ، قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً والقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس : ٥] .

* * *

قوله : وَإِنَّ القُرْآنَ كَلامُ الله ، مِنْهُ بَدَا بلَا كَيْفِيَةٍ قَوْلاً ، وَأَنْزَلَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَحْيَاً ، وَصَدَّقَهُ المُؤْمِنُونَ عَلَىٰ ذَلِكَ حَقّاً ، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ الله تَعَالَىٰ بِالحَقِيقَةِ ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ البَرِيَةِ . فَمَنْ سَمِعَه ، فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلامُ

البَشَرِ ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَقَدْ ذَمَّهُ الله ، وَعَابَهُ ، وَأَوْعَدَهُ بِسَقَر ، حَيْثُ قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر : ٢٦] فَلَمَّا أَوْعَدَ الله بِسَقَرٍ لِمَنْ قَالَ : ﴿إِنْ هٰذَا إِلَّا قَولُ البَشَرِ﴾ [المدثر : ٢٥] عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ البَشَرِ ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ البَشَرِ .

هذه قاعدة شريفة ، وأصل كبير من أصول الدين ، ضلَّ فيه طوائف كثيرةٌ من الناس ، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله هو الحقُّ الذي دلَّت عليه الأدلةُ مِن الكتاب والسنة لمن تدبَّرهما ، وشَهِدَت به الفطرةُ السليمة التي لم تُغَيَّر بالشبهات والشُكوك ، والآراء الباطلة .

وقد افترق الناسُ في مسألة الكلام على تسعة أقوال :

أحدها : أن كلام الله تعالى هو ما يَفيض على النفوس من المعاني ، إما من العقل الفعال عند بعضهم ، أو مِن غيره ، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة .

وثانيها : أنه مخلوقٌ خلقه الله منفصلاً عنه ، وهذا قولُ المعتزلة .

وثالثها : أنه معنى واحد قائم بذات الله ، هو الأمرُ والنهيُ والخبرُ والاستخبارُ ، إن عُبِّرَ عنه بالعربية ، كان قرآناً ، وإن عُبِّرَ عنه بالعبرية ، كان توراة ، وهذا قولُ ابنِ كُلَّابٍ وَمَنْ وافقه ، كالأشعري وغيرِه .

ورابعُها : أنه حروف وأصواتٌ أزلية مجتمعة في الأزل ، وهذا قولُ طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث .

وخامسُها : أنه حروفٌ وأصوات ، لكن تكلَّم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً ، وهذا قول الكرَّامية وغيرهم .

وسادسها : أن كلامَه يرجعُ إلى ما يُحدِثُه مِن علمه وإرادته القائم بذاته ،

وهذا يقوله صاحب « المعتبر » ويميل إليه الرازي(*) في « المطالب العالية » .

وسابعها : أن كلامَه يتضمَّن معنى قائماً بذاته ، هو ما خلقه في غيره ، وهذا قولُ أبي منصور الماتُريدي رحمه الله .

وثامنها : أنه مشتَرك بين المعنى القديم القائم بالذات ، وبينَ ما يخلُقُه في غيره من الأصوات ، وهذا قول أبي المعالي ومن تبعه .

وتاسعها : أنه تعالى لم يزل متكلماً ، إذا شاء ، ومتى شاء ، وكيف شاء ، وهو يتكلَّم به بصوت يُسمع ، وأن نوعَ الكلام قديم ، وإن لم يكن الصوتُ المعين قديماً ، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة .

وقول الشيخ رحمه الله : وإن القرآن كلام الله ، « إن » بكسر الهمزة عطف على قوله : إن الله واحد لا شريك له ، ثم قال : وإن محمداً عبده المصطفى ، وكسر همزة إن في هذه المواضع الثلاثة ، لأنها معمول القول ، أعني قوله في أول كلامه : نقول في توحيد الله .

وقوله : كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً : رد على المعتزلة وغيرهم . فإن المعتزلة تزعمُ أن القرآن لم يَبْدُ منه ، كما تقدم حكايةُ قولهم ، قالوا : وإضافته إليه إضافة تشريف ، كبيت الله ، وناقة الله ، يُحرِّفون الـكِلَمَ عن مواضعه ، وقولُهم باطل ، فإن المضافَ إلى الله تعالى معانٍ وأعيانٌ ، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف ، وهي مخلوقة له ، كبيت الله ، وناقة الله ، بخلاف إضافة المعاني ،

(*) هو أبو عبد الله ، فخر الدين ، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين بن علي التميمي ، البكري ، الطبرستاني ، الرازي ، الشافعي ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشي النسب ، ولد بـ « الري » سنة ٥٤٤ هـ ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، وتوفي في « هراة » سنة ٦٠٦ هـ من تصانيفه الكثيرة : « مفاتيح الغيب » في تفسير القرآن ، و « معالم أصول الدين » و « المطالب العالية » في الكلام و « مناقب الإمام الشافعي » وغيرها .

كعلم الله ، وقدرته ، وعزته ، وجلاله ، وكبريائه ، وكلامه ، وحياته ، وعلوه ، وقهره ، فإن هذا كله من صفاته ، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً /. ١/٢٨أ

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وضده من أوصاف النقص ، قال تعالى : ﴿ واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِم عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَلَمْ يرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُم وَلَا يَهْدِيهِم سَبِيلاً ﴾ [الأعراف : ١٤٨]. فكان عبَّاد العجل مع كفرهم ، أعرفَ بالله مِن المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم أيضاً . وقال تعالى عن العجل أيضاً : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِم قَوْلاً وَلَا يَملِكُ لَهُم ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ [طه : ٨٩] . فعُلِمَ أن نفي رجوعِ القول ، ونفي التكلم ، نقصٌ يُستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهتهم أنهم يقولون : يلزم منه التشبيهُ والتجسيم ، فيقال لهم : إذا قلنا : إنه تعالى يتكلَّم كما يليقُ بجلاله ، انتفتْ شُبهتهم .

ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِم وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِم وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ [يس : ٦٥] . فنحن نؤمن أنها تتكلم ، ولا نعلمُ كيفَ تتكلم .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِم لِمَ شَهِدْتُم عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت : ٢١] . وكذلك تسبيحُ الحصى والطعام ، وسلام الحجر ، كلُّ ذلك بلا فم يخرج منه الصوت الصاعد مِن لديه ، المعتمد على مقاطع الحروف .

وإلى هذا أشار الشيخ رحمه الله بقوله : منه بدا بلا كيفية قولاً ، أي : ظهر منه ولا ندري كيفية تكلمه به ، وأكَّد هذا المعنى بقوله « قولاً » ، أتى بالمصدر المعرف للحقيقة ، كما أكد الله تعالى التكليم بالمصدر المثبت للحقيقة النافي للمجاز في قوله : ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾. فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء(*) ، أحدِ القراء السبعةِ : أُريد أن تقرأ وكَلَّمَ اللهَ موسى ، بنصب اسم الله ، ليكون موسى هو المتكلِّم لا الله ، فقال أبوعمرو : هب أني قرأتُ هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ ؟ ! فبُهت المعتزلي !

وكم في الكتاب والسنة من دليل على تكليم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم ، قال تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] .

فعن جابر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيمِهِم إذْ سَطَعَ لَهُم(**) نُورٌ ، فَرَفَعُوا رؤوسهم(***) ، فإذَا الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِم مِنْ فَوْقِهِم ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُم يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ، وذلك قَوْلُ الله تَعَالَى : ﴿ سَلَامٌ قَولًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] ، قال : «فَيَنْظُر إليهم وينظرون إليه فَلَا يَلْتَفِتُون إلى شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ ، مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إلَيْهِ ، حَتَّى يَحْتَجِبَ عَنْهُم ، وَتَبْقَى بَرَكَتُهُ وَنُورُهُ عَلَيْهِم في ديارهم » . رواه ابن ماجه(٦٩) وغيره . ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام ، وإثبات الرؤية ، وإثبات العلوّ ، وكيف يصح مع هذا أن يكون كلام الرب كله معنى واحداً ، وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُم فِي الآخِرَةِ وَلَا

(*) هو زبان بن عمار التميمي المازني البصري ، من أئمة اللغة والأدب ، وأحد القراء السبعة ، ولد بمكة سنة ٧٠ هـ ، ونشأ بالبصرة ، ومات بالكوفة سنة ١٥٤ هـ .

(**) في الأصل : عليهم .

(***) في الأصل : أبصارهم والتصحيح من « سنن ابن ماجه » .

(٦٩) رقم (١٨٤) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، وأبو نعيم في « الحلية » ٦/٢٠٨ - ٢٠٩ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

قال السيوطي في « مصباح الزجاجة » : والذي رأيته أنا في كتاب العقيلي ما نصه : عبد الله بن عبيد الله أبو عاصم العباداني ، منكر الحديث ، وكان الفضل بن عيسى الرقاشي يرى القدر ، كاد أن يغلب على حديثه الوهم .

يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران : ٧٧] فأهانهم بترك تكليمِهم ، والمرادُ : أنه لا يكلمهم تكليمَ تكريم ، وهو الصحيحُ ، إذ قد أخبر في الآيةِ الأخرى أنه يقولُ لهم في النار : ﴿ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، فلو كان لا يُكلم عبادَه المؤمنين ، لكانوا في ذلك هم وأعداؤُه سواءً ، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يُكلِّمهم فائدةٌ أصلاً .

وقال البخاري في « صحيحه » : باب كلام الربّ تبارك وتعالى مع أهل الجنة ، وساق فيه عدةَ أحاديث . فأفضلُ نعيم أهل الجنة رؤيةُ وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمُه لهم ، فإنكار ذلك إنكارٌ لروح الجنة ، وأعلى نعيمها ، وأفضله ، الذي ما طابت لأهلها إلا به .

وأما استدلالهُم بقوله تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] ، والقرآنُ شيء ، فيكون داخلاً في عموم « كل » فيكون مخلوقاً !!

فَمِنْ أعجب العجب ، وذلك أن أفعالَ العباد كُلَّها عندهم غيرُ مخلوقة لله تعالى ، وإنما يخلُقُها العِبادُ جميعَها ، لا يخلقُها الله ، فأخرجوها مِن عموم « كل » ، وأدخلوا كلامَ الله في عمومها مع أنه صِفة من صفاته ، به تكون الأشياء المخلوقة ، إذ بأمره تكون المخلوقات ، قال تعالى : ﴿ والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . ففرَّق بين الخلق والأمر ، فلو كان الأمرُ مخلوقاً ، للزمَ أن يكون مخلوقاً بأمر آخر ، والآخرُ بآخر ، إلى ما لا نهاية له ، فيلزم التسلسلُ ، وهو باطل . وطرد باطلهم : أن تكونَ جميعُ صِفاتِه تعالى مخلوقة ، كالعِلم والقُدرة وغيرهما ، وذلك صريحُ الكفر ، فإنَّ علمه شيء ، وقدرته شيء ، وحياتَه شيء ، فيدخُل ذلك في عموم كل ، فيكون مخلوقاً بعد أنْ لم يكن ، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً .

٢٨/ب وكيفَ يَصِحُّ أن يكونَ متكلماً بكلام يقومُ بغيره ؟ ولو صحَّ ذلك/للزم أن

يكون ما أحدثه مِن الكلام في الجمادات كلامَه ! وكذلك أيضاً ما خلقه في الحيوانات ، ولا يُفرق حينئذ بين نَطق وأنطقَ ، وإنما قالت الجلودُ : ﴿ أَنْطَقَنَا الله ﴾ [فصلت : ٢١] ، ولم تَقُلْ : نطقَ الله ، بل يلزم أن يكون متكلماً بكل كلام خلقه في غيره ، زوراً كان أو كذباً أو كفراً أو هذياناً !! تعالى الله عن ذٰلك .

وقد طرَّدَ ذٰلك الاتحاديةُ ، فقال ابنُ عربي(*) :

وكُلُّ كَلَامٍ في الوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ !!

ولو صحَّ أن يُوصف أحد بصفة قامتْ بغيره ، لصحَّ أن يُقال للبصير : أعمى ، وللأعمى : بصير ! لأن البصيرَ قد قام وصفُ العمى بغيره ، والأعمى قد قام وصفُ البصر بغيره ! ولصحَّ أن يُوصف الله تعالى بالصفات التي خلقها في غيره ، من الألوان والروائح والطعوم والطول والقصر ، ونحو ذلك .

وبمثل ذلك ألزم الإمام عبدُ العزيز المكي بشراً المريسي بين يدي المأمون بعد أن تكلم معه ملتزماً ألَّا يخرج عن نصِّ التنزيل ، وألزمه الحجة ، فقال بشر : يا أميرَ المؤمنين ! لِيَدْعِ مطالبتي بنصِّ التنزيل ، ويُناظرني بغيره ، فإن لم يدع قولَه ، وَيَرْجِعْ عنه ، ويُقِرَّ بخلق القرآن الساعةَ وإلا فدمي حلال . قال عبدُ العزيز : تسألني أم أسألُكَ ؟ فقال بشر : أنت ، وطَمِعَ فيَّ ، فقلتُ له : يلزمُكَ واحدةً مِن ثلاث لا بُدَّ منها : إما أن تقول : إن الله خلقَ القرآن ـ وهو عندي أنا كلامُه ـ في نفسه(**) ، أو خلقه قائماً بذاته ونفسه ، أو خلقه في غيره ؟ قال :

(*) هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الطائي الحاتمي المرسي، ولد سنة ٥٦٠ هـ في مرسية بالأندلس ، رحل إلى مصر والحجاز وبغداد والموصل وبلاد الروم ، وانكر عليه أهل مصر أراءه ، فعمل بعضهم على اراقة دمه ، وحبس ، فسعى في خلاصه علي بن الفتح البجائي ، فنجا ، واستقر بدمشق . قال الذهبي : قدوة القائلين بوحدة الوجود توفي بدمشق سنة ٦٣٨ هـ .
أشهر كتبه « الفتوحات المكية » « فصوص الحكم » « ديوان شعر » .

(**) عبارة « الحيدة » إن الله خلق كلامَه في نفسه .

أقول : خلقه كما خلق الأشياء كُلَّها . وحاد عن الجواب . فقال المأمون : اشرح أنت هذه المسألة ، فإن بشراً ، فقد انقطع ، فقال عبد العزيز : إن قال خلق كلامَه في نفسه فهذا محال ، لأن الله لا يكون محلاً للحوادث المخلوقة ، ولا يكونُ منه شيء مخلوقٌ ، وإن قال : خلقه في غيره [فهو أيضاً محال](*) فيلزمُه في النظر والقياس أن كُلَّ كلام خلقه الله في غيره ، فهو كلامه ، وإن قال : خلقه قائماً بنفسه وذاتِه ، فهذا محال ، لا يكونُ الكلام إلا من متكلِّم ، كما لا تكون الإرادة إلا من مريد ، ولا العِلم إلا من عالم ، ولا يُعقل كلامٌ قائم بنفسه يتكلَّم بذاته ، فلما استحال مِن هذه الجهات أن يكون مخلوقاً ، علم أنه صفة لله . هذا مختصر من كلام الإمام عبد العزيز في « الحيدة » .

وعمومُ « كل » في كل موضع بحسبه ، ويُعرف ذلك بالقرائن ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحوا لَا يُرَى إلا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٥] ، ومساكِنهم شيء ، ولم تدخل في عموم ِ كلِّ شيء دمَّرته الريحُ وذلك لأن المراد : تُدمِّرُ كلَّ شيء يقبلُ التدمير بالريح عادة ، وما يستحق التدمير .

وكذا قولُه تعالى حِكاية عن بِلقيس ﴿ وأُوتِيتْ مِنْ كُلِّ شَيءٍ ﴾ [النمل : ٢٣] ، المرادُ مِن كل شيء يحتاجُ إليه الملوكُ ، وهذا القيدُ يُفهم مِن قرائن الكلام ، إذْ مرادُ الهدهد أنها ملكة كاملة في أمر الملك ، غيرُ محتاجة إلى ما يكمل به أمرُ ملكها ، ولهذا نظائرُ كثيرة .

والمرادُ من قوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] أي : كل شيء مخلوق ، وكُلُّ موجود سوى الله تعالى ، فهو مخلوق ، فدخل في هذا العموم أفعال العباد حتماً ، ولم يدخل في العُموم الخالق تعالى ، وصفاتُه ليست غيرَه ، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوفُ بصفاتِ الكمال ، وصفاتُه ملازمة لذاته

(*) الزيادة من « الحيدة » ص ٧٧ .

المقدسة ، لا يُتَصَوَّرُ انفصالُ صفاته عنه ، كما تقدَّم الإشارة إلى هذا المعنى عند قوله : « ما زال قديماً بصفاته قبل خلقه»(*)، بل نفسُ ما استدلوا به يَدُلُّ عليهم فإذا كان قولُه تعالى : ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ ﴾ مخلوقاً ، لا يَصِحُّ أن يكون دليلاً .

وأما استدلالهُم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرآناً عَرَبيًّا ﴾ [الزخرف : ٣] فما أفسدَه مِن استدلال ! فإن « جعل » إذا كان بمعنى « خلق » يتعدَّى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] ، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ أفلا تُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا في الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّماءَ سقْفاً مَحْفوظاً ﴾ [الأنبياء : ٣٠ ـ ٣٢] . وإذا تعدَّى إلى مفعولين لم يَكن بمعنى خَلق ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ الله عَلَيْكُم كَفيلاً ﴾ [النحل : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأَيْمانِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٤] . وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ ﴾ [الحجر : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولةً إلى عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ الله إلَهاً آخرَ ﴾ [الإسراء : ٣٩] . وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الَّذِين هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إناثاً ﴾ [الزخرف : ١٩] . ونظائرُهُ كثيرة ، فكذا قولُه تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣] .

وما أفسدَ استدلاَلهم بقوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوَادِ الأَيْمَنِ في البُقْعَةِ المُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ [القصص : ٣٠] على أن الكلامَ خلقه/الله تعالى في الشجرة ، فَسَمِعَه موسى منها ! وعمُوا عما قبلَ هذه الكلمة وما بعدها ، فإن الله تعالى قال : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الوَادِ الأَيْمَنِ ﴾ والنداء : هو الكلامُ من بُعد ، فسمع موسى عليه السلام النداء مِن حافة الوادي ، ثم قال : ﴿ في البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ أي : أن النداء كان في البقعة المباركة من عند الشجرة ، كما تقول : سمعت كلامَ زيد من البيت ، يكون « من البيت » لابتداء الغاية ، لا أن

٢٩/أ

(*) انظر ص ٧٥ وما بعدها .

البيت هو المتكلم ، ولو كان الكلامُ مخلوقاً في الشجرة ، لكانت الشجرة هي القائلة : ﴿ يا مُوسَى إِنِّي أَنَا الله رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣] وهل قال : ﴿ إِنِّي أَنَا الله رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ غيرُ ربِّ العالمين ؟ ولو كان هذا الكلامُ بدا مِن غير الله ، لكان قولُ فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] صدقاً ، إذ كُلٌّ مِن الكلامين عندهم مخلوق قد قاله غيرُ الله ! وقد فرَّقوا بين الكلامين على أصلهم الفاسد : أن ذاك كلامٌ خلقه الله في الشجرة ، وهذا كلامٌ خلقه فرعون !! فحرَّفوا وبدَّلوا واعتقدوا خالقاً غيرَ الله . وسيأتي الكلامُ على مسألة أفعال العباد ، إن شاء الله تعالى(*) .

فإن قيل : فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة : ٤٠ والتكوير : ١٩] . وهذا يدل على أن الرسول أحدثه ، إما جبرائيل أو محمد ﷺ .

قيل : ذكر الرسول معرِّف أنه مبلِّغ عن مرسِله ، لأنه لم يقل : إنه قول ملك أو نبي ، فَعُلِمَ أنه بلَّغه عمن أرسله به ، لا أنه أنشأه من جهة نفسه .

وأيضاً : فالرسولُ في إحدى الآيتين جبريل ، وفي الأخرى محمد ، فإضافته إلى كل منهما تُبين أن الإضافة للتبليغ ، إذ لو أحدثه أحدهُما ، امتنع أن يُحدثه الآخر .

وأيضاً : فقوله : رسول أمين(**) ، دليل على أنه لا يزيد في الكلام الذي أُرْسِلَ بتبليغه ولا يَنْقُصُ منه ، بل هو أمين على ما أُرْسِلَ به ، يُبلغه عن مرسله .

(*) انظر ص ٥٠٤ وما بعدها .

(**) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : الآية التي ذكرها الشارح ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ جاءت مرتين في سورة الحاقة : ٤٠ وليس فيما بعدها الوصف بلفظ ﴿أمين﴾ . والأخرى في سورة التكوير : ١٩ ، ثم بعدها : ﴿ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين ﴾ : ٢٠ - ٢١ . فتعبير الشارح بقوله : وأيضا فقوله : رسول أمين فيه شيء من التساهل ، لم يرد به حكاية التلاوة ، وإنما أراد المعنى فقط . ولو قال : وأيضا فوصف الرسول بأنه ﴿ أمين ﴾ . . . » كان أدق وأجود .

وأيضاً : فإن الله قد كفَّر من جعله قولَ البشر ، ومحمدٌ ﷺ بشر ، فمن جعله قولَ محمد بمعنى أنه أنشأه ، فقد كفر ، ولا فرق بين أنه يقول : إنه قول بشر ، أو جني ، أو مَلك ، والكلام كلامُ من قاله مبتدئاً ، لا من قاله مبلغاً ، ومن سمع قائلاً يقول : قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

ـ قال : هذا شعرُ امرىء القيس .

ومن سمعه يقول : « إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ وإنَّما لِكُلِّ امْرىءٍ مَا نَوى »[٧٠] قال : هذا كلامُ الرسولِ ، وإن سمعه يقول : ﴿ الحَمْدُ لله رَبِّ العالِمِينَ * الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم * مَالِكِ يَوْم الدِّينِ * إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذا كَلامُ الله ، إن كان عنده خبر ذلك ، وإلا قال : لا أدري كلامَ من هذا ؟ ولو أنكر عليه أحدٌ ذٰلك لكذبه . ولهذا مَنْ سَمِعَ من غيره نظماً أو نثراً ، يقول له : هذا كلامُ من ؟ هذا كلامُك أو كلامُ غيرك ؟

وبالجملة ، فأهلُ السنة كُلُّهم ، من أهل المذاهب الأربعة وغيرِهِم مِن السلف والخلف متَّفِقُون على أن كلامَ الله غيرُ مخلوق ، ولكن بعد ذلك تنازع المتأخرون في أن كلام الله : هل هو معنى واحد قائم بالذات ، أو أنه حروف وأصوات تكلَّم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً ، أو أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ،

---

(٧٠) رواه البخاري ١/٧ ـ ١٥ في بدء الخلق ، و١/١٢٦ في الإيمان : باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرىء ما نوىٰ ، و٥/١١٧ في العتق ، باب الخطأ والنسيان في العتاقة والطلاق ونحوه ، و٧/١٧٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، و٩/١٠٠ في النكاح : باب من هاجر أو عمل خيراً لتزويج امرأة فله ما نوىٰ ، و١١/٤٩٦ في الأيمان والنذور : باب النية في الأيمان ، و١٢/٢٩٠ في الحيل : باب ترك الحيل وأن لكل امرىء ما نوى ، ومسلم رقم (١٩٠٧) في الإمارة : باب قوله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات » ، وأبو داود رقم (٢٢٠١) في الطلاق : باب فيمن عنى به الطلاق والنيات ، والترمذي رقم (١٦٤٧) في فضائل الجهاد : باب ما جاء فيمن يقاتل رياء الدنيا ، والنسائي ١/٥٩ و٦٠ في الطهارة : باب النية في الوضوء ، وأحمد في « المسند » ١/٢٥ و٤٣ ، وابن ماجه رقم (٤٢٢٧) في الزهد : باب النية . من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ومتى شاء وكيف شاء ، وإن نوع الكلام قديمٌ ؟

وقد يُطلق بعضُ المعتزلة على القرآن أنه غيرُ مخلوق ، ومرادُهم أنه غيرُ مختلق مفترى مكذوب ، بل هو حقٌّ وصدق ، ولا ريبَ أن هذا المعنى منتف باتفاق المسلمين .

والنزاع بين أهلِ القبلة إنما هو في كونه مخلوقاً خلقه الله ، أو هو كلامُه الذي تكلم به وقام بذاته ؟ وأهلُ السنة إنما سئلوا عن هذا ، وإلا فكونه مكذوباً مفترى مما لا يُنازع مسلم في بطلانه . ولا شك أن مشايخ المعتزلة وغيرَهم مِن أهل البدع ـ معترفون بأن اعتقادَهم في التوحيد والصفاتِ والقدر لم يتلقَّوْه لا عن كتاب ولا سنة ، ولا عن أئمة الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وإنما يزعمُون أن عقلهم دلَّهم عليه ، وإنما يزعمون أنهم تلقوا مِن الأئمة الشرائع .

ولو تُرِكَ الناسُ على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة ، لم يكن بينهم نزاع ، ولكن ألقى الشيطانُ إلى بعض الناسِ أُغْلُوطَةً من أغاليطه ، فرَّق بها بينهم . ﴿ وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

والذي يدل عليه كلامُ الطحاوي رحمه الله : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء ، وأن نوع كلامِه قديم ، وكذلك ظاهرُ كلام الإمـام أبي حنيفة رحمه الله تعالى في « الفقه الأكبر » فإنه قال : والقرآنُ كلامُ الله في المصاحِفِ مكتوبٌ ، وفي القلوبِ محفوظٌ ، وعلى الألسُن مقروء ، وعلى النبي ﷺ منزَّل ، ولفظُنا بالقرآن مخلوق ، والقُرآنُ غيرُ مخلوق ، وما ذكره الله في القرآن عن موسى وغيره ، وعن فِرعونَ وإبليس ـ فإن ذٰلك كلَّه كلامُ الله تعالى إخباراً عنهم ، وكلامُ موسى/وغيره من المخلوقين مخلوقٌ ، والقُرآنُ كلامُ الله لا كلامُهم ، وسَمِعَ موسى عليه السلام كلامَ الله تعالى ؛ فلما كلَّم موسى ،كَلَّمه بكلامه الذي هو من صفاته لم يزل ، وصفاته كُلُّها خلاف صفات المخلوقين ، يَعْلَمُ لا كَعِلْمِنَا ، ويَقْدِرُ

٢٩/ب

لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا ، ويتكلَّم لا ككلامنا . انتهى .

فقولُه : ولما كلَّم موسى كلَّمه بكلامه الذي هو من صفاته في الأزل ـ يُعلم منه أنه حين جاء كلمه ، لا أنه لم يزل ولا يزالُ أزلاً وأبداً يقول ياموسى ، كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ ولمَّا جَاء مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّه ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، فَفُهِمَ منه الرد على من يقول من أصحابه : إنه معنى واحد قائمٌ بالنفس لا يُتصور أن يسمع ، وإنما يخلُق الله الصوتَ في الهواء . كما قال أبو منصور الماتُريدي(*) وغيرُه رحمهم الله .

وقوله : « الذي هو من صفاته لم يزل » ردّ على من يقول : إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلماً .

وبالجملة : فكل ما يحتجُّ به المعتزلةُ مما يدل على أنه كلام متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه يتكلم إذا شاء ، وأنه يتكلم شيئاً بعد شيء ، فهو حقٌّ يجب قبولُه ، وما يقوله من يقول : إن كلام الله قائم بذاته ، وأنه صفة له ، والصفةُ لا تقومُ إلا بالموصوف ـ : فهو حقٌّ يجبُ قبولُه والقولُ به ، فيجبُ الأخذُ بما في قول كل من الطائفتين من الصواب ، والعدول عما يردُّه الشرعُ والعقلُ مِن قول كل منهما .

فإذا قالوا لنا : فهذا يلزم أن تكون الحوادِثُ قامت به ، قلنا : هذا القول مُجمَل ، ومن أنكر قبلكم قيامَ الحوادث بهذا المعنى به تعالى من الأئمة؟ونصوصُ القرآن والسنة تتضمَّن ذٰلك ، ونصوصُ الأئمة أيضاً مع صريح العقل .

ولا شكَّ أن الرسلَ الذين خاطبوا الناسَ ، وأخبروهم أن الله قال ونادى وناجى ويقول : لم يفهموهم أن هٰذه مخلوقات منفصلة عنه ، بل الذي أفهموهم

(*) هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، من أئمة علم الكلام ، مات بسمرقند سنة ٣٣٣ هـ ، من تصانيفه : « كتاب التوحيد » و « كتاب تأويلات القرآن » ، و « أوهام المعتزلة » وغيرها .

إياه : أن الله نفسه هو الذي تكلَّم ، والكلامُ قائم به لا بغيره ، وأنه هو الذي تكلَّم به وقاله ، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك : « ولَشَأنِي في نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنَ أَنْ يَتَكَلَّمَ الله فِيَّ بِوَحْيٍ يُتْلَى »(٧١) . ولو كان المرادُ مِن ذٰلك كُلِّه خلاف مفهومه ، لوجب بيانُه ، إذْ تأخيرُ البيان عن وقت الحاجة لا يجوزُ .

ولا يُعرف في لغة ولا عقلٍ قائلٌ متكلِّمٌ لا يقومُ به القولُ والكلامُ وإنما قام الكلام بغيره، وإن زعموا أنهم فرُّوا من ذٰلك حذراً من التشبيه ، فلا يُثبتُوا صفةً غيرَه ، فإنَّهم إذا قالوا : يعلمُ لا كعلمنا ، قلنا : ويتكلُّم لا كتكلمنا ، وكذلك سائرُ الصفات . وهل يعقل قادرٌ لا تقوم به القدرة ؛ أو حيٌّ لا تقومُ به الحياة ؟ وقد قال ﷺ : « أعوذُ بِكَلِماتِ الله التَّامَّاتِ التَّي لا يُجَاوِزُهُنَّ برٌّ وَلاَ فَاجِرٌ »(٧٢) ، فهل يقولُ عاقل : إنه ﷺ عاذ بمخلوق ؟ بل هذا كقوله : « أَعُوذُ بِرضاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ »(*) ، وكقوله : « أَعُوذُ بعزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وأُحَاذِرُ »(**) . وكقوله : « وأَعُوذُ بِعَظَمتِكَ أَنْ نُغتَالَ مِنْ تَحْتِنَا »(***) . كل هذه من صفات الله تعالى . وهٰذه المعاني مبسوطة في مواضعها ، وإنما أشير إليها هنا إشارة .

---

(٧١) قطعة من حديث الإفك رواه البخاري ٨ / ٣٤٣ - ٣٦٧ في تفسير سورة النور : باب قوله تعالى : ﴿ إن الذين جـاؤوا بالإفك عصبة منكم ﴾ ، ومسلم رقم (٢٧٧٠) في التوبة : باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف من حديث عائشة رضي الله عنها . انظر « جامع الأصول » رقم (٧٢٩) .

(٧٢) رواه أحمد في « المسند » ٣/٤١٩ ، وابن السني في « عمل اليوم والليلة » رقم (٦٣٧) من حديث عبد الرحمن بن حنبش رضي الله عنه مرفوعاً وإسناده صحيح . وتمامه : « مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرجُ فِيهَا ، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الأَرْضِ ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ إلاَّ طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمٰنُ » .

(*) تقدم تخريجه ص ٧٩ رقم ٣٢ .

(**) تقدم تخريجه ص ٧٩ رقم ٣٠ .

(***) تقدم تخريجه ص ٧٩ رقم ٣١ .

وكثير من متأخري الحنفية على أنه معنى واحد ، والتعددُ والتكثر والتجزؤ والتَّبعضُ حاصِل في الدلالات ، لا في المدلول ، وهذه العبارات مخلوقة ، وسميت « كلام الله » لدلالتها عليه ، وتأديه بها ، فإن عبر بالعربية ، فهو قرآن ، وإن عبر بالعبرية فهو توراة ، فاختلفت العباراتُ لا الكلام ، وقالوا : وتسمى هذه العبارات كلامَ الله مجازاً .

وهذا كلام فاسد ، فإن لازِمَهُ أن معنى قوله : ﴿ ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [الإسراء : ٣٢] ، هو معنى قوله : ﴿ وأَقِيموا الصَّلاةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] . ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدَّين ! ومعنى سورة الإخلاص هو معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبي لَهَبٍ ﴾ وكلما تأمل الإنسان هذا القولَ ، تَبيَّنَ له فساده ، وعَلِمَ أنه مخالف لكلام السلف .

والحقُّ أن التوراة والإنجيل والزبورَ والقرآنَ مِن كلام الله حقيقة ، وكلامُ الله تعالى لا يتناهى ، فإنه لم يزل يتكلَّم بما شاء إذا شاء كيف شاء ، ولا يزال كذلك . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مدَدَاً ﴾ [الكهف : ١٠٩] . وقال تعالى : ﴿ ولَوْ أَنَّ مَا في الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ والبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِماتُ الله إنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] . ولو كان ما في/المصحف عبارة عن كلام الله ، ٣٠/أ وليس هو كلامَ الله ، لما حَرُمَ على الجُنْبِ والمُحْدِث مسُّه ، ولو كان ما يقرؤه القارىءُ ليس كلامَ الله ، لما حَرُمَ على الجنب والمحدث قراءة القرآن .

بل كلامُ الله محفوظٌ في الصدور، مقروء بالألسنة، مكتوبٌ في المصاحف، كما قال أبو حنيفة رحمه الله في « الفقه الأكبر »(*) . وهو في هذه المواضع كلها حقيقةٌ ، وإذا قيل المكتوب في المصحف كلام الله فهم منه معنى صحيح حقيقي ،

(*) « شرح الفقه الأكبر » ص ٢٥ .

وإذا قيل : فيه خط فلان وكتابتُه ، فُهِمَ منه معنى صحيح حقيقي ، وإذا قيل : فيه مِدادٌ قد كتب به ، فُهِمَ منه معنى صحيح حقيقي ، وإذا قيل : المدادُ في المصحف ، كانت الظرفية فيه غيرَ الظرفية المفهومة من قول القائل : فيه السماوات والأرض ، وفيه محمد وعيسى ، ونحو ذلك . وهذان المعنيان مغايران لمعنى قول القائل : فيه خط فلان الكاتب، وهذه المعاني الثلاثة مغايرة لمعنى قول القائل : فيه كلامُ الله . ومن لم يتنبَّهْ للفروق بين هذه المعاني ، ضَلَّ ولم يهتد للصواب .

وكذلك الفرقُ بين القراءة التي هي فعلُ القارىء ، والمقروء الذي هو قولُ الباري ، من لم يهتد له ، فهو ضال أيضاً ، ولو أن إنساناً وجد في ورقة مكتوباً :

أَلَا كُلُّ شَيءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

من خط كاتب معروف ، لقال : هذا من كلام لبيد حقيقة ، وهذا خطُّ فلان حقيقة ، وهذا كُلُّ شيء حقيقة ، وهذا خبرٌ حقيقة ، ولا تشتبه هذه الحقيقة بالأخرى .

والقرآن في الأصل : مصدر ، فتارةً يُذكر ويُراد به القراءة ، قال تعالى : ﴿ وَقُرآنَ الفَجْرِ إنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾ [الإسراء : ٧٨] . وقال ﷺ : « زيِّنُوا القُرْآنَ بأَصْوَاتِكُم »(٧٣) . وتارة يُذكر ويُراد به المقروء ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا

---

(٧٣) رواه أبو داود رقم (١٤٦٨) في الصلاة : باب استحباب الترتيل في القرآن ، والنسائي ٢/١٧٩ ـ ١٨٠ في الافتتاح : باب تزيين القرآن بالصوت ، والدارمي رقم (٣٥٠٣) في فضائل القرآن : باب التغني بالقرآن ، وابن ماجه رقم (١٣٤٢) في إقامة الصلاة : باب حسن الصوت بالقرآن ، وأحمد في « المسند » ٤/٢٨٣ و٢٨٥ و٢٩٦ و٣٠٤ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه . وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان في « صحيحه » رقم (٦٦٠) « موارد » والحاكم في « المستدرك » ١/٥٧٥ ووافقه الذهبي .

وفي الباب عن أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن حبان رقم (٦٦١) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني ، وعن عائشة رضي الله عنها عند أبي نعيم في « الحلية » ، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عند ابن سعد في « الطبقات » ٦/٩٠ .

قَرَأتَ القُرْآنَ فاسْتَعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم ﴾ [النحل : ٩٨] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا قُرِىء القُرْآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] . وقال ﷺ : « إنّ هَذا القُرآن أُنزِلَ عَلى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ »[٧٤] . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث الدالةِ على كُلٍّ من المعنيين المذكورين ، فالحقائقُ لها وجود عيني وذهني ولفظي ورسمي ، ولكن الأعيانَ تُعلم ، ثم تُذكر ، ثم تكتب ، فكتابُتها في المصحف هي المرتبة الرابعة .

وأما الكلامُ ، فإنه ليس بينَه وبينَ المصحف واسطة ، بل هو الذي يُكتب بلا واسطة ولا لسان ، والفرق بين كونه في زُبُرِ الأولين ، وبينَ كونه في رَقٍّ منشور ، أو لوح محفوظ ، أو في كتاب مكنون ـ : واضح .

فقوله عن القرآن : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٦] ، أي : ذكره ووصفه والإخبار عنه ، كما أن محمداً مكتوبٌ عندهم ، إذ القرآن أنزله الله على محمد ﷺ ، لم ينزله على غيره أصلاً ، ولهذا قال : في الزبر ، ولم يقل في الصحف ، ولا في الرَّق ، لأن « الزُّبُر » جمع « زبور » و « الزَّبْر » هو : الكتابة والجمع ، فقوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٦] أي : مزبور الأولين ، ففي نفس اللفظ واشتقاقه ما يُبين المعنى المراد ، ويُبين كمال بيان القرآن وخلوصَه من اللبس ، وهذا مثل قوله : ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم ﴾ [الأعراف : ١٥٦] ، أي ذِكره ، بخلاف قوله : ﴿ في رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ [الطور: ٣]

---

(٧٤) رواه البخاري ٩/٢٠ ـ ٢١ في فضائل القرآن، وفي أبواب عدة، ومسلم رقم (٨١٨) في الصلاة : باب بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، وأبو داود رقم (١٤٧٥) في الصلاة : باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ، والترمذي رقم (٢٩٤٤) في القراءات : باب ما جاء أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، والنسائي ٢/ ١٥٠ ـ ١٥٢ في الصلاة : باب جامع القرآن ، و« الموطأ » ١/ ٢٠١ في القرآن : باب ما جاء في القرآن ، وأحمد في « المسند » ١/ ٤٠ و ٤٣ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وفي الباب عن عمرو بن العاص، وأم أيوب ، ومعاذ ، وحذيفة ، وأبي بن كعب رضي الله عنهم .

و ﴿ لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢٢] و ﴿ كِتَابٍ مَكْنُون ﴾ [الواقعة : ٧٨] لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة ، مثلَ الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك ، أو يُقدر : مكتوب في كتاب ، أو في رَق ، والكتاب : تارة يُذكر ويُراد به محلُّ الكتابة ، وتارة يُذكر ويُراد به الكلامُ المكتوب ، ويجبُ التفريقُ بين كتابة الكلام في الكتاب ، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه ـ فإن تلك إنما يُكتب ذكرها ، وكلما تدبر الإنسان هذا المعنى ، وضح له الفرقُ .

وحقيقةُ كلام الله تعالى الخارجية : هي ما يسمع منه ، أو من المبلِّغ عنه ، فإذا سمعه السامعُ ، علمه وحفظه ، فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ ، فإذا قاله السامع ، فهو مقروء له متلوٌّ ، فإن كتبه ، فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها لا يَصِحُّ نفيه ، والمجاز يصح نفيه ، فلا يجوزُ أن يقال : ليس في المصحف كلامُ الله ، ولا : ما قرأ القارىء كلام الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] . وهو لا يسمع كلامَ الله من الله ، وإنما يسمعُهُ من مبلغه عن الله ، والآية تدل على فساد قول من قال : إن المسموعَ عِبارةٌ عن كلام الله ، وليس هو كلامَ الله ، فإنه تعالى قال : ﴿ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، ولم يقل حتى يسمَعَ ما هو عبارةٌ عن كلام الله ،

والأصل الحقيقة . ومن قال : إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله ، أو حكاية كلامِ الله ، وليس فيها كلامُ الله ـ : فقد خالف/الكتاب والسنة ، وسلف الأمة ، وكفى بذلك ضلالاً . ٣٠/ب

وكلامُ الطحاوي رحمه الله يردُّ قول من قال : إنه معنى واحد لا يُتصوَّر سماعُهُ منه ، وأن المسموعَ المنزَّل المقروء والمكتوب ليسَ كلامَ الله ، وإنما هو عبارة عنه ، فإن الطحاوي رحمه الله يقول : كلامُ الله منه بدا . وكذلك قال غيرُه من السلف ، ويقولون : منه بدا ، وإليه يعود ، وإنما قالوا : منه بدا ، لأن

الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون : إنه خلقَ الكلامَ في محل ، فبدا الكلامُ مِن ذلك المحل ، فقال السلفُ : « منه بدا » أي : هو المتكلم به ، فمنه بدا ، لا من بعض المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العزيز الحَكيم ﴾ [الزمر : ١] . . ﴿ وَلٰكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي ﴾ [السجدة : ١٣] . ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] . ومعنى قولهم : وإليه يعود : ـ أنه يرفع من الصدور والمصاحف ، فلا تبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف ، كما جاء ذلك في عدة آثار .

وقوله : بلا كيفية : أي : لا يُعرف كيفيةُ تكلُّمِهِ به قولاً ليس بالمجاز ، وأنزله على رسوله وحياً ، أي : أنزله إليه على لسان المَلك ، فسمعه الملك جبريل من الله ، وسمعه الرسولُ محمد ﷺ من الملك ، وقرأه على الناس ، قال تعالى : ﴿ وَقُرآناً فَرَقناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٦] . وقال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥] وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى .

وقد أورد على ذلك أن إنزال القرآن نظيرُ إنزال المطر ، أو إنزاله الحديد ، وإنزال ثمانية أزواج من الأنعام .

والجواب : أن إنزال القرآن فيه مذكور أنه إنزال من الله، قال تعالى : ﴿ حٰمٓ * تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [غافر : ١ ـ ٢] . . وقال تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم ﴾ [الزمر : ١] . وقال تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت : ٢] . وقال تعالى : ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد ﴾ [حٰمٓ السجدَةَ : ٤٢] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمرٍ حَكِيمٍ * أَمْرَاً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِين ﴾ [الدخان : ٣ ـ ٥] . وقال تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ [القصص : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُم

الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤] . [وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بالحَقِّ ﴾[النحل: ١٠٢](*) . وإنزال المطر مقيد بأنه منزل من السماء . قال تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً ﴾ [الحج : ٦٣وفاطر: ٢٧والزمر :٢١] . والسماء: العلوُّ. وقد جاء في مكان آخر أنه منزل من المزن ، والمزن : السحاب ، وفي مكان آخر أنه منزل من المعصرات ، وإنزال الحديد والأنعام مطلق ، فكيف يشبَّه هذا الإنزال بهذا الإنزال ؟ ! فالحديد إنما يكون من المعادن التي في الجبال ، وهي عالية على الأرض ، وقد قيل : إنه كلما كان معدِنه أعلى كان حديدُهُ أجودَ ، والأنعام تُخلق بالتوالد المستلزم إنزال الذكور الماء مِن أصلابها إلى أرحام الإناث ، ولهذا يقال: أنزل ولم [يُقل](*) ينزل ، ثم الأجنة تنزل من بطون الأمهات إلى وجه الأرض ، ومن المعلوم أن الأنعام تعلو فحولُها إناثَها عند الوطء ، وَيَنْزِلُ ماءُ الفحلِ مِن علو إلى رحم الأنثى ، وتُلقي ولدها عند الولادة مِن علو إلى سُفل ، وعلى هذا فيُحتملُ قولُه : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُم مِنَ الأَنْعامِ ﴾ [الزمر : ٦] - : وجهين : أحدهما : أن تكون « من » لبيان الجنس . الثاني : أن تكون« من » لابتداء الغاية ، وهذان الوجهان يحتملان في قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأنْعَامِ أَزْوَاجاً ﴾ [الشورى : ١١] .

وقوله : وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقاً . الإشارة إلى ما ذكره من التكلم على الوجه المذكور وإنزاله ، أي : هذا قول الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وهم السلفُ الصالح ، وأن هذا حق وصدق .

وقوله : وأيقنوا أنه كلامُ الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية . ردٌّ على المعتزلة وغيرهم بهذا القول ظاهر ، وفي قوله : بالحقيقة رد على من قال: إنه معنى واحد قام(**) بذات الله لم يسمع منه، وإنما هو الكلام النفساني، لأنه لا يُقال لمن قام به الكلام النفساني ولم يتكلم به - : إن هذا كلامُ حقيقة ، وإلا

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .
(**) في الأصل قائم والتصحيح من مطبوعة مكة .

للزِمَ أن يكون الأخرسُ متكلماً ، ولزم ألَّا يكونَ الذي في المصحف عند الأطلاق هو القرآن ولا كلام الله ، ولكن عبارة عنه ليست هي كلام الله ، كما لو أشار أخرس إلى شخص بإشارة فهم بها مقصودَه ، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس ، فالمكتوبُ هو عبارةُ ذلك الشخص عن ذلك المعنى . وهذا المثلُ مطابق غايَةَ المطابقة لما يقولونه ، وإن كان الله تعالى لا يُسميه أحد « أخرس » ، لكن عندهم/أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه ، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم منه معنى مجرداً ثم عبَّر عنه ، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي ، أوأن الله خلق في بعض الأجسام هواءً الذي هو رَد في(*) الملك هذه العبارة(**) .

٣١/أ

ويقال لمن قال : إنه معنى واحد ـ : هل سَمِعَ موسى عليه السلام جميعَ المعنى أو بعضه ؟

فإن قال: سمعه كُلَّه، فقد زعم أنه سمع جميعَ كلام الله !وفسادُ هذا ظاهر .

وإن قال : بعضَه ، فقد قال : يتبعض ، وكذلك كلُّ من كلمة الله ، أو أنزل إليه شيئاً من كلامه .

ولما قال تعالى للملائكة : ﴿ إنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . ولما قال لهم ﴿ اسجُدُوا لآدَمَ ﴾ . [البقرة : ٣٤] وأمثال ذلك ـ : هل هذا جميعُ كلامه أو بعضُه ؟ فإن قال : إنه جميعُهُ ، فهذا مكابرة ، وإن قال : بعضه ، فقد اعترف بتعدده .

وللناس في مسمى الكلام والقول عند الإطلاق ـ : أربعة أقوال :

أحدها : أنه يتناولُ اللفظَ والمعنى جميعاً ، كما يتناول لفظ الإنسان الروحَ والبدنَ معاً ، وهذا قول السلف .

(*) كذا في الأصل فليتأمل .

(**) انظر « الصواعق المرسلة على الجهمية المعطلة » لابن القيم ص ٥٣٩ ـ ٥٤٣ . و « قاعدة نافعة » لشيخ الاسلام ابن تيمية ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » ٢/ ٥١ .

الثاني : أنه اسم اللفظ فقط، والمعنى ليس معنى جزءَ مسماه ، بل هو مدلولُ مسماه ، وهذا قولُ جماعة من المعتزلة وغيرهم .

الثالث : أنه اسم « للمعنى » فقط ، وإطلاقُهُ على اللفظ مجاز ، لأنه دالٌّ عليه ، وهذا قولُ ابن كُلَّاب ومن اتبعه .

الرابع : أنه مشترك بين اللفظ والمعنى ، وهذا قولُ بعض المتأخرين مِن الكُلابية .

ولهم قول خامس : يُروى عن أبي الحسن ، أنه مجاز في كلام الله ، حقيقة في كلام الآدميين ، لأن حروف الآدميين تقومُ بهم ، فلا يكون الكلام قائماً بغير المتكلم ، بخلاف كلام الله ، فإنه لا يقومُ عنده بالله ، فيمتنِعُ أن يكون كلامه ، وهذا مبسوط في موضعه .

وأما من قال إنه معنىً واحد ، واستدل عليه بقول الأخطل :

إنَّ الكَلامَ لَفِي الفُؤَادِ وَإنَّما جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الفُؤَادِ دَلِيلا

: فاستدلال فاسد . ولو استدل مستدل بحديث في « الصحيحين » لقالوا : هذا خبرٌ واحد ! ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به ! فكيف وهذا البيتُ قد قيل : إنه مصنوع منسوبٌ إلى الأخطل ، وليس هو في ديوانه ؟ !

وقيل : إنما قال : « إن البيان لفي الفؤاد » وهذا أقربُ إلى الصحة ، وعلى تقدير صحته عنه ، فلا يجوز الاستدلالُ به ، فإن النصارى قد ضلُّوا في معنى الكلام ، وزعموا أن عيسى عليه السلام نقش كلمة الله واتَّحَدَ اللاهوتُ بالناسوت ! أي : شيء من الإله بشيءٍ من الناس ! أفيُستدل بقولِ نصراني قد ضلَّ في معنى الكلام على معنى الكلام ، ويُترك ما يُعلم من معنى الكلام في لغة العرب ؟ !

وأيضاً : فمعناه غير صحيح ، إذ لازِمُهُ أن الأخرس يُسمى متكلماً ، لقيام الكلام بقلبه ، وإن لم ينطق به ، ولم يُسمع منه ، والكلامُ على ذلك مبسوط في موضعه ، وإنما أشير إليه إشارة .

وهنا معنى عجيب ، وهو : أن هذا القولَ له شبه قوي بقول النصارى القائلين باللاهوت والناسوت ! فإنهم يقولون : كلام الله هو المعنى القائمُ بذات الله الذي لا يُمكن سماعُهُ ، وأما النظمُ المسموع فمخلوق ، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يُشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام ، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه !

وَيَـرُدُّ قَوْلَ مَنْ قال : بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس ـ : قولُه ﷺ : « إنَّ صَلاَتَنَا هَذِهِ لاَ يَصْلُحُ فِيْهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ »(٧٥) .

وقال : « إنَّ اللهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ ، وَإنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لاَ تَكَلَّمُوا فِي الصَّلاةِ »(٧٦) .

---

(٧٥) رواه مسلم رقم (٥٣٧) في المساجد : باب تحريم الكلام في الصلاة ، ونسخ ما كان من إباحته ، وأبو داود رقم (٩٣٠) و(٩٣١) في الصلاة : باب تشميت العاطس في الصلاة ، والنسائي ٣/١٤ ـ ١٨ في السهو : باب الكلام في الصلاة ، من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال : بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ، فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمِّياه ما شأنكم تنظرون إلي ؟ ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتونني ، لكني سكتُّ ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما كَهَرَني ولا ضربني ولا شتمني قال : « إنَّ هٰذِهِ الصَّلاَةُ لاَ يَصْلحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلاَمِ النَّاسِ ، إنَّما هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ » .

(٧٦) علقه البخاري ١٣ / ٤١٦ عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه موصولاً أبو داود رقم (٩٢٤) في الصلاة : باب رد السلام في الصلاة ، والنسائي ٣/١٩ في السهو : باب الكلام في الصلاة ، وأحمد في « المسند » ١/٣٧٧ و ٤٠٩ و ٤١٥ و ٤٣٥ و ٤٦٣ وإسناده حسن . انظر « جامع الأصول » رقم (٣٦٨٩) .

واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلَّم في الصلاةِ عامداً لغير مصلحتها ، بطلَتْ صلاتُه .

واتفقوا كُلُّهم على أن ما يقومُ بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب - لا يُبطل الصلاة ، وإنما يُبطلها التكلمُ بذلك ، فعُلم اتفاقُ المسلمين على أن هذا ليس بكلام .

وأيضاً: ففي « الصحيحين »[٧٧] عن النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ الله تَجَاوَزَ لأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا ، مَا لَمْ تَتَكَلَّم بِهِ أو تَعْمَلْ بِهِ » . فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلَّم ، ففرَّق بين حديث النفس وبينَ الكلام ، وأخبر أنه لا يُؤاخذ به حتى يتكلَّمَ به ، والمراد : حتى ينطِقَ به اللسان ، باتفاق العلماء ، فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة ، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب .

وأيضاً ففي « السنن » : أن معاذاً رضي الله عنه قال : يا رسولَ الله ! وإنا لمؤاخذون/ بما نتكلم به ؟ فقال ﷺ : « وهَلْ يَكُبُّ النَّاسُ ، في النَّار عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ إلَّا حَصَائِدَ أَلْسِنَتِهِم »[٧٨] . فبين أن الكلام إنما هو باللسان ، فلفظ « القول » و« الكلام » وما يصرف منهما ، من فعل ماضٍ ومضارع وأمر واسم فاعل - : إنما يُعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى ، ٣١/ب

(٧٧) رواه البخاري ٥/١١٦ في الرهن : باب الخطأ والنسيان ، و ٩/٣٤٥ في الطلاق : باب الطلاق في الإغلاق والغلط والنسيان ، و ١١/٤٧٨ في الإيمان والنذور : باب إذا حنث في الإيمان ، ومسلم رقم (١٢٧) في الإيمان : باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ، وأبو داود رقم (٢٢٠٩) في الطلاق : باب الوسوسة في الطلاق ، والنسائي ٦ / ١٥٦ - ١٥٧ في الطلاق : باب من طلق في نفسه ، وابن ماجه رقم (٢٠٤٠) : في الطلاق : باب من طلق في نفسه ولم يتكلم به . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٧٨) قطعة من حديث رواه الترمذي رقم (٢٦١٩) في الإيمان : باب ما جاء في حرمة الصلاة ، وأحمد في « المسند » ٥/٢٣١ و ٢٣٦ و ٢٣٧ ، وفي سنده انقطاع ، وهو حديث صحيح بطرقه .
انظر « جامع العلوم والحكم » لابن رجب الحنبلي ص ٢٣٦ - ٢٤٢ .

ولم يكن في مسمى « الكلام » نزاعٌ بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وإنما حصل النزاعُ بين المتأخرين مِن علماء أهل البدع ، ثم انتشر .

ولا ريب أن مسمَّى الكلام والقول ونحوهما ـ ليس هو مما يحتاج فيه إلى قول شاعر ، فإن هذا مما تكلَّم به الأولون والآخرون من أهل اللغة ، وعرفوا معناه ، كما عرفُوا مسمَّى الرأس واليد والرجل ونحو ذلك .

ولا شك أنَّ من قال : إن كلام الله معنى واحد قائمٌ بنفسه تعالى ، وإن المتلُوَّ المحفوظَ المكتوبَ المسموعَ مِن القارىء حكايةُ كلامِ الله وهو مخلوق ـ : فقد قال بخلق القرآن في المعنى وهو لا يشعُرُ ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجتَمَعَت الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء : ٨٨] . أفتراه سبحانه وتعالى يشير إلى ما في نفسه أو إلى هذا المتلو المسموع ؟ ولا شكَّ أن الإشارة إنما هي إلى هذا المتلوِّ المسموع ، إذ ما في ذات الله غير مشار إليه ، ولا منزل ولا متلو ولا مسموع .

وقوله : ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ أفتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما في نفسي مما لم يسمعوه ولم يعرفوه ، وما في نفس الله عز وجل لا حِيلَةَ إلى الوصول إليه ، ولا إلى الوقوف عليه .

فإن قالُوا : إنما أشار إلى حكاية ما في نفسه وعبارته وهو المتلوُّ المكتوبُ المسموع ، فأما أن يُشير إلى ذاته فلا ـ فهذه صريحُ القول بأن القرآن مخلوق ، بل هم في ذلك أكفرُ من المعتزلة ، فإنَّ حكاية الشيء بمثله وشبهه ، وهذا تصريحٌ بأن صفات الله محكية ، ولو كانت هٰذه التلاوة حكايةً ، كان الناسُ قد أتَوْا بمثل كلامِ الله ، فأين عجزُهم ؟ ! ويكون التالي ـ في زعمهم ـ قد حكى بصوت وحرف ما ليس بصوت وحرف ، وليس القرآنُ إلا سوراً مسوَّرة ، وآيات مسطَّرة ، في صحف مطهرة . قال تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ

سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود : ١٣] . ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بيِّنَاتٌ في صُدُورِ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ ومَا يجْحَدُ بآياتِنَا إلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٩] . ﴿في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرةٍ﴾ [عبس : ١٣ - ١٤] . ويُكتب لمن قرأ بكل حرف عشر حسنات ، قال ﷺ : « أَمَا إِنِّي لاَ أَقُولُ ﴿آلم﴾ حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلاَمٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ »(٧٩) . وهو المحفوظ في صدور الحافظين المسموع من ألسُن التالين .

قال الشيخ حافظ الدين النسفي(*) رحمه الله في « المنار » : إن القرآن اسمٌ للنظم والمعنى ، وكذا قال غيرُهُ من أهل الأصول . وما يُنسب إلى أبي حنيفة رضي الله عنه : أن من قرأ في الصلاة بالفارسية أجزأه ، فقد رجع عنه ، وقال : لا تجوزُ القراءةُ مع القدرة بغير العربية . وقالوا : لو قرأ بغير العربية إما أن يكون مجنوناً فيُداوى ، أو زنديقاً فيُقتل ، لأن الله تكلَّم به بهذه اللغة ، والإعجاز حصل بنظمه ومعناه .

وقوله : ومن سمعه ، وقال : إنه كلامُ البشر ، فقد كفر . لا شكَّ في تكفير من أنكر أن القرآن كلامُ الله ، بل قال : إنه كلامُ محمد أو غيره من غير الخلق ، مَلَكاً كان أو بشراً .

وأما إذا أقرَّ أنه كلام الله ، ثم أوَّل وحرَّف - فقد وافق قولَ من قال :

---

(٧٩) رواه الترمذي رقم (٢٩١٢) في ثواب القرآن : باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ما له ، والدارمي رقم (٣٣١١) في فضائل القرآن : باب فضل من قرأ القرآن ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ « من قرأ حرفاً من كتاب الله ، فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول « ألم » حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » وهو حديث صحيح .

(*) هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، فقيه حنفي، مفسر توفي سنة ٧١٠ هـ في بلدة « ايذج » ، من تصانيفه : « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » في التفسير ، و « منار الأنوار » في أصول الفقه ، و « الكافي في شرح الوافي » و « كنز الدقائق » ، وغيرها .

﴿ إنْ هٰذَا إلَّا قَوْلُ البَشَرِ ﴾ في بعض ما به كفر ، وأولئك الذين استزلَّهم الشيطان ، وسيأتي الكلام عليه عند قول الشيخ « ولا نكفر أحداً مِن أهلِ القِبلة بِذنبٍ مَا لَمْ يستحِله » إن شاء الله تعالى .

وقوله : ولا يُشبه قول البشر . يعني : أنه أشرفُ وأفصحُ وأصدقُ ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثاً ﴾ [النساء : ٨٧] وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجتمعتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمثْلِ هٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ الآية [الاسراء : ٨٨] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ﴾ [هود : ١٣] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [يونس : ٣٨] . فلما عجزوا ـ وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة ـ عن الإتيان بسورة مثله ، تبيَّنَ صدقُ الرسول ﷺ أنه من عند الله . وإعجازُه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط ، هذا مع أنه قرآن عربي غيرُ ذي عِوَجٍ بلسان عربي مبين ، أي : بلغة العربية . فنفي المشابهة مِن حيث التكلُم ، ومن حيث التكلُّم به ، ومن حيث النظم والمعنى ، لا من حيث الكلماتُ والحروفُ . وإلى هذا وقعت الإشارة بالحروف المقطعة في أوائل السور ، أي : أنه في أسلوب كلامهم وبلغتهم التي يخاطبون بها .

١/٣٢ أ

ألا ترى أنه يأتي بعد الحروف/المقطعة بذكر القرآن ؟ كما في قوله تعالى : ﴿ آلم * ذٰلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ١ ـ ٢] . ﴿ آلم * الله لَا إلٰهَ إلّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ * أُنْزلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بالحَقِّ ﴾ الآية . [آل عمران : ١ ـ ٣] . ﴿ المص * كِتَابٌ أُنْزِلَ إلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١ ـ ٢] ، ﴿ آلر * تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ [يونس : ١ ـ ٢] وكذلك الباقي ، ينبههم أن هذا الرسول الكريم لم يأتكم بما لا تعرفونه ، بل خاطبكم بلسانكم .

ولكن أهل المقالات الفاسدة يتذرَّعُون بمثل هذا إلى نفي تكلُّمِ الله به ، وسماع جبريل منه ، كما يتذرعون بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء ﴾ [الشورى : ١١] إلى نفي الصفات . وفي الآية ما يرد عليهم قولهم ، وهو

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] . كما في قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [يونس : ٣٨] ما يرد على من ينفي الحرف ، فإنه قال : ﴿ فَأْتُوا بسورة ﴾ ولم يقل : فأتوا بحرف ، أو بكلمة ، وأقصرُ سورة في القرآن ثلاث آيات ، ولهذا قال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله تعالى : إن أدنى ما يجزىء في الصلاة ثلاثُ آيات قصار ، أو آيةٌ طويلة ، لأنه لا يقع الإعجاز بدون ذلك . والله أعلم .

* * *

قوله : ﴿ وَمَنْ وَصَفَ الله بِمَعْنَىٰ مِنْ مَعَانِي البَشَرِ ، فَقَدْ كَفَرَ ، فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَر ، وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الكُفَّارِ انْزَجَرَ ، وَعَلِمَ أَنَّ الله بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كالبَشَرِ .

لما ذكر فيما تقدم أن القرآن كلامُ الله حقيقة ، منه بدا ، نبَّه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر ، نفياً للتشبيه عقيبَ الإثبات ، يعني : أن الله تعالى وإن وُصف بأنه متكلم ، لكن لا يُوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً ، فإن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وما أحسن المثلَ المضروبَ للمثبت للصفات من غير تشبيه ولا تعطيل - : باللبن الخالص السائغ للشاربين ، يخرج من بين فرث التعطيل ، ودمِّ التشبيه ، والمعطِّل يعبد عدماً ، والمشبِّه يعبد صنماً . وسيأتي في كلام للشيخ : ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه ، زلَّ ولم يُصب التنزيه(*)، وكذا قوله : وهو بين التشبيه والتعطيل . أي : دين الإسلام ، ولا شك أن التعطيلَ شرٌّ من التشبيه لما سأذكره إن شاء الله تعالى . وليس ما وصف الله به نفسه ولا ما وصفه

(*) انظر ص ٢٠٣ وما بعدها .

به رسولُه تشبيهاً ، بل صفاتُ الخالق كما يليق به ، وصفاتُ المخلوق كما يليق به .

وقوله : فمن أبصر هذا ، اعتبر ، أي : من نظر بعين بصيرته فيما قاله من إثبات الوصفِ ونفي التشبيه ووعيد المشبه ، اعتبر وانزجر عن مثل قول الكفار .

* * *

قوله : وَالرُّؤيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الجَنَّةِ ، بِغَيْرِ إحاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ ـ ٢٣] . وَتَفْسِيرُهُ عَلَىٰ مَا أَرَادَ الله تَعَالَىٰ وَعِلْمِهِ ، وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الحَدِيث الصَّحيح عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَمَعْنَاهُ عَلَىٰ مَا أَرادَ ، لَا نُدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِين بِآرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا ، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إلَّا مَنْ سَلَّمَ لله عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ﷺ . وَرَدَّ عَلَىٰ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إلَىٰ عَالِمِهِ .

المخالف في الرؤية : الجهميةُ والمعتزلةُ ، ومَنْ تبعهم من الخوارج والإمامية ، وقولُهم باطل مردود بالكتاب والسنة ، وقد قال بثبوت الرؤية الصحابة والتابعون ، وأئمةُ الإسلام المعروفون بالإمامة في الدين ، وأهلُ الحديث ، وسائرُ طوائف أهل الكلام المنسوبون إلى السنة والجماعة .

وهٰذه المسألة مِنْ أشرف مسائل أصول الدين وأجلها ، وهي الغايةُ التي شمَّر إليها المشمِّرون ، وتنافس المتنافسون ، وحرِمها الذين هم عن ربهم محجوبون ، وعن بابه مطرودون .

وقد ذكر الشيخ رحمه الله من الأدلة قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ - ٢٣] . وهي مِن أظهر الأدلة .

وأما من أبى إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً - : فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والحساب ، أسهل من تأويلها على أرباب التأويل ، ولا يشاء مبطل أن يتأوَّل النصوص ، ويحرِّفها عن مواضعها(*) إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده متأول هٰذه النصوص .

وهذا الذي أفسد الدنيا والدين ، وهكذا فعلت اليهودُ والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل ، وحذَّرنا الله أن نفعل مِثْلَهم ، وأبى المبطِلُون إلا سُلوكَ سبيلهم ، وكم جَنَى التأويلُ الفاسِدُ على الدين وأهلِه مِن جناية ، فهل قُتِلَ عثمانُ رضي الله عنه إلا بالتأويل الفاسد ؟ وكذا ما جرى في يوم الجمل ، وصِفِّين ، ومقتل الحسين رضي الله عنه ، والحرة ؟ وهل خرجت الخوارجُ ، واعتزلت/ المعتزلة ، ورفضت الروافضُ ، وافترقت الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، إلا بالتأويلِ الفاسد ؟! ٣٢/ب

وإضافة النظر الى الوجه الذي هو محلُّه في هذه الآية ، وتعديتُه بِأداة « إلى » الصريحة في نظر العين ، وإخلاءُ الكلام من قرينة تدل على خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جلَّ جلالُه .

فإن النظر له عدةُ استعمالات ، بحسب صلاته وتعديه بنفسه : فإن عُدِّيَ بنفسه ، فمعناه : التوقف والانتظار : ﴿ انظُرُونا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُم ﴾ [الحديد : ١٣] . وإن عُدِّي بـ « في » ، فمعناه : التفكر والاعتبار ، كقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكُوت السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] . وإن عدي بـ « إلى » فمعناه : المعاينة بالأبصار ، كقوله تعالى : ﴿ انظُرُوا إلى

(*) في الأصل موضعها ، والتصحيح من مطبوعة مكة .

ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ ﴾ [الأنعام : ٩٩] . فكيف إذا أُضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر ؟

وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمرو رضي الله عنهما ، قال : قال رَسولُ الله ﷺ - في قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ - قال : مِن البهاء والحُسن ﴿ إلىٰ رَبها نَاظِرَةٌ ﴾ ، قال في وجه الله عز وجل(٨٠) . عن الحسن قال : نَظَرَت إلى ربِّها فَنُضِّرَتْ بنوره ، وقال أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ إلى ربهٰا نَاظِرَةٌ ﴾ قال : تنظُر إلى وجه ربها عز وجل ، وقال عكرمة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴾ ، قال : مِن النعيم ، ﴿ إلى رَبِّها نَاظِرَةٌ ﴾ ، قال : تنظر إلى ربها نظراً ، ثم حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما مثله . وهذا قول المفسرين من أهل السنةِ والحديث .

وقال تعالى : ﴿ لَهُم مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] .

قال الطبري : قال علي بن أبي طالِب وأنس بن مالك رضي الله عنهما : هو النظرُ إلى وجه الله تعالى ، وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، فالحسنى : الجنة ، والزيادة : هي النظرُ إلى وجهه الكريم ، فسَّرها بذلك رسولُ الله ﷺ والصحابةُ مِن بعده ، كما روى مسلم في « صحيحه »(٨١) عن صهيب رضي الله عنه ، قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] ، قال : « إذا دَخَل أَهْلُ الجَنةِ الجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النارِ النَّارَ ، نَادَى مُنَادٍ : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ! إنَّ

---

(٨٠) في إسناده ثوير بن أبي فاختة . قال الحافظ في « التقريب » ١/١٢١ : ضعيف رمي بالرفض ، فالحديث ضعيف .

(٨١) رقم (١٨١) في الإيمان : باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، والترمذي رقم (٢٥٥٥) و(٣١٠٤) في صفة الجنة : باب ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ، وفي التفسير ، وابن ماجه رقم (١٨٧) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، وأحمد في « المسند » ٤/٣٣٢ و٣٣٣ . واللفظ الذي ساقه الشارح هو لابن ماجه .

لَكُم عِنْدَ الله مَوْعِدَاً يُرِيدُ أَنْ يَنْجِزَكُمُوهُ ، فَيَقُولُونَ : وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا ، وَيُبَيِّضْ وجُوهَنَا ، وَيُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَيُنْجِنا مِنَ النَّار؟ فَيَكْشِفُ الحِجَاب ، فَيَنظُرُونَ إليه ، فَوالله مَا أَعْطَاهُم شَيْئاً أَحَبَّ إليهِم مِنَ النَّظَر إليه ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِم » وهي الزيادة .

ورواه غيرُه بأسانيد متعددة وألفاظ أخر ، معناها : أن الزيادة النظرُ إلى وجه الله عز وجل . وكذلك فسرها الصحابةُ رضي الله عنهم . روى ابنُ جرير عن جماعة، منهم : أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وحُذيفة ، وأبو موسى الأشعري ، وابن عباس ، رضي الله عنهم .

وقال تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّهُم عَنْ رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] . احتج الشافعيُّ وغيرهُ مِن الأئمة رحمهم الله تعالى بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني(*) عن الشافعي ، قال الحاكم : حدثنا الأصم ، حدثنا الربيع بن سليمان قال : حضرتُ محمد ابن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى ، وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها : ما تقولُ في قول الله عز وجل : ﴿ كَلَّا إِنَّهُم عَنْ رَبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : ١٥] . فقال الشافعيُّ رحمه الله تعالى : لما أن حُجب هٰؤلاء في السخط ، كان في هذا دليلٌ على أن أولياءَه يرونه في الرضى .

وأما استدلالُ المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وبقوله تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] فالآيتان دليل عليهم .

(*) هو أبو ابراهيم اسماعيل بن يحيى بن اسماعيل بن عمرو بن اسحاق المزني ، صاحب الإمام الشافعي ، من أهل مصر ، كان زاهداً عالماً مجتهداً ، صنف كتب كثيرة في مذهب الإمام الشافعي . قال الإمام الشافعي في حقه : المزني ناصر مذهبي . توفي سنة ٢٦٤ هـ بمصر ، وكان مولد سنة ١٧٥ هـ . من تصانيفه : « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و « الترغيب في العلم » وغيرها .

أما الآيةُ الأولى ، فالاستدلالُ منها على ثبوت رؤ يته من وجوه :

أحدها : أنه لا يُظن بكليم الله ورسوله الكريم ، وأعلم الناس بربه في وقته أن يسأل ما لا يجوزُ عليه ، بل هو عندهم من أعظم المحال .

الثاني : أن الله لم يُنْكِرْ عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر سؤاله ، وقال : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ ﴾ [هود : ٤٦] .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾ ، ولم يقل : إني لا أُرى ، أو لا تجوزُ رؤ يتي ، أو لستُ بمرئي ، والفرق بين الجوابين ظاهر ، ألا ترى أن مَنْ كان في كُمِّه حجر ، فظنَّه رجلٌ طعاماً ، فقال : أطعمنيه ، فالجوابُ الصحيح : أنه لا يؤكل ، أما إذا كان طعاماً ، صحَّ أن يقالَ : إنك لن تأكُله . وهذا يدل على أنه سبحانه مرئي ، ولكن موسى عليه السلام لا تحتمِل قواه رؤ يته في هٰذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها عن رؤ يته تعالى . يوضحه :

الوجه الرابع : وهو قوله : ﴿ وَلكِنِ انظُر إلى الجَبَلِ فَإِنِ استَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] . فأعلمه أن الجبلَ مع قوته وصلابته لا يثبُتُ/للتجلي في هٰذه الدار ، فكيف بالبشر الذي خُلق مِن ضعف ؟ ٣٣/أ

الخامس : أن الله سبحانه قادِرٌ على أن يجعل الجبل مستقرًّا ، وذلك ممكن ، وقد علَّق به الرؤ ية ، ولو كانت محالاً لكان نظير أن يقول : إن استقر الجبلُ ، فسوف آكلُ وأشرب وأنام ، والكل عندهم سواء .

السادس : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، فإذا جاز أن يتجلَّى للجبل الذي هو جماد لا ثوابَ له ولا عِقابَ ، فَكيف يمتنع أن يتجلّى لرسوله وأوليائه في دار كرامته ؟ ولكن الله

أعلم موسى أن الجبلَ إذا لم يثبت لرؤ يته في هذه الدار ، فالبشر أضعفُ .

السابع : أن الله كلَّم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلمُ والتكليمُ ، وأن يسمع مخاطبه كلامَه من غير واسطة ـ فرؤ يتهُ أولى بالجواز ، ولهذا لا يَتِمُّ إنكار رؤ يته إلا بإنكار كلامِه ، وقد جمعوا بينهما . وأما دعواهُم تأبيدَ النفي بـ « لن » وأن ذلك يدل على نفي الرؤ ية في الآخرة ـ : ففاسد ، فإنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة ، فكيف إذا أطلقت ؟ قال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة : ٩٥] ، مع قوله : ﴿ وَنَادَوا يا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جَازَ تَحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك ، قال تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لي أَبي ﴾ [يوسف : ٨٠] . فثبت أن « لن » لا تقتضي النفي المؤ بد .

قال الشيخ جمال الدين بن مالك(*) رحمه الله :

وَمَنْ رَأَى النَّفيَ بـ « لَنْ » مُؤَبَّدَا   فَقَـولَـهُ ارْدُدْ وَسِـوَاهُ فَـاعْضُـدَا

وأما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤ ية من وجه لطيف حسن ، وهو أن الله تعالى إنما ذكرها في سياق التمدح ، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثُّبوتية ، وأما العدمُ المحض ، فليس بكمال ، فلا يُمدح به ، وإنما

(*) هو أبو عبد الله ، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني ، أحد الأئمة في علوم العربية ولد في « جيان » سنة ٦٠٠ هـ وانتقل إلى دمشق وتوفي بها سنة ٦٧٢ هـ ، وقبره ظاهر إلى اليوم في سفح جبل كاسيون . كان اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو أمراً عجيباً ، واطلاعه على الحديث كان فيه غاية . أشهر مصنفاته : « الخلاصة الألفية » في النحو ، و « تسهيل الفوائد » و « شواهد التوضيح » وغيرها كثير .

يُمدح الربُّ تعالى بالنفي إذا تَضَمَّن أمراً وجوديّاً ، كمدحه بنفي الموت(*) المتضمن كمال الحياة ، [ونفي اللغوب والإعياء](**) ، المتضمن كمال القدرة ، ونفي الشريك والولد والصاحبة والظهير ، المتضمِّن كمال ربوبيته والهيته وقهره ، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال صمديته وغناه ، ونفي الشفاعة عِندَه إلا بإذنه المتضمِّن كمال توحده وغناه عن خلقه ، ونفي الظلم المتضمِّن كمالَ عدله وعلمه وغناه ، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمِّن كمالَ علمه وإحاطته ، ونفي المثل المتضمِّن لكمال ذاته وصفاته .

ولهذا لم يتمدَّح بعدم محض لا يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدوم يُشارك الموصوف في ذلك العدم ، ولا يُوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه ، فإذن المعنى : أنه يُرى ولا يُدرَك ولا يُحاط به .

فقوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبرُ مِن كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لا يُدرك بحيث يُحاط به ، فإن « الإدراك » هو الإحاطة بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤ ية ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ ، * قال كَلَّا ﴾ [الشعراء : ٦١ ـ ٦٢] ، فلم ينفِ موسى عليه السلام الرؤ ية ، وإنما نفى الإدراكَ ، فالرؤ ية والإدراك كُلٌّ منهما يُوجد مع الآخر وبدونه ، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدرك ، كما يُعلم ولا يُحاط به علماً ، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة مِن الآية ، كما ذكرت أقوالهم في تفسير الآية ، بل هٰذه الشمس المخلوقة لا يتمكَّن رائيها من إدراكها على ما هي عليه .

وأما الأحاديثُ عن النبي ﷺ وأصحابه الدالةِ على الرؤ ية ، فمتواترة ،

(*) في مطبوعة مكة : كمدحه بنفي السِّنة والنوم ، المتضمن كمال القَيُّومية .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

رواها أصحابُ الصحاح والمسانيد والسنن .

فمنها : حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « أَنَّ نَاساً قَالُوا : يَا رَسُولَ الله ! هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : هَلْ تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ الله ! قَالَ : هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ قَالُوا : لا ، قال : فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذٰلِكَ » ، الحديث ، أخرجاه في « الصحيحين »[٨٢] بطوله .

وحديث أبي سعيد الخدري أيضاً في « الصحيحين » نظيره .

وحديث جرير بن عبد الله البجلي ، قال : كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَنَظَرَ إلى القمر لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ ، فَقَالَ : «إِنَّكُم سَتَرَوْنَ رَبَّكُم عِيَاناً ، كَما تَرَوْنَ هَذَا القمر ، لا تُضَامُّونَ في رُؤْيَتِهِ » ، الحديث أخرجاه في « الصحيحين »[٨٣] .

وحديث صهيب رضي الله عنه المتقدم[*] ، رواه مسلم وغيره .

---

(٨٢) رواه البخاري ١٣/٣٥٧ ـ ٣٥٨ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ ، ومسلم رقم (١٨٢) في الإيمان : باب معرفة طريق الرؤية ، وأبو داود رقم (٤٧٣٠) في السنة : باب في الرؤية ، والترمذي رقم (٢٥٦٠) في صفة الجنة : باب ما جاء في خلود أهل الجنة والنار ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٧٥ و٢٩٣ و٣٦٨ و٥٢٤ .

وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه رواه البخاري ١٣/٣٥٩ ، ومسلم رقم (١٨٣) . انظر « جامع الأصول » رقم (٧٩٧٤) و (٧٩٧٥) .

(٨٣) رواه البخاري ٢/٢٧ ـ ٢٨ في المواقيت : باب من ترك صلاة العصر ، و٨/٤٥٨ في التفسير : باب قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ و١٣/٣٥٦ ـ ٣٥٧ في التوحيد ، ومسلم رقم (٦٣٣) في المساجد : باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، . وأبو داود رقم (٤٧٢٩) في السنة : باب في الرؤية ، والترمذي رقم (٢٥٥٤) في صفة الجنة : باب ما جاء في رؤية الله تبارك وتعالى ، وابن ماجه رقم (١٧٧) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، وأحمد في « المسند » ٤/٣٦٠ و٣٦٢ و٣٦٥ .

(*) تقدم تخريجه ص ١٦٥ رقم ٨١ .

وحديث أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال : « جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنيتُهُما وَمَا فِيهما ،/وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، آنِيَتُهُما وَمَا فِيهِما ، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا(*) إلى رَبِّهِمْ تَبارَكَ وَتَعالَى إلَّا رِدَاءُ الكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ في جَنَّةِ عَدْنٍ » ، أخرجاه في « الصحيحين »[84] .

٣٣/ب

ومن حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه : « وَلَيَلْقَيَنَّ الله أَحَدُكُم يَوْمَ يَلْقَاهُ ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ ، لَيَقُولَنَّ : أَلَمْ أَبْعَثْ إلَيْكَ رَسُولاً فَيُبَلِّغُكَ ؟ فَيَقُولُ : بَلَى يَا رب ، فَيَقُول : أَلَمْ أُعْطِكَ مَالاً وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ ؟ فَيَقُولُ ، بَلَى يَا رَبُّ » الحديث أخرجه البخاري في « صحيحه »[85] .

وقد روى أحاديثَ الرؤية نحوُ ثلاثين صحابياً ، ومن أحاط بها معرفة يقطع بأن الرسولَ قالها ، لولا أني التزمتُ الاختصار ، لسُقْتُ ما في الباب من الأحاديث .

ومن أراد الوقوف عليها ، فليُواظب سماعَ الأحاديثِ النبوية ، فإن فيها مع إثبات الرؤية أنه يُكَلِّم مَنْ شَاءَ إذا شاء ، وأنه يأتي الخلق لِفصل القضاء يومَ القيامة ، وأنه فوقَ العالم ، وأنه يُناديهم بصوت يسمَعُهُ من بَعُدَ كما يسمعه من قُرب ، وأنه يتجلَّى لِعباده ، وأنه يضحك ، إلى غير ذلك من الصفاتِ التي سماعُها على الجهمية بمنزلة الصواعق .

(*) في الأصل : يروا .

(٨٤) رواه البخاري ٨/ ٤٧٩ في التفسير : باب قوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ وباب ﴿ حور مقصرات في الخيام ﴾ ، وفي بدء الخلق : باب ما جاء في صفة الجنة ، وفي التوحيد : باب ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ، ومسلم رقم (١٨٠) في الإيمان : باب قوله عليه السلام « إن الله لا ينام » ، والترمذي رقم (٢٥٣٠) في صفة الجنة : باب ما جاء في صفة غرف الجنة ، وابن ماجه رقم (١٨٦) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية .

(٨٥) ٣/ ٢٢٣ في الزكاة : باب الصدقة قبل الرد . باختلاف يسير في اللفظ .

وكيف تُعلم أصولُ دينِ الإسلام من غير كتاب الله وسنة رسوله ؟ وكيف يُفسر كتابُ الله بغير ما فَسره به رسولُه ﷺ وأصحاب رسوله رضوانُ الله عليهم ، الذين نزل القرآن بلغتهم ؟ وقد قال ﷺ : «مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » ، وفي رواية : « مَنْ قَالَ فِي القُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(٨٦) . وسئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى : ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٣١]: ما الأبُّ ؟ فقال: أيُّ سماءٍ تُظِلُّنِي ، وأيُّ أَرْضٍ تُقِلّني ، إذا قلتُ في كتاب الله ما لا أعلم ؟

وليس تشبيهُ رؤية الله تعالى برؤية الشمسِ والقمرِ تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المَرْئي بالمَرْئي ، ولكن فيه دليلٌ على عُلُوِّ الله على خلقه ، وإلا فهل تُعقل رؤية بلا مقابلة ؟ ومن قال : يُرى لا في جهة - فليراجعْ عقله!! فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء، وإلا فإذا قال : يُرى لا أمام الرائي ولا خلفَه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا فوقَه ولا تحته ، ردَّ عليه كُلُّ من سمعه بفطرته السليمة .

ولهذا ألزم المعتزلةُ مَنْ نفى العلوَّ بالذات بنفي الرؤية ، وقالُوا : كيف تُعقل رؤية بغير جهة . وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا ، لا لامتناع الرؤية ، فهذه الشمسُ إذا حدَّق الرائي البصر في شُعاعها ، ضَعُفَ عن رؤيتها ، لا لامتناع في ذات المرئي ، بل لعجز الرائي ، فإذا كان في الدار الآخرة ، أكملَ الله قُوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته . ولهذا لما تجلى الله للجبل ﴿خَرَّ مُوسَى صعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَال سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ

---

(٨٦) رواه الترمذي رقم (٢٩٥١) و(٢٩٥٢) في التفسير : باب ما جاء في الذي يفسر القرآن ، وأحمد في « المسند » ١/٢٣٣ ، و٢٦٩ و٣٢٣ و٣٢٧ ، والطبري في « جامع البيان » رقم (٧٣) و(٧٤) و(٧٥) ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وفيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبي ، وهو ضعيف ،

ويشهد له حديث جندب رضي الله عنه : « من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ » رواه أبو داود رقم (٣٦٥٢) والترمذي رقم (٢٩٩٣) ، وفي سنده سهيل بن أبي حزم وهو ضعيف .

الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف ١٤٣] ، بأنه لا يراك حيٌّ إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده ، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية الملك في صورته ، إلا من أيَّده الله كما أيد نبينا ﷺ ، قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَو أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ [الأنعام : ٨] .

قال غيرُ واحد من السلف : لا يُطيقون أن يروا الملكَ في صورته ، فلو أنزلنا عليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر ، وحينئذ يشتَبِهُ عليهم : هل هو بشرٌ أو ملك ؟ ومِن تمام نعمة الله علينا أن بعث فينا رسولاً منَّا .

وما ألزمهم المعتزلةُ هذا الإلزامَ إلا لما وافقُوهم على أنه لا داخل العالم ولا خارجه . لكن قول من أثبت موجوداً يُرى لا في جهة ـ أقرب إلى العقل مِن قول من أثبت موجوداً قائماً بنفسه لا يُرى ولا في جهة .

ويقال لمن قال بنفي الرؤية لانتفاء لازمها وهو الجهةُ : أتريدُ بالجهة أمراً وجودياً ؟ أو أمراً عدميًّا ؟ فإن أراد بها أمراً وجودياً ، كان التقريرُ : كلُّ ما ليس في شيء موجود لا يُرى ، وهذه المقدمة ممنوعة ، ولا دليلَ على إثباتها ، بل هي باطلة ، فإن سطح العالم يُمكن أن يُرى ، وليس العالم في عالم آخر ، وإن أردت بالجهة أمراً عدمياً ، كان المقدمة الثانية ممنوعة ، فلا نسلِّم أنه ليس في جهة بهذا الاعتبار .

وكيف يتكلمُ في أصول الدين من لا يتلقاه من الكتاب والسنة ، وإنما يتلقاه من قول فلان ؟ وإذا زعم أنه يأخذهُ مِن كتاب/الله لا يتلقى تفسيرَ كتاب الله من أحاديث الرسول ، ولا ينظرُ فيها ، ولا فيما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، المنقولِ إلينا عن الثقات النقَلة . الذين تخيَّرهم النقاد ، فإنهم لم ينقلوا نظمَ القرآن وحدَه ، بل نقلوا نظْمه ومعناه ، ولا كانوا يتعلَّمون القرآن كما يتعلَّم الصبيانُ ، بل يتعلمونه بمعانيه . ومن لا يسلك سبيلَهم ، فإنما

٣٤/أ

يتكلم برأيه ، ومن يتكلم برأيه وما يظنُّه دينَ الله ولم يتلق ذلك من الكتاب والسنة ، فهو مأثوم وإن أصاب ، ومن أخذ من الكتاب والسنة ، فهو مأجور وإن أخطأ ، لكن إن أصاب يُضاعف أجره .

قوله : والرؤية حق لأهل الجنة . تخصيصُ أهل الجنة بالذكر ، يُفهم منه نفيُ الرؤية عن غيرهم ، ولا شك في رؤية أهل الجنة لربهم في الجنة ، وكذلك يرونه في المحشر قبل دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك في «الصحيحين» عن رسول الله ﷺ(*) . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿تَحِيَّتُهُم يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب : ٤٤] .

واختلف في رؤية أهل المحشر على ثلاثة أقوال :

أحدُهَا : أنه لا يراه إلا المؤمنون .

الثاني : يراه أهلُ الموقف ؛ مؤمنهم وكافرهم ، ثم يحتجب عن الكفار فلا يرونه بعد ذلك .

الثالث : يراه مع المؤمنين المنافقون دونَ بقية الكفار . وكذلك الخلاف في تكليمه لأهل الموقف .

واتفقت الأمةُ على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه ، ولم يتنازعُوا في ذلك إلا في نبينا ﷺ خاصة : منهم من نفى رؤيته بالعين ، ومنهم من أثبتها له ﷺ ، وحكى القاضي عياض(**) في كتابه «الشفا» اختلافَ الصحابة رضي

(*) تقدم تخرجه ص ١٧٠ رقم ٨٢ .

(**) هو القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السَّبتي ، إمام وقته في الحديث وعلومه ، والنحو واللغة وكلام العرب ، كان مولده بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ هـ ، وتوفي بمراكش مسموماً سنة ٥٤٤ هـ رحمه الله تعالى ، ومن تصانيفه : «الشفا في تعريف حقوق المصطفى ﷺ» و «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الامام مالك» «الإلماع إلى معرفة أصول الرؤية وتقيد السماع» و «شرح حديث أم زرع» وغيرها .

الله عنهم ومَنْ بعدهم في رؤ يته ﷺ ، وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربَّه بعين رأسه ، وأنها قالت لمسروق حين سألها : هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ ربَّه ؟ فَقَالَت : لَقَد قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ ، ثُمَّ قَالَتْ : مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدَاً رَأَى رَبَّه ، فَقَدْ كَذَبَ(٨٧) . ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها ، وهو المشهورُ عن ابن مسعود ، وأبي هريرة ، واختُلِف عنه ، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤ يته في الدنيا جماعةٌ من المحدثين والفقهاء والمتكلمين .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه ﷺ رآه بعينه(٨٨) .

وروى عطاء عنه : أنه رآه بقلبه ، ثم ذكر أقوالاً وفوائد ، ثم قال :

وأما وجوبُه لنبينا ﷺ والقولُ بأنه رآه بعينه ، فليس فيه قاطع ولا نصٌّ ، والمعوَّلُ فيه على آية ﴿ النجم ﴾ ، والتنازُعُ فيها مأثور ، والاحتمالُ لها ممكن .

وهذا القولُ الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحقُّ ، فإن الرؤ ية في الدنيا ممكنة ، إذ لو لم تكن ممكنة ، لما سألها موسى عليه السلام ، لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأى ربَّه بعين رأسه ، بل ورد ما يدل على نفي الرؤ ية ، وهو ما رواه مسلم في «صحيحه»(٨٩) عن أبي ذر رضي الله عنه قال : سَأَلْتُ

---

(٨٧) رواه البخاري ٨/٤٦٦ - ٤٦٩ في تفسير سورة النجم ، ومسلم رقم (١٧٧) في الإيمان : باب معنى قول الله عز وجل ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ وأحمد في « المسند » ٦/٤٩ و٥٠ .

انظر « جامع الاصول » رقم (٨١٣٠) .

(٨٨) رواه ابن خزيمة في « كتاب التوحيد » ص ٢٠١ بألفاظ مضطربة ورجاله ثقات وهو موقوف على ابن عباس رضي الله عنهما .

(٨٩) رواه مسلم رقم (١٧٨) في الإيمان: باب قوله عليه السلام : « نور أنى أراه » والترمذي رقم (٣٢٧٨) في التفسير : باب ومن سورة النجم ، وأحمد في « المسند » ٥/١٤٧ .

وله شاهد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً بلفظ « يوم القيامة أول يوم نظرت فيه عين =

رَسُولَ الله ﷺ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ ؟ فَقَالَ : «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» . وفي رواية : «رَأَيتُ نُوراً» .

وقد روى مسلم أيضاً عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال : قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ بِخَمْسِ كَلِماتٍ، فَقَالَ : «إِنَّ الله لا يَنَامُ ولا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنام ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيرْفَعُهُ ، يُرفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ - وفي رواية النَّارُ - لو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انتهى إِلَيْهِ بَصرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»(*) . فيكون - والله أعلم - معنى قوله لأبي ذر : ﴿ رَأَيْتُ نُوراً ﴾ : أنه رأى الحجاب .

ومعنى قوله «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» : النورُ الذي هو الحجابُ يمنع مِن رؤيته ، فأنَّى أراه ؟ أي : فكيف أراه والنورُ حِجاب بيني وبينه يمنعُني من رؤيته ؟ فهذا صريح في نفي الرؤية . والله أعلم . وحكى عثمانُ بنُ سعيد الدارمي(**) اتفاقَ الصحابةِ على ذلك .

ونحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوجُ منا إلى تقرير رؤيته لِربه تعالى ، وإن كانت رؤيةُ الربِّ تعالى أعظمَ وأعلى ، فإن النبوةَ لا يتوقَّفُ ثبوتها عليه البتة .

وقوله : بغير إحاطة ولا كيفية - هذا لكمالِ عظمته وبهائه ، سبحانه وتعالى ، لا تُدركه الأبصار ولا تحيط به(***) ، كما يُعلم ولا يُحاط به علماً ، قال

= إلى الله عز وجل » رواه الدارقطني كما ذكره السيوطي في « الدر المنثور » ٦/١٩١ ، وله شاهد مرسل رزاه الدارمي في «الرد على الجهمية » ص ٤٩ .

(*) تقدم تخرجه ص ٧٠ رقم ٢٠ .

(**) هو أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد التميمي السجستاني الدارمي ، محدث ، متكلم ، ولد قبل ٢٠٠ هـ بيسير ، وتوفي سنة ٢٨٠ هـ ، من تصانيفه : «المسند الكبير» و « الرد على الجهمية » و « كتاب الرد على بشر المريسي فيما ابتدعه من التأويل لمذهب الجهمية » .

(***) في الأصل ولا يحيط به علم والتصحيح من مطبوعة مكة .

تعالى : ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام : ١٠٣] . وقال تعالى : ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه : ١١٠] .

وقوله : وتفسيره على ما أراد الله/وعلمه ، إلى أن قال : لا ندخُل في ٣٤/ب ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا . أي : كما فعلت المعتزلةُ بنصوص الكتاب والسنة في الرؤ ية ، وذلك تحريفٌ لكلام الله وكلامِ رسوله عن مواضعه .

فالتأويل الصحيحُ هو الذي يُوافق ما جاءت به السنةُ ، والفاسدُ المخالف له ، فكلُّ تأويل لمعنى لم يدل عليه دليلٌ مِن السياق، ولا معه قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يَقْصِدُه المُبَيِّنُ الهادي بكلامه، إذ لو قصده، لحفَّ بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره ، حتى لا يُوقِعَ السامِعَ في اللَّبْسِ والخطإِ ، فإن الله أنزل كلامَه بياناً وهُدى ، فإذا أراد به خلاف ظاهره ، ولم تَحُفَّ بِه قرائنَ تدل على المعنى الذي يتبادرُ غيره الى فهم كُلِّ أحد ، لم يكن بياناً ولا هُدى ، فالتأويلُ إخبار بمراد المتكلم ، لا إنشاء .

وفي هذا الموضع يغلطُ كثير من الناس ، فإن المقصود فهمُ مراد المتكلم بكلامه ، فإذا قيل : معنى اللفظ كذا وكذا ، كان إخباراً بالذي عناه المتكلم ، فإن لم يكن الخبر مطابقاً ، كان كذباً على المتكلم .

ويُعرف مرادُ المتكلم بطرق متعددة :

منها : أن يصرِّح بإرادة ذلك المعنى .

ومنها: أن يستعمل [اللفظ](*) الذي له معنى ظاهر بالوضع، ولا يُبين بقرينة تصحَبُ الكلام أنه لم يُرِدْ ذلك المعنى، فكيف إذا حُفَّ بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾ [النساء : ١٦٣] . و«إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِياناً كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ في الظَّهِيرةِ

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

لَيْسَ دُونَها سَحَابٌ»(*). فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقةُ لفظه الذي وُضِعَ له مع القرائن المؤكدة، كان صادقاً في إخباره. وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه، ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخبارُه بأن هذا مراده كذبٌ عليه، وهو تأويل بالرأي، وتوهُّمٌ بالهوى.

وحقيقةُ الأمر: أن قول القائل: نحمله على كذا، أو: نتأوله بكذا إنما هو من باب دفع دلالة اللفظ عما وُضِعَ له، فإن منازِعه لما احتجَّ عليه به، ولم يُمكنه دفعُ وروده، دفع معناه، وقال: أَحْمِلُهُ على خلاف ظاهره.

فإن قيل: بل للحمل معنى آخر لم تذكروه، وهو أن اللفظ لما استحال أن يُراد به حقيقتُه وظاهره، ولا يُمكن تعطيلُه، استدللنا بوروده وعدم إرادة ظاهره على أن مجازَه هو المرادُ، فحملناه عليه دلالة، لا ابتداء.

قيل: فهذا المعنى هو الإخبار عن المتكلم أنه أراده، وهو إما صِدقٌ وإما كذب كما تقدم.

ومِن الممتنع أن يُريد خلافَ حقيقته وظاهره، ولا يُبين للسامع المعنى الذي أراده، بل يعرف بكلامه ما يُؤكد إرادة الحقيقة. ونحن لا نمنع أن المتكلم قد يُريد بكلامه خلافَ ظاهره إذا قصد التعمية على السامع حيث يسوغ ذلك، ولكن المنكَر أن يريد بكلامه خلاف حقيقته وظاهره إذا قصد البيان والإيضاح وإفهام مراده! كيف والمتكلمُ يؤكِّد كلامه بما ينفي المجاز، ويكرره غيرَ مرة، ويضرب له الأمثال.

وقوله: «فإنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمِه». أي: سلم لنصوصِ الكتاب والسنة،

(*) تقدم تخرجه ص ١٧٠ رقم ٨٢.

ولم يعترِضْ عليها بالشكوك والشبه والتأويلات الفاسدة ، أو بقوله : العقلُ يشهد بِضدٍّ ما دل عليه النقل ! والعقل أصل النقل !! فإذا عارضه قدمنا العقل !! وهذا لا يكون قطُّ ، لكن إذا جاء ما يُوهِمُ مثلَ ذلك ، فإن كان النقلُ صحيحاً ، فذلك الذي يُدَّعى أنه معقول إنما هو مجهول ، ولو حقّق النظر ، لظهر ذلك ، وإن كان النقلُ غيرَ صحيح ، فلا يصلُح للمعارضة ، فلا يُتصور أن يتعارضَ عقل صريح ، ونقل صحيح أبداً ، ويعارض كلامُ من يقول ذلك بنظيره، فيقال : إذا تعارض العقل والنقل ، وجب تقديمُ النقل ، لأن الجمع بين المدلولين جمعٌ بين النقيضين ، ورفعُهما رفعُ/النقيضين ، وتقديمُ العقل ممتنع ، لأن العقل قد دل على صحةِ السمع ، ووجوبِ قبول ما أخبر به الرسولُ ﷺ ، فلو أبطلنا النقلَ ، لكنَّا قد أبطلنا دلالةَ العقل ، ولو أبطلنا دلالة العقل ، لم يصلُحْ أن يكون معارضاً للنقل ، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء ، فكان تقديمُ العقل موجباً عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمُه ، وهذا بين واضح ، فإن العقل هو الذي دل على صدق السمع وصحته ، وأن خبره مطابِقٌ لمخبره ، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل ، لزم ألا يكونَ العقلُ دليلاً صحيحاً ، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً ، لم يجز أن يُتبع بحال ، فضلاً عن أن يُقَدَّمَ ، فصار تقديمُ العقل على النقل قدحاً في العقل .

٣٥/أ

فالواجب كمالُ التسليم للرسول ﷺ ، والانقيادُ لأمره ، وتلقي خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نُعارضَه بخيال باطل نُسميه معقولاً ، أو نُحَمِّلَه شبهة أو شكاً ، أو نُقدِّم عليه آراءَ الرجال وزُبالة أذهانهم ، فنوحِّدُه بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما نوحد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل .

فهما توحيدانِ ، لا نجاةَ للعبدِ مِن عذاب الله إلا بهما : توحيدُ

المرسِل ، وتوحيدُ متابعة الرسول ، فلا يُحاكِمُ الى غيره ، ولا يرضى بحكم غيره ، ولا يوقِفُ تنفيذَ أمره ، وتصديقَ خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه وذوي مذهبه وطائفتِه ومَن يعظمه ، فإن أَذِنُوا له ، نفَّذه ، وقَبِلَ خبره ، وإلا فإن طلب السلامة ، فوَّضه إليهم ، وأعرضَ عن أمره وخبره ، وإلا حرَّفه عن مواضعه ، وسمَّى تحريفه تأويلاً وحملاً ، فقال : نـؤوِّله ونحمله . فلأن يلقى العبدُ ربه بكل ذنب ـ ما خلا الإشراك بالله ـ خيرٌ مِن أن يلقاه بهٰذه الحال .

بل إذا بلغه الحديثُ الصحيح يعدُّ نفسه كأنه سمعه مِن رسول الله ﷺ ، فهل يسوغُ أن يؤخِّر قبوله والعملَ به حتى يَعْرِضَه على رأي فلان وكلامِه ومذهبه ؟ بل كان الفرضُ المبادرةُ إلى امتثاله ، مِن غير التفات إلى سواه ، ولا يستشْكِلُ قولَه لمخالفته رأي فلان ، بل يستشْكِلُ الآرَاءَ لقوله ، ولا يُعارِضُ نصَّه بقياس ، بل يَهْدِرُ الأقيسة ، ويتلقى نصوصَه ، ولا يُحرِّف كلامه عن حقيقته ، لِخيال يُسميه أصحابُه معقولاً ، نعم هو مجهول ، وعن الصوابِ معزول ! ولا يُوقف قبول قوله على موافقةِ فلان دونَ فلان ، كائناً من كان .

قال الإمامُ أحمد : ثنا أنسُ بنُ عياض : ثنا أبو حازِم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جدِّه ، قال : لقد جلستُ أنا وأخي مجلساً ما أُحِبُّ أن لي به حُمْرَ النَّعَمِ ، أقلبتُ أنا وأخي ، وإذا مَشْيَخَةٌ مِن أصحاب رسولِ الله ﷺ جُلوسٌ عند بابٍ من أبوابه ، فكرِهْنا أن نُفرِّقَ بينهم ، فجلسنا حَجَرَةَ ، إذ ذكرُوا آيةً من القرآن ، فَتَمارَوْا فيها ، حتى ارتفعت أصواتُهُم ،فخرج رسولُ الله ﷺ مُغْضَباً ، قد احمرَّ وجهُهُ ، يَرميهم بالتراب ، ويقولُ : « مَهْلًا يا قَوم ! بهذا أُهلِكَتِ الأُمَمُ مِن قَبْلِكُمْ ، باختلافِهِم على أنبيائهم ، وضربهِم الكُتُبَ بعضَها ببعض ، إنَّ القُرآن لم يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضَاً ، وإنَّما نَزَلَ يُصدِّقُ بَعْضُه بَعْضَاً ، فما عَرَفْتُمْ مِنْهُ ، فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُم مِنْه فَرُدُّوهُ إلى عَالِمِهِ»[٩٠] .

---

(٩٠) رواه أحمد في « المسند» ٢/١٧٨و١٨١و١٩٦، وابن ماجه رقم (٨٥) في المقدمة : باب في القدر . =

ولا شك أن الله قد حرَّم القولَ عليه بغيرِ علم ، قال تعالى : ﴿قُلْ إنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ والإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وأَنْ تَقُولُوا عَلى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] . وقال تعالى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء : ٣٦] . فعلى العبدِ أن يجعل ما بعثَ الله به رسُلَه ، وأنزل به كُتُبَه هو الحقَّ الذي يجبُ اتِّباعه ، فيصدِّق بأنه حقٌّ وصِدق ، وما سواه مِن كلام سائر الناس يَعْرِضُه عليه ، فإن وافقه ، فهو حق ، وإن خالفه ، فهو باطل ، وإن لم يعلم : هل خالفه أو وافقه ـ يكونُ ذلك الكلامُ مجملاً لا يُعرفُ مرادُ صاحبه ، أو قد عَرَفَ مرادَه لكن لم يَعْرِفْ : هل جاء الرسول بتصديقه أو بتكذيبه فإنه يُمسِكُ عنه ، ولا يتكلَّم إلا بعلم ، والعلمُ ما قام عليه الدليلُ ، والنافعُ منه ما جاء به الرسولُ ، وقد/يكون علمٌ من غير الرسول ، لكن في الأمور الدنيوية ، مثلَ الطِّب والحِساب والفلاحة ، وأما الأمورُ الإلهية والمعارف الدينية ، فهٰذه العلمُ فيها ما أُخِذَ عن الرسول لا غير . ٣٥/ب

* * *

قوله : وَلَا تَثْبُتُ قَدَمُ الإِسْلامِ إلَّا عَلَى ظَهْرِ التَّسْلِيمِ والاسْتِسْلامِ .

هذا من باب الاستعارة ، إذ القدمُ الحِسِّي لا تثبُت إلا على ظهر شيء . أي : لا يثبت إسلامُ من لم يُسلِّم لنصوص الوحيين ، وينقادُ إليها ، ولا يعترِضُ عليها ، ولا يُعارِضها برأيه ومعقوله وقياسه ، روى البخاريُّ عن الإمام

= ورواه أيضاً مسلم رقم (٢٦٦٦) في العلم : باب النهي عن اتباع متشابه القرآن . . الخ بلفظ « هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً قال : فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية ، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب ، فقال : « إِنَّمَا أُهْلِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الكِتَابِ » .
وسترد الروايتين في آخر الكتاب ص ٦١٤ .

محمد بن شهاب الزهري رحمه الله أنه قال : مِنَ الله الرسالةُ ، وعلى الرَّسُولِ البلاغُ ، وعلينا التسليمُ . وهذا كلام جامع نافع .

وما أحسن المَثَلَ المضروبَ للنقل مع العقل ، وهو : أن العقل مع النقل كالعامي المقلِّد مع العالم المجتهد ، بل هو دون ذلك بكثير ، فإن العاميَّ يُمكنه أن يصيرَ عالماً ، ولا يُمكِنُ العالم أن يصير نبياً رسولاً ، فإذا عرف العاميُّ المقلِّدُ عالماً ، فدلَّ عليه عامياً آخر ، ثم اختلف المفتي والدَّال ، فإن المستفتي يجبُ عليه قبولُ قول المفتي ، [دون الدال . فلو قال الدال : الصوابُ معي دون المفتي](*) ، لأني أنا الأصلُ في علمك بأنك مفت ، فإذا قدَّمت قولَه على قولي ، قدحتَ في الأصل الذي به عرفتَ أنه مفت ، فلزم القدحُ في فرعه ! فيقول له المستفتي : أنت لما شهدتَ له بأنه مفت ، ودللتَ عليه ، شهدت له بوجوب تقليده دونَك ، فموافقتي لك في هذا العلم المعين ، لا تستلزِمُ موافقتك في كل مسألة ، وخطؤك فيما خالفت فيه المفتي الذي هو أعلمُ منك ، لا يستلزِمُ خطأك في علمك بأنه مفت ، هذا مع علمه أن ذلك المفتي قد يُخطىء .

والعقلُ يعلم أن الرسولَ معصوم في خبره عن الله تعالى ، لا يجوز عليه الخطأُ ، فيجب عليه التسليمُ له والانقيادُ لأمره ، وقد علمنا بالاضطرار مِن دين الإسلام أن الرجل لو قال للرسول : هذا القرآنُ الذي تُلقيهِ علينا ، والحكمة التي جئتنا بها ، قد تضمَّن كُلٌّ منهما أشياء كثيرة تُناقِضُ ما علمناه بعقولنا ، ونحن إنما علمنا صِدقَك بعقولنا ، فلو قبلنا جميعَ ما تقولُه مع أن عقولنا تُناقِضُ ذلك ، لكان قدحاً في ما علمنا به صدقَك ، فنحنُ نعتقد موجِبَ الأقوال الناقصة لما ظهر مِن كلامِك ، وكلامُكَ نُعرض عنه ، لا نتلقَّى منه

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

هدياً، ولا علماً ، لم يكن مثلَ هذا الرجل مؤمناً بما جاء به الرسولُ ، ولم يرضَ مِنه الرسولُ بهذا، بل يعلم أن هذا لو ساغ، لأمكنَ كُلُّ أحد أن لا يُؤمِنَ بشيء مما جاء به الرسول ، إذ العقولُ متفاوتة ، والشبهاتُ كثيرة ، والشياطينُ لا تزال تُلقي الوسواس في النفوس ، فيُمْكِنُ كُلَّ أحد أن يقول مِثل هذا في كل ما أخبر به الرسولُ وما أمر به !! وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلَّا البَلَاغُ ﴾ [النور : ٥٤] . وقال : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلَّا البَلَاغُ المُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ الله مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [إبراهيم : ٤] . ﴿ قَدْ جَاءَكُم من الله نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة : ١٥] . ﴿ حُم * وَالكِتَابِ المُبينِ ﴾ [الدخان : ١ ـ ٢ والزخرف : ١ ـ ٢] . ﴿ تِلْكَ آياتُ الكِتَابِ المُبينِ ﴾ [يوسف : ٢] . ﴿ ما كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] . ونظائر ذلك كثيرة في القرآن .

فأمرُ الإيمان بالله واليوم الآخر : إما أنْ يكونَ الرسول تكلم فيه بما يدل على الحق أم لا ؟ الثاني باطل ، وإن كان قد تكلم على الحق بألفاظ مجملة محتملة ، فما بلّغ البلاغَ المبين ، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ ، وأشهدَ الله عليهم في الموقف الأعظم ، فمن يدَّعي أنه في أصولُ الدين لم يبلغ البلاغ المبين ، فقد افترى عليه ﷺ .

* * *

قوله : فَمَنْ رَامَ عِلْمَ مَا حُظِرَ عَنْهُ عِلْمُهُ ، وَلَمْ يَقْنَعْ بِالتَّسْلِيمِ فَهْمُهُ ، حَجَبَهُ مَرامُه عَنْ خَالِصِ التَّوْحِيدِ ، وَصَافِي المَعْرِفَةِ ، وَصَحِيحِ الإيمان .

٣٦/أ هذا تقريرٌ للكلام الأول ، وزيادةُ/تحذير أن يتكلم في أُصول الدين ـ بل وفي غيرها ـ بغيرِ علم ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسئولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيْدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيْهِ إلىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الحج : ٣ ـ ٤] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هَدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيْرٍ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُ في الدُّنيا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج : ٨ ـ ٩] . وقال تعالىٰ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ الله إنَّ الله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِيْنَ﴾ [القصص : ٥٠] . وقال تعالىٰ : ﴿إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِنْ رَبِّهِمْ الهُدَى﴾ [النجم : ٢٣] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى .

وعن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدىً كَانُوا عَلَيْهِ إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ » ثُمَّ تَلا : ﴿ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إلا جَدَلاً ﴾ [الزخرف : ٥٨] . رواه الترمذي[٩١] ، وقال : حديث حسن .

---

(٩١) رقم (٣٢٥٠) في التفسير : باب ومن سورة الزخرف ، وابن ماجه رقم (٤٨) في المقدمة : باب اجتناب البدع والجدل ، وأحمد في « المسند » ٥/٢٥٢ و٢٥٦ وإسناده صحيح .

وقد روي من غير وجه عن أبي أمامة رضي الله عنه . وقال الترمذي : حسن صحيح ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ٦/٢٠ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قال رسولُ الله ﷺ : « إنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ » خرجاه في « الصحيحين »(٩٢) .

ولا شكَّ أنَّ منْ لمْ يُسلم للرسول ، نقصَ توحيدُهُ ، فإنَّه يقول برأيه وهواه ، ويُقلِّدُ ذا رأي وهوى بغير هُدىً مِن الله ، فينقُصُ من توحيده بقدر خروجه عما جاء به الرسولُ ، فإنه قد اتخذهُ في ذلك إلٰهاً غير الله ، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان : ٤٣] . أي : عَبَدَ ما تهواه نفسه . وإنّما دخل الفسادُ في العالم مِن ثلاثِ فِرق ، كما قال عبد الله ابن المبارك رحمة الله عليه :

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيْتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلاَّ الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

فالملوكُ الجائرة يتعرضون على الشريعة بالسياسات(*) الجائرة ، ويُعارضونها بها ، ويُقَدِّمونها على حكم الله ورسوله .

وأحبارُ السوء ، وهم العلماء الخارجون عن الشريعة ، بآرائهم وأقيستِهِم الفاسدة ، المتضمِّنة تحليل ما حرَّم الله ورسولُه ، وتحريم ما أباحه ، واعتبار ما ألغاه ، وإلغاء ما اعتبره ، وإطلاق ما قيده ، وتقييد ما أطلقه ، ونحو ذلك .

والرهبان وهم جهال المتصوفة ، المعترضون على حقائق الإيمان

---

(٩٢) رواه البخاري ٥/٧٧ في المظالم : باب قول الله تعالى : ﴿ وهو ألد الخصام ﴾ . و٨/١٤٠ في التفسير ، و١٣/١٥٨ في الأحكام : باب الألد الخصم ، ومسلم رقم (٢٦٦٨) في العلم: باب في الألد الخصم ، والترمذي رقم (٢٩٨٠) في التفسير : باب ومن سورة البقرة ، والنسائي ٨/٢٤٧ ـ ٢٤٨ في القضاة : باب الألد الخصيم ، وأحمد في « المسند » ٦/٥٥ و٦٢ و٢٠٩ .

(*) في الأصل بالسياسة ، والتصحيح من مطبوعة مكة .

والشرع ، بالأذواق والمواجِيدِ والخيالاتِ والكُشوفات الباطلة الشيطانية ، المتضمنة شرعَ دين لم يأذن به الله ، وإبطال دينه الذي شرعه على لسان نبيه ﷺ ، والتعوض عن حقائق الإيمان بخدع الشيطان وحظوظ النفس . فقال الأولون : إذا تعارضت السياسةُ والشرعُ قدمنا السياسة ! وقال الآخرون : إذا تعارض العقلُ والنقلُ ، قدمنا العقل ! وقال : أصحابُ الذوق : إذا تعارض الذوقُ والكشف وظاهرُ الشرع ، قدمنا الذوق والكشف .

ومن كلام أبي حامد الغزالي(*) رحمه الله في كتابه الذي سماه « إحياء علوم الدين»(**) وهو من أجلِّ كتبه، أو أجلُّها: «فإن قلتَ: فعلم الجدل والكلام مذموم كعلم النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه، فاعلم أن للناس في هذا غلوَّاً وإسرافاً في إفراط، فمن قائل: إنه بدعةٌ وحرام، وإن العبد أن يلقىْ الله بكل ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام، ومن قائل : إنه فرضٌ ، إمَّا على الكِفاية ، وإما على الأعيان ، وأنه أفضلُ الأعمال ، وأعلى القربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله . قال : وإلى التحريم ذهب الشافعيُّ ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميعُ أئمَّة الحديث من السلف ـ وساق الألفاظ عن هؤلاء ـ قال : وقد اتفق أهلُ الحديث من

(*) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي فقيه ، متصوف ، متكلم ، أصولي ، فيلسوف ولد بطوس بخراسان سنة ٤٥٠ هـ ، ندب للتدريس بنظامية بغداد ، ثم أقبل على العبادة والسياحة ، فخرج إلى الحجاز فحج ، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين ، ثم انتقل إلى القدس ثم الاسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس ومات بطابران، وهي قصبة طوس. رحمه الله سنة ٥٠٥ هـ .

ومن تصانيفه « احياء علوم الدين » و « تهافت الفلاسفة » و « المستصفى في اصول الفقه » و « الوسيط » و « الاقتصاد في الاعتقاد » وغيرها كثير .

(**) والكتاب على جلالته فيه فوائد كثيرة وطامات كثيرة أهمها الأحاديث الموضوعة وما بنى عليها من أحكام وما قص عن الصوفية من حكايات لا تقرها الشريعة الحنيفية ، وقد جرد أبو الفرج ابن الجوزي الإحياء من الأحاديث الموضوعة والحكايات المرفوضة في كتاب سماه منهاج القاصدين واختصره من بعده نجم الدين أحمد ابن قدامة المقدسي وقد طبعنا المختصر بتحقيق استاذنا الجليل الشيخ عبد القادر الأرنؤوط حفظه الله الذي قام أيضاً بتخريج أحاديثه كاملة .

السلف على هذا ، لا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه ، قالوا : ما سكت عنه الصحابةُ ـ مع أنهم أعرف بالحقائق ، وأفصحُ بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ إلاّ لما يتولَّد منه من الشر . وكذلك قال ﷺ : « هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ »[93] . أي المتعمِّقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضاً بأن ذلك لو كان من الدين ، لكانَ أهمَّ ما يأمُرُ به رسولُ الله ﷺ ، ويَعلم طريقته، ويُثني على أربابه. ثم ذكر بقية استدلالهم . ثم ذكر استدلال الفريق الآخر ، إلى أن قال : فإن قلتَ : فما المختارُ عندك ؟ . فأجاب بالتفصيل ، فقال : فيه منفعةٌ ، وفيه مضرة ، فهو في وقت الانتفاع حلال أو مندوب أو واجب ، كما يقتضيه الحالُ/وهو باعتبار مضرته في وقت الاستضرار ومحله حرام ، قال : فأما مضرتُهُ ، فإثارة الشبهات ، وتحريكُ العقائد ، وإزالتُها عن الجزم والتصميم ، وذلك مما يحصل بالابتداء ، ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلفُ فيه الأشخاص . فهذا ضرره في اعتقاد الحق ، وله ضرر في تأكيد اعتقاد المبتدعة وتثبيتها في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتدُّ حِرصهم على الإصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور مِن الجدل .

٣٦/ب

قال : وأما منفعته ، فقد يظن أن فائدته كشفُ الحقائق ومعرفتها على ما هي عليه وهيهات، فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف، ولعل التخبيطَ والتضليلَ أكثَرُ مِن الكشفِ والتعريفِ . قال : وهذا إذا سمعتَه مِن مُحَدِّث أو حشوي ربما خطر ببالك أن الناسَ أعداءُ ما جهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلامَ ، ثم قلاه بعد حقيقية الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم أخر سوى نوع علم الكلام ،

---

(٩٣) رواه مسلم رقم (٢٦٧٠) في العلم : باب هلك المتنطعون، وأبو داود رقم (٤٦٠٨) في السنة :باب في لزوم السنة ،وأحمد في« المسند »١/٣٨٦ ،من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفكُّ الكلامُ عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ، ولكن على الندور . انتهى ما نقلته عن الغزالي رحمه الله .

وكلام مثله في ذلك حجة بالغة ، والسلفُ لم يكرهوه لمجرد كونه اصطلاحاً جديداً على معانٍ صحيحة ، كالاصطلاح على ألفاظ العلوم صحيحة ، ولا كرهوا أيضاً الدلالة على الحق ، والمحاجة لأهل الباطل ، بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق . ومن ذلك : مخالفتها للكتاب والسنة وما فيه من علوم صحيحة ، فقد وعَّروا الطريقَ إلى تحصيلها ، وأطالوا الكلامَ في إثباتها مع قلة نفعها ، فهي لحمُ جَمَلٍ غَثٌّ على رأسِ جَبَلٍ وَعْرٍ ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى ، وَلَا سَمِينٌ فيثقل . وأحسنُ ما عندَهُم ، فهو في القرآن أصحُّ تقريراً ، وأحسنُ تفسيراً ، فليس عندهم إلا التكلفُ والتطويلُ والتعقيدُ ، كما قيل :

لَوْلَا التَّنَافُسُ في الدُّنْيا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتُبُ التَّنَاظُرِ لا المُغْنِي وَلَا العُمَدُ
[يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمْ عُقَدَاً ... وَبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَت العُقَدُ](*)

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشُّبَهَ والشُّكُوكَ ، والفاضلُ الذي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك .

ومن المحال أن لا يحصل الشفاءُ والهُدى والعلم واليقين من كتاب الله وكلام رسوله ، ويحصَلَ من كلام هؤلاء المتحيرين ، بل الواجبُ أن يجعل ما قاله الله ورسولُه هو الأصل ، ويتدبر مَعناه ويعقله ، ويعرفَ بُرهانه ودليله العقلي والخبري السمعي ، ويعرفَ دلالتَه على هذا وهذا ، ويجعل أقوالَ الناسِ التي تُوافقه وتخالفه متشابِهة مجملة ، فيُقال لأصحابها : هَذه الألفاظ

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

تحتمِلُ كذا وكذا ، فإن أرادُوا بها ما يُوافق خبَرَ الرسول ، قُبلَ ، وإن أرادُوا بها ما يُخالفه ، رُدَّ .

وهذا مثلُ لفظِ المركَّب والجسم ، والمُتَحَيِّز والجوهر والجهة ، والحيز والعرض ، ونحو ذلك ، فإن هٰذه الألفاظَ لم تأتِ في الكتاب والسنة بالمعنى الذي يُريده أهلُ هذا الاصطلاح ، بل ولا في اللغة ، بل هم يخصُّون بالتعبير بها عنِ معانٍ لم يُعَبِّرْ غيرُهُم عنها بها ، فتُفسر تلك المعاني بعبارات أخر ، ويُنظر ما دل عليه القرآن من الأدلة العقلية والسمعية ، وإذا وقع الاستفسارُ والتفصيلُ تبيَّن الحقُّ من الباطل .

مثال ذلك في التركيب ، فقد صار له معانٍ :

أحدهما : التركيبُ من متباينين فأكثر ، ويسمى : تركيبَ مزج ، كتركيبِ الحيوان من الطبائع الأربع والأعضاء ونحوِ ذلك ، وهذا المعنى منفي عن الله سبحانه وتعالى ، ولا يلزمُ مِنْ وصف الله تعالى بالعلوِّ ونحوِهِ مِن صفات الكمال أن يكون مركباً بهذا المعنى المذكور .

والثاني : تركيبُ الجوار ، كمصراعي الباب ونحو ذلك ، ولا يلزم أيضاً مِن ثبوت صفاته تعالى إثباتُ هذا التركيب.

الثالث : التركيبُ مِن الأجزاء المتماثلة ، وتُسمى الجواهر المفردة .

الرابع : التركيبُ من الهيولى والصورة ، كالخاتم مثلاً ، هيولاه : الفضة ، وصورته معروفة .

وأهل الكلام قالوا : إن الجسم يكون مركباً مِن الجواهر المفردة ، ولهم كلام في ذلك يطول ، ولا فائدَة فيه ، وهو أنه : هل يُمكِنُ التركيبُ من جزئين ، أو مِن/أربعة ، أو ستة ، أو ثمانية ، أو ستة عشر ؟ وليس هذا ٣٧/أ

التركيبُ لازماً لثبوت صفاته تعالى وعلوه على خلقه .

والحقُّ أن الجسمَ غيرُ مركب من هذه الأشياء ، وإنما قولُهم مجرد دعوى ، وهذا مبسوط في موضعه .

الخامس : التركيبُ من الذات والصفات ، هذا سموه تركيباً لينفوا به صفاتِ الربِّ تعالى ، وهذا اصطلاحٌ منهم لا يُعرف في اللغة ، ولا في استعمال الشارع ، فلسنا نُوافِقهم على هذه التسمية ولا كرامة ، ولئن سَمَّوا إثباتَ الصفات تركيباً ـ : فنقول لهم : العبرة للمعاني لا للألفاظ ، سمُّوه ما شئتُم ، ولا يترتَّبُ على التسمية بدون المعنى حكم ! فلو اصطلح على تسمية اللبن خمراً ، لم يحرم بهذه التسمية .

السادس : التركيبُ من الماهية ووجودها ، وهذا يفرضه الذهن أنهما غيران ، وأما في الخارج ، هل يمكن ذاتٌ مجردة عن وجودها ووجودها مجردٌ عنها ؟ هذا محال ، فترى أهلَ الكلام يقولون : هل ذاتُ الربِّ وجودُه أم غيرُ وجوده ؟ ولهم في ذلك خبط كثير ، وأمثلُهم طريقة رأيُ الوقف والشك في ذلك ، وكم زال بالاستفسار والتفصيل كثيرٌ من الأضاليل والأباطيل .

وسبب الإضلال الإعراضُ عن تدبر كلام الله وكلام رسوله ، والاشتغال بكلام اليونان والآراء المختلفة .

وإنما سمي هؤلاء أهلَ الكلام ، لأنهم لم يُفيدوا علماً لم يكن معروفاً ، وإنما أتوْا بزيادة كلام قد لا يُفيد ، وهو ما يضربونه مِن القياس لإيضاح ما علم بالحس ، وإن كان هذا القياسُ وأمثالُه يُنتفع به في موضع آخر، ومع من يُنكِرُ الحس . وكل من قال برأيه وذوقه أو سياسته ـ مع وجود النص ، أو عارض النص بالمعقول ـ فقد ضاهى إبليس ، حيث لم يُسلِّم لأمر ربِّه ، بل قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[الأعراف : ١٢] .

وقال تعالى ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حفيظاً﴾ [النساء : ٨٠] . وقال تعالى : ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] وقال تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء : ٦٥] . أقسم سبحانه بنفسه أنهم لا يُؤمنون حتى يحكِّموا نبيَّه ، ويرضَوْا بحكمه ، ويسلِّموا تسليماً .

* * *

قوله : فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الكُفْرِ والإِيمَانِ ، والتَّصْدِيقِ والتَّكْذِيبِ ، والإِقْرَارِ والإِنكَارِ ، مُوَسْوَسَاً تَائِهاً ، شاكّاً ، لَا مُؤْمِناً مُصَدِّقاً ، ولَا جَاحِدَاً مُكَذِّباً .

يتذبذب : يضطرب ويتردد ، وهذه الحالةُ التي وصفها الشيخُ رحمه الله تعالى حالُ كُلِّ مَنْ عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم ، أو أراد أن يجمع بينَه وبين الكتاب والسنة ، وعند التعارض يتأوَّل النَّصَّ ويرده إلى الرأي والآراء المختلفة ، فيؤول أمرُه إلى الحيرة والضلال والشك ، كما قال ابنُ رشد الحفيد(*) ، وهو من أعلم الناسِ بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ، في كتابه «تهافت التهافت» : «ومَنِ الذي قال في الإلهيات شيئاً يُعتَدُّ به ؟» .

(*) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، وتوفي سنة ٥٩٥ بمراكش رحمه الله تعالى ، درس الفقه والأصول وعلم الكلام ، ثم أقبل على علوم الأوائل ومال إلى علوم الحكماء ، وعني بكلام أرسطو وترجمه إلى العربية وزاد عليه زيادات كثيرة . من تصانيفه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » و « تهافت التهافت» وغيرها . ويلقب بابن رشد الحفيد تمييزاً له عن جده أبي الوليد محمد بن أحمد المتوفى سنة ٥٢٠هـ .

وكذلك الآمـدي(*) ، أفضـلُ أهلِ زمانه ، واقف في المسائل الكبار حائر ، وكذلك الغزاليُّ رحمه الله، انتهى آخِر أمره إلى الواقف والحيرة في المسائل الكلامية ، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ ، فمات والبخاري على صدره، وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ، قال في كتابه الذي صنفه : أقسام اللذات :

نِـهـايَـةُ إِقْـدامِ العُـقُـولِ عِقَـالُ ... وَغَـايَـةُ سَعْيِ العَـالَمِينَ ضَـلَالُ
وأرْوَاحُنَـا في وَحْشَةٍ مِنْ جُسُـومِنَا ... وَحَـاصِـلُ دُنـيَـانَـا أَذَى وَوَبَـالُ
وَلَمْ نَسْتَفِـدْ مِنْ بَحْثِنَا طُول عُمْـرِنَـا ... سِـوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيـه : قِيـلَ وقَـالُـوا
فَكَمْ قَـدْ رَأَيْـنَـا مِنْ رِجَـال وَدَوْلَـةٍ ... فَبَـادُوا جَمِيعَـاً مُسْـرِعِينَ وَزَالُـوا
وَكَمْ مِنْ جِبَـالٍ قَـدْ عَلَتْ شُـرُفَـاتِهَا ... رِجَـالٌ ، فَـزَالُـوا وَالجِبَـالُ جِبَـالُ

لـقــد تـأمـلـتُ الطرقَ الكلامية ، والمناهجَ الفلسفية ، فما رأيتُها تشفي عليلاً ، ولا تُرْوي غليلاً ، ورأيتُ أقرَب الطرق طريقةَ القرآنِ ، اقرأ في الاثبات : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه : ٥] . ﴿إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر : ١٠] . واقرأ في النفي : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ﴾ [الشورى : ١١] . ﴿ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمَاً﴾ [طه : ١١٠] . ثم قال : «ومن جرب مثلَ تجرِبتي عرف مثلَ معرفتي» .

(*) هـو أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي ، الآمدي ، الحنبلي ، ثم الشافعي ، فقيه أصولي ، ولد بـ « آمد » سنة ٥٥١ هـ أقام ببغداد ثم انتقل إلى الشام ومنها إلى القاهرة ، فدرس بها ، واشتهر بها فضله ، واشتغل عليه الناس ، وانتفعوا به ، ثم حسده جماعة من فقهاء البلاد وتعصبوا عليه ، ونسبوه إلى فساد العقيدة وانحلال الطوية والتعطيل ومذهب الفلاسفة والحكماء ، خرج البلاد مستخفياً ، واستوطن مدينة حماه ، وثم دمشق ، وتوفي بها سنة ٦٣١ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون . ومن تصانيفه : « الإحكام في أصول الأحكام » و « منتهى السول » في علم الأصول ، و « غاية المرام في علم الكلام » وغيرها .

وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني(*) :
/ إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرةَ والندم ، حيث قال : ١/٣٧

لَعَمْـرِي لَقَـدْ طُفْتُ المَعَـاهِـدَ كُلَّهَـا وَسَيَّـرْتُ طَـرْفِي بَيْنَ تِلْكَ المَعَـالِمِ
فَـلَمْ أَرَ إلَّا وَاضِـعَـاً كَـفَّ حَـائِـرٍ عَـلَى ذَقـنٍ أَوْ قَـارِعَـاً سِـنَّ نَـادِمِ

وكذلك قال أبو المعالي الجويني رحمه الله : يا أصحابَنا ! لا تشتغلوا بالكلام ، فلو عرفتُ أن الكلام يبلُغ بي الى ما بلغ ما اشتغلتُ به ، وقال عند موته : لقـد خضتُ البحر الخِضَمَّ ، وخليتُ أهـل الإسلام وعلومَهم ، ودخلت في الـذي نَهَوْني عنـه ، والآن فإن لم يتـداركني ربي برحمتـه ، فالـويـلُ لابن الجويني، وها أنا ذا أموتُ على عقيـدة أمي ، أو قال : على عقيدة عجائـز نيسابور .

وكذلك قال شمس الدين الخسروشاهي (**) ، وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي ، لبعض الفضلاء ، وقد دخل عليه يوماً ، فقال : ما تعتقِدُه ؟ قال : ما يعتقِدُهُ المسلمون ، فقال : وأنت منشرحُ الصدر لذلك مستيقن به ؟ أو كما قال ، فقال : نعم ، فقال : أشكر الله على هذه النعمة ، لكني والله ما أدري ما أعتقدُ ، والله ما أدري ما أعتقد ، والله ما أدري ما أعتقد ، وبكى

(*) هو أبو الفتح محد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني ، كان إماماً فقيهاً ، متكلماً على مذهب الأشعري ، ولد سنة ٤٦٧ هـ بشهرستان . رحل إلى بغداد سنة ٥١٠ هـ وأقام ثلاث سنين ، وعاد إلى بلده وتوفي بها سنة ٥٤٨ هـ . قال عنه ياقوت الحموي : الفيلسوف المتكلم صاحب التصانيف ، كان وافر الفضل ، كامل العقل ، ولولا تخبطه في الاعتقاد ومبالغته في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم ، لكان هو الإمام . من تصانيفه : « الملل والنحل » و « نهاية الإقدام في علم الكلام » و « تلخيص الأقسام لمذاهب الأنام » وغيرها .

(**) هو عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي ـ نسبة إلى خسروشاه مدينة بمرو ـ التبريزي، الشافعي ، ولد سنة ٥٨٠ ، ومات بدمشق سنة ٦٥٢ هـ ودفن بسفح جبل قاسيون من تصانيفه : « مختصر كتاب المهذب» في فروع الفقه الشافعي ، و«مختصر كتاب الشفا لابن سينا» ، و«تلخيص الآيات البينات» .
انظر ترجمته في « طبقات الشافعية » ٦٠/٥ و « عيون الأنباء » ١٧٣/٢ ـ ١٧٤ ، و « شذرات الذهب » ٢٥٥/٥ ـ ٢٥٦ .

حتى أخضل لحيته . ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق :

فِيكَ يَا أُغْلُوطَةَ الفِكَرِ   حَارَ أَمْرِي وانْقَضَى عُمُرِي
سَافَرَتْ فِيكَ العُقُولُ فَمَا   رَبِحَتْ إِلَّا أَذَى السَّفَرِ
فَلَحَى اللهُ الأُلَى زَعَمُوا   أَنَّكَ المَعْرُوفُ بِالنَّظَرِ
كَذَبُوا ، إِنَّ الَّذِي ذَكَروا   خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ البَشَرِ

وقال الخونجي(*) عند موته : ما عرفتُ مما حصلتُهُ شيئاً سوى أن الممكن يفتقِرُ إلى المرجِّح ، ثم قال : الافتقار وصف سلبي ، أموت وما عرفت شيئاً .

وقال آخر : أضطجعُ على فراشي ، وأضع الملحفةَ على وجهي ، وأقابِل بين حُجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلُعَ الفجر ، ولم يترجَّحْ عندي منها شيء .

ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق ، كما قال أبو يوسف رحمه الله : من طلب الدينَ بالكلام ، تزندق ، ومن طلب المالَ بالكيمياء ، أفلس ، ومن طلب غريبَ الحديثِ ، كُذِّبَ .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى . حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال ، ويُطاف بهم في القبائل والعشائر ، ويقال : هذا جزاءُ من ترك الكتابَ والسنة وأقبل على الكلام .

وقال : لقد اطلعتُ من أهل الكلام على شيء ما ظننتُ مسلماً يقوله ، ولأن يُبتلى العبدُ بكل ما نهى الله عنه ـ ما خلا الشركَ بالله ـ خيرٌ له من أن يُبتلى بالكلام . انتهى .

وتجد أحدَ هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز ، فيُقِرُّ بما أقرُّوا

(*) هو محمد بن ناماوَر بن عبد الملك الخونجي أبو عبد الله ، فضل الدين ، عالم بالحكمة والمنطق ، ولد سنة ٥٩٠ هـ ، فارسي الأصل ، انتقل إلى مصر وولي قضاءها ، وتوفي بالقاهرة في ٥ رمضان سنة ٦٤٦ هـ من آثاره : « كشف الأسرار في غوامض الأفكار » و « الموجز في الأسرار » في المنطق ، و « الجمل » اختصار « نهاية الأمل » لابن مرزوق التلمساني ، وغيرها .

به ، ويُعْرِضُ عن تلك الدقائق المخالفة لذلك ، التي كان يقطع بها ، ثم تبين له فسادُها ، أو لم يتبين له صحتُها ، فيكونون في نهاياتهم ـ إذا سلموا من العذاب ـ بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب .

والدواءُ النافع لمثل هذا المرض ما كان طبيبُ القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله ـ إذا قام مِنَ الليل يفتتح الصلاة ـ : « اللهُمَّ رَبَّ جِبْرائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . خرجه مسلم[٩٤] .

توسل ﷺ إلى ربه بربوبية جبريل وميكائيل وإسرافيل أن يهدِيَه لما اختُلِفَ فيه من الحق بإذنه ، إذ حياةُ القلب بِالهداية . وقد وكَّلَ الله سبحانه هٰؤلاء الثلاثةَ بالحياة : فجبرائيل مُوكَّل بالوحي الذي هو سببُ حياة القلوب ، وميكائيل بالقَطر الذي هو سببُ حياة الأبدان وسائر الحيوان ، وإسرافيلُ بالنفخ في الصور الذي هو سببُ حياة العالم وعودِ الأرواح إلى أجسادها . فالتوسلُ إلى الله سبحانه بربوبية هٰذه الأرواح العظيمة الموكَّلَةِ بالحياة ، له تأثير عظيم في حصول المطلوب . والله المستعان .

* * *

قوله : وَلَا يَصِحُ الإيمَانُ بِالرُّؤيَةِ لأَهْلِ دَارِ السَّلَامِ لِمَنْ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ ، أَوْ تَأَوَّلَهَا بِفَهَمٍ ، إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَةِ ـ وتَأْوِيلُ كُلِّ مَعْنَى يُضَافُ إِلَى الرُّبُوبِيَةِ ـ تَـرْكُ التَأْوِيلِ ، وَلُزُومُ التَّسْلِيمِ ، وَعَلَيْهِ دِينُ المُسْلِمِينَ ، وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ .

---

(٩٤) رواه مسلم رقم (٧٧٠) في صلاة المسافرين وقصرها : باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، وأبو =

يُشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية ، وعلى من يُشبِّه الله بشيء من مخلوقاته ، فإن النبي ﷺ قال :/« إنَّكُم تَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ»(*)، الحديث : أدخل « كاف » التشبيه على « ما » المصدرية [أو] الموصولة بـ « ترون » التي تتأوَّلُ مع صلتها إلى المصدر الذي هو الرؤية ، فيكون التشبيهُ في الرؤية لا في المرئي ، وهذا بينٌ واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقُها ، ودفع الاحتمالات عنها ، وماذا بعدَ هذا البيان وهذا الإيضاح ؟! فإذا سُلِّط التأويلُ على مثل هذا النص ، كيف يُستدل بنص من النصوص ؟! وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه : إنكم تعلمونَ ربَّكم كما تعلمون القمر ليلة البدر ؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى : ﴿ أَلَم تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ ﴾ [الفيل : ١] . ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التي من أفعال القلوب !! ولا شك أن « رأى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحلم ، وغير ذلك ، ولكن لا يخلُو الكلام مِنْ قرينة تخلِّص أحد معانيه من الباقي ، وإلا لو أخلى المتكلم كلامَه مِن القرينة المخلِّصة لأحد المعاني ، لكان مجملاً مُلغزاً ، لا مبيَّناً موضحاً . وأي بيان وقرينة فوق قوله : « تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ فِي الظَّهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ »(٩٥) ؟ فهل مثلُ هذا مما يتعلق برؤية البصر ، أو برؤية القلب ؟ وهل يخفى مثل هذا إلا

١/٣٨ أ

= داود رقم (٧٦٧) في الصلاة : باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء ، والترمذي رقم (٣٤١٦) في الدعوات : باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، والنسائي ٢١٢/٣ - ٢١٣ في قيام الليل : باب بأي شيء تستفتح صلاة الليل ، وابن ماجه رقم (١٣٥٧) في إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل ، وأحمد في « المسند » ١٥٦/٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(*) تقدم تخريجه ص ١٧٠ رقم ٨٢ .

(٩٥) رواه مسلم رقم (١٨٣) في الإيمان : باب معرفة طريق الرؤية ، وابن ماجه رقم (١٧٩) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، وأحمد في « المسند » ١٦/٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

على من أعمى الله قلبه ؟ ! .

فإن قالوا : ألجأنا إلى هذا التأويلِ حكمُ العقل بأن رؤ يته تعالى محال لا يُتصور إمكانها !

فالجواب : أن هٰذه دعوى منكم ، خالفكم فيها أكثرُ العقلاء ، وليس في العقل ما يحيلها ، بل لو عرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤ يته ، لحكم بأن هذا محال .

وقوله : « لمن اعتبرها منهم بوهم » ، أي توهم أن الله تعالى يُرى على صفة كذا ، فيتوهم تشبيهاً ، ثم بعد هذا التوهم - إن أثبت ما توهمه من الوصف - فهو مشبِّه ، وإن نفي الرؤ ية من أصلها لأجل ذلك التوهم - فهو جاحد معطل ، بل الواجبُ دفع ذلك الوهم وحدَه ، ولا يعم بنفيه الحق والباطل ، فينفيهما ردَّاً على من أثبت الباطل ، بل الواجبُ ردُّ الباطل ، وإثباتُ الحق .

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله : « ومن لم يتوقَّ النفيَ والتشبيهَ ، زلَّ ولم يُصِبِ التنزيه » . فإن هٰؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزِّهون الله بهذا النفي ! وهل يكونُ التنزيهُ بنفي صفة الكمال ؟ فإن نفيَ الرؤ ية ليس بصفة كمال ، إذ المعدومُ لا يُرى ، وإنما الكمال في إثبات الرؤ ية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة ، كما في العلم ، فإن نفيَ العلم به ليس بكمال ، وإنما الكمالُ في إثبات العلم ، ونفي الإحاطة به علماً ، فهو سبحانه لا يُحاط به رؤ ية ، كما لا يحُاط به علماً .

وقوله : « أو تأوّلها بفهم » أي : إدعى أنه فهم لها تأويلاً يُخالف ظاهرها ، وما يفهمُه كُلُّ عربي من معناها ، فإنه قد صار اصطلاحُ المتأخرين في معنى التأويل : أنه صرف اللفظ عن ظاهره ، وبهذا تسلَّط المحرِّفون على النصوص ، وقالوا : نحن نتأوَّل ما يُخالف قولنا ، فسموا التحريف : تأويلاً ، تزييناً له ، وزخرفة لِيقبل ، وقد ذمَّ الله الذين زخرفُوا الباطل ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ والجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُم إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام : ١١٢] . والعبرةُ للمعاني لا للألفاظ ، فكم مِن باطل قد أقيم عليه دليل مزخرفُ عُورِضَ به دليلُ الحق .

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم : « لا ندخل في ذلك متأوِّلينَ بآرائنا ، ولا متوهِّمينَ بأهوائنا » . ثم أكد هذا المعنى بقوله : « إذ كان تأويل الرؤ ية ـ وتأويل كلٍ معنى يُضاف إلى الربوبية ـ : بترك التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دِين المسلمين » . ومرادُه ترك التأويل الذي يُسمونه تأويلاً ، وهو تحريف ، ولكن الشيخ رحمه الله تأدَّب وجادل بالتي هي أحسنُ ، كما أمر الله تعالى بقوله : ﴿ وجَادِلْهُمْ بالَّتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وليس مرادُه تركَ كُلِّ ما يسمى تأويلاً ، ولا تركَ شيءٍ من الظواهر لبعض الناس لدليل راجحٍ من الكتاب والسنة ، وإنما مرادُه تركُ التأويلات الفاسدة المبتدعة ، المخالفة لمذهب السلف ، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها ، وتركُ القول على الله بلا علم .

فمن التأويلات الفاسدة ، تأويلُ أدلة الرؤ ية ، وأدلةِ العُلُوِّ ، وأنه لم يكلم موسى تكليماً ، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً !

ثم قد صار لفظ « التأويل » مستعملاً في غير معناه الأصلي .

٣٨/ب فالتأويل في/كتاب الله وسنة رسوله ﷺ : هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام ، فتأويل الخبر : هو عين المخبَر به ، وتأويلُ الأمر : نفسُ الفعل المأمور به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ في رُكُوعِه : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي » ، يتأوَّلُ القرآنَ(٩٦) . وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تأوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُه يَقُولُ

---

(٩٦) البخاري ٢/٢٤٧ في صفة الصلاة : باب التسبيح والدعاء في السحور ، و٢/٢٢٣ باب الدعاء=

الَّذينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٥٣] .

ومنه تأويلُ الرؤ يا ، وتأويلُ العمل ، كقوله : ﴿ هَذَا تَأوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] . وقوله : ﴿ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تَأوِيلِ الأَحادِيثِ ﴾ [يوسف : ٦] . وقولِه : ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩] . وقولِه : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرَاً ﴾ [الكهف : ٧٨] . إلى قولِه : ﴿ ذَلِكَ تَأوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرَاً ﴾ [الكهف : ٨٢] . فمن يُنكِرُ وقوعَ مِثْل هذا التأويل ، والعلم بما تعلَّق بالأمر والنهي منه ؟

وأما ما كان خبراً ، كالإخبارِ عن الله واليوم الآخر ، فهذا قد لا يُعلم تأويلُه ، الذي هو حقيقته ، إذ كانت لا تُعلم بمجرد الإخبار ، فإن المُخْبَرَ إن لم يكن قد تصوَّر المُخْبَر بِهِ ، أو ما يعرفه قبل ذلك - لم يعرف حقيقتَه ، التي هي تأويلُه بمجرد الإخبار . وهذا هو التأويلُ الذي لا يعلمُه إلَّا الله ، لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفيُ العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهامَ المخاطَب إياه ، فما في القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبُّرها ، وما أنزل آية إلا وهو يُحِبُّ أن يَعْلَمَ ما عَنَى بها ، وإن كان من تأويله ما لا يعلمُه إلَّا الله ، فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويلُ موافقاً للظاهر أو مخالفاً له .

والتأويل في كلام كثير من المفسرين ، كابنِ جرير ونحوه ، يُريدون به تفسيرَ الكلام وبيانَ معناه ، سواء وافق ظاهره أو خالف ، وهذا اصطلاحُ

=في الركوع ، وباب التسبيح والدعاء في السجود ، وفي المغازي : باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح ، وفي تفسير سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، ومسلم رقم (٤٨٤) في الصلاة : باب ما يقال في الركوع والسجود ، وأبو داود رقم (٨٧٧) في الصلاة : باب في الدعاء في الركوع والسجود ، والنسائي ٢/٢١٩ في الافتتاح : باب الدعاء في السجود ، وأحمد في « المسند » ٦/٤٣ و١٩٠ ، وابن ماجه رقم (١٤٣٧) في إقامة الصلاة : باب في الركوع ، والسجود .

معروف ، وهذا التأويلُ كالتفسير ، يُحمد حقُّه ، ويُرد باطلهُ . وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تأوِيلَهُ إلَّا اللهُ والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ ﴾ الآية [آل عمران : ٧] - فيها قِراءتان : قراءة مَنْ يَقِفُ على قوله: ﴿ إلا الله ﴾ ، وقراءة من لا يقف عندها ، وكلتا القِراءتين حق .

ويراد بالأولى المتشابِهَ في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله . ويُراد بالثانية المتشابِهَ الإضافي الذي يعرف الراسخون تفسيرَه ، وهو تأويلُه .

ولا يريد(*) من وَقَفَ على قوله : ﴿إلا الله﴾ أن يكونَ التأويلُ بمعنى التفسير للمعنى ، فإن لازم هذا أن يكون الله أنزل على رسوله كلاماً لا يَعلم معناه جميعُ الأمة ولا الرسولُ ، ويكون الرَّاسخون في العلم لا حظَّ لهم في معرفة معناها سوى قولهم : ﴿ آمنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] . وهذا القدرُ يقولُه غيرُ الراسخ في العلم من المؤمنين ، والراسخون في العلم يجب امتيازُهم عن عوامِّ المؤمنين في ذلك .

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : أنا من الرَّاسخين في العلم الذين يعلمُون تأويله ، ولقد صدق رضي الله عنه ، فإن النبي ﷺ دعا له وقال : « اللَّهُمَّ فَقِّهْه فِي الدِّينِ ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ » . رواه البخاري وغيره(٩٧) . ودعاؤه ﷺ لا يُرَدُّ .

قال مجاهد : عرضتُ المصحفَ على ابن عباس ، من أوله إلى آخره ، أَقِفُه عندَ كل آية وأسأله عنها .

(*) في الأصل : ولا بد ، والتصحيح من مطبوعة مكة .

(٩٧) رواه بهذا اللفظ أحمد في «المسند» ١/٢٦٦ و ٣١٤ و ٣٢٨ و ٣٣٥ ، ورواه ابن حبان والطبراني في «المعجم الكبير» والبيهقي في «دلائل النبوة» باسناد صحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ورواه البخاري ١/٢١٤ في الوضوء : باب وضع الماء عند الخلاء بلفظ «اللهم فقهه في الدين» ، ومسلم رقم (٢٤٧٧) في فضائل الصحابة : باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بلفظ «اللهم فقه» ورواه البخاري ١/١٥٥ بلفظ «اللهم علمه الكتاب». وفي رواية أحمد في «المسند» ١/٣٣٠ «فادع الله أن يزيدني علماً وفهماً» .

وقد تواترت النقولُ عنه أنه تكلَّم في جميع معاني القرآن ، ولم يقل عن آية : إنها من التشابه الذي لا يعلم أحدٌ تأويلَه إلا الله .

وقولُ الأصحاب رحمهم الله في الأصول : المتشابه : الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، ويُروى هذا عن ابن عباس . مع أن هٰذه الحروف قد تكلم في معناها أكثرُ الناس ، فإن كان معناها معروفاً ، فقد عرف معنى المتشابه ، وإن لم يكن معروفاً ، وهي المتشابِهُ ، كان ما سواها معلومَ المعنى ، وهذا المطلوب .

وأيضاً فإن الله قال : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] . وهذه الحروفُ ليس آيات عند جمهور العادِّين .

والتأويلُ في كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرفُ اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة تُوجب ذلك . وهذا هو التأويلُ الذي تنازَعَ الناسُ فيه في كثير من الأمور الخبرية والطلبية . فالتأويلُ الصحيح منه : الذي يُوافق ما دلَّت عليه نصوصُ/الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويلُ الفاسد ، وهذا مبسوطٌ في موضعه . وذكر في « التبصرة » أن نصير بن يحيى البلخي روى عن عمر بن إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة عن محمد بن الحسن رحمهم الله : أنه سئل عن الآيات والأخبار التي فيها من صفات الله تعالى ما يؤدي ظاهره إلى التشبيه ؟ فقال : نُمِرُّها كما جاءَتْ ، ونُؤمِنُ بها ، ولا نقولُ : كيف وكيف .

٣٩/أ

ويجب أن يُعلم أن المعنى الفاسد الكفريّ ليس هو ظاهر النص ولا مقتضاه ، وأن من فهم ذلك منه ، فهو لقصور فهمه ، ونقصِ علمه .

وإذا كان قد قيل في قول بعضِ الناس :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحَاً ... وآفَتُه مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وقيل :

عَلَيَّ نَحْتُ القَوافِي مِنْ أَمَاكِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ إذَا لَمْ تَفْهَم البَقَرُ

فكيف يقال في قول الله ، الذي هو أصدق الكلام وأحسنُ الحديث ، وهو الكتاب الذي ﴿ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خبيرٍ﴾ [هود : ١] إن حقيقة قولهم : إن ظاهر القرآن والحديث هو الكفر والضلالُ ، وإنه ليس فيه بيانُ ما يصلُح مِن الاعتقاد ، ولا فيه بيانُ التوحيد والتنزيه ؟! هذا حقيقةُ قولِ المتأولين .

والحقُّ أن ما دل عليه القرآنُ ، فهو حق ، وما كان باطلاً ، لم يدل عليه ، والمنازِعون يدَّعون دلالته على الباطل الذي يتعين صرفه !

فيُقال لهم : هذا الباب الذي فتحتموه ، وإن كنتم تزعمون أنكم تنتصرون به على إخوانكم المؤمنين في مواضع قليلة خفية(*) فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين ، والمبتدعون لا تقدِرون على سده ، فإنكم إذا سوَّغتم صرفَ القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي ، فما الضابطُ فيما يسوغُ تأويلُه وما لا يسوغُ ؟

فإن قلتم : ما دل القاطعُ العقلي على استحالته تأوَّلناه ، وإلا أقررناهُ ! قيل لكم : وبأيِّ عقل نزن القاطِعَ العقلي ؟

فإن القُرمطي الباطنيَّ يزعمُ قيامَ القواطع على بطلان ظواهر الشرع !

ويزعمُ الفيلسوف قيامَ القواطع على بطلان حشر الأجساد !

ويزعم المعتزليُّ قيامَ القواطع على امتناع رؤ ية الله تعالى ، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى !!

وبابُ التأويلات التي يدعي أصحابُها وجوبَها بالمعقولات أعظمُ من أن تنحصِرَ في هذا المقام .

(*) في الأصل : حقيقة ، والتصحيح من مطبوعة مكة .

ويلزم حينئذ محذورانِ عظيمان :

أحدهما : أن لا نُقِرَّ بشيء من معاني الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل ، وكلُّ طائفة من المختلفين في الكتاب يدَّعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه ، فيؤول الأمرُ إلى الحيرة المحذورة .

الثاني : أن القلوبَ تتخلى عن الجزم بشيء تعتقده مما أخبر به الرسولُ ، اذ لا يُوثق بأن الظاهر هو المرادُ ، والتأويلاتُ مضطربة ، فيلزم عزلُ الكتاب والسنة عن الدلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد ، وخاصَّةُ النبيِّ هي الإنباءُ ، والقرآن : هو النبأ العظيم . ولهذا نجد أهلَ التأويل إنما يذكرون نصوصَ الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما ادَّعوا أن العقل دل عليه ، وان خالفته أوَّلوه ! وهذا فتحُ باب الزندقة، نسأل الله العافية .

قوله : وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ والتَّشْبِيهِ ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهِ .

النفي والتشبيه مرضانِ مِنْ أمراض القلوب(*) ، فإن أمراض القلوب نوعان : مرض شُبهة ، ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور في القرآن ، قال تعالى : ﴿ فلا تَخْضَعْنَ بالقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] . فهذا مرضُ الشهوة ، وقال تعالى : ﴿ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً ﴾ [البقرة : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ وأمّا الَّذينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُم رِجْسَاً إِلَىَ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : ١٢٥] . فهذا مرض الشبهة ، وهو

(*) ومرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره وإرادته ، فتصوره بالشبهات التي تعرض له حتى لا يرى الحق . أو يراه على خلاف ما عليه ، وإرادته بحيث يبغض الحق النافع ، ويحب الباطل الضار ١ هـ . من كتاب « أمراض القلوب وشفاؤ ها » لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ص ٤ . فارجع إليه ففيه فوائد نفيسة .

أردأ مِن مرض الشهوة ، إذ مرضُ الشهوة يُرجى له الشفاءُ بقضاء الشهوة ، ومرضُ الشبهة لا شفاءَ له إن لم يتداركْه الله برحمته .

والشبهةُ التي في مسألة الصفات نفيُها وتشبيهُها ، وشُبَهُ النفي أردأُ مِن شُبَهِ التشبيه ، فإن شُبَهَ النفي رَدٌّ وتكذيب لما جاءَ به الرسولُ ﷺ، وشُبَهَ التشبيه غُلو ومجاوزةٌ للحد فيما جاء به/الرسولُ ﷺ، وتشبيهُ الله بخلقه كفر ، فإن الله تعالى يقولُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ونفيُ الصفات كفر ، فإن الله تعالى يقولُ : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

٣/ب

وهذا أصل نوعي التشبيه ، فإن التشبيه نوعان : تشبيهُ الخالق بالمخلوق ، وهذا الذي يَتْعَب أهلُ الكلام في ردِّه وإبطاله ، وأهلُه في الناس أقلُّ مِنَ النوع الثاني الذين هم أهلُ تشبيهِ المخلوق بالخالق ، كعُبَّاد المسيح، وعُزير ، والشمس والقمر ، والأصنام ، والملائكة ، والنار ، والماء ، والعجل ، والقبور ، والجن ، وغير ذلك . وهؤلاء هُمُ الذين أرسلت لهم الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

* * *

قوله :فَإنَّ رَبَّنَا جَلَّ وَعَلاَ مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الوَحْدَانِيَّةِ ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الفَرْدَانيَّة ، لَيْسَ في مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ البَرِيَّةِ .

يُشيرُ الشيخ رحمه الله إلى أن تنزيه الربِّ تعالى هو وصفُهُ كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً ، وكلامُ الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص ، فقوله : موصوف بصفات الوحدانية ، مأخوذٌ مِن قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الله

أَحَـدٌ * اللهُ الصَّمَدُ ﴾ [الإخـلاص : ١ - ٢]. وقولـه : منعوت بنعـوت الفردانية ، من قوله تعالى : ﴿ اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ ﴾ [الإخلاص : ٢ - ٣] . وقوله : ليس في معناه أحد من البرية : مِن قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ٤] . وهو أيضاً مؤكد لما تقدَّم من إثبات الصفات ونفي التشبيه ، والوصف والنعت مترادفان ، وقيل : متقاربان ، فالوصف للذات ، والنعت للفعل ، وكذلك الوحدانيةُ والفردانية .

وقيل في الفرق بينهما : إن الوحدانيةَ للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى متوحد في ذاته ، متفرد في صفاته ، وهذا المعنى حقٌّ ولم يُنازع فيه أحد ، ولكن في اللفظ نوع تكرير .

وللشيخ رحمه الله نظير هذا التكرير في مواضع من العقيدة ، وهو بالخطب والأدعية أشبهُ منه بالعقائد ، والتسجيعُ بالخطب أليق . و ﴿ لَيْس كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . أكمل في التنزيه من قوله : ليس في معناه أحد من البرية .

* * *

قـولـه : وَتَعَـالَى عَنِ الحُـدُودِ وَالغَـايَـاتِ ، وَالأَرْكَـانِ وَالأعْضَـاء والأَدَوَاتِ ، لا تَحْوِيهِ الجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ المُبْتَدَعَاتِ .

أذكُرُ بينَ يدي الكلام على عبارة الشيخ رحمه الله مقدمة ، وهي : أن للناس في إطلاق مثل هٰذه الألفاظ ثلاثة أقوال :

فطائفة تنفيها ، وطائفة تثبتها ، وطائفة تفصِّل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يُطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا تبين ما أثبت بها ، فهو ثابت ، وما نُفي

بها ، فهو منفي ، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ في اصطلاحهم فيها إجمالٌ وإبهام ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية ، فليس كُلُّهم يستعمِلُها في نفس معناها اللغوي ، ولهذا كان النفاةُ ينفون بها حقّاً وباطلاً ، ويذكرون عن مثبتها ما لا يقولون به .

وبعضُ المثبتين لها يدخل فيها معنى باطلاً مخالفاً لقول السلف ، ولما دل عليه الكتابُ والميزانُ ، ولم يرد نص مِن الكتاب ، ولا من السنةِ بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن نَصِفَ الله تعالى بما لم يصف به نفسه ، ولا وصفه به رسولُه نفياً ولا إثباتاً ، وانما نحن متَّبِعُون لا مبتدعون .

فالواجبُ أن ينظر في هذا الباب ، أعني بابَ الصفات ، فما أثبته الله ورسولُه أثبتناه ، وما نفاه الله ورسولُه نفيناه ، والألفاظُ التي ورد بها النصُّ يُعْتَصَمُ بها في الإثبات والنفي ، فنُثبت ما أثبته الله ورسولُه من الألفاظِ والمعاني ، وننفي ما نفته نصوصُهما مِن الألفاظ والمعاني .

وأما الألفاظُ التي لم يَرِدْ نفيُها ولا إثباتها ، فلا تُطلق حتى ينظر في مقصود قائلها : فإن كان معنىً صحيحاً ، قُبِلَ ، لكن ينبغي التعبيرُ عنه بألفاظِ النصوص دونَ الألفاظ المجملة إلا عندَ الحاجة ، مع قرائن تبين المراد ، والحاجة مثل أن يكون الخطابُ مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطب بها ، ونحو ذلك .

والشيخ رحمه الله تعالى أراد الردَّ بهذا الكلام على المشبهة ، كداود الجَوَارِبي وأمثاله القائلين : إن الله جسم وإنه جثة وأعضاء ، وغير ذلك ! تعالى الله عما يقولون/عُلوّاً كبيراً .
٤٠/أ

فالمعنى الذي أراده الشيخُ رحمه الله من النفي الذي ذكره هنا حق ، لكن حدث بعده من أدخل في عموم نفيه حقّاً وباطلاً ، فيحتاج إلى بيان ذلك .

وهو : أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون أن لله حدًّا ، وأنهم لا يحدون شيئاً من صفاته .

قال أبو داود الطيالسي(*) : كان سفيان وشعبة ، وحماد بن زيد ، وحماد ابن سلمة وشريك وأبو عوانة ـ لا يحدون ولا يُشبهون ولا يُمثلون ، يروون الحديث ، ولا يقولون : كيف ، وإذا سُئِلُوا قالُوا بالأثر . وسيأتي في كلام الشيخ : وقد أعجز عن الإحاطة خلقَه(**) . فعُلِمَ أن مرادَه أن الله يتعالى عن أن يُحِيطَ أحدٌ بحدِّه ، لأن المعنى أنه متميز عن خلقه ، منفصل عنهم ، مباين لهم .

سُئِلَ عبدُ الله بن المبارك : بم نعرِفُ ربنا ؟ قال : بأنه على العرش ، بائن من خلقه ، قيل : بحدٍّ ؟ قال : بحد . انتهى .

ومن المعلوم أن الحدَّ يُقال على ما ينفصِلُ به الشيءُ ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غيرُ حالٍّ في خلقه ، ولا قائم بهم ، بل هو القيوم القائم بنفسه ، المقيمُ لما سواه . فالحدُّ بهذا المعنى لا يجوزُ أن يكون فيه منازعة في نفس الأمر أصلاً ، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفيُ وجود الرب ، ونفي حقيقته .

وأما الحدُّ بمعنى العلم والقول ، وهو أن يحدَّه العبادُ ، فهذا منتف بلا منازعة بين أهل السنة .

قال أبو القاسم القُشيري(***) في « رسالته » : سمعت الشيخَ

(*) هو أبو داود ، سليمان بن داود بن الجارود ، مولى قريش ، الطيالسي ، من كبار حفاظ الحديث ، فارسي الأصل ، مولده سنة ١٣٣ هـ ، قدم أصبهان ثم سكن البصرة وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ . وكان يقول : أسرد ثلاثين ألف حديث ولا فخر . من تصانيفه « المسند » وهو مطبوع .

(**) انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

(***) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيري شيخ خراسان في عصره الفقيه الشافعي ، صوفي ، مفسر ، متكلم واعظ ، ولد سنة ٣٧٦هـ ، وتوفي بنيسابور سنة ٤٦٥هـ ، من تصانيفه « التيسر في علم التفسير » ، و« الرسالة القشيرية » ، و« الفصول في الأصول » وغيرها .

أبا عبد الرحمن السلمي، سمعتُ منصور بن عبدالله، سمعتُ أبا الحسن العنبري، سمعت سهلَ بن عبد الله التُّسْتَري(*) يقول، وقد سُئِلَ عن ذات الله؟ فقال: ذاتُ الله موصوفةٌ بالعلم، غيرُ مدرَكة بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهي موجودة بحقائق الإيمان، من غير حدّ ولا إحاطة ولا حُلول، وتراه العيون في العقبى، ظاهراً في ملكه وقدرته، وقد حجب الخلق عن معرفة كُنه ذاته، ودلَّهم عليه بآياته، فالقلوبُ تعرفه، والعيونُ لا تُدْرِكُه، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية.

وأما لفظُ الأركان والأعضاء والأدوات ـ فَيستَدِلُّ بها النفاةُ على نفي بعض الصفات الثابتة بالأدلة القَطعيَّة، كاليد والوجه. قال أبو حنيفة رضي الله عنه في «الفقه الأكبر»: له يد ووجه ونفس، كما ذكر تعالى في القرآن مِن ذكر اليد والوجه والنفس، فهو له صفة بلا كيف، ولا يُقال: إن يَده قدرتُه ونعمتُه، لأن فيه إبطالَ الصفة، انتهى.

وهذا الذي قاله الإمامُ رضي الله عنه ثابت بالأدلة القاطعة. قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿والأَرْضُ جَمِيعَاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا في نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا في نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. وقال تعالى: ﴿واصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾

(*) هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى التستري، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات، ولد في تستر سنة ٢٠٠ هـ وتوفي بالبصرة سنة ٢٨٣ هـ من تصانيفه: «رقائق المحبين» و«قصص الأنبياء» و«جوابات أهل اليقين» وغيرها.

[طه : ٤١] . وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران: ٢٨] . وقال ﷺ في حديث الشفاعة لمّا يأتي الناسُ آدمَ فيقولونَ له: «خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ ملائكته وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ » . الحديث(*) . ولا يَصِحُّ تأويلُ من قال : إن المرادَ باليد : القدرة ، فإن قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] . لا يَصِحُّ أن يكونَ معناه بقدرتي مع تثنية اليد ، ولو صَحَّ ذلك ، لقال إبليس : وأنا أيضاً خلقتني بقدرتك ، فلا فضلَ له عليَّ بذلك ، فإبليسُ - مع كفره - كان أعرفَ بِرَبِه مِن الجهمية. ولا دليل لهم في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُم لَهَا مَالِكُونَ ﴾ [يس : ٧١] . لأنه تعالى جمع الأيدي لما أضافها إلى ضمير الجمع ، ليتناسب الجمعانِ ، اللفظانِ للدلالة على الملك والعظمة ، ولم يقل : « أيدي » مضافاً إلى ضمير المفرد ، ولا « يدينا » بتثنية اليد مضافاً إلى ضمير الجمع ، فلم يكن قوله : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا ﴾ نظير قوله : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ ﴾ .

وقال النَّبيُّ ﷺ عن ربِّه عزَّ وجلَّ : « حِجَابُهُ النُّورُ ، وَلَو كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهى إليه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ »(**) .

ولكن لا يقال لهذه الصفات : إنها أعضاء ، أو جوارح ، أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركنَ جزءُ الماهية ،/والله تعالى هو الأحدُ الصمد ، لا يتجزَّأ ، سبحانه وتعالى ، والأعضاء فيها معنى التفريق والتعضية(***) ، تعالى الله عن ذلك . ٤٠/ب

ومِنْ هذا المعنى قولُه تعالى : ﴿ الَّذينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِينَ ﴾ .

(*) تقدم تخريجه ص ١١١ رقم ٤٢ .

(**) تقدم تخريجه ص ٧٠ رقم ٢٠ .

(***) التعضية : التقطيع وجعل الشيء أعضاء .

[الحجر : ٩١] . والجوارحُ فيها معنى الاكتساب والانتفاع . وكَذَلك الأدوات هي الآلات التي ينتفع بها في جلب المنفعة ، ودفع المضرة . وكلُّ هذه معانٍ منتفيةٌ عن الله تعالى ، ولهذا لم يَرِد ذكرُها في صفاتِ الله تعالى . فالألفاظ الشرعية صحيحةُ المعاني ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فكذلك يجبُ أن لا يُعدَلَ عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً ، لئلا يثبت معنى فاسد ، أو يُنفى معنى صحيحٌ . وكُلُّ هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل .

وأما لفظُ الجهة ، فقد يُراد به ما هو موجود ، وقد يُراد به ما هو معدوم ، ومن المعلوم أنه لا موجودَ إلا الخالق والمخلوق ، فإذا أُريد بالجهة أمرٌ موجودٌ غيرُ الله تعالى كان مخلوقاً والله تعالى لا يَحْصِرُهُ شيء ، ولا يُحيطُ به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذٰلك .

وإن أريد بالجهة أمرٌ عدمي ، وهو ما فوقَ العالم ، فليس هناك إلا الله وحده . فإذا قيل : إنه في جهة بهذا الاعتبار ، فهو صحيح ، ومعناه : أنه فوق العالم حيثُ انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع ، عال عليه .

ونفاة لفظ « الجهة » ، الذين يُريدون بذلك نفيَ العلوِّ يذكرون من أدلتهم : أن الجهاتِ كُلَّها مخلوقة ، وأنه كان قبل الجهات ، وأن من قال : إنه في جهة يلزمُه القولُ بقدم شيءٍ من العالم ، وأنه كان مستغنياً عن الجهة ، ثم صار فيها . وهذه الألفاظُ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات ، سواء سمي جهة أو لم يسم ، وهذا حق . ولكن الجهة ليست أمراً وجوديّاً ، بل أمرٌ اعتباريّ ، ولا شكَّ أن الجهات لا نهاية لها ، وما لا يوجد فيما لا نهاية له ، فليس بموجود .

وقول الشيخ رحمه الله تعالى : لا تحويه الجهاتُ السِّتُّ كسائر المبتدَعات . ! هو حق ، باعتبار أنه لا يُحيط به شيءٌ من مخلوقاته ، بل هو

محيط بكل شيء وفوقه . وهذا المعنى هو الذي أراده الشيخُ رحمه الله ، لِما يأتي في كلامه(*) : أنه تعالى محيطٌ بكل شيء وفوقَه . فإذا جُمعَ بين كلاميه ، وهو قولُه : لا تحويه الجهاتُ الست كسائر المبتدعات ، وبين قولُه : محيط بكل شيء وفوقه - عُلِمَ أن مُرادَه أن الله تعالى لا يحويه شيءٌ ، ولا يُحيط به شيء ، كما يكون بغيره من المخلوقات ، وأنه تعالى هو المحيطُ بكُلِّ شيء ، العالي على كل شيء .

لكن بقي في كلامه شيئان :

أحدهما : أن إطلاقَ مثل هذا اللفظ - مع ما فيه من الإجمال والاحتمال - كان تركُه أولى ، وإلا تُسُلِّطَ عليه ، وألزم بالتناقض في إثبات الإحاطة والفوقية ونفيِ جهة العلو ، وإن أجيب عنه بما تقدم من أنه إنَّما نفى أن تحويَه شيء مِن مخلوقاته ، فالاعتصامُ بالألفاظ الشرعية أولى .

الثاني : أن قولَه : كسائر المبتدعات - يفهم منه أن ما من مبتدع إلا وهو محويٌّ ، وفي هذا نظر ، فإنه إن أراد أنه محوي بأمر وجودي ، فممنوع ، فإن العالَم ليس في عالم آخر ، والإ لزم التسلسل . وإن أراد أمراً عدميّاً ، فليس كُلُّ مبتدع في العدم ، بل منها ما هو داخل في غيره ، كالسماوات والأرض في الكرسي ، ونحو ذلك ، ومنها ما هو منتهى المخلوقات ، كالعرش ، فسطحُ العالم ليس في غيره من المخلوقات ، قطعاً للتسلسل ، كما تقدم .

ويُمْكِنُ أن يُجاب عن هذا الإشكال ، بأن : « سائر » بمعنى البقية ، لا بمعنى الجميع ، هذا أصلُ معناها ، ومنه « السؤر » ، وهو ما يبقيه الشارب في الإناء . فيكون مرادُه غالبَ المخلوقات ، لا جميعَها ، إذ « السائر » على الغالب أدلُّ منه على الجميع ، فيكون المعنى : أن الله تعالى غيرُ محويٍّ كما

(*) انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

يكون أكثر المخلوقات محويًّاً ، بل هو غيرُ محوي بشيء ، تعالى الله عن ذلك . ولا نظن بالشيخ رحمه الله تعالى أنه ممن يقول : إن الله تعالى ليس داخل العالم ولا خارجَه بنفي النقيضين ، كما ظنَّه بعضُ الشارحين ، بل مراده : أن الله تعالى منزَّه عن أن يُحيط به شيءٌ من مخلوقاته ، وأن يكون مفتقراً إلى شيء منها ، العرشِ أو غيره .

وفي ثبوتِ هذا الكلام عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه نظر ، فإن أضدادَه قد شنَّعوا عليه بأشياء أهونَ منه ، فلو سمعُوا مثل هذا الكلام ، لشاع عنهم تشنيعُهم عليه به ، وقد نقل أبو مطيع البلخي عنه إثباتَ العلو ، كما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى . وظاهر هذا الكلام يقتضي نفيُه ، ولم يَرِدْ بمثله كتابٌ ولا سنة ، فلذلك قلت : إنَّ في/ثبوته عن الإمام نظراً ، وإن الأولى التوقفُ في إطلاقه ، فإن الكلامَ بمثله خطر ، بخلافِ الكلام بما ورد عن الشارع ، كالاستواء والنزول ونحو ذلك . ومن ظنَّ مِن الجهال أنه إذا « نَزَلَ إلى سَمَاءِ الدُّنيا »(٩٨) كما أخبر الصادقُ ﷺ ، يكون العرشُ فوقَه ، ١/٤١

(٩٨) رواه البخاري ١٣/٣٨٩ ـ ٣٩٠ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ و٣/٢٥ ـ ٢٦ في التهجد : باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم رقم (٧٥٨) في صلاة المسافرين وقصرها : باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل ، و«الموطأ» ١/٢١٤ في القرآن : باب ما جاء في الدعاء ، والترمذي رقم (٣٤٩٣) في الدعوات : باب رقم ٨٠ ، وأبو داود رقم (١٣١٥) في الصلاة : باب أي الليل أفضل ، ورقم (٤٧٣٣) في السنة : باب في الرد على الجهمية، وابن ماجه رقم (١٣٦٦) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في أي ساعات الليل أفضل ، والدارمي رقم (١٤٨٦) و (١٤٨٧) في الصلاة: باب ينزل الله إلى السماء الدنيا، وأحمد في «المسند» ٢/٢٥٨ و٢٦٤ و٢٦٥ و٢٨٢ و٤١٩ و٤٣٣ و ٤٨٧ و ٥٠٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ولفظه : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الآخر يقول : من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له » .

وفي الباب عن علي وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وعمرو بن عبسة رضي الله عنهم عند أحمد ، وعن جبير بن مطعم ورفاعة الجهني رضي الله عنهما عند النسائي ، وعن أبي الدرداء وعبادة بن الصامت رضي الله عنهما عند الطبراني ، وعن عقبة بن عامر وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم عند الدارقطني .

ولشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى مؤلف كبير لهذا الحديث طبع أكثر من مرة باسم «شرح حديث النزول» . فليراجع ، وهو تحت الطبع لدينا .

ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم ! فقوله مخالفٌ لإجماع السلف ، مخالفٌ للكتاب والسنة .

وقال شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني(*) : سمعت الأستاذ أبا منصور بن حمشاذ ـ بعد روايته حديث النزول ـ يقول : سئل أبو حنيفة رضي الله عنه ؟ فقال : يَنزِلُ بلا كيف . انتهى(**) .

وإنما توقف مَنْ توقف في نفيِ ذلك ، لضعف علمه بمعاني الكتاب والسنة وأقوالِ السلف ، ولذلك يُنكر بعضُهم أن يكون فوقَ العرش ، بل يقول: لا مُباينٌ ولا محايث، ولا داخلَ العالم ولا خارجَه ، فيصفونه بصفة العدم والممتنع ، ولا يصفونه بما وصف به نفسَه من العلوِّ والاستواء على العرش ، ويقولُ بعضُهم بحلوله في كل موجود ، أو يقول : هو وجودُ كل موجود ونحو ذلك ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً . وسيأتي لإثبات صفة العلو لله تعالى زيادةُ بيان ، عند الكلام على قول الشيخِ رحمه الله : محيط بكل شيء وفوقَه ، إن شاء الله تعالى(***) .

* * *

قوله : وَالمِعْرَاجُ حَقٌّ ، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي اليَقَظَةِ ، إلى السَّمَاءِ ، ثُمَّ إلىٰ حَيْثُ شَاءَ الله مِنَ العُلا ، وَأَكْرَمَهُ الله بِمَا شَاءَ ، وَأَوْحَى إلَيْهِ مَا أَوْحَى ، مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَىٰ . فَصَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الآخِرَةِ وَالأُوْلَىٰ .

(*) هو أبو عثمان ، اسماعيل بن عبد الرحمن بن أحمد بن اسماعيل ، الصابوني ، مقدم أهل الحديث في بلاد خراسان ، ولد سنة ٣٧٣ هـ بنيسابور ومات بها سنة ٤٤٩ هـ كان فصيح اللهجة ، واسع العلم ، عارفاً بالحديث والتفسير ، يجيد الفارسية إجادته العربية ، من مصنفاته « عقيدة السلف » و « الفصول في الأصول » .

(**) انظر « عقيدة السلف » للامام الصابوني ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » ١/ ١١٥ .

(***) انظر ص ٢٩٠ وما بعدها .

المعراج : مفعال ، من العروج ، أي : الآلة التي يُعْرَجُ فيها ، أي يُصعد ، وهو بمنزلة السُّلَّم ، لكن لا يعلم كيف هو ، وحكمه كحكم غيره من المغيَّبات ، نؤمِنُ به ولا نشتغِلُ بكيفيته .

وقوله : وقد أُسري بالنبيِّ ﷺ وَعُرِجَ بشخصه في اليقظة ـ اختلف الناسُ في الإسراء .

فقيل : كان الإسراءُ بروحه ، ولم يُفقد جسدُه ، نقله ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها ، ونقل عن الحسن البصري(*) نحوَه .

لكن ينبغي أن يُعرف الفرقُ بين أن يقال : كان الإسراءُ مناماً ، وبين أن يُقال : كان بروحه دُونَ جسده ، وبينهما فرقٌ عظيم . فعائشةُ ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا كان مناماً ، وإنما قالا : أُسري بروحه ولم يُفقد جسده ، وفرق [ما](**) بين الأمرين : إذ ما يراه النائمُ قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة ، فيرى كأنَّه قد عُرِجَ به إلى السماء ، وذُهِبَ به إلى مكة ، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، فما أرادا أن الإسراء كان مناماً، وإنما أرادا أن الروحَ ذاتَها أُسري بها ، ففارقت الجسد ، ثم عادت إليه ، ويجعلان هذا من خصائصه ، فإن غيرَه لا تنال ذاتُ روحه الصعودَ الكامل إلى السماء إلا بعد الموت .

(*) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري ، تابعي ، كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأمة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك ، ولد بالمدينة سنة ٢١ هـ وشب في كنف علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، فسكن البصرة وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الله لومة لائم ، وله مع الحجاج بن يوسف مواقف وقد سلم من أذاه ، له كلمات سائرة وكتاب « فضائل مكة » توفي بالبصرة سنة ١١٠ هـ رحمه الله تعالى .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

وقيل : كان الإسراءُ مرتين : مرةً يقظة ، ومرةً مناماً ، وأصحاب هذا القول كأنَّهم أرادوا الجمعَ بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظتُ »(*) ، وبين سائر الروايات . وكذلك منهم من قال : بل كان هذا مرتين : مرةً قبل الوحي ومرة بعده ، ومنهم من قال : بل ثلاثَ مرات : مرة قبل الوحي ، ومرتين بعده . وكلما اشتبه عليهم لفظٌ زادوا مرة للتوفيق !! وهذا يفعلُه ضعفاءُ أهلِ الحديث ، وإلاَّ فالذي عليه أئمة النقل : أن الإسراءَ كان مرة واحدة بمكة ، بعد البعثة ، قبل الهجرة بسنة ، وقيل : بسنة وشهرين ، ذكره ابن عبد البر .

قال الشيخ شمس الدين ابن القيم(**) : يا عجباً لهٰؤلاء الذين زعمُوا

(*) هو مما تفرد به شريك ، وعُدَّ من أوهامه ، ومجموع ما انتقد عليه في روايته لحديث الإسراء عشرة أشياء .

الأول : أمكنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في السماء .

الثاني : كون المعراج قبل البعثة .

الثالث : كونه مناماً .

الرابع : مخالفته في النهرين .

الخامس : مخالفته في محل سدرة المنتهى .

السادس : شق الصدر عند الإسراء .

السابع : ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا .

الثامن : نسبة الدنو والتدلي الى الله عز وجل .

التاسع : تصريحه أن امتناعه ﷺ من الرجوع إلى سؤال ربه التخفيف كان الخامسة .

العاشر : قوله : فعلا به إلى الجبار فقال : هو مكانه ـ

انظر « فتح الباري » ١٣/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥ .

(**) هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي ، من أركان الإصلاح الاسلامي ، وأحد كبار العلماء ، مولده ووفاته في دمشق ، تتلمذ لشيخ الاسلام ابن تيمية ، حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله ، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه ، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه ، وسجن معه ، وأهين وعذب بسببه . وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس ، أغري بحب الكتب ، فجمع منها عدداً عظيماً ، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً . وألف تصانيف كثيرة منها «زاد المعاد» ، و«جلاء الافهام في الصلاة والسلام خير الأنام» حققه الشيخ شعيب الأرناؤ وط والشيخ عبد القادر الأرناؤ وط وقد طبعنـا الثاني ، و « الوابل الصيب » و « تحفة المودود » وقد طبعناها وهي بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط . وغيرها من الكتب .

أنه كان مراراً ! كيف ساغَ لهم أن يظنُّوا أنه في كل مرة يُفرض عليهم الصلواتُ خمسين ، ثم يتردد بين ربّه وبين موسى حتى تصير خمساً ، فيقول : « أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبادِي » ، ثم يُعيدها في المرة الثانية إلى خمسينَ ، ثم يحطها إلى خمس ؟! وقد غلَّط الحفاظُ شريكاً في ألفاظ من حديث الإسراء ، ومسلم أورد المسند منه ، ثم قال : « فقدَّم وأخَّر وزاد ونقص » . ولم يَسْرُدِ الحديثَ . وأجاد رحمه الله . انتهى كلام الشيخ شمس الدين رحمه الله(*) .

وكان من حديث الإسراء : أنه ﷺ أُسرِيَ بجسده في اليقظة ، على الصحيح ، مِن المسجد الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى ، راكباً على البُراق ، صحبه جبريل عليه السلامُ ، فنزل هناك ، وصلَّى بالأنبياء إماماً ، وَرَبط البُراق بحلقة باب المسجد . وقد قِيل : إنه نزل بيتَ لحمٍ وصلى فيه ، ولا يَصِحُّ عنه ذلك ألبتة .

٤١/ب ثم عُرِجَ به مِن بيت المقدس تلك/الليلة إلى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريلُ ، ففُتِحَ لَهُ ، فَرأى هنالك آدم أبا البشر ، فسلَّم عليه ، فرحَّب به وردَّ عليه السلام ، وأقرّ بنبوته ، ثم عُرِجَ به إلى السماء الثانية ، فاستفتح له ، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم ، [فلقيهما](**) فسلَّم عليهما ، فردَّا عليه السلام ، ورحبا به ، وأقرَّا بنبوته ، ثم عُرِجَ به إلى السماء الثَّالِثة ، فرأى فيها يوسف ، فسلَّم عليه ورحب به وأقر بنبوته ، ثم عُرِجَ به إلى السماء الرابعة ، فرأى فيها إدريس ، فسلَّم عليه ، ورحَّب به ، وأقرَّ بنبوته ، ثم عُرِجَ به إلى السماء الخامسة ، فرأى فيها هارون بن عمران ، فسلَّم عليه ، ورحَّب

(*) « زاد المعاد » ٣/٤٢ بتحقيق الشيخين شعيب الأرناؤ وط وعبد القادر الأرناؤ وط .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

به ، وأقرَّ بنبوته ، ثم عُرِجَ به إلى السماء السادسة ، فلقيَ فيها موسى ابن عمران ،فسلَّم عليه ، ورحَّب به وأقرَّ بنبوته، فلما جاوزه ، بكى موسى ، فقيل له : ما يُبكيك ؟ فقال : أبكي لأنَّ غُلاماً بُعِثَ بعدي يدخُلُ الجنةَ مِن أمته أكثرُ مما يدخلها من أمتي ، ثم عُرِجَ به إلى السماءِ السابِعَةِ ، فلقِيَ فيها إبراهيمَ ، فسلَّم عليه ، ورحَّب به ، وأقرَّ بنبوته ، ثم رُفِعَ إلى سِدرة المنتهى ، ثم رُفِعَ له البيتُ المعمور ، ثم عُرِجَ به إلى الجبَّار ، جل جلاله وتقدَّست أسماؤه ، فدنا منه حتَّى كانَ قاب قوسين أو أدنى(*) ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، وفرض عليه خمسينَ صلاة ، فرجع حتى مرَّ على موسى ، فقال له: بِمَ أمِرتَ ؟ قال: بخمسين صلاة، فقال: [إن](**) أمتك لا تُطيق ذٰلِكَ، ارجع إلى ربك ، فأسأله التخفيفَ لأمتك ، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيرُه

(*) هذه الجملة من الزيادات المخرجة في « صحيح البخاري » ١٣/٣٩٩ ، ٤٠٦ من طريق شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، وهي معدودة في جملة أوهامه التي تفرد بها ، وكان على المؤلف أن ينبه عليها ، قال الخطابي : إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التدلي إلى الجبار عز وجل مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير من تقدم منهم ومن تأخر ، وقد روي هذا الحديث عن أنس من غير طريق شريك ، فلم تذكر فيه هذه الألفاظ الشنيعة ، وذلك مما يقوي الظن أنها صادرة من جهة شريك . وقال عبد الحق الإشبيلي في « الجمع بين الصحيحين » : زاد فيه شريك زيادة مجهولة ، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة ، وقد روى الإسراء جماعة من الحفاظ ، فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك ، وشريك ليس بالحافظ ، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٣/٣ : إن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في هذا الحديث ، وساء حفظه ، ولم يضبطه ، وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : في حديث شريك زيادة تفرد بها على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه عز وجل يعني قوله : « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » وقول عائشة ، وابن مسعود ، وأبي هريرة في حملهم هذه الآيات على رؤية جبريل أصح ، قال ابن كثير : وهذا الذي قاله البيهقي رحمه الله في هذه المسألة هو الحق ، فإن أبا ذر قال : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : « نور أنى أراه » وفي رواية « رأيت نوراً » أخرجه مسلم . وقوله ﴿ثم دنا فتدلى﴾ إنما هو جبريل عليه السلام كما ثبت ذلك في « الصحيحين » عن عائشة أم المؤمنين ، وعن ابن مسعود ، وكذلك هو في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة ، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة في تفسير هذه الآية بها . وفيه لفظة أخرى تفرد بها شريك أيضاً لم يذكرها غيره أوردها المؤلف هنا وهي قوله : « فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك وتعالى وهو مكانه » .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

في ذلك ، فأشار أن : نعم : إن شئتَ ، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبارِ تبارك وتعالىٰ فقال وهو في مكانه ـ هذا لفظ البخاري في « صحيحه » وفي بعض الطرق ـ فوضَعَ عنه عشراً ، ثم نزل حتى مرَّ بموسى ، فأخبَرَه ، فقال : إرجع إلى ربك ، فإسأله التخفيفَ ، فلم يزل يتردَّدُ بين موسى وبينَ الله تبارك وتعالى ، حتى جعلها خمساً ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال : قد استحييتُ من ربي ، ولكن أرضى وأسلّم ، فلما بعد ، نادى منادٍ : قد أمضيتُ فريضتي وخففت عن عبادي »[99] .

وقد تقدَّم ذكرُ اختلاف الصحابة في رؤيته ﷺ ربَّه عز وجل بعين رأسه[*] ، وأن الصحيح أنه رآه بقلبه ، ولم يره بعين رأسه .

وقوله : ﴿ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم : ١١] ، ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم : ١٣] ، صح عن النبيِّ ﷺ أن هذا المرئيَّ جبريلُ ، رآه مرتين على صُورته التي خُلِقَ عليها .

وأما قولُه تعالى في سورة النجم : ﴿ ثُمَّ دَنَى فَتَدَلَّى ﴾ ، فهو غيرُ الدنوِّ والتدلي المذكورَين في قصة الإسراء ، فإنَّ الذي في سورة النجم هو دُنُو جبريلَ وتدلِّيه ، كما قالت عائشة وابنُ مسعود رضي الله عنهما ، فإنه قال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى * ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوَى * وهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا

---

(٩٩) رواه البخاري ٦/٢١٧ ـ ٢١٩ في بدء الخلق : باب ذكر الملائكة ، وفي الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً﴾، وباب قول الله تعالى : ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب المعراج ، ومسلم رقم (١٦٤) في الايمان : باب الاسراء برسول الله ﷺ ، والترمذي رقم (٣٣٤٣) في التفسير باب ومن سورة ألم نشرح ، والنسائي ٢١٧/١ و ٢١٨ في الصلاة : باب فرض الصلاة ، وأحمد في «المسند» ٢٠٨/٤ و ٢١٠ ، من حديث أنس بن مالك عن مالك ابن صعصعة .

(*) ص ١٧٤ ـ ١٧٦ .

فَتَدَلَّى ﴾ [النجم : ٥ ـ ٨] . فالضمائرُ كلُّها راجعة إلى هذا المعلِّم الشديدِ القوى ، وأما الدنُو والتدلي الذي في حديث الإسراء ، فذَلِكَ صريحٌ في أنه دنُو الربِّ تعالى وتدليه(*) . وأمَّا الذي في سورة النجم : أنه رآه نزلةً أخرى عند سِدرة المنتهى، فهذا هو جـبريـل ، رآهُ مرتين ، مرةً في الأرض ، ومرَّة عند سدرة المنتهى .

ومما يدُل على أن الإسراءَ بجسده في اليقظة ، قولُه تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ ﴾ [الإسراء : ١] . والعبد عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما أن الإنسانَ اسم لمجموع الجسد والروح ، هذا هو المعروفُ عند الإطلاق ، وهو الصحيح ، فيكون الإسراءُ بهذا المجموع ، ولا يمتنِعُ ذلك عقلاً ، ولو جاز استبعادُ صعودِ البشر ، لجاز استبعادُ نزول الملائكة ، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة وهو كُفر .

فإن قيل : فما الحكمةُ في الإسراء إلى بيت المقدس أولاً ؟

فالجوابُ ـ والله أعلم ـ : أن ذلك كان إظهاراً لِصدق دعوى الرسولِ ﷺ المعراج حين سألتْه قريشٌ عن نعتِ بيت المقدس ، فنعته لهم وأخبرهم عن عِيرهم التي مرَّ عليها في طريقه ، ولو كان عروجُه إلى السماء مِن مكة لما حصَلَ ذلك ، إذ لا يُمكن اطلاعُهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه ، وقد اطَّلعوا على بيت المقدس ، فأخبرهم بنعته .

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صِفة العُلُوِّ لله تعالى مِن وجوه ، لمن تدبره ، وبالله التوفيق .

* * *

(*) هذا خطأ من الشارح فقد تقدم أن هذا مما انفرد به شريك ، وأنه معدود في منكراته .

١/٤٢ **قوله : وَالحَوْضُ ـ الَّذِي أَكْرَمَهُ الله تَعَالَىٰ بِهِ غِيَاثاً /لأُمَّتِهِ ـ حَقٌّ .**

الأحاديثُ الوارِدَةُ في ذكر الحوض تبلُغ حدَّ التواتُر ، رواها من الصحابة بضعٌ وثلاثونَ صحابيّاً رضي الله عنهم ، ولقد استقصى طُرقَها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير ، تغمَّدَه الله برحمته ، في آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .

فمنها : ما رواه البخاريُّ رحمه الله تعالى ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، أن رسولَ الله ﷺ قال : « إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ اليَمَنِ ، وَإِنَّ فِيه مِنَ الأَبارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ »[١٠٠] .

وَعنه أيضاً عن النبيِّ ﷺ قال: « لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاس مِنْ أَصْحَابِي الحَوْضَ ، حَتَّى إذَا عَرَفْتُهُمْ اخْتُلِجُوا دُوني ، فَأَقُولُ : أَصَيحَابي ، فَيَقُولُ : لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ » ورواه مسلم[١٠١] .

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : « أغفى

---

(١٠٠) رواه البخاري ٤١٢/١١ في الرقاق : باب ذكر الحوض ، ومسلم رقم (٢٣٠٣) في الفضائل : باب إثبات حوض نبينا ﷺ ، والترمذي رقم (٢٤٤٤) في صفة القيامة : باب ما جاء في صفة الحوض ، ورواه أيضاً أحمد في «المسند» ٢٣٠/٣ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ «إن ما بين طرفيه كما بين أيلة إلى مكة أو بين صنعاء ومكة ، وإن أنيته أكثر من نجوم السماء » و «أيلة » هي بلدة على خليج العقبة .

(١٠١) هذا اللفظ رواه البخاري ٤١٢/١١ في الرقاق : باب الحوض ، ورواه مسلم رقم (٢٣٠٤) في الفضائل : باب إثبات حوض نبينا ﷺ بلفظ «ليردن علي الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رأيتهم ورفعوا إليّ اختلجوا دوني ، فلأقولن : أي ربِّ أصيحابي أصيحابي ، فليقالن لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك» .

وفي الباب عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه البخاري ٣/١٣ ومسلم رقم (٢٢٩٧) . وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عند البخاري ٣/١٣ ، ومسلم (٢٢٩٠) ، وأحمد في «المسند» ٣٣٣/٥ و ٣٣٩ ، وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عند أحمد في «المسند» ٣٨٨/٥ ، وعن أبي بكرة نفيع عند أحمد في «المسند» ٤٨/٥ و ٥٠ .

انظر «جامع الأصول» رقم (٧٩٨٥) و (٧٩٩٧) و (٧٩٩٧) و (٨٠٠٣) .

رسولُ الله ﷺ إغفاءَةً ، فرفع رأسه مبتسِماً ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لِمَ ضَحِكْتَ ؟ فقال رسولُ الله ﷺ : إنه نَـزَلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ ، فَقَرَأَ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : ١] . حتى ختمها ، ثم قال لهم : « هَلْ تَدْرونَ ما الكَوْثَرُ ؟ قالوا : الله ورسولُه أعلم ، قال : « هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ في الجَنَّةِ ، عَلَيْه خيرٌ كَثِيرٌ ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتي يَوْمَ القِيَامَةِ ، آنيتُه عَدَدُ الكَوَاكِبِ ، يُخْتَلجُ العَبْدُ مِنْهُم ، فَأَقولُ : يَا رَبِّ ، إِنَّه مِنْ أُمَّتي ، فَيُقَالُ : إنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ » .

ورواه مسلم ، ولفظُه : « فإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيْهِ رَبِّي ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيْرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ » ، والباقي مثله(١٠٢) .

ومعنى ذلك أنه يَشْخُبُ فيه ميزابانِ مِن ذلك الكوثر إلى الحوض ، والحوض في العرصات قبل الصراط ، لأنه يُخْتَلَجُ عنه ، ويمنع أقوامٌ قد ارتدُّوا على أعقابهم ، ومثل هؤلاء لا يُجاوِزُون الصراط .

وروى البخاري ومسلم(١٠٣) عن جُنْدب بن عبد الله البُجَلي رضي الله عنه ، قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « أَنا فَرَطُكُم عَلَى الحَوْضِ » . والفَرَطَ : الذي يسبق إلى الماء .

وروى البخاري(١٠٤) عن سهل بن سعد الأنصاري رضي الله عنه ،

---

(١٠٢) رواه أحمد في «المسند» ٣/١٠٢ ، ورواه أيضاً مسلم رقم (٤٠٠) في الصلاة : باب حجة من قال : البسملة آية من أول كل سورة سوى سورة براءة ، وأبو داود رقم (٤٧٤٧) في السنة : باب في الحوض ، والنسائي ٢/١٣٣ ـ ١٣٤ في الافتتاح : باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم .

(١٠٣) رواه البخاري ١١/٤١٤ في الرقاق : باب الحوض ، ومسلم رقم (٢٢٨٩) في الفضائل : باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ، وأحمد في «المسند» ٤/٣١٣ .

(١٠٤) رواه البخاري ١١/٤١٢ ـ ٤١٣ في الرقاق : باب في الحوض ، و ١٣/٣ في أول كتاب الفتن ، ورواه أيضاً مسلم رقم (٢٢٩٠) و (٢٢٩١) في الفضائل : باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ، وأحمد في «المسند» ٥/٣٣٣ .

قال : قال رسول الله ﷺ: « إنِّي فَرَطُكُم عَلَى الحَوْضِ ، مَنْ يَرِدُ عَلَيَّ ، شَرِبَ ، وَمَنْ شرِبَ ، لم يَظْمأ أَبداً ، لَيَرِدنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أعرِفُهُم وَيَعْرِفُونَنِي ، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُم » قال أبو حازم : فَسَمِعَني النُّعمانَ بنُ أبي عيَّاشٍ فقالَ : هكذا سمعتَ من سهلٍ ؟ فقلت : نعم ، قال : أشهد على أبي سعيد الخُدري ، لسمعته وهو يزيد فيها فأقول : إنَّهُم مِنْ أُمَّتِي » فَيُقَالُ : إنَّكَ لَا تَدْرَي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ . فأقول : « سُحْقَاً سُحْقاً لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي » . سحقاً : أي بُعداً .

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض : أنه حوضٌ عظيم ، ومَوْرِدٌ كريم ، يُمَدُّ مِن شراب الجنة ، مِن نهر الكوثر ، الذي هو أشدُّ بياضاً من اللبن ، وأبردُ من الثلج ، وأحلى من العسل ، وأطيبُ ريحاً من المسك ، وهو في غاية الاتساعِ ، عرضُهُ وطولُه سواء ، كُلُّ زاوية من زواياه مسيرة شهر.

وفي بعض الأحاديث : « أنه كلما شُرِبَ منه وهو في زيادة واتساع ، وأنه ينبت في خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقُضبان الذهب ، ويُثمر ألوانَ الجواهر » فسبحان الخالِق الذي لا يُعْجِزُه شيء . وقد ورد في أحاديث « إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضاً ، وَإِنَّ حَوْضَ نَبِينَا ﷺ أَعْظَمُهَا وَأَحْلَاهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِداً »(١٠٥) . جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

قال العلامة أبو عبد الله القُرطبي(*) رحمه الله في « التذكرة » : واختلف

---

(١٠٥) رواه الترمذي رقم (٢٤٤٥) في صفة القيامة : باب ما جاء في صفة الحوض ، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه ، بلفظ «إن لكل نبي حوضاً ، وإنهم ليتباهون أيهم أكثر واردة ، وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة » وإسناده ضعيف ـ وقال الترمذي : هذا حديث غريب ، قال : وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن ـ يعني البصري ـ عن النبي ﷺ مرسلاً ولم يذكر فيه : عن سمرة ، وهو أصح .

وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/٣٦٣ : رواه الطبراني ، وفيه مروان بن جعفر السمري ، وثقه ابن أبي حاتم . وقال الأزدي : يتكلمون فيه ، وبقية رجاله ثقات .

(*) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح الأنصاري الأندلسي القرطبي المفسر ، ولد في قرطبة . قال الذهبي في « تاريخ الاسلام » : هو إمام متفنن ، متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل =

في الميزان والحوض : أيُّهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل : الميزان قبل، وقيل : الحوض . قال أبو الحسن القابسي : والصحيح أن الحوضَ قبل ، قال القرطبي : والمعنى يقتضيه ، فإنَّ الناس يخرجون عِطاشاً من قبورهم ، كما تقدم فيقدَّم قبل الميزان والصراط . قال أبو حامد الغزالي رحمه الله ، في كتاب « كشف علم الآخرة » : حكى بعضُ السلف من أهل التصنيف ، أن الحوض يُورَدُ بعد الصراط ، وهو غلط من قائله . قال القرطبي : هو كما قال ، ثم قال القرطبي : ولا يَخْطُرْ ببالك أنه في هٰذه الأرض ، بل في الأرض المبدَّلَة ، أرضٌ بيضاء كالفضة ، لم يُسفك فيها دم ، ولم يُظلم على ظهرها أحدٌ قطُّ ، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لِفصل القضاء . انتهى .

فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض ، وأخلِقْ بهم أن يُحال بينهم وبين وروده يومَ العطش الأكبر .

* * *

قوله : وَالشَّفاعَةُ الَّتِي ادَّخرها لَهُمْ حَقٌّ ، كَمَا رُوِي فِي الأَخْبَارِ .

الشفاعة/أنواع : منها ما هو متَّفق عليه بين الأمة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع . ٤٢/ب

النوعُ الأول : الشفاعةُ الأولى ، وهي العُظمى ، الخاصةُ بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه مِن الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين .

= على كثرة اطلاعه ، ووفور عقله وفضله ، وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان ، وله كتاب « الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى » و « التذكرة » ، وأشياء تدل على إمامته وذكائه وكثرة اطلاعه . توفي رحمه الله تعالى سنة ٦٧١ هـ .

ومن كتبه المفيدة « التذكار في أفضل الأذكار » الذي نشرته مكتبة دار البيان بدمشق بتحقيق الشيخ عبد القادر الأرناؤوط .

في « الصحيحين » وغيرِهما عن جماعة من الصحابة ، رضي الله عنهم أجمعين أحاديثُ الشفاعة .

منها : عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : « أُتِيَ رَسُولُ الله ﷺ بِلَحْم ، فَدُفِعَ إليه مِنْها الذِّرَاعُ ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً ، ثُمَّ قَالَ : أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَهَلْ تَدْرونَ لِمَ ذَلِكَ ؟ يَجْمَعُ الله الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيدٍ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيْهِ ؟ أَلَا تَرَوْنَ إلى مَا قَدْ بَلَغَكُم ؟ ألا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُم إلى رَبِّكُم ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَبُوكُم آدَمُ ، فَيَأْتُونَ آدَمَ ، فَيَقُولُونَ : يا آدَمُ ! أَنْتَ أَبُو البَشر ، خَلَقَكَ الله بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيْكَ مِنْ رُوحِهِ ، وَأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ ، فَاشْفَع لَنَا إلى رَبِّك ، أَلَا تَرَى إلى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَن الشَّجَرةِ فَعَصَيْتُهُ ، نَفْسِي نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذهَبُوا إلى غَيرِي ، اذهَبُوا إلى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نوحاً ، فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ! أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إلى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَسَمَّاكَ الله عَبْداً شَكُوراً ، فَاشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ، أَلَا تَرَى إلى مَا نَحْنُ فِيْهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي ، نَفْسِي نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذهَبُوا إلى غَيْرِي ، اذهَبُوا إلى إبْرَاهِيمَ فَيَأْتُونَ إبْرَاهِيمَ ، فَيَقُولُونَ : يا إبْرَاهِيمُ ! أَنْتَ نَبِيُّ الله وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ ، أَلَا تَرَى إلى ما نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَذَكَرَ كَذبَاتِهِ(*) ، نَفْسِي نَفْسِي ، نَفْسِي ، اذهَبُوا إلى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى : فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى ، أَنْتَ

(*) قال ﷺ : « لم يكذب ابراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات ، ثنتين في ذات الله قوله : =

رَسُولُ الله ، اصْطَفَاكَ الله بِرِسَالاَتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ ، اشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى ما نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرى ما قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُم مُوسَى : إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَب بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْساً لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذهَبُوا إلى غَيْرِي ، اذهَبُوا إلى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، قَالَ : هَكَذا هُوَ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ في المَهْدِ ، فاشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إلى ما نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فَيَقُولُ لَهُم عِيسَى : إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَب بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، [ولم يذكر ذنباً] اذهَبُوا إلى غَيْرِي ، اذهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ [ﷺ] ، فَيَأتوني ، فَيَقُولُونَ ، يا مُحَمَّدُ ! أَنْتَ رَسُولُ الله ، وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ ، غَفَرَ الله لَكَ ذَنْبَكَ ، ما تَقَدَّمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخَّرَ ، فاشْفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ، أَلاَ تَرَى إلى ما نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فأَقُومُ ، فآتِي تحْتَ العَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدَاً لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئاً لَمْ يفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلي ، فيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ! ارفَعْ رَأْسَكَ ، سَلْ تُعْطَه ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : رَبِّ ! أُمَّتي أُمَّتِي ، يَا رَبِّ أُمَّتي أُمَّتِي ، يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي ، فَيَقُولُ : أَدخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيهِ مِنَ البَابِ الأَيمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، وَهُم شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيما سِوَاهُ مِنَ الأَبْوَابِ ، ثُمَّ قَالَ : والذي نَفْسِي بِيَدِه ، لَما بَيْنَ مِصْرَاعَينِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ لكما بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ أَو كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى » . أخرجاه في « الصحيحين »(*) . بمعناه ، واللفظ للإمام أحمد .

= ﴿ إني سقيم ﴾ [الصافات : ٨٩] وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] ، وواحدة في شأن سارة . . . » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . رواه البخاري ومسلم .

وقال النووي في « شرح مسلم » ١٥/١٢٤ : إن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلى فهم المخاطب والسامع ، وأما في نفس الأمر فليس كذباً لأنه ورّى بها . اهـ .

(*) تقدم تخرجه ص ٧٦ رقم ٢٩ .

والعجبُ كُلُّ العجب ، من إيراد الأئمة لهذا الحديث من أكثر طرقه ، لا يذكرون أمرَ الشفاعة الأولى في أن يأتي الربُّ سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، كما ورد هذا في حديث الصُّور . فإنه المقصودُ في هذا المقام ، ومقتضى سياقِ أول الحديث ، فإن الناس إنما يستشفِعُون إلى آدم فَمَنْ بعده من الأنبياء في أن يَفْصِلَ بينَ الناس ، ويستريحوا من مقامهم ، كما دلت عليه سياقاتُه مِن سائر طرقه ، فإذا وصلُوا إلى الجزاء إنما يذكرون الشفاعة في عُصاة الأمة وإخراجِهم من النار . وكان/مقصودُ السلف ـ في الاقتصار على هذا المقدار مِن الحديث ـ هو الردَّ على الخوارج ومَنْ تابعهم من المعتزلة ، الذين أنكروا خروجَ أحد مِن النار بعد دخولها ، فيذكرون هذا القدر من الحديث الذي فيه النصُّ الصريحُ في الرد عليهم ، فيما ذهبوا إليه من البدعة المخالفة للأحاديث . وقد جاء التصريحُ بذلك في حديث الصور ، ولولا خوفُ الإطالة ، لسُقتُه بطوله ، لكن من مضمونه : أنهم يأتون آدم ثم نوحاً ، ثم إبراهيمَ ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم يأتون رسول الله محمداً ﷺ، فيذهبُ ، فيسجد تحت العرش في مكان يقال له : الفَحْصُ ، فيقول الله ما شأنُكَ ؟ وهو أعلمُ ، قال رسول الله ﷺ، فأقولُ : يا رب ، وعدتَني الشفاعة ، فشفِّعني في خلقك ، فاقضِ بينهم ، فيقولُ سبحانه وتعالى : شفَّعتك ، أنا آتيكم فأقضي بينكم ، قال : فأرجع فأقف مع الناس ، ثم ذكر انشقاق السماوات ، وتنزل الملائكة في الغمام ، ثم يجيء الربُّ سبحانه وتعالى لفصل القضاء ، والكروبيون والملائكة المقربون يُسبِّحون بأنواع التسبيح ، قال : فيضع الله كرسيَّه حيث شاءَ من أرضه ، ثم يقول : إني أنصتُّ لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا أسمعُ أقوالَكم ، وأرى أعمالكم ، فأنصتوا إليَّ ، فإنما هي أعمالُكم وصُحُفُكُم تُقرَأُ عَلَيْكُم ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرَاً فَلْيَحْمِدَ الله ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذٰلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ ، إلى أن قال : فإذا أفضى أَهْلُ الجنة إلى الجنَّةِ ، قالُوا : مَنْ يشفع لنا إلى رَبِّنا فندخل الجنة ؟ فيقولُونَ : مَنْ أحقُّ بذلك مِن

٤٣/أ

أبيكم ، إنه خَلَقَهُ الله بيده ، وَنَفَخَ فِيه مِن روحه ، وَكَلَّمه قَبْلًا ، فيأتون آدم ، فيطلب ذلك إليه ، وذكر نوحاً ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمداً ﷺ . . . إلى أن قال : قال رَسُولُ الله ﷺ : « فآتِي الجَنَّةَ ، فآخُذُ بحَلْقَةِ البَابِ ، ثُمَّ أستَفْتِحُ ، فَيُفْتَحُ لي ، فَأُحَيَّا ويُرَحَّبُ بي ، فإذا دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَنَظَرْتُ إلى رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدَاً ، فَيَأْذَنُ لي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيءٍ ما أَذِنَ بِهِ لِأحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، ثُمَّ يَقُولُ الله لي : ارفَعْ يا مُحَمَّدُ ! واشفَعْ تُشَفَّعْ ، وَسَلْ تُعْطَه ، فإذا رفعت رَأْسِي ، قَالَ الله - وهو أعلمُ - : ما شَأْنُكَ؟ فَأَقُولُ : يَا ربِّ ! وَعَدْتَنِي الشَّفَاعَةَ ، فَشَفِّعنِي في أَهْلِ الجَنَّةِ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ ، فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ : قَدْ شَفَّعْتُكَ ، وأَذِنْتُ لَهُم في دُخُولِ الجَنَّةِ » ، الحديث . رواه الأئمة : ابن جرير في تفسيره ، والطبراني ، وأبو يعلى الموصلي ، والبيهقي وغيرُهم[١٠٦] .

النوعُ الثاني والثالثُ من الشفاعة : شفاعتُه ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتُهم وسيئاتُهم ، فيشفعُ فيهم لِيدخلوا الجنة ، وفي أقوام آخرين قد أُمِر به إلى النار ألا يدخلوها .

النوعُ الرابعُ : شفاعتُه ﷺ في رفع درجات مَنْ يَدْخُلُ الجنة فيها فوقَ ما كان يقتضيه ثوابُ أعمالهم ، وقد وافقت المعتزلةُ على هذه الشفاعة خاصة ، وخالفُوا فيما عداها من المقامات ، مع تواتر الأحاديث فيها .

النوع الخامسُ : الشفاعةُ في أقوامٍ يدخلوا الجنةَ بغير حساب ، ويَحْسُنُ أن يُستشهد لهذا النوع بحديث عُكَّاشَة بنِ مِحْصَنٍ ، حين دعا له

(١٠٦) رواه ابن جرير في « تفسيره » ٢ / ١٩٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، وقال ابن كثير ١ / ٤٤٠ : وهو حديث مشهور ، ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم . ا هـ . وإسناده ضعيف لضعف اسماعيل بن رافع ويزيد بن أبي زياد ، وجهالة الرجل من الأنصار .

رسول الله ﷺ أن يجعلَه مِن السبعينَ ألفاً الذين يدخُلُون الجنة بغير حساب ، والحديث مخرَّج في « الصحيحين »[107] .

النوعُ السادس : الشفاعةُ في تخفيف العذاب عمن يستحِقُّه ، كشفاعته في عمِّه أبي طالب أن يُخفف عنه عذابه[108] . ثم قال القرطبي في « التذكرة » بعد ذكر هذا النوع : فإن قيل : فقد قال تعالى : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثّر : ٤٨] . قيل له : لا تنفعه في الخروج من النار كما تنفع عصاة الموحدين الذين يُخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوعُ السابعُ : شفاعته أن يُؤذن لجميعِ المؤمنين في دخول الجنة ، كما تقدَّم ، وفي « صحيح مسلم »[109] عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال : « أَنا أَوَّلُ شفيعٍ في الجَنَّةِ » .

النوعُ الثامنُ : شفاعتُه في أهل الكبائر مِن أمته ، ممن دخل النار ، فيخرجون منها ، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديثُ ، وقد خفي علمُ ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا في ذلك ، جهلاً منهم بصحة الأحاديث ، وعِناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته .

وهذه الشفاعةُ تُشارِكُه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً .

---

(١٠٧) رواه البخاري ١٠/٢٣٤ في اللباس : باب البرود والحبر والشملة ، و٣٥٩/١١ في الرقاق : باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، ومسلم رقم (٢١٦) و (٢١٧) في الإيمان : باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين بغير حساب ولا عذاب ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(١٠٨) رواه البخاري ١٤٨/٧ في مناقب الأنصار : باب قصة أبي طالب ، ومسلم رقم (٢٠٩) في الشفاعة : باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب والتخفيف عنه بسببه من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه . ورواه البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(١٠٩) رقم (١٩٦) في الإيمان : باب في قول النبي ﷺ : «أنا أول الناس يشفع في الجنة ، وأنا أكثرهم تابعاً» والدارمي رقم (٥٢) في المقدمة : باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل ، وأحمد في «المسند» ١٤٠/٣ .

وهذه الشفاعة تتكرَّرُ منه ﷺ أربعَ مرات .

ومِن أحاديث هذا النوع حديثُ أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الكَبائِرِ مِنْ أُمَّتي » . رواه الامام أحمد رحمه الله(١١٠) .

وروى البخاري رحمه الله في كتاب « التوحيد » : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حمادُ بنُ زيد ، حدثنا معبد بن هلال العنزي ، قال : اجتمعنا ، ناسٌ من/أهل البصرة ، فذهبنا إلى أنس بن مالك رضي الله عنه ، وذهبنا مَعَنَا بثابت البُناني إليه ، يسألُه لنا عن حديث الشفاعة ، فإذا هو في قصره ، فوافقنا يصَلِّي الضحى ، فاستأذنا ، فأَذِنَ لنا وَهُوَ قاعد على فراشه ، فقلنا لثابت : لا تسألُه عن شيء أوَّلَ مِن حديث الشفاعة ، [فقال : يا أبا حمزة ! هٰؤلاء إخوانُك مِن أهل البصرة ، جاؤوك يسألونك عن حديث الشفاعة](*) ، فقال : حدثنا مُحَمَّدٌ ﷺ ، قالَ : إذَا كانَ يومُ القِيَامَةِ ، مَاجَ النَّاسُ بعضُهم في بَعْضٍ ، فيأتُونَ آدَمَ ، فَيَقُولُونَ ، اشفَعْ لَنَا إلى رَبِّكَ ، فيقولُ ، لَسْتُ لَهَا ، وَلكِنْ عَلَيْكُم بإِبْرَاهِيم ، فإنَّه خَليلُ الرَّحْمٰنِ ، فيأتُونَ إبراهيمَ ، فيقولُ : لَسْتُ لَهَا ، ولكِنْ عَلَيْكُم بِمُوسَى ، فإنَّه كَلِيمُ الله ، فَيأتُونَ مُوسَى : فيقولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُم بِعِيسَى ، فإنَّه رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ ، فَيَأتُونَ عِيسِى ، فيقولُ : لَسْتُ لَهَا ، وَلَكِنْ عَلَيْكُم بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَيأتُوني ، فَأَقُولُ : أَنَا لَهَا ، فَأَستأذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤذَن لي ، وَيُلهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بها ، لا تَحْضُرُني الآنَ ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ ، وأَخِرُّ لَهُ سَاجِدَاً ، فَيُقَالُ : يا

٤٣/ب

(١١٠) رواه أحمد في «المسند» ٣/ ٢٣٠ ، وأبو داود رقم (٤٧٣٩) في السنة : باب في الشفاعة ، والترمذي رقم (٢٤٣٧) في صفة يوم القيامة : باب شفاعته لأهل الكبائر من أمته، وصححه ابن حبان في «صحيحه» رقم(٢٥٩٦) « موارد»، والحاكم في «المستدرك» ١/ ٦٩ ، وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده .
انظر «جامع الأصول» رقم (٦٧٦٨) و (٨٠١٢) و(٨٠١٣) .

(*) الزيادة من « صحيح البخاري » .

مُحَمَّدُ ! ارفَعْ رَأْسَكَ ، وَقلْ يُسْمَعْ لَكَ ، واشْفَعْ تُشفع وسـل تعط ، فَأَقُـولُ : يَا رَب أُمَّتِي أُمَّتِي ، فيُقَالُ: انطلِقْ فَأَخْرجَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرةٍ مِنْ إيمانٍ ، فَانْطَلِقْ فأفعَلُ ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ ، ثُمَّ أَخرُّ لَهُ سَاجِداً ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ ! ارفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ ، واشفَعْ تُشَفَّعْ، وَسَلْ تُعْطَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انطَلِقْ فَأَخْرِجْ منْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَثْقَالُ ذَرَّةً أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَانْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَـأَحْمَدَهُ بِتِلْكَ المَحَـامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً ، فيُقَالُ : يا مُحَمَّدُ ! ارفَعْ رَأْسكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ واشفَـعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ ، فَأَقُولُ : يَا رب ! أُمَّتِي أُمَّتِي ، فيَقُولُ : انطلِقْ فـأَخْرِجْ مَنْ كَـانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ أَدْنَىٰ مِثْقَالِ حَبَّةٍ مِنْ خردل مِنْ إيمانٍ ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْطَلِقُ فأَفْعَلُ » . قَالَ : فَلَّما خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ أَنَسٍ ، قُلتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِنَا: لَوْ مَرَرْنَا بالحَسَن ، وَهُوَ مُتَوارٍ في مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنا أنَسُ بنُ مالِكٍ ، فَأَتيناه ، فَسَلَّمْنَا عَلَيهِ ، فَأَذِنَ لَنَا ، فَقُلْنَا لَهُ : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، جِئْنَاكَ مِنْ عند أَخِيكَ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنا في الشَّفَاعَةِ ، فَقَالَ : هِيه ؟ فَحَدَّثناهُ بالحديثِ، فَأَتَيْنَا إلى هذا المَوْضِعِ ، فَقَالَ: هِيه؟ فَقُلْنَا: لَم يَزِدْ لَنَا عَلَى هَذا ، فقَالَ : لَقَدْ حَدَّثني وَهُوَ جَميعٌ ، مُنْذُ عِشْرين سَنةً ، فَلا أَدْرِي ، أَنسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا ؟ فَقُلْنَا : يَا أَبَا سَعِيدٍ ، فَحَدِّثْنَاه ، فَضَحِكَ وَقَالَ : خُلِقَ الإِنسَان عَجُولاً ! مَا ذَكَرْتُهُ إلاَّ وَأَنَا أُريدُ أَنْ أُحَدِّثَكُم ، حَدَّثني كَمَا حَدَّثَكُم بِهِ، قَالَ: « ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِداً ، فَيُقَالُ : يا مُحَمَّدُ ! ارفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، وَسَلْ تُعْطَهْ ، واشفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ : يَا رَبِّ ! ائْذَنْ لي فِيمَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، فَيَقُولُ : وَعِزَّتي وَجَلالي ، وَكِبْريائي وَعَظمَتي ، لأُخْرِجَنَّ منها مَنْ قَالَ : لَا إله إلا الله » . وهكذا رواه مسلم(*) .

(*) تقدم تخرجه ص ١١١ رقم ٤٢ .

وروى الحافظ أبو يعلى عن عثمان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يَشْفَعُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَةٌ : الأنبياءُ ثُمَّ العُلَماءُ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ »[(١١١)] .

وفي « الصحيح »[(١١٢)] عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً ، قال : « فَيَقُولُ الله تَعَالى : شَفعَتِ المَلائِكَةُ ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ ، وشَفَعَ المُؤمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ ، فَيُخْرِجُ منها قَوْماً لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرَاً قَطُّ » ، الحديث .

ثم إنَّ النَّاسَ في الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون والنصارى والمبتدِعون مِن الغُلاة في المشايخ وغيرهم : يجعلُون شفاعَةَ مَنْ يعظِّمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا .

والمعتزلةُ والخوارج أنكرُوا شفاعة نبينا ﷺ وغيرِه في أهل الكبائر .

وأما أهلُ السنة والجماعة ، فيُقرُّون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، لكن لا يشفع أحدٌ حتى يأذَنَ الله له ويَحُدَّ له حدَّاً ، كما في الحديث الصحيح ، حديث الشفاعة : « إنهم يَأْتُونَ آدَمَ ، ثُمَّ نُوحَاً ، ثُمَّ إبراهِيمَ ، ثُمَّ مُوسَى ، ثُمَّ عِيسَى ، فَيَقُولُ لَهُم عِيسَى عَلَيهِ السَّلامُ : اذهَبُوا إلى مُحَمَّدٍ ، فَإِنَّهُ عَبْدٌ غَفرَ الله لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، فَيَأتُونِي ، فَأَذْهَبُ ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي ، خَرَرتُ لَهُ سَاجِدَاً ، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُها عَلَيَّ ، لَا أُحْسِنُها الآنَ ، فَيَقُولُ : أَيْ مُحَمَّدُ ! ارفَعْ رَأْسَكَ ، وَقُلْ يُسْمَعْ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَقُولُ: رَبِّي أُمَّتِي ، فَيَحُدُّ لي حَدَّاً ، فَأُدخِلُهُم الجَنَّةَ ، ثُمَّ أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ ، فَيَحُدُّ لي حَدَّاً » ذكرها ثلاث مرات[(*)] .

---

(١١١) رواه ابن ماجه رقم (٤٣١٣) في الزهد : باب ذكر الشفاعة ، والعقيلي في «الضعفاء» ص ٣٢١ ، وفي سنده عنبسة بن عبد الرحمن . قال البخاري : تركوه ، وقال أبو حاتم : كان يضع الحديث .

(١١٢) قطعة من حديث طويل رواه مسلم رقم (١٨٣) (٣٠٢) في الإيمان : باب معرفة طريق الرؤية ، وأحمد في «المسند» ٣/٩٤ .

(*) تقدم تخرجه ص ٧٦ رقم ٢٩ .

٤٤/أ وأما الاستشفاع بالنبيِّ ﷺ وغيرِه في الدنيا إلى الله تعالى في/الدعاء ، ففيه تفصيلٌ : فإن الداعي تارة يقول : بحقِّ نبيِّك أو بحقِّ فلان ، يُقْسِمُ على الله بأحدٍ مِنْ مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين : أحدهما : أنه أقسم بِغيرِ الله والثاني ـ اعتقاده أن لأحد على الله حقاً، ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤْمِنِينَ﴾ [الروم : ٤٧]. وكذلك ما ثبت في «الصحيحين»[١١٣] من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، وهو رديفه: «يَا مُعَاذُ! أَتَدرِي مَا حَقُّ الله عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّهُ عَلَيهِم أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ العِبَادِ عَلى الله إِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ ؟ قُلْتُ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : حَقُّهُم عَلَيهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُم » . فهذا حق وجب بكلماتِه التامة ووعدِه الصادق ، لا أن العبدَ نفسه يستحقُ على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق ، فإن الله هو المنعمُ على العباد بكل خير ، وحقُّهم الواجبُ بوعده هو ألا يعذبهم ، وتركُ تعذيبهم معنى لا يصلُح أن يُقْسَم به ، ولا أن يُسأل بسببه ، ويتوسل به ، لأن السبب هو ما نصبه الله سبباً .

وكذلك الحديثُ الذي في « المسند »[١١٤] من حديث أبي سعيد رضي

---

(١١٣) رواه البخاري ١٣/٣٠٠ في التوحيد : باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى ، و٦/٤٤ في الجهاد : باب اسم الفرس والحمار ، و ١٠/٣٤٤ في اللباس : باب حمل صاحب الدابة غيره بين يديه ، و١١/٥٢ في الاستئذان : باب من أجاب بلبيك وسعديك ، وفي الرقاق : باب من جاهد نفسه ، وفي العلم : باب من خص بالعلم قوماً دون قوم ، ومسلم رقم (٣٠) في الايمان : باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، والترمذي رقم (٢٦٤٥) في الايمان : باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وأحمد في «المسند» ٣/٢٦٠ و ٢٦١ وابن ماجه رقم (٤٢٩٦) في الزهد : باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة .

(١١٤) رواه أحمد في «المسند» ٣/٢١ ، وابن ماجه رقم (٧٧٨) في المساجد والجماعات : باب المشي الى الصلاة ، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٨٣) واسناده ضعيف ، وقد ضعفه البوصيري والمنذري وغيرهما ، لضعف فضيل بن مرزوق وعطية العوفي . انظر « الأحاديث الضعيفة » للألباني رقم (٢٤) .

الله عنه عن النبي ﷺ، في قول الماشي الى الصلاة : « أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذا ، وَبِحقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » فهذا حق السائلين ، هو أوجبه على نفسه ، فهو الذي أحق للسائلين أن يُجيبهم ، وللعابدين أن يُثيبهم ، ولقد أحسن القائل :

مـا لِلْعِبَـادِ عَلَيْـهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَـلَّا ولا سَعْيٌ لَـدَيْـهِ ضَـائِـعُ
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ ، أو نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ

فإن قيل : فأي فرق بين قول الداعي : « بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » وبين قوله : « بِحَقِّ نَبِيِّكَ » أو نحو ذلك ؟ فالجواب : أن معنى قوله : « بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ » أنك وعدتَ السائلين بالإجابة ، وأنا من جملة السائلين ، فأجب دعائي ، بخلاف قوله : بحق فلان ـ فإن فلاناً وإن كان له حقّ على الله بوعده الصادق ـ فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل ، فكأنه يقول : لكون فلان مِن عبادك الصالحين أجب دعائي ! وأيُّ مناسبة في هذا وأيُّ ملازمة ؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء ، وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُم تَضَرُّعَاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِيْنَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] . وهذا ونحوُه مِن الأدعية المبتدعة ، ولم يُنقل عن النبي ﷺ ، ولا عن الصحابةِ ، ولا عن التابعين ، ولا عن أحد من الأئمة رضي الله عنهم ، وإنما يُوجد مثلُ هذا في الحروز والهياكل التي يَكْتُبُهَا الجهالُ والطُّرقية .

والدعاء من أفضل العبادات ، والعبادات مبناها على السنة والاتباع ، لا على الهوى والابتداع .

وإن كان مرادُه الإقسامَ على الله تعالى بحق فلان ، فذلك محذورٌ أيضاً ، لأن الإقسام بالمخلوق لا يجوز ، فكيف على الخالق ؟! وقد قال ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ الله فَقَدْ أَشْرَكَ »(١١٥) . ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه

---

(١١٥) رواه أحمد في «المسند» ٢/٣٤ و ٦٩ و ٨٦ و ٨٧ و ١٢٥ ، والترمذي رقم (١٥٣٥) في النذور : باب رقم ٩ وهو حديث صحيح ،وصححه الحاكم في «المستدرك» ١/١٨ ووافقه الذهبي .

رضي الله عنهم : يُكره أن يقول الداعي : أسألُك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحقِّ البيت الحرام ، والمشعر الحرام ، ونحو ذلك . حتى كره أبو حنيفة ومحمد رضي الله عنهما أن يقول الرجل : اللهم إني أسألُك بِمَعْقِدِ العِزِّ مِن عرشِكَ ، ولم يكرهه أبو يوسف رحمه الله لما بلغه الأثر فيه(*) .

وتارة يقول : بجاه فلان عندك ، أو يقول : نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك ، ومراده أنَّ فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة ، فأجب دعاءنا . وهذا أيضاً محذور ، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابةُ يفعلونه في حياة النبي ﷺ ، لفعلوه بعد موته ، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه ، يطلبون منه أن يدعوَ لهم ، وهم يؤمِّنون على دعائه ، كما في الاستسقاء وغيره ، فلما مات ﷺ ، قال عمر رضي الله عنه ـ لما خرجوا يستسقون ـ : « اللَّهُمَّ إنا كُنَّا إذا أجدبنا نتوسَّلُ إليك بنبينا فتسقينا ، وإنَّا نتوسلُ إليك بِعَمِّ نبينا »(١١٦) . معناه بدعائه هو ربَّه وشفاعته وسؤاله ، ليس المراد أنا نقسم عليك به ، أو نسألك بجاهه عندك ، إذ لو كان ذلك مراداً ، لكان جاهُ النبيِّ ﷺ أعظمَ وأعظمَ من جاه العباس .

وتارة يقول : باتباعي لرسولك ومحبتي له ، وإيماني به ، وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم ، ونحو ذلك ، فهذا من/أحسن ما يكون في الدعاء والتوسل والاستشفاع .　٤٤/ب

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمالٌ ، غلط بسببه مَنْ لم يفهم

(*) هو حديث مرفوع موضوع كما ذكره الزيلعي : انظر « نصب الراية » ٤/٢٧٣ وانظر تفصيلاً أكثر بموضوع التوسل في كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ص ٤٣٦ وما بعدها من طبعة دار البيان بدمشق .

(١١٦) رواه البخاري ٢/٤١٣ في الاستسقاء : باب سؤال الناس الاستسقاء إذا قحطوا ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

معناه ، فإن أريد به التسببُ به لكونه داعياً وشافعاً ، وهذا في حياته يكون ، أو لكون الداعي محباً له ، مطيعاً لأمره ، مقتدياً به ، وذلك أهلٌ للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسلُ إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبة السائل وإتباعه ، أو يراد به الإقسام به التوسل بذاته ، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونَهَوْا عنه .

وكذلك السؤال بالشيء ، قد يراد به التسبب به ، لكونه سبباً في حصول المطلوب ، وقد يراد به الإقسام به .

وَمِنَ الأول : حديثُ الثلاثة الذين أَوَوْا إلى الغار ، وهو حديثٌ مشهور في « الصحيحين »[117] وغيرهما ، فإن الصخرة انطبقت عليهم ، فتوسَّلُوا إلى الله بذكر أعمالِهم الصالحةِ الخالصةِ ، وكُلٌّ واحد منهم يقول : فإن كُنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ ، فافرُجْ عنَّا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون .

فهؤلاء دَعَوُا الله بصالح الأعمال ، لأن الأعمالَ الصالحة هي أعظمُ ما يَتَوسَّلُ به العبدُ إلى الله ، ويتوجَّه به إليه ، ويسأله به ، لأنه وعد أن يستجيبَ للذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات ، ويزيدهم من فضله .

فالحاصل : أن الشفاعة عند الله [ليست][*] كالشفاعة عند البشر ، فإن الشفيعَ عند البشر كما أنه شافعٌ للطالب شفعه في الطلب ، بمعنى أنه صار شفعاً فيه بعد أن كان وتراً ، فهو أيضاً قد شَفَعَ المشفوع إليه ، وبشفاعته صار فاعلاً للمطلوب ، فقد شَفَعَ الطالب والمطلوب منه ، والله تعالى وِتْرٌ ، لا

---

(١١٧) رواه البخاري ٣٤٠/٤ في البيوع : باب إذا اشترى شيئاً لغيره بغير إذنه فرضي ، وفي الإجارة : باب من استأجر أجيراً فترك أجره فعمل فيه المستأجر فزاد ، وفي الحرث والمزارعة : باب إذا زرع بمال قوم بغير إذنهم ، وفي الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، وفي الأدب : باب إجابة دعاء بر والديه ، ومسلم رقم (٢٧٤٣) في الذكر : باب قصة أصحاب الغار الثلاثة ، وأبو داود رقم (٣٣٨٧) في البيوع : باب في الرجل يتجر في مال الرجل بغير إذنه ، وأحمد في «المسند» ١١٦/٢ ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

يشفعه أحدٌ ، فلا يشفعُ عنده أحدٌ إلّا بإذنه ، فالأمر كُلُّه إليه ، فلا شريك له بوجه . فسيِّدُ الشفعاء يومَ القيامة إذا سَجَدَ وَحَمِدَ الله تعالى ، فقال له الله : « ارْفَعْ رَأْسَكَ ، وقُلْ يُسْمَعْ ، واسْأَلْ تُعْطَ ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ » ، فيحُدُّ له حدّاً فيدخلهم الجنة ، فالأمرُ كُلُّه لله ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ للهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] . وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨]. وقال تعالى : ﴿ ألاَ لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤].

فإذا كان لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه لمن يشاء ، ولكن يُكرم الشفيع بقبول شفاعته ، كما قال ﷺ : « اشْفَعُوا تؤْجَرُوا ، وَيَقْضِي الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّه مَا شَاءَ »(١١٨) .

وفي « الصحيح »(١١٩) : أن النبي ﷺ قال : « يا بَنِي عَبْدَ مَنَافٍ ! لاَ أَمْلِكُ لَكُم مِنَ الله مَنْ شَيْءٍ ، يا صَفِيَّةُ ! يا عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ لاَ أَمْلِكُ لَكِ مِنَ الله مَنْ شَيْءٍ ، يا عَبَّاسُ عَمَّ رَسُولِ الله ، لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شيءٍ » .

وفي « الصحيح »(١٢٠) أيضاً عن النبيِّ ﷺ : « لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُم يأتي يَوْمَ

---

(١١٨) رواه البخاري ٢٣٨/٣ في الزكاة : باب التحريض على الصدقة ، وفي الأدب : باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً ، وباب قول الله تعالى : ﴿من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها﴾ وفي المساجد : باب تشبيك الأصابع في المسجد ، وفي المظالم : باب نصر المظلوم ، ومسلم رقم (٢٦٢٧) في البر والصلة : باب استحباب الشفاعة ، وأبو داود رقم (٥١٣١) في الأدب : باب في الشفاعة ، والترمذي رقم (٢٦٧٤) في العلم : باب الدال على الخير كفاعله ، والنسائي ٧٨/٥ في الزكاة : باب الشفاعة في الصدقة ، وأحمد في « المسند » ٤/ ٤٠٠ و ٤٠٣ و ٤٠٩ ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(١١٩) رواه البخاري ٣٨٦/٨ في تفسير سورة الشعراء : باب قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ ، ومسلم رقم (٢٠٤) في الإيمان : باب قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ والترمذي رقم (٣١٨٤) في التفسير : باب ومن سورة الشعراء ، والنسائي ٢٤٨/٦ في الوصايا : باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين ، وأحمد في «المسند» ٣٣٣/٢ و ٣٥٠ و ٣٦٠ و ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٥١٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه مسلم رقم (٢٠٥) والترمذي (٢٣١١) و (٣١٨٣) ، وأحمد في «المسند» ١٨٧/٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(١٢٠) رواه البخاري ١٢٩/٦ في الجهاد : باب الغلول ، وقول الله عز وجل ﴿ومن يغلل يأت بما غل =

القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ ، أو شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ ، أو رِقَاعٌ تَخْفِقُ ، فَيَقُولُ : أَغِثْنِي أَغِثْنِي ، فَأَقُولُ : قَدْ أَبْلَغْتُكَ ، لاَ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله مِنْ شَيْء » .

فإذا كان سيدُ الخلقِ وأفضلُ الشفعاء يقول لأخصِّ الناسِ به : « لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شيئاً » فما الظن بغيره ؟ وإذا دعاه الداعي ، وشَفع عنده الشفيعُ ، فسمع الدعاءَ ، وقبِل الشفاعة ، لم يكن هذا هو المؤثِّر فيه كما يُؤثِّر المخلوقُ في المخلوق ، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع ، وهو الخالِقُ لأفعال العباد ، فهو الذي وفَّق العبدَ للتوبة ثم قَبِلَهَا ، وهو الذي وفَّقه للعمل ثم أثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه ، وهذا مستقيمٌ على أصولِ أهل السنة المؤمنين بالقدَر ، وأن الله خالق كل شيء .

* * *

قوله : وَالمِيثَاقُ الَّذِي أَخَذَهُ الله تَعَالَى مِنْ آدَمَ وَذُرِّيتِهِ حَقٌّ .

قال تَعالَى : ﴿ وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنْفُسِهِم أَلَسْتُ بَرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ يَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعرافِ : ١٧٢] . أخبر سبحانه أنه استخرج ذريةَ بني آدَمَ مِن أصلابهم شاهِدِين على أنفسهم أن الله رَبُّهُمْ ومليكُهم وأنه لا إِلٰه إلَّا هو .

وقد وردت أحاديثُ في أخذ الذُّرِّيَّةِ من صُلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين ، وإلى أصحاب الشمال ، وفي بعضها الإشهاد

= يوم القيامة﴾ ، ومسلم رقم (١٨٣١) في الإمارة : باب غلظ تحريم الغلول ، وأحمد في «المسند» ٢/٤٢٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

عليهم بأن الله ربهم :

فمنها : ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ ، قال : « إنَّ الله أَخذَ المِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَيهِ السَّلامُ بِنعمان يَوْمَ (*) عَرفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرأَهَا ، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيهِ ، ثُمَّ كَلَّمَهُم قِبَلاً ، قَالَ : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا : بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ أو تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المُبْطِلُونَ ﴾ ، ورواه النسائي/أيضاً وابنُ جرير ، وابنُ أبي حاتم ، والحاكمُ في « المستدرك » ، وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه[121] .

٤٥/أ

وروى الإمام أحمد أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه سُئِل عن هٰذه الآية ، ﴿ وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ فقال عمر : « سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنْهَا ، فَقَالَ : إِنَّ الله خَلَقَ آدَمَ ، ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ بِيَمِينِهِ واسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً ، فَقَالَ : خَلَقْتُ هٰؤُلاءِ لِلجَنَّةِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ يَعْمَلُونَ . ثُمَّ مَسَحَ ظَهْرَهُ ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيَّةً قَالَ : خَلَقْتُ هؤلاَءِ لِلنَّارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ يَعْمَلُونَ. فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله ، فَفِيمَ العَمَلُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : [إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ](**) إذا خَلَقَ العَبْدَ لِلجَنَّةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَيَدْخُلُ به الجَنَّةَ ، وإذا خَلَقَ العَبْدَ لِلنَّارِ استَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، حَتَّى يَمُوتَ عَلَى

(*) في « المسند » يعني ، بدل قوله : يوم . و« نعمان » : جبل بقرب عرفة .

(**) الزيادة من المسند .

(١٢١) رواه أحمد في « المسند » ١/٢٧٢ ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما واسناده حسن ، وصححه الحاكم في « المستدرك » ٢/٣٢٥ ، ووافقه الذهبي ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٧/٢٥ وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

عَمَلٍ مِنْ أَعْمالِ أَهْلِ النَّارِ فَيُدْخِلُ به النَّارَ » . ورواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابنُ جرير ، وابنُ حبان في « صحيحه »(١٢٢) .

وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَه ، فَسَقَطَ [من ظهره] كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَي كُلِّ إنسَانٍ مِنْهُمْ وَبيصاً مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هٰؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ ، فَرَأَى رَجُلاً مِنْهُم ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، فَقَالَ : أَيْ رَبِّ ، مَنْ هٰذا ؟ قَالَ : هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ : دَاودُ قَالَ : ربِّ ، وكم عُمرُهُ ؟ قَالَ : سِتُّون سَنَةً ، قَالَ : أَيْ رَبِّ ، زِدْهُ مِنْ عُمُري أَرْبعِينَ سَنَةً ، فَلَمَّا انقضَى عُمُرُ آدَمَ ، جَاءَه مَلَكُ المَوْتِ، قَالَ: أَوَ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَوَ لَمْ تُعْطِهَا ابنك دَاودَ ؟ قَالَ فَجَحَدَ ! فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَنَسِيَ آدَمُ ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ ، وَخَطِىءَ آدَمُ ، فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ » . ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحاكم، وقال: صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه(١٢٣) .

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي

---

(١٢٢) رواه أحمد في «المسند» ١/٤٤ ـ ٤٥ ، وأبو داود رقم (٤٧٠٣) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٣٠٧٧) في التفسير : باب ومن سورة الأعراف ، والنسائي في «الكبرى» ومالك في «الموطأ» ٢/٨٩٨ ـ ٨٩٩ في القدر : باب النهي عن القول بالقدر ، والطبري رقم (١٥٣٥٧) وصححه ابن حبان في «صحيحه» رقم (١٨٠٤) ، والحاكم ٢/٣٢٤ ـ ٣٢٥ ووافقه الذهبي وقال الترمذي : حديث حسن ، ومسلم ابن يسار لم يسمع من عمر ، وقد ذكر بعضهم هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وعمر رجلاً . وهو حديث صحيح بشواهده .

(١٢٣) رواه الترمذي رقم (٣٠٧٨) في التفسير : باب ومن سورة الأعراف ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وقد روي من غير وجه عن النبي ﷺ ، وأخرجه الحاكم في « المستدرك » ٢/٣٢٥ وقال : صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي .

ﷺ ، قال : « يُقَالُ لِلرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ : أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ ، أَكُنْتَ مُفْتَدِياً بِهِ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَيَقُولُ : قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ في ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بي شَيْئاً فَأَبَيْتَ إِلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِيَ » . وأخرجاه في « الصحيحين » أيضاً(١٢٤) .

وفي ذلك أحاديثَ أخرى أيضاً كُلُّها دالةٌ على أن الله استخرج ذريةَ آدم من صلبه ، وميَّزَ بيـن أهل النار وأهل الجنة .

ومن هنا قال من قال : إن الأرواح مخلوقة قبل الأجساد ، وهٰذه الآثار لا تدل على سبق الأرواح الأجساد سبقاً مستقراً ثابتاً ، وغايتُها أن تَدُلَّ على أن بارئَها وفاطرَها سبحانه صوَّر النسمةَ وقدَّر خلقَها وأجلَها وعملَها ، واستخرج تلك الصورَ مِن مادتها ، ثم أعادها إليها ، وقدَّر خروجَ كُلِّ فرد من أفرادها في وقته المُقدَّر له ، ولا يدل على أنها خلقت خلقاً مستقراً واستمرت موجودة ناطقة كلها في موضع واحد ، ثم يرسل منها إلى الأبدان جملة بعد جملة ، كما قالهُ ابنُ حزم . فهذا لا تَدُلُّ الآثار عليه . نعم الربُّ سبحانه يخلُق منها جملة بعـد جملة ، كما قـاله عـلى الوجـه الـذي سبق بـه التقـديـر(*) أولاً ، فيجيء الخلق الخارجي مطابقاً للتقدير السابق ، كشأنه سبحانه في جميع مخلوقاتِه ، فإنه قدَّر لها أقداراً وآجالاً وصفات وهيآت ، ثم أبرزها إلى الوجود مطابقة لذلك التقدير السابق .

فالآثارُ المروية في ذٰلك إنما تَدُلُّ على القدر السابق ، وبعضُها يدل

---

(١٢٤) أحمد في « المسند » ٣/ ١٢٧ و ١٢٩ وهو في البخاري ٦/ ٢٦٢ في الأنبياء : باب خلق آدم وذريته ، و١١/٣٦٧ في الرقاق : باب صفة الجنة والنار ، ومسلم رقم (٢٨٠٥) في المنافقين : باب طلب الكافر الفداء بملء الأرض ذهباً .

(*) في الأصل التدبير والتصحيح من مطبوعة مكة .

على أنه سبحانه استخرج أمثالهم وصُورَهم ، وميَّز أهلَ السعادة من أهل الشقاوة .

وأما الإشهادُ عليهم هناك ، فإنما هو في حديثين موقوفين على ابن عباس وعمرو رضي الله عنهم ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه . ومعنى قوله ﴿ شهدنا ﴾ : أي قالوا : بلى شهدنا أنك ربنا ، وهذا قولُ ابن عباس وأبيّ بن كعب .

وقال ابن عباس أيضاً : أشهد بعضَهم على بعض ، وقيل : ﴿ شهدنا ﴾ من قول الملائكة ، والوقف على قوله ﴿ بلىٰ ﴾ .

وهذا قولُ مجاهد والضحاك والسدي أيضاً : هو خبر من الله تعالى عن نفسه وملائكته أنهم شهدوا على إقرار بني آدم ، والأول أظهر ، وما عداه احتمال لا دليل عليه ، وإنما يشهد ظاهر الآية للأول .

٤٥/ب واعلم/أن مِن المفسرين مَنْ لم يَذْكُرْ سوى القولِ بأن الله استخرج ذرية آدم من ظهره ، وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم ، كالثعلبي(*) والبغوي(**) وغيرهما .

ومنهم من لم يذكره ، بل ذكر أنه نصب لهم الأدلةَ على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولُهم وبصائرُهم التي رَكَّبَهَا الله فيهم ، كالزمخشري وغيره .

(*) هو أبو اسحاق أحمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي النيسابوري ، المفسر ، المقرىء ، الواعظ ، توفي سنة ٤٢٧ هـ ، من تصانيفه : « الكشف والبيان عن تفسير القرآن » و « العرائس في قصص الأنبياء » و « ربيع المذكرين » .

(**) هو أبو محمد الحسين بن مسعود المعروف بالفرّاء ، البغوي ، الشافعي ، فقيه ، محدث ، مفسر ، توفي سنة ٥١٦ هـ بـ « مرورذ » ، من تصانيفه « التهذيب » في الفقه ، و « شرح السنة » في الحديث وقد حققه الشيخ شعيب الأرناؤوط في ١٦ مجلد ، و « معالم التنزيل » في تفسير القرآن الكريم ، و « كتاب المصابيح » و « الجمع بين الصحيحين ، » و « شمائل النبي لمختار » وعيرها .

ومنهم من ذكر القولين ، كالواحدي(*) والرازي والقرطبي وغيرهم .

لكن نسب الرازيُّ القولَ الأوَّل إلى أهل السنة ، والثاني إلى المعتزلة .

ولا ريبَ أن الآية لا تدل على القول الأول ، أعني أن الأخذَ كان مِن ظهر آدم ، وإنما فيها أن الأخذَ من ظهور بني آدم ، وإنما ذكر الأخذ مِن ظهر آدم والإشهاد عليهم هناك في بعض الأحاديث .

وفي بعضِها الأخذ ، والقضاء بأن بعضَهم الى الجنة وبعضهم إلى النار ، كما في حديث عمر رضي الله عنه وفي بعضها الأخذ وإيرآةُ آدم إياهم من غير قضاء ولا إشهاد ، كما في حديث أبي هريرة . والذي فيه الإشهاد ـ على الصفة التي قالها أهل القول الأول ـ موقوفٌ على ابن عباس وابن عمرو رضي الله عنهم ، وتكلَّم فيه أهلُ الحديث ، ولم يخرجه أحد مِن أهل الصحيح غير الحاكم في « المستدرك على الصحيحين » والحاكم معروف بتساهله رحمه الله .

والذي فيه القضاء بأن بعضَهم إلى الجنة وبعضَهم إلى النار دليل على مسألة القدَر ، وذلك شواهده كثيرة ، ولا نِزاع فيه بين أهل السنة ، وإنما يُخالف فيه القدرية المبطلون المبتدعون .

وأما الأول : فالنزاع فيه بين أهلِ السنة من السلف والخلف ، ولولا ما التزمتُه من الاختصار ، لبسطتُ الأحاديث الواردة في ذلك ، وما قيل من الكلام عليها ، وما ذُكِرَ فيه من المعاني المعقولة ، ودلالة ألفاظ الآية الكريمة .

قال القرطبي : وهٰذه الآية مشكلة ، وقد تكلَّم العلماءُ في تأويلها ، فنذكر ما ذكروه من ذلك حسب ما وقفنا عليه .

(*) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّوية الواحدي ، مفسر ، لغوي ، نحوي ، فقيه أصله من « ساوه » ، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل توفي سنة ٤٦٨ هـ ومن تصانيفه : « البسيط » في تفسير القرآن الكريم ، و « الوسيط » و « الوجيز » ، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة . وله كتاب « أسباب النزول » و « التحبير في أسماء الله تعالى الحسنى » وغيرها .

فقال قوم : معنى الآية أن الله أخرج من ظهور بني آدم بعضهم من بعض ، قالوا : ومعنى ﴿ أَشْهَدَهُم عَلَىٰ أَنفُسِهِم أَلَسْتُ بِرَبِّكُم ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . دلَّهم على توحيده ، لأن كُلَّ بالغ يعلم ضرورة أن له ربّاً واحداً . قال : فقام ذلك مقام الإشهاد عليهم كما قال تعالى في السماوات والأرض : ﴿ قَالَتَا أَتَيْنا طَائِعِينَ﴾ ، ذهب إلى هذا القفَّال(*) وأطنب .

وقيل : إنه سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد ، وأنه جعل فيها من المعرفة ما علمت به ما خاطبها .

ثم ذكر القرطبيُّ بعد ذلك الأحاديث الواردة في ذلك ، إلى آخر كلامه .

وأقوى ما يشهد لصحة القول الأول : حديثُ أنس المخرج في « الصحيحين »(**) الذي فيه : « قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذٰلِكَ ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً ، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي » . ولكن قد رُوي من طريق أخرى : « قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلَ ، فَيُرَدُّ إِلَىٰ النَّارِ » وليس فيه : في ظهر آدم ، وليس في الرواية الأولى إخراجُهم من ظهر آدم على الصفة التي ذكرها أصحاب القول الأول .

بل القول الأول متضمن لأمرين عجيبين :

أحدهما : كونُ الناس تكلموا حينئذ ، وأقرُّوا بالإيمان ، وأنه بهذا تقومُ الحجة عليهم يَوْمَ القيامة .

والثاني : أن الآية دلت على ذلك ، والآية لا تدل عليه لوجوه :

(*) هو أبو بكر محمد بن علي بن اسماعيل الشاشي ، القفال ، ولد سنة ٢٩١ هـ ، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب ، وشيخ الشافعية في بلاد ما وراء النهر . توفي رحمه الله سنة ٣٦٥ هـ ، من تصانيفه : « أصول الفقه » و « محاسن الشريعة » و « شرح رسالة الشافعي » .

(**) تقدم تخريجه ص ٢٤٠ رقم ١٢٤ .

أحدهما : أنه قال : ﴿ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ، ولم يقل : من آدم وبنو آدم ، غير آدم .

الثاني : أنه قال : ﴿ من ظهورهم ﴾ ، ولم يقل : من ظهره ، وهذا بدل بعض من كل ، أو بدل اشتمال ، وهو أحسن .

الثالث : أنه قال : ﴿ ذرياتهم ﴾ ولم يقل : ذريته .

الرابع : أنه قال : ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، ولا بد أن يكونَ الشاهدُ ذاكراً لما شهد به ، وهو إنما يذكر شهادته بعد خروجه إلى هذه الدار ـ كما تأتي الإشارة إلى ذلك ـ لا يذكر شهادة قبلها .

الخامس : أنه سبحانه أخبر أن حكمة هذا الإشهاد إقامةُ الحجة عليهم ، لئلا يقولُوا يومَ القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ ﴾ ، والحجة إنما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فُطِرُوا عليها ، كما قال تعالى : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

السادس : تذكيرُهم بذلك ، لئلا يقولوا يومَ القيامة : ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، ومعلوم أنهم غافلون عن الإخراج لهم من صُلب آدم كلهم وإشهادهم جميعاً ذلك الوقت ، فهذا لا يذكره أحد منهم .

٤٦/أ السابع : قوله تعالى : ﴿ أو تَقُولُوا إِنَّما/أَشْرَكَ آباؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِم ﴾ [الأعراف : ١٧٣] ، فذكر حِكمتين في هذا الإشهاد : أن لا يَدَّعوا الغفلة ، أو يدَّعوا التقليدَ ، فالغافلُ لا شعور له ، والمقلِّد متبع في تقليده لغيره ، ولا تترتبُ هاتان الحِكمتانِ إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة .

الثامن : قوله ؛ ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٣] ، أي لو عذَّبهم بجحودهم وشركهم ، لقالوا ذلك ، وهو سبحانه إنما يُهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم ، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن لِيهلك القُرى بظلم وأهلُها غافلون ، وإنما يُهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل .

التاسع : أنه سبحانه أشهد كلَّ واحد على نفسه أنه ربُّه وخالقه ، واحتجَ عليه بهذا الإشهاد في غيرِ موضع من كتابه ، كقوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، فهٰذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها ، وذكَّرتهم بها رسلُه ، بقولهم : ﴿ أَفي اللهِ شَكٌّ فَاطِرَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ١٠] .

العاشر: أنه جعل هذا آية، وهي الدلالة الواضحةُ البيّنة المستلزمة لمدلولها وهذا شأنُ آيات الرب تعالى ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٤] ، وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله ، فما مِن مولود إلا يُولد على الفطرة ، لا يُولد مولود على غير هٰذه الفطرة ، هذا أمر مفروغ منه ، لا تبديلَ ولا تغييرَ . وقد تقدمت الإشارة إلى هذا . والله أعلم .

وقد تفطَّن لهذا ابنُ عطية(*) وغيرهُ ، ولكن هابوا مخالفة ظاهرِ تلك الأحاديث التي فيها التصريحُ بأن الله أخرجهم وأشهدهم على أنفسهم ثم أعادهم ، وكذلك حكى القولين الشيخُ أبو منصور الماتُريدي في « شرح التأويلات » ورجح القول الثاني ، وتكلم عليه ، ومال إليه .

ولاشك أن الإقرارَ بالربوبية أمر فطري ، والشرك حادث طارىء ، والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا احتجُّوا يومَ القيامة بأن الآباء أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناسُ على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن ، يقال لهم : أنتم كنتم معترفين بالصانع ، مقرِّين بأن اللهَ ربُّكم لا شريكَ له ، وقد شهدتم بذلك على أنفسكم ، فإن شهادة المرء على نفسه هي إقرارُه بالشيء ليس

(*) عرف بهذا الاسم اثنان من المفسرين الأول ويعرف بالمتقدم وهو أبو محمد عبد الله بن عطية بن عبد الله بن حبيب من أهل دمشق وله « تفسير ابن عطية » مخطوط توفي سنة ٣٨٣ والثاني متأخر وهو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي ، مفسر ، فقيه ، من أهل غرناطة . من تصانيفه : « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » مطبوع ولد سنة ٤٨١ هـ وكانت وفاته سنة ٥٤٢ هـ .

إلا ، قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النساء : ١٣٥] . وليس المرادُ أن يقول : أشهدُ على نفسي بكذا ، بل من أقرَّ بشيء ، فقد شَهِدَ على نفسه به ، فَلِمَ عدلتم عن هٰذه المعرفة والإقرار الذي شهدتُم به على أنفسكم إلى الشرك ؟ بل عدلتم عن المعلوم المتيقن إلى ما لا يُعلم له حقيقة ، تقليداً لمن لا حجة معه ، بخلاف اتباعهم في العادات الدنيوية ، فإن تلك لم يكن عندكم ما يعلم به فسادُها ، وفيه مصلحةٌ لكم ، بخلاف الشرك ، فإنه كان عندكم مِن المعرفة والشهادة على أنفسكم ما يُبيِّنُ فسادَه وعدولَكم فيه عن الصواب .

فإن الدينَ الذي يأخذُه الصبيُّ عن أبويه هو دينُ التربيةِ والعادةِ ، وهو لأجل مصلحة الدنيا ، فإن الطفل لا بدّ له من كافل ، وأحقُّ الناس به أبواه ، ولهذا جاءت الشريعةُ بأن الطفلَ مع أبويه على دينهما في أحكام الدنيا الظاهرة ، وهذا الدينُ لا يُعاقبه الله عليه ـ على الصحيح ـ حتى يَبْلُغَ ويعقِلَ وتقومَ عليه الحجةُ ، وحينئذ فعليه أن يتَّبعَ دينَ العلم والعقل ، وهو الذي يعلمُ بعقله هو أنه دينٌ صحيح ، فإن كان آباؤه مهتدين ، كيوسف الصديق مع آبائه ، قال : ﴿ واتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائي إبرَاهِيمَ وإِسْحَـٰقَ ويَعْقُوبَ ﴾ [يوسف : ٣٨] ، وقال ليعقوبَ بنوه : ﴿ نَعْبُدُ إلٰهَكَ وإلٰهَ آبائِكَ إبْرَاهِيمَ وإسمَاعِيلَ وإِسْحَـٰقَ ﴾ [البقرة : ١٣٣] ، وإن كان الآباء مخالفين الرسل ، كان عليه أن يتَّبعَ الرسلَ ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصيَّنَا الإِنسانَ بِوَالِدَيْه حُسْناً وإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية [العنكبوت : ٨] .

فمن اتبع دينَ آبائه بغير علم وبصيرة ، بل يَعْدِلُ عنِ الحقِّ المعلوم إليه ، فهذا اتبع هواه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ الله قَالُوا بل نَتَّبِعُ ما أَلفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَوَ لَوْ كَانَ آباؤُهم لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] .

وهٰذه حالُ كثير من الناس من الذين وُلِدُوا على الإسلام ، يتبع أحدهم أباه

فيما كان عليه مِن اعتقاد ومذهب ، وإن كان خطأ ليس هو فيه على بصيرة ، بل هو من مُسلِمة الدار ، لا مُسْلِمَة الاختيار ،/ وهذا إذا قيل له في قبره : مَنْ رَبُّكَ ؟ ٤٦/ب
قال : هاه هاه ، لا أدري ، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئاً فقُلته .

فليتأمَّل اللبيبُ هذا المحلَّ ، وليَنْصَحْ نفسه ، وليقم معه ، ولينظرْ من أي الفريقين هو ؟ والله الموفق .

فإن توحيدَ الربوبية لا يحتاج إلى دليل ، فإنه مركوز في الفِطَر ، وأقربُ ما ينظر فيه المرءُ أمر نفسه لمَّا كان نُطفَةً ، وقد خرج مِنْ بين الصُّلب والترائب ، والترائب : عظام الصدر ، ثم صارت تلك النطفة في قرار مكين ، في ظلمات ثلاث ، وانقطع عنها تدبيرُ الأبوين وسائر الخلائق ، ولو كانت موضوعة على لوح أو طبق ، واجتمع حكماءُ العالم على أن يُصوِّروا منها شيئاً لم يقدروا .

ومحال توهمُ عملِ الطبائع فيها ، لأنها مواتٌ عاجزة ، ولا تُوصف بحياة ، ولن يتأتى مِن الموات فعلٌ وتدبير ، فإذا تَفَكَّر في ذلك ، وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال(*) ، عَلِمَ بذلك توحيدَ الربوبية ، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية ، فإنَّه إذا علم بالعقل أن له ربَّاً أوجده ، كيف يليقُ به أن يَعْبُدَ غيره ؟ وكلما تفكَّر وتدبر ، ازداد يقيناً وتوحيداً ، والله الموفق ، لا ربَّ غيره ، ولا إله سواه .

* * *

قوله : وَقَدْ عَلِمَ اللهُ تَعَالَىٰ فِيمَا لَمْ يزَلْ عَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ ، وَعَدَدَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ ، جُمْلَةً وَاحِدَةً ، فَلاَ يَزْدَادُ في ذٰلِكَ العَدَدُ وَلاَ يَنْقُصُ مِنْهُ ، وَكَذٰلِكَ أَفْعَالُهُمْ فِيمَا عَلِمَ مِنْهُم أَنْ يَفْعَلُوهُ .

(*) كما قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِين * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِين * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ـ ١٤] .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٥] . ﴿ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٤٠] . فالله تَعَالَى موصوف بأنه بكل شيء عليم أزلاً وأبداً ، لم يتقدم علمَه بالأشياء جهالةٌ ﴿ وما كان ربُّكَ نسيًّاً ﴾ .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قَالَ : كُنَّا في جَنَازَةٍ في بقيع الغَرْقَد ، فأتانا رَسُولُ الله ﷺ ، فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، وَمَعَهُ مخْصَرَةٌ ، فَنكَّسَ رَأسَهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمخْصَرتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلاَّ وَقَدْ كَتَبَ الله مَكَانَها مِنَ الجَنَّةِ والنَّارِ ، وإلاَّ قد كُتِبَتْ شَقِيَّةً أو سَعيدةً ، قَالَ : فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ الله ! أَفَلا نَمْكُثُ على كِتَابِنَا وَنَدَعُ العَمَلَ ؟ فَقَالَ : مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، فَسَيَصِيرُ إلى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إلى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَة . ثُمَّ قَالَ : اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بالحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بالحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ ، خرجاه في « الصحيحين »[١٢٥] .

* * *

قوله : وكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ ، والأَعْمَالُ بِالخَواتِيمِ ، والسَّعِيدُ مَنْ سَعِدَ بِقَضَاءِ الله ، والشقي مَنْ شقي بِقَضَاءِ الله .

---

(١٢٥) رواه البخاري ٣/١٧٩ في الجنائز : باب موعظة المحدث عند القبر ، وقعود أصحابه حوله ، و٨/٥٤٤ في تفسير سورة الليل ، وفي الأدب : باب الرجل ينكث الشيء بيده في الأرض ، وفي القدر : باب ﴿وكان أمر الله قدراًمقدوراً﴾ ،وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر﴾ ، ومسلم رقم (٢٦٤٧) في القدر : باب كيفية الخلق الآدمي ، وأبو داود رقم (٤٦٩٤) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢١٣٧) في القدر : باب ما جاء في الشقاء والسعادة ، ورقم (٣٣٤١) في التفسير : باب ومن سورة ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ، وأحمد في « المسند » ١/١٢٩ و١٣٢ و١٤٠ و١٥٧ ، وابن ماجه رقم (٧٨) في المقدمة : باب في القدر .

تقدم حديث علي رضي الله عنه وقوله ﷺ : « اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ(*) » .

وعن زهير ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، جاء سُرَاقَةُ بِنُ مالكِ بن جُعْشُمٍ ، فقال: «يا رَسُولَ الله ! بَيِّنْ لَنا دِينَنا كَأَنَّا خُلِقْنَا الآنَ ، فِيمَ العَمَلُ اليَوْمَ؟ أَفِيمَا جَفَّتْ بِهِ الأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ، أَم فيما نَسْتَقْبِلُ ؟ قَالَ : لاَ ، بل فيما جَفَّتْ بِهِ الأَقْلامُ ، وَجَرَتْ بِهِ المَقَادِيرُ ، قَالَ : ففيم العَمَلُ ؟ قالَ زُهَيرٌ : ثُمَّ تَكَلَّمَ أبو الزُّبَيرِ بِشَيءٍ لَمْ أَفْهَمْهُ ، فَسَأَلْتُ : مَا قَالَ ؟فقَالَ : اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ » . رواه مسلم(١٢٦) .

وعن سهل بن سَعْدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ » ، خرجاه في « الصحيحين »(١٢٧) .

وزاد البخاري(**) : « وإنَّما الأَعْمَالُ بالخَوَاتيم » .

وفي « الصحيحين »(١٢٨) أيضاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ،

(*) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة .

(١٢٦) رقم (٢٦٤٨) في القدر : باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه ، وأحمد في « المسند » ٣/٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(١٢٧) قطعة من حديث رواه البخاري ٦/٦٦ في الجهاد : باب لا يقال فلان شهيد ، وفي المغازي : باب غزوة خيبر ، وفي الرقاق : باب الأعمال بالخواتيم، ومسلم رقم (١١٢) في الإيمان : باب غلط قتل الإنسان نفسه ، وأحمد في « المسند » ٥/٣٣٢ .

(**) ١١/٤٣٦ في القدر : باب العمل بالخواتيم .

(١٢٨) رواه البخاري ٦/٢٢٠ في بدء الخلق : باب ذكر الملائكة و٦/٢٦٢ في الأنبياء : باب خلق آدم وذريته ، و١١/٤١٦ ـ ٤٢٦ في القدر : في فاتحته ، و١٣/٣٧٠ في التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ ، ومسلم رقم (٢٦٤٣) في القدر : باب كيفية الخلق لآدمي في بطن =

قال : حدثنا رسولُ الله ﷺ ـ وهو الصَّادِقُ المصدُوق ـ : « إنَّ أَحَدَكُم يُجْمِعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أمِّه أَرْبَعِينَ يَوْماً نُطْفَةً ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذٰلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذٰلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ إِلَيْهِ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ ، ويُؤمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِي أم سَعِيد ، فَوالَّذِي لَا إِلَه غَيْرُهُ ، إنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَها إلا ذِراعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ/فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُها ، وإنَّ أَحَدَكُم لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَه وَبَيْنَها إلا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُها » ،

٤٧/أ

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف . قال أبو عمر ابن عبد البر(*) في « التمهيد » : قد أكثر الناسُ من تخريج الآثار في هذا الباب ، وأكثَر المتكلمون مِن الكلام فيه ، وأهلُ السنة مجتمِعُون على الإيمان بهٰذه الآثار واعتقادها ، وتركِ المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق .

* * *

قوله : وأَصْلُ القَدَرِ سِرُّ الله تَعَالَى في خَلْقِهِ ، لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى ذٰلِكَ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ ، والتَّعَمُّقُ والنَّظَرُ في ذٰلِكَ ذَرِيعَةُ الخِذْلَانِ ، وسُلَّمُ الحِرْمَانِ ، وَدَرَجَةُ الطُّغْيَانِ ،فالحَذَرَ كُلَّ الحَذَرِ مِنْ ذٰلِكَ نَظَراً وَفِكْراً وَوَسْوَسَة ، فَإِنَّ الله تعالى طَوَى عِلْمَ القَدَرِ عَنْ

= أمه ، وأبو داود رقم (٤٧٠٨) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢١٣٨) في القدر : باب ما جاء أن الأعمال بالخواتيم ، وابن ماجه رقم (٧٦) في المقدمة : باب في القدر .

(*) هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري الأندلسي ، القرطبي ، المالكي ، حافظ ، محدث ، مؤرخ ، مقرىء ، ولد بقرطبة سنة ٣٦٨ هـ ، وتوفي في شاطبة ـ شرقي الأندلس ـ سنة ٤٦٣ هـ من تصانيفه : « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » و « التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» و « جامع بيان العلم وفضله » وغيرها .

أَنَامِهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَرَامِهِ ، كَما قَالَ تعَالَى في كِتَابِهِ : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . فَمَـنْ سَأَلَ : لِمَ فَعَل ؟ فَقَدْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَاب ، وَمَنْ رَدَّ حُكْمَ الكِتَابِ ، كَانَ مِنَ الكَافِرِينَ .

أصل القدر سِرُّ الله في خلقه ، وهو كونُه أوجد وأفنى ، وأفقر وأغنى ، وأمات وأحيا ، وأضلَّ وهدى. قال علي رضي الله عنه : القدرُ سر الله ، فلا تكشِفُه .

والنزاعُ بين الناس في مسألة القدر مشهور ، والذي عليه أهلُ السنة والجماعة : أن كل شيءٍ بقضاء الله وقدره ، وأن الله تعالى خالقُ أفعالَ العباد . قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] . وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] . وأن الله تعالى يُريد الكفرَ مِن الكافر ويشاؤه ، ولا يرضاه ولا يُحبُّه ، فيشاؤه كوناً ، ولا يرضاه ديناً .

وخالف في ذلك القَدَرِيّة والمعتزلة ، وزعمُوا أن الله شاء الإيمانَ من الكافر ، ولكنَّ الكافر شاءَ الكفر ، فردوا إلى هذا لئلا يقولوا : شاء الكفر من الكافر ، وعذَّبه عليه ! ولكن صارُوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ! فإنهم هربُوا مِن شيء ، فوقعوا فيما هو شرٌّ منه ، فإنه يلزم أن مشيئةَ الكافر غلبت مشيئة الله تعالى ، فإنَّ الله قد شاء الإيمانَ منه ـ على قولهم ـ والكافر شاء الكفر ، فوقعتْ مشيئةُ الكافر دون مشيئة الله تعالى ! وهذا مِن أقبح الاعتقاد ، وهو قولٌ لا دليل عليه ، بل هو مخالف للدليل .

روى اللالكائي(*) ، من حديث بقية ، عن الأوزاعي ، حدثنا العلاء بن

(*) هو أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي ، الرازي . حافظ ، متكلم ، محدث ، من فقهاء الشافعية . قدم بغداد واستوطنها ، وتوفي بـ « الدينور » سنة ٤١٨ هـ من تصانيفه : =

الحجاج ، عن محمد بن عبيد المكي : عن ابن عباس رضي الله عنهما إن رجلاً قَدِمَ علينا يكذّب بالقدر ، فقال : دلُوني عليه ، وهو يومئذ أعمىٰ ، فقالوا له : ما تصنعُ به ؟ فقال : والذي نفسي بيده ، لئن استمكنتُ منه لأعضَّنَّ أنفه حتى أقطعه ، ولئن وقعت رقبتُه بيدي لأدُقَّنَّها ، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : كأَنِّي بِنِسَاءِ بَنِي فِهْرٍ يَطُفْنَ بالخَزْرَجِ ، تَصْطَك أَلْيَاتُهُنَّ مُشْرِكَاتٍ ، هٰذا أَوَّلُ شِرْكٍ في الإِسْلَامِ ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَنْتَهِيَنَّ بِهِم سُوءُ رَأيِهِمْ حَتَّى يُخْرِجُوا الله مِنْ أَنْ يُقَدِّرَ الخَيْرَ ، كَمَا أَخْرَجُوه مِنْ أَنْ يُقَدِّرَ الشَّرَ »(١٢٩) .

قوله: وهذا أول شرك في الإسلام . . . إلى آخره،من كلام ابن عباس رضي الله عنهما . وهذا يُوافق قوله : القدر نظام التوحيد ، فمن وحَّد الله وكذَّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه . وروى عمرو بن الهيثم قال : خرجنا في سفينة ، وصحبنا فيها قَدَرِيٌّ ومجوسي ، فقال القَدَرِيُّ للمجوسي :[أسلم](*)، قال المجوسي : حتى يُريدَ الله ، فقال القدري : إنَّ الله يُريد ، ولكن الشيطان لا يُريد ! قال المجوسي : أراد الله وأراد الشيطانُ ، فكان ما أراد الشيطانُ ! هذا شيطانٌ قوي !! وفي رواية أنه قال : فأنا مع أقواهما !!

ووقف أعرابي على حلْقة فيها عمرو بن عبيد(**)، فقال : يا هٰؤلاء إن

« مذاهب أهل السنة » و « كتاب رجال الصحابة » و « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة » ، و « كرامات أولياء الله » وغيرها . =

(١٢٩) رواه أحمد في « مسند » ١ / ٣٣٠ ، والآجري في « الشريعة » ص ٢٣٨ وإسناده ضعيف لضعف العلاء بن الحجاج فإنه مجهول ، لم يوثقه أحد ، وضعفه الأزدي كما قال الحافظ الذهبي وقوله : تصطك ، ليست في « المسند » ، بل جاء فيه : « تصطفق » .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(**)هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب البصري المعتزلي ، المتكلم . وكان شيخ المعتزلة في وقته . ولد سنة ٨٠ هـ وتوفي سنة ١٤٤ هـ وهو راجع من مكة بموضع يقال له : مران . ورثاه الخليفة المنصور ، قال يحيى بن معين : كان من الدهرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع . من تصانيفه : « كتاب التفسير » عن الحسن البصري ، و « الرد على القدرية » و « كتاب في العدل والتوحيد » .

ناقتي سُرقت ، فادعوا الله أن يَرُدَّها علي ، فقال عمرو بن عبيد : اللهم إنك لم تُرد أن تُسرق ناقتُه فسرقتْ ، فارْدُدْها عليه ! فقال الأعرابيُّ : لا حاجة لي في دعائك ! قال : وَلِمَ ؟ قال : أخافُ ـ كما أراد أن لا تُسرق فسرقتْ ـ أن يريد ردَّها فلا تُرد ! !

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني(*) : أرأيتَ إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذَّبني ، أيكون منصفاً ؟ فقال له أبو عصام : إن يكن الهدى شيئاً هو له ، فله أن يُعطِيَه مَنْ يشاء ، ويمنعه من يشاء .

وأما الأدلةُ مِن الكتاب والسنة : فقد قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ولكِن حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ في الأَرْضِ كُلُّهم جَمِيعَاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] . وقال /تعالى :﴿ وَمَا تَشاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] . ٤٧/ب ﴿ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ الله إِنَّ الله كَانَ عَلِيمَاً حَكِيمَاً ﴾ [الدهر : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ مَنْ يَشَاءِ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٣٩] . وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيَه يَشرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَام

(*) ومن هذا الباب ما ذكروا أن عبد الجبار الهمذاني أحد شيوخ المعتزلة دخل على الصاحب بن عباد ، وعنده أبو إسحاق الإسفراييني أحد أئمة السنة ، فلما رأى الأستاذ ، قال : سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فقال الأستاذ فوراً : سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء ، فقال القاضي : أيشاء ربنا أن يعصى ؟ قال الأستاذ : أيعصى ربنا قهراً ؟ فقال القاضي : أرأيت إن منعني الهدى وقضى علي بالردى أحسن إلي أم أساء ، فقال الاستاذ : إن منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له ، فهو يختص برحمته من يشاء ، فبهت القاضي . وفي تاريخ الطبري أن غيلان بن أبي غيلان القدري قال لميمون بن مهرانٍ بحضرة هشام بن عبد الملك الذي أتى به ليناقشه : أشاء الله أن يُعصى ؟ فقال له ميمون : أفعصي كارهاً .

انظر تعليق الاستاذ أحمد شاكر رحمه الله تعالى على الحديث رقم ٥٨٨١ في « المسند » ١٧٨/٨ .

وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّه يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

ومنشأ الضلالِ : من التسوية بين المشيئة والإرادة ، وبين المحبة والرضى ، فسوّى بينهما الجبريةُ والقدَرِيَّة ، ثم اختلفوا :

فقالت الجبرية : الكونُ كله بقضائه وقدره ، فيكون محبوباً مرضياً .

وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له ، فليست مقدَّرة ، ولا مقضية ، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة الكتابُ والسنةُ والفطرةُ الصحيحة .

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب ، فقد تقدَّم ذكرُ بعضها .

وأما نصوصُ المحبة والرضى ، فقال تعالى : ﴿ والله لا يحِبُّ الفَسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] . ﴿ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الكُفْرَ ﴾ [الزمر : ٧] . وقال تعالى عَقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر : ﴿ كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً ﴾ [الإسراء : ٣٨] . وفي « الصحيح »(١٣٠) عن النبيِّ ﷺ : « إنَّ الله كَرِه لَكُمْ ثَلاثاً : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وإِضَاعَةَ المَالِ » .

وفي «المسند»(١٣١) : «إنَّ الله يُحِبُّ أن تُؤتى رُخَصُهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤتَى مَعْصِيَتُه» .

---

(١٣٠) رواه البخاري ٣/ ٢٧٠ في الزكاة : باب قوله تعالى : ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ ، و٥/ ٥١ في الاستقراض : باب ما ينهى عن إضاعة المال ، ومسلم ٣/ ١٣٤١ رقم (٥٩٣) في الأقضية : باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة . . الخ ، وأحمد في « المسند » ٤/ ٢٤٦ و٢٤٩ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه .

(١٣١) رواه أحمد في « المسند » ٢/ ١٠٨ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٣/ ١٦٢ ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، والبزار والطبراني في « الأوسط » واسناده صحيح انظر « ارواء الغليل » للألباني رقم (٥٦٤) .

وكـان من دعائـه ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِـرِضَاكَ مِنْ سَخَـطِكَ ، وأَعُـوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ »(*) .

فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضى مِن صفة السخط ، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة ، فالأول الصفةُ ، والثاني أثرُها المرتب عليها ، ثم ربط ذلك كلَّه بذاته سبحانه ، وأن ذلك كلَّه راجع إليه وحدَه لا إلى غيره ، فما أعوذُ منه واقعٌ بمشيئتك وإرادتك ، وما أعوذُ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، إن شئتَ أن ترضى عن عبدك وتُعافِيَه ، وإن شئت أن تغضب عليه وتُعاقبه ، فإعاذتي مما أكره ومنعُهُ أن يَحِلَّ بي ، هي بمشيئتك أيضاً ، فالمحبوبُ والمكروه كله بقضائك ومشيئتك ، فعياذي بك منك ، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكونُ بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك ، فلا أستعيذ بغيرك مِن غيرك ، ولا أستعيذُ بك من شيء صادرٍ عن غير مشيئتك ، بل هو منك ، فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته .

فإن قيل : كيف يُريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يُحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكوِّنه ؟ وكيف يجمع إرادته له وبغضه وكراهته ؟ قيل : هذا السؤال هو الذي افترق الناسُ لأجله فرقاً، وتباينت طرقُهم وأقوالُهم .

فاعلم أن المراد نوعان : مرادٌ لِنفسه ، ومُرادٌ لغيره . فالمرادُ لنفسه ، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مراد إرادَة الغايات والمقاصد .

والمراد لغيره ، قد لا يكون مقصوداً لما يُريد ، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلةً إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته ، مراد له من حيث افضاؤه وإيصاله إلى مراده. فيجتمع فيه الأمرانِ :

(*) تقدم تخريجه ص ٧٩ رقم ٣٢ .

بغضُه وإرادتُه ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما . وهذا كالدواء الكريه ، إذا عَلِمَ المتناولُ له أن فيه شفاءه ، وقطع العضو المتأكل ، إذا علم أن في قطعه بقاءَ جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، إذا علم أنها تُوصل إلى مراده ومحبوبه . بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظنِّ الغالب ، وإن خفيت عنه عاقبتُه ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية .

فهو سبحانه يكره الشيء ، ولا يُنافي ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى أمر هو أحبُّ إليه من فوقه . من ذلك : أنه خلق إبليس ، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات ، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وعملهم بما يغضب الرب تبارك وتعالى ، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يُحبه الله ويرضاه .

ومع هذا فهو وسيلة إلى محابٍّ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه ، ووجودها أحبُّ إليه من عدمها .

منها : أنه يُظهر للعباد قدرةَ الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات التي هي أخبثُ الذوات وشرها ، وهي سببُ كل شر في مقابلة ذاتِ جبريل ، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها ، وهي مادةُ كل خير ، فتبارك خالق هذا وهذا . كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار ، والداء والدواء ، والحياة والموت ، والحسنِ والقبيح ، والخير والشر . وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته ومُلكه وسلطانه ، / ٤٨/أ فإنه خلق هذه المتضادات ، وقابلها بعضها ببعض ، وجعلها محالّ تصرفه وتدبيره . فخلوُّ الوجودِ عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير ملكه .

ومنها : ظهور آثار أسمائه القهرية ، مثل : القهار ، والمنتقِم ،

والعدل ، والضَّارِّ ، والشديدِ العقاب ، والسريعِ العقاب ، وذي البطش الشديد ، والخافض ، والمذل . فإن هٰذه الأسماء والأفعال كمال ، لا بُد من وجود متعلَّقها ، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثرُ هذه الأسماء .

ومنها : ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه، وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هٰذه الأسماء ، لتعطَّلَتْ هٰذه الحِكَمُ والفَوَائِدُ ، وقد أشار النبيُّ ﷺ إلى هٰذا بقوله : « لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ الله بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ ، فيستغفرون الله ، فَيَغْفِرُ لَهُم »(١٣٢) .

ومنها : ظهور آثار أسماء الحِكمة والخِبرة ، فإنه الحكيم الخبير ، الذي يضعُ الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها اللائقة بها ، فلا يضعُ الشيءَ في غير موضعه ، ولا ينزله في غير منزلته التي يقتضيها كمالُ علمه وحكمته وخبرته ، فهو أعلمُ حيث يجعل رسالاته ، وأعلَمُ بمن يصلُح لقبولها ، ويشكرُه على انتهائها إليه ، وأعلمُ بمن [لا](*) يصلح لذلك . فلوقدرعدم الأسباب المكروهة ، لتعطَّلت حِكَمٌ كثيرة ، ولفاتت مصالح عديدة ، ولو عطلت تلك الأسباب لِما فيها من الشر ، لتعطَّل الخيرُ الذي هو أعظمُ مِن الشر الذي في تلك الأسباب ، وهذا كالشمس والمطر والرياح ! التي فيها من المصالح ما هو أضعافُ أضعاف ما يحصل بها من الشر .

---

(١٣٢) رواه مسلم رقم (٢٧٤٨) في التوبة : باب سقوط الذنوب بالاستغفار ، والترمذي رقم (٣٥٣٣) في الدعوات : باب رقم ١٠٥ ، وأحمد في « المسند» ٥/٤١٤ من حديث أبي أيوب خالد بن زيد رضي الله عنه .
ورواه مسلم رقم (٢٧٤٩) والترمذي رقم (٢٥٢٨) وأحمد في « المسند » ٢/٣٠٩ و٣٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

ومنها : حصولُ العبودية المتنوعة التي لولا خلقُ إبليس لما حصلت ، فإن عُبودية الجهاد من أحبّ أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولو كان الناسُ كُلُّهم مؤمنين لتعطلت هٰذه العبوديةُ وتوابعُها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى وإيثار محابِّ الله تعالى ، وعبودية التوبة والاستغفار ، وعبودية الاستعاذة بالله أن يُجيره من عدوه ، ويعصمه من كيده وأذاه . إلى غير ذلك من الحكم التي تَعْجِزُ العقولُ عن إدراكها .

فإن قيل : فهل كان يُمكن وجودُ تلك الحكم بدون هٰذه الأسباب ؟ .

فهذا سؤال فاسد ! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الابن بدون الأب ، والحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فإن قيل : فإذا كانت هٰذه الأسبابُ مرادةً لما تُفضي إليه مِن الحِكَم ، فهل تكونُ مرضيةً محبوبة مِن هذا الوجه ، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه ؟ .

قيل : هذا السؤال يرد على وجهين :

أحدُهما : من جهة الرب تعالى ، وهل يكون محبًّا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه ، وإن كان يبغضها لذاتها ؟ .

والثاني : من جهة العبد ، وهو أنه هل يسوغ له الرضى بها من تلك الجهة أيضاً ؟ فهذا سؤال له شأن .

فاعلم أن الشرَّ كُلَّه يرجعُ إلى العدم ، أعني عدَم الخير وأسبابه المفضية إليه ، وهو من هٰذه الجهة شر ، وأما من جهة وجوده المحض ، فلا شر فيه ، مثالُه : أن النفوس الشريرة وجودُها خير من حيث هي موجودة ، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها ، فإنها خُلِقَتْ في الأصل متحركة ، فإن أعينت

بالعلم وإلهام الخير تحرَّكت به ، وإن تُركت ، تحركت بطبعها إلى خلافه . وحركتُها من حيث هي حركة : خيرٌ ، وإنما تكون شرًّا بالإضافة ، لا من حيث هي حركة ، والشر كُلُّه ظلم ، وهو وضع الشيء في غير محله ، فلو وُضِعَ في موضعه لم يكن شراً ، فعُلِمَ أن جهة الشر فيه نسبية إضافية .

ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محالّها خيراً في نفسها ، وإن كانت شرًّا بالنسبة إلى المحل الذي حلّت به ، لما أحدثتْ فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له ، فصار ذلك الألم شرًّا بالنسبة إليها ، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل حيث وضعه في موضعه ، فإنه سبحانه لم يخلق شرًّا محضاً من جميع الوجوه والاعتبارات ، فإنْ حِكمته تأبى ذٰلك . فلا يمكن في جناب الحقِّ تعالى أن يُريدَ شيئاً يكون فساداً مِن كل وجه ، لا مصلحة في خلقه بوجه ما ، هذا من أبين المحال ، فإنه سبحانه الخير كُلُّه بيديه ، والشرُّ ليس إليه ، بل كل ما إليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم هٰذه الإضافة والنسبة إليه ، فلو كان إليه لم يكن شرًّا ، فتأمله . فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرّاً .

فإن قيل : لم تنقطع نسبتُه إليه خلقاً ومشيئة ؟ قيل : هو من هٰذه الجهة ليس بشرّ ، فإن وجوده هو المنسوب إليه ، وهو من هذه الجهة ليس بشرّ ، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه ،/ والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير . ٤٨/ب

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك ، فاعلم أن أسبابَ الخير ثلاثة : الإيجادُ ، والإعدادُ والإمدادُ ، فإيجاد هذا خير ، وهو إلى الله ، وكذلك إعدادُه وإمدادُه ، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد ، حصل فيه الشرُّ بسبب هٰذا العدم الذي ليس إلى الفاعل ، وإنما إليه ضده .

فإن قيل : هلاّ أمده إذ أوجده ؟ .

قيل : ما اقتضت الحِكمةُ إيجادَه وإمداده ، وإنما اقتضت إيجادَه وتركَ إمداده ، فإيجادُه خير ، والشر وقع من عدم إمداده .

فإن قيل : فهلّا أمدَّ الموجودات كلها ؟ فهذا سؤال فاسد ، يظن مُوردُه أن التسوية بين الموجودات أبلغُ في الحِكمة ! وهذا عينُ الجهل ! بل الحكمة كل الحكمة في هٰذا التفاوت العظيم الذي بين الأشياء، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع بأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق ، وإلا فليس في الخلق من تفاوت ، فإن اعتاص عليك هذا ولم تفهمه حقَّ الفهم ، فراجع قول القائل :

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئاً فَدَعْهُ ... وَجَاوِزْهُ إِلى مَا تَسْتَطِيعُ

فإن قيل : كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يُعينه عليه ؟ .

قيل : لأن إعانتَه عليه قد تستلزِمُ فواتَ محبوبٍ له أعظمَ مِن حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوعُ تلك الطاعة منه يتضمَّنُ مفسدةً هي أكره إليه سبحانه مِن محبته لتلك الطاعة . وقد أشار تعالى إلى ذٰلك في قوله : ﴿ ولَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ولٰكِنْ كَرِهَ الله انبِعَاثَهُم فَثَبَّطَهُمْ ﴾ الآيتين [التوبة: ٤٦ ـ ٤٧]. فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعة، فلما كرهه منهم، ثبَّطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعضَ المفاسد التي كانت تترتب على خروجهم مع رسوله، فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُم إِلَّا خَبَالاً ﴾ [التوبة : ٤٧] ، أي : فساداً وشرّاً ، ﴿ ولأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم ﴾ [التوبة : ٤٧] ، أي : سعوْا بينكم بالفساد والشرّ ، ﴿ يَبْغُونَكُمْ الفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم ﴾ [التوبة : ٤٧] ، أي : قابلون منهم مستجيبون لهم ، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشرّ ما هو أعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه . فاجعلْ هذا المثال أصلاً ، وقس عليه .

وأما الوجه الثاني ، وهو الذي من جهة العبد : فهو أيضاً ممكن ، بل واقع ، فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره ، ويرضى بعلم الله وكتابته ومشيئته وإرادته وأمره الكوني ، فيرضى بما مِنَ الله ، ويسخط ما هو منه ، فهذا مسلكُ طائفةٍ من أهل العُرفان . وطائفة أُخرى كرهتها مطلقاً ، وقولهم يرجع إلى هذا القول ، لأن إطلاقَهم الكراهة لا يُريدون به شموله لعلم الرب وكتابته ومشيئته .

وسِرُّ المسألة : أن الذي إلى الرب منها غيرُ مكروه ، والذي إلى العبد مكروه .

فإن قيل : ليس إلى العبد شيء منها .

قيل : هذا هو الجبرُ الباطل الذي لا يُمكن صاحبُه التخلصَ من هذا المقام الضيق ، والقدَري المنكِر أقربُ إلى التخلص منه من الجبري ، وأهلُ السُّنة ، المتوسطون بين القدَرية والجبرية أسعدُ بالتخلص من الفريقين .

فإن قيل : كيف يتأتّى الندمُ والتوبةُ مع شهود الحكمة في التقدير ، ومع شهود القيُّومية والمشيئة النافذة ؟ .

قيل : هذا هو الذي أوقع من عميتُ بصيرتُه في شهود الأمر على غير ما هو عليه ، فرأى تلك الأفعال طاعات ، لموافقته فيها المشيئة والقدرَ ، وقال : إن عصيتُ أمرَه فقد أطعتُ إرادَته ! وفي ذلك قيل :

أَصْبَحْتُ مُنْفَعِلاً لِما يَخْتَارُهُ مِنِّي ، فَفِعْلِي كُلُّه طَاعَاتُ !

وهٰؤلاء أعمى الخلق بصائر ، وأجهلُهم بالله وأحكامه الدينية والكونية ، فإن الطاعة هي موافقةُ الأمر الديني الشرعي ، لا موافقةُ القدر والمشيئة ، ولو كان موافقة القدر طاعةً ، لكان إبليسُ مِن أعظم المطيعين له ، ولكان قومُ نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون ـ كُلُّهم مطيعين ! وهذا غاية الجهل .

لكن إذا شهد العبد عجزَ نفسه ، ونفوذَ الأقدار فيه ، وكمال فقره إلى ربه ، وعدمَ استغنائه عن عصمته وحفظه طرفةَ عين : كان بالله في هذه الحال لا بنفسه ، فوقوعُ الذنب منه لا يتأتى في هٰذه الحال ألبتة ، فإنَّ عليه حصناً حصيناً ، فبي يسمع ، وبي يُبْصِرُ ، وبي يَبْطِشُ ، وبي يمشي ، فلا يُتصور منه الذنب في هٰذه الحالة ، فإذا حُجِبَ عن هذا المشهد وبقي بنفسه ، /استولى عليه حُكْمُ النفس ، فهنالك نُصِبَتْ عليه الشباكُ والإشراك ، وأرسِلتْ عليه الصيادون ، فإذا انقشع عنه ضبابُ ذلك الوجود الطبعي ، فهنالك يحضرُه الندمُ والتوبةُ والإنابة ، فإنه كان في المعصية محجوباً بنفسه عن ربه ، فلما فارق الوجودَ صار في وجود آخر ، فبقي بربه لا بنفسه . ٤٩/أ

فإن قيل : إذا كان الكفرُ بقضاء الله وقدره ، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله ، فكيف ننكره ونكرهه ؟!

فالجواب : أن يقال أولاً : نحن غيرُ مأمورين بالرضى بكل ما يقضيه الله ويقدِّره ، ولم يَرِدْ بذلك كتابٌ ولا سُنة ، بل من المقضيّ ما يُرضَى به ، ومنه ما يُسخط ويمقت ، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه ، بل من القضاء ما يُسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يُغضب عليه ويُمقت ويُلعن ويُذم .

ويقال ثانياً : هنا أمران: قضاءُ الله ، وهو فعلٌ قائم بذات الله تعالى ، ومقضي : وهو المفعول المنفصل عنه ، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة ، نرضى به كلِّه ، والمقضي قسمان : منه ما يُرضى به ، ومنه ما لا يُرضى به .

ويقال ثالثاً : القضاء له وجهٰان : أحدُهما : تعلُّقه بالرب تعالى ونسبته إليه ، فمن هذا الوجه يُرضى به . والوجه الثاني : تعلُّقه بالعبد ونسبته إليه ، فمن هذا الوجه ينقسِمُ إلى ما يُرضى به ، وإلى ما لا يُرضى به . مثال ذلك :

قتلُ النفس ، له اعتباران : فمن حيث قدّره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ونهاية لعمره ، نَرْضى به ، ومن حيث صدَر من القاتل وباشره وكسبه ، وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله ـ نسخطه ولا نرضى به .

وقوله : والتعمقُ والنظر في ذلك ذريعةُ الخذلان . . . إلى آخره .

التعمق : هو المبالغة في طلب الشيء ، والمعنى : أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان . الذريعة : الوسيلة ، والذريعة والدرجة والسلم ، متقارب المعنى ، وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان متقارب المعنى أيضاً ، لكن الخذلان في مقابلة النصر ، والحرمان في مقابلة الظفر ، والطغيان في مقابلة الاستقامة .

وقوله : فالحذَر كلَّ الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة . عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : جاء ناسٌ مِن أصحاب النبيِّ ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، فسألوه : إنا نَجِدُ في أنفسنا ما يتعاظَمُ أحدُنا أن يتكلم به ؟ قال : « وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ » ؟ قال : « ذلك صريح الإيمان » . رواه مسلم[133] ، الإشارة بقوله : « ذٰلِكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ » إلى تعاظمهم أن يتكلَّموا به .

ولمسلم أيضاً[134] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن الوسوسة ؟ فقال : « تِلْكَ مَحْضُ الإِيمَانِ » . فهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس ومدافعة وسوَاسها بمنزلة المحادثة

---

(١٣٣) رقم (١٣٢) في الإيمان : باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ، وأبو داود رقم (٥١١١) في الأدب : باب الوسوسة في الإيمان ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٤٤١ . انظر « جامع الأصول » رقم (٣٣) .

(١٣٤) رقم (١٣٣) في الإيمان : باب بيان الوسوسة في الإيمان . انظر « جامع الأصول » رقم (٣٤) .

الكائنة بين اثنين ، فمدافعةُ الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريحُ الإيمان ومحضُ الإيمان .

هٰذه طريقةُ الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان ، ثم خلف مِن بعدهم خلفٌ ، سوّدُوا الأوراقَ بتلك الوساوس ، التي هي شكوك وشبه ، بل وسوَّدُوا القلوب ، وجادلوا بالباطِل لِيُدْحِضوا به الحق ، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوضِ في الكلام في القدر والفحص عنه ، وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أبْغَضُ الرِّجَالِ إلَى الله الأَلَدُّ الخَصِمُ »(*) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا داود بن أبي هند ، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : خرج رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم والناسُ يتكلمون في القدَر ، قال : وَكَأنَّما تفقَّأ في وَجهه حَبُّ الرُّمان مِن الغَضَبِ ، قال : فقال لهم : « مَا لَكُمْ تَضرِبُونَ كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ؟ بِهٰذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم ، قَالَ : فَما غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ الله لَمْ أشْهَدْهُ ، بِما غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ المجْلِسِ ، أنِّي لَمْ أشْهَدْهُ » . ورواه ابن ماجه أيضاً(**) .

وقال تعالى : ﴿ فاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُم كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ [التوبة : ٦٩] ، الخلاق : النصيبُ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُ في الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : ٢٠٠] ، أي : استمتعتم بنصيبكم من الدنيا ، كما استمتع الذين مِن قبلكم بنصيبهم ، وَخُضْتُم كالذي خاضوا ، أي : كالخوض الذي خاضوه ، أو كالفوج ، أو الصنف ، أو الجيل الذي خاضوا .

(*) تقدم تخريجه ص ١٨٥ رقم ٩٢ .

(**) تقدم تخريجه ص ١٨٠ رقم ٩٠ .

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض ، لأن فساد الدين إما في العمل ، وإما في الاعتقاد ، فالأولُ من جهة الشهوات ، والثاني من جهة الشبهات . وروى البخاري(١٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبيَّ ﷺ قال : « لَتَأخُذَنَّ أُمَّتِي مَأْخَذَ القُرُونِ قَبْلَهَا شِبْرَاً بِشِبْرٍ ، وذِرَاعَاً بِذِرَاعٍ » قالوا : فارس والروم ؟ قال : «فَمَنِ النَّاسُ إلاَّ أُولٰئِكَ» .

٤٩/ب وعن عبد الله/بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : «لَيَأْتِينَّ على أُمَّتِي مَا أَتى عَلَىَ بَنِي إسْرَائِيل حَذْوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ ، حَتَّى إنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّه عَلاَنِيَةَ، كَانَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذٰلك ، وإنَّ بَنِي إِسْرائيلَ تفرَّقُوا عَلَى اثْنَتينِ وسَبْعِينَ مِلَّةً ، وتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ في النَّارِ الَّا مِلَّةً وَاحِدَةً ، قَالُوا : مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ الله ؟ قال : مَـا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي » . رواه الترمذي(١٣٦) .

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : « تَفَرقَتِ اليَهُودُ عَلَى إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً إو اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ، والنَّصَارَى مِثْلُ ذٰلِكَ ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً » . رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح(١٣٧) .

---

(١٣٥) ١٣/٢٥٤ ـ ٢٥٥ في الاعتصام : باب قول النبي ﷺ : « لتتبين سنن من كان قبلكم » ، واحمد في « المسند » ٣٢٧/٢ و٣٦٧ و٤٥٠ و٥١٥ و٥٢٧ ، وابن ماجه رقم (٣٩٩٤) في الفتن : باب افتراق الأمم .

(١٣٦) رقم (٢٦٤٣) في الإيمان : باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وفي سنده عبد الرحمن ابن زياد الافريقي ، وهو ضعيف ، وقال الترمذي : هذا حديث لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه .

(١٣٧) رواه أبو داود رقم (٤٥٩٦) في السنة : باب شرح السنة ، وابن ماجه رقم (٣٩٩١) في الفتن : باب افتراق الأمم ، والترمذي رقم (٢٦٤٢) في الإيمان : باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ، وقال الترمذي : حديث أبي هريرة حسن صحيح ، وهو كما قال :

وفي الباب عن سعد وعبد الله بن عمرو وعوف بن مالك رضي الله عنهم .

وعن معاويةَ بن أبي سفيان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ :
« إنَّ أَهْلَ الكِتَابَينِ افْتَرَقُوا في دِينِهِمْ عَلى اثْنَتَينِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وإنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، ـ يعني الأَهْواءَ ـ كُلُّها في النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ »(١٣٨) .

وأكبرُ المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدَر . وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع .

وقوله : فمن سأل : لم فعل ؟ فقد ردَّ حُكم الكتاب ، ومن ردَّ حُكم الكتاب ، كان من الكافرين .

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله ـ على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحِكمة في الأوامر والنواهي والشرائع ، ولهذا لم يَحْكِ الله سبحانه عن أمة نبيٍّ صدَّقت بنبيها ، وآمنت بما جاء به أنها سألته عن تفاصيلِ الحِكمة فيما أمرها به ، ونهاها عنه ، وبلَّغها عن ربها ، ولو فعلتْ ذلك ، لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت وإذعنت ، وما عرفتْ من الحكمة عرفته ، وما خفي عنها ، لم تتوقف في انقيادها وتسليمِها على معرفته ، ولا جعلتْ ذلك من شأنها ، وكان رسولُها أعظَمَ عندها من أن تسأله عن ذلك ، كما في الإنجيل : « يا بني إسرائيل لا تقولُوا : لم أمر ربُّنا ؟ ولكن قولُوا : بم أمر ربنا » .

ولهذا كان سلفُ هٰذه الأمة ، التي هي أكملُ الأمم عقولاً ومعارفَ وعلوماً ـ لا تسأل نبيَّها : لِمَ أمر الله بكذا ؟ ولِمَ نهى عن كذا ؟ ولِمَ قدَّر كذا ؟ ولِمَ فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضادّ للإيمان والاستسلام ، وأن قدَم الإسلام

---

(١٣٨) أبو داود رقم (٤٥٩٧) في السنة : باب شرح السنة ورواه الدارمي رقم (٢٥٢١) في السير باب في افتراق هذه الأمة وأحمد في « المسند » ٤/ ١٠٢ ، وإسناده صحيح . قوله : « الكتابين » هو عند أحمد . انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (٢٠٤) .

لا تثبُتُ إلا على درجة التسليم .

فأول مراتب تعظيم الأمر التصديقُ به ، ثم العزمُ الجازمُ على امتثاله ، ثم المسارعةُ إليه والمبادرة به ، والحذرُ عن القواطع والموانع ، ثم بذلُ الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه ، ثم فعلُه لكونه مأموراً به ، بحيث لا يتوقف الإتيانُ به على معرفة حِكمته ـ فإن ظهرتْ له فَعَلَه وإلا عطَّله ، فإن هذا يُنافي الانقيادَ ، وَيَقْدَحُ في الامتثال .

قال القرطبي ناقلاً عن ابن عبد البر : فمن سأل مستفهماً راغباً في العلم ونفي الجهل عن نفسه ، باحثاً عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه ، فلا بأس به ، فشِفاءُ العِيِّ السؤالُ ، ومن سأل متعنِّتاً غيرَ متفقه ولا متعلم ، فهو الذي لا يَحِلُّ قليل سؤاله ولا كثيره .

قال ابن العربي(*) : الذي ينبغي للعالم أن يشتغِلَ به هو بسطُ الأدلة ، وإيضاحُ سبل النظر ، وتحصيلُ مقدمات الاجتهاد ، وإعدادُ الآلة المعينة على الاستمداد ، قال : فإذا عرضتْ نازلة ، أُتيتْ من بابها ، ونُشِدَت مِن مظانها ، والله يفتحُ وجه الصواب فيها انتهى .

وقال ﷺ : « مِنْ حُسْنِ اسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ » . رواه الترمذي(١٣٩) وغيرُه .

(*) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعروف بـ « ابن العربي » المالكي ، المعافري ، الاشبيلي . ولد باشبيلة سنة ٤٦٨ هـ وولي القضاء بها ، ورحل إلى المشرق وتوفي بـ « العدوة » وحمل إلى فاس ودفن بها سنة ٥٤٣ هـ . من تصانيفه « أحكام القرآن » و « المسالك في شرح موطأ مالك » و « عارضة الأحوذي على كتاب الترمذي » و « القواصم والعواصم » وغيرها .

(١٣٩) رقم (٢٣١٨) في الزهد : باب ما جاء في التكلم فيما لا يعنيه ، وابن ماجه رقم (٣٩٧٦) في الفتن : باب كف اللسان في الفتنة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ،

وقال الترمذي : هذا حديث غريب . وقال الزرقاني في « شرح الموطأ » : والحديث حسن ، بل صحيح ، اخرجه أحمد وأبو يعلى والترمذي من حديث الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة ، وأحمد =

ولا شك في تكفير من ردَّ حكم الكتاب ، ولكن من تأول حكمَ الكتاب لِشبهة عرضت له ، بُيِّنَ له الصوابُ لِيرجع إليه ، فالله سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل ، لكمال حِكمته ورحمته وعدله ، لا لمجرَّدِ قهره وقدرته ، كما يقول جهمٌ وأتباعُه ، وسيأتي لذلك زيادةُ بيان عند قول الشيخ : ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحِلَّه(*) .

* * *

قوله : فَهٰذَا جُمْلَةُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مَنْ هُوَ مُنَوَّرٌ قَلْبُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالى ، وَهِيَ دَرَجَةُ الرَّاسِخِينَ فِي العِلْمِ ، لِأَنَّ العِلْمَ عِلْمَانِ : عِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَوْجُودٌ ، وعِلْمٌ فِي الخَلْقِ مَفْقُودٌ ؛ ، فَإِنْكَارُ العِلْمِ المَوْجُودِ كُفْرٌ ، وادِّعَاءُ العِلْمِ المَفْقُودِ كُفْرٌ ، وَلَا يَثْبُتُ الإِيمَانُ إلا بِقُبولِ العِلْمِ المَوْجُودِ وَتَرْكِ طَلَبِ العِلْمِ المَفْقُودِ .

الإشارةُ بقوله : فهذا إلى ما تقدم ذكره ، مما يجب اعتقادُه والعملُ به ، مما جاءت به/الشريعةُ . وقوله : وهي درجةُ الراسخين في العلم . أي : علم ما جاء به الرسولُ جملة وتفصيلاً ، نفياً وإثباتاً ، ويعني بالعلم المفقود : علم القَدَر الذي طواه الله عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه . ويعني بالعلم الموجود : علمَ الشريعة ، أصولها وفروعها ، فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسولُ كان من الكافرين ، ومن ادَّعى علمَ الغيب كان من الكافرين ، قال تعالى : ﴿ عَالِمُ

٥٠/أ

= والطبراني في « الكبير » عن الحسن بن علي ، والحاكم في « الكنى » عن أبي ذر العسكري ، والحاكم في « تاريخه » عن علي بن أبي طالب ، والطبراني في « الصغير » عن زيد بن ثابت ، وابن عساكر عن الحارث ابن هشام .

(*) انظر ص ٣٣٨ وما بعدها .

الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ الآية [الجنّ : ٢٦ - ٢٧]. وقال تعالى : ﴿إنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ويَعْلَمُ مَا في الأَرْحامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [القمان : ٣٤] . ولا يلزم مِن خفاء حكمة الله علينا عدمُها ، ولا انتفاؤ ها جهلنا حكمته .

ألا ترى أن خَفاء حِكمة الله علينا في خلق الحيّات والعقارب والفأر والحشرات ، التي لا يُعلم منها إلا المضرةُ : لم يَنفِ أن يكونَ الله تعالى خالقاً لها ، ولا يلزم أن لا يكونَ فيها حكمة خفيتْ علينا ، لأن عدَم العِلم لا يكون علماً بالمعدوم .

***

قوله : ونُؤْمِنُ باللَّوْحِ والقَلَمِ ، وبِجَمِيعِ مَا فِيهِ قَدْ رُقِم .

قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * في لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ - ٢٢] روىٰ الحافِظ أبو القاسِم الطبراني بسنده الى النبي ﷺ أنه قال : « إنَّ الله خَلَقَ لَوْحَاً مَحْفُوظاً مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ ، صَفَحَاتُها يَاقُوتَةٌ حَمْرَاءُ ، قَلَمُهُ نُورٌ ، وَكِتَابُهُ نُورٌ ، لله فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سِتُّون وَثَلاثِمائة لَحْظَةً ، يَخْلُقُ ويَرْزُقُ ، ويُمِيتُ ويُحْيِي ، ويُعِزُّ وَيُذِلُّ ، وَيَفْعَلُ ما يَشاؤُهُ »(١٤٠) .

اللوح المذكور : هو الذي كتب الله مقاديرَ الخلائق فيه ، والقلمُ المذكور : هو الذي خلقه الله ، وكتب به في اللوح المذكور المقاديرَ ، كما في

(١٤٠) رواه الطبراني في « الكبير » وفي سنده زياد بن عبد الله البكائي وليث بن أبي سليم وكلاهما ضعيف ، وقد رواه من طريق أخرى نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً واسناده قابل للتحسين . انظر « المجمع » ٧/ ١٩١ .

« سنن أبي داود »[141] عن عُبادة بـن الصامت رضي الله عنه ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: « إنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ الله تعالى القَلَمَ ، فَقَالَ لَهُ : اكتُبْ ، قَالَ : يَا رَبِّ ! وَمَاذَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى تَقُومَ الساعة » .

واختلف العلماءُ : هل القلمُ أوَّل المخلوقاتِ ، أو العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظُ أبو العلاء الهمداني ، أصحهما : أن العرشَ قبل القلم ، لما ثبت في « الصحيح » مِن حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال رسولُ الله ﷺ: « قَدَّرَ الله مَقَادِيرَ الخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ والأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ »(*) . فهذا صريح أن التقديرَ وقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم ، بحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قولُه: «أول ما خلق الله القلم». . . إلخ. إما أن يكون جملةً أو جملتين . فإن كان جملة ، وهو الصحيح ، كان معناه : أنه عند أول خلقه قال له : « اكتب » ، كما في اللفظ : « أول ما خلق الله القلم قال له : اكتب » بنصب « أولَ » « والقلم » ، وإن كان جملتين ، وهو مروي برفع « أولُ » و « القلم » ، فيتعين حملُه على أنه أولُ المخلوقاتِ مِن هذا العالم ، فيتفقُ الحديثان ، إذ حديثُ عبد الله بن عمرو صريحٌ في أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم ، وفي اللفظ الآخر : « لما خلق الله القلم قال له : اكتب » .

فهذا القلم أو الأقلام وأفضلُها وأجلُّها ، وقد قال غير واحد من أهل

---

(١٤١) رقم (٤٧٠٠) في السنة : باب في القدر ، والترمذي رقم (٢١٥٦) في القدر ، و(٣٣١٦) في التفسير ، وأحمد في « المسند » ٥/٣١٧ ، وهو حديث صحيح .

(*) تقدم تخريجه ص ٩٠ رقم ٣٦ .

التفسير : إنه القلمُ الذي أقسم الله به في قوله تعالى : ﴿ نٓ * والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١ ـ ٢] .

والقلم الثاني : قلم الوحي : وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله ، وأصحابُ هذا القلم هم الحُكَّام على العالم ، والأقلام كلها خدَمٌ لأقلامهم ، وقد رُفع النبي ﷺ ليلةَ أسري به إلى مستوىً يسمعُ فيه صَرِيفَ الأقلام ، فهذه الأقلام هي التي تكتُب ما يُوحيه الله تبارك وتعالى مِن الأمور التي يُدبِّرها ، أمر العالم العلوي والسفلي .

* * *

قوله : فَلَوْ اجْتَمَعَ الخَلْقُ كُلُّهُم عَلَى شَيءٍ كَتَبَهُ الله تَعَالَى أَنَّه كَائِنٌ ، لِيَجْعَلُوهُ غَيْرَ كَائِن ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ . وَلَوِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُم عَلَى شَيءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ الله تَعَالَى فِيهِ لِيَجْعَلُوه كَائِناً ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ . جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ .

تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ، قال : جاء سُراقَةُ بنُ مالكِ بنِ جُعْشُم ، فقال : يا رسولَ الله ! بيِّن لنا ديننَا كأنا خُلِقْنَا الآنَ ، فِيمَ العَمَلُ اليَوْمَ ؟ أَفِيما جفَّت به الأَقْلامُ ، وجَرَتْ به المقاديرُ ؟ أم فيما نَسْتَقْبِلُ ؟ قال : « لاَ ، بَلْ فِيما جَفَّتْ بِهِ الأَقْلاَمُ وَجَرَتْ بِهِ المقَادِيرُ »(*) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : كنتُ خلفَ رسول الله ﷺ يوماً ، فقال : « يا غُلاَمُ ! إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِماتٍ : احْفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ

(*) تقدم تخريجه ص ٢٤٩ رقم ١٢٦ .

اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاستَعِنْ باللهِ ، واعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ ، وَلَوِ اجْتَمَعَتْ عَلى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ الَّا بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » . رواه الترمذي[١٤٢] ، وقال : حديث حسن صحيح .

٥٠/ب وفي رواية غير الترمذي : « احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ/أَمَامَكَ ، تَعرَّف إِلَى اللهِ في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ ، واعْلَم أَنَّ ما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُن لِيُصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرَاً » .

وقد جاءت « الأقلام » في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة ، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاماً غير القلم الأول ، الذي تقدَّم ذكرُه مع اللوح المحفوظ .

والذي دلت عليه السُّنة أن الأقلامَ أربعة ، وهذا التقسيم غيرُ التقسيم المتقدِّم ذكره :

القلم الأول : العام الشامل لجميعِ المخلوقات ، وهو الذي تقدَّم ذكرُه مع اللوح .

---

(١٤٢) رقم (٢٥١٨) في صفة القيامة : باب رقم ٦٠ ، وأحمد في « المسند » ١/ ٢٩٣ و٣٠٣ و٣٠٧ ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص ١٦١ : وقد روي هذا الحديث عن ابن عباس من طرق كثيرة من رواية ابنه علي ومولاه عكرمة وعطاء بن أبي رباح ، وعمرو بن دينار ، وعبيد الله بن عبد الله ، وعمر مولى عفرة ، وابن أبي مليكة وغيرهم . وأصح الطرق كلها طريق حنش الصنعاني التي خرجها الترمذي .

وقد جمع الحافظ ابن رجب الحنبلي طرق هذا الحديث وشرحه شرحاً وافياً في رسالة سماها « نور الاقتباس في وصية ابن عباس » .

القلم الثاني : حين خلق آدم عليه السلام ، وهو قلم عام أيضاً ، لكن لبني آدم ، ورد في هذا آياتٌ تدل على أن الله قدَّر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عقيب خلق أبيهم .

القلم الثالث : حين يُرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه ، فينفخ فيه الروح ، ويُؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجلِه ، وعملِه ، وشقيٍ أو سعيدٍ . كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة(*) .

القلم الرابع : الموضوع على العبد عند بلوغه ، الذي بأيدي الكرام الكاتبين ، الذين يكتبون ما يفعلُه بنو آدم ، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة .

واذا علم العبدُ أن كلاً من عند الله ، فالواجبُ إفرادُه سبحانه بالخشية والتقوى . قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٤٤] . ﴿ وإِيَّايَ فَارْهَبُون ﴾ [البقرة : ٤٠] . ﴿ إِيَّايَ فاتَّقُونِ ﴾ [البقرة : ٤١] . ﴿ وَمَنْ يُطِعِ الله وَرَسُولَه وَيخْشَ الله وَيَتَّقْهِ فَأُوَلَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ [النور : ٥٢] . ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ ﴾ [المدَّثِّر : ٥٦] .

ونظائر هذا المعنى في القرآن كثيرة .

ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء ، فإنه لا يعيش وحدَه ، ولو كان ملكاً مطاعاً ، فلا بد أن يَتَّقِي أشياء يُراعي بها رعيته ، فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقي ، فإن لم يتَّق الله اتقى المخلوق ، والخلق لا يتفق حُبُّهم كُلُّهم وبغضُهم ، بل الذي يُريده هذا يُبغضه هذا ، فلا يُمكن إرضاؤ هم كُلُّهم ، كما قال الشافعي رضي الله عنه : رِضَى الناسِ غايَةٌ لا تُدرَك ، فعليك بالأمرِ الذي يُصلِحُك فالزمه ، ودع ما سواه ، فلا تُعَانِهِ . فإرضاءُ الخلق لا مقدور ولا

(*) انظر الحديث المتقدم برقم ١٢٨ ص ٢٤٩ .

مأمور ، وإرضاء الخالق فمقدورٌ ومأمور .

وأيضاً فالمخلوقُ لا يُغني عنه من الله شيئاً ، فإذا اتقى العبدُ ربَّه كفاه مؤونة الناس ، كما كتبت عائشة إلى معاوية رضي الله عنهما ، روي مرفوعاً ، وروي موقوفاً عليها : « مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسُخْطِ النَّاسِ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسُخْطِ اللهِ ، عَادَ حَامِدُهُ مِنَ النَّاسِ ذَامًّا »[١٤٣] . فمن أرضى الله ، كفاه مؤونة الناسِ ورضي عنه ، ثم فيما بعد يَرْضَوْنَ ، إذ العاقِبةُ للتقوى ، ويحِبه الله ، فيُحبُّه الناسُ ، كما في « الصحيحين »[١٤٤] عن النَّبيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ : « إذا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى : يا جِبْرِيلُ ، إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فأحبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْـرِيلُ في السَّماءِ : إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَاناً فأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّماءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ في الأَرْضِ » ، وقال في البغض مثل ذلك .

فقد بين أنه لا بد لكل مخلوق من أن يتقي إما المخلوق ، وإما الخالقَ ، وتقوى المخلوق ضررُها راجح على نفعها من وجوه كثيرة ، وتقوى الله هي التي تحْصُلُ بها سعادةُ الدنيا والآخرة ، فهو سبحانه أهلُ التقوَى ، وهو أيضاً أهلُ المغفرة ، فإنه هو الذي يغفِرُ الذنوبَ ، لا يقدر مخلوق على أن يغفِرَ الذنوبَ ويُجيرَ من عذابها غيرُه ، وهو الذي يجيرُ ولا يُجار عليه .

قال بعضُ السلف : ما احتاجَ تَقي قَطُّ ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ

---

(١٤٣) رواه الترمذي رقم (٢٤١٦) في آخر كتاب الزهد وهو حديث صحيح « موقوفاً ومرفوعاً ، أما الموقوف فظاهر الصحة ، وأما المرفوع فلأنه جاء من طريق حسنة عن عثمان بن واقد فإذا انضم إليه طريق الترمذي ارتقى الحديث إن شاء الله إلى درجة الصحة » كما قال الألباني .

(١٤٤) رواه البخاري ٦/٢٢٠ في بدء الخلق : باب ذكر الملائكة ، و١٠/٣٨٥ ـ ٣٨٦ في الأدب : باب المقت في الله تعالى ، و١٣/٣٨٧ في التوحيد : باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ، ومسلم رقم (٢٦٣٧) في البر والصلة : باب إذا أحب الله عبد أحببه إلى عباده ، و« الموطأ » ٢/٩٥٣ في الشعر : باب ما جاء في المتحابين في الله ، والترمذي رقم (٣١٦٠) في التفسير : باب ومن سورة مريم ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٦٧ و٣٤١ و٤١٣ و٤٨٠ و٥٠٩ و٥١٤ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] ، فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يضيقُ على الناس ، وأن يرزُقَهم مِن حيث لا يحتسِبون ، فإذا لم يحصُل ذلك ، دل على أن في التقوى خللاً ، فليستغفر الله ، وليتبْ إليه ، ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] ، أي فهو كافيه ، لا يُحوجه إلى غيره .

وقد ظن بعضُ الناس أن التوكل يُنافي الاكتساب وتعاطي الأسباب ، وأن الأمور إذا كانت مقدَّرة ، فلا حاجة إلى الأسباب ! وهذا فاسد ، فإن الاكتساب : منه فرضٌ ، ومنه مستحَبٌ ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، كما قد عُرِفَ في موضعه ، وقد كان النبيُّ ﷺ أفضلَ المتوكلين ، يلبَس لأمةَ الحربِ ، ويمشي في الأسواق للاكتساب ، حتى قال الكافرون : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧] . ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب يُنافي التوكل يُرزقون على يد مَنْ يُعطيهم ، إما صدقةً ، وإما هديةً ، وقد يكون ذلك من مَكَّاس ، أو والي شرطة ، أو نحو ذلك ،/ وهذا مبسوط في موضعه ، لا يسعه هذا المختصر . وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأقوال التي في تفسير قولِهِ تعالى : ﴿يَمْحُوا الله مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَابِ﴾ [الرعد : ٣٩] . ٥١/أ

وأما قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] قال البغوي : قال مقاتل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يومَ السبت شيئاً !

قال المفسرون : مِن شأنه أنه يُحيي ويميت ، ويرزق ، ويُعِزُّ قوماً ويُذِلُّ آخرين ، ويشفي مريضاً ، وَيَفُكُّ عانياً ، ويُفرج مكروباً(*) ، ويُجِيبُ داعياً ، ويُعطي سائلاً ، ويغفر ذنباً ، إلى ما لا يُحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء .

(*) في الأصل كرباً والتصحيح من مطبوعة مكة .

قوله : وَمَا أَخْطَأَ العَبْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَه ، وَمَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَه .

هـذا بنـاء على مـا تقـدم من أن المقـدور كـائن لا محـالـة ، ولقـد أحسن القائل :

مَـا قَضَى اللهُ كَائِنٌ لَا مَحَـالَـهْ والشَّقِيُّ الجَهُولُ مَنْ لَامَ حَالَـهْ

والقائل الآخر :

اقْنَـعْ بِمـا تُـرزَقُ يَـاذَا الفَتَى فَـلَيْسَ يَـنْسَـى رَبُّـنـا نَـمْـلَهْ
إِنْ أَقْبَـلَ الـدَّهْـرُ فَقُمْ قَـائِمَـا وإِنْ تَـوَلَّـى مُـدْبِـراً نَـمْ لَـهْ

* * *

قوله : وَعَلَى العَبْدِ أَنْ يَعْلَم أَنَّ اللهَ قَدْ سَبَقَ عِلْمُهُ فِي كُلِّ كَائِنٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَقَدَّرَ ذَلِكَ تَقْدِيراً مُحْكَماً مُبْرَماً ، لَيْسَ فِيهِ نَاقِضٌ ، وَلَا مُعَقِّبٌ وَلَا مُزِيلٌ وَلَا مُغَيِّرٌ وَلَا مَحوِّل وَلَا نَاقِصٌ وَلَا زَائِدٌ مِنْ خَلْقِهِ فِي سَماواتِهِ وأَرْضِهِ .

هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمُه بالكائنات ، وأنه قدَّر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال ﷺ : « قَدَّرَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّماواتِ والأَرْضِ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ ، وعَرْشُهُ عَلَى الماءِ »(*) فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصيرُ موجودة لأوقاتها ، على ما اقتضته حكمتُه البالغة ، [فكانت كما علم](**) فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم

(*) تقدم تخريجه ص ٩٠ رقم ٣٦ .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

لا يُتَصَوَّرُ إيجادها إلا مِن عالم قد سبق علمُهُ على إيجادها ، قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك : ١٤] .

وأنكر غلاةُ المعتزلة أن الله كان عالماً في الأزل ، وقالوا : إن الله تعالى لا يعلم أفعالَ العباد [حتى يفعلوا !](*) تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : ناظروا القَدَرِيَّة بالعلم ، فإن أقرّوا به خُصِمُوا ، وإن أنكروا ، كفروا ، فإن الله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل مُسْتَطَاعَهُ فيُثيبه ،وهذا مستطيعٌ لا يفعلُ مستطاعه فيُعذبه، فإنمايعذبه ، لأنه لا يفعل مع القدرة ، وقد علم الله ذلك منه ، ومن لا يستطيعه لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه .

وإذا قيل : فيلزم أن يكون العبدُ قادراً على تغيير علم الله ، لأن الله علم أنه لا يفعل ، فإذا قدر على الفعل ، قدر على تغيير علم الله ؟

قيل : هذه مغالطة ، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغييرَ العلم ، وإنما يظن من يظن تغييرَ العلم إذا وقع الفعل ، ولو وقع الفعل ، لكان المعلوم وقوعَه لا عدمَ وقوعه ، فيمتنِعُ أن يحصُلَ وقوعُ الفعل مع علم الله بعدم وقوعه ، بل إن وقع ، كان الله قد علم أنه يقع ، وإن لم يقع ، كان الله قد علم أنه لا يقع ، ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر ، وعلم الله مطابق للواقع ، فيمتنِعُ أن يقع شيء يستلزِمُ تغييرَ العلم ، بل أيُّ شيء وقع كان هو المعلوم ، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغيِّر العلم ، بل هو قادر على فعل لم يقع ، ولو وقع ، لكان الله قد علم أنه يقع ، لا أنه لا يقع .

وإذا قيل : فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع ، فلو قدر العبدُ على وقوعه ، قدر على تغيير العلم ؟

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

قيل : ليس الأمر كذلك ، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يُوقعه ، ولو أوقعه ، لم يكن المعلوم إلا وقوعه ، فمقدُور العبد إذا وقع ، لم يكن المعلومُ إلا وقوعَه ، وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه ! وهو فرض محال ، وذلك بمنزلة من يقول : افرض وقوعه مع عدم وقوعه ! وهو جمع بين النقيضين .

فإن قيل : فإذا كان وقوعُه مع علم الرب عدم وقوعه محالاً لم يكن مقدوراً ؟

قيل : لفظ المحال مجمل ، وهذا ليس محالاً لعدم استطاعته له ، ولا لعجزه عنه ، ولا لامتناعه في نفسه ،بل هو ممكن مقدور مستَطاع ، ولكن اذا وقع ، كان الله عالماً بأنه سيقع ، وإذا لم يقع كان عالماً بأنه لا يقع ، فإذا فرض وقوعه مع انتفاءِ لازم الوقوع ، صار محالاً مِن جهة إثبات الملزوم بدون لازمه. وكلُّ الأشياء بهذا الاعتبار هي محال، ومما يُلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادِراً على شيء ، لا الربُّ ، ولا الخلقُ ، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزمُ مِن علمه ذلك انتفاءُ قدرته على تركه ، وكذلك إذا علم مِن نفسه أنه لا يفعلُه لا يلزمُ منه انتفاءُ قدرته على فعله ، فكذلك ما قدَّره من أفعال عباده . والله تعالى أعلم .

* * *

قوله : وذلِـكَ منْ عَقْدِ الإيمَانِ وَأُصُولِ المَعْرِفَةِ والاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ الله تَعَالَى ورُبُوبيتِهِ ، كَما قَالَ تَعالَى في/كِتَابِهِ : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] وقَالَ تَعالَى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً ﴾ [الأحزاب : ٣٨] . ٥١/ب

الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل

خلقها ، قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان : « أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلَائِكتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » . وقال ﷺ في آخر الحديث : « يا عُمَرُ ! أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ ؟ قَالَ : الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فإنَّهُ جِبْرَيـلُ ، أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم » . رواه مسلم(١٤٥) .

وقوله : والإقرارُ بتوحيد الله وربوبيته ، أي : لا يتم التوحيد والإقرار بالربوبية إلَّا بالإيمان بصفاته تعالى ، فإن من زعم خالقاً غيرَ الله ، فقد أشرك ، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله ؟! ولهذا كانت القدَريَّةُ مجوسَ هذه الأمة ، وأحاديثُهم في « السنن » .

وروى أبو داود(١٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، قال : « القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، إنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُّوهُم ، وإن ماتوا فلا تشهدوهم » .

وروى أبو داود(١٤٧) أيضاً عن حذيفة بن اليَمانِ رَضِيَ الله عنه قال : قَالَ

---

(١٤٥) رقم (٨) في الإيمان : باب وصف جبريل للنبي ﷺ والإيمان ، والترمذي رقم (٢٦١٣) في الإيمان : باب رقم ٤ ، وأبو داود رقم (٤٦٩٥) في السنة : باب في القدر ، والنسائي ٩٧/٨ في الإيمان : باب نعت الإسلام من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ورواه أيضاً من حديث أبي هريرة وأبي ذر رضي الله عنهما البخاري ١٠٦/١ ـ ١١٥ في الإيمان : باب سؤال جبريل النبي ﷺ ، ومسلم رقم (٩) و(١٠) فيه : باب الإسلام والإيمان والإحسان ، وأبو داود رقم (٤٦٩٨) في السنة : باب في القدر ، وابن ماجه رقم (٦٤) في المقدمة : باب في الإيمان .

(١٤٦) رقم (٤٦٩١) في السنة : باب في القدر ، وأحمد في « المسند » ٨٦/٢ ، والحاكم ٨٥/١ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، والآجري في « الشريعة » (١٩٠) ، وله شاهد من حديث حذيفة رضي الله عنه ـ الآتي بعده ـ ومن حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند الحاكم ٨٥/١ ، ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ابن ماجه رقم (٩٢) في المقدمة : باب في القدر ، فالحديث حسن بطرقه وشواهده .

(١٤٧) رقم (٤٦٩٢) في السنـة : باب في القـدر ، وأحمد في « المسنـد» ٤٠٧/٥ ، وهـو حـديث حسن بشواهده .

رَسُولُ الله ﷺ : « لِكُلِّ أُمَّةٍ مَجُوسٌ ، ومَجُوسُ هذِهِ الأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : لَا قَدَرَ ، مَنْ مَاتَ مِنْهُم فَلَا تَشْهَدُوا جَنَازَتَهُ ، وَمَنْ مَرِضَ مِنْهُم فَلَا تَعُودُوهُم ، وهُمْ شِيعَةُ الدَّجَّالِ ، وَحَقٌّ عَلَى الله أَنْ يُلْحِقَهُم بالدجَّالِ » .

وروى أبو داود(148) أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « لا تُجَالِسُوا أَهْلَ القَدَرِ وَلَا تُفَاتِحوهُمْ » .

وروى الترمذي(149) عن ابن عباس رضي الله عنهُمَا ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي(*) لَيْسَ لَهُمَا في الإِسْلَامِ نَصِيبٌ : المُرْجِئَةُ والقَدَرِيَّةُ » لكن كلُّ أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة ، وإنما يَصِحُّ الموقوفُ منها .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : القدر نِظامُ التوحيد ، فمن وحَّد الله ، وكذَّب بالقدر ، نقض تكذيبُه توحيده(150) . وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمَّن الإيمانَ بعلم الله القديم وما أظهر مِن علمه بخطابه وكتابه مقادير الخلائق ، وقد ضلَّ في هذا الموضع خلائقُ من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ، ممن يُنكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك ، فإنَّ ذلك كُلَّه مما يدخُل في التكذيب بالقدر .

وأما قدرةُ الله على كُلِّ شيء ، فهو الذي يكذِّبُ به القدريةُ جملة ،

---

(148) رقم (4710) في السنة : باب في القدر ، ورقم (4720) فيه : باب في ذراري المشركين ، وأحمد في « المسند » 1/30 ، واسناده ضعيف .

(149) رقم (2150) في القدر : باب ما جاء في القدرية ، وابن ماجة رقم (73) في المقدمة : باب في الإيمان ، واسناده ضعيف .

(*) في الأصل : « من بني آدم » وما أثبتناه من « سنن الترمذي » و« ابن ماجه » .

(150) رواه اللالكائي في « شرح السنة » 1/142/1 و2/262/6 موقوفاً وفيه من لم يسم ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » 7/197 : رواه الطبراني في « الأوسط » مرفوعاً ، وفي سنده هانىء بن المتوكل وهو ضعيف .

حيث جعلوه لم يخلُق أفعال العباد ، فأخرجوها عن قدرته وخلقه .

والقدرُ ، الذي لا ريبَ في دِلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه ، وأن الذي جحدُوه هم القدَرية المحضة بلا نزاع : هو ما قدَّره الله مِن مقاديرِ العباد ، وعامة ما يُوجد مِن كلام الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء ، كقول ابن عمر رضي الله عنهما ، لما قيل له : يزعمون أنْ لا قدر ، وأن الأمر أُنُفٌ : أخبِرْهم أني منهم بريء ، وأنهم مني بُرَاء(*) .

والقدر الذي هو التقدير المطابق للعلم : يتضمَّن أصولاً عظيمة :

أحدها : أنه عالم بالأمور المقدَّرة قبل كونها ، فيثبت علمُه القديم ، وفي ذلك الرد على مَن يُنكِرُ علمه القديم .

الثاني : أن التقدير يتضمَّنُ مقاديرَ المخلوقات ، ومقاديرها هي صفاتُها المعينة المختصة بها ، فإن الله قد جعل لِكُلِّ شيءٍ قَدْراً ، قال تعالى : ﴿ وخلَقَ كُلَّ شَيءٍ فَقدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] . فالخلق يتضمن التقدير ، تقديرَ الشيء في نفسه، بأن يجعل له قَدْراً، وتقديره قبل وجوده، فإذا كان قد كتب لِكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته ، كان ذلك أبلغَ في العلم بالأمور الجزئية المعيَّنة ، خلافاً لمن أنكر ذلك ، وقال : إنه يعلم الكليات دون الجزئيات ! فالقدَر يتضمن العلمَ القديمَ والعلمَ بالجزئيات .

الثالث : أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبلَ وجود المخلوقات إخباراً مفصَّلاً ، فيقتضي أنه يُمكن أن يُعلم العبادَ الأمورَ قبل وجودها علماً مفصلاً ، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم ، فإنه إذا كان يُعلم عبادَه [بذلك](**) ، فكيف لا يعلمه هو؟ ! .

(*) قطعة من حديث سؤال جبريل عليه السلام النبي ﷺ عن الاسلام والايمان ، وتقدم تخريجه ص ٢٧٩ رقم (١٤٥) ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

الرابع : أنه يتضمن أنه مختارٌ لما يفعله ، محدث له بمشيئته وإرادته ، ليس لازماً لذاته .

الخامس : أنه يدل على [حدوث](*) هذا المقدورِ ، وأنـه كان بعـدَ أن لم يكن ، فإنه يُقدِّره ، ثم يخلُقُهُ .

* * *

قوله : فَوَيْلٌ لِمَن صَاعَ لَهُ في القَدَرِ قَلْبَاً سَقِيماً . وفي نسخة لِمَنْ صَارَ قَلْبُهُ في القَدَرِ ، قَلْبَاً سَقِيمَاً ، لَقَدِ الْتَمَسَ بِوَهمِهِ في فَحْصِ الغَيْبِ سِرَّاً كَتِيمَاً ، وَعَادَ بِمَا قَالَ فِيهِ أَفَّاكاً أَثِيمَاً .

[إعلم أن](*) القلب له حياةٌ وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظمُ مما للبدن ، قال تعالى/: ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُه في الظُّلُماتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] . أي كان ميتاً بالكفر، فأحييناه بالإيمان، فالقلب الصحيح الحي إذا عُرِضَ عليه الباطلُ والقبائحُ ، نفر منها بطبعه ، وأبغضها ، ولم يلتفت إليها ، بخلاف القلب الميت ، فإنه لا يُفرِّقُ بين الحسن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : هَلَكَ مَنْ لم يكن لَهُ قلبٌ يعرف به المعروفَ والمنكر . وكذلك القلبُ المريض بالشهوة ، فإنه لِضعفه يميلُ إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه .

٥٢/أ

ومرضُ القلب نوعان ، كما تقدم : مرضُ شهوة ، ومرضُ شبهة ، وأردؤها مرضُ الشبهة ، وأردأ الشبُّه ما كان مِن أمر القدر ، وقد يمرض القلب ، ويشتد مرضه ، ولا يعرف صاحبه ، لاشتغالِه وانصرافه عن معرفة الصحة وأسبابها ، بل قد يموتُ وصاحبُه لا يشعر بموته ، وعلامةُ ذلك أنه

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

لا تُؤلمه جِراحات القبائح ، ولا يُوجعه جهلُه بالحق وعقائِدِهِ الباطلة ، فإن القلب إذا كان فيه حياة تألَّم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحقّ بحسب حياته ، و

. . . . ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيلاَمُ(*)

وقد يشعرُ بمرضه ، ولكن يشتدُّ عليه تحملُ مرارة الدواء والصبر عليها ، فيُؤثِرُ بقاءَ ألمه على مشقة الدواء ، فإن دواءَه في مخالفة الهوى ، وذلك أصعبُ شيءٍ على النفس ، وليس له أنفعُ منه .

وتارةً يُوطِّنُ نفسه على الصبر ، ثم ينفسِخُ عزمُه ، ولا يستمر معه ، لضعف علمه وبصيرته وصبره ، كمن دخل في طريق مخوف مُفضٍ إلى غاية الأمن ، وهو يعلم أنه إن صبر عليه ، انقضى الخوفُ وأعقبه الأمنُ فهو محتاج إلى قوة صبر ، وقوة يقين بما يصير إليه ، ومتى ضعف صبرُه ويقينه ، رجع من الطريق ، ولم يتحمل مشقتها ، ولا سيما إن عدم الرفيق ، واستوحش من الوحدة ، وجعل يقول : أين ذهب الناس فلي أُسوة بهم ! وهذه حال أكثر الخلق ، وهي التي أهلكتهم . فالبصير الصادق لا يستوحِشُ مِن قلة الرفيق ، ولا مِن فقده ، إذا استشعر قلبُه مرافقة الرَّعيل الأول ، ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ [النساء : ٦٩] .

وما أحسنَ ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة(**) في كتاب « الحوادث والبدع » :حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ،

(*) عجز بيت للمتنبي وصدره : مَنْ يَهُنْ يَسْهُلِ الهَوَانُ عَلَيْهِ .

(**) هو عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم بن عثمان بن أبي بكر بن عباس المقدسي ، الدمشقي الشافعي المعروف بأبي شامة . المؤرخ ، المقرىء ، المحدث ، ولد بدمشق سنة ٥٩٩ هـ وتوفي رحمه الله تعالى سنة ٦٦٥ ودفن بمقابر باب الفراديس . ومن تصانيفه : « الروضتين في أخبار الدولتين » و « الباعث على إنكار البدع والحوادث » و « المرشد الوجيز إلى علوم الكتاب العزيز » و « ابراز المعاني في شرح الشاطبية » وهو قيد الطبع من منشوراتنا ، وغيرها .

فالمرادُ لزومُ الحق وإتباعه ، وإن كان المتمسكُ به قليلاً ، والمخالفُ له كثيراً ، لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعةُ الأولى مِن عهد النبي ﷺ وأصحابة رضي الله عنهم ، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم .

وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه قال : « السُّنة ـ والذي لا إله إلَّا هو ـ بينَ الغالي والجافي ، فاصبِروا عليها رحمكم الله ، فإن أهلَ السنة كانوا أقلَّ الناسِ فيما مَضى ، وهم أقلُّ الناسِ فيما بَقِيَ ، الذين لم يذهبوا مـع أهل الإتراف في إسرافهم ، ولا مَعَ أهل البـدع في بدعتهم ، وصبَوا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك فكونُوا .

وعلامةُ مرض القلب عدولُه عن الأغذية النافعة الموافقة إلى الأغذية الضارة ، وعدولُه عن دوائه النافع إلى دوائه الضار .

فهاهنا أربعة أشياء : غذاء نافع ، ودواء شافٍ ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك .

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي على الضارّ المؤذي ، والقلب المريض بضد ذلك .

وأنفعُ الأغذية غذاءُ الإيمان ، وأنفعُ الأدوية دواءُ القرآن ، وكل منهما فيه الغذاء والدواء ، فمن طلبَ الشِّفاء في غير الكتاب والسنة ، فهو من أجهل الجاهلين وأضلُّ الضالين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىً وَشِفَاءٌ والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُون في آذَانِهِمْ وَقْرٌ وهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٤] . وقال تعالى : ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلمُؤْمِنينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمينَ إلَّا خَسَاراً ﴾ [الإسراء : ٨٢] . و« من » في قوله : ﴿ مِنَ القرآن ﴾ لبيان الجنس ، لا للتبعيض ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وَهُدَىً وَرَحْمَـةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية ، وأدواء الدنيا والآخرة ، وما كل أحد يُؤهل للاستشفاء به . وإذا أحسن العليلُ التداويَ به ووضعه على دائه بصدقٍ وإيمان وقبولٍ تامّ . واعتقاد جازم واستيفاء/شروطه : ٥٢/ب
لم يقاوم الداءُ أبداً ، وكيف تُقاوِمُ الأدواءُ كلامَ ربِّ الأرض والسماء الذي لو نزل على الجبال لصدَعها ، أو على الأرض لقطَعها ؟! فما من مرض من مرض القلوبِ والأبدان إلا وفي القرآن سبيلُ الدلالة على دوائه وسببه ، والحِمْية منه لمن رزقه الله فهماً في كتابه .

وقوله : لقد إلتمس بوهمه في فحص الغيب سرّاً كتيماً، أي: طلب بوهمه في البحث عن الغيب سراً مكتوماً ، إذ القدرُ سر الله في خلقه ، فهو يرومُ ببحثه الاطلاع على الغيب ، وقد قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدَاً * إلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦ - ٢٧]، إلى آخر السورة .

وقوله: وعاد بما قال فيه، أي : في القدر . أفَّاكاً: كذاباً . أثيماً ، أي مأثوماً .

* * *

قوله : والعَرْشُ والكُرْسِيُّ حَقٌّ .

كما بين تعالى في كتابه ، قال تعالى : ﴿ ذُو العَرْشِ المَجِيدُ * فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٥ - ١٦] . ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ ﴾ [غافر : ١٥] . ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] . ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٤] . في غير ما آية من القرآن(*) : ﴿ لَا إِلٰهَ إلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم ﴾ [المؤمنون : ١١٦] . ﴿ الله لَا إِلٰه إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ

(*) كما في الأعراف : ٥٤ ، ويونس : ٣ ، والرعد : ٢ ، والفرقان : ٥٩ ، والسجدة : ٤ ، والحديد : ٤ .

العَظيم ﴾ [النمل : ٢٦] . ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] . ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِية ﴾ [الحاقة : ١٧] . ﴿ وَتَرَى المَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : ٧٥] .

وفي دُعاء الكَرب المروي في « الصحيح »(١٥١) : « لا إِلَهَ إِلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ ، لَا إِله إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ ، لَا إِله إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّماواتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمُ » .

وروى الإمامُ أحمد رحمه الله في حديث الأوعال عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ ؟ قَالَ : قُلْنَا : الله وَرَسُولُه أَعْلَم ، قَالَ : بَيْنَهُما [مَسِيرَةُ](*) خَمْسَمائةِ سَنَة ، وَمِنْ كُلِّ سَماءٍ إلى سَماءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمائة سَنَة ، وكَثفُ كُلِّ سَماءٍ مَسِيرَةُ خَمْسمائَةٍ ، وَفَوْقَ السَّماءِ السَّابعَة بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاَه كَمَا بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ ، [ثُمَّ فَوْقَ ذلِكَ ثَمانِيَةُ أَوْعَالٍ ، بَيْنَ رُكَبِهِن وَأَظْلافِهِنّ كَمَا بَيْنَ السَّماء والأَرْضِ](*) ، ثُمَّ فَوْقَ ذلِكَ العَرْش بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاَهُ كما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْض، والله فَوْقَ ذلِكَ ، ولَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ شَيءٌ » . ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه(١٥٢) .

---

(١٥١) رواه البخاري ١١/١٢٣ في الدعوات : باب الدعاء عند الكرب ، و١٣ / ٣٥٠ في التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ وباب قوله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ، ومسلم رقم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء : باب دعاء الكرب ، والترمذي رقم (٣٤٣٠) في الدعوات : باب ما يقول عند الكرب ، وأحمد في « المسند » ١/٢٢٨ و ٢٥٤ و ٢٥٩ و٢٦٨ و ٢٨٠ و ٣٣٩ و ٣٥٦ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

(*) الزيادة من كتب الحديث .

(١٥٢) رواه أبو داود رقم (٤٧٢٣) و(٤٧٢٤) و(٤٧٢٥) في السنة : باب في الجهمية ، والترمذي رقم (٣٣١٧) في تفسير سورة الحاقة ، وابن ماجه رقم (١٩٣) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، وأحمد في « المسند » ١ / ٢٠٦ و٢٠٧ ، من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وفي سنده عبد الله بن عميرة ، قال الذهبي في « الميزان » : فيه جهالة .

وروى أبو داود[153] وغيره بسنده إلى رسول الله ﷺ ، من حديث الأطيط ، أنَّه ﷺ قال : « إنَّ عَرْشَهُ عَلَى سمَاواتِهِ كهكذا ، وقَالَ بأصَابِعِه ، مثل القُبَّة » . الحديث .

وفي « صحيح البخاري »[154] عن رسول الله ﷺ أنه قال : « فَإِذَا سَأَلْتُمُ الله فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ ، فَإِنَّه أَوْسَطُ الجَنَّةِ ، وَأَعْلَىٰ الجَنَّةِ(*) وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحمٰنِ » . ويروى « وَفَوْقَه » بالنصب على الظرفية ، وبالرفع على الابتداء ، أي : وسقفه .

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم مِن كل جهة ، وربما سموه : الفلكَ الأطلس ، والفلكَ التاسع . وهذا ليس بصحيحٍ ، لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحملُه الملائكةُ ، كما قال ﷺ : « فإِنَّ النَّاسَ يُصعَقُونَ . فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذُ بِقَائِمَة مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ »(**) .

والعرش في اللغة : عبارة عن السرير الذي للمَلك ، كما قال تعالى عن بلقيس : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣] . وليس هو فلكاً ، ولا تفهم منه العربُ ذلك ، والقرآن إنما نزل بلغة العرب ، فهو سرير ذو قوائم تحمِلُه الملائكة ، وهو كالقُبة على العالم ، وهو سقفُ المخلوقات .

---

(١٥٣) رقم (٤٧٢٦) في السنة : باب في الجهمية ، وإسناده ضعيف . قال الألباني : لا يصح في أطيط العرش حديث .

(١٥٤) ١٣/ ٣٤٩ في التوحيد : باب ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ و٦/ ٩ في الجهاد : باب درجة المجاهدين في سبيل الله ، وأحمد في « المسند » ٢/ ٣٣٥ .

(*) في الأصل : فإنه أعلا الجنة وأوسط الجنة » والتصحيح من « صحيح البخاري » .

(**) تقدم تخريجه ص ١٢٥ رقم ٥٧ .

فمن شعر أمية بن أبي الصلت :

مَجِّدُوا الله فَهْوَ لِلمَجْدِ أَهْلٌ رَبُّنَا في السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرَا
بِالبِنَاء العَالِي الَّذِي بَهَرَ النَّا سَ وَسَوَّى فَوْقَ السَّمَاءِ سَرِيرَا
شَرْجَعاً لا يَنَالُه بَصَرُ العَيْنِ تَرى حَوْلَه المَلائِكُ صُورَا

الصُّور هنا : جمع أصْورَ : وهو المائل العنق لنظره إلى العلو .
والشرْجع : هو العالي المنيف ، والسرير : هو العرش في اللغة .

ومِن شعر عبد الله بن رَوَاحة رضي الله عنه ، الذي عرَّض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته :

شَهِدْتُ بأنّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَأَنَّ النَّارَ مَثْوى الكَافرينَا
وأَنَّ العَرْشَ فَوْقَ الماءِ طَافٍ وَفَوْقَ العَرْشِ رَبُّ العَالِمِينا
وتَحْمِلُهُ مَلائِكَةٌ شِدادٌ مَلائِكَةُ الإلهِ مُسَوَّمِينَا

ذكره ابن عبد البر[155] وغيره من الأئمة .

وروى أبو داود[156] عن النبي ﷺ أنه قال : « أذن لي أَنْ أُحَدِّث عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ الله عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ : إن مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ إلى عاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمائة عَامٍ » . ورواه ابن أبي حاتم ولفظه : « تَخْفُقُ الطَّيْرُ سَبْعمِائَة عَامٍ » .

---

(١٥٥) في « الاستيعاب » ٢/ ٢٨٧ . وقوله : « رويناه من وجوه صحاح » فيه نظر ، والإمام الذهبي تعقبه في « العلو الغفار » ص ١٠٦ معقباً عليه بقوله : « روي من وجوه مرسلة » ثم ذكرها .

(١٥٦) رقم (٤٧٢٧) في السنة : باب في الجهمية والطبراني في « الأوسط » لكن بلفظ : « سبعين عاماً » كلاهما من حديث جابر رضي الله عنه ، قال في « المجمع » ١/ ٨٠ : ورجاله رجال الصحيح . انظر « الأحاديث الصحيحة » للألباني رقم (١٥١) .

وأما مَنْ حرَّف كلامَ الله ، وجعل العرشَ عبارة عن المُلْك ، كيف يصنع بقوله تعالى : ﴿ ويَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ ﴾/[الحاقة : ١٧] . ٥٣/أ
وقوله : ﴿ وكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ ﴾ [هود : ٧] . أيقول : ويحمل ملكَه يومئذ ثمانية ؟! وكان ملكه على الماء ! ويكون موسى عليه السلام آخذاً بقائمة من قوائم الملك ؟! هل يقولُ هذا عاقلٌ يدري ما يقول ؟! .

وأما الكُرسي ، فقال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّه السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

وقد قيل : هو العرش ، والصحيح أنه غيرُه ، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره .

وروى ابنُ أبي شيبة في كتاب « صفة العرش » ، والحاكم في « مستدركه » ، وقال : إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، في قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، أنه قال : الكرسيُّ موضِعُ القدمين ، والعرش لا يقدِّر قدْره إلَّا الله تعالى(١٥٧) . وقد روي مرفوعاً ، والصوابُ أنه موقوف على ابن عباس .

وقال السدي : السَّماوات والأرض في جوف الكرسي ، والكرسي بين يدي العرش .

وقال ابن جرير : قال أبو ذر رضي الله عنه : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « مَا الكُرْسِيُّ في العَرْشِ إلا كَحلْقةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَي فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ »(١٥٨) .

---

(١٥٧) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢٨٢/٢ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين .
(١٥٨) لقد ثبت في المرفوع عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عند ابن جرير ١٠/٣ ، وابن أبي =

وقيل : كرسيه علمُه ، ويُنسب إلى ابن عباس ، والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة ، كما تقدم ، ومن قال غير ذلك ، فليس له دليل إلا مجرد الظن ، والظاهر أنه مِن جراب الكلام المذموم ، كما قيل في العرش ، وإنما هو كما قال غيرُ واحد من السلف : بين يدي العرش كالمرقاة إليه .

* * *

قوله : وَهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنِ العَرْشِ وَمَا دُونَه ، مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيءٍ وَفَوْقَهُ ، وَقَدْ أَعْجَزَ عَنِ الإحاطَةِ خَلْقَهُ .

أما قولُه: «وهو مستغنٍ عن العرش وما دُونه»، فقال تعالى : ﴿ إنَّ الله لَغَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦] . وقال تعالى : ﴿ والله هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] . وإنما قال الشيخُ رحمه الله هذا الكلامَ هنا ، لأنه لما ذكر العرشَ والكرسي ، ذكر بعد ذلك غِناه سبحانه عن العرش وما دُونَ العرش ، لِيبيِّنَ أن خلقه العرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه ، بل له في ذلك حكمة اقتضته ، وكون العالي فوقَ السافل لا يلزمُ أن يكونَ السافلُ حاوياً للعالي ، محيطاً به حاملاً له ، لا أن يكونَ للإعلاء مفتقراً إليه . فانظر إلى السماء ، كيف هي فوقَ الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالربُّ تعالى أعظمُ شأناً وأجلُّ مِن أن يلزم مِن علوِّه ذلك ، لوازمُ علوه من خصائصه ، وهي حملُه بقدرتهِ للسافل ، وفقرُ السافل ، وغناه هو سبحانه عن السافل ، وإحاطتُه عزَّ وجل به ، فهو فوقَ العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته ، وغناه عن العرش ، وفقر العرشِ إليه ، وإحاطته بالعرش ، وعدم إحاطة العرش به ،

= شيبة ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » بلفظ : ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة .

وحصره للعرش ، وعدم حصر العرش له ، وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق .

ونُفاةُ العلوَ أهلُ التعطيل لو فصَّلوا بهذا التفصيل ، لهدوا إلى سواء السبيل ، وعَلِمُوا مطابقة العقل للتنزيل ، ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليلَ ، فضَلُّوا عن سواء السبيل .

والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رضي الله عنه ، لما سُئِلَ عن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ [الأعراف : ٥٣] كيف استوى ؟ فقال : الإستواءُ معلوم والكيفُ مجهول .

ويُروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي ﷺ[١٥٩] .

وأما قولُه : محيطٌ بكل شيء وفوقَه ، وفي بعض النسخ : محيط بكل شيء فوقه . بغير الواو من قوله : فوقه ، والنسخة الأولى هي الصحيحة ، ومعناها : أنه تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ وفوقَ كل شيء . ومعنى الثانية : أنه محيطٌ بكل شيء فوقَ العرش . وهذا ـ والله أعلم ـ إما أن يكون اسقطها بعضُ النساخ سهواً ، ثم استنسخ بعضُ الناس من تلك النسخة ، أو أن بعضَ المحرِّفين الضالين أسقطها قصداً للفساد ، وإنكاراً لصفة الفوقية ! وإلاَّ فقد قام الدليلُ على أن العرش فوقَ المخلوقات وليسَ فوقه شيء من المخلوقات ، فلا يبقى لِقوله : محيط ـ بمعنى : محيط بكل شيء فوقَ العرش ، والحالة هذه ـ معنىً ! إذْ ليس فوقَ العرش مِن المخلوقات ما يُحيط به . فتعين ثبوتُ الواو . ويكون المعنى : أنه سبحانه محيط بكل شيء ، وفوقَ كل شيء .

أمَّا كونه محيطاً بكل شيء ، فقال تعالىٰ : ﴿ والله مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾

---

(١٥٩) لا يصح في المرفوع . هو من قول مالك أو أم سلمة ، والأشهر الأول .

[البروج : ٢٠] ﴿ أَلَا إِنَّه بِكلِّ شيءٍ مُحِيطٌ ﴾ [حٓم السجدة : ٥٤] . ﴿ وِلله مَا في السَّمَوٰاتِ ومَا في الأَرْضِ وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيءٍ مُحِيطاً ﴾ [النساء : ١٢٦] . وليس المرادُ مِن إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخلُ ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذٰلك عُلوّاً كبيراً ، وإنما المراد : إحاطة عظمته ، وسَعَةُ علمه وقدرته ، وأنها/ بالنسبة الى عظمته كالخردلة ، كما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : ما السَّماواتُ السبعُ والأرضون السبع وما فيهن وما بينَهن في يد الرحمن ـ إلَّا كخَرْدَلَةٍ في يد أحدكم .

٥٣/ب

ومن المعلوم ـ ولله المثلُ الأعلى ـ أن الواحدَ منا إذا كان عنده خردلة ، إن شاء قبضها وأحاط قبضته بها ، وإن شاء جعلها تحته ، وهو في الحالين مباين لها ، عالٍ عليها فوقَها مِن جميع الوجوه ، فكيف بالعظيم الذي لا يُحيط بعظمته وصف واصف ، فلو شاء لقبض السَّماواتِ والأرضَ اليومَ ، وفعل بها كما يفعل بها يومَ القيامة ، فإنه لا يتجدَّدُ له أنذاك قدرة ليس عليها الآن ، فكيف يستبعِدُ العقلُ مع ذلك أنه يدنو سبحانه مِن بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوقَ سماواته ؟ أو يُدني إليه من يشاء من خلقه ؟ فمن نفى ذلك ، لم يقدِّرُه حقّ قدره ، وفي حديث أبي رَزين المشهور الذي رواه عن النبي ﷺ في رؤية الربِّ تعالى : فقال له أبو رزين : كيف يسعُنا يا رسولَ الله ! وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال : سأُنْبِئُكَ بِمثلِ ذَلِكَ في آلآءِ الله : هَذَا القَمَرَ ، آيَةٌ مِنْ آيَاتِ الله ، كُلُّكُمْ يَرَاه مُخْلِياً بِهِ ، والله أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ »[١٦٠] . وإذاً قد تَبَيَّنَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ . فهذا يُزيل كُلَّ إشكال ! ويُبطل كلَّ خيال .

وأما كونُه فوقَ المخلوقات ، فقال تعالى : ﴿ وهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾

---

(١٦٠) رواه أحمد في « المسند » ٤ / ١١ و١٢ ، وأبو داود رقم (٤٧٣١) في السنة : باب في الرؤية ، وابن ماجة رقم (١٨٠) في المقدمة : باب فيما أنكرت الجهمية ، وإسناده ضعيف .

[الأنعام : ١٨ و ٦١] . ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] . وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدِّم : « والعرشِ فَوْقَ ذٰلِكَ ، والله فَوْقَ ذٰلِكَ كُلِّهِ »(*) .

وقد أنشد عبد الله بن رَوَاحة رضي الله عنه شعرَه المذكور بينَ يدي النبي ﷺ ، وأقرَّه على ما قال ، وضحك منه(**) .

وكذا أنشده حسانُ بنُ ثابت رضي الله تعالى عنه قوله :

شَهِدْتُ بِإِذْنِ الله أَنَّ مُحَمَّدَاً ... رَسُولُ الَّذِي فَوْقَ السَّمٰوَاتِ مِنْ عَلُ
وأَنَّ أبا يَحْيى وَيَحْيَى كِلَاهُمَا ... لَـهُ عَمَـلٌ مِنْ رَبِّهِ مُتَقَبَّـلُ
وأَنَّ الَّذِي عَادَى اليَهُودُ ابنَ مَرْيَم ... رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي العَرْشِ مَرْسَلُ
وأَنَّ أَخَا الأَحْقَافِ إِذْ قام فيهمُ ... يَقُومُ بِذَاتِ الإِلَـه وَيَعْـدِلُ(***)

فقال النبيُّ ﷺ : « وأَنَا أَشْهَدُ »(١٦١) .

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه ، عن النبِّي ﷺ ، أنه قال : « لَما قَضَى الله الخَلْقَ كَتَبَ في كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » وفي رواية : « تَغْلِبُ غَضَبِي » رواه البخاري وغيره(١٦٢) .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٨٦ رقم ١٥٢ .

(**) تقدم تخريجه ص ٢٨٨ رقم ١٥٥ .

(***) وفي هامش الأصل : يجاهد في ذات الإله ويعدل نسخة .

(١٦١) الأبيات في ديوان حسان طـ البرقوقي ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ وفي بعض أبياتها اختلاف يسير في ألفاظها .

(١٦٢) رواه البخاري ١٣/٣٢٥ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ وباب ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ ، وباب قوله : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ ، وباب قوله : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ وباب قوله : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ ، ومسلم رقم (٢٧٥١) في التوبة : باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ، والترمذي رقم (٣٥٣٧)في الدعوات : باب رقم (١٠٩) ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٢ و٢٥٨ و ٢٦٠ و ٢٩٣ و٣١٣ و٣٥٨ و٣٨١ و٣٩٧ و٤٣٣ و٤٦٦ وابن ماجة رقم (٢٤٩٥) في الزهد : باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة .

وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه . قال : « بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ إِذْ سَطَعَ لَهُم نُورٌ ، فَرَفَعُوا إِلَيْهِ رُؤُسَهُمْ ، فَإِذَا الجَبَّارُ جَلَّ جَلاَلَهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ، وَقَالَ : يَا أَهْلَ الجنَّةِ ! سَلامٌ عَلَيْكُم ، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَه تَعَالَى : ﴿ سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] . فَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ . فَلا يَلْتَفِتُونَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنَ النَّعِيمِ مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ »(*) .

وروى مسلم عن النبيِّ ﷺ ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ والظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ ﴾ [الحديد : ٣] بقوله : « أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْس قَبْلَكَ شَيءٌ ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ ، وأَنْتَ الظَّاهِرُ ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيءٌ ، وَأَنْتَ البَاطِنُ ، فَلَيْسَ دُونَكَ شيء »(**) .

والمراد بالظهور هنا : العلو ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهرُوه ﴾ [الكهف : ٩٧] ، أي يعلُوه .

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة : اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته ، وإسمان لعلوه وقربه .

وروى أبو داود عن جُبير بن محمد بن جبير بن مطعم ، عن أبيه ، عن جدِّه ، قال : أتى رسولَ الله ﷺ أعرابيٌّ ، فقال يا رسولَ الله ! جُهدت الأنفسُ ونُهِكَتِ الأموالُ ، أَوْ هَلَكَتْ ، فاستَسْقِ لَنَا ، فإنا نستشفِعُ بِكَ عَلَى الله ، ونستشفِعُ بالله عليكَ ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ : « وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَا تَقُولُ ؟ » وَسَبَّحَ رَسُولُ الله ﷺ ، فما زال يُسبِّحُ حتى عُرِفَ ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : « وَيْحَكَ ! إِنَّهُ لاَ يُستَشْفَعُ بِالله عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، شَأْنُ الله أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِك ، وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَا الله ؟ إِنَّ الله فَوْقَ عَرْشِهِ ، وَعَرْشُه فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ ، وَقَالَ بأصابِعِهِ مثل

(*) تقدم تخريجه ص ١٣٩ رقم ٦٩ .

(**) تقدم تخريجه ص ٥٧ رقم ١٩ .

القُبَّة ، وإِنَّهُ لَيئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرحلِ الجَدِيدِ بالرَّاكِبِ »(*) .

وفي قصة سعدِ بن معاذ يَوم بني قُريظة ، لما حكم فيهم أن تُقتل مُقاتلتُهم وتُسْبَى ذرارِيهم ، فقال النبيُّ ﷺ : « لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ المَلِكِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوات » . وهو حديثٌ صحيح ، أخرجه الأموي في « مغازيه » وأصله في « الصحيحين »[١٦٣] .

١/٥٤ وروى البخاريُّ[١٦٤] عن زينب رضي الله عنها : « أَنَّها/كَانَتْ تَفْخَرُ عَلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، وتَقُولُ : زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ ، وَزَوَّجَنِي الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماوات » .

وعن عمر رضي الله عنه : أنه مرَّ بعجوز ، فاستوقفته ، فوقف معها يحدِّثها ، فقال رجل : يا أميرَ المؤمنين ! حبستَ الناسَ بسبب هذه العجوز ؟ فقال: وَيْلَكَ! أَتَدْرِي مَنْ هٰذِهِ؟ هذه امرأةٌ سَمِعَ الله شَكْوَاها مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ ، هٰذِهِ خَوْلَةُ الَّتِي أَنْزَلَ الله فِيهَا : ﴿ قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى الله ﴾ [المجادلة : ١] . أُخرجه الدارمي[١٦٥] .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٨٧ رقم ١٥٣ .

(١٦٣) رواه دون قوله : «فوق سبع سماوات» : البخاري ٦/١١٥ في الجهاد : باب إذا نزل العدو على حكم رجل ، و٧/٩٤ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب سعد بن معاذ ، و٧/٣١٦ - ٣١٧ في المغازي : باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى نبي قريظة . ومحاصرته إياهم ، و١١/٤١ في الاستئذان : باب قول النبي ﷺ : « قوموا إلى سيدكم » ، ومسلم رقم (١٧٦٨) في الجهاد : باب جواز قتل من نقض العهد ، وأحمد في « المسند » ٣/٢٣ . وأما الزيادة فقد تفرد بها محمد بن صالح التمار ، ومثله لا يقبل تفرده ، وصححها المصنف وكذا الذهبي في « العلو الغفار » .

(١٦٤) رواه البخاري ١٣/٣٤٧ - ٣٤٨ في التوحيد : باب ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ ، والترمذي رقم (٣٢١٠) في التفسير : باب ومن سورة الأحزاب ، والنسائي ٦ / ٨٠ في النكاح : باب صلاة المرأة إذا خطبت واستخارتها ربها ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(١٦٥) رواه عثمان بن سعيد الدارمي في « الرد على الجهمية » ص ٢١ من طبعة « ليدن » من =

وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، في قوله : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنَ شَمائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧] ، قال : ولم يستطع أن يقول مِن فوقهم ، لأنه قد عَلِمَ أن الله سبحانه من فوقهم .

ومن سَمِعَ أحاديثَ الرسول ﷺ وكلامَ السلف ، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر .

ولا ريبَ أن الله سبحانه لما خَلق الخلق ، لم يخلقهم في ذاته المقدسة ، تعالى الله عن ذلك ، فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، فتعيَّن أنه خلقهم خارجاً عن ذاته ، ولو لم يتَّصِفْ سبحانه بفوقية الذات ، مع أنه قائم بنفسه ، غيرُ مخالط للعالم ، لكان متصفاً بضدِّ ذلك ، لأن القابل للشيء لا يخلُو منه ، أو مِن ضده ، وضدُّ الفوقية : السفول ، وهو مذموم على الإطلاق ، لأنه مستقرُّ إبليس وأتباعه وجنوده .

فإن قيل : لا نُسَلِّم أنه قابلٌ للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوتُ ضدها .

قيل : لو لم يكن قابلاً للعلو والفوقية . لم تكن له حقيقة قائمة بنفسها ، فمتى أقررتم بأنه ذاتٌ قائم بنفسه ، غيرُ مخالط للعالم ، وأنه موجود في الخارج ، ليس وجوده ذهنيًّاً فقط ، بل وجودُه خارجَ الأذهان قطعاً .

وقد علم العقلاءُ كلهم بالضرورة أن ما كان وجودُه كذلك ، فهو ، إمَّا داخل العالم ، وإما خارج عنه ، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب ، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان

= طريق أبي يزيد المدني عن عمر ، قال الذهبي في « العلو » ص ١١٣ : وهذا إسناد صالح فيه انقطاع أبو يزيد لم يلق عمر رضي الله عنه .

العلمُ بالمباينة أظهر منه ، وأوضح وأبين ، وإذا كان صفةُ العلو والفوقية صفة الكمال ، لا نقصَ فيه ، ولا يستلزم نقصاً ، ولا يُوجب محذوراً ، ولا يُخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً ، فنفيُ حقيقته يكون عينَ الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً . فكيف إذا كان لا يُمكِنُ الإقرارُ بوجوده وتصديق رسله، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك ؟ فكيفَ إذا إنضم إلى ذلك شهادةُ العقول السليمة ، والفِطرِ المستقيمةِ ، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه ، وكونه فوقَ عباده ، التي تَقرُبُ من عشرين نوعاً :

أحدها : التصريحُ بالفوقية مقروناً بأداة « من » المعينة للفوقية بالذات ، ٥٤/ب كقوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] .

الثاني : ذِكرُها مجردةً عن الأداة ، كقوله تعالى : ﴿ وهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨ و ٦١] .

الثالث : التصريحُ بالعروج إليه نحو : ﴿ تَعْرُجُ المَلاَئِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج : ٤] . وقوله ﷺ : «فَيَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ »(١٦٦) .

الرابع : التصريحُ بالصعود إليه ، كقوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] .

الخامس : التصريحُ برفعه بعضَ المخلوقات إليه ، كقوله تعالى : ﴿ بَلْ

---

(١٦٦) قطعة من حديث رواه البخاري ٢/٢٧ ـ ٣١ في مواقيت الصلاة : باب فضل صلاة العصر ، وفي بدء الخلق : باب ذكر الملائكة ، و١٣/٣٥٣ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ و١٣/٣٧٨ باب كلام الرب تعالى مع جبريل ونداء الله ملائكته ، ومسلم رقم (٦٣٢) في المساجد : باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما ، و« الموطأ » ١/١٧ في قصر الصلاة في السفر : باب جامع الصلاة ، والنسائي ١/٢٤٠ ـ ٢٤١ في الصلاة : باب فضل صلاة الجماعة ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٥٧ و٣١٢ و٤٨٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وسيرد لفظه ص ٤٤١ .

رَفَعَهُ الله إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٨] ، وقوله : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

السادس : التصريحُ بالعلُوِّ المطلَقِ الدَّالِّ على جميع مراتب العلو ، ذاتاً وقدراً وشرفاً ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . ﴿ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ [سَبأ : ٢٣] ﴿ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] .

السابع : التصريحُ بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [غافر : ٢] . ﴿ تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ الله العَزِيزِ الحَكِيمِ ﴾ [الزمر : ١] . ﴿ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [فصلت : ٢] . ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] . ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ﴾ [النحل : ١٠٢] . ﴿ حمٓ * وَالكِتَابِ المُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان : ١ ـ ٥] .

الثامن : التصريحُ باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضَها أقربُ إليهِ من بعض ، كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] . ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ [الأنبياء : ١٩] . ففرَّق بين « من له » عموماً وبين « من عنده » مِن ملائكته وعبيده خصوصاً ، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الربُّ تعالى على نفسه : « أَنَّه عِنْدَه فَوْقَ العَرْشِ »(*) .

التاسع : التصريحُ بأنه تعالى في السماء ، وهذا عِند المفسرين من أهل السُّنَّةِ على أحد وجهين : إما أن تكون « في » بمعنى « على » ، وإما أن يُراد بالسماء العلو ، لا يختلِفُون في ذلك ، ولا يجوزُ الحمل على غيره .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٨٦ رقم ١٥٢ .

العاشر : التصريحُ بالاستواء مقروناً بأداة « على » مختصاً بالعرش ، الذي هو أعلى المخلوقات ، مصاحباً في الأكثر لأداة : « ثم » الدالة على الترتيب والمهلة .

الحادي عشر : التصريحُ برفع الأيدي إلى الله تعالى ، كقوله ﷺ : « إنَّ الله يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إذا رَفَعَ إلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْراً »(١٦٧) . والقولُ بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده مِن نفسه كُلُّ داع ، كما يأتي إن شاء الله تعالى .

الثاني عشر : التصريحُ بنزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكونُ مِن علو إلى سفل .

الثالث عشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلمُ به ، وبما يجِبُ له ويمتنِعُ عليه مِن جميع البشر ، لما كان بالمجمع الأعظم [الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم](*) ، قال لهم : « أَنْتُمْ مَسؤُولُونَ عَنِّي ، فَماذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ » ، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء ، رافعاً لها إلى مَنْ هُوَ فَوْقَها وفَوْقَ كُلِّ شيء ، قائلاً : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ »(١٦٨) . فكأنَّا نُشاهِدُ تلك

---

(١٦٧) رواه الترمذي رقم (٣٥٥١) في الدعوات : باب في كرم الله تعالى ، وأبو داود رقم (١٤٨٨) في الصلاة : باب الدعاء ، وابن ماجه رقم (٣٨٦٥) في الدعاء : باب رفع اليدين في الدعاء ، وحسنه الترمذي ، وصححه ابن حبان رقم (٢٣٩٩) و (٢٤٠٠) . وقال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : ١٢١/١١ : وسنده جيد .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(١٦٨) قطعة من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في حجة النبي ﷺ رواه مسلم رقم (١٢١٨) في الحج : باب حجة النبي ﷺ ، وأبو داود رقم (١٩٠٥) وفي المناسك : باب صفة حجة النبي ﷺ ، وابن ماجه رقم (٣٠٧٤) في المناسك : باب حجة رسول الله ﷺ ، والدارمي رقم (١٨٥٧) في المناسك : باب في سنة الحج .

الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله ، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ، ونشهد أنه بلَّغَ البلاغَ المبين ، وأدَّى رسالة ربه كما أمر ، ونصحَ أمته غاية النصيحة ، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تَنَطُّع المتنطعين ، وحذلقة المتحذلقين ! والحمدُ لله رب العالمين .

الرابع عشر : التصريحُ بلفظ : « الأين » كقول أعلمِ الخلق به ، وأنصحِهم لأمته ، وأفصحِهم بياناً عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يُوهم باطلاً بوجه : « أَيْنَ الله »(١٦٩) ، في غير موضع .

الخامس عشر : شهادتُه ﷺ لمن قال : إنَّ ربه في السماء بالإيمان .

السادس عشر : إخبارُه تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطَّلع إلى إلٰه موسى ، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات ، فقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحَاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمٰوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلٰهِ مُوسَى وإِنِّي لأَظُنُّه كَاذِباً ﴾ [غافر : ٣٦ ـ ٣٧] . فمن نفى العلو من الجهمية فهو فِرعوني ، ومن أثبته ، فهو موسوي محمدي .

السابع عشر : إخبارُه ﷺ أنه تردَّد بين موسى عليه السلام وبينَ ربه ليلةَ المِعراج بسبب تخفيفِ الصلاة ، فيصعَدُ إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار(*) .

الثامن عشر : النصوصُ الدالة على رؤ ية أهل الجنة له تعالى مِن

---

(١٦٩) رواه مسلم رقم (٥٣٧) في المساجد ومواضع الصلاة فيها : باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته ، وأبو داود رقم (٩٣٠) في الصلاة : باب تشميت العاطس في الصلاة ، والنسائي ٣/١٤ ـ ١٩ في الصلاة : باب الكلام في الصلاة ، وأحمد في « المسند » ٥/٤٤٧ و٤٤٨ ، من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه .

(*) تقدم تخريجه ص ٢١٨ رقم ٩٩ .

الكتاب والسنة ، وإخبار النبيِّ ﷺ أنهم يرونه كرؤ ية الشمس والقمر ليلةَ البدر ليس دونه سحابٌ ، فلا يرونه إلا مِن فوقهم ، كما قال النبي ﷺ : « بَيْنَا أَهْلُ الجَنَّةِ في نَعِيمِهِمْ ، إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نورٌ، فَرَفَعُوا رُؤُسَهُمْ، فإِذَا الجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِم وَقَال : يَا أَهْلَ الجَنَّةِ ! سَلَامٌ عَلَيْكُم، ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تعالى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨] ثُمَّ يَتَوَارَى عَنْهُم ، وَتَبْقَى رَحْمَتُه وَبَرَكَتُه عَلَيْهِمْ في دِيَارِهِمْ » . رواه الإمام أحمد في « المسند » ، وغيره ، من حديث جابر رضي الله عنه(*) . ولا يتم إنكارُ الفوقية إلا بإنكار الرؤ ية .

ولهذا طرَّد الجهمية النفيين ، وصدّق أهل السنة بالأمرين معاً ، وأقرُّوا بهما ، وصار من أثبت الرؤ ية ونفى العلوّ مذبذباً بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وهذه الأنواع من الأدلة لو بُسِطَتْ أفرادُها لبلغتْ نحوَ ألفِ دليل ، فعلى المتأول أن يُجيب عن ذلك كُلِّه ! وهيهاتَ له بجواب صحيح عن بعض ذلك !

وكلامُ السلف في إثبات صفة العلو كثير جدّاً : فمنه : ما روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه «الفاروق» بسنده إلى أبي مطيع البلخي : أنه سأل أبا حنيفة رضي الله عنه عمن قال : لا أَعْرِفُ ربي في السماء أم في الأرض ؟ فقال : قد كفر ، لأن الله يقول : ﴿ الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] وعرشُه فَوْقَ سبعِ سماواته ، قلتُ : فإن قال : إنه على العرش ، ولكن يقول : لا أدري العرشُ في السماء أم في الأرض ؟ قال : هو كافر ، لأنه أنكر أنه في السماء ، فمن أنكر أنه في السماء ، فقد كفر .

(*) تقدم تخريجه ص ١٣٩ رقم ٦٩ .

وزاد غيرُه : لأن الله في أعلى عليين ، وهو يُدعى مِن أعلى ، لا من أسفل . انتهى .

ولا يُلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسِبُ إلى مذهب أبي حنيفة ، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم ، مخالفون له في كثير من اعتقاداته ، وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد رضي الله عنهم من يُخالفهم في بعض اعتقاداتهم .

وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي لما أنكر أن يكون الله عز وجل فوقَ العرش مشهورة . رواها عبد الرحمن ابن أبي حاتم(*) وغَيرُه .

ومن تأول « فوق » ، بأنه خيرٌ مِن عباده وأفضل منهم ، وأنه خير من العرش/وأفضلُ منه ، كما يقال : الأمير فوقَ الوزير ، والدينار فوق الدرهم ، فذلك مما تنفِرُ عنه العقولُ السليمة ، وتشمئِزُّ منه القلوب الصحيحة ! فإن قولَ القائل ابتداء : الله خيرٌ من عباده ، وخيرٌ من عرشه : من جنس قوله : الثلج بارد ، والنار حارة ، والشمس أضوأ من السراج ، والسماء أعلى من سقف الدار ، والجبل أثقل من الحصاة ، ورسول الله أفضل مِن فلان اليهودي ، والسماء فوق الأرض !! وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح ، بل هو مِن أرذل الكلام وأسمجِه وأهجنِه ! فكيف يليقُ بكلام الله ، الذي لو اجتمع الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيراً !! بل في ذلك تنقُّص ، كما قيل في المثل السائر : ١/٥٥

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيل إِنَّ السَّيْفَ أَمْضَى مِن العَصَا

(*) هو أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن ادريس بن المنذر بن داود بن مهران التميمي الحنظلي ، حافظ للحديث من كبارهم ، كان منزله في درب حنظلة بالريّ وإليهما نسبته . ولد سنة ٢٤٠ هـ وتوفي سنة ٣٢٧ هـ من تصانيفه : « الجرح والتعديل » و « التفسير » و « الرد على الجهمية » و « علل الحديث » و « مناقب الشافعي » وغيرها .

ولو قال قائل : الجوهرُ فوق قشر البصل وقشر السمك ! لضحك منه العقلاء ، للتفاوت الذي بينهما ، فالتفاوت الـذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم ، بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك ، بأن كان احتجاجاً على مبطل ، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْـرٌ أَمِ اللهُ الوَاحِـدُ القَهَّارُ﴾ [يـوسف: ٣٩] . وقولـه تعالى : ﴿اللهُ خَيْـرٌ أَمَّـا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل : ٥٩] . ﴿ والله خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ٧٣] .

وإنما يثبُت هذا المعنى مِن الفوقية في ضمن ثبوت الفوقية المطلقة مِن كل وجه ، فله سبحانَه وتعالى فوقيةُ القهر ، وفوقيةُ الفضل ، وفوقيةُ الذات ، ومن أثبتَ البعضَ ، ونفى البعضَ ، فقد تنقَّص .

وعُلُوُّه تعالى مطلق من كل الوجوه .

فإن قالوا ، بل علوُّ المكانة لا المكان ؛ فالمكانة : تأنيث المكان ، والمنزلة: تأنيث المنزل، فلفظة «المكانة والمنزلة» تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية ، كما يستعمل لفظ « المكان والمنزل » في الأمكنة الجسمانية ، فإذا قيل : لك في قلوبنا منزلةٌ ، ومنزلةُ فلانٍ في قلوبنا ، وفي نفوسنا أعظمُ مِن منزلة فلان ، كما جاء في الأثر : « إِذَا أَحَبَّ أَحَدُكُم أَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَ الله ، فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ مَنْزِلَةُ الله في قَلْبِهِ ، فَإِنَّ الله يُنَزِّلُ العَبْدَ مِنْ نَفْسِهِ حَيْثُ أَنْزَلَهُ العَبْدُ مِنْ قَلْبِهِ »(*) . فقوله : « مَنْزِلَةُ الله في قَلْبِهِ » : هو ما يكونُ في قلبه مِن معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغيرِ ذلك . فإذا عُرِف أن « المكانة والمنزلة » : تأنيث المكان والمنزل ، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى ، وتابعٌ له ، فعلوُّ المثل الذي يكون في الذهن يتبع علوَّ الحقيقة ، إذا كان مطابقاً كان حقّاً ، وإلاَّ كان باطلاً .

(*) لم أجده .

فإن قيل : المراد عُلُوُّه في القلوب ، وأنه أعلى في القلوب مِن كل شيء .

قيل : وكذلك هو، وهذا العُلُوُّ مطابق لِعلوه في نفسه على كُلِّ شيء ، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شيء ، كان علوُّه في القلوب غيرَ مطابق ، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى .

وعُلُوُّه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع ثابتٌ بالعقل والفطرة .

أما ثبوتُه بالعقل ، فمن وجوه :

أحدُها : العلمُ البديهي القاطع بأن كل موجودَين ، إما أن يكونَ أحدُهما سارياً في الآخر ، قائماً به كالصفات ، وإما أن يكون قائماً بنفسه بائناً من الآخر .

الثاني : أنه لما خلق العالم ، فإما أن يكونَ خلقُه في ذاته ، أو خارجاً عن ذاته ، والأول باطل ، أما أولاً : فبالاتفاق ، وأما ثانياً : فلأنه يلزم أن يكون محلاً للخسائس والقاذورات ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، والثاني يقتضي كونَ العلم واقعاً خارج ذاته ، فيكون منفصلاً ، فتعينت المباينة ، لأن القول بأنه غيرُ متصل بالعالم وغيرُ منفصل عنه غيرُ معقول .

الثالث : أن كونه تعالى لا داخِلَ العالم ولا خارِجَه يقتضي نفيَ وجوده بالكلية ، لأنه غيرُ معقول ، فيكون موجوداً إما داخلَه وإما خارجَه ، والأول باطل ، فتعين الثاني ، فلزمت المباينة .

وأما ثبوته بالفطرة ، فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديَهم عند الدعاء ، ويقصِدُون جهة العلوِّ بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى .

وذكر محمد بن طاهر المقدسي(*) أن الشيخ أبا جعفر الهَمْدَاني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلَّم في نفي صفة العلوّ ، ويقول : كان الله ولا عرشَ وهو الآن على ما كان ! فقال الشيخ أبو جعفر : أخبرنا يا أستاذُ عن هذه الضرورة التي نجدُها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عارف قط : يا الله ، إلاَّ وجد في قلبه ضرورة بطلب العلوّ ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ؟ قال : فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل ! وأظنه قال : وبكى ! وقال : حيَّرني الهَمْداني حيَّرني ! أراد الشيخ : أنَّ هذا أمر فطرَ الله عليه عباده من غير أن يتلقوْه من المرسلين ، يجدون في قلوبهم طلباً/ ضرورياً يتوجه إلى الله ، ويطلبه في العلو . ٥٥/ب

وقد اعترُض على الدليل العقلي بإنكار بداهته ، لأنه أنكره جمهورُ العقلاء ، فلو كان بديهيّاً ، لما كان مختلفاً فيه بين العقلاء ، بل هو قضية وهمية خيالية .

والجوابُ عن هذا الاعتراض مبسوط في موضعه ، ولكن أشيْرُ إليه هنا إشارة مختصرة ، وهو أن يقال : إن العقل إن قَبِلَ قولكم ، فهو لقولنا أقبلُ ، وإن ردَّ العقلُ قولَنا ، فهو لِقولكم أعظمُ ردّاً ، فإن كان قولُنا باطلاً في العقل ، فقولُكم أبطلُ ، وإن كان قولُكم حقّاً مقبولاً في العقل ، فقولنا أولى أن يكون مقبولاً في العقل ، فإن دعوى الضرورة مشتركة ، فإنا نقولُ : نعلم بالضرورة بطلانَ قولكم ، وأنتم تقولون كذلك ، فإذا قلتُم : تلك الضرورة التي تحكم

(*) هو محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني ، أبو الفضل ، رحالة ، مؤرخ ، من حفاظ الحديث ، ولد ببيت المقدس سنة ٤٤٨ هـ وتوفي ببغداد سنة ٥٠٧ هـ ، من تصانيفه : « تاريخ أهل الشام ومعرفة الأئمة منهم والأعلام » ، و « تذكرة الموضوعات » و « الجمع بين كتابي الكلاباذي والأصبهاني في رجال الصحيحين » وغيرها .

ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا مِن حكم العقل ، قابلناكم بنظير قولكم ، وعامةُ فِطر الناس ـ ليسوا منكم ولا منَّا ـ يوافقوننا على هذا ، فإن كان حكمُ فِطر بني آدم مقبولاً ، ترجحنا عليكم ، وإن كان مردوداً غيرَ مقبول ، بطل قولكم بالكلية ، فإنكم إنما بنيتم قولَكم على ما تدعون أنه مقدماتٌ معلومة بالفطرة الآدمية ، وبطلتْ عقلياتنا أيضاً ، وكان السمعُ الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم ، فنحن مختصُّون بالسمع دونكم ، والعقل مشترك بيننا وبينكم .

فإن قلتُم : أكثرُ العقلاء يقولون بقولنا .

قيل : ليس الأمرُ كذلك ، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالَم ليس هو فوقَ العالم وليس فوق العالم شيء موجود ، وأنه لا مباين للعالم ولا حالٌّ للعالم ، طائفةٌ من النظار .

وأول من عرف عنه في الإسلام جهمُ بنُ صفوان وأتباعه .

واعتُرض على الدليل الفطري : أن ذلك إنما لكون السماء قبلة للدعاء ، كما أن الكعبة قبلة للصلاة ، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض ، وأجيبَ على هذا الاعتراض بوجوه :

أحدها : أن قولَكم : إن السماء قبلة للدعاء لم يقله أحدٌ من سلف الأمة ، ولا أنزل الله به من سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فلا يجوزُ أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .

الثاني : أن قِبلة الدعاء هي قبلة الصلاة ، فإنه يُستحبُّ للداعي أن يستقبل القبلة ، وكان النبيُّ ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة(*) ،

(*) والأحاديث في ذلك كثيرة منها ما رواه مسلم رقم (١٧٦٣) في الجهاد والسير : باب كيفية قسمة =

فمن قال : إن للدعاء قبلةً غير قبلة الصلاة ، أو أن له قبلتين : إحداهما الكعبة، والأخرى السماء، فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين .

الثالث : أن القبلة : هي ما يستقبِلُه العابد بوجهه ، كما تُستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء والذكر والذبح ، وكما يُوجه المحتضر والمدفون ، ولذلك سميت وجهة ، والاستقبال خلاف الاستدبار ، فالاستقبال بالوجه ، والاستدبارُ بالدبر ، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه ، فهذا لا يُسمى قبلة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، فلو كانت السماء قبلة الدعاء ، لكان المشروع أن يُوجه الداعي وجهه إليها ، وهذا لم يُشرع ، والموضع الذي تُرفع اليدُ إليه لا يسمى قبلة ، لا حقيقة ولا مجازاً ، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع ، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه ، بل نَهوا عن ذلك ، ومعلوم أن التوجه بالقلب ، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمرٌ فطري ، يفعله المسلم والكافر ، والعالم والجاهل ، وأكثر ما يفعلُه المضطرُّ والمستغيثُ بالله ، كما فُطِرَ على أنه إذا مسه الضر يدعو الله ، مع أن أمر القبلة مما يقبلُ النسخَ والتحويل ، كما تحوَّلَت القبلة من الصخرة إلى الكعبة .

وأمر التوجّه في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوزٌ في الفِطَرِ ، والمستقبِل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك ، بخلاف الداعي ، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه ، ويرجو الرحمة أن تنزل من عنده .

= الغنيمة بين الحاضرين ، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولفظه : « لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة ، ثم مدَّ يديه فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجز لي ما وعدتني ! اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد في الأرض . . . . » الحديث .

وترجم البخاري في كتاب الدعوات ، باب الدعاء مستقبل القبلة .

أما النقض بوضع الجبهة ، فما أفسده من نقض ، فإن واضع الجبهة إنما قصدُه الخضوع لمن فوقه بالذلّ له ، لا أن يميل إليه إذْ هو تحته ، فهذا لا يخطر في قلب ساجد .

لكن يُحكى عن بشر المريسي أنه سُمِعَ وهو يقول في سجوده : سبحان ربي الأسفل !! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيراً .

وإنَّ من أفضى به النفي إلى هذه الحال لحري أن يتزندق ، ان لم يتداركه الله برحمته ، وبعيد من مثله الصلاح ، قال تعالى : ﴿ ونُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وأَبْصَارَهُم كَما لَمْ يُؤمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا/أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصفّ : ٥] . فمن لم يطلب الاهتداء مِن مظانِّه ، يعاقبْ بالحرمان ، نسأل الله العفو والعافية . ٥٦/أ

وقوله : وقد أعجز عن الإحاطة خلقه ، أي : لا يحيطون به علماً ولا رؤية ، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة ، بل هو سبحانه محيطٌ بكل شيء ، ولا يُحيط به شيء .

* * *

قوله : وَنَقُولُ إنَّ الله اتَّخذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمَاً ، إيمَانَاً وَتَصْدِيقَاً وتَسْلِيمَاً .

قال الله تعالى : ﴿ واتَّخَذَ الله إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ الله مُوسَى تَكْلِيمَاً ﴾ [النساء : ١٦٤] .

الخلة : كمال المحبة ، وأنكرت الجهمية حقيقةَ المحبة من الجانبين ، زعماً منهم أن المحبة لا تكونُ إلا لمناسبة بين المحبِّ والمحبوب ، وأنه

لا مناسبة بين القديم والمحدَث تُوجب المحبة ! وكذلك أنكروا حقيقةَ التكليم ، كما تقدَّم .

وكان أوَّلَ من ابتدع هذا في الإسلام هو الجَعْدُ بنُ دِرهم(*) ، في أوائل المائة الثانية ، فضحَّى به خالدُ بنُ عبد الله القسري أميرُ العراق والمشرق بواسط ، خطب الناس يوم الأضحى فَقَالَ : أَيُّها النَّاسُ ضَحُّوا ، تَقَبَّلَ اللهُ ضَحَايَاكُمْ ، فإنِّي(**) مُضَحٍّ بِالجَعْدِ بْنِ دِرْهَم ، إِنَّه زَعَمَ أَنَّ الله لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيماً ، ثم نزل فذبحه . وكان ذَلِكَ بفتوى أهل زمانه مِن علماء التابعين رضي الله عنهم ، فجزاه الله عن الدين وأهلِه خيراً .

وأخذ هذا المذهبَ [عن الجعد](***) الجهمُ بن صَفوان، فأظهره ، وناظر عليه، وإليه أضيف قولُ : « الجهمية » . فقتله مسلمُ بن أحوز أمير خراسان بها .

ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عُبيد ، وظهر قولُهم في أثناء خلافة المأمون ، حتى امتُحِنَ أئمة الإسلام ، ودَعَوْهُم إلى الموافقة لهم على ذلك .

وأصلُ هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة ، وهم يُنكرون أن يكونَ إبراهيم خليلاً وموسى كليماً ، لأن الخُلَّة هي كمال المحبة المستغرِقة للمحب ، كما قيل :

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي ... وَلِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خلِيلاً

(*) هو الجعد بن درهم من الموالي ، مبتدع ، له أخبار في الزندقة ، سكن الجزيرة الفراتية ، وأخذ عنه مروان بن محمد الخليفة الأموي ، قال الذهبي : عداده في التابعين ، مبتدع ضال ، زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى ، فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر سنة ١١٨ هـ .

انظر « ميزان الاعتدال » ١/١٨٥ و « الكامل » ٥/١٦٠ و « التاج » ٢/٣٢١ و « لسان الميزان » ٢/١٠٥ ، و « اللباب » ١/٢٣٠ و « النجوم الزاهرة » ١/٣٢٢ و « تاريخ الخميس » ٢/٣٢٢ .

(**) في الأصل : فإنه .

(***) الزيادة من مطبوعة مكة .

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى : كسائر صفاته ، ويشهد لما دلت عليه الآيةُ الكريمة ما ثبت في « الصحيح »(*) عن أبي سعيد الخدري ، عن النبيِّ ﷺ قال : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً ، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً ، وَلَكِن صَاحِبَكُم خَلِيلُ الله » ، يعني نفسه .

وفي رواية : « إِنِّي أَبْرَأُ إِلى كُلِّ خَلِيلٍ مِنْ خُلَّتِهِ ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً ، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً »(**) .

وفي رواية : « إِنَّ الله اتَّخَذنِي خَلِيلاً كَما اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »(***) .

فبيَّن ﷺ أنه لا يصلُح له أن يتَّخِذ من المخلوقين خليلاً ، وأنه لو أمكن ذلك ، لكان أحقَّ الناسِ به أبو بكر الصديق ، مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يُحِبُّ أشخاصاً ، كقوله [لمعاذ](****) : « والله إنّي لأُحِبُّك »(١٧٠) . وكذلك قولُه للأنصار ، وكان زيدُ بن حارثة حِبَّ رَسُولِ الله ﷺ ، وابنُهُ أسامةُ حِبَّه ، وأمثال ذلك .

وقال له عمرو بن العاص : أيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قال : « عَائِشَةُ » ، قال : فَمِنَ الرجالِ ؟ قال : « أَبُوها »(١٧١) .

(*) تقدم تخريجه ص ١٣٠ رقم ٦٤ . (**) تقدم تخريجه ص ١٣٠ رقم ٦٥ .

(***) تقدم تخريجه ص ١٣٠ رقم ٦٣ . (****) الزيادة من مطبوعة مكة.

(١٧٠) رواه أحمد في « المسند » ٥/٢٤٥ و٢٤٧ وأبو داود رقم (١٥٢٢) في الصلاة : باب في الاستغفار ، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وإسناده صحيح .

(١٧١) رواه البخاري ٧/١٩ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً . . . » وفي المغازي : باب غزوة ذات السلاسل ، ومسلم رقم (٢٣٨٤) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي بكر ، والترمذي رقم (٣٨٧٩) في المناقب : باب فضل عائشة رضي الله عنها ، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

وأما قوله « وكذلك قوله للأنصار » إشارة إلى قوله ﷺ عن الأنصار : « والذي نفسي بيده إنكم لأحب الناس إليّ - مرتين - وفي رواية ثلاث مرات » رواه البخاري ٧/ ٨٧ ومسلم رقم (٢٥٠٨) .

وقوله « وكان زيد بن حارثة . . . » إشارة إلى الحديث الذي رواه البخاري ٧/ ٦٩ ومسلم رقم (٢٤٢٦) والترمذي رقم (٣٨١٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما انظر لفظه في « جامع الأصول » رقم (٦٥٧٢) .

فعلم أن الخُلة أخصُّ من مطلق المحبة ، والمحبوب بها لكمالها يكون محبوباً لذاته ، لا لشيء آخر ، إذ المحبوبُ لغيره هو مؤخر في الحُبِّ عن ذلك الغير ، ومن كمالها لا تقبَلُ الشِّرْكة المزاحمة ، لتَخلُّلِهَا المحبة ، ففيها كمالُ التوحيد وكمالُ الحب ، ولذلك لما اتخذ الله إبراهيمَ خليلاً ، وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهبَ له ولداً صالحاً ، فوهب له إسماعيل ، فأخذ هذا الولدُ شُعبةً من قلبه ، فغار الخليلُ على قلب خليله أن يكونَ فيه مكانٌ لغيره ، فامتحنه بذبحه ، ليظهر سِرُّ الخُلة في تقديمه محبةَ خليله على محبة ولده ، فلما استسلمَ لأمر ربه ، وعزم على فِعله ، فظهر سلطانُ الخُلة في الإقدام على ذبح الولد إيثاراً لمحبة خليله على محبته ، نسخ الله ذلك عنه ، وفداه بالذِّبح العظيمِ ، لأن المصلحةَ في الذبح كانت ناشئة مِن العزم ، وتوطين النفس على ما أمِر ، فلما حَصَلَتْ هٰذه المصلحة ، عاد الذبح نفسه مفسدةً ، فَنُسِخَ في حقه ، وصارت الذبائحُ والقرابين مِن الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة .

وكما أن منزلة الخُلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبيُّنَا ﷺ كما تقدم ، كذلك منزلةُ التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبيُّنَا ﷺ ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء .

وهنا سؤال مشهور ، وهو : أن النبيَّ ﷺ أفضلُ مِن إبراهيم ﷺ ، فكيف طلب له مِن الصلاة مثل ما لإبراهيم ، مع أن المشبَّه به أصلُه أن يكونَ فوق المشبه ؟ وكيف الجمعُ بين هٰذين الأمرين المتنافيين ؟

وقد أجاب عنه العلماءُ بأجوبة عديدة ، يضيق هذا المكان عن / بسطها(١) .

٥٦/ب

(*) لقد بسطها شيخه العلامة ابن القيم ووفى الموضوع حقه في كتابه « جلاء الأفهام » ص ٢١٩ - ٢٣٢ بتحقيق الشيخين عبد القادر الأرناؤوط وشعيب الأرناؤوط ، طبع مكتبة دار البيان بدمشق ، فراجعه .

وأحسنُها : أن آلَ إبراهيم فيهم الأنبياءُ الذين ليس في آل محمد مثلهم ، فإذا طلب للنبيِّ ﷺ ولآله مِن الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله وفيهم الأنبياء ، حصل لآلِ محمد ما يليقُ بهم ، لأنهم لا يبلغون مراتبَ الأنبياء ، وتبقى الزيادةُ التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد ﷺ ، فيحصُل له مِن المزية ما لم يحصل لغيره .

وأحسن من هذا : أن النبيَّ ﷺ من آل ابراهيم ، بل هو أفضلُ آل ابراهيم ، فيكون قولُنا : « كما صليت على آل إبراهيم » متناولاً الصلاةَ عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم وهو متناول لإبراهيم أيضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] . فإبراهِيمُ وعِمران دخلا في آل إبراهيم وآل عِمران .

وكما في قوله تعالى : ﴿إلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر : ٣٤] . فإنّ لُوطاً داخل في آل لوط .

وكما في قوله تعالى : ﴿ وإذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [البقرة : ٤٩] وقوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] فإن فرعون داخل في آلِ فرعون .

ولهٰذَا والله أعلم ، أكثرُ روايات حديث الصلاة على النبي ﷺ إنما فيها كما صليت على آلِ إبراهيم ، وفي كثير منها : كما صليتَ على إبراهيم ولم يرد : كما صليت على إبراهيم وعلى آلِ إبراهيم إلا في قليلٍ من الروايات وما ذلك ـ والله اعلم ـ إلا لأن في قوله : كما صليت على إبراهيم ، يدخل آله تبعاً ، وفي قوله : كما صليتَ على آل إبراهيم ، هو داخل في آل إبراهيم .

وكذلك لما جاء أبو أوفى رضي الله عنه بصدقة إلى النبي ﷺ دعا له

النبيُّ ﷺ وقال : « اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى »[١٧٢] . فعلى رواية من روى « كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ » لا يدخل فيهم لافراده بالذكر .

ولما كان بيتُ إبراهيمَ عليه السلام أشرفَ بيوت العالم على الإطلاق ، خصَّهم الله بخصائص :

منها : أنه جعل فيهم النبوةَ والكِتَابَ ، فلم يأت بعدَ إبراهيم نبي إلا مِن أهل بيته .

ومنها : أنه سبحانه جعلهم أئمةً يهدُون بأمره إلى يوم القيامة ، فكُلُّ من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم ، فإنما دخلَ مِن طريقهم وبدعوتهم .

ومنها : أنه سبحانه اتَّخذَ مِنهم الخليلين ، كما تقدم ذكره .

ومنها : أنه جَعَلَ صاحبَ هذا البيت إماماً للناس ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامَاً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

ومنها : أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياماً للناس ، ومثابةً للناس وأمناً ، وجعله قِبلة لهم وحجاً ، فكان ظهورُ هذا البيت من أهل هذا البيت الأكرمين .

---

(١٧٢) رواه البخاري ٢٨٦/٣ في الزكاة : باب صلاة الإمام ودعائه لصاحب الصدقة ، وفي المغازي : باب غزوة الحديبية ، وفي الدعوات : باب قول الله تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ ، وباب هل يصلى على غير النبي ﷺ ، ومسلم رقم (١٠٧٨) في الزكاة : باب الدعاء لمن أتى بصدقته ، وأبو داود رقم (١٥٩٠) في الزكاة : باب دعاء المصدق لأهل الصدقة ، والنسائي ٣١/٥ في الزكاة : باب صلاة الإمام على صاحب الصدقة ، من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه .

ومنها : أنه أمر عبادَه أن يُصلُّوا على أهل البيت ، إلى غير ذلك من الخصائص .

* * *

قوله : ونُؤْمِنُ بالمَلاَئِكَةِ وَالنَّبِيينَ ، وَالكُتُبِ المُنْزَلَةِ عَلَى المُرْسَلِينَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الحَقِّ المُبِينِ .

هٰذه الأمور مِن أركان الإيمان ، قال تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّه وَالمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الآيات ، [البقرة : ٢٨٥] وقال تعالى : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم قِبلَ المَشْرِق والمَغْرِبِ ولٰكِن البِرَّ مَنْ آمَنَ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ والمَلاَئِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيينَ ﴾ الآية [البقرة : ١٧٧] .

فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمانَ هو الإيمان بهٰذه الجملةِ ، وسمَّى من آمن بهذه الجملة مؤمنين ، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة ، بقوله : ﴿ ومَنْ يَكْفُرْ بِالله ومَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ [النساء : ١٣٦] .

وقال ﷺ في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبريل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان ، فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ بالله ومَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْره وَشَرِّهِ »(*) .

فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياءُ والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، ولم يُؤمن بها حقيقةَ الإيمان إلا أتباع الرسل .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٧٩ رقم ١٤٥ .

وأما أعداؤُهم وَمَنْ سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع ، فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها .

وأعظمُ الناس لها إنكاراً الفلاسفة المسمَّون عند من يُعظمهم بالحُكماء ، فإن مَنْ علم حقيقةَ قولهم ، عَلِمَ أنهم لم يُؤمنوا بالله ولا رُسله ولا كُتُبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر ، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود مجرد لا ماهيةَ له ولا حقيقة ، فلا يَعْلَمُ الجُزئيات بأعيانها ، وَكُلُّ موجودٍ في الخارج ، فهو جزئي ، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته ، وإنما العالم عندهم لازمٌ له أزلاً وأبداً ، وإن سموَّه مفعولاً له ، فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ ، وليس عندهم/ بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه ، وينفُون عنه سمعَه وبصره وسائرَ صفاته ! فهذا إيمانُهُم بالله .

٥٧/أ

وأما كُتُبُهُ(*) عندهم، فإنهم لا يصفونه بالكلام ، فلا يُكلم ولا يتكلَّم ، ولا قال ولا يقول ، والقرآنُ عندهم فيض فاضَ مِن العقل الفعَّال على قلب بشرٍ زاكي النفس طاهر ، متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص : قوةِ الإدراك وسرعته ، لينال من العلم أعظمَ مما ينالُه غيره! وقوةِ النفس ، ليؤثر بها في هيولى(**) العالم بقلب صورة إلى صورة ، وقوة التخييل ، ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة ، وهي الملائكة عندهم ! وليس في الخارج ذات منفصلة تصعدُ وتنزِلُ ، وتذهب وتجيء ، وترى وتُخاطب الرسولَ ، وإنما ذلك عندهم أمورٌ ذهنية لا وجود لها في الأعيان .

وأما اليومُ الآخر ، فَهُمْ أشدُّ الناس تكذيباً به وإنكاراً له في الأعيان، وعندهم أن هذا العالم لا يخرب ، ولا تنشقُّ السماوات ولا تنفطِرُ ، ولا تنكدِرُ

(*) في الأصل كتبهم والتصحيح من مطبوعة مكة .

(**) الهيولى : مادة الشيء التي يصنع منها ، كالخشب للكرسي ، والحديد للمسمار ، والقطن للملابس القطنية .

النجوم ، ولا تُكوَّر الشمس والقمر ، ولا يقومُ الناس من قبورهم ، ويُبعثون إلى جنة ونار ! كُلُّ هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام ، لا حقيقةَ لها في الخارج ، كما يفهم منها أتباعُ الرسل . فهذا إيمان هذه الطائفة ـ الذليلة الحقيرة ـ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وهذه هي أصول الدين الخمسة . وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التي هدموا بها كثيراً من الدين : فإنهم بَنَوْا أصل دينهم على الجسم والعرض الذي هو الموصوف والصفة عندهم ، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراضُ على حدوث الموصوف الذي هو الجسم ، وتكلموا في التوحيد على هذا الأصل ، فَنَفَوْا عن الله كُلَّ صفة ، تشبيهاً بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام ، ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القَدَر ، وسَمَّوْا ذلك « العدل » ، ثم تكلموا في النبوة والشرائع والأمر والنهي والوعد والوعيد ، وهي مسائلُ الأسماء والأحكام ، التي هي المنزلة بين المنزلتين ، ومسألة إنفاذ الوعيد ، ثم تكلَّموا في إلزام الغير بذلك ، الذي هو الأمرُ بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وضمَّنوه جوازَ الخروج على الأئمة بالقتال . فهذه أصولُهم الخمسة ، التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بعث بها الرسول .

والرافضة المتأخرون ، جعلوا الأصول أربعة : التوحيد والعدل والنبوة ، والإمامة .

وأصول أهل السنة تابعة لما جاء به الرسول ﷺ .

وأصلُ الدين : الإيمانُ بما جاء به الرسول ، كما تقدَّم بيان ذلك ، ولهذا كانت الآيتان مِن آخر سورة البقرة ـ لما تضمنتا هذا الأصل ـ لهما شأنٌ

عظيم ليس لغيرهما ، ففي « الصحيحين »[173] عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ، عن النبيِّ ﷺ ، قال : « مَنْ قَرَأَ الآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ » .

وفي « صحيح مسلم »[174] عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « بَيْنَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضاً مِنْ فَوْقِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : هٰذَا بَابٌ مِنَ السَّماءِ فُتِحَ اليَوْمَ ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ ، فَقَالَ : هٰذا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ ، فَسَلَّم ، وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا ، لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةِ الكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ البَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُما إِلَّا أُوتِيتَهُ » .

وقال أبو طالب المكي(*) : أركانُ الإيمان سبعة ، يعني هذه الخمسة ، والإيمان بالقدر ، والإيمان بالجنة والنار . وهذا حق ، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية ، وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة .

---

(١٧٣) رواه البخاري ٧/٢٤٦ في المغازي : باب شهود الملائكة بدراً ، و٩/٥٠ في فضائل القرآن : باب سورة البقرة ، وباب من لم ير بأساً أن يقول : سورة البقرة ، وباب في كم يقرأ القرآن ، ومسلم رقم (٨٠٨) في صلاة المسافرين : باب فضل فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، والترمذي رقم (٢٨٨٤) في ثواب القرآن : باب ما جاء في آخر سورة البقرة ، وأبو داود رقم (١٣٩٧) في الصلاة : باب تخريب القرآن ، وأحمد في « المسند » ٤/١١٨ و١٢١ و١٢٢ والدارمي رقم (١٤٩٥) في الصلاة : باب من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة ، ورقم (٣٣٩١) في فضائل القرآن : باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي ، وابن ماجه رقم (١٣٦٩) في إقامة الصلاة : باب ما جاء فيما يرجى أن يكفي من قيام الليل .

(١٧٤) رقم (٨٠٦) في صلاة المسافرين وقصرها : باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، ورواه أيضاً النسائي ٢/١٣٨ في افتتاح الصلاة : باب فضل فاتحة الكتاب .

(*) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي أبو طالب ، صوفي متكلم ، واعظ ، من أهل الجبل ، نشأ بمكة ، ودخل البصرة ، وقدم بغداد ، حفظ عنه الناس أقوالاً هجروه من أجلها ، وتوفي ببغداد سنة ٣٨٦ هـ . من تصانيفه « قوت القلوب في معاملة المحبوب » .

وأما الملائكة ، فهم الموَّكلون بالسماوات والأرض ، فكُلُّ حركة في العالم ، فهي ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ فالمُدَبِّرَاتِ أَمْرَاً ﴾ [النازعات : ٥] . ﴿ فَالْمُقَسِّماتِ أَمْرَاً ﴾ [الذاريات : ٤] . وهم الملائكة عند أهلِ الإيمان وأتباعِ الرسل .

وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع ، فيقولون: هي النجوم .

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنها موكَّلَةٌ بأصناف المخلوقات ، وأنه سبحانه وكَّل بالجبال ملائكة ، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة ، ووكل بالرحم ملائكة تُدَبِّرُ أمرَ النطفة حتى يتم خلقها ، ثم وكَّل بالعبدِ ملائكة لحفظ ما يعملُه وإحصائه وكتابته ، ووكل بالموت ملائكةً ، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة ، ووكل بالأفلاكِ ملائكة يُحركونها ، ووكَّل بالشمس والقمر ملائكة ، ووكَّل بالنار وإيقادها وتعذيبِ أهلها وعمارتها ملائكة ، ووكَّلَ بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة .

٥٧/ب فالملائكةُ أعظمُ جنود الله ومِنْهُمْ/: ﴿ والمُرْسَلات عُرْفاً * فالعاصِفَاتِ عَصْفَاً * والنَّاشِرَاتِ نَشْرَاً * فَالفَارِقَاتِ فَرْقَاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكرَاً ﴾ [المرسلات : ١ ـ ٤] .

ومنهم : ﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقَاً * والنَّاشِطاتِ نَشْطَاً * والسَّابِحَاتِ سَبْحَاً * فالسَّابِقَاتِ سَبْقَاً ﴾ [النازعات : ١ - ٤] . ومنهم ﴿ وَالصَّافَات صَفَّاً * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرَاً * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرَاً ﴾ [الصافات: ١ ـ ٣] ومعنى التأنيث في ذلك كُلِّه : الفِرَق والطوائف والجماعات ، التي مفردها « فرقة » و « طائفة » و « جماعة » .

ومنهم ملائكةُ الرحمة ، وملائكة العذاب، وملائكة قد وُكِّلُوا بحمل العرش ، وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس ،

إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلاَّ الله .

ولفظ « المَلك» يُشعر بأنه رسول منفّذ لأمر مرسِلِه ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمرُ كُلُّه لله الواحد القهار ، وهم ينفذون أمره : ﴿ لا يَسْبِقُونَه بِالقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٧ ـ ٢٨] ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ النحل : ٥] .

فهم عباد له مكرَمون ، منهم الصَّافُّون ، ومنهم المسبِّحون ، ليس منهم إلاّ له مقام معلوم ، ولا يتخطّاه ، وهو عمل قد أُمِرَ به ، لا يقصر عنه ، ولا يتعداه ، وأعلاهُم الذين عنده ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ ـ ٢٠] .

ورؤساؤُهم الأملاكُ الثلاثة : جبريل وميكائِيل وإسرافيل ، الموكلون بالحياة ، فجبريل موكَّل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيل موكَّل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان ، وإسرافيل مُوكَّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم .

فهم رسلُ الله في خلقه وأمره ، وسُفراؤه بينَه وبينَ عباده ، يُنَزِّلُون الأمر مِن عنده في أقطار العالم ، ويصعدون إليه بالأمر ، قد أطَّت السماوات بهم ، وحُقَّ لها أن تَئِطَّ ، ما فيها موضع أربع أصابع إلاَّ وملك قائم أو راكع أو ساجد لله ، ويدخُلُ البيتَ المعمورَ مِنهم كُلَّ يوم سبعون ألفاً لا يَعودُونَ إليه آخر ما عليهم .

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافِهم ومراتبهم ، فتارةً يَقْرِنُ الله تعالى اسمه باسمهم ، وصلاتَه بصلاتهم ، ويُضيفهم إليه في مواضع التشريف .

وتارةً يذكر حَفَّهم بالعرش وحملهم له ، وبراءتهم من الذنوب .

وتارةً يصفهم بالإكرام والكرم ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص ، قال تعالى : ﴿ كُلٌّ آمَنَ بالله وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] . ﴿ شَهِدَ الله أنَّه لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ والمَلاَئِكَةُ وَأُولُو العِلْم ﴾ [آل عمران : ١٨] ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُم وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] . ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَه يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] . ﴿ وَتَرى المَلاَئِكَةَ حافِّينَ مِنْ حَوْلِ العَرْشِ يُسبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : ٧٥] ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦] . ﴿ إنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَه وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] . ﴿ فَإنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣٨] ﴿ كِراماً كَاتِبِينَ ﴾ [الإنفطار: ١١]. ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٦] . ﴿ يَشْهَدُهُ المُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢١] . ﴿ لاَ يَسَّمَّعُونَ إلىَ الملإِ الأَعْلَى ﴾ [الصافات : ٨] .

وكذلك الأحاديث النبوية طافحة بذكرهم ، فلهذا كان الإيمانُ بالملائكة أحدَ الأصول الخمسة التي هي أركانُ الإيمان .

وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر ، ويُنسب إلى أهل السنة تفضيلُ صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة ، وإلى المعتزلة تفضيلُ الملائكة .

وأتْبَاعُ الأشعري على قولين : منهم من يُفضِّلُ الأنبياء والأولياء ، ومنهم من يقِفُ ولا يقطعُ في ذلك قولاً ، وحُكِيَ عن بعضهم ميلُهم إلى تفضيل الملائكة ، وحُكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية .

وقالت الشيعة : إن جميعَ الأئمة أفضلُ من جميع الملائكة ، ومن الناس من فصَّل تفصيلاً آخر ، ولم يقل أحد ممن له قول يُؤثر : إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض ، وكنتُ ترددتُ في الكلام على هذه

المسألة ، لِقلة ثمرتها ، وأنها قريبٌ مما لا يَعني ، و « مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيه »(*) .

والشيخُ رحمه الله لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفي ولا إثبات ، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً ، فإن الإمامَ أبا حنيفة رضي الله عنه وقف في الجواب عنها على ما ذكره(**) في « مآل الفتاوى » ، فإنه ذكر مسائلَ لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب ، وعدَّ منها : التفضيل بين الملائكة والأنبياء .

فإن الواجبَ/علينا الإيمانُ بالملائكة والنبيين ، وليس علينا أن نعتقد أيُّ الفريقين أفضلُ، فإن هذا لو كان من الواجبات،لبيَّن لنا نصّاً، وقد قال تعالى : ﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُم ﴾ [المائدة : ٣] . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسيّاً ﴾ [مريم : ٦٤] . ٥٨/أ

وفي « الصحيح »(١٧٥) « إنَّ الله فَرَضَ فَرَائِضَ فَلاَ تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُوداً فَلاَ تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَآءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَآءَ - رَحْمَةً بِكُمْ غَيْرَ نَسْيَانٍ - فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا » .

فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفياً وإثباتاً والحالة هذه أولى .

ولا يُقال : إن هذه المسألة نظيرُ غيرها من المسائل المستنبطة من

(*) تقدم تخريجه ص ٢٦٧ رقم ١٣٩ .

(**) هو محمد بن يوسف السمرقندي الحنفي .

(١٧٥) هو ليس في الصحيح بل رواه الدارقطني في « سننه » ٤/ ١٨٤ في الرضاع ، والحاكم ٤/ ١١٥ من رواية مكحول عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه وفيه انقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة .

وللحديث شواهد بمعناه يرتقي بها إلى درجة الحسن ، وقد حسنه النووي في « رياض الصالحين » رقم (١٨٤٦) من طبعة دار البيان بدمشق وكذلك انظر تخريجه مفصلاً في « جامع العلوم والحلم » للحافظ ابن رجب الحنبلي ص ٢٤٢ « الحديث الثلاثون » .

الكتاب والسنة ، لأن الأدلة هنا متكافئة، على ما أشيرُ إليه ، إن شاء الله تعالى . وحملني على بسط الكلام هنا : أن بعضَ الجاهلين يُسيئون الأدب بقولهم : كان الملَك خادماً للنبيِّ ﷺ ! أو : أن بعض الملائكة خُدَّام بني آدم !! يعنون الملائكة الموكَّلين بالبشر ، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع ، المجانبةِ للأدب .

والتفضيلُ - إذا كان على وجه التنقصِ أو الحمية والعصبية للجنس - : لا شكّ في رده ، وليس هذه المسألة نظير المفاضلة بينَ الأنبياء ، فإن تلك قد وُجد فيها نصّ ، وهو قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ الآية [البقرة : ٢٥٣] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [الإسراء : ٥٥] . وقد تقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ : وسيد المرسلين ، يعني النبي ﷺ(*) .

والمعتبرُ رُجحانُ الدليل ، ولا يُهجَرُ القولُ لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه ، بعد أن تكون المسألة مختلفاً فيها بين أهل السنة .

وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول أولاً بتفضيل الملائكة على البشر ، ثم قال بعكسه .

والظاهر أن القولَ بالتوقف أحد أقواله .

والأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تَـدُلُّ على الفضل ، لا الأفضلية ، ولا نِزاع في ذلك .

وللشيخ تاج الدين الفزاري(**) رحمه الله مصنف سماه «الإشارة في البشارة

(*) انظر ص ١٢٤ وما بعدها .

(**) هو عبد الرحمن بن سباع بن ضياء الدين أبو محمد الفزاري الإمام العلامة العالم شيخ الشافعية في زمانه حاز قصب السبق .دون أقرانه ولد سنة ٦٣٠ وتوفي سنة ٦٩٠ هـ وقد كان ممن اجتمع فيه فنون كثيرة من العلوم النافعة والأخلاق اللطيفة ، وفصاحة المنطق وحسن التصنيف وعلو الهمة ، وفقه النفس . وهو نظير النووي . سمع من ابن الليثي وابن الصلاح واشتغل عليه وعلى ابن عبد السلام وانتفع بهما .

في تفضيل البشر على الملك » قال في آخره : إعلم أن هٰذه المسألة من بدع علم الكلام ، التي لم يتكلم فيها الصدرُ الأولُ من الأمة ، ولا مَن بعدهم من أعلام الأئمة ، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد ، ولا يتعلق بها من الأمورِ الدينية كثير من المقاصد .

ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن ، وامتنع من الكلام فيها جماعةٌ من الأعيان ، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه ، لم يخلُ كلامه عن ضعف واضطراب . انتهى .

فما استدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة : أن الله أمر الملائكة أن يسجدُوا لآدم ، وذلك دليل على تفضيله عليهم ، ولذلك امتنع إبليس واستكبر وقال : ﴿ أَرَأَيْتَكَ هٰذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الإسراء : ٦٢] .

قال الآخرون : إن سجودَ الملائكة كان امتثالاً لأمر ربهم ، وعبادة وانقياداً وطاعة له ، وتكريماً لآدم وتعظيماً ، ولا يلزم مِن ذلك الأفضلية ، كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام تفضيلُ ابنه عليه ، ولا تفضيل الكعبة على بني آدم بسجودهم إليها امتثالاً لأمر ربهم .

وأما امتناعُ إبليس ، فإنه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه ، وهٰذه المقدمة الصغرى ، والكبرى محذوفة ، تقديرها : والفاضل لا يسجد للمفضول ! وكلتا المقدمتين فاسدة .

أما الأولى : فإن التراب يفوقُ النار في أكثر صفاته ، ولهذا خان إبليسَ عنصَرُه ، فأبى واستكبر ، فإن مِن صفات النار طلب العلوّ والخفة والطيش والرعونة ، وإفساد ما تصل إليه ومحقه وإهلاكه وإحراقه ، ونفع آدمَ عنصرُه في التوبة والاستكانة ، والانقياد والاستسلام لأمر الله ، والاعتراف وطلب المغفرة ، فإن من صفات التراب الثبات والسكون والرصانة ، والتواضعَ والخضوع والخشوع والتذلُّل ، وما دنا منه ينبتُ ويزكو ، وينمو ويُبارك فيه ، ضد النار .

وأما المقدمة الثانية ـ وهي : أن الفاضل لا يسجد للمفضول ـ : فباطلة ، فإن السجودَ طاعة لله ، وامتثال لأمره ، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر ، لوجب عليهم الامتثالَ والمبادرة ، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضلُ مِن الساجد ، وإن كان فيه تكريمُه وتعظيمُه ، وإنما يدل على فضله ، قالُوا : وقد يكونُ قولُه : ﴿ هَٰذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الإسراء : ٦٢] ، بعد طرده لامتناعه عن السجود له ، لا قبله ، فينتفي الاستدلال به .

ومنه : أن الملائكة لهم عقول ، وليست لهم شهوات ،والأنبياءُ لهم/ ٥٨/ب عقول وشهوات ، فلما نَهَوْا أنفسهم عن الهوى ، ومنعوها عما تميلُ إليه الطباع ، كـانُوا بذلك أفضل .

وقال الآخرون : يجوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة ، وتحمل العبادة ، وترك الونى والفتور فيها ـ : ما يفي بتجنب الأنبياء شهواتهم ، مع طول مدة عبادة الملائكة .

ومنه : أن الله تعالى جعل الملائكة رسلاً إلى الأنبياء ، وسفراء بينه وبينهم ، وهذا الكلام قد اعتل به من قال : إن الملائكة أفضلُ ، واستدلالهم به أقوى ، فإن الأنبياءَ المرسلين ، إن ثبت تفضيلُهم على المرسَل إليهم بالرسالة ، ثبت تفضيلُ الرسل من الملائكة إليهم عليهم ، فإنَّ الرسول الملكي يكون رسولاً إلى الرسول البشري .

ومنه : قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ الآيات [البقرة : ٣١] .

قال الآخرون : وهذا دليل على الفضل ، لا على التفضيل ، وآدم والملائكة لا يعلمون إلَّا ما علمهم الله .

وليس الخَضِرُ أفضلَ من موسى ، بكونه عَلِمَ ما لم يعلمه موسى ، وقد سافر مـوسى وفتاه في طلب العلم إلى الخَضِـرِ، وتزوَّدَا لـذلك،وطلب مـوسى

منه العلم صريحاً ، وقال له الخَضرُ : إنَّك على علم من علم الله إلى آخر كلامه(*) .

ولا الهُدهُد أفضلَ مِن سليمان عليه السلام ، بكون أحاط بما لم يحط به سليمان عليه السلام علماً .

ومنه : قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَّي ﴾ [ص: ٧٥].

قال الآخرون : هذا دليل الفضل لا الأفضلية ، وإلا لزم تفضيلُه على محمد ﷺ . فإن قلتُم : هو مِن ذريته ؟ فمن ذريته البَرُّ والفاجر ، بل يومَ القيامة إذا قيل لآدم : « ابْعَثْ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثاً إلى النَّارِ » ، « يبعث مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسعمائِة وتِسعة وتِسْعِينَ إلى النَّارِ ، وَوَاحِداً إلى الجَنَّةِ »(١٧٦) . فما بالُ هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط .

ومنه : قولُ عبدِ الله بن سلام رضي الله عنه : ما خلق الله خلقاً أكرمَ عليه مِن محمد ﷺ ، الحديث(١٧٧) فالشأنُ في ثبوته وإن صح عنه ، فالشأن في ثبوته في نفسه ، فإنه يحتمِلُ أن يكونَ من الإسرائيليات .

ومنه : حديثُ عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ المَلائِكَةَ قَالَتْ : يَا رَبَّنَا! أَعْطَيْتَ بَنِي آدَمَ الدُّنيا يَأْكُلُونَ فِيهَا ، وَيَشْرَبُونَ وَيَلبَسُونَ ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، وَلاَ نَأْكُلُ وَلاَ نَشْرَبُ وَلاَ نَلْهُو ،

(*) وللحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى رسالة : « الزهر النضر في نبأ الخضر » . انظرها ضمن « مجموعة الرسائل المنيرية » ٢/١٩٥ ـ ٢٣٤ فإنها قيمة .

(١٧٦) قطعة من حديث رواه البخاري ٨/٣٣٥ في تفسير سورة الحج : باب قوله تعالى : ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ وفي الأنبياء : باب قصة يأجوج ومأجوج ، وفي الرقاق : باب قول الله عز وجل : ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ ومسلم رقم (٢٢٢) في الإيمان : باب قوله تعالى : يقول الله لآدم : أخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، وأحمد في « المسند» ٣/٣٢ ـ ٣٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١٧٧) رواه الحاكم في « المستدرك » ٤/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩ ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي . وإسناده صحيح .

فَكَمَا جَعَلْتَ لَهُمُ الدُّنيا فاجْعَلْ لَنَا الآخِرَةَ ؟ قَالَ : لا أَجْعَلُ صَالِحَ ذُرِّيَّةِ مَنْ خَلَقْتُ بِيَدِي كَمَنْ قُلْتُ لَهُ : كُنْ فَكَانَ » . أخرجه الطبراني(١٧٨) .

وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رُوَيم ، أنه قال : أخبرني الأنصاريُّ ، عن النبيِّ ﷺ « أن الملائكة قالوا . . . » ، الحديث ، وفيه : « وَيَنَامُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ ، فَقَالَ الله تعالَى : لَا ، فَأَعَادُوا القَوْلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ : «لَا» .

والشأن في ثبوتهما ، فإن في سنديهما مقالاً ، وفي متنهما شيئاً(١٧٩) ، فكيف يُظن بالملائكة الاعتراضُ على الله مراتٍ عديدة ؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبِقُونَه بالقول وهم بأمره يعملون ؟ وهل يُظن بهم أنهم متبرِّمون بأحوالهم ، متشوِّفُونَ إلى ما سواها مِن شهوات بني آدم ؟ والنومُ أخو الموت ، فكيف يَغْبِطُونَهم به ؟ وكيف يظن بهم أنهم يَغْبِطُونَهُمْ باللهو ، وهو مِن الباطل ؟ .

قالُوا : بل الأمرُ بالعكس ، فإن إبليسَ إنما وسوس إلى آدم ودلَّاهُ بغرور ، إذْ أطمعه في أن يكون مَلكاً بقوله : ﴿ مَا نَهَاكُما رَبُّكُما عَنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠] . فدلْ

---

(١٧٨) قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١/٨٢ : رواه الطبراني في « الكبير » وفي إسناده : إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك ، ورواه في « الأوسط » وفي سنده طلحة بن زيد وهو كذاب أيضاً ، ورواه أبو عثمان الدارمي في « الرد على المريسي العنيد » ص ٣٩٣ (مجموع عقائد السلف) بسند فيه عبد الله بن صالح قال في « التقريب » : صدوق ، كثير الغلط ، ورواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في « السنة » ص ١٤٨ وفيه « الأنصاري » اضطرب في تعيينه والخلاصة : الحديث ضعيف .

(١٧٩) خالف أحمد شاكر رحمه الله المصنف في إعلاله الحديث سنداً ومتناً حيث قال : إن الملائكة لم يعترضوا بهذا على ربهم وهو كمثل قولهم فيما حكاه الله عنهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . . . ﴾ الآيات ٣٠ - ٣٣ من سورة البقرة.١ هـ.ملخصاً.وقال الألباني : يحتمل أن يكون أصل الحديث من الاسرائيليات فأخطأ بعض الرواة فرفعه الى النبي ﷺ كما صنعوا بقصة هاروت وماروت. والله أعلم .

أن أفضيلة الملك أمر معلوم مستقرّ في الفطرة ، يشهدُ لذلك قولُه تعالى ، حكاية عن النسوة اللاتي قطّعن أيديهن عند رؤية يوسف ﴿ وقُلْنَ حَاشَ لله مَا هٰذا بَشَراً إنْ هٰذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُم عِنْدِي خَزَائِنُ الله وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُم إنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

قال الأولون : إن هذا إنما كان لما هو مركوز في النفس : أن الملائكة خلقٌ جميل عظيم ، مقتدِرٌ على الأفعال الهائلة ، خصوصاً العرب ، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم مِن العظمة بحيث قالوا : إن الملائكةَ بناتُ الله ، تعالى الله عن قولهم علوّاً كبيراً .

ومنه قُوله تعالى : ﴿ إنَّ الله اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وآلَ إبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .

قال الآخرون : قد يذكر « العالمون » ، ولا يقصد به العمومُ المطلق ، بل في كل مكان بحسبه ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ [الفرقان : ١] . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٠] . ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥] . ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُم عَلَى عِلمٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [الدخان : ٣٢] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ ﴾ [البيّنة : ٧] . والبرية : مشتقة من البَرْء ، بمعنى الخلق ، فثبت أن صالحي البشر خيرُ/الخلق .

٥٩/أ

قال الآخرون : إنما صارُوا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات ، والملائكة في هذا الوصف أكملُ ، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون ، فلا يلزمُ أن يكونوا خيراً من الملائكة . هذا على قراءة مَن قرأ « البريئة » ، بالهمز ، وعلى قراءة من قرأ بالياء ، إن قلنا : إنها مخففة من

الهمزة ، وإن قلنا : إنها نسبة إلى البَرىَ وهو التراب ، كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في « الصحاح » - : يكون المعنى : أنهم خير من خلق من التراب ، فلا عمومَ فيها ، إذ الغير من خلق من التراب .

قال الأولون : إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كَمُلُوا ، ووصلُوا إلى غايتهم ، وأقصى نهايتهم ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ، ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العُلا ، وحباهم الرحمنُ بمزيد قربه ، وتجلَّى لهم ، ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم .

وقال الآخرون : الشأنُ في أنهم هل صارُوا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها ؟ فإن كان قد ثبت لهم أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سُلِّم المدعَى ، وإلا فلا .

ومما استُدل به على تفضيل الملائكة على البشر : قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لله وَلاَ المَلاَئِكَةُ المُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء : ١٧٢] . وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضلُ مِن المعطوف عليه ، لأنه لا يجوز أن يُقال : لن يستنكف الوزير أن يكون خادماً للملك ، ولا الشرطي أو الحارس ! وإنما يقال : لن يستنكف الشرطي أن يكون خادماً للملك ولا الوزير ، ففي مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى .

فإذا ثبت تفضيلُهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره ، إذْ(*) لم يقل أحدٌ : إنهم أفضلُ مِن بعض الأنبياء دون بعض .

أجاب الآخرون بأجوبة ، أحسنها ، أو مِن أحسنها : أنه لا نزاع في فضل قوة المَلَك وقدرته وشدته وعِظَمِ خلقه ، وفي العبودية خضوع وذل

(*) في الأصل : إذا .

وانقياد ، وعيسى عليه السلام لا يستنكِفُ عنها ولا مَن هو أقدرُ منه وأقوى وأعظم خَلقاً ، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قُل لَا أَقُولُ لَكُم عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ ولَا أَقُولُ لكُم إني مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] . ومثل هذا يُقال بمعنى : إني لو قلتُ ذلك : لادعيتُ فوقَ منزلتي ، ولستُ ممن يدعي ذلك .

أجاب الآخرون : أَنَّ الكفار كانوا قد قالُوا : ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٧] فأمر أن يقول لهم : إني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج إليه البشرُ من الاكتساب والأكل والشرب ، لستُ من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجةً إلى الطعام والشراب ، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة .

ومنه ما روى مسلم(١٨٠) بإسناده : عن أبي هُريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ: « المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ ، وَفي كُلٍّ خَيْرٌ » . ومعلومٌ أن قوة البشر لا تُداني قوة الملك ولا تُقاربها .

قال الآخرون : الظاهر أن المرادَ المؤمن من البشر ـ والله أعلم ـ فلا تدخل الملائكة في هذا العموم .

ومنه ما ثبت في « الصحيح »(١٨١) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن

---

(١٨٠) رقم (٢٦٦٤) في القدر : باب في الأمر بالقوة وترك العجز ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٣٦٦/٢ و ٣٧٠ ، وابن ماجه رقم (٧٩) في المقدمة : باب في القدر ، ورقم (٤١٦٨) في الزهد : باب في التوكل واليقين .

(١٨١) رواه البخاري ٣٢٥/١٣ـ ٣٢٦ في التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ ويحذركمْ الله نفسه ﴾ ، وباب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ، و ٢٩٢/١١ ـ ٢٩٧ في الرقاق : باب التواضع ، ومسلم رقم (٢٦٧٥) في الذكر والدعاء : باب الحث على ذكر الله تعالى ، وفي التوبة : باب =

النبي ﷺ أنه قال فيما يَروي عن ربه عز وجل ، قال : « يَقُولُ الله تَعَالَى : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي ، فَإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ، ذَكَرْتُه في نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرَنِي في مَلأٍ ذَكَرْتُه في مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُم » الحديث . وهذا نص في الأفضلية .

قال الآخرون : يحتمل أن يكون المراد خيراً منه للمذكور ، لا الخيرية المطلقة .

ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة ، بسنده في كتاب « التوحيد » ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ إِذْ جَاءَ جِبْرِيلُ ، فَوَكَزَ بَيْنَ كَتِفَيَّ ، فَقُمْتُ إِلَى شَجَرَةٍ مِثْلِ وَكْرَي الطَّيْرِ ، فَقَعَدَ في إِحْدَاهُما ، وقَعَدْتُ في الأُخْرَى ، فَسَمَتْ وَارْتَفَعَتْ حَتَّى سَدَّت الخَافِقَينِ ، وأَنَا أُقَلِّبُ بَصرِي ، ولَوْ شِئْتُ أَنْ أَمَسَّ السَّماءَ مَسستُ ، فَنَظَرْتُ إِلى جِبْرِيل كَأَنَّه حِلسٌ لاطيء ، فَعَرَفْتُ فَضْلَ عِلْمِهِ بالله عَلَيَّ » . الحديث[١٨٢] .

قال الآخرون : في سنده مقال ، فلا نسلم الاحتجاجَ به إلا بعد ثبوته .

وحاصلُ الكلام : أن هذه المسألة من فضول المسائل ، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول ، وتوقف أبو حنيفة رضي الله عنه في الجواب عنها ، كما تقدم . والله أعلم بالصواب .

= في الحض على التوبة والفرح بها ، والترمذي رقم (٣٥٩٨) في الدعوات : باب رقم ١٣١ وابن ماجه رقم (٣٨٢١) في الأدب : باب فضل العمل ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٥١ و٤١٣ و ٤٨٠ و٤٨٢ و ٥٢٤ و ٥٣٤ .

(١٨٢) رواه ابن خزيمة ص ٢٠٩ ـ ٢٠١ وإسناده ضعيف. لضعف الحارث بن عبيد فقد كان سيء الحفظ .

وأما الأنبياءُ والمرسلون ، فعلينا الإيمانُ بمن سمّى الله تعالى في كتابه من رسله ، والإيمانُ بأن الله تعالى أرسلَ رسلاً سواهم وأنبياء لا يعلم أسماءَهم وعددَهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم .

فعلينا الإيمانُ بهم جملةً ، لأنه لم يأتِ في عددهم نصّ . وقد قال تعالى : ﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء : ١٦٤] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُم مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [غافر : ٧٨] .

وعلينا الإيمانُ بأنهم بلَّغوا جميعَ ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به ، وأنهم بيَّنُوا بياناً لا يسع أحداً ممن أُرْسِلُوا إليه جهلُه ، ولا يَحِلُّ خلافه ، قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إلا البَلاغُ المُبِينُ ﴾ [النحل : ٣٥] ﴿ فإن تَوَلَّوْا / فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ [النحل : ٨٢] [﴿ وإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ [النور : ٥٤] .](*) ﴿وأَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فإنَّما عَلَى رَسُولِنَا البَلاَغُ المُبِينُ ﴾ [التغابن ؛ ١٢] . ٥٩/ب

وأما أولو العزم من الرسل ، فقد قيل فيهم أقوال أحسنها : ما نقله البغويُّ وغيرُهُ عن ابن عباس وقتادة : أنهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ومحمد ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم ، قال : وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيينَ مِيثَاقَهُم وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب : ٧] .

وفي قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى المُشْرِكِيْنَ مَا تَدْعُوهُم إِلَيْهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

وأما الإيمانُ بمحمد ﷺ ، فتصديقُه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً .

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين ، فنؤمِنُ بما سمَّى الله تعالى منها في كتابه ، من التوراة والإنجيل والزبور ، ونؤمِنُ بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه ، لا يَعْرِفُ أسماءها وعددَها إلا الله تعالى .

وأما الإيمانُ بالقرآن ، فالإقرارُ به ، واتباعُ ما فيه ، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب ، فعلينا الايمانُ بأن الكتبَ المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله ، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء . قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمنَّا بِالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] . إلى قوله : ﴿ وَمَا أُوتِيَ النَّبيونَ مِنْ رَبِّهِم ﴾ [البقرة : ١٣٦] . ﴿ آلم * الله لا إله إلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وأَنْزَلَ الفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران : ١ ـ ٢] . ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] . ﴿ أَفَلا يَتدَبَّرُونَ القُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غيرِ الله لَوَجَدُوا فِيه اخْتِلَافاً كَثِيراً ﴾ [النساء : ٨٢] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها ، وأنها نزلت من عنده . وفي ذلك إثباتُ صفة الكلام والعلو ، وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيينَ مُبَشِّرينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ ﴾ [البقرة : ٢١٣] . ﴿ وإِنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَينَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤١ ـ ٤٢] ﴿ وَيَرى الَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ الَّذي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الحَقَّ ﴾ [سبأ : ٦] . ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُم وَشِفَاءٌ لِمَا في الصُّدُورِ وَهُدَىً وَرَحْمَةٌ لِلمُؤمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] . ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىً وَشِفَاءٌ ﴾ [حم السجدة : ٤٤] . ﴿ فآمِنُوا بالله وَرَسُولِهِ والنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا ﴾ [التغابن : ٨] ، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن .

* * *

قوله : ونُسَمِّي أَهْلَ قِبْلَتِنَا مُسْلِمِين مُؤْمِنِينَ ، مَا دَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَرِفِينَ ، وَلَهُ بِكُلِّ مَا قَالَه وَأَخْبَرَ مُصَدِّقِينَ .

قال رسولُ الله ﷺ: « مَنْ صَلَّى صَلاَتَنَا ، واسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا ، وأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا ، فَهُوَ المُسْلِمُ ، لَهُ مَا لَنَا وَعَلَيْهِ مَا عَلَيْنَا »(١٨٣) .

ويُشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى أن الإسلاَمَ والإيمانَ واحد ، وأن المسلم لا يخرُجُ من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحِلَّه .

والمراد بقوله : أهل قبلتنا : من يدَّعي الإسلاَمَ ، ويستقبلُ الكعبة وإن كان من أهل الأهواء ، أو مِن أهل المعاصي ، ما لم يُكذِّبْ بشيء مما جاء به الرسول ﷺ . وسيأتي الكلامُ على هٰذين المعنيين عند قول الشيخ : ولا نكفِّرُ أحداً مِن أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، وعند قوله : والإسلام والإيمان واحد ، وأهله في أصله سواء(*) .

* * *

قوله : وَلاَ نَخُوضُ فِي الله ، وَلاَ نُمَارِي فِي دِينِ الله .

يُشير الشيخ رحمه الله تعالى إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل ، وذمِّ علمهم ، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم ﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدَى ﴾ [النجم : ٢٣] .

---

(١٨٣) رواه البخاري ٤١٧/١ في الصلاة : باب فضل استقبال القبلة، والنسائي ١٠٩/٨ في الإيمان : باب صفة المسلم ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(*) انظر ص ١٣٨ وما بعدها ، وص ٣٦٠ وما بعدها .

وعن أبي حنيفة رحمه الله تعالى، أنه قال : لا ينبغي لأحدٍ أن ينطِقَ في ذات الله بشيء ، بل يَصِفُه بما وصف به نفسَهَ .

وقال بعضُهم : الحق سبحانه يقول : من ألزمتُه القيامَ مع أسمائي وصفاتي ، ألزمتُه الأدبَ ، ومن كشفت له حقيقة ذاتي ، ألزمتُه العطب ، فاختر الأدب أو العطب .

ويشهد لهذا : أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ، ساخ الجبلُ وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات .

قال الشبلي : الانبساط بالقول مع الحق تركُ الأدب .

وقوله : ولا نماري في دين الله . معناه لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهلِ الأهواء عليهم ، التماساً لامترائهم وميلهم ، لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل ، وتلبيس الحق ، وإفساد دين الإسلام .

* * *

قوله : وَلَا نُجَادِلُ فِي القُرْآنِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّه كَلامُ رَبِّ العَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، فَعَلَّمَه سَيِّدَ المُرْسَلِينَ مُحَمَّداً صلى الله عليه وعلى آله أجمعين . وهُوَ كَلَامُ الله تَعَالَى ، لاَ يُسَاوِيه شَيءٌ مِنْ كَلَامِ المَخْلُوقِينَ ، وَلَا نَقُولُ بِخَلْقِهِ ، وَلَا نُخَالِفُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ .

فقوله : « ولا نجادل في القرآن » ، يحتمل أنه أراد : أنَّا لا نقولُ فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا ، وجادلُوا بالباطل لِيُدْحِضُوا به الحقَّ ، بل نقول : إنه كلامُ رب العالمين ، نزل به الروح الأمين إلى آخر كلامه .

ويحتمل أنه أراد : أنّا لا نُجَادل في القرآءات الثابتة ، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح ، وكلٌّ من المعنيين حقّ ، ويشهد بصحة المعنى الثاني ، ما روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أنه قالَ : سمعتُ رجلاً قرأ آية سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأ خِلافَهَا ، فأخذتُ بيده ، فانطلقتُ به الى رسول الله ﷺ، فذكرتُ ذلك/له ، فعرفتُ في وجهه الكراهَةَ ، وقال : « كِلاَكُمَا مُحْسِنٌ ، لا تَخْتَلِفُوا ، فإنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم اختَلَفُوا فَهَلَكُوا » . رواه مسلم(١٨٤) . ٦٠/أ

نهَى رسولُ الله ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحدُ كلٍّ واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق ، لأن كلا القارئين كان محسناً فيما قرأه ، وعلَّل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا .

ولهذا قال حذيفة رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه : أَدْرِكْ هٰذه الأُمَّةَ لا تَخْتَلِفْ كما اختلفتِ الأممُ قبلهم . فجمعَ الناسَ على حرف واحد اجتماعاً سائغاً ، وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة ، ولم يكن في ذلك تركُ واجب ، ولا فعل لِمحظور ، إذْ كانت قراءةُ القرآن على سبعة أحرف جائزةً لا واجبةً ، رخصةً من الله تعالى ، وقد جعل الاختيارَ إليهم في أيِّ حرف اختاروه. كما أن ترتيبَ السور لم يكن واجباً عليهم منصوصاً ، ولهذا كان ترتيبُ مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثماني ، وكذلك مصحفُ غيره .

وأما ترتيبُ آيات السور ، فهو ترتيب منصوص عليه ، فلم يكن لهم أن يقدموا آيةً على آية ، بخلاف السور ، فلما رأى الصحابةُ أن الأمة تفترِقُ

---

(١٨٤) قد وهم الشارح في عزوه لصحيح مسلم ، فإنه لم يروِيه ، ورواه البخاري ٥/٥١ ـ ٥٢ في الخصومات : باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة ، و٦/٣٧٨ في الأنبياء : باب ما ذكر عن نبي إسرائيل ، و٩/٨٨ في فضائل القرآن : باب اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ، وأحمد في « المسند » ١/٤١٢ و ٤٥٦ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

وفي الحديث الحث على الجماعة والألفة ، والتحذير من الفرقة والاختلاف .

وتختلِفُ وتتقاتل إنْ لم تجتمع على حرف واحد ـ جمعهم الصحابة عليه . هذا قولُ جمهور السلف من العلماء والقراء . قاله ابن جرير وغيره .

ومنهم من يقول : إن الترخيص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام ، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً ، فلما تذلَّلَتْ ألسنتُهم بالقراءة ، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم ، وهو أوفقُ لهم ـ : أجمعوا على الحرف الذي كان في العَرْضة الأخيرة .

وذهب طوائفُ من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف يشتمِلُ على الأحرف السبعة ، لأنه لا يجوزُ أن يُهمل شيءُ مِن الأحرف السبعة .

وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني ، وترك ما سواه . وقد تقدمت **الإشارةُ إلى الجواب، وهو: أن ذلك كان جائزاً لا واجباً، أو أنه صار منسوخاً .**

وأما من قال عن ابن مسعود : إنه كان يجوِّز القراءةَ بالمعنى ! فقد كذَب عليه ، وإنما قال : قد نظرتُ إلى القُرَّاءِ فرأيتُ قراءتهم متقاربةً ، وإنما هو كقول أحدكم : هَلُمَّ ، وأقبِلْ ، وتعال ، فاقرؤوا كما علمتم ، أو كما قال(*) .

والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسنُ إلا الذين ظلمُوا منهم ، فكيف بمناظرة أهل القبلة ؟ فإن أهل القبلة من حيث الجملةُ خير من أهل الكتاب ، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسنُ ، وليس إذا أخطأ يقال : إنه كافر قبل أن تقامَ عليه الحجة التي حكم الرسولُ بكفر من تركها . والله تعالى قد عفا لهٰذه الأمة عن الخطأ والنسيان .

ولهذا ذم السلفُ أهلَ الأهواء ، وذكروا أن آخِرَ أمرهم السيف ، وسيأتي

(*) اعلم ان الأحرف السبعة ليست هي القراآت السبع . انظر تفصيلاً أدق وأنفس في كتاب «المرشد الوجيز إلى علوم الكتاب العزيز» للعلامة أبي شامة المقدسي .

لهذا المعنى زيادة بيان ، إن شاء الله تعالى ، عند قول الشيخ : ونرى الجماعة حقّاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً(*) .

وقوله : ونشهد أنه كلامُ ربِّ العالمين ، تقدم القول على هذا المعنى عند قوله : وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً(**) .

وقوله : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] . هو جبريل عليه السلام ، سمي رُوحاً لأنه حامل الوحي الذي به حياةُ القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين ، وهو أمينٌ حقُّ أمين ، صلوات الله عليه ، قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ ـ ٢١] . وهذا وصف جبريل ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ الآيات [الحاقة : ٤٠ ـ ٤١] ، فإن الرسول هنا لهو محمد ﷺ .

وقوله : فعلَّمه سيد المرسلين ؛ تصريح بتعليم جبريل إياه ، إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاماً .

وقوله : ولا نقول بخلقه ، ولا نخالف جماعة المسلمين ، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن ، فقد خالف جماعة المسلمين ، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق ، بل قوله : ولا نخالف جماعة المسلمين ، يجري على إطلاقه : أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه، فإن خلافهم زيغٌ وضلال وبدعة .

(*) انظر ص ٦٠٧ وما بعدها .

(**) انظر ص ١٣٥ وما بعدها .

قوله : وَلَا نُكَفِّرُ أَحَدَاً مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ بِذَنْبٍ ، مَا لَمْ يَسْتَحِلَّهُ ، وَلَا نَقُولُ : لَا يَضُرُّ مَعَ الإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ .

أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرُهم في قوله : ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ، ما داموا بما جاء به النبيُّ ﷺ معترفين ، وله بكل ما قال وأخبر مصدِّقين ، يشيرُ الشيخ رحمه الله تعالى بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

واعلم ـ رحمك الله وإيانا ـ أن بابَ التكفير وعدمَ التكفير ، بابٌ عظمت الفتنةُ والمحنةُ فيه ، وكثر فيه الافتراقُ ، وتشتتت فيه الأهواءُ والآراء ، وتعارضت فيه دلائلُهم ، فالناس فيه ، في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة ، المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر ، أو المخالفة لذلك في اعتقادهم ، على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف في تكفير/أهل الكبائر العملية . ٦٠/ب

فطائفة تقول : لا نكفِّر من أهل القبلة أحداً ، فتنفي التكفيرَ نفياً عامّاً ، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو أكفرُ من اليهود والنصارى بالكتاب والسنةُ والإجماع ، وفيهم من يُظهر بعضَ ذلك حيث يُمكنهم ، وهم يتظاهرون بالشهادتين .

وأيضاً : فلا خلافَ بين المسلمين أن الرجلَ لو أظهر إنكارَ الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواترة ، ونحو ذلك ؛ فإنه يُستتاب ، فإن تاب ، وإلا قُتل كافراً مرتدّاً . والنفاقُ والرِّدة مَظِنَّتها البِدَعُ والفجورُ ، كما ذكره الخلّال في كتاب « السنة » بسنده إلى محمد بن سيرين ، أنه قال : إنَّ أسرع الناس رِدَّة أهلُ الأهواء ، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم : ﴿ وإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُم حَتَّى يَخُوضُوا في حدِيثٍ غَيرِهِ ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

ولهذا امتنع كثيرٌ من الأئمة عن إطلاق القول بأنَّا لا نكفر أحداً بذنب ، بل يقال : لا نكفِّرهم بكُلِّ ذنب ، كما يفعله الخوارج ، وفرقٌ بين النفي العامّ ونفي العموم ، والواجب إنما هو نفي العموم مناقضةً لقول الخوارج الذين يُكفرون بكل ذنب .

ولهذا ـ والله أعلم ـ قيَّده الشيخ رحمه الله بقوله : ما لم يَستحِلَّه ، وفي قوله : ما لم يستحله إشارةٌ إلى أن مراده من هذا النفي العام لِكل ذنب من الذنوب العملية لا العلمية . وفيه إشكال ، فإن الشارع لم يكتفِ مِن المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم ، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل ، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح ، بل أعمالُ القلوب أصلٌ لعمل الجوارح ، وأعمال الجوارح تبعٌ إلاَّ أن يُضمن قوله : يَستَحِلُّه بمعنى : يعتقده : أو نحو ذلك .

وقوله : ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله . . إلى آخر كلامه ، ردّ على المرجئة ، فإنهم يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنبٌ ، كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ . فهؤلاء في طرف ، والخوارجُ في طرف ، فإنهم يقولون نكفِّر المسلم بكل ذنب ، أو بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلةُ الذين يقولون: يَحْبَطُ إيمانُه كُلُّه بالكبيرة ، فلا يبقى معه شيء من الإيمان . لكن الخوارج يقولون : يَخْرُجُ من الإيمان ، ويدخل في الكفر ! والمعتزلة يقولون : يخرج من الإيمان ، ولا يدخل في الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين !! وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلودَ في النار !

وطوائفُ من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الأعمال، لكن في الاعتقادات البِدْعية ، وإن كان صاحبُها متأولاً ، فيقولون : يكفر كل من قال هذا القول ، لا يفرِّقون بين المجتهد المخطىء وغيره ، أو يقولون : يكفر كُل مبتدع ، وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام أمورٌ عظيمة ، فإن

النصوصَ المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار مَنْ في قلبه [مثقالُ][*] ذرةٍ من إيمان ، ونصوصُ الوعد التي يحتجّ بها هؤلاء تُعارض نصوصَ الوعيد التي يحتج بها أولئك .

والكلام في الوعيد مبسوط في موضعه ، وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ : وأهل الكبائر في النار لا يخلدون إذا ماتوا وهم موحدون[**] .

والمقصود هنا : أن البدع هي من هذا الجنس ، فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً ، لكن إن تأول تأويلاً أخطأ فيه ، إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً، فلا يُقال : إن إيمانه حبطَ لمجرد ذلك ، إلَّا أن يَدُلَّ على ذلك دليل شرعي ، بل هذا مِن جنس قولِ الخوارج والمعتزلة ، ولا نقول : لا يكفر ، بل العدلُ هو الوسط ، وهو : أن الأقوالَ الباطلة المبتدعَة المحرَّمة المتضمِّنة نفيَ ما أثبته الرسول ، أو إثباتَ ما نفاه ، أو الأمرَ بما نهى عنه ، أو النهي عما أمر به ـ : يُقال فيها الحق ، ويثبُت لها الوعيدُ الذي دلت عليه النصوص ، ويُبين أنها كفر ، ويقال : من قالها ، فهو كافر ، ونحو ذلك ، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفوس والأموال، وكما قد قال كثيرٌ من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الآخرة ولا يعلمُ الأشياءَ قبل وقوعها .

وعن أبي يوسف رحمه الله ، أنه قال : ناظرت أبا حنيفة رحمه الله مدةً ، حتى اتفق رأيي ورأيه : أن من قال بخلق القرآن ، فهو كافر .

وأما الشخص المعين ، إذا قيل : هل تشهدون أنه من أهل الوعيد ، وأنه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه إلَّا بأمر تجوزُ معه الشهادة ، فإنه من أعظم البغي أن يُشهد على معين أن الله لا يغفر له ، ولا يرحمه ، بل يخلده في النار ، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(**) انظر ص ٤١٣ وما بعدها .

ولهذا ذكر أبو داود في « سننه »[185] في كتاب الأدب : باب النهي عن البغي ، وذكر فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كَانَ رَجُلانِ في بني إِسرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ ، فَكَانَ أَحَدُهُما يُذْنِبُ ، والآخَرُ مُجْتَهِدٌ في العِبادَةِ ، فَكَانَ لَا يَزَالُ المُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ ، فَيَقُولُ : أَقْصِرْ ، فَوَجَدَهُ يَوْماً عَلَى ذَنْبٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَقْصِرْ . فَقَالَ : خَلِّني وَرَبِّي ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيباً ؟/فَقَالَ : واللهِ لا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ، أَوْ لَا يُدخِلُكَ اللهُ الجَنَّةَ، فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُما ، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ ، فَقَالَ لِهَذَا المُجْتَهِدِ : أَكُنْتَ بي عَالِماً ؟ أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا في يَدَيَّ قَادِراً ؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ : اذهَبْ فادخُلِ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِي ، وَقَالَ للآخَرِ : اذهَبُوا بِهِ إلى النَّارِ »، قال أبو هُرَيرَةَ : والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وآخِرَتَـهُ . وهو حديث حسن .

٦١/أ

ولأن الشخص المعين يُمكن أن يكون مجتهداً مخطئاً مغفوراً له ، ويُمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراءَ ذلك من النصوص ، ويُمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذي قال : « إذا مِتُّ فَاسْحَقُوني ثُمَّ ذُرُّوني ، ثُمَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ لِخَشْيَتِهِ »[186] وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته ، أو شكَّ في ذلك . لكـن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا ، لمنع بدعته ، وأن نستتيبه ، فإن تاب وإلا قتلناه .

---

(١٨٥) رقم (٤٩٠١) ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ٣٢٣/٢ و ٣٦٣ وإسناده حسن .

(١٨٦) رواه البخاري ٢٦٨/١١ ـ ٢٦٩ في الرقاق : باب الخوف من الله ، وفي أبواب عدة ، ومسلم رقم (٢٧٥٧) في التوبة : باب سعة رحمة الله تعالى ، وأحمد في « المسند » ١٣/٣ و١٧ و ٧٧ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

ورواه البخاري ٣٧٩/٦ في الأنبياء : باب ما ذكر عن نبي إسرائيل ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ و « الموطأ » ٢٤٠/١ والنسائي في ١١٣/٤ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

انظر « جامع الأصول » رقم (٥٨٨٠) و (٥٨٨١) .

ثم إذا كان القولُ في نفسه كفراً قيل : إنه كفرٌ والقائلُ له يكفر بشروط وانتفاء موانع ، ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقاً زنديقاً ، فلا يتصور أن يكفَّر أحدٌ من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلاَّ من يكونُ منافقاً زنديقاً ، وكتاب الله يُبين ذلك ، فإن الله صنَّف الخلق فيه ثلاثة أصناف : صنفٌ : كفار من المشركين ومن أهل الكتاب ، وهم الذين لا يُقرون بالشهادتين ، وصنفٌ : المؤمنون باطناً وظاهراً . وصنفٌ أقرّوا به ظاهراً لا باطناً . وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة ، وكل من ثبت أنه كافر في نفس الأمر وكان مقراً بالشهادتين ، فإنه لا يكون إلاَّ زنديقاً ، والزنديق هو المنافق .

وهنا يظهر غلطُ الطرفين ، فإنه من كفَّر كُلَّ من قال القول المبتدع في الباطن ، يلزمه أن يكفِّر أقواماً ليسوا في الباطن منافقين، بل هم في الباطن يحبون الله ورسولَه ويُؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين ، كما ثبت في « صحيح البخاري »(١٨٧) ، عن أَسْلَم مَوْلَى عُمَرَ ، عن عُمَرَ رضي الله عَنْهُ : أَنَّ رَجُلاً كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ كَانَ اسمُهُ : عَبْدَ الله ، وَكَانَ يُلَقَّبُ : حِمَاراً : وَكَانَ يُضْحِكُ رَسُولَ الله ﷺ ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ جَلَدَهُ من الشَّرَابِ ، فَأُتِي بِهِ يَوْماً ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ : اللهُمَّ العَنْهُ ! مَا أَكْثَرَ ما يُؤْتَى بِهِ ! فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لا تَلْعَنْهُ ، [فَوَاللهِ ما عَلِمْتُ](*) ، إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ » وهذا أمر متيقَّن به في طوائفَ كثيرة وأئمة في العلم والدين ، وفيهم بعضُ مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج ، ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة ، بل بفرع منها ، ولهذا انتحل أهلُ هذه الأهواء الطوائف من

---

(١٨٧) ١٢ / ٦٦ - ٦٧ في الحدود : باب ما يكره من لعن شارب الخمر ، وأنه ليس بخارج عن الملة .

(*) الزيادة من « صحيح البخاري » .

السلف المشاهير . فمن عيوب أهل البدع تكفيرُ بعضهم بعضاً ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يُخطِّئون ولا يكفِّرون .

ولكن بقي هنا إشكال يَرِد على كلام الشيخ رحمه الله تعالى ، وهو : أن الشارع قد سمّى بعضَ الذنوب كفراً ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الكافِرُونَ ﴾ [المائـدة : ٤٤] . وقال ﷺ : « سِبَـابُ المُسْلِمِ (*) فُسُـوقٌ ، وقِتَالُـهُ كُفْرٌ » . متفق عليـه من حديث ابن مسعـود رضي الله عنه[188] .

وقال ﷺ : « لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُم رِقَابَ بَعْضٍ »[189] . « وإذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأخِيه : يَا كَافِرُ ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُما » .

(*) في الأصل المؤمن ، والتصحيح من كتب الحديث ومطبوعة مكة .

(١٨٨) رواه البخاري ١٠/٢٨٧ في الأدب : باب ما ينهى عن السباب واللعن ، و١/١٠٣ في الإيمان : باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، و١٣/٢٢ في الفتن : باب قول النبي ﷺ « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ، ومسلم رقم (٦٤) في الإيمان : باب بيان قول النبي ﷺ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ، والترمذي رقم (١٩٨٤) في البر والصلة : باب رقم ٥٢ ، والنسائي ٧/١٢١ في تحريم الدم : باب قتال المسلم ، وأحمد في « المسند » ١/٣٨٥ و٤١١ و٤٣٣ و٤٣٩ و٤٤٦ و٤٥٤ و٤٦٠ ، وابن ماجه رقم (٣٩٣٩) في الفتن : باب سباب المسلم فسوق وقتالة كفر .

وفي الباب عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما .

(١٨٩) قطعة من حديث رواه البخاري ٨/٨٢ في المغازي : باب حجة الوداع ، و٣/٤٥٨ في الحج : باب الخطبة أيام منى ، و١٠/٣٨٧ في الأدب : باب قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ﴾ ، و١٢/٧٥ في الحدود : باب ظهر المؤمن حمى ، و١٢/١٧٠ في الديات : باب قوله تعالى : ﴿ ومن أحياها ﴾ و١٣/٢٢ في الفتن : باب قول النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » ، ومسلم رقم (٦٦) في الإيمان : باب بيان قوله النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفاراً » ، وأبو داود رقم (٤٦٨٦) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ، وأحمد في « المسند » ٢/٨٥ و٨٧ و١٠٤ ، وابن ماجه رقم (٣٩٤٣) في الفتن : باب « لا ترجعوا بعدي كفاراً . . . الخ » .

وفي الباب عن عبد الله بن عباس ، وأبي بكرة ، وجرير بن عبد الله ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . =

متفق عليهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما[190] .

وقال ﷺ : « أَرْبعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَها : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ » . متفق عليه من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنهما[191] .

وقال ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَشْربُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ »[192] .

= انظر « جامع الأصول » رقم (٥٣) و(٥٤) و(٥٥) و(١٧٩٥) و(٧٥٣٧) و(٧٥٣٨) و(٧٥٣٩) .

(١٩٠) رواه البخاري ٤٢٨/١٠ في الأدب : باب من كفر أخاه بغير تأويل ، ومسلم رقم (٦٠) في الإيمان : باب بيان حال إيمان من قال لأخيه : يا كافر ، و« الموطأ » ٩٨٤/٢ في الكلام : باب ما يكره من الكلام ، والترمذي رقم (٢٦٣٩) في الإيمان : باب ما جاء فيمن رمى أخاه بكفر ، وأبو داود رقم (٤٦٨٧) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، وأحمد في « المسند » ١٨/٢ و٤٤ و٤٧ و٦٠ و١١٢ و١١٣ و١٤٢ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(١٩١) رواه البخاري ٨٤/١ في الإيمان : باب علامات المنافق ، و٧٧/٥ في المظالم : باب إذا خاصم فجر ، و٢٠٠/٦ في الجهاد : باب إثم من عاهد ثم غدر ، ومسلم رقم (٥٨) في الإيمان : باب بيان خصال المنافق ، وأبو داود رقم (٤٦٨٨) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذي رقم (٢٦٣٤) في الإيمان : باب ما جاء في علامة المنافق ، والنسائي ١١٦/٨ في الإيمان : باب علامة المنافق ، وأحمد في « المسند » ١٨٩/٢ و١٩٨ .

(١٩٢) رواه البخاري ٨٦/٥ في المظالم : باب النهبى بغير إذن صاحبه ، و٢٨/١٠ في الأشربة في فاتحته ، و٥٠/١٢ في الحدود : باب الزنا وشرب الخمر ، وفي المحاربين : باب إثم الزناة ، ومسلم رقم (٥٧) في الإيمان : باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية ، وأبو داود رقم (٤٦٨٩) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذي رقم (٢٦٢٧) في الإيمان : باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن ، والنسائي ٦٤/٨ في السارق : باب تعظيم السرقة ، وأحمد في « المسند » ٢٤٣/٢ و٣١٧ و٣٧٦ و٣٨٦ و٤٧٩ ، وابن ماجه رقم (٣٩٣٦) في الفتن : باب النهي عن النهبة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . =

وقال ﷺ : « بَيْنَ الرَّجُلِ ، وَبَيْنَ الكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » رواه مسلم(١٩٣) عن جابر رضي الله عنه .

وقال ﷺ : « مَنْ أَتَى كَاهِناً فَصَدَّقَهُ ، أَوْ أَتَى امْرَأَةً في دُبُرِهَا ، فَقَدْ كَفَر بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ »(١٩٤) .

وقال ﷺ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ الله فَقَدْ كَفَرَ » رواه الحاكم بهذا اللفظ(*) .

وقال ﷺ : « ثنتَانِ في أُمَّتِي هُمَا كُفْرٌ : الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ »(١٩٥) ونظائر ذلك كثيرة .

والجوابُ : أن أهل السنة متفقون كُلُّهم على أن مرتكبَ الكبيرة لا يكفرُ كفراً يَنْقُلُ عن المِلَّة بالكُلِّيَّةِ ، كما قالت الخوارجُ ، إذ لو كفر كفراً يَنْقُلُ عن الملة ، لكان مرتدًّاً يُقتل على كل حال ، ولا يُقبل عفو ولي القِصاص ، ولا تجري الحدودُ في الزنى والسرقة . وشرب الخمر ! وهذا القولُ معلومٌ بطلانه وفسادُه بالضرورة مِن دين الإسلام . ومتفقون على أنه لَا يخرجُ من/الإيمان ٦١/ب

= وفي الباب عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم . انظر « جامع الأصول » رقم (١٩٢٧) و (٩٣٦٩) و (٩٣٧٠) .

(١٩٣) رقم (٨٢) في الإيمان : باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ، وأبو داود رقم (٤٦٧٨) في السنة : باب في رد الإرجاء ، والترمذي رقم (٢٦٢٢) في الإيمان : باب ما جاء في ترك الصلاة ، وأحمد في « المسند » ٣/٣٧٠ و ٣٨٩ ، والدارمي رقم (١٢٣٦) في الصلاة : باب في تارك الصلاة ، وابن ماجه رقم (١٠٧٨) في إقامة الصلاة : باب ما جاء فيمن ترك الصلاة .

(١٩٤) رواه أحمد في « المسند » ٢/٤٠٨ و ٤٢٩ و ٤٧٦ ، وأبو داود رقم (٣٩٠٤) في الطب : باب في الكاهن ، والترمذي رقم (١٣٥) في الطهارة : باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض ، والدارمي رقم (١١٤١) في الوضوء : باب من أتى امرأته في دبرها ، وابن ماجه رقم (٦٣٩) في الطهارة : باب النهي عن إتيان الحائض ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٣٣ رقم ١١٥ .

(١٩٥) رواه مسلم رقم (٦٧) في الإيمان : باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . بلفظ : « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت » .

والإسلام ، ولا يدخُلُ في الكفر ، ولا يستحق الخلودَ مع الكافرين ، كما قالت المعتزلة ، فإن قولَهم باطل أيضاً ، إذ قد جعل الله مرتكبَ الكبيرة مِن المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، إلى أن قال : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ١٧٨] . فلم يُخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله أخاً لوليِّ القِصاص ، والمراد أُخُوَّةُ الدين بلا ريب ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ إنَّما المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ﴾ [الحجرات : ٩ - ١٠] .

ونصوصُ الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانيَ والقاذف والسارق لا يُقتل ، بل يُقام عليه الحدُّ فدل على أنه ليس بمرتد .

وقد ثبت في «الصحيح»[١٩٦] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ ، إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ ، وَإنْ لم تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ ، أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِه فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» . أخرجاه في «الصحيحين» .

فثبت أن الظالمَ تكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقَّه .

وكذلك ثبت في « الصحيح » عن النبيِّ ﷺ أنه قال : أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ ؟ قَالُوا : المُفْلِسُ فينا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ ولا دِينَارَ ، فَقَالَ : إن المُفْلِسَ

---

(١٩٦) رواه البخاري ٥/٧٣ في المظالم : باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له حتى يبين مظلمته ، و ١١/٣٤٤ في الرقاق : باب القصاص يوم القيامة ، والترمذي بمعناه رقم (٢٤٢١) في صفة القيامة : باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٣٧ و ٤٣٥ و ٥٠٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . دون قوله : « ثم ألقي في النار » . ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

مَنْ يَأتِي يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَه حَسَنَاتٍ أَمْثَالَ الجِبَالِ ، قَدْ شَتَمَ هَذا ، وَأَخَذَ مَالَ هَذا ، وسَفَكَ دَمَ هٰذَا ، وَقَذَفَ هٰذَا ، وَضَرَبَ هذا فَيَقْتَصُّ هٰذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُه قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فطُرِحَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ » . رواه مسلم(١٩٧) . وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] . فدل ذلك على أنه في حال إساءته يفعل حسناتٍ تمحو سيئاته ، وهذا مبسوط في موضعه .

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة ، فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلَّد في النار ، لكن قالت الخوارجُ : نسمِّيه كافراً ، وقالت المعتزلة : نُسمِّيه فاسقاً ، فالخلافُ بينهم لفظي فقط .

وأهل السنة أيضاً متفقون على أنه يستحق الوعيدَ المرتب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوصُ ، لا كما يقوله المرجئةُ من أنه لا يَضُرُّ مع الإيمَانِ ذَنْبٌ ، ولا ينفعُ مَعَ الكُفْرِ طَاعَةٌ ! وإذا اجتمعتْ نصوصُ الوعد التي استدلت بها المرجئة ، ونصوصُ الوعيد التي استدلت بها الخوارجُ والمعتزلة ـ : تبيَّن لك فسادُ القولين ! ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيدُ من كلام كل طائفة فسادَ مذهب الطائفة الأخرى .

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهلَ السنة اختلفوا اختلافاً لفظياً لا يترتب عليه فساد ، وهو : أنه هل يكون الكفرُ على مراتب ، كفراً دون كفر ؟ كما

(١٩٧) رقم (٢٥٨١) في البر والصلة : باب تحريم الظلم ، والترمذي رقم (٢٤٢٠) في صفة القيامة : باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ،وأحمد في « المسند » ٢/٣٠٣ و ٣٣٤ و ٣٧٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه عند مسلم : « إن المفلس من أمتي ، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته ، قبل أن يقضي ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار » .

اختلفوا : هل يكون الإيمان على مراتب ، إيماناً دون إيمان ؟ وهذا الاختلافُ نشأ من اختلافهم في مسمى « الإيمان » : هل هو قولُ وعملٍ يزيدُ وينقص ، أم لا ؟ بعد اتفاقهم على أن مَنْ سماه الله تعالى ورسوله كافراً نسميه كافراً ، ومن الممتنع أن يُسمِّيَ الله سبحانه الحاكمَ بغير ما أنزل الله كافراً ، ويسمي رسولُه من تقدم ذكره كافراً ، ولا نُطلق عليهما اسم الكفر ، ولكن من قال : إن الإيمانَ قولٌ وعمل يزيدُ وينقُصُ ، قال : هو كفر عمليّ لا اعتقاديّ ، والكفر عنده على مراتب : كفرٌ دونَ كفر ، كالإيمان عنده ، ومن قال : إن الإيمانَ هو التصديق ، ولا يدخلُ العمل في مسمى الإيمان ، والكفر : هو الجحود ، ولا يزيدان ولا ينقصان ، قال : هو كفر مجازيّ غيرُ حقيقي ، إذ الكفرُ الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة . وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، أي : صلاتكم إلى بيت المقدس ، إنها سميت إيماناً مجازاً ، لتوقف صحتها عن الإيمان ، أو لِدلالتها على الإيمان ، إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمناً . ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلَّى صلاتنا ، فليس بينَ فقهاء الأمة نزاعٌ في أصحاب الذنوب، إذا كانوا مقرِّين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسولُ وما تواتر عنهم أنهم من أهل الوعيد . ولكن الأقوال المنحرفة قولُ مَن يقول بتخليدهم في النار ، كالخوارج والمعتزلة ، ولكن أردأ ما في ذلك التعصبُ من بعضهم ، وإلزامه لمن يُخالف قوله بما لا يلزمه ، والتشنيع عليه ! وإذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين ، وأن يُجادَلوا بالتي هي أحسن ، فكيف لا يَعْدِلُ بعضُنا على بعض في مثل هذا الخلاف ؟! قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ الآية [المائدة : ٨] .

١/٦٢ وهنا أمر يجب أن يُتفطَّن له ، وهو : أن/الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً يَنْقُلُ عن الملة ، وقد يكون معصيةً : كبيرةً أو صغيرة ، ويكون

كفراً : إما مجازيّاً ، وإما كفراً أصغر ، على القولين المذكورين . وذلك بحسب حال الحاكم : فإنه إن اعتقد أَنَّ الحكم بما أنزل الله غيرُ واجب ، وأنه مخيَّرٌ فيه ، أو استهان به مع تيقنه أنه حكمُ الله ـ : فهذا كفرٌ أكبر . وإن اعتقد وجوبَ الحُكمِ بما أنزل الله ، وعلمه في هٰذه الواقعة ، وعَدَلَ عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا عاص ، ويُسمى كافراً كُفراً مجازيّاً ، أو كفراً أصغر . وإن جَهِلَ حكمَ الله فيها ، مع بذل جهده ، واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأه ، فهذا مخطىء ، إن حكَم أُجِرَ على اجتهاده ، وخطؤه مغفور .

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله : ولا نقولُ : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله . مخالفةَ المرجئة ، وشبهتُهم كانت قد وقعتْ لبعض الأولين ، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبُوا من ذلك ، فإن قُدَامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة ، وتأوَّلُوا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾ الآية [المائدة : ٩٣] ، فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، اتَّفق هو وعليّ بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم ، جُلِدُوا ، وإن أصرُّوا على استحلالها قُتِلُوا ، وقال عمر لِقدامة : أخطأتِ استُك الحُفْرَةَ ، أما إنك لو اتقيت وآمنتَ وعملتَ الصالحات ، لم تشرب الخمر ، وذلك أن هٰذه الآية نزلتْ بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر ، وكان تحريمُها بعد وقعة أُحُد ، قال بعضُ الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فأنزل الله هذه الآية ، بيَّن فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يحرَّم فيها ، فلا جناح عليه إذا كان مِن المؤمنين المتَّقين المصلحين ، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس ، ثم إن أولٰئك الذين فعلوا ذٰلك يُذمُّون على أنهم أخطؤوا ، وأيسوا من التوبة ، فكتب عمر إلى قدامة يقول له : ﴿ حمٓ * تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنْبِ

وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] . ما أدري أيُّ ذنبيك أعظم ؟ استحلالك المحرَّم أولاً ؟ أم يأسُك مِن رحمة الله ثانياً ؟ وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام .

* * *

قوله : وَنَرْجُو لِلمُحْسِنِينَ مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَيُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ بِرَحْمَتِهِ ، وَلَا نَأمَنُ عَلَيْهِم . وَلَا نَشْهَدُ لَهُم بِالجَنَّةِ ، وَنَسْتَغْفِرُ لِمُسِيئِهِمْ ، وَنَخَافُ عَلَيْهِمْ ، وَلَا نُقَنِّطُهُمْ .

وعلى المؤمن أن يعتقِدَ هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حقٍّ غيره : قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِين يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبهمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَه وَيَخافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ [الإسراء : ٥٧] . وقال تعالى : ﴿ فَلَا تَخافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] . وقال تعالى : ﴿ وإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾ [البقرة : ٤١] . ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة : ٤٠] . ﴿فَلَا تَخْشَوْهُم وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة : ١٥٠] .

ومدح أهل الخوف ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا أَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أولَئِكَ يُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ ـ ٦١] .

وفي « المسند » والترمذي[١٩٨] عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت :

---

(١٩٨) رواه أحمد في « المسند » ٦/١٥٩ و ٢٠٥ ، والترمذي رقم (٣١٧٤) في التفسير : باب ومن سورة المؤمنين ، وابن ماجه رقم (٤١٩٨) في الزهد : باب التوقي على العمل ، وفي سنده انقطاع ، فإن عبد الرحمن بن وهب الهمداني ـ الراوي عن عائشة رضي الله عنها ـ لم يدركها .

يا رسول الله ! ﴿ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] أهو الذي يزني ويشرب الخمر ويسرق ؟ قال : « لا ، يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي وَيَتَصَدَّقُ وَيَخَافُ أَنْ لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ » .

قال الحسن رضي الله عنه : عملوا ـ والله ـ بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن تُردَّ عليهم ، إن المؤمن جمع إحساناً وخشيةً ، والمنافِق جمع إساءةً وأمناً . انتهى .

وقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] . فتأمل كيف جعلَ رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات ؟ فالرجاءُ إنما يكونُ مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمةُ الله تعالى ، شرعه وقدره وثوابه وكرامته . ولو أن رجلاً له أرض يُؤمِّلُ أن يعود عليه مِن مغلِّها ما ينفعُه ، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها ، ورجا أنه يأتي مِن مَغَلِّها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض ـ : لعدَّهُ الناس مِن أسفه السفهاء ! وكذا لو رجا وحسَّن ظنه أن يجيئه ولدٌ من غير جماع ! أو يصيرَ أعلمَ أهل زمانه مِن غير طلب العلم وحرص تام ! وأمثال ذلك . فكذلك من حسن ظنه ، وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العُلى ، والنعيم المقيم من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه . ومما ينبغي أن يُعلم أنّ من رجا شيئاً ، استلزم رجاؤه أموراً :

أحدُها : محبة ما يرجوه .

الثاني : خوفه من فواته .

= وللحديث شاهد يتقوى به من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن جرير ١٨/٢٦ ، وقد صححه الحاكم في « المستدرك » ٢/ ٣٩٤ ووافقه الذهبي وهو كما قالا انظر « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٦٢) .

٦٢/ب الثالث : سعيه في/تحصيله بحسب الإمكان .

وأما رجاءٌ لا يُقارنه شيء من ذلك ، فهو من باب الأمانيّ ، والرجاء شيءٌ والأماني شيءٌ آخر ، فكلُّ راج خائف ، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السيرَ مخافة الفوات .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] . فالمشرك لا تُرجى له المغفرة ، لأن الله نفى عنه المغفرة ، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله ، إن شاء الله غفر له ، وإن شاء عذّبه .

وفي « معجم الطبراني » : [الدَّوَاوِينُ](*) عِنْدَ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاَثَةُ دَوَاوِينَ : دِيوَانٌ لا يَغْفِرُ اللهُ مِنْهُ شَيئاً ، وهُوَ الشِّرْكُ باللهِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] . وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئاً ، وَهُوَ مَظَالِمُ العِبَادِ بَعْضِهِم بَعْضاً ، وَدِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ ، وَهُوَ ظُلْمُ العَبْدِ نَفْسَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ »(١٩٩) .

وقد اختلفت عباراتُ العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر ، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله : وأهلُ الكبائر من أمة محمد في النار لا يُخلدون(**) . ولكن ثَم أمر ينبغي التفطِنُ له ، وهو : أن الكبيرة قد يقترِنُ بها مِن الحياء والخوف والاستعظام لها ما يُلحقها بالصغائر ، وقد يقترِنُ

(*) الزيادة من مطبوعة مكة ، ومن كتب الحديث .

(١٩٩) رواه أحمد في « المسند » ٦ / ٢٤٠ ، والحاكم في « المستدرك » ٤/٥٧٥ من حديث صدقة ابن أبي موسى عن أبي عمران الجوني عن يزيد بن بابنوس . عن عائشة رضي الله عنها ، قال الحاكم : صحيح ، فرده الذهبي بأن صدقة ضعفوه وابن بابنوس فيه جهالة . قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : في سند أحمد صدقة بن أبي موسى ضعفه الجمهور ، وبقية رجاله ثقات .

(**) انظر ص ٤١٣ وما بعدها .

بالصغيرة ، مِن قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف والاستهانة بها ما يُلحِقُها بالكبائر ، وهذا أمر مرجعُه إلى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

وأيضاً : فإنه قد يُعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يُعفى لغيره ، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبةُ جهنم بنحو عشرة أسباب ، عُرفتْ بالاستقراء من الكتاب والسنة :

السبب الأول : التوبة ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ [مريم : ٦٠] ، [والفرقان : ٧٠] . ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ [البقرة : ١٦٠] وغيرها ، والتوبة النصوح ، وهي الخالصة ، لا يختص بها ذنب دون ذنب ، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامةً ؟ حتى لو تاب مِن ذنب ، وأصر على آخر لا تقبل ؟ والصحيح أنها تقبل .

وهل يَجُبُّ الإسلام ما قبله مِن الشرك وغيره من الذنوب ، وإن لم يتب منها ؟ أم لا بدّ مع الإسلام من التوبة من غير الشرك ؟ حتى لو أسلم وهو مصرٌ على الزنى وشرب الخمر مثلاً ، هل يُؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنى ، وشرب الخمر ؟ أم لا بدّ أن يتوبَ مِن ذلك الذنب مع إسلامه ؟ أو يتوبَ توبةً عامة مِن كل ذنب ؟ وهذا هو الأصح : أنه لا بد من التوبة مع الإسلام ، وكونُ التوبة سبباً لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها ـ مما لا خلافَ فيه بين الأمة ، وليس شيءٌ يكون سبباً لغفران جميع الذنوب إلا التوبةَ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعَاً إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، وهذا لمن تاب ، ولهذا قال : ﴿ لَا تَقْنَطُوا ﴾ ، وقال بعدها : ﴿ وأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾ الآية ، [الزمر : ٥٤] .

السبب الثاني : الاستغفارُ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهم وَهُمْ

يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . لكن الاستغفار تارةً يُذكر وحدَه ، وتارةً يُقرن بالتوبة ، فإن ذكره وحده دخلتْ معه التوبة ، كما إذا ذُكرت التوبةُ وحدها شملت الاستغفار ، فالتوبةُ تتضمن الاستغفارَ ، والاستغفارُ يتضمن التوبة ، وكُلُّ واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق ، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى ، فالاستغفارُ : طلبُ وقاية شرّ ما مضَى ، والتوبة : الرجوعُ وطلبُ وقاية شرّ ما يخافه في المستقبل من سيئاتِ أعماله .

ونظير هذا : الفقير والمسكين ، إذا ذكر أحدُ اللفظين شمل الآخر ، وإذا ذكرا معاً ، كان لكل منهما معنى ، قال تعالى : ﴿ فَإِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة : ٨٩] . ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ [المجادلة : ٤] . ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] . لا خلاف أن كل واحد من الاسمين في هٰذه الآيات لما أفرد شمل المقلّ والمعدمَ ، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ ﴾ /الآية [التوبة : ٦٠] كان المراد بأحدهما المقلّ : والآخر المُعْدِم ، على خلاف فيه . ٦٣/أ

وكذلك : الإثمُ والعدوانُ ، والبر والتقوى ، والفسوق والعصيان . ويقـرُبُ من هذا [المعنى][*] : الكفـرُ والنفاقُ ، فـإن الكفـر أعم ، فـإذا ذكـر الكفر ، شمل النفاق ، وإن ذكرا معاً ، كان لكل منهما معنى ، وكذٰلِكَ الإيمانُ والإسلامُ ، على ما يأتي الكلام فيه ، إن شاء الله تعالى .

السبب الثالث : الحسنات : فإن الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويلُ لِمَنْ غلبت آحادُه عشراته ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] . وقال ﷺ : « وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا »(٢٠٠) .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(٢٠٠) قطعة من حديث رواه الترمذي رقم (١٩٨٨) في البر : باب ما جاء في معاشرة الناس ، =

السبب الرابع : المصائب الدنيوية ، قال ﷺ : « ما يُصِيبُ المُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ ، وَلَا هَمٍّ وَلَا غَمٍّ وَلَا حُزْنٍ . حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إلا كفّر بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »(٢٠١) وفي « المسند »(٢٠٢) : أنه لما نزل قولُه تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾ [النساء : ١٢٣] قال أبو بكر : يا رسولَ الله ! نزلت قاصِمةُ الظهر ، وأيُّنا لم يعمل سُوءاً ؟ فقال : « يَا أَبَا بَكْرٍ ! أَلَسْتَ تَنْصُبُ ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ اللأْوَاءُ ؟ ذٰلِكَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ » .

فالمصائبُ نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يُثاب العبدُ، وبالسخط يأثم، فالصبر والتسخط أمر آخر غير المصيبة ، فالمصيبةُ مِن فعل الله لا مِن فعل العبد ، وهي جزاءٌ مِن الله للعبد على ذنبه ، ويكفِّرُ ذنبه بها ، وإنما يُثاب

= وأحمد في « المسند » ١٥٣/٥ و ١٥٨ ، والدارمي رقم (٢٧٩٤) في الرقاق : باب في حسن الخلق ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، ورواه أحمد في « المسند » ٢٢٨/٥ و ٢٣٦ من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه . وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وهو كما قال .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » : وقد روي عن النبي ﷺ أنه أوصى بهذه الوصية معاذاً وأبا ذر رضي الله عنهما ، من وجوه قال : وهي وصية عظيمة جامعة لحقوق الله وحقوق عباده .

ولفظه بتمامه : « إتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

(٢٠١) رواه البخاري ٩١/١٠ في المرضى : باب ما جاء في كفارة المرض ، ومسلم رقم (٢٥٧٣) في البر والصلة : باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ، والترمذي رقم (٩٦٦) في الجنائز : باب ما جاء في ثواب المريض ، وأحمد في « المسند » ٣٠٣/٢ و ٣٣٥ و ٤/٣ و ١٨ و ٢٤ و ٣٨ و ٤٨ و ٨١ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٢٠٢) قال العلامة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعليقاً على هذا الحديث : حديث أبي بكر هذا في « المسند » برقم ٦٨ بشرحنا ، ولكن أوله هناك أن أبا بكر قال : «يارسول الله! كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ فكل سوء عملناه جزينا به » . ليس فيه قوله هنا : « نزلت قاصمة الظهر » وهو حديث ضعيف ، إسناده منقطع . وكان الأجدر بالشارح ـ رحمه الله ـ أن يذكر حديث أبي هريرة في « المسند » ٧٣٨٠ أنه لما نزلت هذه الآية : « شقت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال لهم : « قاربوا وسددوا ، فكل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها » وهو حديث صحيح ، رواه مسلم في « صحيحه » (٢٨٢/٢) وزاد في آخره : « والشوكة يشاكها » . ولو رجع الشارح ـ رحمه الله ـ إلى تفسير شيخه ابن كثير في هذه الآية (٥٨٦/٢ ـ ٥٩٠) لوجد حديث أبي هريرة ، وأحاديث أخر في معناه ، بعضها أصح إسناداً من حديث أبي بكر .

المرء ويأثم على فعله ، والصبرُ والسخط من فعله ، وإن كان الأجر قد يحصُل بغير عمل من العبد ، بل هديةً مِن الغير ، أو فضل من الله من غير سبب ، قال تعالى : ﴿ وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرَاً عَظِيمَاً ﴾ [النساء : ٤٠] . فنفس المرض جزاءٌ وكفارة لما تقدم .

وكثيراً ما يُفهم من الأجر غفرانُ الذنوب ، وليس ذلك مدلولَه ، وإنما يكوُنُ من لازمه .

السبب الخامس : عذاب القبر ، وسيأتي الكلامُ عليه ، إن شاء الله تعالى .

السبب السادس : دعاءُ المؤمنين واستغفارُهم في الحياة وبعد الممات .

السبب السابع : ما يُهدى إليه بعدَ الموت ، من ثواب صدقة أو قراءة ، أو حجٍّ ، ونحو ذلك ، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى .

السبب الثامن : أهوالُ يوم القيامة وشدائده .

السبب التاسع : ما ثبت في « الصحيحين »(٢٠٣) : « أنَّ المُؤْمِنِينَ إذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ ؟وُقِفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ ، فَيقتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَإِذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ في دُخُولِ الجَنَّةِ » .

السبب العاشر : شفاعةُ الشافعين ، كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها(*) .

---

(٢٠٣) رواه البخاري ٥/٧٠ في المظالم : باب قصاص المظالم ، و١١/٣٤٦ في الرقاق : باب القصاص يوم القيامة ، وأحمد في « المسند » ٣/١٣ و٥٧ و٦٣ و ٧٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

(*) انظر ص ٢٢٣ وما بعدها .

السبب الحادي عشر : عفوُ أرحم الراحمين من غير شفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ و ١١٦] . فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفِرَ له لعظم جُرمه ، فلا بدّ من دخوله إلى الكير ، ليخلص طيبُ إيمانه مِن خُبث معاصيه ، فلا يبقى في النار مَنْ في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقالِ ذرة من إيمان ، بل من قال : لا إلَه إلاّ الله ، كَمَا تقدم من حديث أنس رضي الله عنه(*) . وإذا كان الأمرُ كذلك ، امتنعَ القطعُ لأحد معين من الأمة ، غير من شهد له الرسولُ ﷺ بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخاف عليهم .

* * *

قوله : والأَمْنُ والإِياسُ يَنْقُلَان عَنْ مِلَّةِ الإِسْلامِ ، وَسَبِيلُ الحَقِّ بَيْنَهُما لأَهْلِ القِبْلَةِ .

يجب أن يكونَ العبدُ خائفاً راجياً ، فإن الخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبينَ محارم الله ، فإذا تجاوزَ ذٰلِكَ خِيفَ منه اليأس والقنوط .

والرجاء المحمود : رجاءُ رجل عَمِلَ بطاعة الله على نور من الله ، فهو راج لثوابه ، أو رجل أذنب ذنباً ، ثم تاب منه إلى الله ، فهو راج لمغفرته ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ الله والله غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢١٨] .

أما إذا كان الرجل متمادياً في التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عمل ، فهذا هو الغرورُ والتمني والرجاء الكاذب .

(*) تقدم تخريجه ص ١١١ رقم ٤٢ .

قال أبو علي الروذباري(*) رحمه الله : الخوفُ والرجاء كجناحي الطائر ، وإذا استويا استوى الطير وتم طيرانُه ، واذا نقص أحدُهما ، وقع فيه النقص ، واذا ذهبا ، صار الطائر في حدّ الموت .

وقد مدح الله أهلَ الخوف والرجاء بقوله : ﴿ أَمَّن هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدَاً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ ويَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ الآية [الزمر : ٩] . وقال : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفَاً وَطَمَعَاً ﴾ الآية [السجدة : ١٦] . فالرجاء يستلزم الخوفَ ، ولولا ذلك لكان أمْناً ، والخوفُ يستلزم الرجاء ، ولولا ذلك ، لكان قنوطاً ويأساً . وكل أحد إذا خِفتَه ، هربتَ منه ، إلا الله تعالى ، فإنك إذا خفته هربتَ إليه ، فالخائفُ هارب من ربه إلى ربه .

٦٣/ب

وقال صاحب « منازل السائرين » رحمه الله : الرجاء أضعف منازل المريد ، وفي كلامه نظر ، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد .

وفي « الصحيح »(٢٠٤) عن النبي ﷺ : « يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ : أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ، فَلْيَظُنَّ بِي مَا شَاءَ » .

وفي « صحيح مسلم »(٢٠٥) عَنْ جابر رضي الله عنه ، قال : سَمِعْتُ

(*) هو محمد بن أحمد بن القاسم الروذباري البغدادي ، من كبار الصوفية ، شاعر ، فقيه ، لزم الجنيد وأقام بمصر . كانت وفاته سنة ٣٢٣ هـ . انظر « تاريخ بغداد » ١/ ٣٢٩ و « اللباب » ١/ ٤٨٠ .

(٢٠٤) رواه أحمد في « المسند » ٣/ ٣٩١ و ٤/ ١٠٦ ، وصححه ابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٤٦٨) « موارد » من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه .

وتقدم تخريج الحديث رقم (١٧٧) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه وليس فيها « فليظن بي ما شاء » .

(٢٠٥) رقم (٢٨٧٧) في صفة الجنة وصفة نعيمها ، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى ، وأبو داود رقم (٣١١٣) في الجنائز : باب ما يستحب من الظن بالله تعالى عند الموت ، وابن ماجه رقم (٤١٦٧) في =

رسولَ الله ﷺ يقول قبلَ موته بثلاث : « لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُم إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَنَّ بِرَبِّهِ » .

ولهذا قِيل : إن العبد ينبغي أن يكونَ رجاؤه في مرضه أرجحَ مِن خوفه ، بخلاف زمن الصحة ، فإنه يكونُ خوفُه أرجحَ مِن رجائه .

وقال بعضهم : مَن عَبد الله بالحب [وحدَه](*)، فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حَروري ، ومن عبده بالرجاء وحدَه ، فهو مرجىء ، ومن عبدَه بالحب والخوف والرجاء ، فهو مؤمن موحِّد ، ولقد أحسن محمود الوراق في قوله :

لَوْ قَدْ رَأَيْتَ الصَّغِيرَ مِنْ عَمَلِ الخَيـ ـرَ ثَـوَابَـاً عَـجِبْـتَ مِـنْ كِـبَـرِه
أَوْ قَدْ رَأَيْتَ الحَقِيرَ مِنْ عَمَلِ الشـ ـرَ جَـزَاءً أَشْـفَـقْـتَ مِـنْ حَـذَرِه

* * *

قوله : ولا يَخْرُجُ العَبْدُ مِنْ الإِيمَانِ إلَّا بِجُحُودِ مَا أَدْخلَهُ فِيهِ .

يُشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الخوارج والمعتزلة في قولهم بخروجه من الإِيمان بارتكاب الكبيرة . وفيه تقرير لما قال أولاً : لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، ما لم يستحله . وتقدم الكلام على هدا المعنى .

* * *

= الزهد : باب التوكل واليقين ، وأحمد في «المسند» ٣/٢٩٣ و ٣١٥ و ٣٢٥ و ٣٣٠ و ٣٩٠ .
(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

قوله: والايمَانُ: هُوَ الإِقْرَارُ باللِّسَانِ ، والتَّصْدِيقُ بِالجَنَانِ ، وَجَمِيعُ مَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الشَّرْعِ والبَيَانِ كُلُّهُ حَقٌّ . وَالإِيمَانُ وَاحِدٌ ، وَأَهْلُهُ في أَصْلِهِ سَوَاءٌ ،والتَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالخَشْيَةِ والتُّقى ، وَمُخَالَفَةِ الهَوَى ، وَمُلاَزَمَةِ الأَوْلى .

اختلف الناس فيما يقع عليه اسمُ الإيمان اختلافاً كثيراً : فذهب مالكٌ والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائرُ أهل الحديث وأهلُ المدينة رحمهم الله وأهلُ الظاهر وجماعة من المتكلمين : إلى أنه تصديقٌ بالجنَان ، وإقرارٌ باللسان ، وعَمَلٌ بالأركان .

وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوي رحمهم الله : أنه الإقرارُ باللسان ، والتصديقُ بالجنان .

ومنهم من يقولُ : إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي ، وإلى هٰذا ذهب أبو منصور الماتريدي رحمه الله ، ويُروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه .

وذهب الكرَّامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ! فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الايمان ، ولكنهم يقولون : بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به ! وقولهم ظاهر الفساد .

وذهب جهم بن صفوان وأبو الحسين الصالحي أحدُ رؤساء القدَرية إلى أن الإيمان : هو المعرفة بالقلب ! وهذا القولُ أظهر فساداً مما قبله ! فإن لازِمه أن فرعون وقومَه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا صِدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام ، ولم يُؤْمِنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤلَاءِ إلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الأسراء : ١٠٢] .

وقال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهم ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة المُفْسِدِينَ﴾ [النمل : ١٤] .

وأهلُ الكتاب كانوا يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، ولم يكونوا مؤمنين به ، بل كافرين به ، معادين له .

وكذلك أبو طالِب عنده يكون مؤمناً ، فإنّه قال :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ البَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا المَلَامَةُ أو حَذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدتَنِي سَمْحَاً بِذَاكَ مُبِينَا

بل إبليس يكون عند جهم مؤمناً كاملَ الإيمان ! فإنه لم يجهل ربه ، بل هو عارفٌ به ، ﴿ قَالَ : رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر : ٣٦] . ﴿ قَالَ : رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر : ٣٩] . ﴿ قَالَ : فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٢] ./والكفر عند جهم : هو الجهلُ بالربِّ تعالى ، ولا أحد أجهلَ منه بربه ! فإنه جعله الوجودَ المطلق ، وسلب عنه جميعَ صفاته ، ولا جهلَ أكبر من هذا ، فيكون كافراً بشهادته على نفسه ! ٦٤/أ

وبين هذه المذاهب مذاهب أخر ، بتفاصيل وقيود ، أعرضتُ عن ذكرها اختصاراً ، ذكر هٰذه المذاهب أبو المعين النسفي(*) في « تبصرة الأدلة » وغيره .

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان : إما أن يكونَ ما يقومُ بالقلب واللسان وسائِر الجوارح ، كما ذهب إليه جمهورُ السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله ، كما تقدم .

(*) هو أبو المعين ميمون بن محمد بن محمد بن معبد مكحول النسفي الحنفي ، متكلم فقيه اصولي ، كان بسمرقند ، وسكن بخارى . توفي سنة ٥٠٨ هـ من تصانيفه : « التمهيد لقواعد التوحيد » و «تبصرة الأدلة» و « مناهج الأئمة » وغيرها .

أو بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله .

أو باللسان وحده ، كما تقدم ذكره عن الكرَّامية .

أو بالقلب وحده ، وهو إما المعرفة ، كما قاله جهم ، أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي رحمه الله . وفسادُ قول الكرامية وجهم بن صفوان ظاهرٌ .

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة ـ اختلاف صوريّ ، فإن كونَ أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب ، أو جُزءاً من الإيمان ، مع الاتفاق على أن مرتكبَ الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو في مشيئة الله ، إن شاء عذَّبه ، وإن شاء ، عفا عنه ـ نزاع لفظي ، لا يترتبُ عليه فساد اعتقاد .

والقائلون بتكفير تارك الصلاة ، ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى ، وإلا فقد نفى النبيُّ ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهِب ، ولم يُوجب ذلك زوالَ اسم الإيمان عنهم بالكلية ، اتفاقاً .

ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد مِن العباد القول والعمل ، وأعنى بالقول : التصديق بالقلب والإقرار باللسان ، وهذا الذي يُعنى به عند إطلاق قولهم : الإيمان قولٌ وعمل ، لكن هذا المطلوب من العباد : هل يشملُه اسم الإيمان ؟ أم الإيمان أحدُهما ، وهو القولُ وحده ، والعمل مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بالذكر ، وإن أطلق عليهما كان مجازاً ؟ هذا محل النزاع .

وقد أجمعوا على أنه لو صدَّق بقلبه وأقر بلسانه ، وامتنع عن العمل بجوارحه ـ : أنه عاصٍ لله ورسوله ، مستحق للوعيد ، لكن فيمن يقول : إن

الأعمال غيرُ داخلة في مسمى الإيمان مَن قال : لما كان الإيمانُ شيئاً واحداً فإيماني كإيمان أبي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما ! بل قال : كإيمانِ الأنبياء والمرسلين وجبريـل وميكائيل عليهم السلام !! وهذا غلوٌ منه ، فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر ، ولا شك أن البُصراء يختلِفُون في قوة البصر وضعفه ، فمنهم الأخفش والأعشى ، ومن يرى الخط الثخين ، دون الرفيع إلا بزجاجة ونحوها ، ومن يرى عن قرب زائد على العادة ، وآخر بضده .

ولهذا ـ والله أعلم ـ قال الشيخ رحمه الله : وأهله في أصله سواء ، يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله ، ولايلزمُ منه التساوي من كل وجه ، بل تفاوتُ نورِ « لا إله إلا الله » في قلوب أهلها لا يُحصيها إلا الله تعالى : فمن الناس من نورها في قلبه كالشمس،ومنهم من نورُها في قلبه كالكوكب الدُّرِّي،وآخَر كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر كالسراج الضعيف .

ولهذا تظهرُ الأنوارُ يومَ القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار ، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علماً وعملاً ، وكلما اشتدَّ نورُ هذه الكلمة وعَظُمَ ، أحرق مِن الشبهات والشهوات بحسبِ قوته ، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يُصادف شهوة ولا شُبهة ولا ذنباً إلا أحرقه ، وهٰذه حال الصادق في توحيده ، فسماء إيمانه قد حُرس بالرجوم من كل سارق .

ومن عرف هذا ، عرف معنى قول النبي ﷺ: « إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ : لا إِلٰه إِلَّا الله يَبْتَغِي بِذٰلِكَ وَجْهَ الله تَعَالَى »(٢٠٦) .

---

(٢٠٦) رواه البخاري ١١/٢٠٦ في الرقاق : باب العمل الذي يبتغي به وجه الله تعالى ، و١٢/٢٧١ في استتابة المرتدين : باب ما جاء في المتأولين ، ومسلم رقم (٣٣) في الإيمان : باب الدليل على أنه من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً ، من حديث عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه .

وقوله : « لا يدخل النار من قال : لا إله إلا الله » وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التي أُشكلت على كثير من الناس ، حتى ظنها بعضُهم منسوخة ، وظنها بعضُهم قبل ورود الأوامر والنواهي ، وحملها بعضُهم على نار المشركين والكفار ، وأَوَّل بعضُهم الدخول بالخلود ، ونحو ذلك .

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذٰلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط ، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام ، فإن / المنافقين يقولُونها بألسنتهم ، وهم تحتَ الجاحدين في الدرك الأسفل من النار ، فإن الأعمال لا تتفاضل بصُوَرها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب .

٦٤/ب

وتأمل حديثَ البطاقة التي تُوضع في كِفة ، ويُقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كُلُّ سجلّ منها مدُّ البصر ، فتثقل البطاقةُ ، وتطيشُ السجلات ، فلا يُعذب صاحبُها(*) .

ومعلوم أن كل موحد له مثلُ هٰذه البطاقة ، وكثير منهم يدخل النار .

وتأمَّل ما قام بقلب قاتل المائة[٢٠٧] مِن حقائق الإيمان ، التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية ، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوءُ بصدره وهو يُعالج سكراتِ الموت .

وتأمل ما قام بقلب البغِيِّ من الإيمان ، حيث نزعت مُوقَها وسقت الكلبَ مِن الرَّكيَّةِ ، فغُفر لها[٢٠٨] .

(*) تقدم تخريجه ص ٧٤ رقم ٢٦ .

(٢٠٧) الحديث رواه البخاري ٦/٣٧٣ ـ ٣٧٤ في الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ومسلم رقم (٣٧٦٦) في التوبة : باب قبول توبة القاتل ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . انظره في «جامع الأصول» رقم (٩٨٧) .

(٢٠٨) رواه البخاري ٦/٣٧١ في الأنبياء : باب ومسلم رقم (٢٢٤٤) في السلام : باب فضل ساقي =

وهكذا العقلُ أيضاً ، فإنه يقبل التفاضل ، وأهلُه في أصله سواء ، مستوون في أنهم عقلاء غيرُ مجانين، وبعضُهم أعقلُ من بعض .

وكذلك الإيجابُ والتحريمُ ، فيكون إيجابٌ دون إيجاب ، وتحريمٌ دونَ تحريم ، هذا هو الصحيح ، وإن كان بعضُهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب .

وأما زيادةُ الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل ـ : فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجبَ بعد نزول القرآن كُلِّه ، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصَّل مما أخبر به الرسولُ ما يجب على من بلغه خبرُه ، كما في حق النجاشي وأمثاله .

وأما الزيادةُ بالعمل والتصديق ، المستلزم لعمل القلب والجوارح ـ : فهو أكمل مِن التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلمُ الذي يعمل به صاحبُه أكملُ مِن العلم الذي لا يعمل به ، فإذا لم يحصل اللازم، دل على ضعف الملزوم . ولهذا قال النبي ﷺ : « ليس المُخْبَرُ كالمُعَايَنِ »(٢٠٩) .

وموسى عليه السلام لما أُخبِر أن قومَه عبدوا العجلَ لم يُلق الألواح ، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها ، وليس ذلك لِشك موسى في خبر الله ، لكن المخبَر ، وإن جزم بصدق المخبِر ، فقد لا يتصوَّرُ المخبَرَ به نفسه ، كما يتصوَّرُه إذا عاينه ، كما قال إبراهيمُ الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه : ﴿ رَبِّ أَرِني كَيْفَ تُحيي المَوْتَى قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

= البهائم المحترمة وإطعامها . انظره في «جامع الأصول» رقم (٢٦٢٧) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قوله : «موقها» أي خفها ، وقوله : « الركية » : أي البئر .

(٢٠٩) رواه أحمد في «المسند» ١/٢١٥ و ٢٧١ ، وابن حبان في «صحيحه» رقم (٢٠٨٧) ، « موارد » والحاكم ٢/٣٢١ ، وإسناده صحيح .

وأيضاً : فمن وجب عليه الحجُّ والزكاة مثلاً ، يجب عليه مِن الإيمان أن يعلم ما أُمِر به ، ويؤمن بأن الله أوجبَ عليه ما لا يجبُ على غيره الإيمان به إلا مجملاً ، وهذا يجبُ عليه فيه الإيمانُ المفصَّل .

وكذلك الرجلُ أول ما يُسلم ، إنما يجبُ عليه الإقرارُ المجمل ، ثم إذا جاء وقتُ الصلاة كان عليه أن يُؤمن بوجوبها ويُؤديها ، فلم يتساو الناسُ فيما أُمِروا به من الإيمان .

ولا شك أن من قام بقلبه التصديقُ الجازم ، الذي لا تقوى على معارضته شهوةٌ ولا شُبهة ـ : لا تقعُ معه معصية ، ولولا ما حصل له مِن الشهوة والشبـهة أو إحداهما لما عصى ، بل يشتغلُ قلبه ذلك الوقت بما يُواقعه من المعصية ، فيغيبُ عنه التصديقُ والوعيدُ فيعصي . ولهذا ـ والله أعلم ـ قال ﷺ : « لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ »(*) ، الحديث . فهو حين يزني يغيب عنه تصديقُه بحرمة الزنى ، وإن بقي أصلُ التصديق في قلبه ، ثم يُعاوده ، فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

قال ليث عن مجاهد : هو الرجل يَهُمُّ بالذنب ، فيذكر الله فيدعُه .

والشهوةُ والغضب مبدأُ السيئات فإذا أبصر ، رجع ، ثم قال تعالى : ﴿ وإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ ثُمَّ لا يُقصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٢] ، [أي : وإخوانُ الشياطين تمدهم الشياطينُ في الغي ، ثم لا يُقصرون](**) . قال ابنُ عباس رضي الله عنهما : لا الإنسُ تقصر عن السيئات ، ولا الشياطينُ تُمسِكُ عنهم ، فإذا لم يُبصر ، بقي قلبُه في عمى ، والشيطانُ يمدُّه في غيه ،

(*) تقدم تخريجه ص ٢٨٦ رقم ١٥٢ .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

وإن كان التصديقُ في قلبه لم يكذب ، فذلك النورُ والإبصارُ ، وتلك الخشيةُ والخوفُ تخرُج مِن قلبه ، وهذا كما أن الإنسان يُغْمِضُ عَينه ، فلا يرى ، وإن لم يكن أعمى فكذلك القلبُ بما يغشاه من رَيْن الذنوب ، لا يُبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر .

وجاء هذا المعنى مرفوعاً إلى النبيِّ ﷺ: أنه قال : « إِذَا زَنَى العَبْدُ ، نُزِعَ مِنْهُ الإِيمَانُ ، فإِذَا تَابَ أُعِيدَ إِلَيْهِ »(٢١٠) .

وإذا كان النزاع في هذه المسألة بين أهل السنة نزاعاً لفظيّاً ، فلا محذورَ فيه سوى ما يحصل مِن عُدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك ،/ وأن يصيرَ ذلك ذريعة إلى بِدَع أهلِ الكلام المذموم من أهل الإرجاء ونحوهم ، وإلى ظهور الفِسق والمعاصي ، بأن يقول : أنا مؤمن مسلم حقّاً كاملُ الإيمان والإسلام وليٌّ من أولياء الله ! فلا يُبالي بما يكون منه من المعاصي . ٦٥/أ

وبهذا المعنى قالت المرجئة : لا يَضُر مَعَ الإيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ ! وهذا باطل قطعاً .

فالإمام أبو حنيفة رضي الله عنه نظر إلى حقيقة الإيمان لغةً مع أدلة مِن كلام الشارع . وبقيةُ الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته في عرف الشارع ، فإن الشارِعَ ضمَّ إلى التصديق أوصافاً وشرائط ، كما في الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك .

---

(٢١٠) رواه أبو داود رقم (٤٦٩٠) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، والترمذي بلفظ آخر رقم (٢٦٢٧) في الإيمان : باب ما جاء لا يزني الزاني وهو مؤمن ، وإسناده صحيح ، وصححه الحاكم ٢٢/١ ووافقه الذهبي ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .
انظر «جامع الأصول» رقم (٩٣٧١) .

فمن أدلة الأصحابِ لأبي حنيفة رضي الله عنه : أن الإيمانَ في اللغة عبارة عن التصديق ، قال تعالى خبراً عن إخوة يوسف : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾[يوسف : ١٧] ، أي بمصدق لنا .

ومنهم من ادَّعى إجماعَ أهل اللغة على ذلك .

ثم هذا المعنى اللغوي ، وهو التصديق بالقلب ، هُو الواجبُ على العبد حقّاً لله ، وهو أن يُصدِّق الرسولَ ﷺ فيما جاء به من عند الله ، فمن صدَّق الرسولَ فيما جاء به من عند الله ، فهو مؤمن فيما بينَه وبينَ الله تعالى ، والإقرارُ شرطُ إجراء أحكام الإسلام في الدنيا . هذا على أحد القولين ، كما تقدم ، ولأنه ضدُّ الكفر ، وهو التكذيبُ والجحودُ وهما يكونان بالقلب ، فكذا ما يضادُّهما .

وقوله : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُه مُطْمَئِنٌّ بالإِيمَانِ ﴾ [النحل : ١٠٦] ، يدل على أن القلب هو موضعُ الإيمانِ ، لا اللسان ، ولأنه لو كان مركباً من قول وعمل ، لزال كُلُّه بزوال جزئه ، ولأن العمل قد عُطِفَ على الإيمان ، والعطف يقتضي المغايَرة ، قال تعالى : ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [البقرة : ٢٥] في مواضع من القرآن .

وقد اعتُرض على استدلالهم بأن الإيمان في اللغة عبارة عن التصديق - بمنع الترادفِ بَين التصديق والإيمان ، وهب أن الأمر يَصِحُّ في موضع ، فَلِمَ قلتم : إنه يوجبُ الترادفَ مطلقاً ؟ .

وكذلك اعتُرض على دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان .

ومما يدل على عدم الترادف : أنه يقال للمخبرَ إذا صدق : صدَّقه ، ولا يقال : آمَنه ، ولا آمَنَ به ، بل يقال : آمن لَه ، كما قال تعالى : ﴿ فآمَنَ لَهُ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٦] . ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى

خَوْفٍ ﴾ [يونس : ٨٣] . وقال تعالى : ﴿ يُؤمِنُ بالله ويُؤمِنُ لِلمُؤمِنِينَ ﴾ [التوبة : ٦١]، ففرَّقَ بين المعدَّى بالباء والمعدَّى باللام ، فالأول يقال للمخبرَ به ، والثاني للمخبِر ، ولا يرد كونُه يجوز أن يُقال : ما أنت بمصدِّق لنا ، لأن دخولَ اللام لتقويةِ العامل ، كما إذا تقدم المعمولُ ، أو كان العاملُ اسمَ فاعل ، أو مصدراً ، على ما عُرِفَ في موضعه .

فالحاصل أنه لا يُقال : قد آمنتُه ، ولا صدقتُ له ، إنما يقال : آمنت له ، كما يقال : أقررت له ، فكان تفسيرُه بأقررت ـ أقربَ مِن تفسيره بصدَّقتُ ، مع الفرق بينهما ، لأن الفرق بينهما ثابت في المعنى ، فإن كل مخبِر عن مشاهدة أو غيب ، يقال له في اللغة : صدقتَ ، كما يقال له : كذبتَ ، فمن قال : السماءُ فوقنا ، قيل له : صدقتَ .

وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن الغائب ، فيُقال لمن قال : طلعت الشمسُ ـ : صدَّقناه ، ولا يقال : آمنَّا له ، فإن فيه أصلَ معنى الأمن ، والائتمان إنما يكونُ في الخَبَر عن الغائب ، فالأمرُ الغائب هو الذي يُؤتمن عليه الْمخبِرُ .

ولهذا لم يأت في القرآن وغيره لفظ آمن له ـ إلا في هذا النوع . ولأنه لم يقابَل لفظ الإيمان قط بالتكذيب كما يُقابَل لفظ التصديق ، وإنما يقابَل بالكفر ، والكفر لا يختص بالتكذيب ، بل لو قال : أنا أعلمُ أنك صادق ولكن لا أتبعُك ، بل أُعاديك وأُبغِضُك وأُخالِفك ـ : لكان كفراً أعظم ، فعُلم أن الإيمان ليسَ التصديقَ فقط ، ولا الكفر هو التكذيبَ فقط ، بل إذا كان الكفر يكون تكذيباً ، ويكون مخالفةً ومعاداةً بلا تكذيب ، فكذلك الإيمانُ ، يكون تصديقاً وموافقة وموالاة وانقياداً ، ولا يكفي مجردُ التصديق ، فيكون الإسلامُ جزءَ مسمَّى الإيمان ، ولو سُلِّم الترادفُ ، فالتصديق يكون بالأفعال أيضاً ،

كما ثبت في « الصحيح »[211] عن النبي ﷺ أنه قال : « العَيْنَانِ تَزْنِيَانِ ، وَزِنَاهُما النَّظَرُ ، والأُذُنُ تَزْنِي ، وَزِنَاهَا السمع » إلى أن قالَ : «والفَرْجُ يُصَدِّق ذٰلِكَ وَيُكَذِّبُهُ » .

وقال الحسن البصري رحمه الله : لَيْسَ الإِيمَانُ بالتَّحَلِّي وَلاَ بِالتَّمَنِّي ، وَلَكِنَّه ما وَقَرَ في الصَّـدْرِ ، وصدَّقَتْه الأَعْمالُ . ولو كان تصديقاً ، فهو تصديق مخصوص ، كما في الصلاة ونحوها كما قد تقدم ، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييراً له ، فإن الله لم يأمرنا بإيمان مطلق ، بل بإيمان خاص ، وصفه وبيِّنه ، فالتصديق الذي هو الإيمان أدنى أحوالِه أن يكونَ نوعاً مِن التصديق/العام ، فلا يكون مطابقاً له في العموم والخصوص ، من غير تغير اللسان ولا قلبه ، بل يكون الإيمانُ في كلام الشارع مؤلفاً من العام والخاص ، كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق ، ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح ، فإن هٰذه من لوازم الإيمان التام ، وانتفاء اللازم دليلٌ على انتفاء الملزوم .

٦٥/ب

ونقول : إن هذه لوازم تدخل في مسمى اللفظ تارةً ، وتخرج عنه أخرى ، أو إن اللفظ باقٍ على معناه في اللغة ، ولكن الشارع زادَ فيه أحكاماً ، أو أن يكون الشارع استعمله في معناه المجازي ، فهو حقيقة شرعية ، مجاز لغوي ، أو أن يكون قد نقله الشارع .

---

(٢١١) رواه البخاري ١١/٢٢ في الاستئذان : باب زنى الجوارح دون الفرج ، و ١١/٤٤٠ في القدر : باب ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ ، ومسلم رقم (٢٦٥٧) في القدر : باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا ، وأبو داود رقم (٢١٥٢) في النكاح : باب ما يؤمر به من غض البصر ، وأحمد في «المسند» ٢/٢٧٦ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ورواه مسلم رقم (٢٦٥٧) (٢١) وأبو داود رقم (٢١٥٢) و (٢١٥٣) و (٢١٥٤) وأحمد في «المسند» ٢/٣١٧ و٣١٩ و٣٤٣ و ٣٤٤ و٣٤٩ و٣٧٢ و ٣٧٩ و٤١١ و٥٣٥ و ٥٣٦ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهذه الأقوال لمن سلك هذا الطريق .

وقالُوا : إن الرسول قد وافقنا على معاني الإيمان ، وعلمنا مِن مراده علماً ضرورِيّاً أن من قيل : إنَّه صدَّق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان ، مع قُدرته على ذلك ، ولا صلى ، ولا صام ، ولا أحب الله ورسولَه ، ولا خاف الله ، بل كان مبغضاً للرسول ، معادياً له يُقاتله ـ : أن هٰذا ليس بمؤمن .

كما علمنا أنه رتَّب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما . فقد قال ﷺ : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لَا إِلٰهَ إِلَّا الله ، وأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ » . وقال أيضاً ﷺ « الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ »[212] .

وقال أيضاً ﷺ : « أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَاناً أَحْسَنُهُم خُلُقَاً »[213] .

وقال أيضاً ﷺ : « البَذَاذَةُ مِنَ الإِيمَانِ »[214] .

فإذا كان الإيمانُ أصلاً له شُعَبٌ متعددة ، وكُلُّ شعبة منها تُسمى : إيماناً ، فالصلاةُ من الإيمان ، وكذلك الزكاةُ والصوم والحج ، والأعمالُ

---

(٢١٢) رواه البخاري ٤٨/١ و٤٩ في الإيمان : باب أمور الإيمان بلفظ «الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من الإيمان» ، ومسلم رقم (٣٥) في الإيمان : باب بيان عدد شعب الإيمان ، وأبو داود رقم (٤٦٧٦) في السنة : باب في رد الإرجاء ، والترمذي رقم (٢٦١٧) في الإيمان : باب استكمال الإيمان ، وأحمد في «المسند» ٣٧٩/٢ و ٤٤٥ ، والنسائي ١١٠/٨ في الايمان : باب ذكر شعب الإيمان ، وابن ماجه رقم (٥٧) في المقدمة بلفظ : «الإيمان بضع وستون أو سبعون باباً» . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢١٣) رواه الترمذي رقم (١١٦٢) في الرضاع : باب ما جاء في حق المرأة على زوجها ، وأبو داود رقم (٤٦٨٢) في السنة : باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ، وأحمد في «المسند» ٢٥٠/٢ و ٤٧٢ و ٥٢٧ ، والدارمي رقم (٢٧٩٥) في الرقاق : باب في حسن الخلق ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وصححه ابن حبان رقم (١٣١١) « موارد » . وهو حديث صحيح .

(٢١٤) رواه أبو داود رقم (٤١٦١) في الترجل : باب رقم ١ بلفظ : «ألا تسمعون ألا تسمعون إن البذاذة من الإيمان» ورواه ابن ماجه رقم (٤١١٨) في الزهد : باب من لا يؤبه له .

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣١٠/١٠ : هذا حديث صحيح .

الباطنة ، كالحياءِ والتوكل والخشيةِ من الله والإنابة إليه ، حتى تنتهيَ هٰذِه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فإنَّه من شُعب الإيمان ، وهذه الشُّعب ، منها ما يزولُ الإيمانُ بزوالها كشُعبة الشهادتين ، ومنها ما لا يزولُ بزوالها ، كترك إماطة الأذى عن الطريق ، وبينهما شُعَبٌ متفاوتة تفاوتاً عظيماً ، منها ما يقرُب من شعبة الشهادة ، ومنها ما يقرُب من شعبة إماطة الأذى ، وكما أن شُعبَ الإيمان إيمان ، فكذا شُعَبُ الكفر كفر ، فالحُكم بما أنزل الله ـ مثلاً ـ مِن شُعَبِ الإيمان ، والحُكم بغير ما أنزل الله كفر .

وقد قال ﷺ : « مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَراً ، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ ، فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذٰلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » . رواه مسلم . وفي لفظ : « لَيْسَ وَرَاءَ ذٰلِكَ مِنَ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ »[٢١٥] .

وروى الترمذيُّ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال : «مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله ـ: فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ »[٢١٦] .

ومعناه ـ والله أعلم ـ أن الحبَّ والبغضَ أصلُ حركة القلب ، وبذل المال ومنعه هو كمالُ ذلك ، فإن المال آخرُ المتعلقات بالنفس ، والبدن

---

(٢١٥) رواه مسلم رقم (٤٩) في الإيمان : باب النهي عن المنكر ، وأحمد في «المسند» ٣/١٠ و ٢٠ و٥٣ و٥٤ و٩٢ ، والترمذي رقم (٢١٧٣) في الفتن : باب ما جاء في تغيير المنكر باليد ، وأبو داود رقم (١١٤٠) في صلاة العيدين : باب الخطبة يوم العيد ، ورقم (٤٣٢٠) في الملاحم : باب الأمر بالنهي ، والنسائي ٨/١١١ في الإيمان : باب تفاضل أهل الإيمان ، وابن ماجه رقم (٤٠١٣) في الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

والرواية الأخيرة : رواها مسلم رقم (٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢١٦) رواه الترمذي رقم (٢٥٢٣) في صفة القيامة : باب رقم ٦٠ وأحمد في «المسند» ٣/٤٣٨ من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه .

ورواه أيضاً أبو داود رقم (٤٦٨١) ، والطبراني في «الأوسط» والضياء المقدسي والبيهقي في «شعب الإيمان» من حديث أبي أمامة رضي الله عنه .

وهو حديث صحيح بشواهده .

متوسط بين القلب والمال ، فمن كان أوَّلُ أمره وآخِرُه كُلُّه لله ، كان الله إلٰهه في كل شيء ، فلم يكن فيه شيء مِن الشرك ، وهو إرادة غيرِ الله وقصدُه ورجاؤه فيكون مستكملاً الإيمان ، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل .

وسيأتي في كلام الشيخ رحمه الله في شأن الصحابة رضي الله عنهم : وحبُّهم دين وإيمان وإحسان ، وبغضُهم كفر ونفاق وطغيان(*). فسمى حب الصحابة إيماناً ، وبغضهم كفراً .

وما أعجبَ ما أجاب به أبو المعين النسفي وغيره عن استدلالهم بحديث شُعب الإيمان المذكور ، وهو : أن الراوي قال : « بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَو بِضْعٌ وَسَبْعُونَ » فقد شَهِدَ الراوي بغفلة نفسه حيث شك فقال : بضع وستون أو بضع وسبعون ، ولا يُظن برسول الله ﷺ الشك في ذلك ! وأن هذا الحديث مخالف للكتاب .

فطعن فيه بغفلة الراوي ومخالفته الكتاب ، فانظر إلى هذا الطعن ما أعجبه ! فإن تردد الراوي بين الستين والسبعين لا يلزمُ منه عدمُ ضبطه ، مع أن البخاري رحمه الله إنما رواه : « بضع وستون » من غير شك .

وأما الطعن بمخالفة الكتاب ، فأين في الكتاب ما يدل على خلافه ؟ وإنما فيه ما يدل على وِفاقه ، وإنما هذا الطعن مِن ثمرة شُؤم التقليد والتعصب .

وقالوا أيضاً : وهنا أصل آخر ، وهو : أن القولَ قسمان : قولُ القلب وهو الاعتقاد ، وقولُ اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام ، والعمل قسمان : عملُ القلب ، وهو نيتُه وإخلاصه ، وعملُ /الجوارح ، فإذا زالت هذه ٦٦/أ

(*) انظر ص ٥٤٥ وما بعدها .

الأربعة ، زال الإيمانُ بكماله ، وإذا زال تصديقُ القلب ، لم تنفع بقية الأجزاءِ ، فإن تصديق القلب شرط في اعتبارها وكونها نافعة . وإذا بقي تصديقُ القلب ، وزال الباقي ، فهذا موضع المعركة !!

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدمُ طاعة القلب ، إذ لو أطاع القلب وانقاد ، لأطاعتِ الجوارح ، وانقادت ، ويلزمُ من عدم طاعة القلب وانقياده عدمُ التصديق المستلزم للطاعة .

قال ﷺ : « إنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ ، صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ »(٢١٧) . فمن صلح قلبُه صلح جسده قطعاً ، بخلاف العكس .

وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله ، فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت ، فمسلَّم ، ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء ، فيزول عنه الكمال فقط .

والأدلةُ على زيادةِ الإيمان ونقصانِه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جدّاً : منها : قوله تعالى : ﴿ وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُمْ إيمَاناً ﴾ [الأنفال : ٢] . ﴿ ويَزِيدُ الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدَىً ﴾ [مريم : ٧٦] . ﴿ وَيَزْداد الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ [المدثر : ٣١] ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤] . ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُم النَّاسُ

---

(٢١٧) قطعة من حديث رواه البخاري ١/١١٧ في الإيمان : باب فضل من استبرأ لدينه ، وفي البيوع : باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبّهات ، ومسلم رقم (١٥٩٩) في المسافات : باب أخذ الحلال وترك الشبهات ، وأبو داود رقم (٣٣٢٩) و(٣٣٣٠) في البيوع : باب في اجتناب الشبهات ، والترمذي رقم (١٢٠٥) في البيوع : باب ما جاء في ترك الشبهات ، والنسائي ٧/٢٤١ في البيوع : باب اجتناب الشبهات في الكسب، وأحمد في «المسند» ٤/٢٦٧ و ٢٦٩ و ٢٧١ و ٢٧٥ ، والدارمي رقم ٢٥٢٤) في البيوع: باب في الحلال بين والحرام بين ، وابن ماجه رقم (٣٩٨٤) في الفتن : باب الوقوف عند الشبهات ، من النعمان بن بشير رضي الله عنه .

إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادهُمْ إيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها إن الزيادة باعتبار زيادة المؤمَن به ؟ فهل في قول الناس : ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ زيادة مشروع ؟ وهل في إنزال السكينة في قلوب المؤمنين زيادة مشروع ؟ وإنما أنزل الله السكينةَ في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحُديبية ليزدادوا طمأنينة ويقيناً .

ويؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] . وقال تعالى : ﴿وإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذه إيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُون * وَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ـ ١٢٥] .

وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي(*) رحمه الله ، في تفسيره عند هذه الآية ، فقال : حدثنا الفقيه قال : حدثنا محمد بن الفضل وأبو القاسم الساباذي ، قالا : حدثنا فارس بن مردويه ، قال : حدثنا محمد بن الفضل بن العابد ، قال: حدثنا يحيى بن عيسى ، قال : حدثنا أبو مطيع ، عن حماد بن سلمة ، عن أبي المهزَّم(**) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسولَ الله ! الإيمانُ يزيد وينقصُ ؟ فقال : « لا ، الإيمانُ مكمّل في القلب ، زيادتُه ونُقصانُه كُفْرٌ »(***) .

(*) لعله نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندي الحنفي ، صاحب كتاب «تنبيه الغافلين» كانت وفاته سنة ٣٧٥هـ .

(**) في الأصل : المحزم ، وهو خطأ ، وسيرد بعد قليل : المهزم .

(***) باطل كما بينه الشارح رحمه الله تعالى .

فقد سئل شيخُنا الشيخ عماد الدين بن كثير(*) رحمه الله تعالى عن هذا الحديث ؟ فأجاب : بأن في الإسناد من أبي الليث إلى أبي مطيع مجهولون لا يعرفون في شيء من كتب التواريخ المشهورة ، وأما أبو مطيع ، فهو: الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخي ، ضعفه أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وعمرو بن علي الفلّاس ، والبخاري ، وأبو داود ، والنسائي ، وأبو حاتم الرازي ، وأبو حاتم محمد بن حبان البستي ، والعقيلي ، وابن عدي ، والدارقطني ، وغيرهم . وأما أبو المهزم ، الراوي عن أبي هريرة ، وقد تصحَّف على الكتّاب ، واسمه : يزيد بن سفيان، فقد ضعفه أيضاً غيرُ واحد ، وتركه شعبة بن الحجاج ، وقال النسائي : متروك ، وقد اتهمه شعبة بالوضع ، حيث قال : لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً !!

وقد وصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين(٢١٨) . وقال ﷺ :

(*) هو أبو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير البصروي ، ثم الدمشقي ، محدث ، مؤرخ ، مفسر ، فقيه . ولد بـ « جندل » من أعمال بصرى سنة ٧٠٠ هـ وانتقل إلى دمشق ونشأ بها وتوفي بها سنة ٧٧٤ هـ ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية رحمهما الله تعالى ، ولا يزال قبرهما بارزان حتى الآن في أرض جامعة دمشق . من تصانيفه : « التفسير العظيم » و « مختصر علوم الحديث » لابن الصلاح و « التكميل في معرفة الثقاة والضعفاء والمجاهيل » و « كتاب الهدى والسنن في أحاديث المسانيد والسنن » و «البداية» وهو تاريخه المشهور ، و « النهاية في علامات قيام الساعة » وهذا الكتاب هو من خيرة كتبه،وقد حققه الأستاذ الشيخ عبد القادر الأرناؤوط وفي نيتنا طبعه عما قريب بعون الله تعالى .

(٢١٨) رواه مسلم رقم (٧٩) في الإيمان : باب بيان نقصان الإيمان بنقصان الطاعات ، وأبو داود رقم (٤٦٧٩) في السنة من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : «يا معشر النساء تصدقن ، وأكثرن الاستغفار ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار» قالت امرأة منهن جزلة : مالنا أكثر أهل النار؟ قال : « تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن قالت : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : «شهادة امرأتين بشهادة رجل ، وتمكث الأيام لا تصلي» . ورواه أيضاً البخاري ٢٧٤/٢ في العيدين ، وفي الحيض ، وفي الزكاة ، وفي الصوم ، وفي الشهادات ، ومسلم رقم (٨٨٩) في العيدين والنسائي ١٨٧/٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِه وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٢١٩] . والمراد نفيُ الكمال .

ونظائرُه كثيرة ، وحديثُ شُعب الإيمان ، وحديثُ الشفاعة ، وأنه يخرُج من النار مَنْ في قلبه أدنى أدنى مثقالِ ذرَّةٍ من إيمان ، فكيف يُقال بعد هذا : إن إيمان أهل السماوات والأرض سواء ؟! وإنما التفاضلُ بينهم بمعانٍ أخر غير الإيمان ؟!

وكلامُ الصحابة رضي الله عنهم في هذا المعنى كثير أيضاً :

منه : قول أبي الدرداء رضي الله عنه : مِنْ فِقه العبد أن يتعهّد إيمانه وما نقص منه ، ومن فِقه العبد أن يعلم : أيزداد هو أم ينتقص .

وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه : هلْموا نَزْدَدْ إيماناً ، فيذكرون الله عز وجل .

وكان ابنُ مسعود رضي الله عنه يقول في دعائه : اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً .

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لرجل : اجلس بنا نؤمن ساعة ومثله عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه .

وصح عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه قال : ثلاثٌ من كُنَّ فيه ، فقد استكمل الإيمان : إنصاف/من نفسه ، والإنفاق من إقتار ، وبذلُ السلام ٦٦/ب

---

(٢١٩) رواه البخاري ١/ ٥٥ في الإيمان : باب حب الرسول ﷺ من الإيمان ، ومسلم رقم (٤٤) في الإيمان : باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين ، والنسائي ٨/ ١١٥ في الإيمان : باب علامة الإيمان ، وأحمد في «المسند» ٣/ ٢٠٧ و ٢٧٥ و ٢٧٨ ، وابن ماجه رقم (٦٧) في المقدمة : باب في الإيمان ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

للعالم ذكره البخاري رحمه الله في « صحيحه »(٢٢٠) وفي هذا المقدار كفاية وبالله التوفيق .

وأما كونُ عطف العمل على الإيمان يقتضي المغايرة ، فلا يكون العملُ داخلاً في مسمى الإيمان ـ : فلا شك أن الإيمانَ تارة يُذكر مطلقاً عن العمل وعن الإسلام ، وتارةً يُقرن بالعمل الصالح ، وتارة يقرن بالإسلام ، فالمطلق مستلزم للأعمال ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال : ٢] . ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ الآية [الحجرات : ١٥] . ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [المائدة : ٨١] .

وقال ﷺ: « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ، الحديث(*) . « لاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا »(٢٢١) .

«مَنْ غَشَّنَا ، فَلَيْسَ مِنَّا » « مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاحَ ، فَلَيْسَ مِنَّا »(٢٢٢) .

---

(٢٢٠) رواه البخاري معلقاً وموقوفاً ١/ ٧٧ في الإيمان : باب السلام من الإسلام . قال الحافظ في « الفتح » : وهذا الأثر رواه يعقوب بن شيبة في « مسنده » من طريق شعبة وزهير بن معاوية وغيرهما ، كلهم عن أبي إسحاق السبيعي ، عن صلة بن زفر عن عمار ، وهكذا رويناه في « جامع معمر » عن أبي اسحاق ، وكذا حدث به عبد الرزاق في « مصنفه » عن معمر رقم (١٩٤٣٩) موقوفاً ، وإسناده صحيح ، ورواه ابن أبي شيبة في « الإيمان » رقم (١٣١) قال الحافظ في « الفتح » : ومثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع .

(*) تقدم تخريجه ص٣٤٤ رقم ١٩٢ .

(٢٢١) رواه مسلم رقم (٥٤) في الإيمان : باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون وأن محبة المؤمنين من الإيمان ، وأبو داود رقم (٥١٩٣) في الأدب : باب في إفشاء السلام ، والترمذي رقم (٢٦٨٩) في الاستئذان : باب ما جاء في إفشاء السلام ، وأحمد في «المسند» ٣٩١/٢ و ٤٤٢ و ٤٤٧ و ٤٩٥ و ٥١٢ ، وابن ماجة رقم (٦٨) في المقدمة : باب في الإيمان ، ورقم (٣٦٩٢) في الأدب : باب إفشاء السلام ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢٢٢) رواه مسلم رقم (١٠١) و (١٠٢) في الإيمان : باب قول النبي ﷺ : «من غشنا فليس منا» ، وأحمد في «المسند» ٤١٧/٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وما أبعد قول من قال : إن معنى قوله : « فليس منّا » ـ أي فليس مثلنا ! فليت شعري ، فمن لم يغشَّ يكونُ مثل النبي ﷺ وأصحابه .

وأما إذا عطف عليه العمل الصالح ، فاعمل أن عطفَ الشيء على الشيء يقتضي المغايرةَ بينَ المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك في الحكم الذي ذُكر لهما ، والمغايرة على مراتب :

أعلاها : أن يكونا متباينين ، ليس أحدهما هو الآخر ، ولا جزءه منه ، ولا بينهما تلازم ، كقوله تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ والنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] . ﴿ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيل ﴾ [آل عمران : ٣] . وهذا هو الغالب .

ويليه : أن يكونَ بينهما تلازم ، كقولِهِ تعالى : ﴿ ولا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٤٢] . ﴿ وأَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَسُول ﴾ [المائدة : ٩٢] .

الثالث : عطفُ بعض الشيء عليه ، كقوله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطَى ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لله وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : ٩٨] . ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ ﴾ [الأحزاب : ٧] . وفي مثل هذا وجهان :

أحدهما : أن يكون داخلاً في الأول ، فيكون مذكوراً مرتين .

والثاني : أن عطفه عليه يقتضي أنه ليس داخلاً فيه هنا ، وإن كان داخلاً فيه منفرداً ، كما قيل مثل ذلك في لفظ « الفقراء والمساكين » ونحو مما تتنوع دلالته بالإفراد والاقتران .

الرابع : عطف الشيء على الشي لاختلاف الصفتين ، كقوله تعالى : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر : ٣] .

وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط ، كقوله :

. . . .   فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْنَا(*)

ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : ٤٨] . والكلام على ذلك معروف في موضعه .

فإذا كان العطفُ في الكلام يكون على هذه الوجوه ، نظرنا في كلام الشارع : كيف ورد فيه الإيمان ، فوجدناه إذا أُطلق يُراد به ما يُراد بلفظ البِر ، والتقوى ، والدِّين ، ودين الإسلام . ذكر في أَسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان ؟ فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ الآيات [البقرة : ١٧٧] .

قال محمد بن نصر : ثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله بن يزيد المقرىء ، والملائي ، قالا : حدثنا المسعودي ، عن القاسم ، قال : جاء رجل إلى أبي ذر رضي الله عنه ، فسأله عن الإيمان ؟ فقرأ : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُم ﴾ إلى آخر الآية ، [البقرة : ١٧٧] ، فقال الرجل : ليس عن هذا سألتُك ، فقال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه ، فقرأ الذي قرأتُه عليك ، فقال له الذي قلتَ لي ، فلما أبى أن يرضى ، قال : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي إِذَا عَمِلَ الْحَسَنَةَ سَرَّتْهُ وَرَجَا ثَوَابَها ، وإِذَا عَمِلَ السَّيِّئَةَ سَاءَتْهُ وَخَافَ عِقَابَهَا(٢٢٣) .

وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب .

(*) عجز بيت لعدي بن زيد، وهو في «اللسان».
فَقَدَّدْتُ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ

(٢٢٣) هذا الاسناد ضعيف ، ولكن صح الحديث من رواية أبي أمامة رضي الله عنه عند الحاكم ١/ ١٤ لما سأله رجل فقال: يا رسول الله! ما الإيمان قال : «إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك ، فأنت مؤمن» قال : يا رسول الله ! ما الإثم ، قال : «إذا حاك في صدرك شيء فدعه» وإسناده صحيح ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

وفي « الصحيح »[224] قولُه لوفد عبد القيس : « آمُرُكُم بالإِيمَانِ بالله وَحْدَهُ ، أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بالله ؟ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وإِقَامُ الصَّلَاةِ ، وإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وأَنْ تُؤَدُّوا الخُمْسَ مِنَ المَغْنَمِ » .

ومعلوم أنه لم يُرد أن هذه الأعمال تكون إيمَاناً بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في مواضع أنه لا بد من إيمان القلب ، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان .

وأي دليل على أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان فوق هذا الدليل ؟ فإنه فسر الإيمان بالأعمال ولم يذكر التصديق ، للعمل بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود .

وفي « المسند »[225] عن أنس رضي /الله عنه ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال : « الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ ، والإِيمَانُ في القَلْبِ » . ٦٧/أ

وفي هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان .

ويؤيده حديث جبريل عليه السلام . وقد قال فيه النبي ﷺ : « هٰذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُم يُعَلِّمُكُم دِينَكُم »(*) . فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان ، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة . لكن هو درجات ثلاثة : مسلم ، ثم مؤمن ، ثم محسن .

---

(٢٢٤) رواه البخاري ١/١٢٠ ـ ١٢٥ في الإيمان : باب أداء الخمس من الإيمان ، وفي أبواب عدة ، ومسلم رقم (١٧) في الإيمان : باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله . . . ، والترمذي رقم (٢٦١٤) في الإيمان : باب ما جاء في إضافة الفرائض إلى الإيمان ، وأبو داود رقم (٣٦٩٢) في الأشربة : باب في الأوعية ، النسائي ٣٢٣/٨ في الأشربة : باب الاخبار التي اعتل بها من أباح شراب المسكر ، وفي أبواب أخر ، وأحمد في «المسند» ٢٢٨/١ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما . انظر «جامع الأصول» رقم (٣١٩٦) .

(٢٢٥) رواه أحمد في «المسند» ١٣٥/٣ واسناده ضعيف فيه علي بن مسعدة ، وهو سيء الحفظ .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٧٩ رقم ١٤٥ .

والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعاً ، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام ، لا أن الإحسان يكون مجرداً عن الإيمان ، هذا محال . وهذا كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالخَيرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [فاطر : ٣٢] . والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة ، بخلاف الظالم لنفسه ، فإنه معرض للوعيد .

وهكذا من أتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب ، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن ، فإنه معرض للوعيد .

فأما الإحسانُ ، فهو أعم من جهة نفسه ، وأخص من جهة أهله ، والإيمانُ أعم من جهة نفسه ، وأخصُّ من جهة أهله من الإسلام ، فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإحسان ، والمحسنون أخص من المؤمنين ، والمؤمنون أخص من المسلمين ، وهكذا كالرسالة والنبوة ، فالنبوة داخلة في الرسالة ، والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها ، فكل رسول نبي ، ولا ينعكس .

وقد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال :

فطائفة جعلت الإسلامَ هو الكلمة .

وطائفة أجابوا بما أجاب به النبي ﷺ حين سُئل عن الإسلام والإيمان ، حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة .

وطائفة جعلوا الإسلام مرادفاً للإيمان ،وجعلوا معنى قول الرسول ﷺ أن : « الإِسْلاَمُ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَإِقَامُ الصَّلاَة » ، الحديث(*) ـ : شعائرَ

(*) تقدم تخريجه ص ٢٧٩ رقم ١٤٥ .

الإسلام . والأصلُ عدم التقدير ، مع أنهم قالوا : إن الإيمان هو التصديق بالقلب ، ثم قالوا : الإسلامُ والإيمان شيء واحد ، فيكون الإسلام هو التصديق ! وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة ، وإنما هو الانقياد والطاعة ، وقد قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ »(٢٢٦) . وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة ، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة ، فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ .

وأما إذا أفرد اسم الإيمان ، فإنه يتضمن الإسلام ، وإذا أفرد الإسلام ، فقد يكونُ مع الإسلام مؤمناً بلا نزاع ، وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن ؟ وقد تقدم الكلام فيه .

وكذلك هل يستلزم الإسلامُ الإيمانَ ؟ فيه النزاع المذكور ، وإنما وعد الله بالجنة في القرآن وبالنجاة من النارِ باسم الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٣] . وقال تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ والأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد : ٢١] .

وأما اسم الإسلام مجرداً فما عُلق به في القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه ، وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبه بعث النبيين : ﴿ ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

---

(٢٢٦) قطعة من حديث رواه البخاري ٣/٢ ـ ٤ في قيام الليل : باب التهجد بالليل و١٣/٣٩١ في التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ، ومسلم رقم (٧٦٩) في صلاة المسافرين : باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه ، و«الموطأ» ٢١٥/١ في مس القرآن : باب ما جاء في الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل ، والنسائي ٢٠٩/٣ ـ ٢١٠ في قيام الليل : باب ذكر ما يستفتح به القيام ، وابن ماجه رقم (١٣٥٥) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في الدعاء إذا قام الرجل من الليل ، وأحمد في «المسند» ٢٩٨/١ و ٣٠٢ و٣٠٨و٣٥٨ ، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غيرُ حالة إفراد أحدهما عن الآخر ، فمثل الإسلام من الإيمان ، كمثل الشهادتين إحداهما من الأخرى ، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية ، فهما شيئان في الأعيان وإحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم ، كشيء واحد ، كذلك الإسلام والإيمان ، لا إيمان لمن لا إسلام له ، ولا إسلام لمن لا إيمان له ، إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه ، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه .

ونظائر ذلك في كلام الله ورسوله وفي كلام الناس كثيرة ، أعني في الإفراد والاقتران ، منها : لفظُ الكفر والنفاق ، فالكفر إذا ذكر مفرداً في وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بالإيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥] . ونظائره كثيرة ، وإذا قرن بينهما ، كان الكافر مَن أظهر كفره، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه .

وكذلك لفظُ البر والتقوى ، ولفظ الإثم والعدوان ، ولفظ التوبة والاستغفار ، ولفظ الفقير والمسكين وأمثال ذلك/ ٦٧/ب

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان ، قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : ١٤]، إلى آخر السورة ، وقد اعتُرض على هذا بأن معنى الآية : ﴿ قولوا أسلمنا ﴾ : انقدنا بظواهرنا ، فهم منافقون في الحقيقة ، وهذا أحدُ قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة ،

وأجيب بالقول الآخر ، ورُجح ، وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان ، لا أنهم منافقون ، كما نفى الإيمان عن القاتل ، والزاني والسارق ، ومن لا أمانة له .

ويؤيد هذا سياق الآية ، فإن السورة من أولها إلى هنا في النهي عن المعاصي ، وأحكام بعض العصاة ، ونحو ذلك ، وليس فيها ذكر المنافقين ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وإِنْ تُطِيعُوا الله وَرَسُولَه لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيئاً ﴾ [الحجرات : ١٤] ، ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة ، ثم قال : ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ الآية ، [الحجرات : ١٥] ، يعني ـ والله أعلم ـ أن المؤمنين الكاملي الإيمان ، هم هؤلاء ، لا أنتم ، بل أنتم منتف عنكم الإيمان الكامل .

يؤيد هذا : أنه أمرهم ، أو أذن لهم ، أن يقولوا : أسلمنا ، والمنافق لا يُقال له ذلك ، ولو كانوا منافقين ، لنفى عنهم الإسلام ، كما نفى عنهم الإيمان ، ونهاهم أن يمنُّوا بإسلامهم ، فأثبت لهم إسلاماً ، ونهاهم أن يمنُّوا به على رسوله ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً ، لقال : لم تسلموا ، بل أنتم كاذبون ، كما كذبهم في قولهم : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ [المنافقون : ١] والله أعلم بالصواب .

وينتفي بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف ، وتشنيعُ من ألزم بأن الإسلام لو كان هو الأمور الظاهرة ، لكان ينبغي أن لا يقبل إلا ذلك ، ولا يقبل إيمان المخلص ! وهذا ظاهر الفساد ، فإنه قد تقدم تنظيرُ الإيمان والإسلام بالشهادتين وغيرهما ، وأن حالةَ الاقتران غيرُ حالة الانفراد . فانظر إلى كلمة الشهادة ، فإن النبي ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا الله » ، الحديث(*) ، فلو قالوا : لا إله إلا الله وأنكروا الرسالة ـ : ما كانوا يستحقون العِصمة ، بل لا بد أن يقولوا : لا إله إلا الله ، قائمين بحقها ، ولا يكون قائماً بـ « لا إله إلا الله » حقَّ القيام ، إلا من صدق بالرسالة ، وكذا من شهد أن

(*) تقدم تخريجه ص ١٥ رقم ٤ .

محمداً رسول الله ، لا يكون قائماً بهذه الشهادة حق القيام ، إلا من صدق هذا الرسول في كل ما جاء به. فانتظمت التوحيد ، وإذا ضُمَّت شهادة أن لا إله إلا الله إلى شهادة أن محمداً رسول الله ـ كان المراد من شهادة أن لا إله إلا الله إثبات التوحيد ، ومن شهادة أن محمداً رسول الله إثبات الرسالة ، كذلك الإسلامُ والإيمان : إذا قرن أحدهما بالآخر كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ والمُسْلِمَاتِ والمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِناتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] . وقوله ﷺ : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ »(*) ـ : كان المرادُ مِن أحدهما غيرَ المراد من الآخر ، وكما قال ﷺ : « الإِسْلَامُ عَلَانِيَة ، والإيمَانُ في القَلْبِ »(**) . وإذا انفرد أحدهما ، شمل معنى الآخر وحكمه ، وكما في الفقير والمسكين ونظائره، فإن لفظي الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا ، فهل يُقال في قوله تعالى : ﴿ فإطعَامُ عَشرة مَسَاكِينَ ﴾ [المائدة : ٨٩] ـ أنه يعطي المقل دون المعدم ، أو بالعكس ؟ وكذا في قوله تعالى : ﴿ وإِنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

ويندفع أيضاً تشنيعُ مَنْ قال : ما حكم من آمنَ ولم يسلم ؟ أو أسلم ولم يؤمن ؟ في الدنيا والآخرة ؟ فمن أثبت لأحدهما حكماً ليس بثابت للآخر ظهر بطلانُ قوله ! ويقال له في مقابلة تشنيعه : أنت تقول : المسلم هو المؤمن ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] ، فجعلهما غَيرَيْنَ ، وقد قيل لرسول الله ﷺ : مالك عن فلان والله إني لأراه مؤمناً ؟ قال : « أو مسلماً » ، قالها ثلاثاً(٢٢٧) ، فأثبت له

(*) تقدم تخريجه ص ٣٨٣ رقم ٢٢٦ .

(**) تقدم تخريجه ص ٣٨١ رقم ٢٢٥ .

(٢٢٧) رواه البخاري ١/ ٧٤ ـ ٧٦ في الإيمان : باب إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة ، ومسلم رقم (١٥٠) في الإيمان : باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه ، وأحمد في « المسند » ١/ ١٨٢ من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

اسم الإسلام وتوقف في اسم الإيمان ، فمن قال : هما سواء ـ كان مخالفاً ، والواجب ردُّ موارد النزاع إلى الله ورسوله ، وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة ، ولا معارضة بحمد الله تعالى ولكن الشأن في التوفيق ، وبالله التوفيق .

وأما الاحتجاجُ بقوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات : ٣٥ ـ ٣٦] ـ على ترادف الإسلام والإيمان ، فلا حجة فيه ، لأن البيتَ المخرَج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان ، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما .

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبي حنيفة رضي الله عنه ، وإنما هي من الأصحاب ، فإن غالبَها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة ! وقد حكى الطحاوي حكاية أبي/حنيفة مع حماد بن زيد ، وأن حماد بن زيد لما روى له حديث : أي الإسلام أفضل[٢٢٨] إلى آخره ، قال له : ألا تراه يقول : أي الإسلام أفضل ، قال : الإيمان ، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان ؟ فسكت أبو حنيفة ، فقال بعض أصحابه : ألا تجُيبُه يا أبا حنيفة ؟ قال : بِمَ أجيبُه ؟ وهو يحدثني بهذا عن رسول الله ﷺ . ٦٨/أ

---

(٢٢٨) رواه أحمد في « المسند » ٤/١١٤ ، وعبد الرزاق في « مصنفه » ١١/١٢٧ . قال الهيثمي في « المجمع » ١/٥٩ : رواه أحمد والطبراني بنحوه ورجاله ثقات .

من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، ولفظه قال الرجل : يا رسول الله ! ما الإسلام ؟ قال : « أن يسلم قلبك لله عز وجل ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » قال : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : « الإيمان » قال : وما الإيمان ؟ قال : « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث بعد الموت ، قال : فأي الإيمان أفضل ؟ قال : « الهجرة » قال : فما الهجرة ؟ قال : تهجر السوء » قال : فأي الهجرة أفضل ؟ قال : « الجهاد ؟ قال : وما الجهاد ؟ قال : « ان تقاتل الكفار إذا لقيتهم » ، قال : فأي الجهاد أفضل ؟ قال : « من عقر جواده وأهريق دمه » قال رسول الله ﷺ : « ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما : حجة مبرورة أو عمرة » .

ومن ثمرات هذا الاختلاف : مسألةُ الاستثناء في الإيمان ، وهو أن يقول الرجل : أنا مؤمن إن شاء الله . والناس فيه على ثلاثة أقوال : طرفان ووسط ، منهم من يوجبه ، ومنهم من يحرمه ، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار ، وهذا أصح الأقوال .

أما من يُوجبه فلهم مأخذان :

أحدهما : أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه ، والانسان إنما يكون عند الله مؤمناً أو كافراً باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله أنه يكون عليه ، وما قبل ذلك لا عبرة به .

قالوا : والإيمان الذي يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافراً ـ : ليس بإيمان ، كالصلاة التي أفسدها صاحبَها قبل الكمال ، والصيام الذي يفطر صاحبُه قبل الغروب ، وهذا مأخذٌ كثير من الكلابية وغيرهم ، وعند هؤلاء أن الله يُحب في الأزل من كان كافراً إذا علم منه أنه يموت مؤمناً ، فالصحابةُ ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم ، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يُبغضه وإن كان لم يكفر بعدُ ! وليس هذا قولَ السلف ، ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه ، وهو فاسد ، فإن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فأخبر أنهم يحبهم إن اتبعوا الرسول ، فاتباع الرسول شرط المحبة، والمشروطُ يتأخر عن الشرط ، وغير ذلك من الأدلة .

ثم صار إلى هذا القول طائفة غَلَوْا فيه، حتى صار الرجل منهم يستثني في الأعمال الصالحة ، يقول : صليت إن شاء الله ! ونحو ذلك ، يعني القبول ، ثم صار كثير منهم يستثنون في كل شيء ، فيقول أحدهم : هذا ثوب إن شاء الله ! هذا حبل إن شاء الله ! فإذا قيل لهم : هذا لا شك فيه ؟ يقولون :

نعم ، لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره !!

المأخذ الثاني : أن الإيمان المطلق يتضمن فعلَ ما أمر الله به عبدَه كله ، وترك ما نهاه عنه كله ، فإذا قال الرجل : أنا مؤمن ، بهذا الاعتبار ـ : فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين ، القائمين بجميع ما أمروا به ، وترك كل ما نهوا عنه ، فيكون من أولياء الله المقربين ! وهذا مع تزكية الإنسان لنفسه ، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة ، لكان ينبغي أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذه الحال ، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون ، وإن جوَّزوا ترك الاستثناء ، بمعنى آخر ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى . ويحتجون أيضاً بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه ، كما قال تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٧] . وقال ﷺ حين وقف على المقابر : « وإنَّا إن شَاءَ اللهُ بِكُم لَاحِقُونَ »(٢٢٩) . وقال أيضاً ؛ « إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لله »(٢٣٠) ونظائر هذا .

وأما من يُحرمه ، فكل من جعل الإيمان شيئاً واحداً ، فيقول : أنا أعلم

---

(٢٢٩) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (٩٧٤) (١٠٣) في الجنائز : باب ما يقال عند دخول المقابر ، والنسائي ٤/٩١ - ٩٤ في الجنائز : باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين ، و« الموطأ » ١/٢٤٢ في الجنائز : باب جامع الجنائز ، وأحمد في « المسند » ٦/١٨٠ و ٢٢١ من حديث عائشة رضي الله عنها . وسيرد لفظه ص (٥٢٧) .

ومن حديث بريدة بن الخصيب رضي الله عنه رواه مسلم رقم (٩٧٥) في الجنائز : باب ما يقال عند دخول القبور والدعاء لأهلها ، والنسائي ٤/ ٩٤ في الجنائز : باب الأمر بالاستغفار للمؤمنين ، وأحمد في « المسند » ٥/ ٣٥٣ و ٣٥٩ و ٣٦٠ ، وابن ماجة رقم (١٥٤٧) في الجنائز : باب ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر . وسيرد لفظه ص (٥٢٧) .

(٢٣٠) قطعة أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ وتقالوها . . . رواه البخاري ١١/٤ في النكاح : باب الترغيب في النكاح ، ومسلم رقم (١٤٠١) فيه : باب استحباب النكاح ، والنسائي ٦/٦٠ في النكاح : باب النهي عن التبتل .

وفي الباب من حديث عائشة رضي الله عنها سيرد لفظه في آخر الكتاب تحت رقم (٤١١) ص ٦١٧ .

أني مؤمن ، كما أعلم أني تكلمتُ بالشهادتين ، فقولي : أنا مؤمن ، كقولي : أنا مسلم ، فمن استثنى في إيمانه ، فهو شاك فيه ، وسمُّوا الذين يستثنون في إيمانهم الشكَّاكة .

وأجابوا عن الاستثناء الذي في قوله تعالى : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٧] - بأنه يعود إلى الأمن والخوف ، فأما الدخول ، فلا شك فيه !

وقيل : لتدخلن جميعكم أو بعضكم ، لأنه علم أن بعضهم يموت !

وفي كلا الجوابين نظر : فإنهم وقعوا فيما فروا منه .

فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين ، مع علمه بذلك ، فلا شك في الدخول ، ولا في الأمن ، ولا في دخول الجميع أو البعض ، فإن الله قد علم من يدخل ، فلا شك فيه أيضاً ، فكان قول : إن شاء الله» ، هنا تحقيقاً للدخول ، كما يقول الرجل فيما عزم على شيء أن يفعله لا محالة : والله لأفعلنَّ كذا إن شاء الله ، لا يقولها لشكٍّ في إرادته وعزمه ، ولكن إنما لا يحنث الحالف في مثل هٰذه اليمين لأنه لا يجزم بحصول مراده .

وأجيب بجواب آخر لا بأس به ، وهو : أنه قال ذلك تعليماً لنا كيف نستثني إذا أخبرنا عن مستقبل . وفي كون هذا المعنى مراداً من النص نظر ، فإنه ما سيق الكلام إلا أن يكون مراداً من اشارة النص .

وأجاب الزمخشري بجوابين آخرين باطلين ، وهما : أن يكون الملك قد قاله ، /فأثبت قرآناً ! أو أن الرسول قاله !! [فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله ! فيدخل في وعيد من قال : ﴿ إِنْ هٰذا إِلَّا قَوْلُ البَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٥] . نسأل الله العافية](*) . ٦٨/ب

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

وأما من يجوز الاستثناء وتركه باعتبار شيء ، فهم أسعدُ بالدليل من الفريقين ـ وخيرُ الأمور أوسطها ـ فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه مُنع من الاستثناء ، وهذا مما لا خلاف فيه ، وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله : ﴿ إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُه زَادَتْهُم إيمَاناً وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ ـ ٤] ، وفي قوله تعالى : ﴿ إنَّما المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبِيلِ الله أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] . فالاستثناء حينئذ جائز ، وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة ، وكذلك من استثنى تعليقاً للأمر بمشيئة الله ، لا شكّاً في إيمانه ، وهذا القول في القوة كما ترى .

قوله : وجميعُ ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق .

يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة ، القائلين بأن الأخبار قسمان : متواتر وآحاد ، فالمتواتر ـ وإن كان قطعيَّ السند ـ لكنه غيرُ قطعي الدلالة ، فإن الدلالة اللفظية(*) لا تُفيد اليقين !! وبهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات ! قالوا : والآحاد لا تُفيد العلم ، ولا يُحتج بها من جهة طريقها ، ولا من جهة متنها ! فسدُّوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول ، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ، ومقدمات خيالية(**) ، سموها قواطعَ عقلية ، وبراهين يقينية !! وهي في التحقيق ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ مَاءً حَتَّى إذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيئاً وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحِسَابِ * أَوْ كَظُلماتٍ في بَحْرٍ

(*) هكذا في مطبوعة مكة وفي الأصل « القطعية » وهو غلط ، ولعل الصواب « الظنية » والله أعلم .
(**) في الأصل : خالية . والتصويب من مطبوعة مكة .

لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُماتٌ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : ٣٩ - ٤٠] .

ومِن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي ، وعزلوا لأجلها النصوص ، فأقفرت قلوبهم من الاهتداء بالنصوص ، ولم يظفروا بقضايا العقول الصحيحة المؤيَّدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية . ولو حكَّموا نصوص الوحي ، لفازوا بالمعقول الصحيح ، الموافق للفطرة السليمة .

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوصَ على بدعته ، وما ظنه معقولاً ـ: فما وافقه قال : إنه محكم ، وقبله ، واحتج به !! وما خالفه قال : إنه متشابه ، ثم ردَّه ، وسمى رده تفويضاً ! أو حرَّفه ، وسمى تحريفه تأويلاً !! فلذلك اشتد إنكارُ أهل السنة عليهم .

وطريقُ أهل السنة : أن لا يعدِلُوا عن النص الصحيح ، ولا يُعارضوه بمعقول ، ولا قولِ فلان ، كما أشار إليه الشيخ رحمه الله ، وكما قال البخاري رحمه الله : سمعتُ الحميدي يقول : كنا عند الشافعي رحمه الله ، فأتاه رجل ، فسأله عن مسألة ، فقال : قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا ، فقال رجل للشافعي : ما تقول أنت ؟! فقال : سبحانَ الله ! تراني في كنيسة ! تراني في بيعة ! تراني على وسطي زناراً ؟! أقول لك : قضى رسولُ الله ﷺ ، وأنت تقول : ما تقول أنت ؟! .

ونظائر ذلك في كلام السلف كثير ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُه أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُم الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول ، عملاً بقوله وتصديقاً له ـ: يُفيدُ

العلم [اليقيني](*) عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمي المتواتر ، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « إِنَّما الأَعْمالُ بِالنِّيَّاتِ »(**) ، وخبر ابن عمر رضي الله عنهما : « نَهَى عَنْ بَيْعِ الوَلاَءِ وَهِبَتِهِ(٢٣١) ، وخبر أبي هريرة رضي الله عنه : « لَا تُنْكَحُ المَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا وَلاَ عَلَى خَالَتِهَا »(٢٣٢) وكقوله : « يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ »(٢٣٣) ، وأمثال ذلك ، وهو نظير خبرِ الذي أتى مسجد قُباء ، وأخبر أن/القبلة تحوَّلت إلى الكعبة ، فاستداروا إليها(٢٣٤) . ٦٩/أ

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(**) تقدم تخريجه ص ١٤٥ رقم ٧٠ .

(٢٣١) رواه البخاري ١٢١/٥ في العتق : باب بيع الولاء وهبته ، وفي الفرائض : باب إثم من تبرأ من مواليه ، ومسلم رقم (١٥٠٦) في العتق : باب النهي عن بيع الولاء وهبته ، وأبو داود رقم (٢٩٢٥) في الفرائض : باب في بيع الولاء ، والنسائي ٣٠٦/٧ في البيوع : باب الولاء ، والترمذي رقم (١٢٣٦) في البيوع : باب ما جاء في كراهية بيع الولاء وهبته ، و« الموطأ » ٧٨٢/٢ في العتق والولاء : باب مصير الولاء لمن أعتق ، وابن ماجه رقم (٢٧٤٧) في الفرائض : باب النهي عن بيع الولاء وهبته ، والدارمي رقم (٣١٦٠) في الفرائض : باب بيع الولاء .

(٢٣٢) رواه البخاري ١٣٨/٩ - ١٣٩ في النكاح : باب لا تنكح المرأة على عمتها ، ومسلم رقم (١٤٠٨) في النكاح : باب تحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ، و« الموطأ » ٢/ ٥٣٢ في النكاح : باب ما لا يجمع بينه من النساء ، وأبو داود رقم (٢٠٦٥) و(٢٠٦٦) في النكاح : باب ما يكره أن تجمع بينهن من النساء ، والترمذي رقم (١١٢٦) في النكاح : باب ما جاء لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والنسائي ٦ / ٩٦ - ٩٨ في النكاح : باب الجمع بين المرأة وعمتها ، وباب تحريم الجمع بين المرأة وخالتها ، وأحمد في « المسند » ٢٢٩/٢ و٤٢٣ و٤٢٦ و٤٣٢ و٤٧٤ و٤٨٩ و٥٠٨ و٥٠٦ ، وابن ماجه رقم (١٩٢٩) في النكاح : باب لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها .

(٢٣٣) رواه البخاري ١٢١/٩ في النكاح : باب ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ ، وفي الشهادات : باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض والموت القديم ، ومسلم رقم (١٤٤٧) في الرضاع : باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل ، والنسائي ١٠٠/٦ في النكاح : باب تحريم بنت الأخ من الرضاع ، وأحمد في « المسند » ٢٧٥/١ و ٣٣٩ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

وفي الباب عن أبي هريرة ، وعائشة رضي الله عنها ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم انظر « جامع الأصول » رقم (٩٠٣٠١) و(٩٠٣١) و(٩٠٣٣١) و(٩٠٣٥) .

(٢٣٤) الحديث رواه البخاري ٤٢٤/١ في الصلاة : بأب ما جاء في القبلة ، وفي أبواب عدة ، =

وكان رسولُ الله ﷺ يُرسل رسله آحاداً ، ويُرسل كتبه مع الآحاد ، ولم يكن المرسَل إليهم يقولون : لا نقبله ، لأنه خبر واحد ! وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة : ٣٣] . فلا بد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه ، لئلا تبطل حججُه وبيناتُه .

ولهذا فضح الله من كذَب على رسوله في حياته وبعد وفاته ، وبين حاله للناس .

قال سفيان بن عيينة(*) : ما ستر الله أحداً يكذب في الحديث .

وقال عبد الله بن المبارك(**) : لو هَمَّ رجل في السجن أن يكذِبَ في الحديثِ ، لأصبح والناسُ يقولون : فلان كذاب .

وخبر الواحدِ وإن كان يحتمِلُ الصدق والكذب ـ ولكن التفريقَ بينَ صحيح الأخبار وسقيمها لا ينالُه أحد إلا بعد أن يكونَ معظمُ أوقاته مشتغلاً

= ومسلم رقم (٥٢٦) في المساجد : باب تحويل القبلة ، و« مالك » ١/١٩٥ في القبلة : باب ما جاء في القبلة ، والترمذي رقم (٣٤١) في الصلاة : باب ما جاء في ابتداء القبلة ، والنسائي ٦١/٢ في القبلة : باب استبانة الخطأ بعد الاجتهاد ، ومن حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه ولفظه : « بينما الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاءهم آت فقال : « إن النبي ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة ، فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام ، فاستداروا إلى الكعبة » .

(*) هو أبو محمد سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي ، محدث الحرم المكي ، من الموالي ، ولد بالكوفة سنة ١٠٧ هـ وسكن مكة وتوفي بها سنة ١٩٨ هـ ، كان حافظاً ثقة ، واسع العلم ، كبير القدر ، وحج سبعين سنة. قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز . له « الجامع » في الحديث ، وكتاب في التفسير .

(**) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي بالولاء ، التميمي ، المروزي ، ولد سنة ١١٨ هـ الحافظ ، المجاهد ، التاجر ، أفنى عمره في الأسفار ، حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه والعربية وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، توفي سنة ١٨١ هـ منصرفاً من غزو الروم ، له « كتاب في الجهاد » وقد حققه ونشره لأول مرة الأخ الدكتور نزيه حماد ، وهو أول من صنف فيه ، و « الرقائق » .

بالحديث ، والبحثِ عن سيرة الرواة، ليقف على أحوالهم وأقوالهم ، وشدة حذرهم مِن الطغيان والزلل ، وكانوا بحيث لو قُتلوا لم يسامحوا أحداً في كلمة يتقولها على رسول الله ﷺ ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك . وقد نقلوا هذا الدين ، إلينا كما نقل إليهم ، فهم يَزَكُ الإسلام(*) وعِصابةُ الإيمان ، وهم نُقَّاد الأخبار ، وصيارفةُ الأحاديث ، فإذا وقف المرء على هذا مِن شأنهم ، وعرف حالَهم ، وخَبُرَ صدقَهم وورعهم وأمانتهم ـ : ظهر له العلمُ فيما نقلوه ورووه .

ومن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديثِ لهم من العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره ما ليس لغيرهم به شعور ، فضلاً أن يكون معلوماً لهم أو مظنوناً ، كما أن النحاة عندهم مِن أخبار سيبويه والخليل وأقوالِهما ما ليس عند غيرهم ، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم ، وكُلُّ ذي صنعة هو أخبر بها من غيره ، فلو سألتَ البقال عن أمر العطر ، أو العطار عن البز ، ونحو ذلك !! لعد ذلك جهلاً كبيراً .

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] : مستنداً لهم في رد الأحاديث الصحيحة ، فكلما جاءهم حديث يُخالف قواعدهم وآراءهم ، وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ـ ردوه بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، تلبيساً منهم وتدليساً على من هو أعمى قلباً منهم ، وتحريفاً لمعنى الآي عن مواضعه .

ففهموا من أخبارِ الصفات ما لم يُرده الله ولا رسوله ، ولا فَهِمَه أحد من أئمة الإسلام ، أنه يقتضي إثباتُها التمثيل بما للمخلوقين ! ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ تحريفاً للنصين !! ويصنفون الكتب ،

(*) يزك بفتح بالياء والزاي : هكذا طلائع الجيش ، والكلمة فارسية .

ويقولون : هذا أصولُ دين الإسلام الذي أمر الله به وجاء من عنده ، ويقرؤ ون كثيراً من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى من غير تدبّر لمعناه الذي بيَّنه الرسولُ ، وأخبر أنه معناه الذي أراده الله .

وقد ذمَّ الله تعالى أهلَ الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث ، وقص ذلك علينا مِن خبرهم لنعتبر وننزجر عن مثل طريقتهم ، فقال تعالى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُم وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ الله ثُمَّ يُحَرِّفُونَه مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة : ٧٥] ، إلى أن قال : ﴿ وَمِنْهُم أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمانِيَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة : ٧٨] . والأماني : التلاوة المجردة ، ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هٰذا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٩] . فذمهم على نسبة ما كتبوه إلى الله ، وعلى اكتسابهم بذلك ، فكلا الوصفين ذميم : أن ينسب إلى الله ما ليس من عنده ، وأن يأخذ بذلك عوضاً من الدنيا مالاً أو رياسة ، نسأل الله تعالى أن يعصِمَنا من الزلل في القول والعمل ، بمنه وكرمه .

ويُشير الشيخ رحمه الله بقوله : من الشرع والبيان . إلى أنَّ ما صح عن النبي ﷺ نوعان : شرع ابتدائي ، وبيان لما شرعه الله في كتابه العزيز ، وجميعُ ذلك حق واجب الإتباع .

وقوله : وأهله في أصله سواء ، والتفاضلُ بينهم بالحقيقة ومخالفة الهوى ، وملازمة الأَوْلى ، وفي بعض النسخ : بالخشية والتقى بدل قوله : بالحقيقة . ففي العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق ، ولكن التصديق يكون بعضُه أقوى من بعض وأثبت ، كما تقدم نظيرُه بقوة البصر وضعفه . وفي العبارة الأخرى يشير إلى أن التفاوت بين

المؤمنين بأعمال القلوب ، وأما التصديقُ فلا تفاوت فيه ، والمعنى الأول أظهر قوة ، والله أعلم بالصواب .

* * *

قوله : والمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمٰنِ .

قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ الآية [يونس : ٦٢ - ٦٣] . الولي : من الوَلاية بفتح/الواو ، التي هي ضد العداوة . ٦٩/ب

وقد قرأ حمزة : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ وِلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، بكسر الواو ، والباقون بفتحها .

فقيل : هما لغتان . وقيل : بالفتح النصرة ، وبالكسر الإمارة .

قال الزجّاج : وجاز الكسرُ ، لأن في تولي بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل ، وكُلُّ ما كان كذلك مكسور ، ومثل : الخِياطة ونحوها . فالمؤمنون أولياء الله ، والله تعالى وَلِيُّهم ، قال الله تعالى : ﴿ الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ ﴾ الآية . [البقرة : ٢٥٧] ، وقال تعالى : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ الله مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] ﴿ والمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ الآية . [التوبة : ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، إلى آخر السورة ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّما وَلِيُّكُمُ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ الله وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ الله هُمُ الغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٥ ـ ٥٦] .

فهذه النصوص كُلُّها ثبت فيها موالاةُ المؤمنين بعضهم لبعض ، وأنهم أولياءُ الله ، وأن الله وليُّهم ومولاهم ، فالله يتولَّى عِبَاده المؤمنين ، فيُحبهم ويُحبونه ، ويرضى عنهم وَيَرْضَوْنَ عنه ، ومن عادى له وليّاً ، فقد بارزه بالمحاربة ، وهذه الولاية مِن رحمته وإحسانه ، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه ، قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الحَمْدُ لله الَّذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدَاً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ في المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : ١١١] . فالله تعالى ليس له ولي من الذل ، بل لله العزة جميعاً ، خلافَ الملوك وغيرهم ممن يتولاَّه لذله وحاجته إلى ولي ينصره .

والولاية أيضاً نظير الإيمان ، فيكون مراد الشيخ : أن أهلها في أصلها سواء ، وتكون كاملة وناقصة : فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى : ﴿ ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُم البُشْرَى في الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفي الآخِرَةِ ﴾ ، فـ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُون ﴾ ـ منصوبٌ على أنه صفة أولياء الله ، بدل منه ، أو بإضمار أمدح ، أو مرفوع بإضمار ﴿ هم ﴾ ، أو خبر ثان لـ ﴿ إن ﴾ ، وأجيز فيه الجر ، بدلاً من ضمير ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ . وعلى هذه الوجوه كُلها ، فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون ، وهم أهلُ الوعد المذكور في الآيات الثلاث ، وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه ، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ، ولا تحذق(*) ولا رياضة .

وقيل : ﴿ الذين آمنوا ﴾ مبتدأ والخبر : ﴿ لهم البشرى) ، وهو بعيد ، لقطع الجملة عما قبلها ، وانتثار نظم الآية .

ويجتمع في المؤمن ولاية من وجه ، وعداوة من وجه ، كما قد يكون

(*) في مطبوعة مكة : تملق .

فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة ، ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع ، كما تقدم في الإيمان ، ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى - أولى من موافقته في المعنى وحده ، قال تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ الآية . [الحجرات : ١٤] ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية ، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين . وقال ﷺ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ ، كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً ، وَمَنْ كَانَتْ فِيه خَلَّةٌ مِنْهُنَّ ، كَانَتْ فِيه خَلَّةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إِذَا حَدَّث كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »(*) . وفي رواية « وإذَا ائتمن خان » بدل : « وإذا وعد أخلف » . أخرجاه في « الصحيحين » .

وحديث : « شُعب الإيمان » تقدم(**) .

وقولُه ﷺ : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ »(***) .

فعُلِمَ أن من كان معه من الإيمان أقلُّ القليل لم يُخلَّد في النار ، وإن كان معه كثيرٌ من النفاق(****) ، فهو يُعذب في النار على قدر ما معه من ذلك ، ثم يُخرج من النار .

فالطاعات من شُعَبِ الإيمان ، والمعاصي مِن شُعَبِ الكفر ، وإن كان رأسُ شعبِ الكفر الجحودَ ، ورأسُ شعب الإيمان التصديقَ .

(*) تقدم تخريجه ص ٣٤٤ رقم ١٩١ .

(**) تقدم تخريجه ص ٣٧١ رقم ٢١٢ .

(***) تقدم تخريجه ص ١١١ رقم ٤٢ وهو قطعة من حديث الشفاعة .

(****) أي نفاق العملي لا الاعتقادي .

وأما ما يُروى مرفوعاً إلى/النبيِّ ﷺ أنه قال : « مَا مِنْ جَمَاعَةٍ اجْتَمَعَتْ إلاَّ وَفِيهِمْ وَلِيٌّ لله ، لاَ هُمْ يَدْرُونَ بِهِ ، وَلاَ هُوَ يَدْرِي بنفسه »(*) ـ : فلا أصل له ، وهو كلام باطل ، فإن الجماعة قد يكونون كفاراً ، وقد يكونون فساقاً يموتون على الفسق .

١/٧٠ أ

وأما أولياء الله الكاملون ، فهم الموصوفون في قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ الآية . [يونس : ٦٢ ـ ٦٤] .

والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله واليَوْمِ الآخِرِ والمَلَائِكَةِ والكِتَابِ والنَّبِيينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

وهم قسمان : مقتصدون ، ومقربون ، فالمقتصدون : الذين يتقرَّبون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح ، والسابقون : الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض ، كما في «صحيح البخاري»(٢٣٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : «يَقُولُ الله تَعَالَى : مَنْ عَادَىٰ لي وَلِيّاً ، فَقَدْ بَارَزَنِي بِالمُحَارَبَةِ ، وَما تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّه ، فإذَا أَحْبَبْتُه ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ فِي شَيءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِيَ المُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » .

والولي : خلاف(**) العدو ، وهو مشتق مِن الولاء ، وهو الدنو والتقرب ،

(*) لا أصل له ، كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

(٢٣٥) ١١/٢٩٢ ـ ٢٩٧ في الرقاق : باب التواضع ، وانظر ما قاله الحافظ في « الفتح » ، وما قاله الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » ص ٣١٣ ـ ٣٢٥ ، والألباني في « الأحاديث الصحيحة » رقم (١٦٤٠) وقد أفرد الشوكاني رحمه الله شرح هذا الحديث بكتاب سمّاه « قطر الولي في شرح حديث الولي » فارجع اليه فانه نفيس .

(**) في الأصل : من ، وما أثبتناه من مطبوعة مكة انظر « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ص ٥٣٩ (ضمن مجموعة التوحيد) من منشوراتنا .

فولي الله : هو من والى الله بموافقته محبوباته ، والتقرب إليه بمرضاته ، وهؤلاء كما قال اللهتعالى فيهم : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ - ٣] .

قال أبو ذر رضي الله عنه : لما نزلت الآية ، قال النبيُّ ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ لَوْ عَمِلَ النَّاسُ بِهٰذِهِ الآيَةِ لَكَفَتْهُمْ »[٢٣٦] .

فالمتقون يجعل الله لهم مخرجاً مما ضاق على الناس ، ويرزقُهُم مِن حيث لا يحتسبون ، فيدفع الله عنهم المضارَّ ، ويجلب لهم المنافع ، ويُعطِيهم الله أشياء يطول شرحها مِن المكاشفات والتأثيرات .

* * *

قوله : وأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ الله أطوعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ .

أي أكرم المؤمنين هو الأطوعُ لله والأتبعُ للقرآن ، وهو الأتقى ، والأتقى هو الأكرم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ الله أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وفي « السنن »[٢٣٧] عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « لا فَضْلَ لِعَرَبِي عَلَى عَجَمِيٍ ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍ ، وَلَا لأبْيَض عَلَى أَسْوَدَ ، وَلَا لِأَسْوَدَ عَلَى

---

(٢٣٦) رواه الحاكم في « المستدرك » ٤٩٢/٢ ، وابن ماجه رقم (٤٢٢٠) في الزهد : باب الورع والتقوى ، من حديث أبي ذر رضي الله عنه .

قال البوصيري في « الزوائد » : هذا الحديث رجاله ثقات ، غير أنه منقطع ، وأبو السليل لم يدرك أبا ذر ، قاله في « التهذيب » .

(٢٣٧) لم يرو أحد من أصحاب السنن ، وإنما رواه أحمد في « المسند » ٤١١/٥ من حديث أبي نضرة ، وإسناده صحيح .

أَبْيَضَ ـ : إلَّا بِالتَّقْوَى ، النَّاسُ مِنْ آدَمَ ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ» .

وبهذا الدليل يظهر ضعفُ تنازعِهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر ، وترجيح أحدهما على الآخر ، وأن التحقيقَ أن التفضيلَ لا يرجعُ إلى ذات الفقر والغنى ، وإنما يرجعُ إلى الأعمال والأحوال والحقائق ، فالمسألة فاسدة في نفسها ، فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان ، لا بفقر ولا غِنى .

ولهذا ـ والله أعلم ـ قال عمر رضي الله عنه : الغِنى والفقرُ مطيتان ، لا أبالي أيهما ركبت .

والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ : رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ الآية [الفجر : ١٥] ، فإن استويا : الفقيرُ الصابر والغنيُّ الشاكر ـ في التقوى ، استويا في الدرجة ، وإن فَضَلَ أحدُهُما فيها ، فهو الأفضلُ عند الله ، فإن الفقر والغنى لا يُوزنان ، وإنما يُوزن الصبر والشكر .

ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر : وهو أن الإيمان نصفُ صبر ونصفُ شكر ، فكل منهما لا بد له مِن صبر وشكر ، وإنما أخذ الناس فرعاً من الصبر وفرعاً من الشكر ، وأخذوا في الترجيح ، فجرَّدوا غنيّاً منفقاً متصدقاً باذلاً ماله في وجوب القُرب شاكراً لله عليه ، وفقيراً متفرغاً لطاعة الله ولأداء العبادات صابراً على فقره ، وحينئذ يقال : إن أكملهما أطوعهما وأتبعهما ، فإن تساويا تساوت درجتهما ، والله أعلم .

ولو صح التجريد ، لصح أن يقال : أيُّهما أفضل معافىً شاكر ، أو مريضٌ صابر ، أو مطاع شاكر ، أو مهان صابر ، أو آمن شاكر ، أو خائف/صابر ؟ ونحو ذلك . ٧٠/ب

قوله : والإيمانُ : هُوَ الإيمانُ بالله ، ومَلائِكَتِهِ ، وكُتُبِهِ ، ورُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَالقَدَرِ ، خَيْرِهِ وشَرِّهِ ، وَحُلْوِه وَمُرِهِ مِنَ الله تَعَالَى .

تقدم أن هذه الخصال هي أصولُ الدين ، وبها أجاب النبيُ ﷺ في حديث جبريل عليه السلام المشهور المتفق على صحته ، حين جاء إلى النبي ﷺ على صورة رجل أعرابي ، وسأله عن الإسلام ؟ فقال : « أَنْ تَشْهَد أن لا إله إلا الله ، وأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، وتُقِيمَ الصَّلاَةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إن اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا » . وسأله عن الإيمان ؟ فقالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ بالله ، وَمَلاَئِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ ، خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » ، وسأله عن الإحسان ؟ فقال : « أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »(*) .

وقد ثبت في « الصحيح » عنه ﷺ : أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارةً بسورتي الإخلاص : ﴿ قُلْ يا أَيُّها الكافرون ﴾ و﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾(٢٣٨) وتارة بآيتي الإيمان والإسلام : التي في سورة البقرة : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بالله وما أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ الآية [البقرة : ١٣٦] ، والتي في آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم ﴾ الآية [آل عمران : ٦٤](٢٣٩) ، وفسر ﷺ الإيمانَ في حديث وفد عبد القيس ، المتفق على صحته ، حيث قال لهم : « آمُرُكُمْ بالإيمانِ بالله وَحْدَهُ ، أَتَدْرُونَ مَا الإيمانُ بالله وَحْدَهُ ؟ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَهَ إلا الله وَحْدَهُ

(*) تقدم تخريجه ص ٢٧٩ رقم ١٤٥ .

(٢٣٨) روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه رقم (٧٢٦) في صلاة المسافرين : باب استحباب ركعتي الفجر وما يقرأ فيهما ولفظه : « أن رسول الله ﷺ قرأ في ركعتي الفجر بـ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

(٢٣٩) روى مسلم من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما رقم (٧٢٧) في صلاة المسافرين وقصرها : باب استحباب ركعتي الفجر وما يقرأ فيهما : قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ والتي في آل عمران : ﴿ تعالوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم ﴾ .

لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَإِقامِ الصَّلَاةِ ، وإيتاءِ الزَّكَاةِ ، وَأَنْ تُؤَدُّوا خُمُسَ مَا غَنِمْتُم »(*) .

ومعلوم أنه لم يُرِد أن هذه الأعمال تكون إيماناً بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب ، فعلم أن هٰذِه مع إيمان القلب هو في الإيمان ، وقد تقدم الكلام على هذا .

والكتابُ والسنة مملوءان بما يدُل على أن الرجل لا يثبُت له حكمُ الإيمان إلا بالعملِ مع التصديق ،وهذا أكثرُ من معنى الصلاةِ والزكاة . فإن تلك إنما فسرتها السنة ، والإيمانُ بيَّن معناه الكتاب والسنة ، فمن الكتاب قولُه تعالى : ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الآية [الأنفال : ٢] ، وقولُهُ تعالى : ﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ الآية [الحجرات : ١٥] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [النساء : ٦٥] ، فنفي الإيمان حتى توجد هذه الغاية ـ : دل على أن هذه الغاية فرض على الناس ، فمن تركها كان مِن أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب الذي وُعِدَ أهلُهُ بدخول الجنة بلا عذاب . ولا يُقال : إن بين تفسيرِ النبي ﷺ الإيمانَ في حديث جبريل وتفسيرِهِ إياه في حديث وفد عبد القيس معارضة ، لأنه فسر الإيمان في حديث جبريل بعد تفسير الإسلام ، فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التي ذكرها في تفسير الإسلام ، كما أن الإحسانَ متضمن للإيمان الذي قدم تفسيره قبل ذكره ، بخلاف حديث وفد عبد القيس ، لأنه فسره ابتداء ، لم يتقدم قبله تفسير الإسلام ، ولكن هذا الجواب لا يأتي على ما ذكره الشيخُ رحمه الله من تفسير الإيمان ، فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه .

(*) تقدم تخريجه ص ٣٨٠ رقم ٢٢٤ .

ومما يُسألُ عنه : أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر مِن الخصال الخمس التي أجاب بها النبيُّ ﷺ في حديث جبريل المذكور ، فَلِمَ قال : إن الإسلام هذه الخصال الخمس ؟

وقد أجابَ بعضُ الناس بأن هٰذه أظهرُ شعائر الإسلام وأعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده .

والتحقيق : أن النبي ﷺ ذكر الدينَ الذي هو استسلام العبد لربه مطلقاً الذي يجبُ لله على عبادة محضة على الأعيان ، فيجب على كل من كان قادراً عليه ، ليعبد الله تعالى مخلصاً له الدين ، وهذه هي الخمس ، وما سوى ذلك ، فإنما يجب بأسباب مصالح ، فلا يعم وجوبُها جميع الناس ، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر/بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يتبع ذلك من إمارة ، وحكم ، وفتيا ، وإقراء ، وتحديث ، وغير ذلك . ٧١/أ

وإما أن يجب بسبب حقاً الآدميين ، فيختصُّ به من وجب له وعليه .

وقد يسقط بإسقاطه ، من قضاء الديون ، ورد الأمانات والغصوب ، والإنصاف من المظالم من الدماء والأموال والأعراض ، وحقوق الزوجة والأولاد ، وصلة الأرحام ، ونحو ذلك ، فإنَّ الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو ، بخلاف صوم رمضان ، وحج البيت والصلوات الخمس والزكاة ، فإن الزكاة وإن كانت حقّاً ماليّاً ، فإنها واجبة لله ، والأصناف الثمانية مصارفها .

ولهذا وجبت فيها النية ، ولم يجز أن يفعلها الغير بلا إذنه ، ولم تطلب من الكفار . وحقوقُ العباد لا يشترط لها النية ، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه ، برئت ذمته ، ويُطالب بها الكفار ، وما يجب حقّاً لله تعالى ، كالكفارات ، هو بسبب من العبد ، وفيها معنى العقوبة ، ولهذا كان التكليف شرطاً في الزكاة ، فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى ، على ما عرف في موضِعه .

وقوله : والقدر خيره وشره ، وحلوه ومره ، من الله تعالى ـ تقدم قولُه ﷺ في حديث جبريل عليه السلام : « وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشره »(*) ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] وقال تعالى : ﴿ إِنْ تُصِبْهُم حَسَنَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَا لِهٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ [النساء : ٧٨] ، ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمَنْ نَفْسِكَ ﴾ الآية [النساء : ٧٩] .

فإن قيل : فكيف الجمعُ بين قوله : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ وبين قوله : ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ؟

قيل : قوله : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ : الخصب والجدب ، والنصر والهزيمة ، كُلُّها من عند الله ، وقوله : ﴿ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ : أي : ما أصابك من سيئة من الله ، فبذنب نفسك عقوبةً لك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] . يدل على ذلك ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قرأ : ﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِن سيئة فَمِنْ نَفسك ﴾ [النساء : ٧٩] ، وأنا كتبتها عليك .

والمراد بالحسنة هنا : النعمة ، وبالسيئة : البلية ، في أصح الأقوال .

وقد قيل : الحسنة الطاعة ، والسيئة المعصية .

وقيل : الحسنة : ما أصابه يوم بدر ، والسيئة ما أصابه يوم أُحُد ، والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث .

والمعنى الثاني ليس مراداً دون الأول قطعاً ، ولكن لا منافاة بين أن تكون

(*) تقدم تخريجه ص ٢٧٩ رقم ١٤٥ .

سيئة العمل وسيئة الجزاء مِن نفسه ، مع أن الجميع مقدر ، فإن المعصية الثانية قد تكونُ عقوبة الأولى ، فتكون من سيئات الجزاء ، مع أنها من سيئات العمل ، والحسنة الثانية قد تكون مِن ثواب الأولى ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى : ﴿ فَمِنْ نفسك ﴾ ، فإنهم يقولون : إن فعل العبد ـ حسنةً كان أو سيئةً ـ فهو منه لا من الله ! والقرآن قد فرَّق بينهما ، وهم لا يفرقون ، ولأنه قال تعالى : ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾ ، فجعل الحسنات من عند الله ، كما جعل السيئات من عند الله ، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال ، بل في الجزاء . وقوله بعد هذا : ﴿ ما أصابك من حسنة ﴾ و﴿ من سيئة ﴾ [مثل قوله : ﴿ وإنْ تُصِبْهم حَسَنَةٌ ﴾ و﴿ إن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ ﴾](*) .

وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنات التي هي النعم ، وبين السيئات التي هي المصائب ، فجعل هذه من الله ، وهذه من نفس الإنسان ، لأن الحسنة مضافةٌ إلى الله ، إذْ هو أحسنَ بها من كل وجه ، فما من وجه من وجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه ، وأما السيئة ، فهو إنما يخلقها لِحكمة ، وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه ، فإن الرب لا يفعل سيئةً قط ، بل فعله كله حسن وخير .

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح : « والخيرُ كُلُّهُ بِيَدَيْكَ ، والشرُّ لَيْسَ إلَيْكَ »(**) ، أي : فإنك لا تخلق شرّاً محضاً ، بل كل ما تخلقه ، ففيه حكمةٌ ، هو باعتبارها خيرٌ ، ولكن قد يكون فيه شرٌّ لبعض الناس ، فهذا شرّ جزئي إضافي ، فأما شر كلي ، أو شر مطلق ، فالربُّ سبحانه وتعالى منزه عنه ، وهذا هو الشر الذي ليس إليه .

ولهذا لا يُضاف الشر إليه مفرداً قطُّ ، بل إما أن يدخل في عموم

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(**) تقدم تخريجه ص ١٢٨ رقم ٦١ .

٧١/ب المخلوقات ،/كقوله تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦١] ، ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله ﴾ [النساء : ٧٨] .

وإما أن يُضاف إلى السبب ، كقوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق : ٢] .

وإما أن يحذف فاعلُهُ ، كقول الجن : ﴿ وأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ في الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدَاً ﴾ [الجن : ١٠] .

وليس إذا خلق ما يتأذّى به بعضُ الحيوان لا يكون فيه حكمة ، بل لله فيه من الرحمة والحكمة ما لا يقدّر قدْرَه إلا الله تعالى ، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة ـ يكون شرّاً كليّاً عامّاً ، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيراً أو مصلحةً للعباد ، كالمطر العام ، وكإرسال رسول عام .

وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذاباً عليه بالمعجزات التي أيَّد بها الصادقين ، فإن هذا شرٌّ عامّ للناس يُضلهم ، فيفسدُ عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم .

وليس هذا كالملك الظالم والعدو ، فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه .

وقد قيل : ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام .

وإذا قُدّر كثرةُ ظلمه ، فذاك خير في الدين ، كالمصائب ، تكون كفارةً لذنوبهم ، ويثابون على الصبر عليه ، ويرجعون فيه إلى الله ، ويستغفرونه ويتوبون إليه ، وكذلك ما يسلط عليهم من العدو . ولهذا قد يمكن الله كثيراً من الملوك الظالمين مدةً .

وأما المتنبئون الكذابون فلا يُطيل تمكينهم ، بل لا بد أن يُهلكهم ، لأن

فسادَهم عامّ في الدينِ والدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ ـ ٤٦] .

وفي قوله : ﴿ فمن نفسك ﴾ ـ من الفوائد : أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكُن إليها ، فإن الشر كامن فيها ، لا يجيء إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساؤوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التي أصابته ، وهي إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يُعينه على طاعته ، فبذلك يحصل له كل خير ، ويندفع عنه كل شر .

ولهذا كان أنفعُ الدعاء وأعظمُهُ وأحكمُهُ دعاءَ الفاتحة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ فإنه إذا هـداه هذا الصراط ، أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يُصبه شر ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .

لكن الذنوب هي لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى كلَّ لحظة ، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب ، ليس كما يقوله بعض المفسرين : أنه قد هداه ! فلماذا يسأل الهدى ؟ ! وأن المراد التثبيت ، أو مزيد الهداية ! بل العبدُ محتاج إلى أن يُعلمه الله ما يفعله مِن تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور في كل يوم ، وإلى أن يُلهمه أن يعمل ذلك ، فإنه لا يكفي مجردُ علمه إنْ لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه ، وإلا كان العلمُ حجةً عليه ، ولم يكن مهتدياً ، ومحتاجٌ إلى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة ، فإن المجهول لنا من الحق أضعافُ المعلوم ، وما لا نُريد فعله تهاوناً وكسلاً مثلُ ما نريده أو أكثر منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله ، فأمرٌ يفوتُ الحصر ، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة ، فمن كَمُلَتْ له هٰذه

الأمور كان سؤالُه سؤالَ تثبيت ، وهي آخر الرتب .

وبعد ذلك كُلِّه هدايةٌ أخرى ، وهي الهداية الى طريق الجنة في الآخرة . ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء في كل صلاة ، لفرط حاجتهم إليه ، فليسوا إلى شيء أحوجَ منهم إلى هذا الدعاء ، فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير ، المانِعةِ من الشر ، فقد بين القرآنُ أن السيئات من النفس ، وإن كانت بقدر الله ، وأن الحسناتِ كُلَّها من الله تعالى .

وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يُشكر سبحانه ، وأن يستغفره العبد من ذنوبه ، وألا/يتوكلَ إلا عليه وحدَه ، فلا يأتي بالحسنات إلا هو ، فأوجب ذلك توحيدَه ، والتوكلَ عليه وحده ، والشكر له وحده ، والاستغفار من الذنوب .

٧٢ / أ

وهذه الأمور كان النبيُّ ﷺ يجمعُها في الصلاة ، كما ثبت عنه في « الصحيح » : أنه كانَ إذا رفَعَ رأسه مِن الركوع يقولُ : « رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدَاً كَثِيراً طَيِّبَاً مُبَارَكَاً فِيه »(*) « مِلْءَ السمَاوَاتِ ، وَمِلْءَ الأَرْضِ ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيءٍ بَعْدُ ، أَهْلَ الثَّنَاءِ والمَجْدِ ، أَحَقُّ مَا قَالَ العَبْدُ ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ » . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى .

وبيانُ أن حمده أحقّ ما قاله العبد ، ثم يقولُ بعد ذلك : « لا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلاَ يَنْفَعُ ذَا الجدِّ مِنْكَ الجَدُّ »(٢٤٠) .

فهذا تحقيقٌ لوحدانيته ، لتوحيد الربوبية ، خلقاً وقدَراً ،وبدايةً

(*) تقدم تخريجه ص ٧٥ رقم ٢٨ .

(٢٤٠) رواه مسلم رقم (٤٧٧) في الصلاة : باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، وأبو داود رقم (٨٤٧) في الصلاة : باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، والنسائي ٢ / ١٩٨ ـ ١٩٩ في الافتتاح : باب ما يقول في قيامه ذلك من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه . ولفظه بتمامه : « كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : ربنا لك الحمد ، ملء السماوات والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت . . . » الحديث .

وهداية(*) ، هو المعطي المانع ، لا مانعَ لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، ولتوحيد الإلهية ، شرعاً وأمراً ونهياً ، وهو أن العباد وإن كانوا يعطَوْنَ جَـدّاً وملكاً وعظمةً وبختاً ورياسةً في الظاهر ، أو في الباطن ، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة ، فلا ينفع ذا الجَدّ منك الجد ، أي لا ينجيه ولا يخلِّصه ، ولهذا قال : « لا ينفعه منك » ولم يقل : « ولا ينفعه عندك » ، لأنه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرب به إليك ، لكن قد لا يضرّه .

فتضمن هذا الكلام تحقيقَ التوحيد ، أو تحقيق قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فإنه لو قُدّر أن شيئاً من الأسباب يكون مستقلاً بالمطلوب ، وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره ـ : لكان الواجبُ أن لا يُرجى إلا الله ، ولا يُتوكل إلا عليه ، ولا يُسأل إلا هو ، ولا يُستغاث إلا به ، ولا يُستعان إلا هو ، فله الحمد وإليه المشتكى ، وهو المستعان ، وبه المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا به . فكيف وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوب ، بل لا بد من انضمام أسباب أخر إليه ، ولا بد أيضاً من صرف الموانع والمعارضات عنه ، حتى يَحْصُلَ المقصود ، فكل سبب ، فله شريك ، وله ضد ، فإن لم يُعاونه شريكه ، ولم ينصرف عنه ضده ـ : لم تحصل مشيئته .

والمطر وحده لا يُنبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك ، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له ، والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل في البدن من الأعصاب والقوى ، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تُصرف عنه المفسداتُ .

والمخلوق الذي يُعطيك أو ينصرك ، فهو ـ مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل ـ : فلا يَتِمُّ ما يفعلُه إلا بأسباب كثيرة ، خارجة عن قدرته ،

(*) وفي مطبوعة مكة : ونهاية .

تعاونه على مطلوبه ، ولو كان ملكاً مطاعاً ، ولا بد أن تصرف عن الأسباب المتعاونة ما يُعارضها ويُمانعها ، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضي وعدم المانع .

وكل سبب معين فإنما هو جزءٌ من المقتضي ، فليس في الوجود شيء واحد هو مقتضٍ تامّ ، وإن سمي مقتضياً ، وسُمي سائر ما يعنيه شروطاً ـ فهذا نزاع لفظي ، وأما أن يكون في المخلوقات علةٌ تامةٌ تستلزمُ معلولها فهذا باطل .

ومن عَرَفَ هذا حقَّ المعرفة ، انفتح له بابُ توحيد الله ، وعلم أنه لا يستحق أن يُسأل غيره ، فضلاً عن أن يُعْبَدَ غيره ، ولا يُتوكل على غيره ، ولا يُرجى غيره .

* * *

قوله : وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذٰلِكَ كُلِّه ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَنُصَدِّقُهُمْ كُلَّهُم عَلَى مَا جَاؤُوا بِهِ .

الإشارة بذلك إلى ما تقدم مما يجب الإيمانُ به تفصيلاً ، وقوله : لا نُفرق بين أحد من رسله ، إلى آخر كلامه ـ أي : لا نُفرق بينهم بأن نؤ مِنَ ببعض ، ونكفُرَ ببعض ، بل نُؤمن بهم ونصدقهم كلهم ، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض كافر بالكل ، قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ نؤمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بينَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقّاً ﴾ [النساء : ١٥٠ ـ ١٥١] . فإن المعنى الذي لأجله آمن بمن آمن منهم ـ موجود في الذي لم يُؤمن به ، وذلك الرسول الذي آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين ، فإذا لم يُؤمن ببعض المرسلين ، كان كافراً بمن في زعمه أنه مؤمن به ، لأن ذلك الرسول قد جاء

بتصديق المرسلين كلهم ، فكان كافراً حقّاً وهو يظن أنه مؤمن ، فكان من الأخسرين أعمالاً ؛ الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

* * *

قوله : وَأَهْلُ الكَبَائِرِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ في النَّارِ لَا يُخَلَّدُونَ ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحِّدُونَ ، وإنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ ، بَعْدَ أَنْ لَقُوا اللهَ عَارِفِينَ . وَهم في مشيئته وحُكْمِهِ ، إنْ شَاءَ غَفرَ/لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِهِ ، كَمَا ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨ و١١٦] . وإنْ شَاءَ عَذَّبَهُم في النَّارِ بِعَدْلِهِ ، ثُمَّ يُخْرِجهُم مِنْهَا بِرَحْمَتِهِ وَشَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ إِلَى جَنَّتِهِ . وَذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى مَوْلى أَهْلِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلَمْ يَجْعَلهُمْ في الدَّارِينَ كَأَهْلِ نَكرتِهِ ، الَّذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِهِ ، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ ولَايَتِهِ ، اللَّهُمَّ يَا وَلِيَّ الإِسْلامِ وَأَهْلِهِ ، ثَبِّتْنَا عَلَى الإِسلامِ حَتَّى نَلْقَاكَ بِهِ . ‏٧٢/ب

فقوله : وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ في النار لا يُخَلَّدون ، إذا ماتوا وهم موحِّدون ـ ردٌّ لقول الخوارج والمعتزلة ، القائلين بتخليد أهل الكبائر في النَّار ، لكن الخوارجَ تقول بتكفيرهم ، والمعتزلة بخروجهم عن الإيمان ، لا بدخولِهم في الكفر ، بل لهم منزلة بين منزلتين ، كما تقدَّم عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله : ولا نُكَفِّر أحداً مِن أهل القبلة بذنب ما لم يستحِلّه(*) .

وقوله : وأهلُ الكبائرِ من أمة محمد ﷺ ـ تخصيصُه أمة محمد ﷺ ، يفهم منه أن أهلَ الكبائر من أمة غير محمد ﷺ قبل نسخ تلك الشرائع به ،

(*) انظر ص ٣٣٨ وما بعدها .

حكمهم مخالِف لأهل الكبائر من أمـة محمد ، وفي ذاك نـظر ، فإن النبي ﷺ أخبر أنه: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ»(*). ولم يخص أمته بذلك، بل ذكر الإيمانَ مطلقاً، فتأمله، وليس في بعض النسخ ذكر الأمة.

وقوله : في النار ـ معمول لِقوله : « لا يخلدون » ، وإنما قدمه لأجل السجعة ، لا أن يكون خبراً لقوله : وأهل الكبائر ، كما ظنه بعضُ الشارحين .

واختلف العلماء في الكبائر على أقوال ، فقيل : سبعة ، وقيل : سبعة عشر . وقيل : ما اتفقت الشرائعُ على تحريمه ، وقيل : ما يسدُّ باب المعرفة بالله ، وقيل : ذهاب الأموال والأبدان .

وقيل : سميت كبائـر بالنسبـة والإضافـة إلى ما دونهـا ، وقيل : لا تعلم أصلاً ، أو : أنها أخفيت كليلة القدر .

وقيل : إنها إلى السبعين أقرب ، وقيل : كُلُّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة .

وقيل : إنها ما يترتب عليهـا حـد أوْ تُوُعِّدَ عليها بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب ، وهذا أمثل الأقوال .

واختلفت عبارة قائليه :

منهم من قال : الصغيرةُ ما دون الحدَّين : حدِّ الدنيا وحدِّ الآخرة .

ومنهم من قال : كل ذنب لم يُختم بلعنة ، أو غضبٍ ، أو نار .

ومنهم من قال : الصغيرة ما ليسَ فيها حدٌّ في الدنيا ولا وعيد في الآخرة .

والمراد بالوعيد : الوعيد الخاص بالنار ، أو اللعنة ، أو الغضب ، فإن الوعيد الخاص في الآخرة كالعقوبة الخاصة في الدنيا ، أعني المقدَّرة ، فالتعزيزُ

(*) تقدم تخريجه ص ١١١ رقم ٤٢ وهو قطعة من حديث الشفاعة .

في الدنيا نظيرُ الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب .

وهذا الضابط يسلمُ مِن القوادح الواردة على غيره ، فإنه يدخل فيه كل ما ثبت بالنص أنه كبيرة ، كالشرك ، والقتل ، والزنى ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ، كالفرار من الزحف ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوقِ الوالدين ، واليمينِ الغموس ، وشهادةِ الزور ، وأمثال ذلك .

وترجيح هذا القول من وجوه .

أحدها : أنه هو المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وابن عُيينة ، وابن حنبل ، وغيرهم رضي الله عنهم .

الثاني : أن الله تعالى قال : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئَاتِكُم وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١] . فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أُوعِد بغضب الله ولعنته وناره ، وكذلك من استحق أن يُقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرةً عنه باجتناب الكبائر .

الثالث : أن هذا الضابط مرجعُهُ إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنـوب ، فهو حد متلقى من خطاب الشارع .

الرابع : أن هذا الضابط يُمكن الفرقُ به بين الكبائر والصغائر ، بخلاف تلك الأقوال ، فإن من قال : سبعة ، أو سبعة عشرة ، أو إلى السبعين أقرب ـ: مجردُ دعوى .

ومن قال : ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه ـ : يقتضي أن شربَ الخمر ، والفرار من الزحف ، والتزوّج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك ـ ليس مِن الكبائر ! وأن (*) الحبة من

(*) كذا بالأصل ولعلها وأكل فتأمل .

مال اليتيم ، والسرقة لها ، والكذبة الواحدة الخفيفة ، ونحو ذلك ـ : من الكبائر ! وهذا فاسد .

ومن قال : ما سد باب المعرفة بالله ، أو ذهاب الأموال والأبدان ـ : يقتضي أن شرب الخمر ، وأكلَ الخنزير والميتة والدم ، وقذف المحصنات ـ ليس من الكبائر ! وهذا فاسد .

ومن قال : إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها ، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة ـ : يقتضي أن الذنوبَ في نفسها لا تنقسِمُ إلى صغائر وكبائر ! وهذا فاسد ، لأنه خلافُ النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر .

ومن قال : إنها لا تعلم أصلاً ، أو إنها مبهمة ـ : فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها ، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره . والله أعلم .

١/٧٣ وقوله : وإن لم/يكونوا تائبين ـ لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الذنوب ، وإنما الخلاف في غير التائب .

وقوله : بعد أن لقوا الله تعالى عارفين ـ لو قال : مؤمنين ، بدل قوله : عارفين ، كان أولى ، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر ، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها جهم ، وقوله مردود باطل ، كما تقدم ، فإن إبليس عارف بربه ، ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر : ٣٦] . ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢ ـ ٨٣] . وكذلك فرعون وأكثر الكافرين ، قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان : ٢٥] . ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فيها إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله﴾ [المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٥] . إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى .

وكأن الشيخ رحمه الله أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء ، التي يُشير إليها أهلُ الطريقة(*)، وحاشا أولئك أن يكونوا مِن أهل الكبائر ، بل هُم سادةُ الناس وخاصتهم .

قوله : وهم في مشيئة الله وحكمه ، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله . . . إلى آخر كلامه ، فصل الله تعالى بين الشرك وغيره ، لأن الشرك من أكبر الكبائر ، كما قال ﷺ وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور ، وعلق غفران ما دونه بالمشيئة ، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع ، ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى ، ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة ، وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به ، غير معلَّق بالمشيئة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله [قبل التوبة](**) .

وقوله : ذلك أن الله مولى أهل معرفته ـ فيه مؤاخذة لطيفة ، كما تقدَّم .

وقوله : اللهم يا وليَّ الإسلام وأهله مسكّنا بالإسلام ، وفي نسخة : ثبِّتنا على الإسلام حتى نلقاك به .

روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في كتابه « الفاروق » ، بسنده عن أنس رضي الله عنه ، قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ يقول : « يَا وَلِيَّ الإسلام وَأَهْلِهِ ، مَسِّكنِي بالإسلام حَتَّى أَلْقَاكَ عَلَيهِ »(٢٤١) .

(*) هم أهل السنة كما ذكر ذلك المصنف بعد قليل ص ٤٣١ .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

(٢٤١) قال الألباني في « الأحاديث الصحيحة رقم (١٨٢٣) : أخرجه الطبراني في « الأوسط » رقم (٦٥٣) قال الضياء : ورواه أبو يعلى الموصلي وابن وارة كلهم بلفظ « ثبتني » ، أما رواية : « مسكني » فقد أخرجها السلفي في « فوائده » والحديث صحيح لا يقدح فيه ضعف سليمان بن عطاء لثبوته من طريق محمد بن سلمة الحراني وخطاب بن قاسم وكلاهما ثقة ١ هـ مختصراً .

ومناسبة ختم الكلام المتقدم بهذا الدعاء ظاهرة ، وبمثل هذا الدعاء دعا يوسفُ الصديق صلواتُ الله عليه ، حيث قال : ﴿ رَبِّ قَدْ آتيتنِي مِنَ المُلْكِ وَعَلَّمتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ فاطِرَ السَّمٰواتِ والأَرْضِ أَنْتَ وَلِيٍّ في الدُّنيا والآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِيْنَ ﴾ [يوسف : ١٠١] . وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه ، حيث قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمني الموت ، فلا دليل له فيه ، فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام ، لا بمطلق الموت ، ولا بالموت الآن ، والفرق ظاهر .

* * *

قوله : ونَرَى الصَّلاةَ خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ القِبْلَةِ ، وَعَلَى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ .

قال ﷺ : « صَلُّوا خَلْفَ كُلِّ بَرٍّ وَفَاجِرٍ »[٢٤٢] . رواه مكحول عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرجه الدارقطني ، وقال : مكحول لم يلقِ أبا هريرة ، وفي إسناده معاوية بن صالح ، متكلَّم فيه ، وقد احتجَّ به مسلم في « صحيحه » وخرَّج له الدارقطني أيضاً وأبو داود ، عن مكحول ،عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّلاةُ وَاجِبَةٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُلِّ مُسْلِمٍ ، بَرّاً [كَانَ] أو فَاجِراً ، وإنْ هو عَمِلَ بِالكَبَائِرِ ، والجِهَادُ واجِبٌ

(٢٤٢) رواه الدارقطني ص ٢ / ٥٧ ، وقال : مكحول لم يسمع من أبي هريرة ومن دونه ثقات ، انظر الحديث الذي بعده رقم (٢٤٣) .

[عليكم][*] مَعَ كُلِّ أَمِيرٍ ، بَرًّاً [كَانَ][*] أو فاجِراً [وإنْ][*] عَمِلَ بالكَبَائِرَ »[٢٤٣] .

وفي «صحيح البخاري»[**] : أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يُصلي خلف الحجَّاج بن يوسف الثقفي ، وكذا أنس بن مالك ، وكان الحجاجُ فاسقاً ظالماً .

وفي « صحيحه »[٢٤٤] أيضاً ، أن النبي ﷺ قال : « يُصَلُّونَ لَكُم ، فإنْ أَصَابُوا فَلَكُم وَلَهُم ، وإنْ أَخْطَأُوا فَلَكُم وَعَلَيْهِم » .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، أن رسولَ الله ﷺ قال : « صَلُّوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله ، وَصَلُّوا عَلَى مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لا إِلَهَ إِلَّا الله » . أخرجه الدارقطني من طرق ، وضعَّفها[٢٤٥] .

اعلم ، رحمك الله وإيانا : أنه يجوز للرجل أن يُصلي خلفَ مَنْ لم يعلم منه بدعةً ولا فسقاً ، باتفاق الأئمة ، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقاد إمامه ، ولا أن يمتحِنَه ، فيقول : ماذا تعتقد ؟! بل يُصلي خلف المستور الحال .

ولو صلى خلفَ مبتدع يدعو إلى بدعته ، أو فاسق ظاهر الفسق ، وهو الإمامُ الراتب الذي لا يُمكنه الصلاة إلا خلفه ، كإمام الجمعة والعيدين ،

(*) الزيادة من « سنن الدارقطني » ٢ / ٥٦ .

(٢٤٣) رواه الدارقطني ٢ / ٥٦ بهذا اللفظ ورواه أبو داود رقم (٢٥٣٣) في الجهاد : باب في الغزو مع أئمة الجور - وفي رواية أبي داود تقديم وتأخير عما ساقه الشارح - ومن طريقه البيهقي ٣ / ١٢١ وقال الألباني أيضاً في «الارواء» رقم (٥٢٧) والحديث يبقى على ضعفه مع كثرة طرقه لأنها شديدة الضعف لا تعطي الحديث قوة في مجموعها . ١ هـ . ملخصاً .

(**) ورواه البيهقي ٣ / ١٢٢ وهو حديث صحيح انظر « الإرواء » رقم (٥٢٥) .

(٢٤٤) ٢ / ١٥٧ - ١٥٨ في أبواب صلاة الجماعة والإمامة : باب إذا لم يتم الإمام وأتم من خلفه ، وأحمد في «المسند» ٢ / ٣٥٥ و ٥٣٧ .

(٢٤٥) رواه الدارقطني ٢ / ٥٦ ، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠ / ٣٢٠ واسناده ضعيف . انظر « نصب الراية» ٢ / ٢٧ - ٢٩ .

والإمام في صلاة الحج بعرفة ، ونحو ذلك ـ : فإن المأموم يُصلي خلفه ، عند عامة السلف والخلف/. ٧٣/ب

ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر ، فهو مبتدع عند أكثر العلماء ، والصحيح أنه يُصليها ولا يُعيدها ، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يُصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفُجَّار ولا يُعيدون، كما كان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يُصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس رضي الله عنه ، كما تقدم ، وكذلك عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وكان يشرب الخمر ، حتى إنه صلى بهم الصبح مرة أربعاً ، ثم قال : أزيدُكم ؟! فقال له ابن مسعود : ما زلنا معك منذ اليوم في زيادة !!

وفي « الصحيح »[٢٤٦] : أَنَّ عثمانَ بنَ عفَّان رضي الله عنهُ لَمَّا حُصرَ صَلى بِالنَّاسِ شَخْصٌ ، فسألَ سائلٌ لعثمان : إنَّكَ إمامُ عامَّةٍ ، وهذا الذي صلَى بالنَّاسِ إمامُ فتنةٍ ؟ فقال : يا ابنَ أخي ، إنَّ الصَّلاةَ مِنْ أَحْسَنِ ما يَعْمَلُ النَّاسُ ، فإِذَا أَحْسَنُوا فَأحسِنْ مَعَهُم ، وإذا أَساؤوا فاجتَنِبْ إساءَتَهُم » .

والفاسق والمبتدع صلاتُه في نفسها صحيحة ، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطُل صلاتُه ، لكن إنما كَره من كَره الصلاة خلفه ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب .

ومن ذلك : أن من أظهر بدعة وفجوراً لا يُرتب إماماً للمسلمين ، فإنه يستحق التعزيرَ حتى يتوب ، فإن أمكن هجرُه حتى يتوب كان حسناً ، وإذا كان بعضُ الناس إذا تَرك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره ، أثَّر ذلك في إنكار المنكر حتى يتوبَ أو يُعزل،أو ينتهي الناس عن مثل ذنبه ـ :فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه،كان في ذلك مصلحة شرعية،ولم تَفُتِ المأموم جمعة ولا جماعة.

---

(٢٤٦) رواه البخاري ٢/ ١٥٨ ـ ١٥٩ في صلاة الجماعة والإمامة : باب إمامة المفتون والمبتدع .

وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يُفوت المأموم الجمعة والجماعة ، فهنا لا يَترك الصلاة خلفه إلَّا مبتدعٌ مخالفٌ للصحابة رضي الله عنهم .

وكذلك إذا كان الإمام قد رتَّبه ولاةُ الأمور ، ليس في ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية فهنا لا يَترك الصلاةَ خلفه ، بل الصلاة خلفه أفضلُ ، فإذا أمكن الإنسان أن لا يُقدم مظهراً للمنكر في الإمامة ، وجب عليه ذلك ، لكن إذا ولَّاه غيرهُ ، ولم يُمكنه صرفُه عن الإمامة ، أو كان لا يتمكَّن مِن صرفه عن الإمامة إلَّا بشرٍّ أعظمَ ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر - : فلا يجوزُ دفعُ الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفعُ أخف الضررين بحصول أعظمهما ، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيلِ المفاسد وتقليلها ، بحسب الإمكان ، فتفويتُ الجمع والجماعات أعظمُ فساداً مِن الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر ، لا سيما إذا كان التخلفُ عنها لا يدفع فجوراً ، فيبقى تعطيلُ المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

وأما إذا أمكن فعلُ الجمعة والجماعة خلفَ البرِّ ، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر ، وحينئذ ، فإذا صلى خلفَ الفاجر من غير عذر ، فهو موضع اجتهاد للعلماء : منهم من قال : يُعيد ، ومنهم من قال : لا يعيد ، وموضع بسط ذلك في كتب الفروع .

وأما الإمامُ إذا نسي أو أخطأ ، ولم يعلم المأمومُ بحاله ، فلا إعادة على المأموم ، للحديث المتقدم ، وقد صلى عمر رضي الله عنه وغيره وهو جُنب ناسياً للجنابة ، فأعادَ الصلاة ، ولم يأمر المأمومين بالإعادة . ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة ، أعاد عند أبي حنيفة ، خلافاً لمالك والشافعي وأحمد رحمهم الله في المشهور عنه .

وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغُ عند المأموم ، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع ،

ولو علم أن إمامه يُصلي على غير وضوء !! فليس له أن يُصلي خلفه ، لأنه لاعبٌ ، وليس بمصلٍّ .

وقد دلت نصوصُ الكتاب والسنة ، وإجماعُ سلف الأمة أن وليّ الأمر ، وإمام الصلاة ، والحاكم ، وأميرَ الحرب ، وعاملَ الصدقة ـ : يُطاع في مواضع الاجتهاد ، وليس عليه أن يُطيع أتباعَه في موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعتُه في ذلك ، وتركُ رأيهم لرأيه ، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدةَ الفرقة والاختلاف ، أعظمُ من أمر المسائل الجزئية ، ولهذا لم يجزْ للحكام أن ينقض بعضُهم حكمَ بعض .

والصواب المقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض .

يُروى عن أبي يوسف : أنه لما حجَّ مع هارون الرشيد ، فاحتجم الخليفة ، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ ، وصلى بالناس ، فقيل لأبي يوسف : أصليت خلفه ؟ قال : سبحان الله ! أميرُ المؤمنين . يريد بذلك أن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور مِن فعل أهل البدع .

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رواه البخاري، أن رسول الله ﷺ قال : «يُصَلُّونَ لَكُم ، فإنْ أَصَابُوا فَلَكُم وَلَهُم ، وإنْ أَخْطَأُوا/فَلَكُم وَعَلَيْهِم»(*) ـ : ٧٤/أ نص صحيح صريح في أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه ، لا على المأموم ، والمجتهد غايتُه أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً ، أو فعل محظوراً اعتقد أنه ليس محظوراً . ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُخالف هذا الحديثَ الصحيح الصريح بعد أن يَبْلُغَه ، وهو حجة على من يُطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقدُ المأمومُ وجوبَه ، لم

(*) تقدم تخريجه ص ٤١٩ رقم ٢٤٤ .

يصح اقتداؤه به !! فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايتُه وتركُ الخلاف المفضي إلى الفساد .

وقوله : وعلى من مات منهم ـ أي : ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار ، وإن كان يُستثنى من هذا العموم البُغاة وقطّاع الطريق ، وكذا قاتلُ نفسه ، خلافاً لأبي يوسف رحمه الله ، لا الشهيد ، خلافاً لمالك والشافعي رحمهما الله ، على ما عُرِفَ في موضعه ، لكن الشيخ رحمه الله إنما ساق هذا البيان أنّا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور ، لا للعموم الكلي .

ولكن المظهرون للإسلام قسمان : إما مؤمن ، وإما منافق ، فمن عُلم نفاقه ، لم تجز الصلاةُ عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه ، صُلي عليه ، فإذا علم شخص نفاقَ شخص ، لم يصلِّ هو عليه ، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه .

وكان عمر رضي الله عنه لا يُصلي على من لم يصلّ عليه حُذيفة ، لأنه كان في غزوة تبوك قد عَرَف المنافقين ، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسولَه ﷺ عن الصلاة على المنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره ، وعلَّل ذلك بكفرهم بالله ورسوله ، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله لم يُنه عن الصلاة عليه ، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية الفجورية ما له ، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ فاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واستَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد : ١٩] . فأمره سبحانه بالتوحيد والاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ، فالتوحيدُ أصل الدين ، والاستغفار له وللمؤمنين كماله ، فالدعاءُ لهم بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات ، إما واجب وإما مستحب .

وهو على نوعين : عام وخاص ، أما العام فظاهر ، كما في هذه الآية ،

وأما الدعاء الخاص ، فالصلاةُ على الميت ، فما من مؤمن يموت إلا وقد أُمِرَ المؤمنون أن يُصلوا عليه صلاةَ الجنازة ، وهم مأمورون في صلاتهم عليه أن يدعوا له ، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسولَ الله ﷺ يَقُولُ : « إذا صَلَّيتُم عَلَى المَيِّتِ فَأَخْلِصُوا لَهُ الدُّعاءَ »[٢٤٧] .

* * *

قوله : وَلَا نُنْزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنَّةً وَلَا نَارًا .

يريد : أنا لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، إلا من أخبر الصادقُ ﷺ أنه من أهل الجنة كالعشرة رضي الله عنهم ، وإن كنا نقول : إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من شاء الله إدخاله النار ، ثم يخرُجُ منها بشفاعة الشافعين ، ولكنا نقف في الشخص المعين ، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم ، لأن الحقيقة باطنة ، وما مات عليه لا نُحيط به ، لكن نرجو للمحسن ، ونخاف على المسيء .

وللسلف في الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال :

أحدها : أن لا يُشهد لأحد إلا للأنبياء ، وهذا يُنقل عن محمد بن الحنفية ، والأوزاعي .

---

(٢٤٧) رواه أبو داود رقم (٣١٩٩) في الجنائز : باب الدعاء للميت ، وابن ماجه رقم (١٤٩٧) في الجنائز : باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة ، وفيه عنعنة ابن اسحاق وهو مدلس ، ولكن أخرجه ابن حبان عن طريق آخر رقم (٧٥٤) « موارد» في الجنائز : باب الإيذان بالميت والصلاة عليه ، وقد صرح عنده محمد ابن اسحاق بالتحديث ، فزال تدليسه ، وثبت الحديث .

والثاني : أنه يُشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص ، وهـذا قول كثيـر من العلماء وأهل الحديث .

والثالث : أنه يُشهد بالجنـة لهؤلاء ولمن شهد لـه المؤمنون ، كمـا في « الصحيحين »[٢٤٨] : أَنَّـهُ مُرَّ بِجَنَـازَةٍ . فَأَثْنَـوا عَلَيْهَا بِخَيْـرٍ ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : «وَجَبَتْ» وَمُرَّ بأُخْرَى ، فَأُثنِيَ عَلَيْهَا بِشَرٍّ ، فَقَالَ : «وَجَبَتْ» . وفي رواية كرر : «وجبت» ثلاث مرات ، فقال عُمَرُ : يا رَسُولُ الله ! مَا وَجَبَتْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «هذا أَثْنَيْتُم عَلَيه خَيْراً وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ ، وَهٰذا أَثْنَيْتُم عَلَيْهِ شَرّاً وَجَبَتْ لَـهُ النَّارُ ، أَنْتُم شُهَدَاءُ الله في الأَرْضِ » .

وقال ﷺ : «تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الجَنَّةِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» ، قالوا : بِمَ يا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « بالثَّنَاءِ الحَسَنِ والثَّنَاءِ السَّيِّءِ »[٢٤٩] فأخبر أن ذلك مما يعلم به أهل الجنة وأهل النار .

* * *

قـوله : وَلاَ نَشْهَـدُ عَلَيْهِمْ بِكُفْرٍ وَلاَ بِشِـرْكٍ وَلاَ بِنِفَاقٍ ، مَـا لَمْ يَظْهَـرْ مِنْهُمْ شَيءٌ مِنْ ذٰلِكَ ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُم إِلَى الله تَعَالَى .

---

(٢٤٨) رواه البخاري ١٨٢/٣ في الجنائز : باب ثناء الناس على الميت ، وفي الشهادات : باب تعديل كم يجوز ، ومسلم رقم (٩٤٩) في الجنائز : باب فيمن يثني عليه خير أو شر من الموتى ، والترمذي رقم (١٠٥٨) في الجنائز : باب ما جاء في الثناء على الميت ، والنسائي ٤٩/٤ و ٥٠ في الجنائز : باب الثناء ، وأحمد في «المسند» ١٨٦/٣ و ٢١١ و ٢٤٥ ، وابن ماجه رقم (١٤٩١) في الجنائز : باب ما جاء في الثناء على الميت ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢٤٩) رواه ابن مـاجه رقم (٤٢٢١) في الـزهد : بـاب الثناء الحسن ، وأحمـد في «المسند» ٤١٦/٣ و ٤٦٦/٦ .

قال البوصيري في « الزوائد » : إسناده صحيح ، رجاله ثقات ، ١ هـ . وأبو بكر بن أبي زهير الثقفي ، قال في « التقريب » : مقبول ، يعني عند المتابعة والحديث محتمل التحسين كما قال الألباني .

لأنَّا قد أمِرنا بالحكم بالظاهر ، ونُهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم . قال تعالى : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْم عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرَاً مِنْهُم ﴾ الآية ، [الحجرات : ١١] . وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الذينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ، إنَّ بعْضَ الظَّنِّ إثْمٌ﴾ [الحجرات : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ولا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ والبَصَرَ والفُؤادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤ ولاً﴾ [الإسراء : ٣٦] .

***

قوله : وَلَا نَرَى السَّيْفَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إلَّا مَنْ وَجَبَ عَلَيْهِ السَّيْفُ .

في «الصحيح»(٢٥٠) عن النبي ﷺ ، أنه قال : «لا يَحِلُّ دَمُ امرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا الله وأَنِّي رَسُولُ الله ، إلَّا بإحْدَى ثَلاثٍ : الثَّيِّبُ الزَّاني ، والنَّفْسُ بالنَّفْسِ ، والتَّارِكُ لِدِينِهِ المُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ» .

***

---

(٢٥٠) رواه البخاري ١٧٦/١٢ في الديات : باب قول الله تعالى : ﴿النفس . بالنفس والعين بالعين﴾ ، ومسلم رقم (١٦٧٦) في القسامة : باب ما يباح به دم المسلم ، وأبو داود رقم (٤٣٥٢) في الحدود : باب الحكم فيمن ارتد ، والترمذي رقم (١٤٠٢) في الديات : باب ما جاء لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث ، والنسائي ٩٠/٧ ـ ٩١ في تحريم الدم : باب ما ذكر ما يحل به دم المسلم ، و١٣/٨ في القسامة : باب القود ، وأحمد في «المسند» ٣٨٢/١ و٤٢٨ و٤٤٤ و٤٦٥ والدارمي رقم (٢٣٠٣) في الحدود : باب مايحل به دم المسلم ، ورقم (٢٤٥١) في السير : باب لا يحل دم رجل بشهد أن لا إله إلا الله ، وابن ماجه رقم (٢٥٣٤) في الحدود : باب لا يحل دم امرىء مسلم إلا في ثلاث ، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وفي الباب عن عائشة وأبي أمامة رضي الله عنهما .

انظر «جامع الأصول» رقم (٧٧٢٩) و (٧٧٣٠) و (٧٧٣١) .

٧٤/ب **قوله : وَلَا نَرَى الخُرُوجَ عَلَى أَئِمَّتِنَا وَوُلَاةِ/أُمُورِنَا ، وَإِنْ جَارُوا ، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِـمْ ، وَلَا نَنْزِعُ يَدَاً مِنْ طَاعَتِهِمْ ، وَنَرَى طاعَتَهُم مِنْ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرِيضَةً ، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةٍ ، وَنَـدْعُو لَهُم بِـالصَّلَاحِ وَالمُعَافَاةِ .**

قال تعالى : ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا أَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولي الأَمْرِ مِنْكُم﴾ [النساء : ٥٩] .

وفي «الصحيح»(٢٥١) عن النبي ﷺ ، أنه قال : «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَـدْ أَطَاعَ الله ، وَمَنْ عَصَـاني فَقَدْ عَصَى الله ، وَمَنْ يُـطِعِ الأميـرَ ، فَقَـدْ أَطَـاعَنِي ، وَمَن يَعْصِ الأميرَ ، فقد عَصَاني» .

وعن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : «إنَّ خَلِيلي أَوْصَاني أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وإنْ كَان عَبْداً حَبَشِيَّاً مُجَدَّعَ الأَطْرَافِ»(٢٥٢) .

وعند البخاري(٢٥٣) : «وَلَو لَحَبِشي كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ» .

---

(٢٥١) رواه البخاري ١٣/٩٩ في الأحكام : باب قوله تعالى : ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وفي الجهاد : باب يقاتل من وراء الإمام ويتقى به ، ومسلم رقم (١٨٣٥) في الإمارة : باب وجوب طاعة الأمر في غير معصية ، والنسائي ٧/١٥٤ في البيعة : باب الترغيب في طاعة الإمام ، وأحمد في «المسند» ٢/٢٤٤ و٢٥٢ و٢٥٣ و٢٧٠ و٣١٣ و٣٣٠ و٣٨٢ و٤١٦ و٤٦٧ و٤٧١ و٥١١ و٥١٨ ، وابن ماجه رقم (٢٨٥٩) في الجهاد : باب طاعة الامام ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢٥٢) رواه مسلم رقم (١٨٣٧) في الإمارة : باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية ، وأحمد في «المسند» ٥/١٦١ و١٧١ و ابن ماجه رقم (٢٨٦٢) في الجهاد : باب طاعة الإمام .

(٢٥٣) ١٣/١٠٨ ـ ١٠٩ في الأحكام : باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، وأحمد في «المسند» ٣/١١٤ و١٧١ ، وابن ماجه رقم (٢٨٦٠) في الجهاد : باب طاعة الإمام ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

وفي «الصحيح»[٢٥٤] أيضاً : «عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أَحَبَّ وَكرِهَ ، إلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ ، فإنْ أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ» .

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كَانَ النَّاسُ يسألونَ رسول الله ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وكُنْتُ أسألُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدرِكَني، فَقُلتُ : يا رَسُولَ الله، إنَّا كُنَّا في جاهِلِيَّةٍ وشَرٍّ، فجاءنا الله بهذا الخَيرِ ، فَهَلْ بَعْدَ هذا الخَيرِ مِنْ شَرٍّ ؟ قال : «نَعم» ، فَقُلْتُ : هَلْ بَعدَ ذٰلِك الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ ؟ قَالَ : «نَعَم ، وفيه دَخَنٌ» ، قَالَ : قُلْتُ : وما دَخَنُهُ ؟ قال : «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتي ، وَيَهْتَدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي ، تَعرِفُ منهم وتُنْكِر» ، فَقُلتُ : هَلْ بَعْدَ ذٰلِكَ الخَيرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ : «نَعَم : دُعَاةٌ على أبوابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُم قَذَفوه فيها» فَقُلتُ : يا رَسُولَ الله ، صِفْهُم لَنَا ؟ قَالَ : «نَعَم ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا ، يَتَكَلَّمُونَ بألسِنَتِنَا» ، قُلتُ : يا رَسُولَ الله! ، فَمَا تَرَى إذا أَدْرَكَنِي ذٰلِكَ ؟ قَالَ : تَلزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِين ، وإمَامَهُم» فَقُلتُ : فإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُم جَمَاعةٌ ولا إمَامٌ ؟ قَالَ : «فاعتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّها ، وَلَو أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وأَنْتَ عَلَى ذٰلِكَ»[٢٥٥] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ

---

(٢٥٤) رواه البخاري ١٣/١٠٩ في الأحكام : باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، وفي الجهاد : باب السمع والطاعة للامام ، ومسلم رقم (١٨٣٩) في الإمارة : باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، والترمذي رقم (١٧٠٧) في الجهاد : باب ما جاء لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وأبو داود رقم (٢٦٢٦) في الجهاد : باب في الطاعة ، والنسائي ٧/١٦٠ في البيعة : باب جزاء من أمر بمعصية ، وأحمد في « المسند » ٢ / ١٧و١٤٢ ، وابن ماجة رقم (٢٨٦٤) في الجهاد : باب الاطاعة في معصية الله من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما .

(٢٥٥) رواه البخاري ١٣/٣٠ ـ ٣١ في الفتن : باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة ، وفي الأنبياء : باب علامات النبوة في الاسلام ، ومسلم رقم (١٨٤٧) في الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال ، وأبو داود رقم (٤٢٤٦) في الفتن والملاحم : باب ذكر الفتن ودلائلها .

أَمِيـرِه شَيْئاً يَكْـرَهُهُ ، فَلْيَصْبِـرْ ، فَإِنَّـه مَنْ فَارَقَ الجَمَـاعَةَ شِبْـرَاً فَمَاتَ ، فَمِيتَـةٌ جاهلية»(٢٥٦) .

وفي رواية : «فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»(٢٥٧) .

وعن أبي سعيـد الخدري رضي الله عنـه ، قال : قـال رسول الله ﷺ : «إذا بُويعَ لخَليفَتيْنِ فاقتُلُوا الآخِرَ منهُما»(٢٥٨) .

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : «خِيَـارُ أَئِمَّتِكُم الذِينَ تُحِبُّونَهُـم وَيُحِبُّونَكُم ، وتُصَلُّونَ عليهم ويُصَلُّونِ عليكم ، وشِرَارُ أئِمَّتِكُم الـذينَ تُبغِضُونَهُم ويُبغِضُـونَكُم ، وتَلْعَنُونَهُم ويَلْعَنُـونَكُم» ، فَقُلنـا : يـا رَسُـولَ الله ، أفلا نُنَـابِذُهم بـالسَّيفِ عِنْدَ ذٰلِـكَ ؟ قَالَ : «لَا ، مَـا أَقَامُـوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ . ألَا مَن وَلِيَ عليه والٍ ، فـرآه يأتي شَيْئـاً مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، فَلْيَكْـرَهْ ما يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، ولا يَنزِعَنَّ يَداً مِنْ طَاعَةٍ»(٢٥٩) .

فقـد دل الكتاب والسنـة على وجوب طـاعة أولي الأمـر ، ما لم يأمروا بمعصيـة ، فتأمـل قولـه تعالى : ﴿أَطِيعُـوا الله وَأَطِيعُـوا الـرَّسُـولَ وأُولي الأَمْـرِ مِنْكُم﴾ [النسـاء : ٥٩] . كيف قـال : ﴿وأطيعــوا الـرســول﴾ ، ولـم يقـل : وأطيعوا أولي الأمر منكم ؟ لأن أولي الأمـر لا يُفردون بـالطاعـة ، بل يُـطاعون

---

(٢٥٦) رواه البخاري ١٣/٥ في الفتن : باب قول النبي ﷺ : «سترون بعـدي أموراً تنكرونها» وفي الأحكام : باب السمع والطاعة للامام ما لم تكن معصيـة ، ومسلم رقم (١٨٤٩) في الإمارة : بـاب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ، وأحمد في «المسند» ١/٢٧٥ و ٢٧٧ و ٣١٠ .

(٢٥٧) وهو قطعة من حديث طويل رواه الترمذي رقم (٢٨٦٧) في الأمثال : باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ، وأحمد في «المسند» ٤/١٣٠ ، واسناده صحيـح . وصححه ابن حبـان في «صحيحه» رقم (١٥٥٠) «موارد» والحاكم في «المستدرك» ١/٥٩ من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه ، وأوله : «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها . .»

(٢٥٨) رواه مسلم رقم (١٨٥٣) في الإمارة : باب إذا بويع لخلفيتين .

(٢٥٩) رواه مسلم رقم (١٨٥٥) في الإمارة : باب خيار الأئمة وشرارهم .

فيما هو طاعة لله ورسوله ، وأعاد الفعل مع الرسول ، لأن من يطع الرسول ، فقد أطاع الله ، فإن الرسولَ لا يأمر بغير طاعة الله ، بل هو معصوم في ذلك ، وأما وَليّ الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله ، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعةٌ لله ورسوله .

وأما لزوم طاعتهم وإن جارُوا ، فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصُل من جورهم ، بل في الصبر على جورهم تكفيرُ السيئات ومضاعفَةُ الأجور ، فإن الله تعالى ما سلَّطهم علينا إلا لفساد أعمالنا ، والجزاءُ مِن جنس العمل ، فعلينا الاجتهادُ في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل . قال تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٠] . وقالَ تعالى : ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْهَا قُلتُم أَنَّى هٰذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُم﴾ [آل عمران : ١٦٥] وقال تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء ٧٩] . وقال تعالى : ﴿وَكَذٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الانعام : ١٢٩] . فإذا أراد الرعيةُ أن يتخلَّصوا من ظلم الأمير الظالم ، فليتركوا الظلم .

وعن مالك بن دينار : أنه جاء في بعض كتب الله : أنا الله مالكُ الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتُهم عليه رحمةً ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمةً ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ، لكن تُوبوا أعطفهم عليكم[٢٦٠] .

* * *

(٢٦٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٥/٢٤٩ رواه الطبراني في «الأوسط» عن أبي الدرداء ، وفيه ابراهيم بن راشد وهو متروك .

قوله : ونتَّبعُ السُّنَّةَ والجَماعَةَ ، وَنَجْتَنِبُ الشُّذُوذَ وَالخِلَافَ والفُرْقَةَ .

السنة : طريقة الرسول ﷺ ، والجماعة : جماعة المسلمين ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فاتباعهم هدى ، وخلافهم ضلال ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قُلْ إنْ كُنْتُم تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُم الله وَيَغْفِرْ لَكُم ذُنُوبَكُم ، والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

/وقال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء : ١١٥] . ٧٥/أ

وقال تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فإنْ تَوَلَّوا فإنَّما عَلَيْهِ ما حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَا حُمِّلْتُمْ وإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وما عَلَى الرَّسُولِ إلَّا البَلاغُ المُبِينُ﴾ [النور : ٥٤] .

وقال تعالى : ﴿وَأَنَّ هٰذا صراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمَ عَنْ سَبيلِهِ ، ذٰلِكُم وصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا واختَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُم البَيِّنَاتُ ، وأُولٰئِكَ لَهُم عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٠٥] .

وقال تعالى : ﴿إنَّ الذينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكانُوا شِيَعَاً لَسْتَ مِنْهُم في شَيْءٍ إنَّما أَمْرُهُم إلى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٩] .

وثبت في « السنن »[٢٦١] الحديث الذي صححه الترمذي ، عن العرباض

---

(٢٦١) رواه أبو داود رقم (٤٦٠٧) في السنة : باب لزوم السنة ، والترمذي رقم (٢٦٧٨) في العلم : باب رقم (١٦) ، وأحمد في «المسند» ٢/١٢٦ و ١٢٧ ، وابن ماجه رقم (٤٢) في المقدمة : باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين ، والدارمي رقم (٩٦) في المقدمة : باب اتباع السنة ، واسناده صحيح .

انظر شرح الحديث مفصلاً في «جامع العلوم والحكم» ص ٢٢٥ ـ ٢٣٦ للحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى .

ابن سارية رضي الله عنه قال : وَعَظَنَا رسولُ الله ﷺ موعظةً بليغةً ، ذَرَفَتْ منها العيونُ ، وَوَجِلَتْ منها القُلوبُ ، فَقَالَ قائِلٌ : يا رسولَ الله ! كأنَّ هٰذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ؟ فماذا تَعْهَدُ إلينا ؟ فقالَ : أُوصِيْكُم بِالسَّمْعِ والطَّاعَةِ ، فإنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُم بَعْدِي فَسَيَرى اختلافاً كثيراً ، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تَمَسَّكُوا بها وَعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأُمُورِ ، فإنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ» .

وقال ﷺ : «إنَّ أَهْلَ الكِتَابينِ افترَقُوا في دِينهم عَلَى ثِنْتَينِ وسَبْعِين مِلَّةً ، وإنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، يعني الأهواء ، كُلُّها في النَّارِ إلاَّ وَاحِدَةً ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ(*) . وفي رواية : قالُوا : من هي يا رسول الله!؟ قال : « مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »(**). فبين ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين ، إلا أهل السنة والجماعة .

وما أحسنَ قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، حيث قال : من كان منكم مستنّاً ، فليستنَّ بمن قد مات ، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة ، أولٰئك أصحابُ محمد ﷺ ، كانوا أفضلَ هٰذه الأمة ، أبرَّها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلَّها تكلُّفاً ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلَهم ، واتبعوهم في آثارهم ، وتمسَّكُوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى ، عند قول الشيخ رحمه الله : ونرى الجماعة حقّاً وصواباً ، والفرقة زيغاً وعذاباً (***) .

* * *

(*) تقدم تخريجه ص ٢٦٦ رقم ١٣٨ .

(**) تقدم تخريجه ص ٢٦٥ رقم ١٣٦ .

(***) انظر ص ٦٠٧ وما بعدها .

قوله : ونُحِبُّ أَهْلَ العَدْلِ والأَمَانةِ ، ونُبْغِضُ أَهْلَ الجَوْرِ والخِيَانَةِ .

وهـذا من كمال الإيمـان وتمـام العبـوديـة ، فـإن العبـادة تتضمن كمـال المحبـة ونهايتهـا ، وكمال الـذل ونهايتـه ، فمحبـةُ رسـل الله وأنبيـائـه وعبـاده المؤمنين من محبـة الله ، وإن كانت المحبـة التي لله لا يستحقها غيـره ، فغيرُ الله يُحَب في الله ، لا مع الله ، فإن المحب يحب ما يُحب محبوبُه ، ويُبغِضُ مـا يُبغض ، ويُوالي مَنْ يُـواليه ، ويُعـادي من يُعـاديـه ، ويـرضى لـرضـائـه ، ويغضبُ لغضبـه ، ويأمـر بما يـأمر بـه ، وينهي عمـا ينهى عنـه ، فهـو مـوافق لمحبوبه في كل حال . والله تعالى يُحب المحسنين ، ويُحب المتقين ، ويُحب التوابـين ،ويُحِب المتطهرين ، ونحن نحب من أحبَّه الله . والله لا يُحب الخائنين ، ولا يُحب المفسدين ، ولا يُحب المستكبرين ، ونحن لا نُحبهم أيضاً ونُبْغضهم ، موافقةً له سبحانه وتعالى .

وفي «الصحيحين»(٢٦٢) عن النَّبيِّ ﷺ : «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَـدَ حَلاوةَ الإيمانِ : مَنْ كَانَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليهِ مِمَّا سِـوَاهُما ، وَمَنْ كَـانَ يُحِبُّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا لله ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ في الكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى في النَّارِ» .

فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه ، وولايته وعداوته .

---

(٢٦٢) رواه البخاري ١/٥٦ ـ ٥٨ في الإيمان : باب حلاوة الإيمان ، وباب من كره أن يعود في الكفر ، و ١٠/٣٨٧ في الأدب : باب الحب في الله ، وفي الإكراه : باب من اختار القتل والهوان والضرب على الكفر ، ومسلم رقم (٤٣) في الإيمان : باب بيان خصال الإيمان ، والترمذي رقم (٢٩٢٦) في الإيمان : باب رقم ١٠ ، والنسائي ٨/٩٦ في الإيمان : باب حلاوة الإيمان ، وأحمد في « المسند » ٣/١٠٣ و ١٧٢ و ١٧٤ و ٢٠٧ و ٢٣٠ و ٢٤٨ و ٢٧٥ و ٢٧٨ و ٢٨٨ ، وابن ماجه رقم (٤٠٣٣) في الفتن : باب الصبر على البلاء . من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة ، فلا بد أن يُبغِض أعداءه ، ولا بد أن يُحب ما يحبه من جهادهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف : ٤] .

والحبُ والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر ، فإن العبد يجتمِعُ فيه سببُ الولاية وسببُ العداوة ، والحبُّ والبغض ، فيكون محبوباً من وجه ومبغوضاً من وجه، والحكمُ للغالب، وكذلك حكم العبد عند الله، فإن الله قد يُحب الشيء من وجه ، ويكرهه من وجه آخر ، كما قال ﷺ ، فيما يَرْويه عن ربه عز وجل : «وما تردَّدْتُ في شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ المَوْتَ ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ»(٢٦٣) . فبين أنه يتردد ، لأن التردد تعارُض إرادتين ، وهو سبحانه يُحب ما يُحب عبده المؤمن ، ويكره ما يكرهه ، وهو يكره الموت فهو يكرهه ، كما قال : «وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» ، وهو سبحانه قضى بالموت فهو يريد كونه ، فسمى ذلك تردداً ، ثم بين أنه لا بد مِن وقوع ذلك ، إِذْ هو يُفضي إلى ما هو واجبٌ(*) منه .

* * *

/٧٥ب **قوله : وَنَقُولُ : اللهُ أَعْلَمُ فِيمَا اشْتَبَهَ/عَلَيْنَا عِلْمُهُ .**

تقدم في كلام الشيخ رحمه الله أنه ما سلم في دينه إلا من سلَّم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ، وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه .

---

(٢٦٣) قطعة من حديث رواه البخاري ١١/٢٩٢ ـ ٢٩٧ في الرقائق : باب التواضع ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

ورواه أحمد في « المسند » ٦/٢٥٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

(*) في طبعة مكة : أحد .

ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه ، وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدًى مِنَ اللهِ ﴾ [القصص : ٥٠] . وقال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَريدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إلى عَذَابِ السَّعيرِ ﴾ [الحج : ٣ - ٤] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سلْطَانٍ أَتَاهُم كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ منها ومَا بَطَنَ وَالإِثْمَ والبَغْيَ بِغَيرِ الحَقِّ وأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وأَنْ تَقولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وقد أمر الله نبيَّه ﷺ أن يَرُدَّ علم ما لم يعلم إليه ، فقال تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الكهف : ٢٦] . ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [الكهف : ٢٢] . وقد قال ﷺ ، لما سئل عن أطفال المشركين : « اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ »[٢٦٤] .

وقال عمر رضي الله عنه : يا أَيُّها النَّاسُ اتَّهِمُوا الرأيَ في الدِّين ، فلو رأيتني يوم أبي جندل فلقد رأيتُني وإنني لأُرُدُّ أمرَ رسولِ الله ﷺ برأيي ، فاجتهد ، فلا آلو وذلك يومَ أبي جندل ، والكتاب يكتب وقال : اكتب ﴿ بسم الله الرحمن

(٢٦٤) رواه البخاري ٤٣٢/١١ في القدر : باب الله أعلم بما كانوا عاملين ، و١٩٥/٣ - ١٩٦ في الجنائز : باب ما قيل في أولاد المشركين ، ومسلم رقم (٢٦٦٠) في القدر : باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، وأبو داود رقم (٤٧١١) في السنة : باب في ذراري المشركين ، والنسائي ٥٩/٤ في الجنائز : باب أولاد المشركين من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ورواه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . انظر « جامع الأصول » . رقم (٧٥٩٦) و (٧٥٩٧) .

الرحيم ﴾ ، قال : باسمكَ اللهم ، فرضي رسول الله ﷺ وكتب وأبَيْتُ ، حتى قال لي رسول الله ﷺ : « تَرَاني قَدْ رَضَيْتُ وَتَأْبَى »[٢٦٥] .

وقال أيضاً رضي الله عنه : السنة ما سنَّه الله ورسوله ﷺ ، لا تجعلوا خطأ الرأي سنةً للأمة .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : أيّ أرض تُقلُّني ، وأيُّ سماء تُظلُّني ، إنْ قلتُ في آية من كتاب الله برأيي ، أو بما لا أعلم .

وذكر الحسن بن علي الحُلواني ، حدثنا عارم ، حدثنا حمّاد بن زيد ، عن سعيد ابن أبي صدقة ، عن ابن سيرين قال: لم يكن أحدٌ أهيبَ لما لا يعلم من أبي بكر، ولم يكن بعدَ أبي بكر أهيبَ لما لا يعلم من عمر رضي الله عنهما، وإن أبا بكر نزلتْ به قضيةٌ ، فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ، ولا في السنة أثراً ، فاجتهد برأيه ، ثم قال : هذا رأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ، وأستغفر الله .

* * *

وقوله : ونَرَى المَسْحَ عَلَى الخُفَّينِ ، في السَّفَرِ والحَضَر ، كَمَا جَاءَ في الأَثَرِ .

---

(٢٦٥) رواه الطبراني في « الكبير » ١/٢٦ ، وابن حزم في « الأحكام » ٦/٤٦ ورجاله ثقات غير أن مبارك بن فضالة مدلس ، كما في « التقريب » ٢ / ٢٢٧ وقد عنعن . ورواه الهيثمي في « المجمع » ١/١٧٩ وقال : رواه أبو يعلى ورجاله موثوقون ، وإن كان فيهم مبارك بن فضالة ، وأورده أيضاً ٦/١٤٥ : وقد ساقه بأطول من هذا ، لكنه لم يذكره بتمامه : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، وطرفه الأول في « الصحيحين » من قول سهل بن حنيف رضي الله عنه .

تـواتـرت السنـة عن رسـول الله ﷺ بـالمسـح على الخفين وبغسـل الرجلين ، والرافضةُ تُخالف هذه السنة المتواترة ، فيقال لهم : الذين نقلُوا الوضوءَ عن النبي ﷺ قولاً وفعلاً ، والذين تعلموا الوضوءَ منه ، وتوضؤا على عهده وهو يراهم ويُقرهم ، ونقلوه إلى مَن بعدَهم ـ : أكثرُ عدداً من الذين نقلوا لفظ هذه الآية . فإن جميع المسلمين كانوا يتوضؤ ون على عهده ، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه ، فإن هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم في الجاهلية ، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يُحصي عدده إلَّا الله تعالى ، ونقلوا عنه ذِكر غسل الرجلين في ما شاء الله مِن الحديث ، حتى نقلوا عنه من غير وجه ، في كتب الصحيح ، وغيرها ، أنه قال : « وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ وَبُطُونِ الأَقْدَامِ مِنَ النَّارِ »[٢٦٦] .

مع أن الفرض إذا كان مسحَ ظاهر القدم ، كان غَسلُ الجميع كُلفة لا تدعو إليها الطباع، كما تدعو الطباعُ إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعنُ في تواتر صفة الوضوء ، لكان في نقل لفظ آية أقربَ إلى الجواز .

وإذا قالوا : لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ ، فثبوتُ التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل ، ولفظ الآية

---

(٢٦٦) رواه الترمذي رقم (٢٩) في الطهارة : باب ما جاء في تخليل اللحية ، وأحمد في « المسند » ١٩١/٤ من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله عنه ، واسناده صحيح .

ورواه دون قوله : « وبطون الأقدام » البخاري ١٣٢/١ في العلم : باب من رفع صوته بالعلم ، وباب من أعاد الحديث ثلاثاً ، وفي الوضوء : باب غسل الرجلين ، ومسلم رقم (٢٤١) في الطهارة : باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما ، وأبو داود رقم (٩٧) في الطهارة : باب في إسباغ الوضوء ، والنسائي ٧٨/١ في الطهارة : باب ايجاب غسل الرجلين ، وأحمد في « المسند » ١٩٣/٢ و ٢٠١ و ٢٠٥ و ٢١١ و ٢٢٦ ، والدارمي رقم (٧١٢) في الطهارة : باب ويل للأعقاب من النار ، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ،

وفي الباب عن أبي هريرة ، وعائشة ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم. انظر « جامع الأصول » رقم (٥١٥٨) و (٥١٥٩) و (٥١٦٠) .

لا يُخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح كما يُطلق ويُراد به الإصابة ـ وكذلك يُطلق ويُراد به الإسالة ، كما تقول العرب : تَمسَّحتُ للصلاة . وفي الآية ما يدل على أنه لم يُرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغَسل ، بل المسحَ الذي الغَسلُ قسم منه ، فإنه قال : ﴿ إلى الكَعْبَيْنِ ﴾ ، ولم يقل : إلى الكعاب ، كما قال : ﴿ إِلَى المَرَافِقِ ﴾ ، فدل على أنه ليس في كل رجْل كعب واحد ، كما في كل يد مرفقٌ واحد ، بل في كل رجْل كعبان ، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمين الناتئين ، وهذا هو الغَسل ، فإن من يمسح المسحَ الخاص يجعل المسحَ لظهور القدمين ، وجعل الكعبين في الآية غايةً يردُّ قولهم . فدعواهم أن الفرض مسحُ الرجلين إلى الكعبين اللذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشِّراك ـ مردود بالكتاب والسنة .

وفي الآية قراءتان مشهورتان : النصبُ والخفضُ ، وتوجيهُ إعرابهما مبسوط في موضعه ، وقراءة النصب نص في وجوب الغَسل ، لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحداً كقوله :

فَلَسْنَا بِالجِبَالِ وَلاَ الحَدِيدَا/ ٧٦/أ

وليس معنى : مسحتُ برأسي ورجلي ـ هو معنى : مسحتُ رأسي ورجلي ، بل ذكر الباء يُفيد معنى زائداً على مجرد المسح ، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس ، فتعين العطفُ على قوله : ﴿ وأيديكم ﴾ .

فالسنة المتواترة تقضي على ما يفهمُه بعضُ الناس من ظاهر القرآن ، فإن الرسول ﷺ بيَّن للناس لفظَ القرآن ومعناه ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يُقرئوننا القرآن : عثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلَّموا مِن النبي ﷺ عشرَ آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا معناها .

وفي ذكر المسح في الرجلين تنبيهٌ على قلة الصبِّ في الرجلين ، فإن السرف يُعتاد فيهما كثيراً ، والمسألة معروفة ، والكلام عليها في كتب الفروع .

* * *

قوله : والحَجُّ والجِهَادُ مَاضِيَانِ مَعَ أُولي الأَمْرِ مِنَ المُسْلِمِينَ ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ إلى قِيَامِ السَّاعَةِ ، لَا يُبْطِلُهُما شَيءٌ وَلَا يَنْقُضُهُما .

يُشير الشيخ رحمه الله تعالى إلى الرد على الرافضة ، حيث قالوا : لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج الرضي مِن آل محمد ﷺ ، ويُنادي منادٍ من السماء : اتبعوه !! وبطلانُ هذا القول أظهر من أن يُستدلّ عليه بدليل . وهم شرطوا في الإمام أن يكون معصوماً اشتراطاً من غير دليل ! بل في « صحيح مسلم » عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خِيَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُحِبُّونَهُم وَيُحِبُّونَكُم ، وتُصَلُّونَ عَلَيهم وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُم ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُم الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُم وَيُبْغِضُونَكُم ، وتَلْعَنُونَهُم وَيَلْعَنُونَكُم » ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ! أَفَلَا نُنَابِذُهُم عِنْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : « لَا ، مَا أَقَامُوا فِيكُم الصَّلاةَ ، أَلَا مَنْ وَلِيَ عَلْيهِ والٍ فَرَآهُ يأتي شَيْئاً مِنْ مَعْصِيَةِ الله ، فَلْيَكْرَه ما يأتي مِنْ مَعْصِيَةِ الله ، وَلَا يَنْزِعَنَّ يَدَاً مِنْ طَاعَتِهِ »(*) .

وقد تقدم بعضُ نظائر هذا الحديث في الإمام ، ولم يقل : إن الإمام [يجب أن](**) يكون معصوماً ، والرافضة أخسرُ الناس صفقةً في هذه

(*) تقدم تخريجه ص ٤٢٩ رقم ٢٥٩ .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

المسألة ، لأنهم جعلوا الإمام المعصومَ هو الإمامَ المعدومَ ، الذي لم ينفعهم في دين ولا دنيا !! فإنهم يدعون أنه الإمام المنتظر ، محمد بن الحسن العسكري ، الذي دخل السرْداب في زعمهم سنة ستين ومائتين ، أو قريباً من ذلك بسامُرَّا ! وقد يُقيمون هناك دابةً ، إما بغلةً وإما فرساً ، ليركبها إذا خرج ! ويُقيمون هناك في أوقات عينوها من يُنادي عليه بالخروج : يا مولانا ، اخرج ويشهرون السلاح ، ولا أحد هنا يُقاتلهم ! إلى غير ذلك من الأمور التي يضحك عليهم منها العقلاءُ !!

وقوله : مع أولي الأمر برّهم وفاجرهم ـ لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلا بد من سائس يسوس الناسَ فيهما ، ويقاوِمُ العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البَرّ يحصل بالإمام الفاجِر .

* * *

قوله : ونُؤْمِنُ بالكِرَامِ الكَاتِبينَ ، فَإِنَّ الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنا حافِظِينَ .

قال تعالى : ﴿ وإنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِيْنَ * كِرَاماً كَاتِبِيْنَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الإنفطار : ١٠ ـ ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى المُتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيْدٌ * ما يَلفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلَّا لَديْهِ رَقِيْبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ ـ ١٨] .

وقال تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَين يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُم وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

وقال تعالى : ﴿ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٢١] .

وفي « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال « يَتَعَاقَبُونَ فِيْكُم مَلائِكَةٌ باللَّيلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، ويَجْتَمِعُونَ في صَلاَةِ الصُّبْحِ وَصَلاةِ العَصرِ ، فَيَصْعَدُ إليه الَّذِينَ كَانُوا فِيْكُم ، فَيَسْأَلُهُم ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : أَتَيْنَاهُم وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَفَارَقْنَاهُم وَهُم يُصَلُّونَ »(*) .

وفي الحديث الآخر : « إِنَّ مَعَكُم مَنْ لا يُفَارِقُكُم إِلاَّ عِنْدَ الخَلاَءِ وَعِنْدَ الجِماعِ ، فَاسْتَحْيُوهُم ، وَأَكْرِمُوهُم »(٢٦٧) .

جاء في التفسير : إثنان عن اليمين وعن الشمال ، يكتبان الأعمال : صاحبُ اليمين يكتب الحسناتِ ، وصاحبُ الشمال يكتب السيئات ، ومَلكان آخران يحرسانه ويحفظانه ، واحد من ورائه ، وواحد أمامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، بدلاً ، حافظان وكاتبان ، وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ [الرعد : ١١] ، قال : ملائكةٌ يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قَدَرُ الله خَلَّوْا عنه .

وروى مسلم والإمام أحمد(٢٦٨) عن عبد الله رضي الله عنه ، قال : قال

(*) تقدم تخريجه ص ٢٩٧ رقم ١٦٦ .

(٢٦٧) قطعة من حديث رواه الترمذي رقم (٢٨٠١) في الأدب : باب ما جاء في الاستتار عند الجماع ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وفي سنده ليث بن أبي سليم ، وهو ضعيف ، ويشهد له حديث بهز بن حكيم رضي الله عنه رواه أبـو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد . انظره في « جامع الأصول » رقم (٣٦٢٣) .

(٢٦٨) رواه مسلم رقم (٢٨١٤) في صفات المنافقين : باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ، وأن مع كل إنسان قريناً ، وأحمد في « المسند » ١/٣٨٥ و ٣٩٧ و ٤٠١ و ٤٦٠ ، والدارمي رقم (٢٧٣٧) في الرقاق : باب مـا منكم أحد إلا ومعه قرينه من الجن .

رَسُولُ الله ﷺ : « مَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الجِنِّ ، وَقَرِينُهُ مِنَ الملائِكَةِ »، قَالُوا : وإيَّاكَ يا رَسُولَ الله !؟ قَالَ: « وإيَّايَ، إلَّا أَنَّ الله أعانَني عَلَيهِ فَأَسْلَمَ ، فَلا يَأْمُرُني إلَّا بِخَيْرٍ » ./ الرواية بفتح الميم من « فَأَسْلَمَ » ومن رواه « فأسلمُ » برفع الميم ـ فقد حرَّف لفظه . ومعنى « فأسلم » ، أي : فاستسلم وانقاد لي ، في أصح القولين ، ولهذا قال : « فَلَا يَأْمُرنِي إلَّا بِخَيْرٍ » ، ومن قال : إن الشيطان صار مؤمناً ـ فقد حرَّف معناه ، فإن الشيطان لا يكون مؤمناً(*) .

٧٦/ب

ومعنى : ﴿ يحفظُونَه مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد : ١١] . قيل : حفظهم له من أمر الله ، أي : الله أمرهم بذلك ، يشهد لذلك قراءة من قرأ : يحفظونه بأمر الله .

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتبُ القولَ والفعلَ ، وكذلك النية ، لأنها فعل القلب ، فدخلت في عموم ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ١٢] .

(*) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : والخلاف في ضبط الميم من «فأسلم» ـ خلاف قديم ، والراجح فيها الفتح ، كما قال الشارح ، ولكن المعنى الذي رجحه غير راجح ، فقال القاضي عياض ، في «مشارق الأنوار» ٢/ ٢١٨ : رويناه بالضم والفتح ، فمن ضمَّ ، رد ذلك إلى النبي ﷺ ، أي : فأنا أسلم منه ، ومن فتح ، ردَّه إلى القرين ، أي : أسلم من الإسلام . وقد روي في غير هذه الأمهات : فاستسلم . يريد بالأمهات : «الموطأ» و«الصحيحين» ، التي بنى عليها كتابه ، وان كان هذا الحديث لم يروه مالك ولا البخاري .

وقال النووي في شرح مسلم : هما روايتان مشهورتان . واختلفوا في الأرجح منهما ، فقال الخطابي : المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض الفتح .

وأما الحافظ ابن حبان، فإنه روى الحديث في«صحيحه» (٢/ ٢٨٣ من المخطوطة المصورة)، وجزم برواية فتح الميم ، وقال: «في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى لم يكن يأمره إلا بخير ، لا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً » . وهذا هو الصحيح الذي ترجحه الدلائل ، وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى . «فإن الشيطان لا يكون مؤمناً» انتقال نظر . فأولاً : أن اللفظ في الحديث «قرينه من الجن» ، لم يقل : «شيطانه» . وثانياً : أن الجن فيهم المؤمن والكافر ، والشياطين هم كفارهم ، فمن آمن منهم لم يسم شيطاناً .

ويشهد لذلك قوله ﷺ : « قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : إذا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلا تَكْتُبُوها عَلَيهِ ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوها عَلَيهِ سَيِّئَةً ، وإِذا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوها لَهُ حَسَنَةً ، فإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوها عَشْراً »(٢٦٩) .

وقال رسول الله ﷺ: «قَالَتِ المَلاَئِكَةُ: ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، ـ وَهُو أَبْصَرُ بِهِ ـ فَقَالَ : ارقُبُوهُ ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا ، وإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّاي » ، أخرجاهما في « الصحيحين »(٢٧٠) . واللفظ لمسلم .

* * *

قوله : وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ المَوْتِ ، المُوكَّلِ بِقَبْضِ أَرْواحِ العَالَمِينَ .

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُم ثُمَّ إلى رَبِّكُم تُرجَعُونَ ﴾ [آلـم السجدة : ١١] . ولا تعارض هذه الآية قوله : ﴿ حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمُوتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] ، وقوله تعالى : ﴿ الله يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا والتي لَمْ تَمُتْ في مَنَامِهَا فَيُمسِكُ التي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ ويُرسِلُ الأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ [الزمر : ٤٢] لأن مَلَك الموت يتولى قبضَها واستخراجها ، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، ويتولَّونها بعدَه ، كل ذلك بإِذن الله وقضائه

(٢٦٩) رواه البخاري ١٣/٣٩١ في التوحيد : باب قول الله تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ومسلم رقم (١٢٨) في الإيمان : باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب ، والترمذي رقم (٣٠٧٥) في التفسير : باب ومن سورة الأنعام ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢٧٠) رواه مسلم رقم (١٢٩) في الإيمان : باب إذا هم العبد بحسنة كتبت، وأحمد في « المسند » ٢/٣١٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولم يخرجه البخاري ، كما ذكر المصنف رحمه الله تعالى .

وقدره ، وحُكمه وأمره ، فصحَّتْ إضافة التوفي إلى كلٍّ بحسبه .

وقد اختُلف في حقيقة النفس ما هي ؟ وهل هي جزء من أجزاء البدن ، أو عرَض من أعراضه ؟ أو جسم مساكن له مودَع فيه ؟ أو جوهر مجرد ؟ وهل هي الروح أو غيرها ؟ وهل الأمَّارة ، واللَّوامة ، والمطمئنة ـ نفسٌ واحدةٌ ، أم هي ثلاثة أنفس ؟ وهل تموت الروح ، أو الموت للبدن وحده ؟ وهذه المسألة تحتمل مجلداً ، ولكن أشيرُ إلى الكلام عليها مختصراً ، إن شاء الله تعالى :

فقيل : الروح قديمة ، وقد أجمعت الرسلُ على أنها محدثَة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبَّرة ، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم ، أن العالم محدَث ، ومضى على هذا الصحابة والتابعون ، حتى نبغتْ نابغةٌ ممن قصر فهمُه في الكتاب والسنة ، فزعم أنها قديمة ، واحتج بأنها من أمر الله ، وأمرُه غيرُ مخلوق ! وبأن الله أضافها إليه بقوله : ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء : ٥٨] ، وبقوله : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر : ٢٩] ، كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعَه وبصره ويدَه ، وتوقف آخرون .

واتفق أهل السنة والجماعة أنها مخلوقة ، وممن نقل الإجماعُ على ذلك : محمدُ بن نصر المَرْوَزي ، وابن قُتيبة وغيرهما .

ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة، قوله تعالى : ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر : ٦٢] ، فهذا عامّ لا تخصيص فيه بوجه ما ، ولا يدخل في ذلك صفاتُ الله تعالى ، فإنها داخلةٌ في مسمى اسمه ، فالله تعالى هو الإلهُ الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته ـ داخلٌ في مسمى اسمه ، فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالقُ ، وما سواه مخلوق ، ومعلومٌ قطعاً أن الروحَ ليست هي الله ، ولا صفةً من صفاته ، وإنما هي من مصنوعاته . ومنها قوله تعالى : ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِيْنٌ مِنَ

الدَّهرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ [الدهر : ١] . وقوله تعالى لزكريا : ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ [مريم : ٩] . والإنسان اسم لروحه وجسده ، والخطاب لزكريا ، لروحه وبدنه ، والروح تُوصف بالقبض والوفاة والإمساك والإرسال ، وهذا شأنُ المخلوق المحدَث .

وأما احتجاجُهم بقوله : ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ [الإسراء : ٨٥] - فليس المراد هنا بالأمر الطلب ، بل المراد به المأمور ، والمصدر يُذكر ويراد به اسمُ المفعول ، وهذا معلوم مشهور .

وأما استدلالهم بإضافتها إليه بقوله : ﴿ مِنْ رُوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] - فينبغي أن يُعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان : صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر ، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها ، فعلمُه وكلامُه وقدرته وحياته صفاتٌ له ، وكذا وجهه ويدُه سبحانه .

والثاني : إضافة أعيان منفصلة عنه كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافةُ مخلوق إلى خالقه ، لكنها إضافةُ تقتضي تخصيصاً وتشريفاً ، يتميز بها/المضاف عن غيره . ٧٧/أ

واختُلف في الروح : هل هي مخلوقة قبل الجسد أو بعده ؟ وقد تقدم عند ذكر الميثاق الإشارةُ إلى ذلك .

واختلف في الروح : ما هي ؟ فقيل : هي جسم .

وقيل : عرَض ، وقيل : لا ندري ما الروح ، أجوهر أم عرض ؟
وقيل : ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع .
وقيل : هي الدم الصافي الخالص من الكدر والعفونات .
وقيل : هي الحرارة الغريزية ، وهي الحياة .
وقيل : هو جوهر بسيط منبثّ في العالم كلِّه من الحيوان على جهة

الإعمال له والتدبير ، وهي على ما وصفت من الانبساط في العالم ، غير منقسمة الذات والبِنية ، وأنها في كلٍّ حيوان العالم بمعنى واحد لا غير .

وقيل : النفس هي النسيم الداخل والخارج بالتنفس ، وقيل غير ذلك .

وللناس في مسمى الإنسان: هل هو الروح فقط، أو البدن فقط، أو مجموعهما ، أو كل منهما ؟ وهذه الأقوال الأربعة لهم في كلامه : هل هو اللفظ ، أو المعنى فقط ، أو هما ، أو كل منهما ؟ فالخلاف بينهم في الناطق ونطقه .

والحق : أن الإنسان اسمٌ لهما ، وقد يطلق على أحدهما بقرينة ، وكذا الكلام .

والذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماعُ الصحابة وأدلةُ العقل : أن النفس جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، وهو جسم نوراني علوي ، خفيف حي متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ، ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون ، والنار في الفحم . فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف ، بقي ذلك الجسمُ اللطيف سارياً في هذه الأعضاء ، وأفادها هذه الآثار من الحسِّ والحركة الإرادية ، وإذا فسدتْ هٰذه ، بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن قبول تلك الآثار ، فارق الروح البدن ، وانفصل إلى عالم الأرواح .

والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِها ﴾ الآية [الزمر : ٤٢] ، ففيها الإخبار بتوفّيها وإمساكها وإرسالها .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ وَالمَلاَئِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِم ، أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، ففيها بسط الملائكة

أيديَهم لتناولها ، ووصفها بالإخراج والخروج ، والإخبار بعذابها ذلك اليوم ، والإخبار عن مجيئها إلى ربها .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم باللَّيلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ ﴾ الآية [الأنعام : ٦٠] ، ففيها الإخبار بتوفي النفس بالليل ، وبعثها إلى أجسادها بالنهار ، وتوفي الملائكة لها عند الموت .

وقوله تعالى : ﴿ يا أَيَّتُها النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ * ارجعي إلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فادخُلي في عِبَادِي * وادخُلي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] . ففيها وصفُها بالرجوع والدخول والرضى .

وقال ﷺ: « إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ تَبِعَهُ البَصَرُ »[٢٧١] . ففيه وصفهُ بالقبض ، وأن البصر يراه .

وقال ﷺ في حديث بلال : « قَبَضَ أَرْوَاحَكُم وَرَدَّها عَلَيْكُم »[٢٧٢] .

وقال ﷺ : « نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ في شَجَرِ الجَنَّةِ »[٢٧٣] .

وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت

---

(٢٧١) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (٩٢٠) في الجنائز : باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر ، وأحمد في « المسند » ٢٩٧/٦ ، وابن ماجه رقم (١٤٥٤) في الجنائز : باب في تغميض الميت ، من حديث أم سلمة رضي الله عنها .

(٢٧٢) رواه البخاري ٥٤/٢ في مواقيت الصلاة : باب الأذان بعد ذهاب الوقت ، و ٣٧٧/١٣ في التوحيد : باب المشيئة والإرادة ، وأبو داود رقم (٤٣٩) في الصلاة : باب فيمن نام عن الصلاة أو نسيها ، والنسائي ١٠٦/٢ في الإمامة : باب الجماعة للفائت من الصلاة ، وأحمد في « المسند » ٣٠٧/٥ من حديث أبي قتادة رضي الله عنه وليس من حديث بلال رضي الله عنه .

انظر « جامع الأصول » رقم (٣٢٤٧) .

(٢٧٣) رواه أحمد في « المسند » ٤٥٥/٣ و ٤٥٦ و ٤٦٠ ، والنسائي ١٠٨/٤ في الجنائز : باب أرواح المؤمنين ، و «الموطأ» ٢٤٠/١ في الجنائز : باب جامع الجنائز ، وابن ماجه رقم (٤٢٧١) في الزهد : باب ذكر القبر والبلى من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه . وإسناده صحيح .

لها، وأنها تخرج تسيلُ كما تسيلُ القطرة مِن في(*)السقاء، وأنها تصعد ويُوجد منها من المؤمن كأطيبِ ريح ، ومن الكافر كأنتنِ ريح إلى غير ذلك من الصفات .

وعلى ذلك أجمع السلف ، ودلَّ العقل ، وليس مع من خالف سوى الظنون الكاذبة ، والشبه الفاسدة ، التي لا يُعارَض بها ما دل عليه نصوصُ الوحي والأدلة العقلية .

وأما اختلافُ الناس في مسمَّى النفس والروح : هل هما متغايران ، أو مسماهما واحد ؟ فالتحقيق : أن النفس تُطلق على أمور ، وكذلك الروح ، فيتحد مدلولهما تارةً ، ويختلِفُ تارةً .

فالنفس تُطلق على الروح ، ولكن غالب ما يُسمَّى نفساً إذا كانت متصلةً بالبدن ، وأما إذا أخذت مجردةً ، فتسمية الروح أغلب عليها .

ويطلق على الدم ، ففي الحديث : « ما لا نَفْسَ لَهُ سَائِلَةً لا يُنجس الماءَ إذا ماتَ فِيهِ »(٢٧٤) .

والنفس : العين ، يقال : أصابت فلاناً نفس ، أي عين .

والنفس : الذات ، كقوله تعالى ﴿ فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُم ﴾ [النور : ٦١] ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] ، ونحو ذلك .

وأما الروح ، فلا يُطلق على البدن ، لا بانفراده ، ولا مع النفس .

وتطلق الروح على القرآن ، وعلى جبريل ، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ

(*) في : فم وهي من الأسماء الخمسة .

(٢٧٤) لا يعرف لفظه ، وروى معناه البيهقي في « السنن » ٢/٢٥٣ من حديث سلمان : « يا سلمان كل طعام وشراب وقعت فيه دابة لها دم فماتت فيه ، فهو حلال أكله وشرابه وضوءه» وإسناده ضعيف .

رُوحَاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] . ﴿ نَزَل بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] .

ويُطلق الروح على الهواء المتردد في بدن الإنسان أيضاً .

وأما ما يؤيدُ الله به أولياءَه ، فهي روح أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ في قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

وكذلك القُوى التي في البدن ، فإنها أيضاً تسمى أرواحاً ، فيقال : الروح الباصر ، والروح السامع ، والروح الشامُّ .

ويُطلق الروح على أخص من هذا كله ، وهو : قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ،/ونسبةُ هذا الروح إلى الروح ، كنسبة الروح إلى البدن ، فالعلم روح ، والإحسان روح ، والمحبة روح ، والتوكل روح ، والصدق روح . ٧٧/ب

والناس متفاوتون في هذه الأرواح :

فمن الناس من تغلِبُ عليه هذه الأرواحُ فيصير روحانياً ، ومنهم من يَفقدها أو أكثَرَها فيصير أرضيَّاً بهيمياً .

وقد وقع في كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاث أنفس: مطمئنة ، ولوَّامة ، وأمَّارة ، قالوا :وإن منهم من تغلِبُ عليهم هذه ، ومنهم من تغلب عليه هذه ، كما قال تعالى : ﴿ يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر : ٢٧] . ﴿ ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] . ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

والتحقيق : أنها نفسٌ واحدة ، لها صفات ، فهي أمّارة بالسوء ، فإذا عارضها الإيمان صارت لوّامةً ، تفعل الذنب ثم تلومُ صاحبها ، وتلوم بين

الفعل والترك ، فإذا قوي الإيمان صارت مطمئنةً ، ولهذا قال النبي ﷺ : « مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ »[٢٧٥] . مع قوله : « لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » ، الحديث[*] .

واختلف الناس : هل تموتُ الروح أم لا ؟ فقالت طائفة : تموت ، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت، وقد قال تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكرامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ - ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ كُلُّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] . قالوا : وإذا كانت الملائكة تموتُ ، فالنفوس البشرية أولى بالموت .

وقال آخرون : لا تموت الأرواحُ ، فإنها خُلقت للبقاء ، وإنما تموت الأبدان ، قالوا : وقد دلك على ذلك الأحاديثُ الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها .

والصواب : أن يقال : موت النفوس هو مفارقتُها لأجسادها وخروجُها منها ، فإن أريد بموتها هذا القدر ، فهي ذائقة الموت ، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية ، فهي لا تموت بهذا الاعتبار ، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فيها المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولى ﴾ [الدخان : ٥٦] ، وتلك الموتةُ هي مفارقة الروح للجسد .

وأما قول أهل النار : ﴿ رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَينِ ﴾ [غافر : ١١] ، وقوله تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بالله وَكُنْتُم أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُم ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكُم ﴾

---

(٢٧٥) قطعة من حديث رواه أحمد في « المسند » ١/١٨ و٢٦، والترمذي رقم (٢١٦٦) في الفتن : باب ما جاء في لزوم الجماعة ، والحاكم في الإيمان ، من طرق صحيحة ، فهو حديث صحيح .

(*) تقدم تخريجه ص ٣٤٤ رقم ١٩٢ .

[البقرة : ٢٨] - فالمراد : أنهم كانوا أمواتاً وهم نُطَف في أصلاب(*) آبائهم وفي أرحام أمهاتهم ، ثم أحياهم بعد ذلك ، ثم أماتهم ، ثم يحييهم يوم النشور ، وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة ، وإلا كانت ثلاثَ مَوْتَات .

وصعقُ الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتُها ، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرضُ بنوره ، وليس ذلك بموت ، وسيأتي ذكر ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكذلك صَعْق موسى عليه السلام لم يكون موتاً ، والذي يدل عليه أن نفخة الصعق - والله أعلم - موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق ، وأما من ذاق الموت ، أو لم يُكتب عليه الموتُ من الحور والولدان وغيرهم ، فلا تدل الآية على أنه يموت موتةً ثانية . والله أعلم .

* * *

قوله : وَبِعَذَاب القَبْرِ لمنْ كَانَ لَهُ أَهْلاً ، وَسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ فيقَبْرِهِ عَنْ رَبِّهِ وَدِينِهِ وَنَبِّيه عَلَى ما جَاءَتْ بِهِ الأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ، وَعَنِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ الله عَلَيْهم . والقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النِّيرَانِ(**).

(*) في الأصل : صلب ، وما أثبتناه من مطبوعة مكة .

(**) اعلم أن قضيات العقول منقسمة إلى ثلاثة أقسام : واجب وممتنع وجائز ، أما الواجب فذات الله تعالى وصفاته ، وأما الممتنع كالشريك والولد والمثل لله تعالى ، ووجود الكذب والظلم والسفه منه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وأما الجائز فهو ما يكون تقدير وجوده وعدمه في العقل سواء ، ويسمى هذا القسم أيضاً ممكناً ، فسبيل العقل فيه التوقف على ورود السمع . فإذا ورد الدليل القطعي وقضى بوجوده وجب الاعتقاد به ولزم تصديق الله تعالى فيما أخبر ، ومن قبيلة مسائلة القبر وعذاب القبر والبعث بعد الموت وحشر الأجساد وقراءة الكتب ووزن الأعمال والصراط والشفاعة والجنة والنار ، وما أعده الله تعالى فيهما لأوليائه وأعدائه . **انتهى . من هامش الأصل .**

قال تعالى : ﴿ وَحَاقَ بآل فِرْعَونَ سُوءُ العَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٥ ـ ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ فَذَرْهُم حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِي عَنْهُم كَيْدُهُم شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ * وإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَٰلِكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُم لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الطور : ٤٥ ـ ٤٧] . وهذا يحتمل أن يُراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا ، وأن يُراد به عذابهم في البرزَخ ، وهو أظهر ، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذَّب في الدنيا ، أو المراد أعم من ذلك .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ، قال : كنا في جنازة في بَقيع الغَرْقَد ، فأتانا النَّبيُّ ﷺ، فقعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَهُ ، كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيرَ ، وَهُوَ يُلحَدُ لَهُ ، فقال : « أَعُوذُ بِالله مِنْ عَذَابِ القَبْرِ » ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إذا كانَ في إِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ وانقِطَاعٍ مِنَ الدُّنيا ، نَزَلَتْ إليهِ المَلاَئِكَةُ ، كَأَنَّ عَلَى/ وُجُوهِهِم الشَّمْسَ ، مَعَهُم كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ ، فَجَلَسُوا مِنْهُ مَدَّ البَصرِ ، ثُمَّ يجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَيقُولُ : يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ ، اخرُجِي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله ورِضْوَانٍ » ، قَالَ : « فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ القَطْرَةُ مِنْ في السِّقاءِ ، فَيأْخُذُها ، فإِذَا أَخذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عينٍ ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا في ذٰلِكَ الكَفَنِ وَذٰلِكَ الحَنُوطِ ، وَيَخْرُجُ منها ريح كَأَطْيَب نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ: فَيَصْعَدُونَ بها*، فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا ـ يَعْنِي ـ عَلَى مَلأٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ ، إِلَّا قَالُوا : ما هٰذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ ؟ فَيَقُولُون : فُلانُ بنُ فُلانٍ ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بها في الدُّنيا ، حَتَّى يَنْتَهُوا بها إلى السَّماءِ ، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ ، فَيُفْتَحُ لَهُ ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوهَا ، إلى السَّماءِ الَّتي

١/٧٨أ

(*) في الأصل فيصعدونها والتصويب من المسند ومطبوعة مكة .

تَليها ، حَتَّى يَنْتَهى بها إلى السَّماءِ الَّتي فيها الله ، فَيَقُول الله عَزَّ وَجَلَّ : اكتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي في علِّيين ، وأَعِيدُوهُ إلى الأَرْضِ ، فإِنِّي منها خَلَقْتُهُم ، وفيها أُعِيدُهُم ، ومنها أُخْرِجُهُم تَارَةً أُخْرى ، قَالَ : فَتُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ ، فَيأْتِيه مَلَكَانِ ، فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : ربِّيَ الله ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا دِينُكَ ؟ فَيَقُولُ : دِينيَ الإِسلاَمُ ، فَيَقُولاَنِ لَهُ : مَا هٰذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُم ؟ فَيَقُولُ : هُوَ رَسُولُ الله ، فَيَقُولانِ لَهُ : ما عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقتُ ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَافرُشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وافتَحُوا لَهُ بَاباً إلى الجَنَّةِ ، قَالَ : فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا ، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدّ بَصرِهِ ، قَالَ : وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ ، حَسَنُ الثِّيَابِ ، طَيِّبُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أبشِرْ بالَّذِي يَسُرُّكَ . هٰذا يَوْمُكَ الَّذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الَّذِي يَجِيء بالخَيرِ ، فَيَقُولُ : أنا عَمَلُكَ الصَّالِحُ ، فَيَقُولُ : يا رَبُّ ! أَقِم السَّاعَةَ حَتَّى أَرجِعَ إلى أَهْلي ومَالي .

قَالَ : وإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ في انقِطَاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إليه مِنَ السَّماءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ ، مَعَهُم المُسُوحُ ، فَيَجلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ البَصرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عَنْدَ رَأْسِهِ ، فَيَقُولُ : أَيَّتُهَا النَّفْسُ الخَبِيثَةُ ، اخرُجِي إلى سَخطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ ، قَالَ : فَتَتَفَرَّقُ في جَسَدِهِ ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ ، فَيَأْخُذُهَا ، فإِذَا أخذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِهِ طَرْفَةَ عينٍ ، حتَّى يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ المُسُوحِ ، وَيَخْرُجُ منها كَأَنْتَنِ ريحٍ خَبِيثَة وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ ، فَيَصْعَدُونَ بها ، فَلاَ يَمُرُّونَ بها عَلَى مَلإٍ مِنَ المَلاَئِكَةِ إلاَّ قَالُوا : ما هٰذا الرَّوحُ الخَبِيثُ ؟ فَيَقُولُونَ : فُلانٌ ابنُ فُلانٍ ، بَأَقْبَحِ أَسْمائِهِ التي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا في الدُّنيا ، حتى يَنْتَهي بها إلى السَّماءِ الدُّنيا ، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ ، فَلاَ يُفْتَحُ لَهُ ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ : ﴿ لا تُفَتَّحُ لَهُم أَبْوَابُ السَّماءِ ، ولا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ

الجَمَلُ في سَمِّ الخِياطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] ، فيقول الله عز وجل : اكتُبوا كِتَابَهُ في سِجِّينَ ، في الأَرْضِ السُّفْلَى ، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحاً ، ثُمَّ قَرأ : ﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ باللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوي بِهِ الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] ، فَتُعادُ رُوحُهُ في جَسَدِهِ ، وَيَأتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ ، فَيَقُولانِ لَهُ : مَنْ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ : هَاه ، هَاه ، لا أَدْري ، فَيَقُولانِ لَهُ : ما هٰذَا الرَّجُلُ الذي بُعِثَ فِيكُم ، فَيَقُولُ : هَاه ، هَاه ، لا أَدْرِي ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ : أَنْ كَذَبَ، فَافرُشُوهُ مِنَ النَّارِ ، وافتَحُوا لَهُ باباً إلى النَّار ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا ، وَيَضِيقُ عَلَيهِ قَبْرُهُ ، حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ ، وَيَأْتِيه رَجُلٌ قَبِيحُ الوَجْهِ ، قَبِيحُ الثِّيَابِ ، مُنْتِنُ الرِّيحِ ، فَيَقُولُ : أَبْشِرْ بالَّذي يَسُوؤُكَ ، هٰذا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ ، فَيَقُولُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ الذي يَجِيءُ بالشَّرِّ ، فَيَقُولُ : أَنا عَمَلُكَ الخَبِيثُ ، فَيَقُولُ : رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعَةَ » . رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وروى النسائي وابن ماجه أوّله ، ورواه الحاكم ، وأبو عَوَانة الإسفراييني في « صحيحيهما » ، وابن حبان(٢٨٦) .

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة ، والحديث له شواهد من الصحيح ، فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس رضي الله عنهم ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ العَبْدَ إِذا وُضِعَ في قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِم ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ ، فَيُقْعِدانِهِ ، فَيَقُولانِ لَهُ : ما كُنْتَ تَقُولُ في هٰذَا الرَّجُلِ ، مُحمدٍ ﷺ؟ فَأَمَّا المُؤْمِنُ فَيَقُولُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ ، فَيَقُولُ لَهُ : انظُرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ

(٢٧٦) رواه أحمد في « المسند » ٢٨٧/٤ و ٢٩٥ و ٢٩٦ ، وأبو داود رقم (٤٧٥٣) في السنة : باب في المسألة في القبر وعذاب القبر ، والنسائي ١٠١/٤ في الجنائز : باب عذاب القبر ، والحاكم في « المستدرك » ٣٧/١ ـ ٤٠ ، وهو حديث صحيح .

مَقْعَداً مِنَ الجَنَّةِ ، فَيَرَاهُما جَمِيعَاً » . قال قتادة : ورُوي لنا أنه يُفسَحُ/له في قبره ، وذكر الحديث(٢٧٧) . ٧٨/ب

وفي « الصحيحين »(٢٧٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بِقَبْرَيْنِ ، فَقَالَ : « إِنَّهُما لَيُعَذَّبانِ ، وما يُعَذَّبَانِ في كَبيرٍ ، أَمَّا أَحَدُهُما فَكَانَ لا يَسْتَبْرِىءُ مِنَ البَوْلِ ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ ، فَدَعَا بِجَرِيدَةٍ رَطْبَةٍ ،فَشَقَّهَا نِصْفَينِ، وَقَالَ : لَعَلَّهُ يُخَفَّفُ عَنْهُما مَا لَمْ يَيْبَسَا » .

وفي « صحيح أبي حاتم » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « إذا قُبِرَ أَحَدُكُمْ أَوِ الإِنْسَانُ أَتَاهُ مَلَكَانِ اسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ ، يُقَالُ لِأَحدِهِما : المُنْكَرُ ، ولِلآخَرِ : النَّكيرُ » وذكر الحديث إلى آخره(٢٧٩) .

---

(٢٧٧) رواه البخاري ٣/١٨٨ ـ ١٨٩ في الجنائز : باب ما جاء في عذاب القبر ، وباب الميت يسمع خفق النعال ، ومسلم رقم (٢٨٧٠) في الجنة : باب عرض معقد الميت من الجنة أو النار عليه ، وأبو داود رقم (٣٢٣١) في الجنائز : باب المشي في النعل بين القبور ، والنسائي ٤/٩٧ ـ ٩٨ في الجنائز : باب مسألة الكافر ، وأحمد في « المسند » ٣/١٢٦ و ٢٣٣ .

(٢٧٨) رواه البخاري ١/٢٧٣ ـ ٢٧٦ في الوضوء : باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله ، وباب ما جاء في غسل البول ، وفي الجنائز : باب الجريدة على القبر ، وباب عذاب القبر من الغيبة والبول ، وفي الأدب : باب الغيبة ، وباب النميمة من الكبائر ، ومسلم رقم (٢٩٢) في الطهارة : باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه ، والترمذي رقم (٧٠) في الطهارة : باب ما جاء في التشديد في البول ، وأبو داود رقم (٢٠) و (٢١) في الطهارة : باب الاستبراء من البول ، والنسائي ١/٢٨ ـ ٣٠ في الطهارة : باب التنزه عن البول ، و ٤/١٠٦ في الجنائز : باب وضع الجريدة على القبر ، وابن ماجه رقم (٣٤٧) في الطهارة وسننها : باب النهي عن البول في الماء الراكد ، والدارمي رقم (٧٤٥) في الوضوء : باب الإتقاء من البول .

(٢٧٩) ورواه أيضاً الترمذي رقم (١٠٧١) في الجنائز : باب ما جاء في عذاب القبر ، وحسنه ، وصححه ابن حبان رقم (٧٨٠) «موارد» ولفظه بتمامه « إذا قبر الميت ، أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فيقول : ما كان يقول : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولون: قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له : نَمْ ، فيقول : أرجع إلى أهلي ، فأخبرهم ، فيقولان : نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله =

وقد تواترت الأخبارُ عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذابِ القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقادُ ثبوت ذلك ، والإيمانُ به ، ولا نتكلَّم في كيفيته ، إذْ ليس للعقل وقوفٌ على كيفيته ، لكونه لا عهدَ له به في هذا الدار ، والشرعُ لا يأتي بما تُحيله العقولُ ، ولكنه قد يأتي بما تَحَارُ فيه العقول ، فإنَّ عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تُعاد الروح إليه إعادةً غيرَ الإعادة المألوفة في الدنيا .

فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق ، متغايرةُ الأحكام :

أحدها : تعلقها به في بطن الأم جنيناً .

الثاني : تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض .

الثالث : تعلقها به في حال النوم ، فلها به تعلق من وجه ، ومفارقة من وجه .

الرابع : تعلقها به في البرزخ ، فإنها وإن فارقته وتجرَّدت عنه ، فإنها لم تُفارقه فِراقاً كليًّاً بحيث لا يبقى لها إليه التفات البتة ، فإنه ورد رَدُّها إليه وقتَ سلام المسلِّم ، وورد أنه يسمع خفق نِعالهم حين يُوَلُّون عنه ، وهذا الردّ إعادة خاصة لا يُوجب حياةَ البدن قبل يوم القيامة .

الخامس : تعلقها به يوم بعث الأجساد ، وهو أكملُ أنواع تعلقها بالبدن ، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه ، إذْ هو تعلق لا يقبل البدنُ معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً ، فالنوم أخو الموت ، فتأمل هذا يُزِحْ عنك إشكالات كثيرة .

= من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً ، قال : سمعت الناس يقولون ، فقلت مثله لا أدري ، فيقولون : التئمي عليه ، فتلتئم عليه ، فتختلف فيها أضلاعه ، فلا يزال فيها معذَّباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » . وهو حديث حسن .

وليس السؤال في القبر للروح وحدها ، كما قال ابن حزم وغيره ، وأفسدُ منه قولُ من قال : إنه للبدن بلا روح ! والأحاديث الصحيحة ترد القولين .

وكذلك عذابُ القبر يكون للنفس والبدن جميعاً ، باتفاق أهل السنة والجماعة ، تَنْعَمُ النفسُ وتُعذَّبُ مفردةً عن البدن ومتصلة به(*) .

واعلم أن عذابَ القبر هو عذابُ البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبُه منه ، قُبِرَ أو لم يُقبر، أكلته السباعُ أو احترق حتى صار رماداً ونُسِفَ في الهواء ، أو صُلب أو غرق في البحر ـ وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ـ فيجب أن يُفهم عن الرسول ﷺ مرادُه من غير غلوّ ولا تقصير ، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمِلُه، ولا يُقصر به عن مراده، وما قصدُه من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدولِ عنه من الضلال ، والعدولِ عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصلُ كلِّ بدعة وضلالة نشـأت في الإسلام ، وهو أصل كل خطأ في الفروع والأصول ، ولا سيما إن أضيفَ إليه سوءُ القصد ، والله المستعان .

فالحاصل أن الدُّور ثلاث : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرَار . وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها ، وركَّب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعلَ أحكامَ الدنيا على الأبدان ، والأرواحُ تبعٌ لها ، وجعل أحكام البرزخ

(*) وقد أحالت المعتزلة عذاب القبر وعامة شبهتهم أن يقولوا إنّا نرى شخص الميت لا يتحرك ولا يضطرب ولا يظهر عليه أثر العذاب ، قلنا : وليس من ضرورة تأثره بالأثر والراحة أن يتحرك ويضطرب كالنائم مثلاً ، فإنه يتلذذ ويتألم بالأحلام ، ولا نشاهد في ظاهره حركة ، ولعل من لم يشاهد من نفسه ذلك لو أخبر بذلك لأنكره ، فكذا من أنكر عذاب القبر متى عاينه عرف أنه معاند في الإمكان . « شرح منظومة أوحد الدين النسفي رحمة الله عليه » . من **هامش الأصل** .

على الأرواح ، والأبدانُ تبع لها ، فإذا جاء يومُ حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم ـ صار الحكمُ والنعيمُ والعذابُ على الأرواح والأجساد جميعاً . فإذا تأملت هذا المعنى حقَّ التأمل ، ظهر لك أن كونَ القبر روضةً مِن رياض الجنة ، أو حُفرةً مِن حفر النار مطابق للعقل ، وأنه حق لا مِرْية فيه ، وبذلك يتميَّز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب أن يُعلم أن النار التي في القبر والنعيم ، ليس من جنس نار الدنيا ولا نعيمِها ، وإن كان الله تعالى يحمي عليه الترابَ والحجارة التي فوقه وتحته حتى يكونَ أعظم حرّاً من جمر الدنيا ، ولو مسها أهلُ الدنيا لم يحسُّوا بها ، بل أعجبُ من هذا أن الرجلين يُدفن أحدُهما إلى جنب صاحبه ، وهذا في حفرة من النار ، وهذا في روضة من رياض/الجنة ، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حرّ ناره ، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه ، وقدرةُ الله أوسع من ذلك وأعجب ، ولكن النفوس مُولعة بالتكذيب بما لم تُحِط به علماً ، وقد أرانا الله في هٰذِهِ الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير ، وإذا شاء الله أن يُطلع على ذلك بعضَ عباده أطلعه وغيَّبه عن غيره ، ولو أطلع الله على ذلك العبادَ كلهم لزالتْ حكمةُ التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تَدافن الناسُ ، كما في «الصحيح»(280) عنه ﷺ : «لَوْلَا أَنْ لا تَدَافَنُوا ، لَدَعَوتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُم مِنْ عَذَابِ القَبْرِ الذي أَسْمَعُ [مِنْهُ] » . ولمَّا كانت هذه الحكمةُ منتفية في حق البهائم سمعته وأدركته .

---

(280) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (2867) في الجنة ونعيمها وأهلها : باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وأحمد في « المسند » 5/ 190 من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه .

وفي الباب عن أنس بن مالك رواه مسلم رقم (2868) والنسائي 4/ 102 وأحمد في « المسند » 3/ 114 و153 و175 . . .

انظر « جامع الأصول » رقم (8702) .

وللناس في سؤال منكر ونكير : هل هو خاص بِهٰذِهِ الأمة أم لا ؟ ثلاثةُ أقوال :

الثالث : التوقفُ ، وهو قول جماعة ، منهم أبو عمر بن عبد البر ، فقال : وفي حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال : «إنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ تُبتَلَى في قُبُورِهَا»(*) ـ منهم من يرويه «تُسأل» ، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكونَ هٰذِهِ الأمة قد خُصت بذلك ، وهذا أمر لا يُقطع به ، ويظهر عدم الاختصاص ، والله أعلم .

وكذلك اختلف في سؤال الأطفال أيضاً : وهل يدومُ عذاب القبر أو ينقطع ؟ جوابه أنه نوعان : منه ما هو دائم ، كما قال تعالى : ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾ [غافر : ٤٦] .

وكذا في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر : « ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إلى النَّارِ فَيَنْظُرُ إلى مَقْعَدِهِ فيها حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » ، رواه الإمام أحمد في بعض طرقه(**) .

والنوع الثاني : أنه مدة ثم ينقطع ، وهو عذابُ بعض العصاة الذين خفَّتْ جرائمُهم ، فيُعذب بحسب جرمه ، ثم يُخفف عنه ، كما تقدم ذكره في الممحصات العشرة(***) .

وقد اختُلِفَ في مستقرِّ الأرواح ما بينَ الموت إلى قيام الساعة :

فقيل : أرواحُ المؤمنين في الجنة ، وأرواحُ الكافرين في النار .

(*) قطعة من الحديث السابق .

(**) تقدم تخريجه ص ٤٥٢ رقم ٢٧٦ .

(***) انظرها ص ٣٥٣ ـ ٣٥٧ .

وقيل : إن أرواحَ المؤمنين بِفناء الجنة على بابها ، يأتيهم من نعيمها وروحها ورزقها .

وقيل : على أفنيةِ قبورهم .

وقال مالك : بلغني أن الروح مرسَلة ، تذهب حيث شاءت .

وقالت طائفة : بل أرواحُ المؤمنين عند الله عز وجل ، ولم يزيدوا على ذلك .

وقيل : إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق ، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت !

وقال كعب : أرواحُ المؤمنين في عِلِّيين في السماء السابعة ، وأرواحُ الكافرين في سجِّين في الأرض السابعة تحت خدِّ إبليس !

وقيل : أرواح المؤمنين ببئر زمزم وأرواح الكافرين ببئر برهوت :

وقيل : أرواح المؤمنين عن يمين آدم ، وأرواح الكفار عن شماله .

قال ابن حزم وغيره : مستقرُّها حيث كانت قبل خلق أجسادها .

وقال أبو عمر بن عبد البر : أرواح الشهداء في الجنة ، وأرواحُ عامة المؤمنين على أفنية قبورهم .

وعن ابن شهاب أنه قال : بلغني أن أرواح الشهداء كطير خُضر معلَّقة بالعرش ، تغدو وتروح إلى رياض الجنة ، تأتي ربَّها كل يوم تسلم عليه .

وقالت فرقة : مستقرُّها العدم المحض ، وهذا قولُ من يقول : إن النفس عَرَض من أعراض البدن ، كحياته وإدراكه! وقولهم مخالف للكتاب والسنة .

وقالت فرقة : مستقرها بعدَ الموت أبدانٌ أخر تُناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها ، فتصير كُلُّ روح إلى بدن حيوان يُشاكل تلك الروح ! وهذا قولُ التناسخية منكري المعاد ، وهو قولٌ خارج عن أهل الإسلام كلهم ، ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها .

ويتلخص من أدلتها : أن الأرواح في البرزخ متفاوتةٌ أعظمَ تفاوت .

فمنها : أرواح في أعلى عِلِّيين ، في الملأ الأعلى ، وهي أرواحُ الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وهم متفاوتون في منازلهم .

ومنها أرواحٌ في حواصل طير خُضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، وهي أرواحُ بعض الشهداء ، لا كلهم ، بل مِن الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة لدَين عليه ، كما في «المسند»[٢٨١] عن محمد بن عبد الله بن جحش : أن رَجُلاً جَاءَ إلى النبي ﷺ ، فقالَ : يا رَسُولَ الله! مَا ذَا لي إنْ قُتِلتُ في سَبيلِ الله ؟ قَالَ : «الجَنَّةُ» ، فَلَمَّا وَلَّى ، قَالَ : «إلَّا الدَّيْنَ ، سَارَّنِي به جبريل عليه السلام آنِفاً» .

ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة ، كما في الحديث الذي قال فيه رسولُ الله ﷺ : « رَأَيْتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسَاً عَلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ »[٢٨٢] .

ومنهم من يكون محبوساً في قبره ، ومنهم من يكون في الأرض ، ومنها /أرواحٌ تكون في تَنُّور الزُّناة والزواني، وأرواحٌ في نهر الدم تسبح فيه وتُلقم الحجارة ، كل ذلك تشهد له السُّنة ، والله أعلم . ٧٩/ب

وأما الحياة التي اختُص بها الشهيدُ وامتاز بها عن غيره ، في قوله تعالى : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيل الله أَمْوَاتَاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبهِم يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ،وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ في

(٢٨١) رواه أحمد في « المسند » ٤/ ١٣٩ و ٣٥٠ ، وإسناده صحيح .

(٢٨٢) قطعة من حديث رواه أحمد في « المسند » ٤/ ١٣٦ و ٥/ ٧ ، وابن ماجه رقم (٢٤٣٣) في الصدقات : باب أداء الدين عن الميت ، من حديث سعد الأطول رضي الله عنه .

قال البوصيري في « الزوائد » : إسناده صحيح ، عبد الملك أبو جعفر ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وباقي رجال الإسناد صحيح . قال : وليس لسعد هذا في الكتب الستة سوى هذا الحديث الواحد .

سَبيلِ الله أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٤] - فهي: أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجوافِ طير خُضْرٍ، كما في حديث عبد الله ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ اخْوَانُكُم - يعني يوم أُحُد - جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُم في أَجْوَافِ طَيْرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنهارَ الجَنّةِ ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمارِهَا ، وَتَأْوِي إلى قَنَادِيلِ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ في ظِلَ العَرْشِ»(٢٨٣) الحديث ، رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وبمعناه في حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، رواه مسلم . فإنهم لما بذلُوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها في البرزخ أبداناً خيراً منها، تكون فيها إلى يوم القيامة ، ويكون تنعمها بواسطة تلك الأبدان ، أكملَ مِن تنعُّم الأرواح المجردة عنها .

ولهذا كانت نَسَمة المؤمن في صورة طير ، أو كطير ، ونسمة الشهيد في جَوْفِ طير . وتأمل لفظ الحديثين ،

ففي «الموطأ» أن كعب بن مالك كان يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ، قال : «إنَّ نَسَمَةَ المُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ في شَجَرِ الجَنَّةِ ، حَتَّى يَرْجِعَهُ الله إلى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ»(*) .

فقوله «نسمة المؤمن» تعم الشهيد وغيره ، ثم خَص الشهيد بأن قال : «هي في جوف طير خضر» ، ومعلوم أنها إذا كانت في جوف طير ، صدق عليها أنها طير ، فتدخل في عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار ، فنصيبهم من

---

(٢٨٣) رواه أحمد في « المسند » ١/٢٦٦ ، وأبو داود رقم (٢٥٢٠) في الجهاد : باب فضل الشهادة ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

وروى مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رقم (١٨٨٧) في الإمارة : باب بيان أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

(*) تقدم تخريجه ص ٤٤٧ رقم ٢٧٣ .

النعيم في البرزخِ أكملُ مِن نصيب غيرهم من الأموات على فُرُشهم ، وإن كان الميت أعلى درجةً من كثير منهم ، فله نعيمٌ يختص به لا يُشاركه فيه من هو دونه ، والله أعلم .

وحَرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء ، كما روي في «السنن»(٢٨٤) . وأما الشهداء ، فقد شُوهد منهم بعدَ مُدَد من دفنه كما هو لم يتغير ، فيحتمل بقاؤه كذلك في تربته الى يوم محشره ، ويحتمل أنه يَبلى مع طول المدة ، والله أعلم . وكأنه ـ والله أعلم ـ كلما كانت الشهادة أكمل ، والشهيد أفضل ، كان بقاءُ جسده أطول .

* * *

قوله : وَنُؤْمِنُ بِالبَعْثِ وَجَزَاءِ الأعْمالِ يَوْمَ القِيَامَةِ والعَرْضِ والحِسَابِ ، وقِراءة الكِتَابِ ، والثَّوَابِ ، والعِقَابِ ، والصِّرَاطِ وَالمِيزَانِ .

الإيمانُ بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة ، والعقلُ والفطرة السليمة ، فأخبر الله سبحانه عنه في كتابه العزيز ، وأقام الدليل عليه ، وردَّ على منكريه في غالب سور القرآن ، وذلك : أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان بالآخرة ، فإن الإقرار بالربِّ عام في بني آدم ، وهو فِطريٌّ ، كلهم يقرُّ

---

(٢٨٤) رواه أبو داود رقم (١٠٤٧) في الصلاة : باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة ، والنسائي ٣/٩١ ـ ٩٢ في الجمعة : باب إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة ، وابن ماجه رقم (١٠٨٥) في إقامة الصلاة والسنة فيها : باب في فضل الجمعة ، ورقم (١٦٣٦) في الجنائز : باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ . وأحمد في « المسند » ٤/٨ ، من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه . وإسناده صحيح ، وصححه ابن حبان رقم (٥٥٠) «موارد» ، والحاكم ١/٢٧٨ ووافقه الذهبي .

بالرب ، إلا من عاند ، كفِرعون ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن مُنكريه كثيرون ، ومحمد ﷺ لما كان خَاتَم الأنبياء ، وكان قد بُعث هو والساعة كهاتين ، وكان هو الحاشر المقفِّي - بيّن تفصيلَ الآخرة بياناً لا يُوجد في شيء من كتب الأنبياء .

ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم ، أنه لم يُفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ ، وجعلوا هٰذه حجةً لهم في أنه من باب التخييل والخطاب الجمهوري .

والقرآن بيَّن معادَ النفس عند الموت ، ومعادَ البدن عند القيامة الكبرى في غير موضع، وهؤلاء يُنكرون القيامة الكبرى، وينكرون معاد الأبدان(*)، ويقول من يقول منهم : إنه لم يُخبر به إلا محمد ﷺ على طريق التخييل ! وهذا كذب ، فإن القيامة الكُبرى هي معروفة عند الأنبياء ، من آدم إلى نوح ، الى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم عليهم السلام ، وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم ، فقال تعالى : ﴿ قال اهبُطوا بَعْضَكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُم في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ * قَالَ فيها تَحْيَونَ وفيها تَمُوتُونَ ومنها تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف : ٢٤ ـ ٢٥] . ولما قال إبليس اللعين : ﴿ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ * إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلُومِ﴾ [ص : ٧٩ ـ ٨١] .

وأما نوح عليه السلام ، فقال : ﴿ والله أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ

(*) جاء في هامش الأصل ما يلي :

(*) إن البعث ليس إلا إعادة الهيئة في الجسم بعد تفرق الأجزاء وتغير الهيئة ، ومن قدر على أن ينشأ بعد أن لم يكن شيئاً كان على الاعادته إلى تلك الحالة بالطريق الأولى ، وذلك ثابت بأن تجمع الأجزاء المتفرقة ، وتخلق فيها الحياة ، ونحن لا نثبت بالعقل إلا إمكانه ، فأما ثبوت وقوعه فقد دلت عليه القواطع السمعية . . اهـ ـ من « شرح أوحد الدين» .

يُعِيدُكُم فيها وَيُخْرِجُكُم إِخْرَاجاً ﴾ [نوح : ١٧ ـ ١٨] . وقال إبراهيم عليه السلام : ﴿ والَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٨٢] . إلى آخر القصة . وقال : ﴿ ربَّنا اغفِرْ لي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ ﴾ [إبراهيم : ٤١] . وقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحيي المَوْتَى ﴾ الآية ،[البقرة : ٢٦٠] ، وأما موسى عليه السلام ، فقال الله تعالى لمّا ناجاه : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا * لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا/واتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴾، [طه: ١٥ ـ ١٦] ٨٠/أ

بل مؤمنُ آل فرعون كان يعلم المعاد ، وإنما آمن بموسى ، قال تعالى حكايةً عنه : ﴿ وَيَا قَوم إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُم مِنَ الله مِنْ عَاصِمٍ * وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر : ٣٢ ـ ٣٣] ، إلى قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّما هٰذِهِ الحَيَاةُ الدُّنيا مَتَاعٌ وإِنَّ الآخِرَةَ هي دارُ القَرَارِ ﴾ [غافر : ٣٩] إلى قوله : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] . وقال موسى : ﴿ واكتُبْ لَنَا في هٰذِهِ الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ إِنَا هُدْنا إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

وقد أخبر الله في قصة البقرة : ﴿ فَقُلْنَا اضرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذٰلِكَ يُحْيي الله المَوْتَى وَيُريكُم آيَاتِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٧٣] .

وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، في آيات من القرآن ، وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُم رُسُلٌ مِنْكُم يَتْلُونَ عَلَيْكُم آياتِ رَبِّكُم وَيُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هٰذا . قَالُوا بَلَى وَلكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ [الزمر : ٧١] .

وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا ، فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم، مِن عقوبات المذنبين في الدنيا والآخرة ، فعامة سور القرآن التي فيها ذكر الوعد

والوعيد، يذكر ذلك فيها : في الدنيا والآخرة .

وأمر نبيه أن يُقسم به على المعاد، فقال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُم عَالِم الغَيْبِ﴾ الآيات [سبأ: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ أي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس : ٥٣] . وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُم وذٰلِكَ عَلَى الله يسيرٌ﴾ [التغابن : ٧] .

وأخبر عن اقترابها، فقال : ﴿ اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ﴾ [القمر : ١] . ﴿ اقتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم وَهُم في غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء : ١] ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلكَافِرِينَ ﴾ [المعارج : ١ ـ ٢]، إلى أن قال : ﴿ إِنَّهُم يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ [المعارج : ٦ ـ ٧] .

وذم المكذبين بالمعاد، فقال : ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [يونس : ٤٥] ﴿ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ في السَّاعَةِ لَفِي ضَلالٍ بَعيدٍ﴾ [الشورى : ١٨]- ﴿بَلِ إِدَّارَكَ عِلْمُهُمْ في الآخِرَةِ بَلْ هُم في شَكٍّ منها بَلْ هُم منها عَمُونَ﴾ [النمل : ٦٦]. ﴿وَأَقْسَمُوا بالله جَهْدَ أَيْمَانِهِم لا يَبْعَثُ الله مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيهِ حَقّاً﴾ [النحل : ٣٨] إلى أن قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الذينَ كَفَرُوا أَنَّهم كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فيها وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر : ٥٩] ﴿ وَنَحْشُرُهُم يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِم عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْنَاهُم سَعِيراً ﴾ [الإسراء : ٩٧] . ﴿ ذٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُم كَفَرُوا بآيَاتِنَا وَقَالُوا أئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء : ٩٨] . ﴿ أَوَ لَمْ يَروا أَنَّ الله الَّذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم وَجَعَلَ لَهُم أَجَلاً لا رَيْبَ فيه فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً ﴾ [الإسراء : ٩٩] . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا

عِظَامَاً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقَاً جَدِيدَاً * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدَاً أَوْ خَلْقَاً مِمَّا يَكْبُرُ في صُدُورِكُم فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا * قُلِ الَّذِي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُم وَيَقُولُون مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبَاً * يَوْمَ يَدْعُوكُم فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُم إِلاَّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٤٩ ـ ٥٢] .

فتأمل ما أُجيبوا به عن كل سؤال سؤال على التفصيل : فإنهم قالوا أولاً : ﴿ إِئِذَا كُنَّا عِظَامَاً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقَاً جَدِيداً ﴾ [الإسراء : ٤٩] ، فقيل لهم في جواب هذا السؤال : إن كُنتُم تزعمون أنه لا خالق لكم ، ولا ربَّ لكم ، فهلا كنتُم خلقاً لا يُفنيه الموت ، كالحجارة والحديد وما هو أكبرُ في صدوركم من ذلك ؟ !

فإن قلتم : كنا خلقاً على هذه الصفة التي لا تقبل البقاء ـ فما الذي يحولُ بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقاً جديداً ؟ !

وللحجة تقديرٌ آخر ، وهو : لو كنتم مِن حجارة أو حديدٍ أو خلقٍ أكبرَ منهما ، فإنه قادرٌ على أن يُفنيكم ويُحيل ذواتِكم ، وينقلَها مِن حال إلى حال ، ومن يقدر على التصرف في هٰذه الأجسام ، مع شدتها وصلابتها ، بالإفناء والإحالة ـ فما الذي يُعجزه فيما دونها ؟ ثم أخبر أنهم يسألون سؤالاً آخر بقولهم : ﴿ من يُعيدنا ﴾ إذا استحالت جسومنا وفنيت ؟ فأجابهم بقوله : ﴿ قُلِ الذي فَطَرَكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء : ٥١] . فلما أخذتهم الحجةُ ، ولزمهم حكمها ، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون بِه بعلل المنقطع ، وهو قولُهم : ﴿ متى هو ﴾ ؟ فأجيبوا بقوله : ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبَاً ﴾ .

ومن هذا قوله : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ : مَنْ يُحْيي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨] إلى آخر السورة . فلو رام أعلمُ البشر وأفصحهم وأقدرُهم على البيان ، أن يأتيَ بأحسنَ من هٰذه الحجة ، أو بمثلها، في ألفاظ تُشابه هذه الألفاظ في الإيجاز وَوَضح الأدلة، وصحة البرهان ، لما قَدَرَ ، فإنه سبحانه افتتح هٰذه الحجة بسؤال/أورده ملحدٌ ، ٨٠/ب

اقتضى جواباً ، فكان في قوله : ﴿ وَنَسِيَ خلقه ﴾ ما وفّى بالجواب وأقام الحجة وأزال الشبهة لو ما أراد سبحانه من تأكيد الحجة وزيادة تقريرها ، فقال : ﴿ قُلْ يُحيِيهَا الَّذي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذْ كل عاقل يعلم ضروريًّاً أنَّ من قدَر على هٰذه قدَر على هٰذه ، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية ، لكان عن الأولى أعجزَ وأعجزَ . ولما كان الخلق يستلزم قدرةَ الخالق على مخلوقه ، وعلمه بتفاصيل خلقه ، أتبع ذلك بقوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٩] . فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ، ومواده وصورته ، فكذلك الثاني . فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه أن يُحيي العظام وهي رميم ؟

ثم أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر ، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميماً ، عادت طبيعتُها باردةً يابسة ، والحياةُ لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعته حارَّة رطبةً بما يدل على أمر البعث ، ففيه الدليلُ والجواب معاً ، فقال : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُم مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضرِ نَاراً فَإذا أَنْتُم مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس : ٨٠] . فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر ، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة ، من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يُخرج الشيء من ضده ، وتنقادُ له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصي عليه هو الذي يفعل ما أنكره الملحدُ ودفَعه ، من إحياء العظام وهي رميم .

ثم أكد هٰذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجلّ الأعظم ، على الأيسر الأصغر ، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل ، فهو على ما دونه بكثير أقدرُ وأقدرُ ، فمن قَدَرَ على حمل قِنطار ، فهو على حمل أوقية أشدُ اقتداراً ، فقال : ﴿ أَوَ لَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى

أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهم ﴾ [يس : ٨١] فأخبر أنَّ الذي أبدع السماوات والأرض ، على جلالتهما ، وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما ، وسعتهما ، وعجيب خلقهما ، أقدرُ على أن يحيي عظاماً قد صارت رميماً ، فيردّها إلى حالتها الأولى ، كما قال في موضع آخر : ﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] . وقال : ﴿ أَوَ لَيْسَ الذي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] . ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر ، وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره ، الذي يفعل بالآلات والكلفة ، والتعب والمشقة ، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل ، بل لا بدّ معه من آلة ومعين ، بل يكفي في خلقه لما يُريد أن يخلقه ويكوِّنه نفسُ إرادته ، وقوله للمكوَّن : « كن » ، فإذا هو كائنٌ كما شاءه وأراده .

ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده ، فيتصرف فيه بفعله وقوله ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس : ٨٣] .

ومِن هذا قولُه سبحانه : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدَىً * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوجَين الذَّكَر والأُنْثَى * أليْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِي المَوْتَى ﴾ [القيامة : ٣٦ - ٤٠] . فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملاً عن الأمر والنهي ، والثواب والعقاب ، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشدَّ الإباء ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] ، إلى آخر السورة ، فإن من نَقله من النطفة إلى العلقة ، ثم إلى المضغة ، ثم شقَّ سمعه وبصره ، وركَّب فيه الحواسّ والقوى ، والعِظامَ والمنافع ، والأعصاب والرباطات التي هي أشده ، وأحكم خلقه غاية الإحكام ، وأخرجه على هذا الشكل والصورة ، التي هي أتمُّ الصور وأحسنُ

الأشكال كيف يعجِزُ عن إعادته وإنشائه مرةً ثانية ؟ أم كيف تقتضي حكمته وعنايتُه به أن يترُكه سُدى ؟ فلا يليق ذلك بحكمته ، ولا تعجِزُ عنه قدرته . فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب ، بالقول الوجيز ، الذي لا يكون أوجز منه ، والبيان الجليل ، الذي لا يُتوهم أوضح منه ، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه .

وكم في القرآن مِن مثل هذا الاحتجاج ، كما في قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُم في رَيْبٍ مِنَ البَعْثِ فإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [الحج : ٥] ، إلى أن قال : ﴿ وَأَنَّ الله يَبْعَثُ مَنْ في القُبُورِ ﴾ [الحج : ٧] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢] ، إلى أن قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ القِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٦] . وذكر قصة أصحاب الكهف ، وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية ، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية ، وقال فيها : ﴿ وَكَذٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الكهف: ٢١] .

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة ، لهم في المعاد خبط واضطراب ، وهم فيه على قولين :

منهم من يقول : تُعدم الجواهر ثم تُعاد .

ومنهم من يقول : تفرَّق الأجزاء ثم تُجمع ، فأورد عليهم : الإنسانُ الذي يأكله حيوان ، وذلك الحيوان أكله إنسان ، فإن أعيدت تلك/الأجزاء من هذا ، لم تُعدْ من هذا ؟

٨١/أ

وأورد عليهم : أن الإنسان يتحلل دائماً ، فماذا الذي يُعاد ؟ أهو الذي كان وقت الموت ؟ فإن قيل بذلك ، لزم أن يُعاد على صورة ضعيفة ، وهو

خلاف ما جاءت به النصوص ، وإن كان غير ذلك ، فليس بعضُ الأبدان بأولى من بعض !

فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل ، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني ! والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل ، ليس فيه شيء باق ، فصار ما ذكروه في المعاد مما قوَّى شبهةَ المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان .

والقولُ الذي عليه السلف وجمهورُ العقلاء : أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال ، فتستحيلُ تراباً ، ثم يُنشئها الله نشأة أخرى ، كما استحال في النشأة الأولى : فإنه كان نطفةً ، ثم صار علقة ، ثم صار مضغة ، ثم صار عظاماً ولحماً ، ثم أنشأه خلقاً سويًّا ، كذلك الإعادة : يُعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عَجْبَ الذنَب ، كما ثبت في « الصحيح » عنِ النبيِّ ﷺ ، أنه قال : « كُلُّ ابن آدَمَ يَبْلَى إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ ، مِنْهُ خُلِقَ ابنُ آدَمَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ »(٢٨٥) .

وفي حديث آخر : « إنَّ الأَرْضَ(*) تُمْطَرُ مَطَراً كَمَنِيِّ الرِّجَالِ ، يَنْبُتُونَ فِي القُبُورِ كَمَا يَنْبُتُ النَّبَاتُ »(٢٨٦) .

---

(٢٨٥) رواه مسلم رقم (٢٩٥٥) (١٤٢) في الفتن وأشراط الساعة : باب ما بين النفختين ، والنسائي ٤/١١١ ـ ١١٢ في الجنائز : باب أرواح المؤمنين ، وأبو داود رقم (٤٧٤٣١) في السنة : باب في ذكر البعث والصور ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٢٢ و ٤٢٨ و « الموطأ » ١/٢٣٩ في الجنائز : باب جامع الجنائز ، وروى نحوه البخاري ٨/٤٢٤ في تفسير سورة الزمر : باب قوله : ﴿ ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ﴾ و ٨/٥٢٩ في تفسير سورة ﴿ عم يتساءلون ﴾ وابن ماجه رقم (٤٢٦٦) في الزهد : باب ذكر القبر والبلى ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . انظره « جامع الأصول » رقم (٧٩٤٢) .

(*) كذا الأصل بصيغة المبني للمجهول وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » : في الطبراني « إن السماء تمطر . . . » .

(٢٨٦) رواه الحاكم في « المستدرك » ٤/٥٩٨ ـ ٦٠٠ في إسناده انقطاع ، ورواه الهيثمي في =

فالنشأتان نوعان تحت جنس ، يتفقان ويتماثَلان من وجه ، ويفترقان ويتنوعان من وجه ، والمعاد هو الأولُ بعينه ، وإن كان بينَ لوازمِ الإعادة ولوازمِ البداءة فرق ، فعجبُ الذنب هو الذي يبقى ، وأما سائرُه فيستحيل ، فيُعاد من المادة التي استحال إليها ، ومعلوم أن من رأى شخصاً وهو صغير ، ثم رآه وقد صار شيخاً ، علم أن هذا هو ذاك ، مع أنه دائماً في تحلل واستحالة ، وكذلك سائرُ الحيوان والنبات ، فمن رأى شجرة وهي صغيرة ، ثم رآها كبيرة ، قال: هذه تلك. وليست [صفةُ](*) تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة ، حتى يقال : إن الصفات هي المغيّرة ، لاسيما أهل الجنة إذا دخلوها ، فإنهم يدخلونها على صورة آدم ، طولُه ستون ذراعاً ، كما ثبت في « الصحيحين »(٢٨٧) ، وغيرهما ، وروي : أن عرضه سبعة أذرع ، وتلك نشأةٌ باقيةٌ غيرُ معرّضة للآفات ، وهذه النشأة فاسدة معرضة للآفات .

وقوله: وجزاء الأعمال ـ قال تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٣] . ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ المُبِينُ ﴾ [النور : ٢٥] .[والدِّين : الجزاء . يقال : كما تَدين تُدان ، أي كما تُجازِي تُجازَى](**)، وقال تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة :

= « مجمع الزوائد » ١٠ ـ ٣٢٩ ـ ٣٣٠ وقال : رواه الطبراني وهو موقوف مخالف للحديث الصحيح ، ثم أبان عن وجه المخالفة . فراجعه .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(٢٨٧) رواه البخاري ١١/٢ ـ ٣ في الاستئذان : باب بدء السلام ، وفي الأنبياء : باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ، ومسلم رقم (٢٨٤١) في الجنة : باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه : « خلق الله آدم عليه السلام ، وطوله ستون ذراعاً ؛ ثم قال : إذهب فسلم على أولئك ـ نفر من الملائكة ـ فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه : ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، قال : « فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن » .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

١٧] و[الأحقاف : ١٤] و[الواقعة : ٢٤] ﴿ جَزَاءً وِفَاقاً ﴾ [النبأ : ٢٦] ﴿ مَنْ جَاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ عشْرُ أمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجزَى إلا مِثْلَها وَهُم لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] . ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ منها وَهُم مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَكُبَّت وُجُوهُهُم في النَّارِ هَلْ تُجْزَونَ إلَّا ما كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٩ - ٩٠] . ﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ منها وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إلَّا ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٨٤] . وأمثال ذلك .

وقال ﷺ ، فيما يروي عن ربه عز وجل ، من حديث أبي ذرٍّ الغِفَاري رضي الله عنه : « يا عِبادي ، إنَّما هي أَعْمَالُكُم أُحْصِيها لَكُم ، ثُمَّ أُوَفِّيكم إيَّاها ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْراً فَلْيَحْمَدِ الله ، وَمَنْ وَجَد غَيْرَ ذَلِكَ ، فَلاَ يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ »(*) . وسيأتي لذلك زيادةُ بيانٍ عن قريب ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب ، قال تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ * وانشَقَّتِ السَّماءُ فهي يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * والمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُم يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُم خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٥ - ١٨] ، إلى آخر السورة . ﴿ يا أَيُّهَا الإنسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسوفَ يُحَاسَبُ حِسَابَا يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إلى أهْلِهِ مَسْرُوراً وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً وَيَصْلَى سَعِيراً * إنَّهُ كَانَ في أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ * بَلَى إنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴾ [الانشقاق : ٦ - ١٥] ﴿ وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الكهف:٤٨]. ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

(*) تقدم تخريجه ص ٧٣ رقم ٢٢ .

وَيقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٤٩] ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لله الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ، إلى آخر السورة . ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو العَرْشِ يُلقي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبادِهِ ﴾ [غافر : ١٥] إلى قوله : ﴿ إِنَّ الله سرِيعُ الحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٧] ﴿ واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُم لا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨١] .

وروى البخاري رحمه الله في « صحيحه » ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن النَّبيَّ ﷺ قالَ : « لَيسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا هَلَكَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ! أَلَيْسَ قَدْ قالَ الله تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتي كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسيراً ﴾ [الانشقاق : ٧ ـ ٨] فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّما ذٰلِكَ العرض ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُنَاقشُ الحِسَابَ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَّا عُذِّبَ »(٢٨٨) . يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده ، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح ، وسيأتي لذلك زيادة بيان ، إن شاء الله تعالى .

٨١/ب وفي « الصحيح » عن النَّبيِّ ﷺ، أنه قال/: « إِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكونُ أَوَّلَ مَنْ يُفيقُ ، فإذا مُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةِ العَرْشِ ، فلا أَدْري أَفَاقَ قَبْلي ، أَمْ جوزِيَ بصَعْقَةِ يَوْمَ الطُّورِ ؟ »(*) وهذا صعق في موقف

---

(٢٨٨) رواه البخاري ١٧٦/١ في العلم : باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه ، و ٤٧/١١ ـ ٤٨ في الرقاق : باب من نوقش الحساب عذب ، ومسلم رقم (٢٨٧٦) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب إثبات الحساب ، وأبو داود رقم (٣٠٩٣) في الجنائز : باب عيادة النساء ، وأحمد في « المسند » ٤٧/٦ و ٩١ و ١٠٨ و ١٢٧ ، والترمذي رقم (٢٤٢٨) في صفة القيامة : باب من نوقش الحساب عذب ، ورقم (٣٣٣٤) في تفسير القرآن : باب ومن سورة ﴿إذا السماء انشقت﴾ .

(*) تقدم تخريجه ص ١٢٥ رقم ٥٧ .

القيامة ، إذا جاء الله لفصل القضاء ، وأشرقت الأرض بنوره ، فحينئذ يُصعَقُ الخلائقُ كلهم .

فإن قيل : كيف تصنعون بقوله في الحديث : « إنَّ النَّاس يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ ، فَأَجِدُ مُوسَى باطِشَاً بِقَائِمَةِ العَرْشِ »(*) ؟

قيل : لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا ، ومنه نشأ الإشكال ، ولكنه دخل فيه على الراوي حديثٌ في حديث ، فركَّب بين اللفظين ، فجاء هذا ، والحديثان هكذا :

أحدهما : « أَنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُفيقُ » ، كما تقدم .

والثاني : « أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ القِيَامَةِ »(**) ، فدخل على الراوي هذا الحديث في الآخر . وممن نبه على هذا أبو الحجاج المِزّي(***) ، وبعدَه الشيخ شمس الدين بن القيم ، وشيخُنا الشيخ عماد الدين ابنُ كثير ، رحمهم الله .

وكذلك اشتبه على بعض الرواة ، فقال : « فَلَا أَدْري أَفَاقَ قَبْلي أَمْ

(*) تقدم تخريجه ص ١٢٦ رقم ٥٩ .

(**) تقدم تخريجه ص ١٢٥ رقم ٥٧ .

(***) هو أبو الحجاج ، جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك بن يوسف بن علي بن أبي الزهر القضاعي ، الدمشقي المزي ، محدث حافظ ، ولد بظاهر حلب سنة ٦٥٤ هـ ، ونشأ بالمزة سمع منه الكبار والحفاظ . قال ابن ناصر الدين : قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي : أحفظ من رأيت أربعة : ابن دقيق العيد ، والدمياطي ، وابن تيمية ، والمزي ، فابن دقيق العيد أفقهم في الحديث ، والدمياطي أعرفهم بالأنساب ، وابن تيمية أحفظهم للمتون ، والمزي أعرفهم بالرجال . توفي بدمشق سنة ٧٤٢ هـ ودفن بمقابر الصوفية غربي قبر صاحبه ابن تيمية . من تصانيفه « تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف » و « تهذيب الكمال في معرفة أسماء الرجال » و « معجم لشيوخه » وغيرها .

كَانَ مِمَّنِ استثنى الله عَزَّ وَجَلَّ(*) ؟ والمحفوظ الذي تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول ، وعليه المعنى الصحيح ، فإن الصعق يوم القيامة لتجلي الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء ، فموسى عليه السلام إن كان لم يُصعق معهم ، فيكون قد جُوزي بصعقة يومَ تجلى ربه للجبل فجعله دكًّا ، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً عن صعقة الخلائق لتجلي ربه يوم القيامة . فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله .

وروى الإمامُ أحمد ، والترمذي ، وأبو بكر بن أبي الدُّنيا ، عن الحسن ، قال : سمعت أبا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ رضي الله عنه يقولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « يُعْرَضُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ ثَلاثَ عَرَضَاتٍ ، فَعَرْضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ ، وَعَرْضَةُ تَطَايرِ الصُّحُفِ ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ، وَحُوسِبَ حِسَاباً يَسِيراً ، دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ، دَخَلَ النَّارَ »(٢٨٩) .

وقد روى ابن أبي الدنيا [عن ابن المبارك] :(**) أنه أنشد في ذلك شعراً فقال :

وَطَارَتِ الصُّحْفُ في الأَيْدِي مُنَشَّرَةً ... فيهـا السَّـرَائِـرُ والأَخْبَـارُ تُـطَّلَعُ
فَكَيْفَ سَهْـوُكَ والأَنْبَـاءُ واقِعَـةٌ ... عَمَّـا قَلِيـلٍ ولا تَـدْرِي بِمَـا تَقَـعُ

(*) والمراد بقوله : « ممن استثنى الله » ، أي : لا تصيبه النفخة ، كما صرحت به رواية ابن أبي الدنيا في كتاب « البعث » عن الحسن مرسلاً ، كما في « الفتح » ٥٢/٥ .

(٢٨٩) رواه أحمد في « المسند » ٤١٤/٤ ، والترمذي رقم (٢٤٢٧) في صفة الجنة ونعيمها : باب ما جاء في العرض ، وابن ماجه رقم (٤٢٧٧) في الزهد : باب ذكر البعث ، وإسناده ضعيف ، فإن الحسن البصري لم يسمع من أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

قال الحافظ في «الفتح» بعد نقل كلام الترمذي : أخرجه البيهقي في «البعث» بسند حسن ، عن عبد الله بن مسعود موقوفاً .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

أفي الجِنَـانِ وَفَـوزٍ لا انقـطاعَ لَـهُ أَمِ الجَحِيمِ ، فَـلاَ تُبْقِي وَلاَ تَدَعُ
تَهـوي بِسَـاكِنِهـا طَـوْراً وَتَـرْفَعُهُم إذا رَجَوْا مَخْرَجاً مِنْ غَمِّهَا قُمِعُـوا
طَـالَ الكلام فَلَمْ يُـرْحَمْ تَضَرُّعُهُم فيهـا ، ولا رِقَّةٌ تُغْنِي وَلاَ جَــزَعُ
لِيَنْفَـعَ العِلْمُ قَبْلَ المَـوْتِ عالِمَـهُ قَدْ سَالَ قَوْمٌ بها الرُّجعى فَمَا رَجَعُوا

قوله : والصراط ، أي : ونؤمن بالصراط ، وهو جسر على جهنم ، إذا انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : إنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ : أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسَّماوَاتُ ؟ فَقَالَ : « هُم في الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ »[٢٩٠] . وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم .

وروى البيهقي بسنده ، عن مسروق ، عن عبد الله ، قال : « يَجْمَعُ الله النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ » ، إلى أن قال : « فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم ، فَمِنْهُم مَنْ يُعطَى نُورَهُ مِثْلَ الجَبَلِ بَيْنَ يَدَيهِ ، وَمِنهُم مَنْ يُعْطى نُورَه فَوْقَ ذلِكَ ، وَمِنهُم مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْل النَّخلَةِ بيَمِينِهِ ، وَمِنهُم مَنْ يُعْطَى دُوْنَ ذلك بيمينه ، حَتَّى يَكُونَ آخِرَ ذلَكَ مِنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إبهامِ قَدَمِهِ ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيُطفَأُ مَرَّةً ، فإذا أَضاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ ، وإذا طُفِئَ قَامَ ، قال: وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ ، والصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيفِ ، دَحْض مزَلة ، فَيُقَالُ لَهُم : امضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُم ، فَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كانقِضَاضِ الكَوْكَبِ، وَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كـالرِّيـحِ وَمِنهُم مَنْ يَمُـرُّ كـالـطَّرفِ ، وَمِنهُم مَنْ يَمُـرُّ كَشَـدِّ الـرَّحـلِ ، يَرْمُل رَمَلاً ، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم ، حَتَّى يمُرَّ الذي نُورُهُ عَلَى إبهامِ

(٢٩٠) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (٣١٥) في الحيض : باب بيان صفة مني الرجل والمرأة ، وأن الولد مخلوق من مائهما .

قَدَمِهِ ، تخِرُّ يَدٌ ، وَتَعْلقُ يَدٌ ، وَتَخِرُّ رِجْلٌ ، وَتَعْلقُ رِجْلٌ ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ ، قَالَ : فَيَخْلُصُونَ ، فإذا خَلُصُوا قَالُوا : الحَمْدُ اللهِ الذي نَجَّانا مِنْكِ بَعْدَ الَّذِي أَرَانَاكِ ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللهُ مَا لَمْ يُعْطِ أحداً » . . . الحديث[291] .

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى : ﴿ وإِنْ مِنْكُم إِلاَّ وَارِدُها ﴾ [مريم : ٧١] ، ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنجِّي الذينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فيها جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] .

وفي « الصحيح »[292] أنه ﷺ قال : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لاَ يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَة » ، قَالَتْ حَفْصَةُ: فَقُلتُ : يا رَسُولَ الله ! أَلَيْسَ الله يقُولُ : ﴿ وإِنْ مِنْكُم إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] ، فَقَالَ/: « أَلَمْ تَسْمَعِيهِ قَالَ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فيها جِثِيًّا ﴾ [مريم : ٧٢] . ٨٢/أ

أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزمُ دخولَها ، وأن النجاة من الشر لا يستلزِمُ حصوله ، بل يستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه عدوُّه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه ، يقال : نجاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَمَا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً ﴾ [هود : ٥٨] ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّينا صَالِحَاً ﴾ [هود : ٦٦] ﴿ وَلَمَا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً ﴾ [هود : ٩٤] . ولم يكن العذاب أصابهم ،

---

(٢٩١) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٣٧٦ ـ ٣٧٧ ، قال : صحيح على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

ورواه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠/٣٤٠ ـ ٣٤٣ ، وقال : رواه الطبراني من طرق ، ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة .

(٢٩٢) رواه مسلم رقم (٢٤٩٦) في فضائل الصحابة : باب فضائل أصحاب الشجرة ، ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد من حديث جابر رضي الله عنه . انظر « جامع الأصول » رقم (٧١٧) و(٦٧٣٩) .

ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك .

وكذلك حال الواردين النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم يُنجي الله الذين اتقوا ، ويذَرُ الظالمين فيها جثيّاً ، فقد بَيَّنَ ﷺ في حديث جابر المذكور : أن الورود هو الورود على الصراط .

وروى الحافظ أبو نصر الوائلي(*) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ: « عَلِّم النَّاس سُنَّتي وإنْ كَرِهوا ذٰلِكَ ، وإنْ أَحْبَبْتَ أَنْ لا تُوقَفْ عَلَىٰ الصَّراطِ طَرْفَةَ عَينٍ حَتَّى تَدْخُلَ الجَنَّةَ ، فَلاَ تُحدِثن في دينِ الله حَدَثاً بِرَأْيِكَ » أورده القرطبي(٢٩٣) .

وروى أبو بكر أحمد بن سليمان النجاد ، عن يعلى بن أمية ، عن رسولِ الله ﷺ، قال : « تَقُولُ النَّارُ لِلمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ : جُزْ يا مُؤْمِنُ ، فَقَدْ أَطْفَأَ نورُكَ لَهَبي »(٢٩٤) .

وقوله : والميزان ، أي : ونؤمن بالميزان ، قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بها وَكَفَى بنا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٧] . وقال تعالى :﴿فَمَنْ

(*) هو الحافظ الإمام عبيد الله بن سعيد بن حاتم بن أحمد الوائلي البكري نزيل الحرم ومصر ، صاحب « الإبانة الكبرى » في مسألة خلق القرآن ، وهو كتاب طويل في معناه دال على إمامة الرجل وبصره بالرجال والطرق ، كما قال الحافظ الذهبي في « تذكرة الحفاظ » وانظر بقية ترجمته فيه ٣ / ١١١٨ ـ ١١٢٠ .

(٢٩٣) ذكره ابن الجوزي في « الموضوعات » ، ورواه أبو نعيم في « الحلية » وفي اسناده محمد بن عبد الرحيم بن شبيب وهو مجهول، ورواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد » ٤ / ٣٨٠ وفي اسناده أبو همام القرشي قال عنه يحيى : كذاب ، وقال أبو حاتم : ذاهب الحديث . فالحديث موضوع .

(٢٩٤) قال الهيثمي في « المجمع » ١٠/ ٢٦٠ : رواه الطبراني ، وفيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف . رواه أبو نعيم في « الحلية » ٩/ ٣٢٩ باسناد منقطع .

ثَقُلَت مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّت مَوَازِينُهُ فَأُولٰئِكَ الذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم في جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٢ - ١٠٣] .

قال القرطبي : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغي أن يكونَ بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال ، والوزن لإظهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها ، قال : وقوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ ﴾ . يحتمِلُ أن يكون ثَمَّ موازين متعددة تُوزن فيها الأعمال ، ويحتمِلُ أن يكون المرادُ الموزونات ، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة ، والله أعلم .

والذي دلت عليه السنة : أن ميزانَ الأعمال له كِفتان حِسيتان مشاهدتان ، روى الإمام أحمد ، من حديث أبي عبد الرحمن الحُبلي ، قال سمعت عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إنَّ الله سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ سِجِلاً ، كِلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البَصرِ ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هٰذَا شَيْئاً ؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ ؟ قَالَ : لا ، يا رَبِّ ، فَيَقُولُ : أَلَكَ عُذْرٌ أو حَسَنَةٌ ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ ، فَيَقُولُ : لا يا رَبِّ ، فَيَقُولُ : بَلَى ، إنَّ لَكَ عِنْدَنا حَسَنَةً وَاحِدَةً ، لا ظُلْمَ اليَوْمَ عَلَيْكَ ، فتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فيها : أَشهَدُ أَنْ لا إِلٰهَ إلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ الله ، فَيَقُولُ : أَحْضِرُوهُ ، فَيَقُولُ : يا رَبِّ ! مَا هٰذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هٰذِهِ السِّجِلَّاتِ ؟ فَيُقَالُ : إنَّكَ لا تُظْلَمُ ، قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ في كَفَّةٍ ، والبِطَاقَةُ في كَفَّةٍ ، قال : فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ ، وَثَقُلَت البِطَاقَةُ ،ولا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيمِ »(*) . وهكذا روى الترمذي ، وابن ماجه ، وابن أبي الدنيا ، من حديث الليث ، زاد

(*) تقدم تخريجه ص ٧٤ رقم ٢٦ .

الترمذي : « ولا يَثْقُلُ شَيْءٌ اسْمَ الله » .

وفي سياق آخر : « تُوضَعُ المَوَازِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُؤْتَى بالرَّجُلِ فَيُوضَعُ في كِفَّةٍ »(*) ، الحديث .

وفي هذا السياق فائدة جليلة ، وهي أن العامل يُوزن مع عمله ، ويشهد له ما روى البخاري(٢٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال : « إنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ ، لَا يَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ، وقال : اقرَؤُوا إِنْ شِئْتُم : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُم يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنَاً ﴾ »[الكهف : ١٠٥] .

وروى الإمام أحمد(٢٩٦) ،عن ابن مسعود: « أَنَّهُ كَانَ يجتني سِوَاكاً مِنَ الأَرَاكِ وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَينِ ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ ، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مِمَّ تَضْحَكُونَ » ؟ قَالُوا : يا نَبِيَّ الله ! مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ ، فَقَالَ : « والذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَهُما أَثْقَلُ في المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ » .

وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال أنفسها ، كما في « صحيح مسلم » عن أبي مالك الأشعري ، قال : قال رسولُ الله ﷺ: « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ ، والحَمْد لله تَمْلأُ المِيزَانَ » . الحديث(٢٩٧) .

(*) رواه بهذا اللفظ أحمد ٢٢١/٢ ، ٢٢٢ ، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٢٩٥) رواه البخاري ٣٢٤/٨ في تفسير سورة الكهف ، ومسلم رقم (٢٧٨٥) في صفات المنافقين : باب صفة القيامة والجنة والنار .

(٢٩٦) في « المسند » ٤٢٠/١ و٤٢١ وإسناده حسن ، ورواه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٢٨٩/٩ ، وزاد نسبته لأبي يعلى والبزار والطبراني .

(٢٩٧) رواه مسلم رقم (٢٢٣) في الطهارة : باب فضل الوضوء ، والترمذي رقم (٣٥١٢) في الدعوات : باب رقم ٩١ ، والنسائي ٥/٥ ـ ٦ في الزكاة : باب وجوب الزكاة ، وأحمد في « المسند » ٣٤٢/٥ و٣٤٣ و٣٤٤ ، والدارمي رقم (٦٥٩) في الوضوء : باب ما جاء في الطهور .

وفي « الصحيحين » ، وهو خاتمة كتاب البخاري ، قوله ﷺ: « كلمَتَانِ خَفيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، حَبيبَتَانِ إلى الرَّحمٰنِ ، ثَقيلَتَانِ في المِيزَانِ : سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ الله العَظِيمِ »(٢٩٨) .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ، قال : « يُؤتى بابنِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ ، فَيُوقَفُ بَيْنَ كِفَّتي المِيزَانِ ، ويُوكَّلُ بِهِ مَلَكٌ فإنْ ثَقُل مِيزَانُهُ ، نَادَى المَلَكُ بِصَوْتٍ يُسمِعُ الخَلائِقَ : سَعِدَ فُلانٌ سَعَادَةً لا يَشْقَى بَعْدَهَا أَبَداً ، وإنْ خَفَّ مِيزَانُهُ ، نادى المَلَكُ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ الخَلاَئِقَ : شَقِيَ فُلانٌ شَقَاوَةً لا يَسْعَدُ بَعْدَها أَبَدَاً »(٢٩٩) . ٨٢/ب

فلا يُلتفت إلى ملحد معاند يقول : الأعمال أعراضٌ لا تقبل الوزنَ ، وإنما يقبل الوزن الأجسام !! فإن الله يقلب الأعراض أجساماً ، كما تقدم .

وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال : « يُؤتى بالمَوْتِ كَبْشاً أَغْبَرَ(*) فيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ ، فَيُقَالُ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، وَيُقَالُ : يا أَهْلَ النَّارِ ! فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ ، وَيرونَ أَنْ قَدْ جَاءَ الفَرَجُ ، فَيُذبَحُ ، وَيقَالُ : خُلُودٌ لا

---

(٢٩٨) رواه البخاري ١١/١٧٥ في الدعوات : باب فضل التسبيح ، و١١/٤٩٣ في الإيمان والنذور: باب إذا قال : والله لا أتكلم اليوم فصلى أو قرأ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى: ﴿ ونضع الموازين القسط ﴾ ، ومسلم رقم (٢٦٩٤) في الذكر والدعاء : باب فضل التهليل والتسبيح ، والترمذي رقم (٣٤٦٣) في الدعوات : باب رقم ٦١ ، وابن ماجه رقم (٣٨٠٦) في الأدب : باب فضل التسبيح ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٣٢ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢٩٩) رواه أبو نعيم في « حلية الأولياء » ٦/١٧٤ وقال : تفرد به داود بن المحبر. وهو متروك متهم بالوضع .

(*) هكذا الأصل و « سنن الدارمي » وفي « الصحيحين» أغر ، وفي « المسند» أعثر .

مَوْتَ »[٣٠٠] ورواه البخاري بمعناه[*] .

فثبت وزنُ الأعمال والعاملِ وصحائف الأعمال ، وثبت أن الميزان له كِفتان . والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات .

فعلينا الإيمان بالغيب ، كما أخبرنا الصادق ﷺ، من غير زيادة ولا نقصان .

ويا خيبة من ينفي وضعَ الموازين القسط ليوم القيامة كما أَخبر الشارع ، لخفاء الحكمة عليه ، ويقدح في النصوص بقوله : لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوَّال !! وما أحرَاهُ بأن يكون من الذين لا يقيمُ الله لهم يوم القيامة وزناً ، ولو لم يكن من الحِكمة في وزن الأعمال إلا ظهورُ عدله سبحانه لجميع عباده ، فلا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ، فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه . فتأمل قول الملائكة لما قال الله لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَليلاً ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله ، أن الحوض قبل الميزان ، والصراط بعد الميزان .

ففي « الصحيحين » : « أنَّ المؤمِنِينَ إذَا عَبَرُوا الصِّراطَ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، فإِذَا هُذِّبُوا ونُقُّوا ،

---

(٣٠٠) رواه أحمد في « المسند » ٢/٤٢٣ ، والدارمي رقم (٢٨١٤) في الرقاق : باب في ذبح الموت ، وإسناده صحيح .

(*) تقدم تخرجه ص ٧٣ رقم ٢٣ .

أُذِنَ لَهُم في دخُولِ الجَنَّةِ »[٣٠١] . وجعل القرطبي في « التذكرة » هٰذه القنطرة صراطاً ثانياً للمؤمنين خاصة ، وليس يسقط منه أحدٌ في النار . والله تعالى أعلم .

* * *

قوله : والجَنَّةُ والنَّارُ مَخْلُوقَتَانِ ، لَا تَفْنَيَانِ أَبَدَاً وَلَا تَبِيدَانِ ، فَإِنَّ الله تَعَالَى خَلَقَ الجَنَّةَ وَالنَّارَ قَبْلَ الخَلْقِ ، وَخَلَقَ لَهُما أَهْلاً ، فَمَنْ شَاءَ مِنْهُمْ إلَى الجَنَّةِ فَضْلاً مِنْهُ ، وَمَنْ شَاءَ مِنْهُم إلى النَّارِ عَدْلاً مِنْهُ ، وَكُلٌّ يَعْمَلُ لِمَا قَدْ فُرِغَ لَهُ ، وَصَائِرٌ إلى ما خُلِقَ لَهُ، والخَيْرُ والشَّرُّ مُقَدَّرَانِ عَلَى العِبَادِ .

أما قوله : إن الجنة والنار مخلوقتان ، فاتفق أهلُ السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يزل أهل السنة على ذٰلك ، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية ، فأنكرت ذلك ، وقالت : بل يُنشئهما الله يومَ القيامة !! وحملهم على ذلك أصلُهم الفاسد الذي وضعوا به شريعةً لما يفعله الله ، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ، ولا ينبغي له أن يفعل كذا !! وقاسوه على خلقه في أفعالهم ، فهم مشبهة في الأفعال ، ودخل التجهم فيهم فصاروا مع ذلك معطلة ! وقالوا : خلقُ الجنة قبل الجزاء عبثٌ ! لأنها تصير معطلةً مدداً متطاولة !! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى ، وحرَّفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا

---

(٣٠١) رواه البخاري ٥/ ٧٠ في المظالم : باب قصاص المظالم ، و١١/ ٣٤٦ في الرقاق : باب القصاص يوم القيامة ، وأحمد في « المسند » ٣/ ١٣ و٥٧ و٦٣ و٧٤ من حديث ابي سعيد الخدري رضي الله عنه . ولفظه : « يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ . . . . » . ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

وبدّعوا من خالف شريعتهم .

فمن نصوص الكتاب : قوله تعالى عن الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] . ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ ﴾ [الحديد : ٢١] . وعن النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣١] . ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * للطَّاغِينَ مَآباً ﴾ [النبأ : ٢١ ـ ٢٢] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى ﴾ [النجم : ١٣ ـ ١٥] .

وقد رأى النبي ﷺ سِدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى . كما في « الصحيحين » ، من حديث أنس رضي الله عنه ، في قصة الإسراء ، وفي آخره : « ثُمَّ انطَلَقَ بي جِبريلُ ، حتَّى أَتَى سِدْرَةَ المُنْتَهَى ، فَغَشيَها أَلْوَانٌ لا أَدْري ما هي ، قَالَ : ثُمَّ دَخَلْتُ الجَنَّةَ ، فإذا هي جَنابِذُ اللؤلؤِ ، وإذا تُرَابُهَا المِسْكُ »[*] .

وفي « الصحيحين »[٣٠٢] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّ أَحَدَكُم إِذا مَاتَ عُرِضَ عَلَيهِ مَقْعَدُهُ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ ، يُقالُ : هذا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » .

(*) تقدم تخريجه ص ٢١٨ رقم ٩٩ ، والجنابذ جمع جُنْبُذَة : ما ارتفع من الشيء واستدار كالقبة .

(٣٠٢) رواه البخاري ١٩٣/٣ في الجنائز : باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، وفي بدء الخلق : باب ما جاء في صفة الجنة ، وفي الرقاق : باب سكرات الموت ، ومسلم رقم (٢٨٦٦) في الجنة : باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النارعليه، و« الموطأ » ٢٣٩/١ في الجنائز : باب جامع الجنائز ، والترمذي رقم (١٠٧٢) في الجنائز : باب ما جاء في عذاب القبر ، والنسائي ١٠٧/٤ في الجنائز : باب وضع الجريدة على القبر ،وأحمد في « المسند » ١٦/٢ و٥١ و١١٣ و١٢٣ .

٨٣/أ وتقدم حديثُ البراء بن عازب رضي الله عنه ، /وفيه : « يُنادي مُنَادٍ مِنَ السَّماءِ : أَنْ صَدَقَ عَبْدِي ، فَأفرُشوهُ مِنَ الجَنَّةِ ، وافتَحُوا لَهُ باباً إلى الجَنَّةِ ، قَالَ : فَيأتيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا »(*) .

وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء(**) .

وفي «صحيح مسلم»(٣٠٣) ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : خَسَفَتِ الشَّمسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ - فذكرت الحديث، وفيه - وقالَ رَسُولُ الله ﷺ : «رَأيتُ في مَقَامي هذا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُم به ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتَنِي آخُذُ قِطْفاً مِنَ الجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُوني جَعَلْتُ أَقَدِّمُ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِم بَعْضُهَا بَعْضاً حِينَ رَأَيتُمُوني تَأَخَّرتُ » .

وفي «الصحيحين»(٣٠٤) ، واللفظ للبخاري ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : انخَسَفَتِ الشَّمسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فذكر الحديث، وفيه: «فَقَالُوا: يا رَسُولَ الله! رَأَينَاكَ تَنَاوَلتَ شَيْئاً في مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ ؟ فَقَالَ : «إنِّي رَأَيتُ الجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقوداً ، وَلَو أَصَبْتُهُ ، لأكلتُم مِنْهُ ما بَقِيَتِ الدُّنيا ، وَأُريتُ النَّارَ ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كاليَوْم قَطُّ أَفْظَعَ ، وَرَأيتُ أَكثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» ، قَالُوا : بِمَ ، يا رَسُولَ الله !؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ» ، قِيْلَ : يَكْفُرْنَ بالله ؟ قالَ : «يَكْفُرنَ العَشِيرَ ، ويكفُرنَ الإحسَانَ ، لو أَحْسَنت

(*) تقدم تخريجه ص ٤٥٢ رقم ٢٧٦ .

(**) تقدم تخرجه ص ٤٥٥ رقم (٢٧٧) .

(٣٠٣) رقم (٩٠١) (٣) في الكسوف : باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف . ورواه أيضاً البخاري ٣/٦٦ - ٦٧ في العمل في الصلاة : باب إذا انفلتت الدابة في الصلاة . وانظر « جامع الأصول » رقم (٤٢٦٩) .

(٣٠٤) رواه البخاري ١/٤٤٠ في الصلاة : باب إذا صلى وقدامه تنوراً وناراً وشيء مما يعبد ، وفي أبواب عدة ، ومسلم رقم (٩٠٧) في الكسوف : باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار .

انظر « جامع الأصول » رقم (٤٢٧٤) .

إلى إحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّه ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً ، قَالَتْ : ما رَأَيتُ منك خَيْرَاً قَطُّ !!».

وفي «صحيح مسلم»[٣٠٥] من حديث أنس : «وايمُ الذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْ رَأَيْتُم ما رَأَيْتُ ، لَضَحِكتُمْ قليلاً وَبَكَيتُم كثيراً » . قَالُوا: وما رَأيتَ يا رسولَ الله ؟ قال : « رَأَيتُ الجَنَّةَ والنَّارِ » .

وفي «الموطأ» و«السنن»[*] ، من حديث كعب بن مالك ، قال : قالَ رسولُ الله ﷺ : «إنَّما نَسَمَةُ المُؤْمِنِ طَيْرٌ تَعْلَقُ في شَجَرِ الجَنَّةِ ، حتَّى يُرجِعَهَا الله إلى جَسَدِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» .

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة .

وفي «صحيح مسلم» و«السنن» و«المسند»[٣٠٦] ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رَسول الله ﷺ قال : «لمَّا خَلَقَ الله الجَنَّةَ والنَّارَ ، أرسَلَ جبريلَ إلى الجنَّةِ ، فَقَالَ : اذهبْ فانظُر إليها وإلى ما أَعْدَدْتُ لأهْلِها فيها ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إليها وإلى ما أعَدَّ الله لأَهْلِهَا فيها ، فَرَجَعَ فقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لاَ يَسمَعُ بها أَحَدٌ إلاَّ دَخلَها ، فَأَمَرَ بالجَنَّةِ ، فَحُفَّتْ بِالمَكَارِهِ ، فقالَ : ارجعْ فانظُرْ إليها وإلى ما أَعددتُ لأَهْلِهَا فيها ، قالَ : فَنَظَرَ إليها ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لَقَد خَشِيتُ أَنْ لا يَدْخُلَها أَحَدٌ ، قالَ : ثُمَّ أَرسَلَهُ إلى النَّار ، قالَ :

---

(٣٠٥) رقم (٤٢٦) في الصلاة : باب تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود ونحوهما ، والنسائي ٨٣/٣ في السهو : باب النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف من الصلاة .

(*) تقدم تخريجه ص ٤٤٧ رقم ٢٧٣ .

(٣٠٦) رواه أحمد في « المسند » ٣٣٢/٢ - ٣٣٣ و٣٥٤ و٣٧٣ ، وأبو داود رقم (٤٧٤٤) في السنة : باب في خلق الجنة والنار ، والترمذي رقم (٢٥٦٣) في صفة الجنة والنار : باب ما جاء حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات ، والنسائي ٣/٧ في الأيمان والنذور : باب الحلف بعزة الله تعالى ، ورواه أيضاً ابن حبان والحاكم ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .

ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

اذهَبْ فانظُرْ إليها وإلى ما أَعددتُ لأَهْلِهَا فيها ، قالَ : فَنَظَرَ إليها ، فإذا هي تَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضاً ، ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لا يَدخُلُها أَحَدٌ سَمِعَ بها ، فَأَمَرَ بها ، فَحُفَّتْ بالشَّهَوَاتِ ، ثُمَّ قَالَ : اذهَبْ فانظُر إلى ما أَعددتُ لأَهْلِها فيها ، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إليها ، فَرَجَعَ فقَالَ : وَعِزَّتِكَ ، لَقَد خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ منها أَحَدٌ إلَّا دَخَلَها» .

ونظائر ذلك في السنة كثيرة .

وأما على قول من قال : إن الجنةَ الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها ، فالقولُ بوجودها الآن ظاهر ، والخلاف في ذلك معروف .

وأما شُبهةُ مَنْ قال : إنها لم تخلق بعد ، وهي : أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطِراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت ، لقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] . و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، وقد روى الترمذي في «جامعه»(٣٠٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : «لقيتُ إبراهيمَ ليلةَ أُسْرِيَ بي ، فقالَ : يا مُحمَّد ! أَقْرِىء أُمَّتَكَ مني السَّلامَ ، وَأَخبِرْهُم أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّربَةِ ، عَذْبَةُ المَاءِ ، وَأَنَّها قِيْعَانٌ ، وَأَنَّ غِرَاسَها سُبْحَانَ الله ، والحَمْدُ لله ، ولا إله إلَّا الله ، والله أَكبَرُ» ، قال : هذا حديث حسن غريب .

وفيه(٣٠٨) أيضاً من حديث أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ ، أنه

---

(٣٠٧) رقم (٣٤٥٨) في الدعوات : باب رقم ٦٠ وفي سنده عبد الرحمن بن اسحاق بن الحارث الواسطي ، وهو ضعيف ، وقال الترمذي : وفي الباب عن أبي أيوب . وهو حديث حسن بشواهده .

(٣٠٨) رقم (٣٤٦٠) و(٣٤٦١) في الدعوات : باب رقم ٦١ ، وابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٣٣٥) « موارد » ، وهو حديث صحيح ، وقال المنذري في « الترغيب والترهيب » ٤٢٢/٢ : رواه البزار باسناد جيد .

قال : «مَنْ قال سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ في الجَنَّةِ » ، قال : هذا حديث حسن صحيح .

قالوا : فلو كانت مخلوقةً مفروغاً منها لم تكن قِيعاناً ، ولم يكن لهذا الغِراس معنى .

قالوا : وكذا قولُه تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت : ﴿رَبِّ ابْنِ لي عِنْدَكَ بَيْتَاً في الجَنَّةِ﴾ [التحريم : ١١] .

فالجواب : إنكم إن أردتم بقولكم : إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور ، فهذا باطل ، يردُّه ما تقدَّم من الأدلة وأمثالها مما لم يُذكر ، وإن أردتم أنها لم يتكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها ، وأنها لا يزال الله يُحدث فيها شيئاً بعد شيء ، وإذا دخلها المؤمنون ، أحدث الله فيها عند دخولهم أموراً أخر فهذا حق لا يُمكن رده ، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر .

وأما احتجاجُكم بقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص : ٨٨] فأُتِيتُم من سوء فهمكم معنى الآية ، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظيرُ احتجاج إخوانكم بها على فنائِهما وخرابهما وموتِ أهلهما !! فلم تُوفَّقوا أنتم ولا إخوانُكم لفهم معنى/الآية ، وإنما وُفِّقَ لذلك أئمةُ الإسلام . ٨٣/ب

فمن كلامهم : أن المراد كل شيء مما كُتِبَ عليه الفناء والهلاك هالك ، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء .

وكذلك العرشُ ، فإنه سقف الجنة ، وقيل : المراد إلا ملكه ، وقيل : إلا ما أريد به وجهُه ،

وقيل : إنَّ الله تعالى أنزل : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيها فَانٍ﴾ [الرحمن ٢٦] ،

فقالت الملائكة : هلك أهلُ الأرض ، وَطَمِعُوا في البقاء ، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون ، فقال : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، لأنه حي لا يموت ، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت ، وإنما قالوا ذلك توفيقاً بينها وبين النصوص المحكمة ، الدالة على بقاء الجنة ، وعلى بقاء النار أيضاً ، على ما يُذكر عن قريب ، إن شاء الله تعالى .

وقوله : لا تفنيان أبداً ولا تبيدان ـ هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف .

وقال ببقاء الجنة وبفناء النار جماعة من السلف والخلف ، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها .

وقال بفناء الجنة والنار جهم بن صفوان إمام المعطلة ، وليس له سلف قط ، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، ولا من أهل السنة ، وأنكره عليه عامة أهل السنة ، وكفَّروه به ، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض ، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده ، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث ! وهو عمدةُ أهل الكلام المذموم ، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام ، وحدوث ما لم يَخْلُ من الحوادث ، وجعلوا ذلك عمدتَهم في حدوث العالم ، فرأى جهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي يمنعُه في المستقبل !! فدوامُ الفعل عنده على الرب في المستقبل ، ممتنع كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي !!

وأبو الهُذيل العلّاف شيخ المعتزلة وافقه على هذا الأصل ، لكن قال : إن هذا يقتضي فناءَ الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار ، حتى يصيروا في سكون دائم ، لا يقدر أحد منهم على حركة !! وقد تقدم الإشارةُ إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل ، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى ، وهو لم يزل ربّاً قادراً فعالاً لما يُريد ، فإنه لم يزل

حيًّاً عليماً قديراً . ومن المحال أن يكونَ الفعل ممتنعاً عليه لذاته ، ثم ينقلِبُ فيصير ممكناً لذاته ، من غير تجدد شيء ، وليس للأول حد محدود حتى يصيرَ الفعلُ ممكناً له عند ذلك الحد ، ويكون قبله ممتنعاً عليه ، فهذا القول تصوره كافٍ في الجزم بفساده .

فأما أبدية الجنة ، وأنها لا تفنى ولا تبيد ، فهذا مما يُعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا الذينَ سُعِدُوا ففي الجَنَّةِ خَالِدينَ فيها ما دَامَتِ السَّمٰواتُ والأَرْضُ إلَّا ما شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود : ١٠٨] ، أي غير مقطوع ، ولا تنافي بين ذلك وبين قوله : ﴿إلَّا ما شَاءَ رَبُّكَ﴾ .

واختلف السلف في هذا الاستثناء : فقيل : معناه إلا مدة مكثهم في النار ، وهذا يكونُ لمن دخل منهم إلى النار ثم أُخْرِجَ منها ، لا لكلهم .

وقيل : إلا مدة مقامهم في الموقف .

وقيل : إلا مدة مقامهم في القبور والموقف .

وقيل : هو استثناء استثناه الرب ولا يفعله ، كما تقول : والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك ، وأنت لا تراه ، بل تجزم بضربه .

وقيل : « إلا » بمعنى الواو ، وهذا على قول بعض النحاة ، وهو ضعيف ، وسيبويه يجعل إلا بمعنى لكن ، فيكون الاستثناء منقطعاً ، ورجحه ابن جرير ، وقال : إن الله تعالى لا خلف لوعده ، وقد وصل الاستثناء بقوله : ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾ ، قالوا : ونظيره أن تقول : أسكنتك داري حولاً إلا ما شئتُ ، أي سوى ما شئت ، ولكن ما شئت من الزيادة عليه .

وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله ، لا أنهم يخرجون عن مشيئته ، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بالذي أَوْحَيْنَا إليكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَينَا

وكيلاً﴾ [الإسراء : ٨٦] ، وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ يَشَأ الله يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشورى : ٢٤] ، وقوله : ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ الله مَا تَلَوتُهُ عَلَيْكُم وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ﴾ [يونس : ١٦] . ونظائرُه كثيرة ، يُخبر عباده سبحانه أن الأمورَ كُلَّها بمشيئته ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقيل : إن «ما» بمعنى «من» أي : إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء .

٨٤/أ وقيل غير ذلك وعلى كل تقدير ، فهذه الاستثناء من المتشابه ،/وقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ، محكم ، وكذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ هـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [ص : ٥٤] . وقوله : ﴿أُكُلُها دَائِمٌ وَظِلُّها﴾ [الرعد : ٣٥] . وقوله : ﴿وَمَا هُم منها بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر : ٤٨] .

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن ، وأخبر أنهم : ﴿ لا يَذُوقُونَ فيها المَوْتَ إلاَّ المَوْتَةَ الأُولَىٰ ﴾ [الدخان : ٥٦] ، وهذا الاستثناء منقطع ، وإذا ضممته إلى الاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ تبين أنَّ المراد من الآيتين واستثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود ، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت ، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية ، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها .

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة : كقوله ﷺ : «مَنْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ يَنْعَمُ وَلاَ يَبْأَسُ ، وَيَخْلُدُ وَلاَ يَمُوتُ»(٣٠٩) . وقوله : «يُنادي

---

(٣٠٩) رواه مسلم رقم (٢٨٣٦) في الجنة وصفة نعيمها : باب في دوام نعيم أهل الجنة ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٠٥ و٣١٩ و٣٧٠ و٤٠٧و٤١٦ و٤٤٥ و٤٦٢ ، والدارمي رقم (٢٨٢٢) في الرقاق : باب من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

انظر « جامع الأصول » رقم (٨٠٢٨) و(٨٠٨٥) و(٨٤٧٤) .

مُنَادٍ : يا أَهْلَ الجَنَّةِ ، إنَّ لَكُم أَنْ تَصِحُّوا فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدَاً ، وَأَنْ تَشِبُّوا فَلاَ تَهْرَمُوا أَبَدَاً ، وَأَنْ تَحْيَوْا فَلاَ تَمُوتُوا أَبَدَاً»(٣١٠) . وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار ، ويقال : «يا أَهْلَ الجَنَّةِ ! خُلُودٌ فَلاَ مَوْتٌ ، وَيَا أَهْلَ النَّار ! خُلُودٌ فَلاَ مَوْتٌ»(*) .

وأما أبدية النار ودوامها ، فللناس في ذلك ثمانية أقوال :

أحدها : أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد ، وهذا قول الخوارج والمعتزلة .

والثاني : أن أهلَها يُعذبون فيها ، ثم تنقلب طبيعتُهم ، وتبقى طبيعة نارية يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم ! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي !!

الثالث : أن أهلَها يُعذبون فيها إلى وقت محدود ، ثم يُخرجون منها ، ويخلفهم فيها قومٌ آخرون ، وهذا القولُ حكاه اليهود للنبي ﷺ ، وأكذَبهم فيه ، وقد أكذبهم الله تعالى : فقال عز من قائل : ﴿ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذتُم عِنْدَ الله عَهْدَاً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى الله ما لا تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُم فيها خَالِدُونَ﴾ [البقرة : ٨٠ - ٨١] .

الرابع : يخرجون منها ، وتبقى على حالها ليس فيها أحد .

الخامس : أنها تفنى بنفسها ، لأنها حادثة وما ثبت حدوثُه استحال

---

(٣١٠) رواه مسلم رقم (٢٨٣٧) في الجنة وصفة نعيمها وأهلها : باب في دوام نعيم أهل الجنة . . . الخ ، والترمذي رقم (٣٢٤١) في التفسير : باب ومن سورة الزمر ، وأحمد في « المسند » ٣١٩/٢ ، و٣٨/٣ و٩٥ من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(*) تقدم تخريجه ص٧٣ رقم ٢٣ .

بقاؤه !! وهذا قول جهم وشيعته ، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار ، كما تقدم .

السادس : تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً ، لا يُحسُّون بألم ، وهذا قول أبي الهُذيل العلاَّف كما تقدم .

السابع : أن الله يخرج منها مَنْ يشاء ، كما ورد في السنة ، ثم يُبقيها ما يشاء ثم يُفنيها ، فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه .

الثامن : أن الله تعالى يُخرج منها من شاء ، كما ورد في السنة ، ويبقى فيها الكفارُ ، بقاءً لا انقضاء له ، كما قال الشيخ رحمه الله . وما عدا هٰذين القولين الأخيرين ظاهرُ البطلان .

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في دليليهما .

فمن أدلة القول الأول [منهما] قوله تعالى : ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فيها إلَّا مَا شَاءَ الله إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام : ١٢٨] . وقوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الذينَ شَقُوا ففي النَّارِ لَهُمْ فيها زَفيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيها ما دَامَتِ السَّمٰوات والأَرْضُ إلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود : ١٠٦ - ١٠٧] . ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة ، وهو قوله : ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] . وقوله تعالى : ﴿لابِثِينَ فيها أَحْقَاباً﴾ [النبأ : ٢٣] . وهذا القول - أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر ، وابن مسعود ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وغيرهم .

وقد روى عَبْدُ بن حميد في تفسيره المشهور ، بسنده إلى عمر رضي الله عنه ، أنه قال : « لو لَبِثَ أَهْلُ النَّارِ في النَّارِ كَقَدْرِ رَمْل عالج ، لكَانَ لَهُم عَلَى ذٰلِكَ وَقْتٌ يَخرُجُونَ فِيهِ »[٣١١] ، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى : ﴿ لابِثِينَ فيها

---

(٣١١) اسناد رجاله ثقات ولكن به انقطاع ، فهو من حديث سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة عن ثابت عن الحسن ، قال : قال عمر بن الخطاب . . . فالحسن لم يسمع من عمر . وقد روي نحوه عن =

أَحْقَاباً ﴾ [النبأ : ٢٣] . قالوا : والنار موجَب غضبه ، والجنة موجَب رحمته ، وقد قال ﷺ : « لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ ، كَتَبَ كِتَاباً ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ : إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي »(*) . وفي رواية : « تَغْلِبُ غَضَبِي » ، رواه البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

قالوا : والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه : ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام : ١٥] . و ﴿ أَلِيمٍ ﴾ [هود : ٢٦] . و ﴿ عَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٥٥] . [ولم يخبر](**) ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم ، وقد قال تعالى : ﴿ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] . وقال تعالى حكايةً عن الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمَاً ﴾ [غافر : ٧] . فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذَّبين ، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته .

وقد ثبت في « الصحيح »(٣١٢) تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة ، والمعذّبون فيها متفاوتون في مدة/لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم ، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمةِ أرحم الراحمين أن يخلق خلقاً يُعذبهم أبد الآباد عذاباً سرمداً لا نهاية له ، وأما أنه يخلق خلقاً يُنعم عليهم ، ويُحسن إليهم نعيماً سرمداً ، فمن مقتضى الحكمة ، والإحسان مرادٌ لذاته ، والانتقام مرادٌ بالعرض .

٨٤/ب

قالوا : وما ورد من الخلود فيها ، والتأبيد ، وعدم الخروج ، وأن عذابَها

= عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما موقوفاً بسند ضعيف ، وعن أبي أمامة رضي الله عنه بسند فيه تالف .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٩٣ رقم ١٦٢ .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

(٣١٢) رواه مسلم رقم (٩٨٧) في الزكاة : باب إثم مانع الزكاة ، والنسائي ٥/١٢ - ١٤ في الزكاة : باب التغليظ في حبس الزكاة ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

مقيم ، وأنه غرام ـ : كله حق مسلَّم ، لا نزاعَ فيه ، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقيةً .

وإنما يخرج منها في حال بقائها أهلُ التوحيد . ففرقٌ بين من يخرج من الحبس وهو حبسٌ على حاله ، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه .

ومن أدلّة القائلين ببقائها ، وعدم فنائها ، قوله : ﴿ وَلَهُم عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة : ٣٧] ﴿لا يُفَتَّرُ عَنْهُم وَهُم فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥] ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُم إِلَّا عَذَاباً ﴾ [النبأ : ٣٠] ﴿ خَالِدِينَ فيها أَبَدَاً ﴾ [البينة : ٨] . ﴿ وَمَا هُم منها بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٨] . ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٧] ﴿ لا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] . ﴿ لا يُقضَى عَلَيهِم فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابها ﴾ [فاطر : ٣٦] . ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامَاً ﴾ [الفرقان : ٦٥] أي مقيماً لازماً .

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرُجُ من النارِ مَنْ قال : لا إله إلا الله ، وأحاديثُ الشفاعة صريحةٌ في خروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هذا حكمٌ مختصٌ بهم ، فلو خرج الكفار منها ، لكانوا بمنزلتهم ، ولم يختصّ الخروجُ بأهل الإيمان ، وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما ، بل بإبقاء الله لهما .

وقوله : وخلق لهما أهلاً . قال تعالى : ﴿ وَلَقَد ذَرَأنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإنس ﴾ ، الآية [الأعراف : ١٧٩] . وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : دُعِيَ رَسُولُ الله ﷺ إلى جِنازَةِ صَبِيٍّ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ! طُوبَى لِهٰذَا ، عُصْفُورٌ مِنْ الجَنَّةِ ، لَمْ يَعْمَلْ سُوءاً وَلَمْ يُدْرِكْهُ ، فَقَالَ : « أَوَ غَيْرَ ذٰلِكَ يا عائِشَةُ ! إِنَّ الله خَلَقَ لِلجَنَّةِ أَهْلاً ، خَلَقَهُم لَهَا وَهُم في

أَصْلَابِ آبائِهِم ، وَخَلقَ لِلنَّارِ أَهْلاً ، خَلَقَهُم لَهَا وَهُم في أَصْلابِ آبائِهِم » . رواه مسلم وأبو داود والنسائي(٣١٣) . وقال تعالى ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبيلَ إمَّا شَاكِرَاً وإِمَّا كَفُوراً ﴾ [الدهر : ٢ - ٣] . والمراد الهداية العامة ، وأعم منها الهدايةُ المذكورة في قوله تعالى : ﴿ الذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه : ٥٠] .

فالموجودات نوعان : أحدهما مسخَّر بطبعه ، والثاني متحرك بإرادته ، فهدى الأول لما سخَّره له طبيعةً ،وهدى الثاني هدايةً إراديةً تابعةً لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره ، ثم قسم هذا النوع إلى ثلاثة أنواع :

نوع لا يُريد إلا الخير ، ولا يتأتى منه إرادة سواه كالملائكة .

ونوعٌ لا يُريد إلَّا الشر ، ولا يتأتى منه إرادة سواه ، كالشياطين .

ونوع يتأتى منه إرادةُ القسمين ، كالإنسان .

ثم جعله ثلاثة أصناف : صنفاً يغلب إيمانُه ومعرفتُه وعقلُه هواه وشهوتَه ، فيلتحق بالملائكة ، وصنفاً عكسه ، فيلتحق بالشياطين ، وصِنفاً تغلبُ شهوتُه البهيمية عقلَه ، فيلتحق بالبهائم .

والمقصود : أنه سبحانه أعطى الوجودَين : العيني والعلمي ، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده ، فلا هداية إلا بتعليمه ، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته ، وثبوت وحدانيته ، وتحقيق ربوبيته ، سبحانه وتعالى .

---

(٣١٣) رواه مسلم رقم (٢٦٦٢) في القدر : باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، والنسائي ٥٧/٤ في الجنائز : باب الصلاة على الصبيان ، وأبو داود رقم (٤٧١٣) في السنة : باب في ذراري المشركين ، وابن ماجه رقم (٨٢) في المقدمة : باب في القدر ، وأحمد في « المسند » ٤١/٦ و٢٠٨ .

وقوله : فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه... إلخ . مما يجب أن يُعلم: أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه ، وهو العمل الصالح ، فإنه : ﴿ ومَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمَاً وَلاَ هَضْمَاً ﴾ [طه : ١١٢] . وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَت أَيْدِيكُم وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] . وهو سبحانه المعطي المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع . لكن إذا مَنَّ على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح ، لا يمنعه موجب ذلك أصلاً ، بل يُعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأتْ ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ على قلب بشر ، وحيث منعه ذلك ، فلانتفاء سببه وهو العمل الصالح .

ولا ريب أنه يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، لكنّ ذلك كله حكمةٌ منه وعدلٌ ، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله .

وأما المسببات بعد وجود أسبابها ، فلا يمنعُها بحال ، إذا لم تكن أسباباً غير صالحة ، إما لفساد في العمل وإما لسبب يعارض موجبَه ومقتضاه ، فيكون ذلك لعدم المقتضي ، أو لوجود المانع ، وإذا كان منعه/وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح ، وهو لم يُعط ذلك ابتداءً(*) حكمةً منه وعدلاً ، فله الحمد في الحالين ، وهو المحمود على كل حال ، كل عطاء منه فضل ، وكل عقوبة منه عدل ، فإن الله تعالى حكيم يضعُ الأشياء في مواضعها التي تصلح لها ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا جَاءَتْهُم آيَةٌ قَالُوا لَن نُؤمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ ما أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . وكما قال تعالى : ﴿ وَكَذٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاءِ مَنَّ

٨٥/أ

(*) في هامش الأصل : ابتلاءً .

الله عَلَيهِم مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] . ونحو ذلك . وسيأتي لذلك زيادةٌ ، إن شاء الله تعالى .

* * *

قوله : والاستِطَاعَةُ الَّتي يَجِبُ بِهَا الفِعْلُ ، مِنْ نَحْوِ التَّوْفِيقِ الَّذِي لَا [يَجُوزُ أنْ](*) يُوصَفَ المَخْلُوقُ بِهِ[تَكُونُ](*) مَعَ الفِعْلِ ، وَأَمَّا الاسْتِطَاعَةُ مِنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالوُسْعِ والتَّمْكِينِ وَسَلَامَةِ الآلاتِ ـ فَهِيَ قَبْلَ الفِعْلِ ، وَبِهَا يَتَعَلَّقُ الخِطَابُ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ تَعالَى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسَاً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع ، ألفاظ متقاربة ، وتقسيم الاستطاعة إلى قسمين ، كما ذكره الشيخ رحمه الله تعالى ، هو قول عامة أهل السنة ، وهو الوسط .

وقالت القدرية والمعتزلة : لا تكون القدرة إلا قبل الفعل ، وقابلهم طائفةٌ من أهل السنة، فقالوا : لا تكون إلا مع الفعل .

والذي قاله عامةُ أهل السنة : أن للعبد قدرةً هي مناطُ الأمر والنهي ، وهٰذه قد تكون قَبله ، لا يجبُ أن تكون معه ، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل ، لا يجوزُ أن يُوجد الفعل بقدرة معدومة .

وأما القدرةُ التي من جهة الصحة والوسع ، والتمكن وسلامة الآلات ـ فقد تتقدم الأفعال ، وهذه القدرةُ المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَلله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ استَطَاعَ إِلَيْهِ سَبيلاً ﴾ [آل عمران : ٩٧] . فأوجب الحجَّ على المستطيع ، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحجُّ قد وجبَ إلا

(*) زيادة من مطبوعة مكة .

على من حج ، ولم يُعاقب أحداً على ترك الحج ! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، وكذلك قولُه تعالى : ﴿ فاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُم ﴾ [التغابن : ١٦] . فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة ، فلو كان من لم يتَّقِ الله لم يستطع التقوى ، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى ، ولم يُعاقِبْ من لم يتق ! وهذا معلومُ الفساد . وكذا قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإطعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ [المجادلة : ٤] . والمرادُ منه استطاعة الأسباب والآلات ، وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين : ﴿ لو استَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُم ﴾ [التوبة : ٤٣] . وكذَّبهم في ذلك القول ، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقةُ قدرة الفعل - ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين ، وحيث كذَّبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض ، أو فقدَ المال ، على ما بين تعالى بقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى المَرْضَى ﴾ [التوبة : ٩١] ، إلى أن قَالَ : ﴿ إنَّمَا السَّبيلُ عَلَى الذينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُم أَغْنِيَاءُ ﴾ [التوبة : ٩٣] . وكذلك قولُه تعالى :﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَات فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُـم ﴾ [النساء : ٢٥] . والمراد : استطاعةُ الآلات والأسباب . ومن ذلك قول النبي ﷺ لعمران بن حُصَين : « صَلِّ قَائِمَاً ، فإنْ لَمْ تَسْتَطِع فقَاعِدَاً ، فَإنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى الجَنْبِ »(٣١٤) . إنما نفى استطاعة الفعل معها .

وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة،فقد ذكروا فيها قوله تعالى :﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠].

---

(٣١٤) رواه البخاري ٤٨٢/٢ في تقصير الصلاة : باب صلاة القاعد بالإيمان ، وباب صلاة القاعد ، وباب إذا لم يطق قاعداً صلّى على جنب ، وأبو داود رقم (٩٥٢) في الصلاة : باب في صلاة القائم ، والنسائي ٢٢٤/٣ في قيام الليل : باب فضل صلاة القاعد على صلاة النائم ، والترمذي رقم (٣٧٢) في « الصلاة : باب ما جاء أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم ، وأحمد في « المسند » ٤ /٤٢٦ ، وابن ماجة رقم (١٢٢٣) في إقامة الصلاة : باب ما جاء في صلاة المريض .

والمراد نفي حقيقة القدرة ، لا نفي الأسباب والآلات ، لأنها كانت ثابتة . وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله : ولا يُطيقون إلا ما كلفهم ، إن شاء الله تعالى(*)، وكذا قولُ صاحب موسى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرَاً ﴾ [الكهف : ٦٧] . وقوله : ﴿ أَلَم أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرَاً ﴾ [الكهف : ٧٥]. والمراد [منه](**) حقيقة قدرة الصبر ، لا أسباب [الصبر](**) وآلاته ، فإن تلك كانت ثابتة له ، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك ؟ ولا يُلام مَن عَدِمَ آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل ، وإنما يُلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل ، لاشتغاله بغير ما أمر به ، أو [لعدم](**) شغله إياها بفعل ما أمر به .

ومن قال : إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل - يقولون : إن القدرة لا تصلُح للضدين ، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل ، وهي مستلزمة له ، لا تُوجد بدونه . وما قالته القدرية بناءً على أصلهم الفاسد وهو إقدارَ الله للمؤمن والكافر والبر الفاجر سواء ، فلا يقولُون : إن الله خصَّ المؤمن المطيع بإعانة حصَّل بها الإيمان ، بل هذا بنفسه رجَّح الطاعة ، وهذا بنفسه رجح المعصية ! كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفاً ، فهذا جاهد به في سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق . وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة /المثبتين للقدر ، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمةً دينيةً ، خصَّه بها دون الكافر ، وأنه أعانه على الطاعة إعانةً لم يعنْ بها الكافر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ الله حَبَّبَ إِلَيْكُم الإيمَانَ وَزَيَّنَهُ في قُلُوبِكُم وَكَرَّهَ إِلَيْكُم الكُفْرَ والفُسُوقَ والعِصْيَانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] . فالقدرية يقولون : إنَّ التحبيب والتزيين عامٌّ في كل الخلق ، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق ، والآية تقتضي أن هذا خاصّ بالمؤمن ، ٨٥/ب

(*) انظر ص ٥١٥ وما بعدها .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

ولهذا قال : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ والكفار ليسوا راشدين ، وقال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ الله أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسلام وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّمَاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ الله الرِّجْسَ عَلَى الذينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وأمثال هذه الآية في القرآن كثير ، يبين أنه سبحانه هدى هذا وأضل هذا . قال تعالى : ﴿ مَنْ يَهْدِ الله فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً ﴾ [الكهف : ١٧] . وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان ، إن شاء الله تعالى .

وأيضاً فقولُ القائل : يُرَجَّحُ بلا مُرَجَّح . إن كان لقوله : يرجح ، معنى زائد على الفعل ، فذاك هو السبب المرجح ، وان لم يكن له معنى زائد ، كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل ، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح ! وهذا مكابرة للعقل !! فلما كان أصلُ قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الإعانة والإقدار سواء ـ امتنع على أصلهم أن يكون مع الفِعل قدرة تخصّه ، لأن القدرة التي تخصُّ الفعل لا تكون للتارك ، وإنما تكونُ للفاعل ، ولا تكونُ القدرة إلا من الله تعالى ، وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل الفعل ، قالوا : لا تكون مع الفعل ، لأن القدرة هي التي يكونُ بها الفعل والترك ، وحالَ وجود الفعل يمتنع التركُ .

فلهذا قالوا : القدرة لا تكون إلا قبل الفعل ! وهذا باطل مطلقاً ، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع ، بل لا بد أن يكون جميعُ ما يتوقَّفُ عليه الفعلُ من الأمور الوجودية موجوداً عند الفعل ، فنقيض قولهم حق ، وهو : أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة .

لكن صار أهلُ الإثبات هنا حزبين :

حزب قالوا : لا تكون القدرة إلا معه ، ظَنّاً منهم أن القـدرة نوع واحد

لا يصلح للضدين، وظنّاً من بعضهم أن القدرة عرَض، فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل .

والصواب : أن القدرة نوعان كما تقدم : نوع مصحح للفعل ، يُمكن معه الفعل والترك ، وهٰذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي ، وهٰذه تحصل للمطيع والعاصي ، وتكون قبل الفعل ، وهٰذه تبقى إلى حين الفعل ، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض ، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول : إن الأعراض لا تبقى زمانين ، وهٰذه قد تصلُح للضدَّين ، وأمر الله مشروط بهٰذه الطاقة ، فلا يُكلف الله من ليس معه هٰذه الطاقة ، وضد هذه العجز ، كما تقدم .

وأيضاً : فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنِعُ الفعل مع عدمها ، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصوَّر الفعلُ مع عدمها وإن لم يعجز عنه ، فالشارع ييسر على عباده ، ويُريد بهم اليُسر ، ولا يُريد بهم العسر ، وما جعل عليكم في الدين من حرج ، والمريضُ قد يستطيعُ القيامَ مع زيادة المرض وتأخر برئه ، فهذا في الشرع غيرُ مستطيع ، لأجل حصول الضرر عليه ، وإن كان قد يُسمى مستطيعاً ، فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل ، بل ينظر إلى لوازم ذلك ، فإن كان الفعل ممكناً مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعةً شرعيةً ، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله ، أو يُصلي قائماً مع زيادة مرضه ، أو يصوم شهرين مع انقطاعه عن معيشته ، ونحو ذلك . فإذا كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدمَ المفسدة الراجحة ، فكيف يكلِّف مع العجز ؟ ولكن هٰذه الاستطاعة ـ مع بقائها إلى حين الفعل ـ لا تكفي في وجود الفعل ، ولو كانت كافيةً ، لكان التاركُ كالفاعل ، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تُقارن ، مثل جعل الفاعل مريداً ، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة ، والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة ، بخلاف المشروطة في

التكليف ، فإنه لا يشترط فيها الإرادة ، فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يُريده ، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه . وهكذا أمرُ الناس بعضهم لبعض ، فالانـسان يأمر عبده بما لا يريده العبد ، لكن/لا يأمره بما يعجِز عنه العبد ، وإذا اجتمعت الإرادةُ الجازمة والقوة التامة ، لزم وجود الفعل ، وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يُطاق ، فإن من قال : القدرة لا تكونُ إلا مع الفعل ـ يقول : كل كافر وفاسق قد كلّف ما لا يطيق ، وما لا يُطاق يفسَّر بشيئين : بما لا يُطاق للعجز عنه ، فهذا لم يكلفه الله أحداً ، ويفسَّر بما لا يطاق للاشتغال بضده ، فهذا هو الذي وقع فيه التكليف ، كما في أمر العباد بعضهم بعضاً ، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا ، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف ! ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم ، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة .

١/٨٦أ

* * *

قوله : وَأَفْعَالُ العِبَادِ خَلْقُ الله ، وَكَسْبٌ مِنَ العِبَادِ .

اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية ، فزعمت الجبرية ورئيسهم جهم بن صفوان الترمذي : أن التدبير في أفعال الخلق كلِّها لله تعالى ، وهي كلها اضطرارية ، كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الأشجار ، وإضافتها إلى الخلق مجاز ! وهي على حسب ما يُضاف الشيء إلى محله دون ما يُضاف إلى محصله !

وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا : إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها ، لا تعلق لها بخلق الله تعالى !

واختلفوا فيما بينهم : أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟ !

وقال أهلُ الحق : أفعالُ العِباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهي

مخلوقة لله تعالى ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه .

فالجبرية غَلَوْا في إثبات القدر ، فَنَفَوْا صنع العبد أصلاً ، كما غلت المشبهة في إثبات الصفات ، فشبَّهوا ، والقدرية نفاةُ القدر جعلوا العبادَ خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا « مجوس هذه الأمة » بل أردأ من المجوس ، من حيث إن المجوس أثبتوا خالقَين ، وهم أثبتوا خالقِين ! ! وهدى الله المؤمنين أهلَ السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فكل دليل صحيح يقيمه الجبري ، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار .

وكل دليل صحيح يقيمه القدَري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقةً ، وأنه مريد له مختارٌ له حقيقةً ، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق ، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى ، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته . فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى ـ فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة ، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقةً ، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم .

وهذا هو الواقع في نفس الأمر ، فإن أدلة الحق لا تتعارض ، والحق يصدّق بعضه بعضاً . ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين ، ولكنها تتكافأ وتتساقط ، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخر . ولكن أذكر

شيئاً مما استدل به كل من الفريقين ، ثم أُبيِّن أنه لا يدل على ما استُدل عليه من الباطل .

فمما استدلَّت بـه الجبريـة،قولـه تعالى :﴿وَمَـا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] . فنفى الله عن نبيه الرمي ، وأثبته لنفسه سبحانه ، فدل على أنه لا صنع للعبد .

قالوا : والجزاء غير مرتب على الأعمال ، بدليل قوله ﷺ : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ الجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » ، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « وَلاَ أَنا ، إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ »(٣١٥) .

ومما استدل به القدرية ، قوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . قالوا : والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض ، كما قال تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الَم السجدة : ١٧] و[الاحقاف : ١٤] و[الواقعة : ٢٤] . ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ التي أُورِثْتُمُوها بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٢] . ونحو ذلك .

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيتَ إذ رَمَيتَ وَلٰكنَّ الله رَمَى ﴾ [الأنفال : ١٧]- فهو دليل عليهم ، لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رمياً ، بقوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ ، فعلم أن المثبت غيرُ المنفي ، وذلك أن الرمي له ابتداءٌ وانتهاء : فابتداؤه الحذف ، وانتهاؤه الإصابة ، وكل منهما يسمى رمياً ، فالمعنى حينئذ ـ والله تعالى أعلم ـ : وما أصبتَ إذْ حذفتَ ولكنَّ الله

---

(٣١٥) رواه البخاري ٢٥٢/١١ ـ ٣٥٤ في الرقاق : باب القصد والمداومة على العمل ، ومسلم رقم (٢٨١٦) في صفات المنافقين : باب لن يدخل أحد الجنة بعمله ، وأحمد في « المسند » ١٢٥/٦ من حديث عائشة رضي الله عنها .

وفي الباب عن أبي هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم .

انظر « جامع الأصول » رقم (٨٨) و(٨٩) و(٩٠) .

أصاب ، وإلا فطرْدُ قولهم : وما صليتَ إذْ صليت ، ولكن الله صلى ! وما صمت إذْ صمت ! وما زنيت إذ زنيت ! وما سرقت اذ سرقت !!/وفساد هذا ظاهر . ٨٦/ب

وأما ترتّب الجزاء على الأعمال ، فقد ضلَّت فيه الجبرية والقدرية ، وهدَى الله أهل السنة ، وله الحمد والمنة .

فإن الباء التي في النفي غيرُ الباء التي في الإثبات ، فالمنفي في قوله ﷺ : « لن يدخل الجنة أحَدٌ بِعَمَلِهِ » باء العِوَض ، وهو أن يكون العملُ كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة ، كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحقّ دخول الجنة على ربه بعمله ! بل ذلك برحمة الله وفضله .

والباء التي في قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [آلم السجدة : ١٧] وغيرها ، ـ باء السبب ، أي : بسبب عملكم ، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات ، فرجع الكل الى محض فضل الله ورحمته .

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤]ـ فمعنى الآية : أحسن المصوِّرين المقدّرين ، و« الخلق » يذكر ويراد به التقدير ، وهو المراد هنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شيْءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] و[الزمر : ٦٢] أي : الله خالق كل شيء مخلوق ، فدخلت أفعالُ العباد في عموم : « كل » وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم : « كل » الذي هو صفة من صفاته ، يستحيلُ عليه أن يكون مخلوقاً ! وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم . « كل » !! وهل يدخل في عموم : « كل » إلا ما هو مخلوق ؟ ! فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم ، ودخل سائر المخلوقات في عمومها ، وكذا قولُه تعالى : ﴿ والله خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] . ولا نقول : إن

« ما » مصدرية ، أي : خلقكم وعملكم ؛ إذ سياقُ الآية يأباه ؛ لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادةَ المنحوت، لا النحت ، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى ، وهو ما صار منحوتاً إلا بفعلهم ، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقاً لله تعالى ، ولو لم يكن النحتُ مخلوقاً لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقاً له ، بل الخشب أو الحجر لا غير .

وذكر أبو الحسين البصري(*) إمامُ المتأخرين من المعتزلة : أن العلم بأن العبد يُحدث فعله ضروري .

وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدَث الممكن إلى مرجّح يجب وجودُه عنده ويمتنِعُ عند عدمه ضروري .

وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري ، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يُبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة - غير مسلَّم ، بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضروري ، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق ، فإنه لا منافاة بين كون العبد محدِثاً لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧ - ٨] . فقوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ إثباتٌ للقدر بقوله ﴿ فألهمها ﴾ ، وإثباتٌ لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى الى نفسه ، ليعلم أنها هي الفاجرة والمتقية ، وقوله بعد ذلك : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَد خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩ - ١٠] - إثباتٌ أيضاً لفعل العبد ، ونظائر ذلك كثيرة .

(*) هو أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري . أحد أئمة المعتزلة ، متكلم أصولي ، سكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٣٦ هـ من تصانيفه : « المعتمد في أصول الفقه » « تصفح الأدلة في أصول الدين » و « شرح الأصول الخمسة » وغيرها .

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التي فرَّقتهم، بل مزَّقتهم كل ممزَّق، وهي : أنهم قالوا : كيف يستقيمُ الحكم على قولكم بأن الله يُعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم ؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟ وهذا السؤال لم يزل مطروقاً في العالم على ألسنة الناس ، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته .

وعنه تفرقت بهم الطرق : فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى ، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل ، وسدَّت باب السؤال ، وطائفة أثبتت كسباً لا يُعقل ! جعلت الثواب والعقاب عليه ، وطائفة التزمت لأجله وقوعَ مقدور بين قادرَين ، ومفعول بين فاعلَين ! وطائفة التزمت الجبر ، وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه ! وهذا السؤال هو الذي أوجب التفرق والاختلاف .

والجوابُ الصحيح عنه ، أن يقال : إن ما يُبتلى به العبد من الذنوب الوجودية ، وإن كانت خلقاً لله تعالى ، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنب يُكسب الذنب ، ومن عقاب السيئة السيئةُ بعدها ، فالذنوب كالأمراض التي يُورث بعضها بعضاً .

يبقى أن يقال : فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب؟ يقال : هو عقوبة أيضاً على عدم فعل ما خُلق له وفُطر عليه ، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحدَه لا شريك له ، وفطره على محبته وتأليهه والإنابة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ الله التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] . فلما لم يفعل ما خُلق له وفُطِرَ عليه ، مِن محبة الله وعبوديته ، والإنابة إليه ـ عُوقِبَ على ذلك/بأن زَين له الشيطانُ ما يفعلُه من الشرك والمعاصي ، فإنه صادف قلباً خالياً قابلاً للخير والشر ، ولو كان فيه الخيرُ الذي يمنع ضدَّه لم يتمكن منه الشر ، كما قال تعالى : ﴿ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا المُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال

٨٧/أ

إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُم أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُم الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣]. وقال الله عز وجل: ﴿هٰذَا صِراطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِن عِبَادِي لَيْس لَكَ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر : ٤١ ـ ٤٢] . والإخلاص : خلوص القلب من تأليه ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته ، فخلص لله ، فلم يتمكن منه الشيطانُ. وأما إذا صادفه فارغاً من ذلك، تمكَّن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنباً مسيئاً في هٰذه الحال عقوبةً له على عدم هذا الإخلاص ، وهي محضُ العدل .

فإن قلت : فذٰلك العدم مِن خلقه فيه ؟

قيل : هذا سؤال فاسد ، فإن العدم كاسمه ، لا يفتقِرُ إلى تعلق التكوين والإحداث به ، فإن عدم الفعل ليس أمراً وجوديّاً حتى يُضاف إلى الفاعل ، بل هو شر محض ، والشر ليس إلى الله سبحانه ، كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح : « لَبَّيكَ وَسَعْدَيْك ، والخَيْرُ كُلُّهُ في يَدَيكَ ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ »(*) .

كذا في حديث الشفاعة يوم القيامة ، حين يقول الله له : يا محمد ، فيقول : « لَبَّيكَ وَسَعْدَيْكَ ، والخَيْرُ في يَدَيْكَ ، والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ »(٣١٦) .

وقد أخبر الله تعالى أن تسليطَ الشيطان إنما هو على الذين يتولَّوْنَه والذين هم به مشركون ، فلما تولَّوه دون الله وأشركوا به معه عُوقِبُوا على ذلك

(*) تقدم تخريجه ص ١٢٨ رقم ٦١ ، وروى هذه الفقرة مسلم والنسائي .

(٣١٦) رواه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٠/٣٧٧ وقال : رواه البزار عن حذيفة مرفوعاً ، ورجاله رجال الصحيح ، والطبراني في « الأوسط » عنه مرفوعاً ، وفيه ليث بن أبي سليم وهو مدلس وبقية رجاله ثقات .

ومن طريق ليث بن أبي سليم رواه الحاكم في « المستدرك » ٤/٥٧٣ .

بتسليطه عليهم ، وكانت هٰذه الولاية والإشراك عقوبة خلوِّ القلب وفراغه من الإخلاص ،فإلْهَامُهُ البر والتقوى ثمرةُ هذا الإخلاص ونتيجته ، وإلهام الفجور عقوبةٌ على خلوّه من الإخلاص .

فإن قلت : إن كان هذا الترك أمراً وجوديّاً ، عاد السؤال جَـذَعاً ، وإن كان أمراً عدميّاً ، فكيف يُعاقَب على العدم المحض ؟

قيل : ليس هنا ترك هو كفّ النفس ومنعها عما تُريده وتُحبه ، فهذا قد يقال : إنه أمر وجوديّ ، وإنما هنا عدمٌ وخلو من أسباب الخير ، وهذا العدم هو محض خلوّها مما هو أنفعُ شيءٍ لها ، والعقوبةُ على الأمر العدمي هي بفعل السيئات ، لا بالعقوبات التي تنالُه بعد إقامة الحجة عليه بالرسل . فلله فيه عقوبتان :

إحداهما : جعله مذنباً خاطئاً ، وهذه عقوبةُ عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله ، وهٰذه العقوبة قد لا يُحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته ، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات .

والثانية : العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات ، وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، فهذه العقوبة الأولى ، ثم قال : ﴿ حتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، فهذه العقوبة الثانية .

فإن قيل : فهل كان يُمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده من غير أن يخلق ذلـك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين إليه محبين له وحده ؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم وإلقائه فيها ؟

قيل : لا ، بل هو محض مِنَّته وفضله ، وهو من أعظم الخير الذي هو بيده ، والخير كله في يديه ، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه ،

ولا يتقي من الشر إلا ما وَقاه .

فإن قيل : فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يُوفقوا له ، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم ، عاد السؤال ، وكان منعهم منه ظلماً ، ولزمكم القول : بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء ، ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

قيل : لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالماً ، وإنما يكون المانعُ ظالماً إذا منع غيرَه حقّاً لذلك الغير عليه ، وهذا هو الذي حرمه الربُّ على نفسه ، وأوجبَ على نفسه خلافه ، وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له ، بل هو محض فضله ومنّته عليه ـ لم يكن ظالماً بمنعه ، فمنع الحق ظلم ، ومنعُ الفضل والإحسان عدل ، وهو سبحانه العدل في منعه ، كما هو المحسن المنّان بعطائه .

فإن قيل : فإذا كان التوفيق والعطاء إحساناً ورحمة ، فهلَّا كان العمل له والغلبةُ ، كما أن رحمته تغلِبُ غضبه ؟

قيل : المقصود في هذا المقام بيانُ أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع ، والمنع المستلزم للعقوبة، ليس بظلم ، بل هو محض العدل . وهذا سؤالٌ عن الحكمة التي أوجبت تقديمَ العدل على الفضل في بعض المحالّ ؟ وهلَّا سوَّى بين العباد في الفضل ؟ وهذا السؤال حاصله : لِمَ تفضّل على هذا ولَمْ يتفضلْ على الآخر ؟ وقد تولّى الله سبحانه الجوابَ عنه بقوله : ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢١] . وقوله : ﴿ لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ الله وَأَنَّ الفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ [الحديد : ٢٩] . ولمَّا سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة /بأجرَين وإعطائهم هم أجراً أجراً قال: « هَلْ ظَلَمْتُكُم مِنْ حَقِّكم شَيْئاً ؟ قَالُوا: لا ، قال: فَذٰلِكَ فَضْلي أُوتيهِ ٨٧/ب

مَنْ أَشَاءُ »[317] وليس في الحكمة إطلاعُ كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه ، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد ، حتى أبصر طرفاً يسيراً من حكمته في خلقه ، وأمره وثوابه وعقابه ، وتخصيصه وحرمانه ، وتأملَ أحوالَ محالِّ ذلك ، استدلَّ بما علمه على ما لم يعلمه .

ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص ، قالوا : ﴿ أهؤلاء منَّ الله عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ؟ قال تعالى مجيباً لهم : ﴿ أَلَيْسَ الله بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [لأنعام : ٥٣] . فتأمل هذا الجواب تَرَ في ضمنه أنه سبحانه أعلمُ بالمحلِّ الذي يصلُح لغرس شجرة النعمة ، فتثمر بالشكر ، من المحل الذي لا يصلح لغرسها ، فلو غُرست فيه لم تثمر ، فكان غرسها هناك ضائعاً لا يليق بالحكمة ، كما قال تعالى : ﴿ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

فإن قيل : إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد ، فإذاً لا فعل للعبد أصلاً ؟

قيل : العبدُ فاعل لفعله حقيقةً ، وله قدرةٌ حقيقةً ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيرٍ يَعْلَمْهُ الله ﴾ [البقرة : ١٩٧] . ﴿ فَلَا تَبْتَئِس بما كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [هود : ٣٦] ، وأمثال ذلك .

وإذا ثبت كونُ العبد فاعلاً ، فأفعاله نوعان :

---

(٣١٧) رواه البخاري ٣٦٧/٤ في الاجارة : باب الاجارة إلى نصف النهار ، و٣٢/٢ - ٣٣ في مواقيت الصلاة : باب من أدرك ركعة من العصر قبل الغروب ، و٣٦١/٦ في الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، و٥٩/٩ في فضائل القرآن : باب فضل القرآن على سائر الكلام ، و٤٢٥/١٣ في التوحيد : باب في المشيئة والإرادة ، والترمذي رقم (٢٨٧٥) في الأمثال : باب ما جاء في مثل ابن آدم وأجله وأمله ، وأحمد في «المسند» ٦/٢ و ١١١ و ١٢١ و ١٢٩ ، وأوله : «إنما بقاؤكم. . . .» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

نوعٌ يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته ، فيكون صفةً له ولا يكون فعلاً ، كحركات المرتعش .

نوعٌ يكون منه مقارناً لإيجاد قدرته واختياره ، فيُوصف بكونه صفةً وفعلاً وكسباً للعبد ، كالحركات الاختيارية . والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلاً مختاراً ، وهو الذي يقدرُ على ذلك وحده لا شريك له .

ولهذا أنكر السلف الجبر ، فإن الجبر لا يكون إلا مِن عاجز ، فلا يكون إلّا مع الإكراه ، يقال : للأب ولايةُ إجبار البكر الصغيرة على النكاح ، وليس له إجبار الثيب البالغ ، أي : ليس له أن يُزوِّجها مكرهة .

والله تعالى لا يُوصف بالإجبار بهذا الاعتبار ، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد ، قادرٌ على أن يجعله مختاراً ، بخلاف غيره .

ولهذا جاء في ألفاظ الشارع : « الجبْل » دون « الجبر » ، كما قال ﷺ لأشجّ عبد القيس : « إنَّ فِيْكَ لَخَلَّتينِ يُحِبُّهما الله : الحِلْمُ والأَنَاةُ » فَقَالَ : أَخُلُقَينِ تَخَلَّقتُ بهما ؟ أَمْ خُلُقَينِ جُبِلْتُ عَلَيهما ، فَقَالَ : « بَلْ خُلقانِ جُبِلْتَ عَلَيْهِمَا » فَقَالَ : الحَمْدُ لله الذي جَبَلَنِي عَلَى خُلُقَينِ يُحِبُّهُما الله »[318] ، والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري ، والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير الاختياري مستقر في الفِطَر والعقول .

وإذا قيل : خلقُ الفعل مع العقوبة عليه ظلم ؟! كان بمنزلة أن يقال :

---

(٣١٨) رواه مسلم رقم (١٧) (٢٥) في الإيمان : باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ، والترمذي رقم (٢٠١٢) في البر والصلة : باب ما جاء في التأني والعجلة ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ورواه مسلم رقم (١٨) (٢٦) ، وأحمد في « المسند » ٣/٢٣ ، وابن ماجه رقم (٤١٨٧) في الزهد : باب الحلم ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

انظر « جامع الأصول » رقم (٣١٩٥) و(٩٣٢٤) و(٩٣٢٥) .

خلقُ أكل السم ثم حصول الموت به ظلم !! فكما أن هذا سببٌ للموت ، فهذا سبب للعقوبة ، ولا ظلم فيهما .

فالحاصل : أن فعل العبد فعلٌ له : حقيقةً، ولكنه مخلوقٌ لله تعالى ، ومفعول لله تعالى ، ليس هو نفسَ فعل الله ، ففرْقٌ بين الفعل والمفعول ، والخلق والمخلوق ، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله تعالى بقوله : وأفعال العباد خلقُ الله وكسبٌ من العباد ، أثبت للعباد فعلاً وكسباً ، وأضاف الخلق لله تعالى . والكسب : هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفعٌ أو ضرر ، كما قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيهَا مَا اكتَسَبَتْ ﴾[البقرة : ٢٨٦] .

* * *

قوله : وَلَمْ يُكَلِّفْهُمُ الله تعالى إلَّا مَا يُطِيقُونَ ، وَلَا يُطِيقُونَ إلَّا مَا كَلَّفَهُمْ ، وَهُوَ تَفْسِيرُ « لا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِالله » ، نَقُولُ : لا حِيلَةَ لأَحدٍ ، وَلَا تَحوُّل لِأحدٍ ، وَلَا حَرَكَة لِأحدٍ عَنْ مَعْصِيَةِ الله ، إلَّا بِمَعُونَةِ الله ، وَلَا قُوَّة لِأحدٍ على إقامةِ طَاعَةِ الله وَالثَّبات عَلَيْهَا إلا بِتَوْفِيقِ الله تعالى ، وَكُلُّ شَيءٍ يجْرِي بِمَشِيئَةِ الله تَعالى وَعِلْمِهِ وَقَضَائِهِ وَقَدرِهِ . غَلَبَتْ مَشِيئَتُهُ المَشِيئَاتِ كُلَّهَا ،[وَغَلَبَتْ[1] إرَادَتُهُ الإِرَادَات كُلَّهَا][*] ، وَغَلَبَ قَضَاؤُه الحِيَلَ كُلَّها ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ، وَهُوَ غير ظَالِمٍ أَبَدَاً . ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُم يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

فقوله : لم يُكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون ، قال تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ

(١) في مطبوعة مكة : وعكست .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

الله نَفْسَاً إلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسَاً إلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام : ١٥٢] و[الأعراف : ٤٢] و[المؤمنون : ٦٢] .

وعند أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يُطاق جائزٌ عقلاً ، ثم تردَّد أصحابُه أنه : هل ورد به الشرع أم لا ؟ واحتجَّ من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان ، فإنه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن ، وأنه سيصلى ناراً ذاتَ لهب ، فكان مأموراً بأن يُؤمن بأنه لا يُؤمن ، وهذا تكليفُ بالجمع بين الضدين ، وهو محال .

والجوابُ عن هذا بالمنع : فلا نسلِّم بأنه مأمور بأن يُؤمن بأنه لا يؤمن ، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلةً ، فهو غيرُ عاجز عن تحصيل الإيمان ، فما كلف إلا ما يُطيقه كما تقدم في تفسير/الاستطاعة . ٨٨/أ ولا يلزمُ قولُه تعالى للملائكة : ﴿ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلاءِ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] . مع عدم علمهم بذلك ، ولا للمصورين يوم القيامة : « أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ »[٣١٨] وأمثال ذلك ، لأنه ليس بتكليف طلب فعل يُثاب فاعله ، ويُعاقب تاركه ، بل هو خطاب تعجيز .

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنا ما لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، لأن تحميلَ ما لا يُطاق ليس تكليفاً ، بل يجوز أن يُحمله جبلاً لا يُطيقه فيموت .

وقال ابن الأنباري(*) : أي : لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا

---

(٣١٨) قطعة من حديث رواه البخاري ١٠/٣٢٣ في اللباس: باب عذاب المصورون يوم القيامة ، ومسلم رقم (٢٠١٨) في العباس : باب تحريم صورة الحيوان ، والنسائي ٨/٢١٥ في الزينة : باب ذكر ما يكلف أصحاب يوم القيامة ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(*) هو أبو بكر محمد بن القاسم بنمحمدبن بشار بن الحسن بن بيان بن سماعة بن فروة بن قطن بن دعامة الأنباري .مفسر ، محدث ، لغوي ، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار ، ولد بالأنبار على الفرات سنة ٢٧١ هـ توفي سنة ٣٢٨ هـ من تصانيفه : « الكافي » في النحو و« غريب الحديث » ، و« شرح القصائد السبع الطوال » و« الأضداد » وغيرها .

مطيقين له على تجشُّم وتحمل مكروه ، قال : فخاطب العرب على حسب ما تعقل ، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه : ما أطيق النظر إليك ،وهو مطيق لذلك ، لكنه يثقل عليه ، ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يُثاب ، ولو امتنع يعاقَب ، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها .

ومنهم من يقول : يجوز تكليفُ الممتنع عادةً ، دون الممتنع لذاته ، لأن ذلك لا يتصور وجوده ، فلا يُعقل الأمر به ، بخلاف هذا .

ومنهم من يقول : ما لا يُطاق للعجز عنه لا يجوزُ تكليفه ، بخلاف ما لا يُطاق للاشتغال بضده ، فإنه يجوز تكليفُه . وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى ، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يُطاق لكونه تاركاً له مشتغلاً بضده ـ بدعة في الشرع واللغة، فإن مضمونه أنّ فعل ما لا يفعله العبد لا يُطيقه ! وهم التزموا هذا ، لقولهم : إن الطاقة ـ التي هي الاستطاعة وهي القدرة ـ لا تكون إلا مع الفعل ! فقالوا : كل من لم يفعل فعلاً ، فإنه لا يُطيقه ! وهذا خلافُ الكتاب والسنة وإجماع السلف ، وخلافُ ما عليه عامة العقلاء ، كما تقدمت الإشارة اليه عند ذكر الاستطاعة .

وأما ما لا يكون إلَّا مقارناً للفعل ، فذلك ليس شرطاً في التكليف ، مع أنه في الحقيقة إنما هناك إرادةُ الفعل . وقد يحتجون بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ [هود : ٢٠] ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيْعَ مَعِيَ صَبْرَاً ﴾ [الكهف : ٦٧ و ٧٢ و٧٥] . وليس في ذلك إرادة ما سمَّوه استطاعةً ، وهو ما لا يكون إلا مع الفعل ، فإن الله ذمَّ هـؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع ، ولو أراد بذلك المقارنَ ، لكان جميعُ الخلق لا يستطيعون السمع قبلَ السمع ! فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى ، ولكن هؤلاء ـ لبغضهم الحقَّ وثقله عليهم ، إما حسداً لصاحبه ، وإما اتباعاً للهوى ـ لا يستطيعون السمع .

وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر ، لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع ، وليس عنده منه علم . وهذه لغة العرب وسائر الأمم ، فمن يُبغض غيره يقال : إنه لا يستطيع الإحسانَ إليه ، ومن يُحبه يقال : إنه لا يستطيع عقوبته ، لشدة محبته له ، لا لعجزه عن عقوبته ، فيقال ذلك للمبالغة ، كما يقال : لأضربنه حتى يموت ، والمراد الضرب الشديد . وليس هذا عذراً ، فلو لم يأمر العباد إلاّ بما يهوونه ، لفسدت السمٰوات والأرض ، قال تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُم لَفَسَدَتِ السَّمٰواتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون : ٧١] .

وقوله : ولا يُطيقون إلاّ ما كلفهم به . . . إلى آخر كلامه . أي : ولا يُطيقون إلا ما أقدرهم عليه . وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق ، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات ، و« لا حول ولا قوة إلا بالله » دليل على إثبات القدَرِ . وقد فسرها الشيخ بعدها . ولكن في كلام الشيخ رحمه الله إشكال : فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الأقدار إنما يُستعمل بمعنى الأمر والنهي ، وهو قد قال : لا يكلفهم إلا ما يطيقون ، ولا يطيقون إلا ما كلفهم . وظاهـر أنه يرجع إلى معنى واحد ، ولا يصح ذلك ، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به ، لكنه سبحانه يُريد بعباده اليسر والتخفيف ، كما قال تعالى : ﴿ يُريدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُريدُ بِكُمُ العُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] . وقال تعالى : ﴿ يُريدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُم ﴾ [النساء : ٢٨] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُم في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] ، فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ، ولكنه تفضل علينا ورحمنا ، وخفف عنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج . ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم : أن المراد الطاقة والتوفيق ، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات ، ففي العبارة قلق ، فتأمله .

وقوله : وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره . يُريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي ، فإن القضاء يكون كونيّاً وشرعيّاً ، وكذلك

الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات ، ونحو ذلك .

أما القضاء الكوني ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ في يَوْمَينِ ﴾ [حم السجدة : ١٢] . والقضاء الديني الشرعي ، في قوله تعالى : ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلاّ إيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٢٣] .

وأما الإرادة الكونية والدينية ، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ : ولا يكون إلا ما يريد(*) .

وأما الأمر الكوني ، ففي قوله تعالى : ﴿ إنَّمَا أَمْرُهُ إذا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] . وكذا قوله تعالى : ﴿ وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فيها فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرناها تَدْمِيراً ﴾ [الإسراء : ١٦] ، في أحد الأقوال ، وهو أقواها .

والأمر الشرعي في/قوله تعالى : ﴿ إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ ﴾ الآية [النحل : ٩٠] . وقوله : ﴿ إنَّ الله يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] . ٨٨/ب

وأما الإذن الكوني ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلَّا بإِذنِ الله ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

والإذن الشرعي ، في قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكتُمُوها قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبإِذنِ الله ﴾ [الحشر : ٥] .

وأما الكتاب الكوني ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلَّا في كِتَابٍ إنَّ ذلِكَ عَلَى الله يَسِيرٌ ﴾ [فاطر : ١١] . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنْ الأَرْضِ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] .

(*) انظر ص ٦٠ وما بعدها .

والكِتاب الشرعي الديني ، في قوله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِم فيها أَنَّ النَّفْسَ بالنَّفْسِ ﴾ [المائدة : ٤٥] . ﴿ يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ ﴾ [البقرة : ١٨٣] .

وأما الحكم الكوني ، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لي أَبي أَوْ يَحْكُمَ الله لي وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف : ٨٠] . وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بالحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ المُسْتَعَانُ عَلَى ما تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : ١١٢] .

والحكم الشرعي ، في قوله تعالى : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُم غَيْرَ مُحِلي الصَّيْدِ وَأَنْتُم حُرُمٌ إِنَّ الله يَحْكُمُ مَا يُريدُ ﴾ [المائدة :١] . وقال تعالى : ﴿ ذٰلِكُم حُكْمُ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُم ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

وأما التحريم الكوني ، ففي قوله تعالى : ﴿ قَالَ فإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِم أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ في الأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٢٦] . ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُم لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٩٥] .

والتحريم الشرعي ، في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُم المَيْتَةُ والدَّمُ وَلَحْمُ الخِنْزِيرِ ﴾ [المائدة : ٣] . و﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُم أُمَّهَاتُكُم ﴾ الآية [النساء : ٢٣] .

وأما الكلمات الكونية : ففي قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتْ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف : ١٣٧] . وفي قوله ﷺ : « أَعُوذُ بِكَلِماتِ الله التَّامَّاتِ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ »(*) . والكلمات الشرعية الدينية ، في قوله تعالى : ﴿ وإِذ ابتَلَى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

(*) تقدم تخرجه ص ١٤٨ رقم ٧٢ .

وقوله : يفعل ما يشاء ، وهو غيرُ ظالم أبداً . الذي دل عليه القرآن من تنزيه الله نفسه عن ظلم العباد ، يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدرية والجبرية ، فليس ما كان من بني آدم ظلماً وقبيحاً يكون منه ظلماً وقبيحاً ، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم ! فإن ذلك تمثيل لله بخلقه ! وقياس له عليهم ! هو الرب الغني القادر ، وهم العباد الفقراء المقهورون . وليس الظلم عبارةً عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة ، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم! بل كل ما كان ممكناً ، فهو منه ـ لو فعله ـ عدل ، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي ، والله ليس كذلك . فإن قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمَاً وَلَا هَضْمَاً ﴾ [طه : ١١٢] ، وقوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُم وَلٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ [الزخرف : ٧٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدَاً ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ اليَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ اليَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ [غافر : ١٧] . وذلك يدل على نقيض هذا القول .

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله : « يا عِبَادِي ، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي ، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُم مُحَرَّماً ، فَلَا تَظَالَمُوا »(*) . فهذا دل على شيئين :

أحدهما : أنه حرم على نفسه الظلم ، والممتنع لا يُوصف بذلك .

الثاني : أنه أخبر أنه حرَّمه على نفسه ، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة ، وهذا يُبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكونُ إلا من مأمور منهي ، والله ليس كذلك ، فيقال لهم : هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة ، وحرَّم على

(*) تقدم تخرجه ص ٧٣ رقم ٢٢ .

نفسه الظلم ، وإنما كتب على نفسه وحرَّم على نفسه ما هو قادر عليه ، لا ما هو ممتنع عليه .

وأيضاً : فإن قوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمَاً وَلَا هَضْمَاً ﴾ [طه : ١١٢] قد فسره السلف ، بأن الظلم : أن توضع عليه سيئات غيره ،والهضم :أن ينقص من حسناته ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء : ١٥] .

وأيضاً : فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك ، وإنما يأمن مما يمكن ، فلما آمنه الله من الظلم بقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ [طه : ١١٢] عُلم أنه ممكن مقدور عليه . وكذلك قوله : ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ [ق . ٢٨] ، إلى قوله : ﴿ وَمَا أنا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [ق : ٢٩] ، لم يعن بها نفي ما لا يقدر عليه ولا يُمكن منه ، وإنما نفي ما هو مقدور عليه ممكن ، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم . فعلى قول هؤلاء ليس الله منزهاً عن شيء من الأفعال أصلاً ، ولا مقدساً عن أن يفعله ، بل كل ممكن ، فإنه لا ينزه عن فعله ، بل فعله حسن ، ولا حقيقة للفعل السُّوء ، بل ذلك ممتنع ، والممتنع لا حقيقة له !! والقرآن يدل على نقيض هذا القول في مواضع نزَّه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له ، فعلم أنه منزه مقدَّس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدَّس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْنَاكُم عَبَثَاً وَأَنَّكُم إِلَيْنَا لا تُرجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] . فإنه نزَّه نفسه عن خلق الخلق عبثاً ، وأنكر على من حسب ذلك ، وهذا فعل/. ٨٩/أ

وقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ المُسْلِمِينَ كالمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم : ٣٥] . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كالمُفْسِدِينَ في الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقينَ كالفُجَّارِ ﴾ [ص : ٢٨] إنكار منه على من جوَّز أن يسوِّي الله بين هذا وهذا .

وكذا قوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُم كالَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُم وَمَمَاتُهُم سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] إنكار على من حسب أنه يفعل هذا ، وإخبار أن هذا حكم سيء قبيح ، وهو مما ينزه الرب عنه .

وروى أبو داود ، والحاكم في « المستدرك » ، من حديث ابن عباس ، وعُبادة بن الصامت ، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم ، عن النبي ﷺ : « لَوَ أَنَّ الله عَـذَّبَ أَهْلَ سَمَـاوَاتِهِ وأَرْضِـهِ ، لَعَذَّبَهُم وَهُـوَ غَيْرُ ظَـالِمٍ لَهُم ، وَلَو رَحِمَهُم كَانَت رَحْمَتُهُ خَيْرَاً لَهم مِنْ أَعْمَالِهِم »[٣١٩] . وهذا الحديثُ مما يحتج به الجبرية .

وأما القدرية ، فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ! ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل !! وأسعدُ الناس به أهل السنة ، الذين قابلوه بالتصديق ، وعلموا من عظمة الله وجلاله، قدْرَ نِعَم الله على خلقه ، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم ، إما عجزاً ، وإما جهلاً ، وإما تفريطاً وإضاعةً ، وإما تقصيراً في المقدور من الشكر ، ولو من بعض الوجوه ، فإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذْكر فلا يُنسى ، ويشكر فلا يُكفَر ، وتكونَ قوة الحب والإنابة ، والتوكل والخشية ، والمراقبة والخوف والرجاء ـ : جميعها متوجهةً إليه ، ومتعلقةً به ، بحيث يكون القلب عاكفاً على محبته وتأليهه ، بل على إفراده بذلك ، واللسان محبوساً على ذكره ، والجوارح وقفاً على طاعته . ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة ، ولكن النفوس تشحّ به ، وهي في الشح على مراتب لا يُحصيها إلا الله

---

(٣١٩) قطعة من حديث رواه أبو داود رقم (٤٦٩٩) في السنة : باب في القدر ، وابن ماجه رقم (٧٧) في المقدمة : باب في القدر ، وأحمد في « المسند » ١٨٢/٥ و١٨٣ و١٨٥ و١٨٩ من حديث أُبَيِّ ابن كعب رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

تعالى ، وأكثرُ المطيعين تَشِحُّ به نفسه من وجه ، وإن أتى به من وجه آخر . فأين الذي لا تقعُ منه إرادةٌ تزاحمُ مرادَ الله وما يحبه منه ؟ ومن ذا الذي لم يصدر منه خلاف ما خُلق له ، ولو في وقت من الأوقات ؟ فلو وضع الربُّ سبحانه عدله على أهل سماواته وأرضه ، لعذَّبهم بعدله ، ولم يكن ظالماً لهم . وغاية ما يُقدَّر ، توبةُ العبد من ذلك واعترافه ، وقبولُ التوبة محضُ فضله وإحسانه ، وإلا فلو عذَّب عبدَه على جنايته ، لم يكن ظالماً ، ولو قُدِّر أنه تاب منها ، لكن أوجب على نفسه ـ بمقتضى فضله ورحمته أنه لا يعذب من تاب ، وقد كتب على نفسه الرحمة ، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه ، ولا يبلغ عملُ أحد منهم أن ينجوَ به من النار ، أو يدخل الجنة ، كما قال أطوعُ الناس لربه ، وأفضلُهم عملاً ، وأشدُّهم تعظيماً لربه وإجلالاً : « لَنْ يُنجي أَحَداً مِنْكُم عَمَلُهُ » ، قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « وَلَا أنا ، إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَني الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ »(*) .

وسأله الصديقُ دعاءً يدعو به في صلاته ، فقالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمَاً كَثِيرَاً ، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ ، فاغفِرْ لي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وارحَمْنِي ، إِنَّكَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ »(٣٢٠) . فإذا كان هذا حال الصديق ، الذي هو أفضلُ الناس بعد الأنبياء والمرسلين فما الظنُّ بسواه ؟ بل إنما صار صدِّيقاً بتـوفية هذا المقامَ حقه ، الذي يتضمن معرفة ربه ، وحقه وعظمته ، وما ينبغي له ، وما يستحقه على عبده ، ومعرفة تقصيره . فسحقاً وبُعداً لمن

(*) تقدم تخريجه ص ٥٠٦ رقم ٣١٥ .

(٣٢٠) رواه البخاري ٢/٢٦٥ في صفة الصلاة : باب الدعاء قبل السلام ، و١١١/١١ في الدعوات : باب الدعاء في الصلاة ، و٣١٧/١٣ في التوحيد : باب قوله تعالى : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ ، ومسلم رقم (٢٧٠٥) في الذكر والدعاء : باب استحباب خفض الصوت بالذكر ، والترمذي رقم (٣٥٢١) في الدعوات : باب دعاء يقال في الصلاة ، والنسائي ٥٣/٣ في السهو : باب نوع آخر من الدعاء ، وأحمد في « المسند » ٤/١ و٧ ، وابن ماجه رقم (٣٨٣٥) في الدعاء : باب دعاء رسول الله ﷺ .

زعم أن المخلوقَ يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجةٌ إليها ! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية !! فإن لم يتسع فهمك لهذا ، فانزلْ إلى وطأة النعم ، وما عليها من الحقوق ، ووازنْ بين شَكرها وكُفرها ، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذَّب أهل سَمَاوَاتِهِ وأرضه ، لعذَّبهم وهو غيرُ ظالم لهم .

* * *

قوله : وَفي دُعاءِ الأَحْيَاءِ وَصَدَقَاتِهِم لِلأَمْوَاتِ .

اتفق أهل السنة أن الأموات يتنفِعون من سعي الأحياء بأمرين :

أحدهما : ما تسبب إليه الميت في حياته .

والثاني : دعاء المسلمين واستغفارهم له ، والصدقة والحج ، على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج .

فعن محمد بن الحسن : أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة ، والحج للحاجّ . وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح .

واختلف في العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر : فذهب(*) أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف رحمهم الله إلى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك رحمهما الله عدمُ وصولها .

وذهب بعضُ أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة ، لا الدعاء ولا غيره ، وقولهم مردود بالكتاب والسنة ، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : ٣٩] . وقوله :

(*) في الأصل : فذكر،وما أثبتناه من مطبوعة مكة وهو أليق بسياق العبارة .

﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [يس : ٥٤] . وقوله : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا مَاتَ الإِنْسَانُ انقَطَعَ عَمَلُهُ إلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : إلا من صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو لَهُ ، أو عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ »(٣٢١) . فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه(*) في الحياة ، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه . واستدل/المقتصرون على وصول العبادات التي تدخلها(**) النيابة كالصدقة والحج بأن النوع الذي لا تدخله النيابة بحال ـ كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن ، يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه ، كما أنه في الحياة لا يفعله أحدٌ عن أحد ، ولا ينوب فيه عن فاعله غيرُه .

٨٩/ب

وقد روى النسائي بسنده ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : «لا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ ، وَلٰكِنْ يُطْعِمُ عَنْهُ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مُدًّا مِنْ حِنْطَةٍ»(٣٢٢) .

والدليلُ على انتفاع الميت بغير ما تسبَّب فيه : الكتابُ والسنة والإجماعُ والقياسُ الصحيح .

أما الكتاب ، فقال تعالى : ﴿ والذينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِرْ لَنَا ولإخواننا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ ﴾ [الحشر : ١٠] . فأثنى عليهم

---

(٣٢١) رواه مسلم رقم (١٦٣١) في الوصية : باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، وأبو داود رقم (٢٨٨٠) في الوصايا : باب ما جاء في الصدقة عن الميت ، والترمذي رقم (١٣٧٦) في الأحكام : باب في الوقف ، والنسائي ٢٥١/٦ في الوصايا : باب فضل الصدقة عن الميت ، وأحمد في « المسند » ٣١٦/٢ و٣٥٠ و٣٧٢ . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(*) في هامش الأصل : « إليه كما في نسخة المصنف» .

(**) في مطبوعة مكة « لا تدخلها » .

(٣٢٢) رواه النسائي في « الكبرى » والطحاوي في « مشكل الآثار »١٤١/٣عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ، وإسناده صحيح ، ولا يعرف في المرفوع .كما قال الألباني .

باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماعُ الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة ، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة ، وكذا الدعاء له بعد الدفن ، ففي « سنن أبي داود »[٣٢٣] ، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، قال : كان النبي ﷺ إذا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ المَيِّتِ وَقَفَ عَلَيهِ فَقَالَ : « استغفِرُوا لأَخِيكُم ، واسأَلُوا لَهُ التثبيتَ ، فإِنَّهُ الآنَ يُسألُ » .

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم ، كما في « صحيح مسلم » ، من حديث بُريدة بن الحُصَيب ، قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : « السَّلامُ عَلَيْكُم أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُسْلِمِينَ ، وإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُم لاحِقُونَ ، نَسْأَلُ الله لَنَا وَلَكُم العَافِيَةَ »[*] .

وفي « صحيحه » أيضاً ، أنَّ عائشة رضي الله عنها : سألتُ النَّبيَّ ﷺ : كَيْفَ نقول : إذا استغفرنا لأهل القبور ؟ قَالَ : « قُولي : السَّلامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ المُؤْمِنِينَ والمُسْلِمِينَ ، وَيَرْحَمُ الله المُسْتَقْدِمِينَ مِنَّا وَمِنْكُم والمُسْتَأْخِرِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ الله بِكُم لَلاحِقُونَ »[*] .

وأما وصولُ ثواب الصدقة ، ففي « الصحيحين »[٣٢٤] ، عن عائشة

---

(٣٢٣) رقم (٣٢٢١) في الجنائز : باب الاستغفار للميت ، وهو حديث صحيح .

(*) تقدم تخريجه ص ٣٨٩ رقم ٢٢٩ .

(٣٢٤) رواه البخاري ٥/٢٩١ في الوصايا : باب ما يستحب لمن توفي فجأة أن يتصدقوا عنه ، وقضاء النذور عن الميت ، و٣/٢٠٣ في الجنائز : باب ما يستحب لمن توفي فجأة أن يتصدقوا عنه ، ومسلم رقم (١٠٠٤) في الزكاة : باب وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ، و« الموطأ» ٢/٧٦٠ في الأقضية : باب صدقة الحي عن الميت ، وأبو داود رقم (٢٧١٧) في الوصايا : باب ما جاء فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه ، والنسائي ٦/٢٥٠ في الوصايا : باب إذا مات الفجأة هل يستحب لأهله أن يتصدقوا عنه ، وأحمد في « المسند » ٦/٥١ ، وابن ماجه رقم (٢٧٧٧) في الوصايا باب من لم يؤمن هل يتصدق عنه .

رضي الله عنها : أنَّ رَجُلاً أتى النَّبيَّ ﷺ، فَقَالَ : يا رَسُولَ الله ! إنَّ أُمِّي افتُلِتَتْ نَفْسُهَا ، وَلَمْ تُوصِ ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ ، أَفَلَهَا أَجْرٌ إِنْ تَصَدَّقْتُ عنها ؟ قال : « نَعَم » .

وفي « صحيح البخاري »[٣٢٥] ، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : أن سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ تُوفِّيَتْ أُمُّهُ وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهَا فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! إنَّ أُمِّي تُوفِّيَتْ وَأَنَا غَائِبٌ عَنْهَا ، فَهَلْ يَنْفَعُهَا إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا ؟ قَالَ : « نَعَم » ، قَالَ : فإِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّ حَائِطي المِخْرَاف صَدَقَةٌ عَنْهَا » وأمثال ذلك كثيرة في السنة .

وأما وصول ثواب الصوم ، ففي « الصحيحين »[٣٢٦] ، عن عائشة رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ » . وله نظائر في « الصحيح » .

ولكن أبو حنيفة رضي الله عنه قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه ، لحديث ابن عباس المتقدم ، والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع .

وأما وصولُ ثواب الحج ، ففي « صحيح البخاري »[٣٢٧] ، عن ابن

---

(٣٢٥) ٥/٢٨٩ في الوصايا : باب إذا قال أرضي وبستاني صدقة عن أمي فهو جائز ، و٥/٢٩٢ : باب الاشهاد في الوقف والصدقة ، وباب إذا وقف أرضاً ولم يبين الحدود فهو جائز ، وأبو داود رقم (٢٨٨٢) في الوصايا : باب ما جاء فيمن مات عن غير وصية يتصدق عنه ، والترمذي رقم (٦٦٩) في الزكاة : باب ما جاء في الصدقة عن الميت ، والنسائي ٦/٢٥٢ ـ ٢٥٣ في الوصايا : باب فضل الصدقة عن الميت .

(٣٢٦) رواه البخاري ٤/١٦٨ في الصوم : باب من مات وعليه صوم ، ومسلم رقم (١١٤٧) في الصوم : باب قضاء الصيام عن الميت ، وأبو داود رقم (٢٤٠٠) في الصوم : باب فيمن مات وعليه صيام ، وأحمد في « المسند » ٦ / ٦٩ .

(٣٢٧) ١٣/٢٥٢ في الاعتصام : باب من شبه أصلاً معلوماً بأصل مبين ، والنسائي ٥/١١٦ في الحج : باب الحج عن الميت الذي لم يحج ، وأحمد في « المسند » ١/٢٧٩ .

عباس رضي الله عنهما : أَنَّ امرأةً مِنْ جُهينةَ جَاءَتْ إلى النَّبيِّ ﷺ، فَقَالَتْ : إِنَّ أُمِّي نَـذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تحـجَّ حَتَّىٰ مَاتَتْ ، أَفَـأَحُجُّ عَنْهَـا ، قَالَ : حُجِّي عَنْهَـا ، أَرَأَيْتِ لَوْ كَـانَ عَلَىٰ أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَـاضِيَتَهُ ، اقْضُـوا الله ، فَالله أَحَقُّ بالوَفَاءِ » . ونظائره أيضاً كثيرة .

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يُسقطه من ذمة الميت ، ولو كان من أجنبي ، ومن غير تركته ، وقد دل على ذلك حديثُ أبي قتادة ، حيث ضَمِنَ الدينارين عن الميت ، فلمَّا قضاهما ، قال النبيُّ ﷺ: « الآنَ بَرَّدْتَ عَلَيهِ جِلْدَتَهُ »(٣٢٨) .

وكل ذلك جار على قواعد الشرع ، وهو محضُ القياس ، فإنَّ الثواب حقُّ العامل ، فإذا وهبه لأخيه المسلم ، لم يُمنع من ذلك ، كما لم يمنع من هبة ماله في حياته وإبرائه له منه بعد وفاته .

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية . يوضحه : أن الصوم كفُّ النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت ، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية ؟!

والجوابُ عما استدلوا به من قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ للإنسَانِ إلَّا مَا سَعَى ﴾ [النجم : ٣٩] قد أجاب العلماء بأجوبة : أصحها جوابان :

أحدهما : أن الإنسان بسعيه وحُسنِ عُشرته اكتسب الأصدقاء ، وأولد الأولاد ، ونكحَ الأزواج ، وأسدى الخيرَ ، وتودَّد إلى الناس ، فترحَّموا عليه ،

---

(٣٢٨) قطعة من حديث رواه أحمد في « المسند » ٣/ ٣٣٠ والحاكم في « المستدرك » ٢/ ٥٨ من حديث جابر عبد الله رضي الله عنهما . وإسناده حسن كما قال الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٣/ ٣٩ ، ونسبه لأحمد والبزار .

ودَعَوْا له ، وأهدَوْا له ثوابَ الطاعات ، فكان ذلك أثرُ سعيه ، بل دخولُ المسلمِ مع جملة المسلمين في عَقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كلٍ من المسلمين إلى صاحبه ، في حياته وبعد مماته ، ودعوة المسلمين تُحيط من ورائهم .

يُوضحه : أن الله تعالى جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم ، فإذا أتى به ، فقد سعى في السبب الذي يُوصل إليه ذلك .

الثاني ، وهو أقوى منه ـ أن القرآن لم ينفِ انتفاع الرجل بسعي غيره ، وإنما نفى مِلكه لغير سعيه ، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى ، فأخبر تعالى أنه لا يملك/إلا سعيه ، وأما سعيُ غيره ، فهو ملكٌ لساعيه ، فإن شاء أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يبقيه لنفسه . ٩٠/أ

وقوله سبحانه : ﴿ أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ للإِنسَانِ إلَّا مَا سعَى﴾ [النجم : ٣٨ ـ ٣٩] . آيتان محكمتان ، تقتضيتان عدل الرب تعالى :

فالأولى تقتضي أنه لا يُعاقِبُ أحداً بجرم غيره ، ولا يُؤاخِذه بجريرة غيره ، كما يفعلُه ملوك الدنيا .

والثانية : تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله ، لينقطع طمعُهُ من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه ، كما عليه أصحابُ الطمع الكاذب ، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقوله : ﴿ وَلَا تُجْزَونَ إلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [يس : ٥٤] . على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غيره ، فإنه تعالى قال : ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئَاً وَلَا تُجْزَونَ إلَّا مَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ ﴾ [يس : ٥٤] .

وأما استدلالُهم بقوله ﷺ : « إذا مَاتَ ابنُ آدَمَ انقَطَعَ عَمَلُهُ »(*) فاستدلال ساقط ، فإنه لم يقل انقطـع انتفاعه ، وإنما أخبر عن انقطاع عمله ، وأما عمل غيره ، فهو لعامله ، فإن وهبه له وصل إليه ثوابُ عمل العامل ، لا ثواب عمله هو ، وهذا كالدَّين يُوفيه الإنسان عن غيره ، فتبرأ ذِمتُهُ ، ولكن ليس له ما وفّى به الدين .

وأما تفريقُ من فرَّق بين العبادات المالية والبدنية فقد شرع النبي ﷺ الصوم عن الميت ، كما تقدم ، مع أن الصوم لا تجزىء فيه النيابةُ ، وكذلك حديثُ جابر رضي الله عنه ، قَالَ : صَلَّيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عِيْدَ الأَضْحَى ، فَلَمَّا انصَرَفَ أَتَى بِكَبْشٍ فَذَبَحَهُ ، فَقَالَ : « بِسْمِ اللهِ واللهِ أكبرُ ، اللَّهُمَّ هٰذَا عَنِّي وَعَمَّن لَمْ يُضَحِّ مِنْ أُمَّتِي »(٣٢٩) ، رواه أحمد وأبو داود والترمذي ، وحديث الكبشين اللذين قال في أحدهما : « اللَّهُمَّ هٰذَا عَنْ أُمَّتِي جَمِيعاً »(٣٣٠) ، وفي الآخر : « اللَّهُمَّ هٰذَا عَنْ مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّدٍ » ، رواه أحمدُ . والقُرْبة في الأضحية إراقةُ الدم ، وقد جعلها لغيره .

وكذلك عبادةُ الحج بدنية ، وليس المال ركناً فيه ، وإنما هو وسيلة ، أَلا تَرى أن المكي يجبُ عليه الحجُّ إذا قدر على المشي إلى عرفات ، من غير شرط المال ، وهذا هو الأظهر ، أعني أن الحج غيرُ مركب من مال

(*) تقدم تخريجه ص٥٢٦ رقم ٣٢١ .

(٣٢٩) رواه أبو داود رقم (٢٨١٠) في الأضاحي : باب في الشاة يضحي بها عن جماعة ، وأحمد في « المسند » ٣٥٦/٣ و٣٦٢ ، والترمذي رقم (١٥٢١) في الأضاحي : باب رقم ٢٢ ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، والمطلب ابن عبد الله بن حنطب يقال : إنه لم يسمع من جابر وهو حديث صحيح لغيره ، انظر « مجمع الزوائد » ٤/ ٢٢ ـ ٢٣ فقد أورد طائفة منها .

(٣٣٠) رواه أحمد في « المسند » ٣٩١/٦ و٣٩٢ من حديث أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ، واسناده حسن .

وبدن ، بل بدني محض ، كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبي حنيفة المتأخرين . وانظر إلى فروض الكفايات : كيف قام فيها البعض عن الباقين ؟ ولأن هذا إهداء ثواب ، وليس من باب النيابة ، كما أن الأجير الخاصّ ليس له أن يستنيب عنه ، وله أن يُعطي أجرته لمن يشاء .

وأما استئجارُ قوم يقرؤ ون القرآن ، ويهدُونه للميت !! فهذا لم يفعله أحد من السلف ، ولا أمر به أحد من أئمة الدين ، ولا رخَّص فيه ، والاستئجار على نفس التلاوة غيرُ جائز بلا خلاف ، وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه ، مما فيه منفعة تصل إلى الغير . والثوابُ لايصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله ، وهذا لم يقع عبادةً خالصة ، فلا يكون له ثوابه مما يهدى إلى الموتى !!

ولهذا لم يقل أحد إنه يكتري مَنْ يصومُ ويُصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت ، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونةً لأهل القرآن على ذلك ، كان هذا من جنس الصدقة عنه ، فيجوز .

وفي «الاختيار» : لو أوصى بأن يُعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره ، فالوصية باطلة ، لأنه في معنى الأجرة ، انتهى .

وذكر الزاهدي(*) في « القنية » : أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره ، فالتعيين باطل .

وأما قراءة القرآن وإهداؤ ها له تطوعاً بغير أجرة ، فهذا يصل إليه ، كما يصل ثوابُ الصوم والحج .

فإن قيل. هذا لم يكن معروفاً في السلف، ولا أرشدهم إليه النبيُّ ﷺ ؟

(*) هو مختار بن محمود الغزميني ، فقيه من أكابر الحنفية ، له «الرسالة الناصرية في النبوة والمعجزات» ، و«القنية» و«المجتبى» في الفقه توفي رحمه الله سنة ٦٥٨ هـ . انظر « الجواهر المضية » ٢/١٦٦ و«الأعلام» ٧/١٩٣ و« معجم المؤلفين » ٢/٢١١ .

فالجوابُ : إنْ كان مُورِدُ هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء .

قيل له : ما الفرقُ بين ذلك وبينَ وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجةً في عدم الوصول ، ومن أين لنا هذا النفي العام ؟

فإن قيل : فرسولُ الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟

قيل : هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرجَ الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته ، فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه ، فأذن له فيه ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك ، وأيُّ فرق بين وصول ثواب الصوم ـ الذي هو مجرد نية وإمساك ـ وبينَ وصول ثواب القراءة والذكر ؟

فإن قيل : ما تقولون في الإهداء إلى رسول الله ﷺ؟

قيل : من المتأخرين من استحبه .

ومنهم من رآه بدعةً ، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه ، ولأن النبي ﷺ له مثلُ أجر كل من عمل خيراً من أمته ، من غير أن يَنْقُصَ مِن أجر العامل شيء ، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير ، وأرشدهم إليه .

ومن قال : إن الميت ينتفِعُ بقراءة القرآن عنده ، باعتبار سماعه كلام الله فهذا لم يصحّ عن أحد من الأئمة المشهورين . ولا شك في سماعه ، ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح ، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة ، فإنه عمل اختياريّ ، وقد انقطع بموته ، بل ربما يتضرر ويتألم ، لكونه/لم يمتثل ٩٠/ب أوامر الله ونواهيه ، أو لكونه لم يَزْدَدْ من الخير .

واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور ، على ثلاثة أقوال : هل تكره ، أم لا بأس بها وقت الدفن ، وتكره بعده ؟

فمن قال بكراهتها ، كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية ـ قالوا : لأنه محدَث ، لم تَرِد به السنة ، والقراءة تُشبِهُ الصلاة ، والصلاة عند القبور منهيٌّ عنها ، فكذلك القراءة .

ومن قال : لا بأس بها ، كمحمد بن الحسن وأحمد في رواية ـ استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما : أنه أوصى أن يُقرأ على قبره وقتَ الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها ، ونُقل أيضاً عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة .

ومن قال : لا بأس بها وقتَ الدفن فقط ، وهو روايةٌ عن أحمد ـ أخذ بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنهما وبعض المهاجرين .

وأما بعد ذلك ، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده ـ فهذا مكروه ، فإنه لم تأت به السنة ، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً ، وهذا القول لعله أقوى من غيره ، لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

* * *

قوله : والله تَعَالَى يَسْتَجِيبُ الدَّعَوَاتِ ، وَيَقضِي الحَاجَاتِ .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُم ادعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ [غافر : ٦٠] . ﴿ وَإذا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] . والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم ـ : أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارّ .

وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسَّهم الضرُّ في البحر دَعَوا الله مخلِصين له الدينَ ، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعداً أو قائماً . وإجابة الله لدعاء العبد ، مسلماً كان أو كافراً ، وإعطاؤه سُؤْلَه : من جنس رزقه لهم ، ونصره لهم . وهو مما تُوجبه الربوبية للعبد مطلقاً ، ثم قد يكون ذلك فتنةً في حقه ومضرةً عليه ، إِذْ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك .

وفي « سنن ابن ماجه »[٣٣١] من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه قال : قال رسول اللهَ ﷺ : « مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغْضَبْ عَلَيهِ » . وقد نظم بعضهم هذا المعنى ، فقال :

الرَّبُّ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ   وبُنَيُّ آدَمَ حِيْنَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

قال ابن عقيل[*] : قد ندب الله تعالى إلى الدعاء ، وفي ذلك معان :

أحدها : الوجود، فإن من ليس بموجود لا يُدعى .

الثاني : الغِنى ، فإن الفقير لا يُدعى .

الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يُدعى .

---

(٣٣١) رقم (٣٨٢٧) في الدعاء : باب فضل الدعاء ، وأحمد في « المسند » ٤٤٢/٢ ، والبخاري في « الأدب المفرد » رقم (٦٥٨) : باب من لم يسأل الله يغضب عليه ، والترمذي رقم (٣٧٧٠) في الدعوات : باب رقم ٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي سنده أبو صالح الخوزي ، ضعفه ابن معين ، وقال أبو زرعة : لا بأس به .

ويؤيدون جهة المعنى حديث الترمذي رقم (٣٥٦٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « سلوا الله من فضله ، فإن الله يحب أن يسأل » فهو حسن به إن شاء الله .

(*) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري الحنبلي ، الأصولي ، المقرىء ، الواعظ ، شيخ الحنابلة في وقته ولد سنة ٤٣١ هـ وتوفي سنة ٥١٣ هـ ، من تصانيفه : « كتاب الفنون » لم يصنف في الدنيا أكبر منه . و « الفصول » في فقه الحنابلة ، و « كفاية المفتي » و « الجدل على طريقة الفقهاء » وغيرها .

الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يُدعى .

الخامس : الرحمة ، فإن القاسي لا يُدعى .

السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يُدعى .

ومن يقول بالطبائع يعلمُ أن النار لا يقال لها : كُفي ! ولا النجم يقال له : أصلح مزاجي !! لأن هذه عندهم مؤثرة طبعاً لا اختياراً ، فشرع الدعاءَ وصلاةَ الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع .

وذهب قوم من المتفلسفة وغاليةُ المتصوفة إلى أن الدعاء لا فائدة فيه ! قالوا : لأن المشيئة الإلهية إن اقتضتْ وجودَ المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ، وإن لم تقتضه ، فلا فائدةَ في الدعاء !! وقد يخص بعضُهم بذلك خواصَّ العارفين ! ويجعل الدعاء علةً في مقام الخواص !! وهذا من غلطات بعض الشيوخ ، فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الاسلام فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية ، فإن منفعة الدعاء أمرٌ اتفقت عليه تجارِبُ الأممِ ، حتى إن الفلاسفة تقول : ضجيج الأصوات في هياكل العبادات ، بفنون اللغات ، يحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات !! وهذا و هم مشركون .

وجواب الشبهة بمنع المقدمتين : فإن قولهم عن المشيئة الإلهية : إما تقتضيه أو لا فَثَمَّ قسم ثالث،وهو : أن تقتضيَه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاءُ مِن شرطه ، كما توجب الثوابَ مع العمل الصالح ، ولا تُوجبه مع عدمه ، وكما تُوجب الشبع والريّ عند الأكل والشرب ، ولا تُوجبه مع عدمهما ، وحصول الولد بالوطء ، والزرع بالبذر . فإذا قُدّر وقوع المدعوّ به بالدعاء لم يصحَّ أن يقال لا فائدة في الدعاء ، كما لا يقال : لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب . فقولُ هؤلاء ـ كما أنه مخالف للشرع ـ فهو مخالف للحسّ والفطرة .

ومما ينبغي أن يُعلم ، ما قاله طائفة من العلماء ، وهو : أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ! ومحـو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع ، ومعنى التوكل والرجاء ، يتألف من موجب التوحيد والعقل والشرع .

وبيان ذلك : أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد اليه ، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا ، لأنه ليس بمستقلّ ، ولا بدّ له من شركاء وأضداد ، ومع هذا كله فإن لم يسخِّره مسببُ الأسباب لم يسخَّر .

وقولهم : إن اقتضت المشيئة المطلوب ، فلا حاجة إلى الدعاء ؟

قلنا : بل قد تكون إليه حاجة ، من تحصيل مصلحة /أخرى عاجلة وآجلة ، ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة . ٩١/أ

وكذلك قولُهم : وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه ؟

قلنا : بل فيه فوائد عظيمة ، من جلب منافع ، ودفع مضارّ ، كما نبه عليه النبيُّ ﷺ ، بل ما يعجل للعبد من معرفته بربه ، وإقراره به ، وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم ، وإقراره بفقره إليه ، واضطراره إليه ، وما يتبع ذلك من العلوم العلية ، والأحوال الزكية ، التي هي من أعظم المطالب .

فإن قيل : إذا كان إعطاءُ الله معللاً بفعل العبد ، كما يعقل من إعطاء المسؤول للسائل ، كان السائل قد أثَّر في المسؤول حتى أعطاه ؟ !

قلنا : الرب سبحانه هو الذي حرَّك العبد إلى دعائه ، فهذا الخير منه ، وتمامه عليه ، كما قال عمر رضي الله عنه : إني لا أحمل همَّ الإجابة : وإنما أحمل همّ الدعاء ، ولكن إذا ألهمتُ الدعاءَ فإن الإجابة معه . وعلى هذا قولُه

تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأمْرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إليه في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [آلم السجدة : ٥] . فأخبر سبحانه أنه يبتدىء بتدبير الأمر ، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبَّره، فالله سبحانه هو الذي يقذِفُ في قلبِ العبد حركةَ الدعاء ، ويجعلها سبباً للخير الذي يعطيه إياه ، كما في العمل والثواب ، فهو الذي وفق العبد للتوبة ، ثم قبلها ، وهو الذي وفَّقه للعملَ ثم أثابه ، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه ، فما أثَّر فيه بشيءٍ من المخلوقات ، بل هو جعل ما يفعله سبباً لما يفعله .

قال مطرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير(*) ، أحد أئمة التابعين : نظرتُ في هذا الأمر ، فوجدتُ مبدأه من الله ، وتمامَه على الله ، ووجدتُ مِلاكَ ذلك الدُّعاء .

وهنا سؤال معروف ، وهو : أن [مِن](**) الناس من قد يسأل الله ، فلا يعطى شيئاً ، أو يعطَى غير ما سأل ؟

وقد أجيب عنه بأجوبة ، فيها ثلاثة أجوبة محققة :

أحدها : أن الآية لم تتضمن عطيةَ السؤال مطلقاً ، وإنما تضمنت إجابةَ الداعي ، والداعي أعمُّ من السائل ، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل .

ولهذا قال النبي ﷺ : « يَنْزِلُ رَبُّنا كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيا ، فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُني فَأُعْطِيه ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُني فَأَغْفِرَ لَهُ ؟»(***) .

ففرق بين الداعي والسائل ، وبين الإجابة والإعطاء ، وهو فرقٌ بينَ

(*) هو أبو عبد الله مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري ، زاهد من كبار التابعين ، ثقة في ما رواه من الحديث ، ولد في حياة النبي ﷺ، وتوفي في البصرة سنة ٨٧ هـ . له كلمات في الحكمة مأثورة .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

(***) تقدم تخرجه ص ٢١٢ رقم ٩٨ .

العموم والخصوص ، كما أتبع ذلك بالمستغفر ، وهو نوعٌ من السائل ، فذكر العام ، ثم الخاص ، ثم الأخص . وإذا عَلم العباد أنه قريب ، يُجيب دعوة الداعي ، علموا قربه منهم ، وتمكنهم من سؤاله ، وعلموا علمه ورحمته وقدرته ، فدعوه دعاء العبادة في حال ، ودعاءَ المسألة في حال ، وجمعوا بينهما في حال ، إذ الدعاءُ اسم لجميع العبادة والاستعانة ، وقد فسر قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾ [غافر : ٦٠] بالدعاء ، الذي هو العبادة ، والدعاء الذي هو الطلب ، وقوله تعالى بعد ذلك : ﴿ إنَّ الذينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر : ٦٠] يؤيد المعنى الأول .

الجواب الثاني : أن إجابة دعاء السؤال أعمّ من إعطاء عين السؤال ، كما فسره النبيُّ ﷺ فيما رواه مسلم في « صحيحه » ، أن النبي ﷺ قال : « ما مِنْ رَجُلٍ يَدعُو الله بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فيها إثْمٌ ولا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إلاَّ أعْطَاهُ بها إحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ : إمَّا أنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ ، أو يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الخَيْرِ مِثْلَهَا ، أو يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهَا » ، قَالُوا يا رَسُولَ الله ! إذاً نُكْثِرُ ، قَالَ : « الله أكثَرُ »(٣٣٢) . فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً ، أو مثله من الخير مؤجلاً ، أو يُصرف عنه من السوء مثله .

الجواب الثالث : أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب ، والسبب له

---

(٣٣٢) رواه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١٤٨/١٠ ـ ١٤٩ ونسبه لأحمد [في « المسند » ١٨/٣ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه] وأبي يعلى والبزار والطبراني في « الأوسط » ، وقال : ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح ، غير علي بن علي الرفاعي وهو ثقة .

ولم يروه مسلم بهذا اللفظ ، وعنده رقم (٢٧٣٥) في الذكر والدعاء : باب بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل . . . الخ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم ، أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » قيل : يا رسول الله! ما الاستعجال ؟ قال : « يقول : قد دعوت ، فلم أر يستجيب لي ، فيستحسر عند ذلك ، ويدع الدُّعاء » .

شروط وموانع ، فإذا حصلت شروطُه ، وانتفت موانعُهُ ،حصل المطلوب ، وإلا فلا يحصُل ذلك المطلوب ، بل قد يحصُل غيره . وهكذا سائرُ الكلمات الطيبات ، من الأذكار المأثورة المعلّق عليها جلبُ منافعَ أو دفع مضارٍّ ، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل ، تختلِفُ باختلاف قوته وما يعينها ، وقد يُعارضها مانع من الموانع . ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر ـ : من هذا الباب . وكثيراً ما تجد أدعيةً دعا بها قومٌ ، فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله ، أو حسنةٌ تقدمتْ منه ، جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شُكرَ الحسنة ، أو صادَفَ وقت إجابة ، ونحو ذلك ـ فأجيبت دعوتُهُ ، فيظن أن السر في ذلك الدعاء ، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي .

وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعاً في الوقت الذي ينبغي ، فانتفع به ، فظن آخرُ ان استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب ، كان غالطاً .

٩١/ب وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجابُ، فيظنْ أن السرَّ/للقبر، ولم يَدْر أن السر للاضطرار وصدْق اللجإ إلى الله تعالى ، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضلَ وأحبَّ الى الله تعالى .

فالأدعية والتعوذات والرُّقى بمنزلة السلاح ، والسلاحُ بضاربه ، لا بحده فقط ، فمتى كان السلاح سلاحاً تامّاً ، والساعدُ ساعداً قويّاً ، والمحلّ قابلاً ، والمانعُ مفقوداً ـ : حصلت به النِّكاية في العدو ، ومتى تخلَّف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير .

فإذا كان الدعاءُ في نفسه غيرَ صالح ، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء ، أو كان ثَمَّ مانعٌ من الإجابة ـ : لم يحصُلِ الأثر .

* * *

قوله: وَيَمْلِكُ كُلَّ شَيءٍ ! وَلاَ يَمْلِكُهُ شَيْءُ ، وَلاَ غِنَى عَنِ اللهِ تَعَالَى طَرْفَةَ عَينٍ ، وَمَنِ اسْتَغْنَى عَنِ اللهِ طَرْفَةَ عَينٍ ، فَقَدْ كَفَرَ ، وَصَارَ مِنْ أَهْلِ الحَين .

كلامٌ حق ظاهر لا خفاء فيه . والحَين ، بالفتح : الهلاك .

* * *

قوله : والله يَغْضَبُ وَيَرْضَىٰ ، لَا كَأَحَدٍ مِنَ الوَرَى .

قال تعالى : ﴿ رَضِيَ الله عَنْهُم ﴾ [المائدة : ١١٩] و[التوبة : ١٠٠] و[المجادلة : ٢٢] و[البينة : ٨] ، ﴿ لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ مَنْ لَعَنَهُ الله وَغَضِبَ عَلَيهِ ﴾ [المائدة : ٦٠] . ﴿ وَغَضِبَ الله عليهِ وَلَعَنَهُ ﴾ [النساء : ٩٣] . ﴿ وَبَـاؤُا بِغَضَبٍ مِنَ الله ﴾[البقرة : ٦١] . ونظائر ذلك كثيرة .

ومذهب السلف وسائر الأئمة إثباتُ صفة الغضب ، والرضى ، والعداوة ، والولاية ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك من الصفات ، التي ورد بها الكتاب والسنة ، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى . كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات ، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله : إذ كـان تأويل الرؤ ية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية تركُ التأويل ، ولزوم التسليم ، وعليه دين المرسلين(*) .

وانظر إلى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة الاستواء كيف قال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول . وروي عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفاً عليها ، ومرفوعاً إلى النبي ﷺ(**) . وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما

(*) انظر ص ١٩٥ وما بعدها .

(**) انظر ص ٧٦ و ٢٩١ .

تقدم : من لم يَتَوَقَّ النفيَ والتشبيهَ ، زَلَّ ولم يُصب التنزيه(*) . ويأتي في كلامه : أن الإسلام بين الغُلُو والتقصير ، وبين التشبيه والتعطيل(**). فقول الشيخ رحمه الله : لا كأحد من الورى ، نفى التشبيه ، ولا يقال : إن الرضى إرادة الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام - فإن هذا نفيٌ للصفة .

وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه ، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه ، وينهى عما يُسْخِطُه ويكرهه ، ويُبْغِضُه ، ويغضب على فاعله ، وإن كان قد شاءه وأراده ، فقد يُحبُّ عندهم ، ويرضى ما لا يريده ، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده .

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان : لَمَ تأولتَ ذلك ؟ فلا بد أن يقول : إن الغضب غليان دم القلب ، والرضى الميل والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ! فيقال له : غليانُ دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب ، لا أنّه الغضب . ويقال له أيضاً : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا ، فهي مَيل الحي إلى الشيء أو إلى ما يُلائمه ويُناسبه ، فإن الحي منا لا يُريد إلا ما يجلب له منفعةً ، أو يدفع عنه مضرةً ، وهو محتاج إلى ما يُريده ، ومفتقر إليه ، ويزدادُ بوجوده ، وَيَنْقُصُ بعدمه . فالمعنى الذي صرفتَ إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفتَه عنه سواء ، فإن جاز هذا ، جاز ذاك ، وإن امتنع هذا ، امتنع ذاك .

فإن قال : الإرادة التي يُوصف الله بها مخالفةٌ للإرادة التي يُوصَف بها العبد ، وإن كان كل منهما حقيقةً ؟

قيل له : فقل : إن الغضب والرضى الذي يُوصف الله به مخالفٌ لما يُوصف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقةً . فإذا كان ما يقوله في الإرادة يُمكن أن يُقال في هٰذه الصفات ، لم يتعين التأويل ، بل يجب تركه ، لأنك تسلم من

(*) انظر ص ٢٠٣ وما بعدها

(**) انظر ص ٦١٥ وما بعدها

التناقض ، وتسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرامٌ ، ولا يكون الموجب للصرف ما دلّه عليه عقله ، إذ العقولُ مختلفة ، فكلٌ يقول : إن عقله دلَّه على خلاف ما يقولُه الآخر !

وهذا الكلامُ يقال لكل من نفى صفةً من صفات الله تعالى ، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئاً لله تعالى . على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود ، فإن وجودَ العبد كما يليق به ، ووجود الباري تعالى كما يليقُ به ،فوجودُه تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم ،وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته ، مثل الحي والعليم والقدير ، أو سمي به بعضَ صفاته ،كالغضب والرضى ، وسمى به بعض صفات عباده ، فنحن نعقِلُ بقلوبنا معاني هذه/الأسماء في حق الله تعالى ، ٩٢/أ وأنه حقٌّ ثابت موجود ، ونعقل أيضاً معاني هذه الأسماء في حق المخلوق ، ونعقل أن بين المعنيين قدراً مشتركاً ، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركاً ، إذ المعنى المشترك الكلي لا يُوجد مشتركاً إلا في الأذهان ، ولا يُوجد في الخارج إلا معيناً مختصّاً . فيثبت في كل منهما كما يليق به . بل لو قيل : غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة ـ : لم يجب أن يكون مماثلاً لكيفية غضب الآدميين ، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة ، حتى تغلي دماءُ قلوبهم كما يغلي دمُ قلب الإنسان عند غضبه ، فغضب الله أولى .

وقد نفى جهم ومن وافقه كلَّ ما وصف الله به نفسه ، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك ، وقالوا : إنما هي أمور مخلوقة منفصلةٌ عنه ، ليس هو في نفسه متصفاً بشيء من ذلك !!

وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كُلَّاب ومن وافقه ، فقالوا : لا يُوصف

الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً ، بل جميعُ هذه الأمور صفاتٌ لازمة لذاته ، قديمة أزلية ، فلا يرضى في وقت دون وقت ، ولا يغضب في وقت دون وقت . كما قال في حديث الشفاعة : « إنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَوْمَ غَضَباً لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ »(*) .

وفي « الصحيحين »(٣٣٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « إنَّ الله تعالَى يَقُولُ لأهْلِ الجَنَّةِ ، يا أَهْلَ الجَنَّةِ ! فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ والخَيْرُ في يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُم ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنا لا نَرْضَى يَا رَبُّ ؟ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدَاً مِنْ خَلْقِكَ ، فَيَقُولُ : أَلاَ أُعْطِيْكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذٰلِكَ ؟ فَيَقُولُونَ : يَا رَبُّ ! وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذٰلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلَّ عَلَيْكُم رِضْوَاني ، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أَبَدَاً » .

فيستدل به على أنه يُحِلُّ رضوانه في وقت دون وقت ، وأنه قد يُحِلُّ رضوانه ثم يسخطُ ، كما يُحِلُّ السخط ثم يرضى . لكن هؤلاء أحل عليهم رضواناً لا يتعقبه سخط .

وهم قالوا : لا يتكلم إذا شاء ، ولا يضحك إذا شاء ، ولا يغضب إذا شاء ، ولا يرضى إذا شاء ، بل إما أن يجعلوا الرضى والغضب والحب والبغض هو الإرادة ، أو يجعلوها صفاتٍ أخرى ، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته ، إذ لو تعلَّق بذلك ، لكان محلاًّ للحوادث !! فنفى هؤلاء الصفاتِ الفعلية الذاتية بهذا الأصل ، كما نفى

(*) تقدم تخرجه ص ٧٦ رقم ٢٩ .

(٣٣٣) رواه البخاري ١١/٣٦٣ - ٣٦٤ في الرقاق : باب صفة الجنة النار ، و١٣/٤٠٧ في التوحيد : باب كلام الرب مع أهل الجنة ، ومسلم رقم (٢٨٢٩) في صفة الجنة : باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ، والترمذي رقم (٢٥٥٨) في صفة الجنة : باب رقم ١٨ ، وأحمد في « المسند » ٣/٨٨ .

أولئك الصفات مطلقاً بقولهم : ليس محلاً للأعراض . وقد يقال : بل هي أفعال ، ولا تسمى حوادث ، كما سميت تلك صفات ، ولم تُسَمَّ أعراضاً .
وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى ، ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد ، وكذلك الكلامُ في القدر ونحو ذلك ، ولم يعتن فيه بترتيب .

وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيبُ جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام ، حين سأله عن الإيمان ، فقال : « أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ والقَدَرِ . . . »(*) ، الحديث - فتبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك ، ثم بالكلام على الملائكة ، ثم وثم ، إلى آخره .

* * *

قوله : وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَلَا نُفْرِطُ فِي حُبِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ . وَنُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُم ، وَبِغَيْرِ الخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ . وَلَا نَذْكُرُهُمْ إلا بِخَيْرٍ . وَحُبُّهُمْ دِينٌ وإيمانٌ وَإِحْسَانٌ ، وَبُغْضُهُم كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ .

يُشيرُ الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب . وقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله ، ورضي عنهم ، ووعدهم الحسنى ، كما قال تعالى : ﴿ والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأنصار ، والذينَ اتَّبَعُوهم بإحسَانٍ رَضِيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُم جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيها أَبَدَاً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . وقال تعالى :

(*) تقدم تخريجه ص ٢٧٩ ، رقم ١٤٥ .

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله والذينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُم رُكَّعاً سُجَّداً ﴾ [الفتح : ٢٩] ، إلى آخر السورة . وقال تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المُؤْمِنِينَ إذ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. وقال تعالى : ﴿ إنَّ الذينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ في سَبِيلِ الله والذينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، إلى آخر السورة . وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرجَةً مِنَ الذينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكلًّا وَعَدَ الله الحُسْنَى والله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ لِلفُقَراءِ المُهَاجِرينَ الذينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ الله وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * والذين تَبَوَّؤُا الدَّارَ والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِم يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَو كَانَ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ/المُفْلِحُونَ * والذينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا وَلإخْوانِنَا الذينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ ، وَلَا تَجْعَلْ في قُلُوبِنَا غِلًّا للذينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا إنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ٨ ـ ١٠] .

٩٢/ب

وهٰذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار ، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم ، يستغفرون لهم ، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غِلًّا لهم ، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء ، فمن كان في قلبه غِلٌّ للذين آمنوا ولم يستغفر لهم ، لا يستحق في الفيء نصيباً بنص القرآن .

وفي « الصحيحين »[٣٣٤] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ،

---

(٣٣٤) رواه البخاري ٧/٢٧ ـ ٢٨ في فضائل الصحابة : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلًا » ، ومسلم رقم (٢٥٤١) في فضائل الصحابة : باب تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ، وأبو داود رقم (٤٦٥٨) في السنة : باب النهي عن سب أصحاب النبي ﷺ ، والترمذي رقم (٣٨٦٠) في =

قال : كانَ بَينَ خالدِ بن الوليدِ وبينَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوْفٍ شَيْء ، فَسَبَّهُ خَالدٌ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «لَا تَسُبُّوا أحَدَاً مِنْ أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُم أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً ، ما أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِم وَلَا نَصِيفَهُ » . انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن ، دون البخاري . فالنبي ﷺ يقول لخالد ونحوه : « لا تسبُّوا أصحابي » ، يعني عبد الرحمن وأمثاله ، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون ، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا ، وهم أهلُ بيعة الرضوان، [فهم أفضلُ، وأخصُّ بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان](*)، وهم الذين أسلموا بعد الحُديبية ، وبعد مصالحة النبيّ ﷺ أهل مكة ، ومنهم خالد بن الوليد ، وهٰؤلاء أسبقُ ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة ، وسموا الطلقاء ، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية .

والمقصودُ أنه نهى من له صحبة آخراً أن يسب من له صحبةٌ أولاً ، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه ، حتى لو أنفق أحدُهم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفهُ ، فإذا كان هذا حالَ الذين أسلموا بعد الحديبية ، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حالُ من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة ؟ رضي الله عنهم أجمعين .

والسابقون الأولون ـ من المهاجرين والأنصار ـ هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلُوا ، وأهلُ بيعة الرضوان كلهم منهم ، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة .

وقيل : إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين ، وهذا ضعيف ،

= المناقب : باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ ، وأحمد في « المسند » ١١/٣ و٥٤ .

ورواه مسلم رقم (٢٥٤٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

انظر « جامع الاصول » رقم (٦٣٦١) و(٦٣٦٢) .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلةً ، لأن النسخ ليس من فعلهم ، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي ، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة .

وأما ما يُروى عن النبي ﷺ أنه قال : « أَصْحَابِي كالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقتَدَيتُم اهتَدَيْتُم »(٣٣٥) ـ فهو حديث ضعيف ، قال البزار : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة .

وفي « صحيح مسلم »(٣٣٦) عن جابر رضي الله عنه قال : قيل لعائشة رَضيَ الله عنها : إنَّ ناساً يَتَنَاوَلُونَ أَصْحَابَ رَسُولِ الله ﷺ حَتّى أبا بَكْرٍ وَعُمَرَ ! فَقَالَتْ : وما تَعْجَبُونَ مِنْ هٰذَا ! انقطَعَ عَنْهُم العَمَلُ ، فَأَحَبَّ الله أن لا يَقْطَعَ عَنْهُم الأَجْرَ » .

وروى ابن بَطَّة(*) بإسناد صحيح، عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال : « لا تَسُبُّوا أَصْحَابَ محمَّدٍ ﷺ ، فَلَمَقَامُ أحدِهِم سَاعَةً ـ يَعْنِي مَعَ النَّبيِّ ﷺ ـ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُم أَرْبَعِينَ سَنَةً » . وفي رواية وكيع « خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ

---

(٣٣٥) الحديث موضوع ، رواه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله » ٢/ ٩١ وابن حزم في « الإحكام » ٦/ ٨٢ من طريق سلام بن سليم .

قال ابن عبد البر : هذا اسناد لا تقوم به حجة ، لأن الحارث بن عضين مجهول .

وسلام بن سليم مجمع على ضعفه ، قال ابن خراش : كذاب ، وقال ابن حبان : روى أحاديث موضوعة .

انظر « الأحاديث الموضوعة » للشيخ ناصر الدين الألباني ١/ ٧٨ ـ ٧٩ .

(٣٣٦) لم أجده في « صحيح مسلم » ولا في غيره من كتب السنة .

(*) هو أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان بن عمر العكبري الحنبلي المعروف بـ « ابن بطة » محدث ، متكلم ، من كبار الحنابلة ، من أهل عكبرا مولداً ووفاة ، لزم بيته أربعين سنة ، ولد سنة ٣٠٤ هـ وتوفي سنة ٣٨٧ هـ من مصنفاته : « السنن » و « المناسك » و « الانكار على من قضى بكتب الصحف الأولى » و « الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية » .

أَحَدِكُم عُمُرَه »[٣٣٧] .

وفي « الصحيحين »[٣٣٨] من حديث عمران بن حُصين رضي الله عنه وغيره ، أن رسول الله ﷺ قال : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم » ، قَالَ عِمْرَانُ : فَلاَ أَدْرِي : أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ قَرْنَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً ، الحديث .

وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن جابر رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ »(*) .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النَّبيِّ والمُهَاجِرِينَ والأَنْصَارِ الذينَ اتَّبَعُوهُ في سَاعَةِ العُسْرَةِ ﴾ الآيات [التوبة : ١١٧] .

ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصفهم ، حيث قال : إنَّ الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلبَ محمدﷺ خيرَ قلوب العبادِ ، فاصطفاهُ

---

(٣٣٧) رواه ابن ماجه رقم (١٦٢) في المقدمة : باب فضل أهل بدر ، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . واسناده صحيح .

(٣٣٨) رواه البخاري ٥/١٩٠ في الشهادات : باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد ، و٦/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب فضائل أصحاب النبي ﷺ و١١/٢١٢ في الرقاق : باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها ، وفي الأيمان والنذور : باب إثم من لا يفي بالنذر ، ومسلم رقم (٢٥٣٥) في فضائل الصحابة : باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، والترمذي رقم (٢٢٢٢) في الفتن : باب ما جاء في القرن الثالث ، ورقم (٢٣٠٣) في الشهادات : باب خبر القرون ، وأبو داود رقم (٤٦٥٧) في السنة : باب في فضل أصحاب رسول الله ﷺ ، والنسائي ٧/١٧ ـ ١٨ في الايمان والنذور : باب الوفاء بالنذر، وأحمد في« المسند » ٤/٤٢٦ و٤٢٧ و٤٣٦ و٤٤٠ من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

وفي الباب عن عبد الله بن مسعود ، وأبي هريرة ، وعمر بن الخطاب ، وعائشة رضي الله عنهم. انظر « جامع الأصول » رقم « ٦٣٥٥ » و(٦٣٥٦) و(٦٣٥٧) و(٦٣٥٨) .

وأحمد في « المسند » ٤/٢٦٧ و٢٧٦ و٢٧٧ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ، و٥/٣٥٠ و٣٥٧ من حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه .

(*) تقدم تخريجه ص٤٧٨ رقم ٢٩٢ .

لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوبِ العباد بعد قلب محمدٍ ﷺ ، فوجدَ قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد ، فجعلهم وزراءَ نبيه ، يُقَاتِلُونَ على دينه ، فما رآه المسلمون حسناً ، فهو عند الله حسن ، وما رأوه سيئاً ، فهو عند الله سيء(٣٣٩) . وقد رأى أصحابُ محمد جميعاً أن يستخلفوا أبا بكر .

وتقدم قولُ ابن مسعود : من كان منكم مستنّاً فليستن بمن قد مات ، . . . إلخ عند قول الشيخ : ونتبع السنة والجماعة(*) .

فمن أضلّ ممن يكون في قلبه غِلٌّ على خيار المؤمنين ، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين ؟ بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة .

قيل لليهود : من خيرُ أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحابُ موسى ، وقيل للنصارى : من خيرُ أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحابُ عيسى ، وقيل للرافضة : من شرُّ أهل ملتكم ؟ قالوا : أصحابُ محمد !! لم يستثنوا منهم إلا القليل ، وفيمن سبُّوهم من هو خيرٌ ممن استثنوهم بأضعاف مضاعفة .

وقوله : ولا نفرط في حب أحد منهم ـ أي : لا نتجاوز الحد في حب أحد منهم ، كما يفعل الشيعة ، فنكون من المعتدين ، قال تعالى : ﴿ يَا/أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا في دِينِكُم ﴾ [النساء : ١٧١] .

١/٩٣أ

وقوله : ولا نتبرأ من أحد منهم كما فعلت الرافضة ! فعندهم لا ولاء إلاَّ ببراء ، أي : لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما !! وأهل السنة يُوالونهم كلهم ، ويُنزلونهم منازلهم التي يستحقونها ،

---

(٣٣٩) رواه الهيثمي في « مجمع الزوائد » ١/١٧٧ ـ ١٧٨ ، وقال : رواه أحمد [في « المسند » ١/٣٧٩] موقوفاً ، والبزار والطبراني في « الكبير » ورجاله موثقون ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي .

(*) انظر ص ٤٣٢ وما بعدها .

بالعدل والإنصاف ،لا بالهوى والتعصب ، فإن ذلك كله من البغي الذي هو مجاوزة الحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَمَا اختَلَفُوا إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الجاثية : ١٧] . وهذا معنى قول من قال من السلف : الشهادة بدعة ، والبراءة بدعة ، يُروى ذلك عن جماعة من السلف ، من الصحابة والتابعين ، منهم : أبو سعيد الخدري ، والحسن البصري ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وغيرهم . ومعنى الشهادة : أن يشهد على معيَّن من المسلمين أنه من أهل النار ، أو أنه كافر ، بدون العلم بما ختم الله له به .

وقوله : وحبهم دين وإيمان وإحسان. لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص ، وروى الترمذي(٣٤٠) عن عبدِ الله بنِ مُغَفَّلٍ رضي الله عنه ، قال : سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ : « الله الله في أَصْحَابِي ، لَا تَتَّخِذُوهُم غَرَضاً [بعدي](*)، فَمَنْ أَحَبَّهُم فبحُبِّي أحَبَّهُم ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُم، وَمَنْ آذَاهُم فَقَدْ آذَانِي ، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى الله تعالى ، وَمَنْ آذَى الله فَيُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » .

وتسمية حب الصحابة إيماناً مشكل على الشيخ رحمه الله ، لأن الحب عمل القلب ، وليس هو التصديق ، فيكون العمل داخلاً في مسمى الإيمان ، وقد تقدم في كلامه : أن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان(**) ، ولم يجعل العمل داخلاً في مسمى الإيمان ، وهذا هو المعروف من مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه ، إلا أن تكون هذه التسمية مجازاً .

وقوله : وبغضهم كفر ونفاق وطغيان : تقدم الكلام في تكفير أهل

---

(٣٤٠) رقم (٣٨٦١) في المناقب : باب فيمن سب أصحاب النبي ﷺ ، وأحمد في « المسند » ٨٧/٤ و٥/٥٤ و٥٧، وفي اسناده عبد الرحمن بن زياد، قال الذهبي : لا يعرف ، ومع ذلك فقد قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وصححه ابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٢٨٤) « موارد » .

(*) الزيادة من « سنن الترمذي » .

البدع ، وهذا الكفر نظيرُ الكفر المذكور في قوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] . وقد تقدم الكلام في ذلك .

***

قوله : ونُثْبِتُ الخِلاَفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوّلاً لأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ الله عنه ، تَفْضِيلاً لَهُ وَتَقْدِيماً عَلَىٰ جَمِيعِ الأُمَّةِ .

اختلف أهل السنة في خلافة الصديق رضي الله عنه : هل كانت بالنص ، أو بالاختيار ؟

فذهب الحسنُ البصري وجماعةٌ من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفي والإشارة .

ومنهم من قال بالنص الجلي . وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار .

والدليل على إثباتها بالنص أخبارٌ : من ذلك ما أسنده البخاري(٣٤١) عن جُبير بن مُطعم رضي الله عنه ، قال : أتتِ امرأةُ النَّبيَّ ﷺ ، فأمَرَهَا أنْ تَرْجِعَ إليهِ ، قَالَتْ : أَرَأَيْتَ إنْ جِئْتُ فَلَمْ أجِدْكَ ؟ كأَنَّهَا تُريدُ المَوْتَ ، قَالَ : « إنْ لم تَجِدِيني فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ» . وذكر له سياق آخر ، وأحاديث أخر . وذلك نص على إمامته .

---

(٣٤١) رواه البخاري ١٣/١٨٠ في الأحكام : باب الاستخلاف ، و٧/١٦ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » ، و١٣/٢٨٠ في الاعتصام : باب الأحكام التي تعرف بالدلائل ، ومسلم رقم (٢٣٨٦) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي بكر ، والترمذي رقم (٣٦٧٧) في المناقب : باب من فضل أبي بكر .

قال الحافظ في « الفتح » : وفي الحديث أن مواعيد النبي ﷺ كانت على من يتولى الخلافة بعد تنجيزها .

وحديث حُذيفة بن اليمان ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « اقتَدُوا بالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي : أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ » . رواه أهل السنن[٣٤٢] .

وفي « الصحيحين »[٣٤٣] عن عائشة رَضِيَ الله عنها وَعَنْ أبيها ، قَالَتْ : دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ في اليَوْمِ الذي بُدِىء فِيه ، فَقَالَ : «ادعِي لِي أباكِ وأخاكِ ، حَتَّى أكتُبَ لأبِي بَكْرٍ كِتَاباً ، ثُمَّ قَالَ : يَأْبَى الله والمُسْلِمُونَ إلاَّ أَبَا بَكْرٍ » .

وفي رواية : « فَلاَ يَطْمَعْ في هٰذا الأمْرِ طَامِعٌ » .

وفي رواية : قال : « ادعِي لي عَبْدَ الرَّحمنِ بنَ أبي بَكْرٍ ، لأَكتُبَ لأبي بَكْرٍ كِتَابَاً لا يُخْتَلَفُ عَلَيهِ ، ثُمَّ قَالَ : مَعَاذَ الله أنْ يَخْتَلِفَ المُؤْمِنُونَ في أبي بَكْرٍ » .

وأحاديث تقديمه في الصلاة مشهورة معروفة ، وهو يقول : « مُرُوا أبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ »[٣٤٤] .

---

(٣٤٢) رواه الترمذي رقم (٣٦٦٣) و(٣٦٦٤) في المناقب : باب مناقب أبي بكر رضي الله عنه ، وابن ماجه رقم (٩٧) في المقدمة : باب فضل أبي بكر ، وأحمد في « المسند » ٣٨٢/٥ و٣٨٥ و٣٩٩ و ٤٠٢ وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو كما قال .

انظر « جامع الأصول » رقم (٦٣٨٣) و(٦٤٥٧) .

(٣٤٣) رواه البخاري ١٠٥/١٠ ـ ١٠٦ في المرضى : باب ما رخص للمريض ، و١٧٧/١٣ في الأحكام : باب الاستخلاف ، ومسلم رقم (٢٣٨٧) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي بكر ، وأحمد في « المسند » ١٠٦/٦ و١٤٤ .

والرواية الثانية أحمد في « المسند » ١٠٦/٦ .

والرواية الثالثة أحمد في « المسند » ٤٧/٦ .

(٣٤٤) رواه البخاري ١٣٧/٢ في الجماعة : باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة و٢٩٩/٦ في الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين ﴾ ، ومسلم رقم (٤٢٠) في =

وقد روجع في ذلك مرةً بعد مرة ، فصلى بهم مدة مرض النبي ﷺ .

وفي « الصحيحين »[345] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بَيْنَا أنا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيب ، عَلَيْهَا دَلْوٌ ، فَنَزعتُ منها ما شاءَ الله ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابنُ أبي قُحافَةَ ، فَنَزَعَ منها ذَنُوباً أو ذَنُوبَينِ ، وفي نَزْعِهِ ضَعْفٌ ، والله يَغْفِرُ لَهُ ، ثُمَّ استَحالَتْ غَرْباً ، فَأَخَذَهَا ابنُ الخَطَّابِ ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيّاً مِنَ النَّاسِ يَفري فَرْيِه ، حتى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ » .

وفي « الصحيح » أنه ﷺ قال على منبره : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخذتُ أبا بكْرٍ خَلِيلاً ، لا يَبْقَيَنَّ في المَسْجِدِ خوخَةٌ إلَّا سُدَّتْ ، إلَّا خَوْخَةُ أبي بَكْرٍ »[346] .

وفي « سنن أبي داود » وغيره ، من حديث الأشعث عن الحسن عن أبي بكرة ، أن النبيَّ ﷺ قال ذات يوم : « مَنْ رَأى مِنْكُمْ رُؤْيا ؟ فَقَالَ رَجُلٌ : أنا ،

= الصلاة : باب استخلاف الإمام اذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما ، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

وفي الباب عن عائشة رضي الله عنها ، انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤٢٠).وعن العباس رضي الله عنهوأحمدفي « المسند » ١/٢٠٩ .

(٣٤٥) رواه البخاري ١١/٣٦٥ في التعبير : باب نزع الذنوب والذنوبيين من البئر.يضعف ، وباب الاستراحة في المنام ، و٧/١٢ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً» و١٣/٣٦٥ في التوحيد : باب في المشيئة والإرادة وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله ، ومسلم رقم (٢٣٩٢) في فضائل الصحابة : باب في فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٢/٣٦٨ و٤٥٠ ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي الباب عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤٤٣) .

(٣٤٦) رواه البخاري ٧/١٠ ـ ١١ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر » وباب هجرة النبي ﷺ ، وفي المساجد : باب الخوجة والممر في المسجد ، ومسلم رقم (٢٣٨٢) في فضائل الصحابة : باب في فضائل أبي بكر رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٦٦١) في المناقب : باب مناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

رَأَيْتُ كَأَنَّ مِيْزَاناً [نَزَلَ](*) مِنَ السَّمَاءِ ، فَوُزِنْتَ أَنْتَ وأبو بَكْرٍ ، فَرَجَحْتَ أنت بأبي بَكْرٍ ، ثُمَّ وُزِنَ عُمَر وأبو بَكْرٍ ، فَرَجَحَ أبو بَكْرٍ ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ ، فَرَجَحَ عُمَرُ »(٣٤٧) . « ثُمَّ رُفِعَ ، فَرَأَيْتُ الكراهيةَ في وَجْهِ النَّبيِّ ﷺ ، فقال : « خِلَافَةُ نُبُوَّةٍ ، ثُمَّ يُؤتِي الله المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ » .

/فبين رسول الله ﷺ ، أن ولاية هؤلاء خلافةُ نبوة ، ثم بعد ذلك ملك . ٩٣/ب

وليس فيه ذكر علي رضي الله عنه ، لأنه لم يجتمع الناس في زمانه ، بل كانوا مختلفين ، لم ينتظم فيه خلافةُ النبوة ولا الملك .

وروى أبو داود(٣٤٨) أيضاً عن جابر رضي الله عنه ، انه كان يحدث ، أن رسول الله ﷺ قال : «أُرِيَ اللَّيلةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أَنَّ أبا بَكْرٍ نِيْطَ برسُولِ الله ﷺ ، ونِيْطَ عُمَرُ بأبي بَكْرٍ ، ونيْطَ عُثْمَانُ بعُمَرَ » ، قَالَ جَابِرٌ : فَلَمَّا قُمْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ ، قُلنا : أَمَّا الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَرَسُولُ الله ﷺ ، وأَمَّا تَنَوُّطُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ فَهُم وُلَاةُ هذا الأمرِ الذي بَعَثَ الله بِهِ نَبِيَّهُ » .

وروى أبو داود(٣٤٩) أيضاً عن سَمُرَةَ بنِ جُندب رضي الله عنه : أَنَّ رَجُلاً

(*) الزيادة من مطبوعة مكة ، و« سنن أبي داود » .

(٣٤٧) هذه الرواية رواها أبو داود رقم (٤٦٣٤) في السنة : باب في الخلفاء، والترمذي رقم (٢٢٨٨) في الرؤيا : باب ما جاء في رؤيا النبي ﷺ في الميزان والدلو . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وهو كما قال .

والرواية الثانية : رواها أبو داود رقم (٤٦٣٥) في السنة : باب في الخلفاء ، واسنادها ضعيف ، لضعف علي بن زيد وهو ابن جدعان .

(٣٤٨) رقم (٤٦٣٦) في السنة : باب في الخلفاء ، من حديث الزهري عن عمرو بن أبان بن عثمان عن جابر ، وعمرو بن أبان لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقي رجاله ثقات .

وقال الحافظ في « التهذيب » : قال ابن حبان : روى عن جابر ولا أدري أسمع منه أم لا .

وقال أبو داود : ورواه يونس وشعيب ولم يذكرا عمرو بن أبان ، قال : المنذري : فعلى هذا فالإسناد منقطع لأن الزهري لم يسمع من جابر .

(٣٤٩) رقم (٤٦٣٧) في السنة : باب في الخلفاء، وأحمد في «المسند» ٢١/٥ وفي اسناده =

قَـالَ : يا رَسُولَ الله ! رَأَيتُ كأَنَّ دَلْوَاً دُلِيَ مِنَ السَّماءِ ، فَجَاءَ أبو بَكْرٍ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيها ، فَشَرِبَ شُرْباً ضَعِيفاً ، ثُمَّ جَاءَ عُمَر فَأَخَذَ بِعَرَاقِيها ، فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ ، ثُمَّ جاءَ عُثْمَانُ فَأَخَذَ بِعَرَاقيها فَشَرِبَ حَتَّى تَضَلَّعَ ، ثمَّ جَاءَ عَليٌّ فَأَخَذَ بِعَرَاقِيها فانْتَشَطَتْ مِنْهُ ، فانتَضَحَ عَلَيهِ منها شَيْءٌ» .

وعن سعيد بن جُمْهان ، عن سَفينة ، قالَ : قالَ رَسُولُ الله ﷺ : « خِلاَفَةُ النُّبوَّةِ ثَلاَثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ يُؤْتِي الله مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ » أَوْ « المُلْكَ »(٣٥٠) .

واحتج من قال لم يستخلف، بالخبر المأثور(*) ،عن عبد الله بن عمر ، عن عمر رضي الله عنهما ، أنه قال : إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، يعني أبا بكر ، وإن لا أستخلف ، فلم يستخلف من هو خير مني ، يعني رسول الله ﷺ ، وبما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت من كان رسول الله ﷺ مستخلفاً لو استخلف .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب ، ولو كتب عهداً ، لكتبه لأبي بكر ، بل قد أراد كتابته ثم تركه ، وقال : «يَأْبَىٰ الله

= عبد الرحمن الجرمي الأزدي والد أشعث ، لم يوثقه غير ابن حبان ، وباقي رجاله ثقات . وذكره الحافظ في « الفتح » وسكت عليه . قوله : « تضلع » : استوفى الشربة ، قوله : « انتشطت » : اضطربت .

(٣٥٠) رواه أحمد في « المسند » ٥/٢٢٠ ، وأبو داود رقم (٤٦٤٦) و (٤٦٤٧) ، والترمذي رقم (٢٢٢٧) في الفتن : باب ما جاء في الخلافة، وإسناده صحيح . وصححه ابن حبان رقم (١٥٣٤) و (١٥٣٥) « موارد » والحاكم في « المستدرك » ٣/٧١ و ١٤٥ ووافقه الذهبي .

وقال الترمذي : وفي الباب عن عمر وعلي قالا : لم يعهد النبي ﷺ في الخلافة شيئاً .

انظر « جامع الأصول » رقم (٢٠٢١) .

(*) رواه البخاري ١٣/١٧٧ ـ ١٧٨ في الأحكام : باب الاستخلاف ، ومسلم رقم (١٨٢٣) في الإمارة : باب الاستخلاف وتركه ، وغيرهما . انظر « جامع الأصول » رقم (٢٠٨٤) .

وَالمُسْلِمُونَ إلاَّ أَبَا بَكْرٍ»(*) . فكان هذا أبلغ من مجرد العهد ، فإن النبي ﷺ دلَّ المسلمين على استخلاف أبي بكر ، وأرشدهم اليه بأمور متعددة ، من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبار راض بذلك ، حامد له ، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً ، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه ، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك ، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس ، ثم لما حصل لبعضهم شكّ : هل ذلك القول من جهة المرض ؟ أو هو قول يجب اتباعه ؟ ترك الكتابة ، اكتفاءً بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر .

فلو كان التعيينُ مما يشتبه على الأمة ، لبينه بياناً قاطعاً للعذر ، ولكن لما دلهم دلالات متعددةً على أن أبا بكر المتعين ، وفهموا ذلك ـ حصلَ المقصود .

ولهذا قال عمر رضي الله عنه ، في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار : أنت خيرُنا وسيدُنا وأحبُّنا الى رسول الله ﷺ ، ولم ينكر ذلك منهم أحد ، ولا قال أحد من الصحابة إن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه ، ولم ينـازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار ، طمعاً في أن يكون من الأنصار أمير ، ومن المهاجرين أمير ، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه .

ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر ، إلا سعد بن عبادة ، لكونه كان هو الذي يطلب الولاية . ولم يقل أحد من الصحابة قطُّ : إن النبي ﷺ نصّ على غير أبي بكر ، لا عليّ ، ولا العباس ، ولا غيرهما ، كما قد قال أهل البدع !

وروى ابن بطة بإسناده : أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير

(*) تقدم تخرجه ص ٥٥٣ رقم ٣٤٣ .

الحنظلي إلى الحسن ، فقال : هل كان النبيُّ ﷺ استخلف أبا بكر ؟ فقال : أوَ في شكٍّ صاحبُك ؟ نعم ، والله الذي لا إله إلا هو استخلفه ، لهو كان أتقى لله من أن يتوثَّب عليها .

وفي الجملة : فجميعُ من نُقل عنه أنه طلب توليةَ غير أبي بكر ، لم يذكر حجةً دينيةً شرعيةً ، ولا ذكر أن غيرَ أبي بكر أفضلُ منه ، أو أحقُّ بها ، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه ، وهم كانوا يعلمون فضلَ أبي بكر رضي الله عنه ، وحبَّ رسول الله ﷺ له .

في « الصحيحين » عن عمرو بن العاص رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذاتِ السلاسل ، فأتيتُه ، فقلت : أيُّ الناس أحبُّ إليك ؟ قال : «عَائِشَةُ» ، قُلْتُ : مِنَ الرِّجالِ ؟ قال : «أبُوها» ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ قال : «عمر ، وعدَّ رجالاً»(*) .

و«فيهما» أيضاً ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : كنتُ جالساً عند النبيِّ ﷺ ، إذ أقبل أبو بكر آخذاً بطرف ثوبه ، حتى أبدى عن رُكبتيه ، فقال النبي ﷺ : « أمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ » ، فَسَلَّم ، وقال : إنَّه كانَ بيني وبينَ ابن/الخطاب شيءٌ ، فأسرعتُ إليه ، ثم ندمتُ ، فسألته أن يغفِرَ لي فأبى عليَّ ، فأقبلتُ إليك ، فقال : «يَغْفِرُ الله لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ ! ثلاثاً » ، ثم إن عُمَرَ نَدِمَ ، فَأَتَى منزل أبي بكر ، فسأل : أثَمَّ هو؟ فقالُوا : لا ، فأتى النبيَّ ﷺ ، فسلَّم عليه ، فجعل وجهُ النبي ﷺ يتمعَّرُ ، حتى أشفق أبو بكر ، فجثا على رُكبتيه ، وقال : يا رسولَ الله ! والله أنا كنتُ أظلمَ ، مرتين ، فقال النبيُّ ﷺ : إنَّ الله بَعَثَنِي إلَيْكُمْ ، فَقُلْتُمْ : كَذَبْتَ ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ ، صَدَقَ ، وَوَاسَانِي ، بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ ، فَهَلْ أَنْتُم تَارِكُونَ لِي

٩٤/أ

(*) تقدم تخرجه ص ٣١٠ رقم ١٧١ .

صَاحِبِي ؟ » مرتين ، فَمَا أُوذِيَ بعدَها[٣٥١] .

ومعنى : غامر : غاضَب وخاصَم ، ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله .

وفي « الصحيحين »[٣٥٢] أيضاً ، عن عائشة رضي الله عنها : أن رسولَ الله ﷺ مات وأبو بكر بالسُّنْحِ ـ فذكرتِ الحديثَ ـ إلى أن قالت : واجتمعت الأنصارُ إلى سعد بن عُبادة ، في سَقيفة بني ساعدة ، فقالُوا : منا أميرٌ ، ومنكم أميرٌ ! فذهب إليهم أبو بكر ، وعمرُ بنُ الخطاب ، وأبو عبيدة ابنُ الجرَّاح ، فذهب عُمَرُ يتكلم ، فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول : والله ما أردتُ بذلك إلَّا أني قد هيأتُ في نفسي كلاماً أعجبني ، خشيتُ أن لا يَبْلُغَه أبو بكر ! ثم تكلم أبو بكر ، فتكلم أبلُغ الناسِ ، فقال في كلامه : نحنُ الأمراءُ ، وأنتمُ الوزراء ، فقال حُباب بن المنذر : لا والله لا نفعلُ ، منا أميرٌ ، ومِنكم أمير ، فقال أبو بكر : لا ولكِنَّا الأمراءُ ، وأنتم الوزراء ، هم أوسطُ العرب ، وأعزُّهُمْ أحساباً ، فبايعوا عُمَرَ بنَ الخطاب ، أو أبا عُبيدة بنَ الجراح ، فقال عمر : بل نُبَايعك ، فأنتَ سيدُنا ، وخيرُنا ، وأحبُّنا إلى رسول الله ﷺ ، فأخذَ عُمَرُ بيدِهِ ، فبايعه ، وبايعه الناسُ ، فقال قائل : قتلتُم سعداً ، فقال عمر : قتله الله . والسُّنح : العالية ، وهي حديقة من حدائق المدينة ، معروفة بها .

* * *

(٣٥١) رواه البخاري ٧/١٧ ـ ١٨ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » وفي التفسير : تفسير سورة الأعراف : باب ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ . ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤١٤) .

(٣٥٢) رواه البخاري ٧/٢٢ ـ ٢٣ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قول النبي ﷺ : « لو كنت متخذاً خليلاً » ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى .

قوله : ثُمَّ لِعُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

أي ونثبت الخلافة بعد أبي بكر رضي الله عنه ، لعمر رضي الله عنه . وذلك بتفويض أبي بكر الخلافة إليه ، واتفاق الأمة بعده عليه . وفضائله رضي الله عنه أشهرُ من أن تنكر ، وأكثر من أن تذكر . فقد روي عن محمد بن الحنفية أنه قال : قلتُ لأبي : يا أبتِ ! مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بعدَ رسولِ الله ﷺ ؟ فقال : يا بُني ! أوَ ما تَعْرِفُ ؟ فقلتُ : لا ، قال : أبو بكر ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ قال : عمر ، وخشيتُ أن يقولَ : ثم عثمان ! فقلتُ : ثم أنتَ ؟ فقال : ما أنا إلا رجل من المسلمين(٣٥٣) .

وتقدم قولُه ﷺ : «اقْتَدُوا باللَّذيْنِ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ»(*) .

وفي «صحيح مسلم»(٣٥٤) ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : وُضِعَ عُمَرُ على سريره ، فتكنَّفه الناسُ يَدْعون ، ويُثنون ، ويُصلُّون عَلَيْهِ قبلَ أن يُرفَعَ ، وأنا فيهم ، فلم يَرُعْني إلا برجل قد أخذ بِمَنْكِبي من ورائي ، فالتفتُّ إليه ، فإذا هُوَ علي ، فترحَّمَ على عُمَرَ ، وقال : ما خلَّفتَ أحداً أحبَّ إليّ أن ألقى الله بمثل عمله مِنْكَ ، وايْمُ الله ، إنْ كنتُ لأظنُّ أن يجعلك الله مع صاحبيك ، وذلك أني كنتُ أكثرُ ما أسمعُ رَسُولَ الله ﷺيقول : «جِئْتُ أَنَا وأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعُمَرُ ، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر ،

---

(٣٥٣) رواه البخاري ٢٦/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب قول النبي ﷺ« لو كنت متخذاً خليلاً .

(*) تقدم تخريجه ص ٥٥٣ رقم ٣٤٢ .

(٣٥٤) رقم (٢٣٨٩) في فضائل الصحابة : باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه . ورواه أيضاً البخاري ٣٣/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذاً خليلاً . وباب مناقب عمر رضي الله عنه .

انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤٥١) .

فإن كنتُ لأرجو ، أو لأظنُّ أن يجعَلَكَ الله معهما» .

وتقدم حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه ، في رؤيا رسولِ الله ﷺ ، ونزعه من القَلِيب ، ثم نزع أبي بكر ، ثم استحالت الدلو غَرْباً ، فأخذها ابن الخطاب ، فلم أر عبقريّاً مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ ، حتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ(*) .

وفي «الصحيحين»(٣٥٥) ، من حديثِ سعد بن أبي وقاص : قال : استأذن عُمَرُ بنُ الخطاب على رسول الله ﷺ ، وعِنده نساء من قُريش ، يُكلمنه ، عالية أصواتهُن ـ الحديث ـ وفيه فقال رسولُ الله ﷺ : «إيه يا ابْنَ الخَطَّابِ ! والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكاً فَجّاً إلاَّ سَلَكَ فَجّاً غَيْرَ فَجِّكَ » .

وفي « الصحيحين »(٣٥٦) أيضاً ، عن النبيِّ ﷺ ، أنه كان يقول : « قَدْ كَانَ في الأُمَمِ قَبْلَكُم مُحَدَّثُونَ ، فَإِن يَكُنْ في أمَّتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ ، فَإِنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ مِنْهُم » . قال ابنُ وهب : تفسير : محدَّثون : مُلْهَمُونَ .

***

قوله : ثُمَّ لِعُثْمَانَ رَضِيَ الله عَنْهُ .

أي : ونُثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضي الله عنهما .

(*) تقدم تخريجه ص ٥٥٤ رقم ٣٤٥ .

(٣٥٥) رواه البخاري ٣٧/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وفي بدء الخلق : باب صفة ابليس وجنوده ، وفي الأدب : باب التبسم والضحك ، ومسلم رقم (٢٣٩٦) في فضائل الصحابة : باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٣٥٦) رواه البخاري ٤٠/٧ ـ ٤١ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسنداً ومعلقاً ، وفي الأنبياء : باب ما ذكر عن بني اسرائيل ، ومسلم رقم (٢٣٩٨) في فضائل الصحابة : باب من فضائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤٣٤) .

وقد ساق البخاريُّ رحمه الله قصة قتل عمر رضي الله عنه ، وأمرَ الشورى والمبايعة لِعثمان في «صحيحه»[٣٥٦] ، فأحببتُ أن أسرُدَها كما رواها بسنده : عن عمرو بن ميمون ، قال : رأيتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل أن يُصابَ بأيامٍ بالمدينة ، ووقف على حُذيفةَ بنِ اليمان وعثمان بن حُنَيف ، قال: كيف فعلتما ؟ أتخافانِ أن تكونا قد حمَّلتما/الأرضَ ما لا تُطيق ؟ ٩٤/ب قالا : حمَّلناها أمراً هي له مُطيقة ، ما فيها كبيرُ فضل ، قال : انظُرا أن تكونا حمَّلتما الأرضَ ما لا تُطيق ؟ قال : لا ، فقال عمر : لئن سلَّمني الله ، لأَدَعنّ أراملَ أهلِ العراق لا يحتجن إلى رجل بعدي أبداً ، قال : فما أتت عليه إلا رابعة حتَّى أُصيب ، قال : إني لقائم ما بيني وبينَه إلا عبدُ الله بن عباس غداة أُصيب ، وكان إذا مرَّ بين الصفين قال : استُووا ، حتى إذا لم ير فيهن خَللاً تقدَّم [فكبَّر ، وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك في الركعة الأولى ،حتى يجتمِعَ الناسُ ،فما هو إلا أن كبَّر] ،(*) فسمعتُه يقول: قتلني - أو أكلني - الكلبُ ،حين طعنه ، فطار العِلْج بسكين ذاتِ طرفين ، لا يمُرُّ على أحد يميناً ولا شمالاً إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثةَ عشرَ رجلاً،مات منهم سبعةٌ، فلما رأى ذلك رجلٌ من المسلمين ، طرح عليه بُرْنُساً ، فلما ظن العِلْج أنه مأخوذ ، نحر نفسَه ، وتناول عُمَرُ يدَ عبد الرحمن بن عوف ، فقدَّمه ، فَمَنْ يلي عُمَرَ ، فقد رأى الذي أرى ، وأما نواحي المسجد ، فإنهم لا يدرون غيرَ أنهم قد فَقَدُوا صوتَ عمر،وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله ،فصلَّى بهم عبد الرحمن صلاةً خفيفة ، فلما انصرفوا ، قال : يا ابن عباس انظرْ مَنْ قتلني ؟ فجال ساعةً ، ثم جاء ، فقالَ : غلامُ المغيرة ، قال : الصَّنَعُ ؟ قال : نعم ، قال : قاتله الله ! لقد أمرتُ به معروفاً ! الحمد لله الذي لم يجعل مِيتتي بيد

---

(٣٥٦) ٧/٤٩ - ٥٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان ، وفي الجنائز : باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر ، وفي الجهاد : باب يقاتل أهل الذمة ولا يسترقون ، وفي تفسير سورة الحشر .

(*) الزيادة من « صحيح البخاري » .

رجل يدَّعي الإسلام ، قد كنتَ أنت وأبوك تُحبان أن تكثر العلوجُ بالمدينة ، وكان العباسُ أكثرَهم رقيقاً ، فقال : إن شئتَ فعلت ؟ أي : إن شئت ، قتلنا ؟ قال : كذبت ! بعد ما تكلموا بلسانكم ، وصلَّوْا قِبلتكم ، وحجُّوا حجكم ؟ فاحتُمِلَ إلى بيته ، فانطلقنا معه ، وكأن الناس لم تصبهم مصيبةٌ قَبْلُ يومئذ ، فقائل يقول : لا بأس ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأُتي بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتي بلبن فشربه ، فخرج من جرحه ، فعلِموا أنه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاء الناس ، فجعلوا يُثنون عليه ، وجاء رجل شاب ، فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببُشرى الله لك ، من صحبة رسول الله ، وَقَدَمٍ في الاسلام ما قد علمتَ ، ثم وَلِيتَ فعدلتَ ، ثم شهادة ، قال : وَدِدْتُ أن ذلك كَفَافٌ ، لا عليّ ولا ليَ ، فلما أدبر إذا إزارُه يمسُّ الأرض ، قال : رُدّوا عليَّ الغلامَ ، قال : يا ابنَ أخي ! ارفع ثوبَك ، فإنه أنقى لثوبك ، وأتقى لربك . يا عبدَ الله بن عمر ، انظر ما عليّ من الدين ؟ فحسبوه ، فوجدوه ستة وثمانين ألفاً و نحوه ، قال : إنْ وفَى له مالُ آل عمر ، فأدِّه من أموالهم ، وإلا فسلْ في بني عدي بن كعب ، فإن لم تَفِ أموالهم ، فسلْ في قريش ، ولا تعْدُهم الى غيرهم ، فأدِّ عني هذا المال ، انطلق إلى عائشة أمِّ المؤمنين ، فَقُلْ : يقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل : أميرُ المؤمنين ، فإني لستُ اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذِنُ عمر بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه ، فسلَّم واستأذن ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدةً تبكي ، فقال : يقرأُ عليك عمرُ بن الخطاب السلامَ ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنتُ أريدُه لنفسي ، ولأُوثرنَّ به اليومَ على نفسي ، فلما أقبل ، قيل : هذا عبد الله بن عمر قد جاء ، قال : ارفعوني ، فأسنده رجلٌ إليه ، قال : ما لديك ؟ قال : الذي تُحبُّ يا أمير المؤمنين ! أَذِنَتْ ، قال : الحمد لله ، ما كان من شيء أهمُّ(*) إليَّ من ذلك ، فإذا أنا قضيتُ ،

(*) في الأصل أحب وما أثبتناه من « صحيح البخاري » .

فاحملوني ، ثم سلِّم فَقُلْ : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنت لي ، فأدخلوني ، وإن ردتني فردُّوني إلى مقابر المسلمين ، وجاءت أمُّ المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها ، قمنا ، فولَجَت عليه ، فبكت عنده ساعة ، واستأذن الرجالُ ، فولجت داخلاً لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالُوا : أوْصِ يا أمير المؤمنين ! استخلف ؟ قال : قال : ما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر أو الرهط ، الذين تُوفي رسول الله وهو عنهم راض ، فسمى عليًّا ، وعثمانَ ، والزبيرَ ، وطلحة ، وسعداً ، وعبدَ الرحمن ، وقال : يشهدُكم عبدُ الله بن عمر ، وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزيةِ له ، فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعِنْ به أيكم ما أمِّر ، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة ، وقال : أُوصي الخليفةَ مِن بعدي بالمهاجرين الأولين ، أن يعرف لهم حقَّهم ، ويحفظ لهم حرمتهم ، وأُوصيه بالأنصار خيراً ، الذين تبؤ وا الدارَ والإيمان من قبلهم ، أن يُقْبَل مِن محسنهم ، وأن يُعفى عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم رِدءُ الإسلام ، وجباةُ المال ، وغيظُ العدو ، وأن لا يُؤخذَ منهم ، إلا فضلهم عن رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، أن يُؤخذ من حواشي أموالهم ، ويردَّ على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ أن يُوفَى لهم بعهدهم ، وأن يُقَاتَل مِن ورائهم ، ولا/يُكَلَّفوا [طاقتهم](*) . ٩٥/أ

فلما قُبِضَ خرجنا به ، فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر ، قال : يستأذِنُ عمر بن الخطاب ؟ قالت : أدخلوه ، فأدخِل ، فوُضِعَ هنالك مع صاحبيه ، فلما فُرِغَ من دفنه ، اجتمع هؤلاء الرهطُ ، فقال عبدُ الرحمن : اجعلوا أمرَكم إلى ثلاثة منكم ، قال الزبير : قد جعلتُ أمري إلى علي ، فقال طلحة : قد جعلْتُ أمري إلى عثمان ، وقال سعد : قد جعلت أمري إلى

(*) الزيادة من « صحيح البخاري » وهي ثابتة في مطبوعة مكة .

عبد الرحمن بن عوف ، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ؟ والله عليه والإسلام ؟ لينظرنّ أفضلهم في نفسه ، فأسكِتَ الشيخان ، فقال عبدُ الرحمن : أفتجعلونه إليَّ ؟ والله عليَّ أن لا آلوَ عن أفضلكم ؟ قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدِهما ، فقال : لك قرابةٌ مِن رسول الله ﷺ والقَدَمُ في الإسلام ما قد علمت ، فالله عليك ، لئن أَمَّرتُك لتعدلن ؟ ولئن أمرتُ عثمان لتسمعنّ ولتُطيعنَّ ؟ ثم خلا بالآخر ، فقال له مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق ، قال : ارفع يدَك يا عثمانُ ، فبايَعه ، فبايعَ له عليٌّ ، وولج أهلُ الدار ، فبايعوه .

وعن حُميد بن عبد الرحمن : أن المِسْوَر بن مَخْرَمَةَ [أخبره](*) : أنَّ [الرهط](*) الذين ولَّاهم عُمَرُ ، اجتمعوا فتشاورُوا ، قال لهم عبد الرحمن : لستُ بالذي أُنافِسُكم عن هذا الأمر ولكنكم إن شئتُم اخترتُ لكم منكم ؟ فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن ، فلما ولَّوْا عبدَ الرحمن أمرهم ، فمالَ الناسُ على عبد الرحمن ، حتى ما أرى أحداً مِن الناس يتبع أولئك الرهط ، ولا يطأ عَقِبَه ، ومالَ الناسُ على عبد الرحمن يُشاورونه تلك الليالي ، حتى إذا كانت تلك الليلة التي أصبحنا منها ، فبايعنا عثمان ، قال المِسْوَرُ بنُ مخرمة : طرقني عبد الرحمن بعد هَجْعٍ من الليل ، فضرب البابَ حتى استيقظت : فقال : أراك نائماً ؟! فوالله ما اكتحلت هذه الثَّلاث بكبير نَوْمٍ ، انطلق ، فادع ليَ الزبيرَ وسَعْدَاً ، فَدَعَوتُهما لَهُ ، فَشَاوَرَهُمَا ثم دعاني ، فقال : ادعُ لي عليّاً ، فدعوتُه فناجاه حتى ابهارَّ الليل ، ثم قام عليّ من عنده وهو على طَمَعٍ ، وقد كان عبدُ الرحمن يخشى مِن عليٍّ شيئاً ، ثم قال : ادعُ لي عثمانَ، [فدعوته](*) ، فناجاه حتَّى فرق بينهما المؤذنُ بالصبح ، فلما صلَّى الناسُ الصبحَ ، واجتمع أولئك الرهطُ عِند المنبر ، فأرسل إلى من كان حاضراً مِن المهاجرين والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وكانوا وافَوْا تلك الحَجَّة مع عمر ، فلما اجتمعوا

(*) الزيادة من « صحيح البخاري » ومطبوعة مكة .

تشهد عبد الرحمن ، ثم قال : أما بعد ، يا عليّ ! إني قد نظرتُ في أمر الناس ، فلم أرهم يَعدِلُون بعثمان فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلاً ، فقال لعثمان : أبايعك على سنة الله ورسوله ﷺ والخليفتين من بعده، فبايعه عبدُ الرحمن ، وبايعه الناسُ ، والمهاجرون والأنصار وأمراءُ الأجناد والمسلمون(٣٥٦) .

ومن فضائل عثمان رضي الله عنه الخاصة : كونه ختن رسول الله ﷺ على ابنتيه .

وفي « صحيح مسلم »(٣٥٧) ، عن عائشة ، قالت : كانَ رسولُ الله ﷺ مضطجعاً في بيته ، كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذنَ أبو بكر ، فأَذِنَ لَهُ وهو على تلك الحال، فتحدَّث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو على تلك الحالة، فتحدَّث ، ثم استأذن عُثمانُ ، فجلس رسولُ الله ﷺ وسوَّى ثيابَه ، فدخل فتحدّث ، فلما خرج ، قالت عائشة : دخلَ أبو بكر ، فلم تهشَّ له ، ولم تُبالِه ، ثم دخل عُمَرُ ، فلم تهشَّ لَهُ ، ولم تباله ، ثم دخل عثمان ، فجلست وسوَّيت ثيابك ؟ فقال : « أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ » .

وفي « الصحيح »(٣٥٨) : لما كان يومُ بيعة الرضوان ، وأن عثمانَ رضي الله عنه كان قد بعثه رسول الله ﷺ إلى مكَّة ، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهبَ عثمانُ إلى مكة ، فقال رسولُ الله ﷺ بيدِهِ اليُمنى : « هٰذِهِ يَدُ عُثْمانَ » ، فضرب بها على يده ، فقال : « هٰذِهِ لِعُثْمانَ » .

* * *

---

(٣٥٦) رواه البخاري ١٣/١٦٨ - ١٧٠ في الأحكام : باب كيف يبايع الامام الناس .

(٣٥٧) رقم (٢٤٠١) في فضائل الصحابة : باب من فضائل عثمان رضي الله عنه .

(٣٥٨) رواه البخاري ٧/٤٨ - ٤٩ في الفضائل : باب مناقب عثمان رضي الله عنه ، وفي الجهاد : باب إذا بعث الإمام رسولاً في حاجة أو أمر بالمقام هل يسهم له ، وفي المغازي : باب قول الله تعالى : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ ، والترمذي رقم (٣٧٠٩) في المناقب : باب مناقب عثمان ابن عفان رضي الله عنه .

قوله : ثُمَّ لِعَليّ بِن أَبي طَالِبٍ رَضِيَ الله عَنْهُ .

أي : ونُثبت الخلافةَ بعد عثمان لعلي رضي الله عنهما : لما قتل عثمان وبايع الناس عليًّا صار إماماً حقًّا ، واجبَ الطاعة ، وهو الخليفةُ في زمانه خلافةَ نبوة ، كما دل عليه حديث سفينة المقدَّم ذكرُه ، أنه قال : قالَ رسول الله ﷺ : « خِلاَفَةُ النُّبُوَّةِ ثَلاَثُونَ سَنَةً ، ثُمَّ يُؤْتِي الله مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ »(*) .

وكانت خِلافة أبي بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافة عمر عشرَ سنين ونصفاً ، وخلافة عثمان اثنتي عشرة سنة ، وخلافة علي أربع سنين وتسعة أشهر ، وخِلاَفَةُ الحسن ابنه ستة أشهر .

وأول ملوكِ المسلمين معاوية رضي الله عنه ، وهو خيرُ ملوك المسلمين ، لكنه إنما صار إماماً حقّاً لما فوَّض إليه الحسن بن علي رضي/الله عنهم الخلافة ، فإن الحسن رضي الله عنه بايعه أهلُ العراق بعد موت أبيه ، ثم بعدَ ستة أشهر ، فوَّض الأمر إلى معاوية ، فظهر صدقُ قولِ النبي ﷺ : « إِنَّ ابْنِي هٰذَا سَيِّدٌ ، وَسَيُصْلِحُ الله بِهِ بَيْنَ فِئَتَينِ عَظِيمَتَيْنِ مِن المُسْلِمِينَ »(٣٥٩) . والقصة معروفة في موضعها . ٩٥/ب

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعدَ عثمان رضي الله عنهما ، بمبايعة الصحابة ، سوى معاوية مع أهل الشام .

(*) تقدم تخريجه ص ٥٥٦ رقم ٣٥٠ .

(٣٥٩) رواه البخاري ٧٤/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، و ٢٢٥/٥ في الصلح : باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي : إن ابني هذا سيد ، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين ، وفي الأنبياء : باب علامات النبوة في الإسلام ،وفي العتق: باب قول النبي ﷺ للحسين بن علي : إن ابني هذا لسيد ، والترمذي رقم (٣٧٧٥) في المناقب: باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ، والنسائي ١٠٧/٣ في الجمعة : باب مخاطبة الإمام رعيته وهو على المنبر ، وأبو داود رقم (٤٦٦٢) في السنة: باب ما يدل على ترك الكلام في الفتنة ، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه .

والحقُّ مع علي رضي الله عنه ، فإن عثمان رضي الله عنه لما قُتل ، كَثُرَ الكذبُ والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلي وطلحة والزبير ، وعَظُمَتِ الشبهةُ عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوةُ في نفوس ذوي الأهواء والأغراض ، ممن بعدت دارُه من أهل الشام ، ويحمي(*) [الله] عثمان [أن](**) يظنَّ بالأكابر ظنونَ سوء ، وبلغ عنهم أخباراً ، منها ما هو كذب ، ومنها ما هو محرَّف ، ومنها ما لم يُعرف وجهه ، وانضم إلى ذلك أهواءُ قوم يُحبون العلوَّ في الأرض ، وكان في عسكر علي رضي الله عنه ـ من أولئك الطغاة الخوارج ، الذين قتلوا عثمان ـ من لم يُعرف بعينه ، ومن تنتصرُ له قبيلتُه ، ومن لم تَقُمْ عليه حجة بما فعله ، ومَنْ في قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله .

ورأى طلحة والزبير أنه إن لم يُنتصر للشهيد المظلوم ، ويُقمع أهلُ الفساد والعدوان ، وإلا استوجبوا غضبَ الله وعقابه . فجرت فتنةُ الجمل على غير اختيار من علي ، ولا مِن طلحة والزبير ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ، ثم جرت فِتنة صِفِّين لرأي ، وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم ، أو لا يتمكن من العدل عليهم ـ وهم كافُّون ، حتى يجتمِعَ أمر الأمة ، وأنهم يخافون طغيان مَنْ في العسكر ، كما طَغَوْا على الشهيد المظلوم ، وعلي رضي الله عنه هو الخليفةُ الراشد المهديُّ الذي تَجِبُ طاعتُه ، ويجب أن يكونَ الناسُ مجتمعين عليه ، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم ، بطلب الواجب عليهم ، بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب ، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلَّفة قلوبُهم على عهد النبي ﷺ والخليفتين مِن بعده بما يسوغُ ، محمله ما رآه ـ من أن

(*) في الأصل « محى » وما أثبتناه من مطبوعة مكة وفي النفس منه شيء فلعل العبارة ونجى عثمان أن يظن . . . فتأمل .

(**) زيادة من مطبوعة مكة .

الدينَ إقامةُ الحد عليهم ومنعهم من الإثارة ، دون تأليفهم ـ : على القتالِ ، وقعد عن القتال أكثرُ الأكابر لِما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة ، وَلِمَا رأوا من الفتنة التي تربو مفسدتُها على مصلحتها .

والقول في الجميع بالحسنى : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : ١٠] . والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا ، فنسأل الله أن يصونَ عنها ألسنتنا ، بمنّه وكرمه .

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ما في « الصحيحين »[٣٦٠] ، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ لعلي : « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى ، إِلَّا أَنَّه لا نَبِيَّ بَعْدِي » .

وقال ﷺ يومَ خيبر : « لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّه اللهُ وَرَسُولُه » ، قال : فتطاولنا لها ، فقال : « ادْعُوا لي عَلِيّاً ، فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ ، فَبَصَقَ في عَيْنَيْهِ ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَيْهِ ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ »[٣٦١] .

ولما نزلت هٰذه الآية : ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُم وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُم ﴾ [آل عمران : ٦١] ثم دعا رسولُ الله ﷺ علياً وفاطِمة وحسناً وحُسيناً فقال : « اللَّهُمَّ هٰؤُلاءِ أَهْلي »[٣٦٢] .

---

(٣٦٠) رواه البخاري ٨٦/٨ في المغازي : باب غزوة تبوك ، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومسلم رقم (٢٤٠٤) في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٧٣١) في المناقب : باب مناقب علي بن أبي طالب .

(٣٦١) رواه البخاري ٥٧/٧ ـ ٥٨ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفي الجهاد : باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة ، وباب فضل من أسلم على يديه رجل ، وفي المغازي : باب غزوة خيبر ، ومسلم رقم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأحمد في « المسند » ٣٣٣/٥ ، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٣٦٢) رواه مسلم رقم (٢٤٠٤) في فضائل الصحابة : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٧٢٦) في المناقب : باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه .
انظر « جامع الأصول » رقم (٦٤٩١) .

قوله : وهم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المهديون .

تقدم الحديثُ الثابت في « السنن » ، وصححه الترمذي ، عن العِرباض ابن سارية ، قال : وعظنا رسولُ الله ﷺ مَوعِظَةً بليغةً ، ذَرَفَت منها العيونُ ، ووجِلَتْ منها القلوبُ ، فقال قائل : يا رسولَ الله ! كأنَّ هٰذه موعظةُ مودِّع ، فماذا تَعْهَدُ إلينا ؟ فقال : « أُوصِيكُمْ بِالسَّمْعِ والطَّاعَةِ ، فإنَّه مَنْ يَعِشْ مِنْكُم بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلافَاً كَثيراً ، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي ، تَمَسَّكُوا بِهَا ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَة »(*) .

وترتيب الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين في الفضل ، كترتيبهم في الخلافة ، ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما مِن المزية : أن النبيَّ ﷺ أمرنا باتباع سنةِ الخلفاء الراشدين ، ولم يأمرْنا في الاقتداء في الأفعال إلا بأبي بكر وعمر ، فقال : « اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ »(**) ، وفرقٌ بين اتباعِ سنتهم والاقتداء بهم ، فحالُ/أبي بكر وعمر فوقَ حال عثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين . ٩٦/أ

وقد رُوي عن أبي حنيفة رحمه الله تقديمُ علي على عثمان رضي الله عنهما ، ولكن ظاهرُ مذهبه تقديمُ عثمان على علي ، وعلى هذا عامة أهل السنة .

وقد تقدَّم قولُ عبد الرحمن بن عوف لعلي رضي الله عنهما : إني قد نظرتُ في أمر الناس فلم أرهم يعدِلون بعثمان(***) .

(*) تقدم تخرجه ص ٤٣١ رقم ٢٦١ .

(**) تقدم تخرجه ص ٥٥٣ رقم ٣٤٢ .

(***) تقدم قريباً ص ٥٦٦ .

وقال أيوب السَّختياني(*) : من لم يقدِّمْ عثمان على علي ، فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار .

وفي « الصحيحين »(٣٦٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : كنا نقولُ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ : أفضلُ أُمَّة النَّبيِّ ﷺ بعدَه : أبو بكر ، ثم عُمَرُ ، ثم عُثمانُ .

***

قوله : وأَنَّ العَشَرَةَ الَّذِينَ سَماهُم رَسُولُ الله ﷺ وَبَشَّرَهُم بِالجَنَّةِ ، نَشْهَدُ لَهُم بِالجَنَّةِ ، عَلَى مَا شَهِدَ لَهُم رَسُولُ الله ﷺ ، وَقَوْلُهُ الحَقُّ ، وهم : أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَطَلْحَةُ ، والزُّبَيْرُ ، وَسَعْدُ ، وَسَعِيدُ ، وَعَبْدُ الرَّحمٰنِ بنُ عَوْفٍ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ ، وَهُوَ أَمِينُ هٰذِهِ الأُمَّةِ ، رَضِيَ الله عَنْهُم أَجْمَعِينَ(**) .

تقدم ذكرُ بعضِ فضائل الخلفاء الأربعة : ومِن فضائل الستة الباقين مِن العشرة رضي الله عنهم أجمعين ما رواه مسلم : عن عائشة رضي الله عنها : أرِقَ رسولُ الله ﷺ ذات ليلة ، فقال : « لَيْتَ رَجُلاً صَالِحاً مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي

(*) هو أبو بكر ، أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري ، سيد فقهاء عصره ، تابعي ، من النساك الزهاد ، من حفاظ الحديث ، كان ثبتاً ، رُوي عنه نحو ٨٠٠ حديث . ولد سنة ٦٦ هـ وتوفي سنة ١٣١ هـ . رحمه الله تعالى .

(٣٦٣) رواه البخاري ١٤/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب فضل أبي بكر بعد النبي ﷺ، وباب مناقب عثمان بن عفان ، وأبو داود رقم (٤٦٢٧) و (٤٦٢٨) في السنة : باب في التفضيل ، والترمذي رقم (٣٧٠٧) في المناقب : باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه . ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى . انظر « جامع الأصول » رقم (٦٣٩٤) .

(**) وقد نظمهم بعضهم بقوله :

سعد سعيد والزبير وطلحة وكذا ابن عوف عامر الخلفاء.

اللَّيْلَةَ » قالت : وسمعنا صوتَ السلاح ، فقال النبيُّ ﷺ : « مَنْ هٰذَا ؟ » فقال سعدُ بن أبي وقاص : يا رسولَ الله ! جئت أحرُسُك .

وفي لفظ آخر : وقَعَ في نفسي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئتُ أحرُسُه ، فدعا له رسولُ الله ﷺ ثُمَّ نام(٣٦٤) .

وفي « الصحيحين »(٣٦٥) : أن رسولَ الله ﷺ جمع لسعد بن أبي وقاص أبويه يومَ أُحد ، فقال : « ارْمِ ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » .

وفي « صحيح مسلم (*) »(٣٦٦) ، عن قيس بن أبي حازم ، قال : رأيتُ يدَ طلحةَ التي وَقَى بها النبيَّ ﷺ يوم أُحُد قد شلَّت .

وفيه(٣٦٧) أيضاً عن أبي عثمان النهدي ، قال : لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيها النبيُّ ﷺ غير طلحةَ وسعد .

وفي « الصحيحين »(٣٦٨) ، واللفظ لمسلم ، عن جابر بنِ عبد الله رضي الله عنهما قال : ندبَ رسولُ الله ﷺ الناسَ يومَ الخندق فانتدب الزبيرُ ، ثم ندبهم ،

---

(٣٦٤) رواه البخاري ٦/٦٠ في الجهاد : باب الحراسة في سبيل الله ، وفي التمني : باب قول النبي ﷺ : ليت كذا وكذا ، ومسلم رقم (٢٤١٠) في فضائل الصحابة : باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٧٥٧) في المناقب : باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(٣٦٥) رواه البخاري ٧/٦٦ في فضائل أصحاب النبي ﷺ ؛ باب مناقب سعد بن أبي وقاص ، و ٧/٢٨٦ في المغازي : باب ﴿وإذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ ، ومسلم رقم (٢٤١٢) في فضائل الصحابة : باب من فضائل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٧٥٥) في المناقب : باب مناقب سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

(*) وهم المصنف بعزوه الحديث الى « صحيح مسلم » وإنما هو في « صحيح البخاري » .

(٣٦٦) رواه البخاري ٧/٦٦ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب ذكر طلحة بن عبيد الله ، و ٧/٦٦ في المغازي : باب ﴿ إذا همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنين ﴾ .

(٣٦٧) رواه البخاري ٧/٦٦ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب ذكر طلحة بين عبيد الله ، وفي المغازي : باب ﴿ إذ همت طائفتان منكم . . . ﴾ ، ومسلم رقم (٢٤١٤) في فضائل الصحابة : باب من فضائل طلحة والزبير .

(٣٦٨) رواه البخاري ٧/٦٤ في فضائل أصحاب النبي ﷺ : باب مناقب الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وفي الجهاد : باب فضل الطليعة ، وباب هل يبعث الطليعة وحده ، وباب السير وحده ، وفي

فانتدب الزبيرُ ثم ندبهم ، فانتدب الزبير فقال النبيُّ ﷺ : « لِكُلِّ نبيٍّ حَوَارِيٌّ ، وَحَوَارِيّي الزُّبَيْرُ » .

وفيهما(٣٦٩) أيضاً عن الزبير رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ » ؟ فانطلقتُ ، فلما رجعتُ ، جمع لي رسول الله ﷺ أبويه ، فقال : « فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي » .

وفي «صحيح مسلم»(٣٧٠) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِيناً ، وَإن أَمِينَنَا أَيَّتُهَا الأُمَّةُ : أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ » .

وفي «الصحيحين»(٣٧١) عن حُذيفة بن اليمان ، رضي الله عنه قال : جاء أهلُ نجران إلى النبي ﷺ ، فقالوا : يا رسولَ الله ! ابعث إلينا رجلاً أميناً، فقال: «لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكُم رَجُلاً أَمِيناً حَقَّ [أَمِين](*)، قال: فاستشرفَ لها

المغازي : باب غزوة الخندق ، وفي خبر الواحد ، باب بعث النبي ﷺ الزبير طليعة وحده ، ومسلم رقم (٢٤١٥) في فضائل الصحابة : باب من فضائل طلحة والزبير ، والترمذي رقم (٣٧٤٦) في المناقب : باب مناقب الزبير بن العوام رضي الله عنه .

(٣٦٩) رواه البخاري ٧/٦٥ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب الزبير بن العوام ، ومسلم رقم (٢٤١٦) في فضائل الصحابة : باب من فضائل طلحة والزبير ، والترمذي رقم (٣٧٤٤) في المناقب : باب مناقب الزبير بن العوام رضي الله عنه .

انظر ما قاله الحافظ في « الفتح » ٧/٦٥ حول رواية مسلم لهذا الحديث .

(٣٧٠) رواه البخاري ٧/٧٣ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، وفي المغازي : باب قصة أهل نجران ، وفي إجازة خبر الواحد في فاتحته ، ومسلم رقم (٢٤١٩) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه

(٣٧١) رواه البخاري ٧/٧٣ ـ ٧٤ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، وفي المغازي : باب قصة أهل نجران ، وفي إجازة خبر الواحد في فاتحته ، ومسلم رقم (٢٤٢٠) في فضائل الصحابة : باب ومن فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ، والترمذي رقم (٣٧٥٩) في المناقب : باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه .

(*) الزيادة من « صحيح مسلم » ومطبوعة مكة .

الناسُ ، قال : فبعث أبا عُبيدة بن الجراح » .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنه ، قال : أشهدُ على رسول الله ﷺ أني سمعتُه يقول : «عَشْرَةٌ في الجَنَّةِ : النَّبيُّ في الجَنَّةِ ، وأَبو بَكْرٍ في الجَنَّةِ ، وَعُمَرُ في الجَنَّةِ، وَعُثْمانُ في الجَنَّةِ، وَعَلِيٌّ فِي الجَنَّةِ، وَطَلْحَةُ فِي الجَنَّةِ، وَالزُّبَيْرُ فِي الجَنَّةِ وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ في الجَنَّةِ، وَعَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ عَوْفٍ في الجَنَّةِ»، ولو شئت لسمَّيتُ العاشر، قال : فقالُوا : من هو؟ قال: سعيدُ بن زيد، وقال: لمشهدُ رجل منهم مع رسولِ الله ﷺ، يَغْبَرُّ منه وَجْهُهُ، خَيرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُم، وَلَو عُمِّرَ عُمُرَ نُوحٍ . رواه أبو داود ، وابن ماجه، والترمذي وصححه، ورواه الترمذي عن عبد الرحمن بن عوف(٣٧٢).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : «أَبُو بَكْرٍ في الجَنَّةِ ، وَعُمَرُ في الجَنَّةِ ، وَعَليٌّ في الجَنَّةِ ، وَعُثْمانُ في الجَنَّةِ ، وَطَلْحَةُ في الجَنَّةِ ، والزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ في الجَنَّةِ ، وَعَبْدُ الرَّحْمنِ بنُ عَوْفٍ في الجَنَّـةِ ، وَسَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ في الجَنَّةِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ في الجَنَّةِ» . رواه الإمام أحمد في « مسنده »(٣٧٣) ، ورواه أبو بكر بن أبي خيثمة ، وقدم فيه عثمان على علي ، رضي الله عنهما .

وعن أبي هُريرة رضي الله عنه ، قال : كانَ رسولُ الله ﷺ على حِرَاء ، هُوَ وأبو بكر وعمر وعثمان وعليٌّ وطلحةُ والزبير ، فتحركت الصخرةُ ، فقال

---

(٣٧٢) رواه أبو داود رقم (٤٦٤٩) و (٤٦٥٠) في السنة : باب في الخلفاء : والترمذي رقم (٣٧٤٩) و (٣٧٥٨) في المناقب : باب مناقب عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وباب مناقب سعيد بن زيد ، وابن ماجه رقم (١٣٤) في المقدمة : باب فضائل العشرة رضي الله عنهم . وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وقد روي من غير وجه عن سعيد بن زيد عن النبي ﷺ. وهو حديث صحيح .

(٣٧٣) رواه الترمذي رقم (٣٧٤٨) في المناقب : باب مناقب عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحمد في « المسند » ١٩٣/١ وهو حديث صحيح .

رسولُ الله ﷺ : « اهْدَأ ، فما عَلَيْكَ إلاَّ نَبيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ » . رواه مسلم والترمذي وغيرهما ، ورُوي من طرق(٣٧٤) .

وقد اتفق أهلُ السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم ، لما اشتهر مِن فضائلهم ومناقبهم ، ومن أجهلُ مِمن يكره التكلمَ بلفظ العشرة ، أو فِعْلَ شيء يكون عشرة !! لكونهم يُبغضون خيارَ الصحابة ، وهم/العشرة المشهود لهم بالجنة ، وهم يستثنون منهم عليًّا رضي الله عنه ! فمن العجب : أنهم يُوالون لفظ التسعة ! وهم يُبغضون التسعة من العشرة ! ويُبغضون من سائر المهاجرين والأنصار ، مِن السابقين الأولين الذين بايعوا رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وقد رضي الله عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المُؤْمِنِينَ إذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح : ١٨] .

٩٦/ب

وثبت في «صحيح مسلم» وغيره ، عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : «لا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»(*) .

وفي «صحيح مسلم»(٣٧٥) أيضاً ، عن جابر رضي الله عنه : أنَّ غُلام حاطب بن أبي بلتعة قال: يا رسولَ الله! لَيَدْخُلَنَّ حَاطِبٌ النَّارَ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «كَذَبْتَ(**) ، فَإِنَّهُ شَهِدَ بَدْراً والحُدَيْبِيَةَ » .

والرافضة يتبرؤ ون من جمهور هؤلاء ، بل يبترؤ ون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ ، إلا من نفر قليل ، نحو بضعة عشر نفراً !! ومعلوم أنه لو

---

(٣٧٤) رواه مسلم رقم (٢٤١٧) في فضائل الصحابة : باب من فضائل طلحة والزبير ، والترمذي رقم (٣٦٩٨) في المناقب : باب مناقب عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(*) تقدم تخرجه ص ٤٧٨ رقم ٢٩٢ .

(٣٧٥) رقم (٢١٩٥) (١٦٢) في فضائل الصحابة : باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم ، والترمذي رقم (٣٨٦٣) في المناقب : باب فيمن سبَّ أصحاب النبي ﷺ .

(**) أي أخطأت قال في « النهاية » : وقد استعملت العرب الكذب في موضع الخطأ .

فُرض في العالم عشرة من أكفر الناس ، لم يُهجر هذا الاسم لذلك ، كما أنه سبحانه لما قال : ﴿وَكَانَ في المَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ في الأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل : ٤٨] - لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً . بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع من القرآن : ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة : ١٩٦] . ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف : ١٤٢] . ﴿والفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر : ١ - ٢] .

وكان ﷺ يعتكِفُ العشرَ الأواخِرَ مِنْ رمضان[٣٧٦] .

وقال في ليلة القدرِ : «الْتَمِسُوهَا في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»[٣٧٧] .

وقال : «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِن أَحَبُّ إلى الله مِنْ أَيَّامِ العَشْرِ»[٣٧٨] . يعني عشرَ ذي الحجة .

والرافضة تُوالي بدل العشرة المبشرين بالجنة ، اثني عشر إماماً ، أولُّهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويدّعون أنه وصي النبي ﷺ ، دعوى مجردةً عن الدليل ، ثم الحسن رضي الله عنه ، ثم الحسين رضي الله عنه ، ثم علي بن الحسين زين العابدين ، ثم محمد بن علي الباقر ، ثم جعفر بن

---

(٣٧٦) رواه البخاري ٤/٢٢٦ في التراويح : باب تحري ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر ، ومسلم رقم (١١٨٣) في الاعتكاف : باب متى يدخل من أراد الاعتكاف من حديث عائشة رضي الله عنها . انظر « جامع الأصول » رقم (١١٩) .

(٣٧٧) رواه البخاري ٤/٢٢٥ - ٢٢٧ في صلاة التراويح : باب تحري ليلة القدر من العشر الأواخر ، وفي أبواب عدة ، ومسلم رقم (١١٦٩) في الصيام : باب فضل ليلة القدر ، من حديث عائشة رضي الله عنها . انظر « جامع الأصول » رقم (٦٨٤٢) .

(٣٧٨) رواه البخاري ٢/٣٨٢ و ٣٨٣ في العيدين : باب فضل العمل أيام التشريق ، وأبو داود رقم (٢٤٣٨) في الصوم : باب صوم العشر ، والترمذي رقم (٧٥٧) في الصوم : باب ما جاء في العمل أيام التشريق ، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

محمد الصادق ، ثم موسى بن جعفر الكاظم ، ثم علي بن موسى الرضى ، ثم محمد بن علي الجواد ، ثم علي بن محمد الهادي ، ثم الحسن بن علي العسكري ، ثم محمد بن الحسن ، ويُغالون في محبتهم ، ويتجاوزون الحد !! ولم يأت ذِكر الأئمةَ الاثني عشر ، إلا على صفة تَرُدُّ قولَهم وتُبْطِلُهُ، وهو ما خرجاه في «الصحيحين»[٣٧٩] ، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه ، قال : دخلتُ مع أبي على النبي ﷺ ، فسمعته يقول : «لَا يَزَالُ أَمْرُ النَّاسِ مَاضِياً مَا وَلِيهَمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً » ، ثم تكلَّم النَّبيُّ ﷺ بكلمة خفيت عني ، فسألتُ أبي : ماذا قال النبيُّ ﷺ ؟ قال : «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ» .

وفي لفظ : «لا يَزَالُ الإِسْلامُ عَزِيزاً إلى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً» .

وفي لفظ : «لا يَزَالَ هَذَا الأَمْرُ عَزِيزاً إلى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً» .

وكان الأمر كما قال النبي ﷺ ، والاثنا عشر : الخلفاءُ الراشدون الأربعة ، ومعاوية ، وابنه يزيد ، وعبد الملك بن مروان ، وأولاده الأربعة ، وبينهم عمر بن عبد العزيز ، ثم أخذ الأمرُ في الانحلال .

وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل في أيام هؤلاء فاسداً منغّصاً ، يتولّى عليهم الظالمون المعتدون ، بل المنافقون الكافرون ، وأهلُ الحق أذلُّ من اليهود !! وقولُهم ظاهر البطلان ، بل لم يزل الإسلام عزيزاً في ازدياد في أيام هؤلاء الاثني عشر .

***

---

(٣٧٩) رواه البخاري ١٣/١٨١ في الأحكام : باب الاستخلاف ، ومسلم رقم (١٨٢١) في الإمارة : باب الناس تبع لقريش ، ورقم ، والترمذي رقم (٢٢٢٤) الفتن : باب ما جاء في الخلفاء .

قوله : وَمَنْ أَحْسَنَ القَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَأَزْوَاجِهِ الطَّاهِرَاتِ مِنْ كُلِّ دَنَسٍ ، وَذُرِّيَّاتِهِ المُقَدَّسِينَ مِنْ كُلِّ رِجْسٍ ، فَقَدْ بَرِيءَ مِنَ النِّفَاقِ .

تقدم بعضُ ما ورد في الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضي الله عنهم .

وفي «صحيح مسلم»(٣٨٠) ، عن زيد بنِ أرقم رضي الله عنه ، قال : قام فينا رسولُ الله ﷺ خطيباً ، بماء يُدعى : خُمّاً ، بينَ مكة والمدينة ، فقالَ : «أَمَّا بَعْدُ ، ألا أَيُّها النَّاسُ ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، يُوشِكُ أن يأتيَ رَسُولُ رَبِّي ، فَأُجِيبُ ، وَأَنَا تَارِكٌ فيكُمْ ثقلَيْنِ : أَوَّلُهُما كِتَابُ الله ، فِيهِ الهُدَى والنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ الله واسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلى كِتَابِ الله وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثُمَّ قَالَ : «وَأَهْلُ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ الله في أَهْلِ بَيْتِي ، ثلاثاً» .

وخرج البخاري(٣٨١) عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، قال : ارقبوا محمَّداً في أهل بيته.

وإنما قال الشيخ رحمه الله : فقد بَرِيء من النفاق ؛ لأن أصل الرفض إنما أحدثه منافق زنديق ، قصدُه إبطالُ دين الإسلام ، والقدح في الرسول ﷺ ، كما ذكر العلماء ، فإن عبد الله بن سبأ لما أظهر الإسلام ، أراد أن يُفسِدَ دينَ الإسلام بمكره وخبثه ، كما فعل بُولص بدين النصرانية ، فأظهر التنسك ، ثم أظهر الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى سعى/في فتنة ٩٧/أ

(٣٨٠) رقم (٢٤٠٨) في فضائل الصحابة : باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

(٣٨١) ٦٣/٧ في فضائل أصحاب النبي ﷺ: باب مناقب قرابة رسول الله ﷺ، وباب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما .

عثمان وقتله ، ثم لما قدم عليٌّ الكوفة ، أظهر الغُلوَّ في عليٍّ والنصر له ، ليتمكن بذلك من أغراضه ، وبلغ ذلك عليًّاً ، فطلب قتلَه ، فهرب منه إلى قرقيسياء ، وخبره معروف في التاريخ . وتقدم أن من فضّله على أبي بكر وعمر جلده جلد المفتري . وبقيت في نفوس المبطلين خمائرُ بدعة الخوارج ، من الحرورية والشيعة ، ولهذا كان الرفضُ بابَ الزندقة ، كما حكاه القاضي أبو بكر بن الطيب(*) عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام ، قال : فقالوا للداعي : يجب عليك إذا وجدتَ من تدعوه مسلماً أن تجعلَ التشيع عنده دينَك وشعارك ، واجعل المدخل مِن جهة ظُلْمِ السلف لعليّ وقتلهم الحسين ، والتبرّي من تيمٍ وعدي ، وبني أمية وبني العباس ، وأن عليًّاً يعلمُ الغيب ! يُفوَّضُ إليه خلقُ العالم !! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم ، - إلى أن قال : - فإذا آنَسْتَ مِن بعض الشيعة عند الدعوة إجابةً ورشداً ، أوقفته على مثالب عليّ وولده ، رضي الله عنهم . انتهى .

ولا شك أنه يتطرق من سب الصحابة الى سب أهل البيت ، ثم إلى سب الرسول ﷺ ؛ إذ أهل بيته وأصحابه مثلُ هؤلاء الفاعلين الصانعين .

***

(*) هو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم البصري الباقلاني ، متكلم على مذهب الأشعري ، وكان في فنه أوحد زمانه ، وكان موصوفاً بجودة الاستنباط وسرعة الجواب ، ولد بالبصرة سنة ٣٣٨ هـ وسكن بغداد وتوفي بها سنة ٤٠٣ .
من تصانيفه « إعجاز القرآن » و « التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة » و « رسالة الحرة » و « كشف أسرار الباطنية » و « مناقب الأئمة » وغيرها .

قوله : وعُلَماءُ السَّلَفِ مِنَ السَّابِقِين ، ومَنْ بَعْدَهُم مِنَ التَّابِعينَ - أَهْلِ الخَيرِ والآثَرِ ، وأَهْلِ الفِقْه والنظر - لا يُذْكَرُونَ إلا بِالجَمِيلِ ، وَمَن ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلى غَيرِ السَّبِيلِ .

قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾ [النساء : ١١٥] .

فيجبُ على كل مسلم بعدَ موالاة الله ورسوله موالاةُ المؤمنين ، كما نطق به القرآنُ ، خصوصاً الذينَ هم ورثةُ الأنبياء ، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم ، يُهتدى بهم في ظُلمات البر والبحر ، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ، إذْ كل أمة قبل مبعث محمد ﷺ ، علماؤها شرارها إلا المسلمين ، فإن علماءَهم خيارُهم ، فإنهم خلفاءُ الرسول من أمته ، والمحيون لما مات من سنته ، بهم قام الكتاب وبه قاموا ، وبهم نطق الكتابُ وبه نطقوا ، وكلهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول ﷺ . ولكن إذا وجد لِواحِدٍ منهم قولٌ قد جاء حديث صحيح بخلافه - : فلا بُدَّ له في تركه من عذر .

وجماعُ الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدُها : عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله .

والثاني : عدمُ اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول .

والثالث : اعتقادُهُ أن ذلك الحكم منسوخ .

فلهم الفضلُ علينا والمِنةُ بالسبق ، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا ، وإيضاح ما كان منه يخفى علينا ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ في قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر : ١٠] .

* * *

قوله : وَلَا نُفَضِّلُ أَحَداً مِنَ الأَوْلِيَاءِ عَلى أَحَدٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ ، وَنَقُولُ : نَبِيٌّ وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الأَوْلِيَاءِ .

يُشير الشيخ رحمه الله تعالى إلى الرد على الاتحادية وجهلةِ المتصوفة ، وإلا فأهلُ الاستقامة يُوصون بمتابعة العلم ، ومتابعة الشرع ، فقد أوجب الله على الخلقِ كُلِّهم متابعةَ الرسول، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله وَلَوْ أَنَّهُم إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم جَاؤُكَ﴾ [النساء : ٦٤] ، إلى أن قال : ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [النساء : ٦٥] . وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُم والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران : ٣١] .

قال أبو عثمان النيسابوري : مَنْ أَمَّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطقَ بالحكمة ، ومن أمَّرَ الهوى على نفسه ، نطق بالبدعة .

وقال بعضُهم : ما ترك بعضهم شيئاً من السنة إلا لِكبر في نفسه .

والأمر كما قال ، فإنه إذا لم يكن متبعاً للأمر الذي جاء به الرسولُ ، كان يعمل بإرادة نفسه ، فيكونُ متبعاً لهواه ، بغير هُدى من الله ، وهذا غِشُّ النفس، وهو من الكِبر ، فإنه شعبة من قول الذين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله ، الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وكثير من هؤلاء يظن(*) أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة ، وتصفيةِ نفسه ، إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتِّباع لطريقتهم !

ومنهم من يظن أنّه قد صار أفضل من الأنبياء !!

(*) في الأصل : لا يظن ، والتصويب من مطبوعة مكة .

ومنهم من يقول : إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العِلمَ بالله مِن مشكاة خاتم الأولياء !! ويدّعي لنفسه أنه خاتَم الأولياء !! ويكون ذلك العلم هو حقيقة قولِ فرعون ، وهو أن هذا الوجود المشهود واجبٌ بنفسه ، ليس له صانع مباين له ، لكن هذا يقول : هو الله ! وفرعون أظهرَ الإنكار بالكلية ، / ٩٧/ب لكن كان فرعون في الباطن أعرفَ بالله منهم ، فإنه كان مثبتاً للصانع ، وهؤلاء ظنوا أن الوجودَ المخلوق هو الوجودُ الخالق ، كابن عربي وأمثاله !! وهو لما رأى أن الشرعَ الظاهر لا سبيل إلى تغييره ـ قال : النبوة خُتِمَت ، لكن الولاية لم تُختم ! وادعى من الولاية ما هو أعظمُ من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين ، وأن الأنبياء مستفيدون منها ! كما قال :

مَـقَـامُ الـنُّـبُـوَّةِ فـي بَـرْزَخٍ فُوَيْقَ(*) الرَّسُولِ وَدُونَ الـوَلِي !!

وهذا قلبٌ للشريعة ، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس : ٦٢ ـ ٦٣] ، والنبوة أخصُّ من الولاية ، والرسالةُ أخصُّ من النبوة ، كما تقدم التنبيه على ذلك .

وقال ابن عربي أيضاً في «فصوصه» : ولما مثَّل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللَّبِن ، فرآها قد كَمُلَتْ إلا موضِعَ لَبِنَةٍ ، فكان هو ﷺ موضع اللبنة .

وأما خاتَمُ الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية ، فيرى ما مثَّله النبيُّ ﷺ ، ويرى نفسه في الحائط في موضع لبنتين !! ويرى نفسَه تنطبع في موضع اللبنتين ، فتكمل الحائط !! والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين : أن الحائط لبنةٌ من فضة ولبنة من ذهب ، واللبنة الفضة هي ظاهرة وما يتبعه فيه من

(*) في الأصل فوق ، والتصويب من مطبوعة مكة .

الأحكام ، كما هو أخذ عن الله في السِّرِّ ما هو بالصورة الظاهرة متبع فيه، لأنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فلا بُد أن يراه هكذا ، وهو مَوضِعُ اللبنة الذهبية في الباطن ! فإنه يأخذ مِن المعدن الذي يأخذ منه المَلك الذي يُوحي إليه إلى الرسول ﷺ ، قال : فإن فهمت ما أشرنا إليه ، فقد حصل لك العلمُ النافع !! فمن أكفرُ ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب ، وللرسول المثل بلبنة فضة ، فيجعل نفسَه أعلى وأفضلَ من الرسل ؟ ! تلك أمانيُّهم ﴿إِنْ فِي صُدُورِهِم إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر : ٥٦] . وكيف يخفى كفر من هذا كلامه ؟ وله من الكلام أمثالُ هذا ، وفيه ما يخفى منه الكفر ، ومنه ما يظهر ، فلهذا يحتاج إلى ناقد جيد، ليظهر زيفُه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير ، وكفر ابن عربي وأمثاله فوقَ كفر القائلين : ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ﴾ [الأنعام : ١٢٤] . ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة ، اتحادية في الدرك الأسفل من النار ، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين ، لإظهارهم الإسلام ، كما كان يُظهره المنافقون في حياة النبي ﷺ ويُبطنون الكفر ، وهو يُعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم ، فلو أنه ظهر من أحد منهم ما يُبطنه من الكفر ، لأجرى عليه حكمَ المرتد ، ولكن في قبول توبته خلاف ، والصحيحُ عدم قبولها ، وهي رواية معلى عن أبي حنيفة رضي الله عنه . والله المستعان .

* * *

قوله : وَنُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ ، وَصَحَّ عَنِ الثِّقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ .

المعجزة في اللغة تَعُمُّ كُلَّ خارِقٍ للعادة ، وكذلك الكرامة في عرف أئمة أهل العلم المتقدمين ، ولكن كثيراً من المتأخرين يُفرقون في اللفظ

بينهما ، فيجعلون المعجزة للنبي ، والكرامة للولي . وجِماعُها : الأمر الخارق للعادة ، فصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى .

وهذه الثلاثة لا تصلُح على الكمال إلا لله وحده ، فإنه الذي أحاط بكل شيء علماً ، وهو على كل شيء قدير ، وهو غني عن العالمين .

ولهذا أمر الرسول ﷺ أن يتبرأ مِن دعوى هذه الثلاثة بقوله : ﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُم عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُم إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وكذلك قال نوح عليه السلام ، فهذا أوَّل أولي العزم ، وأوَّلُ رسول بعثه الله إلى أهل الأرض(*) .

وهذا خاتم الرسل ، وخاتم أولي العزم ، وكلاهما تبرأ من ذلك ، وهذا لأنهم يُطالبونهم تارةً بعلم الغيب ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٢] ، وتارةً بالتأثير ، كقوله تعالى : ﴿ وقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُعَاً ﴾ الآيات [الإسراء : ٩٠] . وتارةً يعيبون عليهم الحاجة البشرية ، كقوله تعالى : ﴿ وقَالُوا مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي في الأَسْوَاقِ ﴾ الآية [الفرقان : ٧] فأُمِرَ الرسولُ أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك ، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يُعطيه الله ، فيعلم ما علَّمه الله [إياه](**) ، ويقدر على ما أقدره عليه، ويستغني عما أغناه عنه، من الأمور المخالفة للعادة المطَّرِدَة ، أو لعادة أغلب الناس ، فجميعُ المعجزات

(*) جزء من حديث الشفاعة الطويل وتقدم تخريجه ص ٧٦ رقم ٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وورد لفظه ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . فراجعه .

(**) الزيادة من مطبوعة مكة .

والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع .

ثم الخارق : إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين ، كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب أو مستحب ،/وإن حصل به أمرٌ مباح ، كان مِن نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً ، وإن كان على وجه يتضمَّن ما هو منهي عنه نهيَ تحريم ، أو نهي تنزيه ، كان سبباً للعذاب أو البغض ، كالذي أوتيَ الآيات فانسلخَ منها بلعام بنُ باعورا ، لاجتهاد أو تقليد ، أو نقص عقل أو علم ، أو غلبة حال ، أو عجز أو ضرورة . ١/٩٨

فالخارق ثلاثة أنواع : محمود في الدين ، ومذموم ، ومباح ، فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمةً ، وإلا فهو كسائر المباحات التي لا منفعة فيها .

قال أبو علي الجوزجاني : كن طالباً للاستقامة ، لا طالباً للكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربُّك يطلب منك الاستقامة .

قال الشيخ السهروردي(*) في « عوارفه » : وهذا أصل كبير في الباب ، فإن كثيراً من المجتهدين المتعبدين سمعوا سلف الصالحين المتقدمين ، وما مُنِحُوا به من الكرامات وخوارق العادات ، فنفوسُهُم لا تزال تتطلع إلى شيءٍ من ذلك ، ويُحبون أن يُرزقوا شيئاً منه ، ولعل أحدهم يبقى منكسرَ القلب ، متهماً لنفسه في صحة عمله ، حيث لم يحصل له خارق ، ولو علموا بسرِّ ذلك ، لهان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله يفتحُ على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً .

والحكمة فيه أن يزدادَ بما يرى من خوارق العادات وأمارة(**) القدرة . يقيناً ،

(*) هو أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عمويه القرشي ، السهروردي ، الشافعي ، من كبار الصوفية ولد بسهرورد سنة ٥٣٩ هـ وعمي في آخر عمره ومات ببغداد سنة ٦٣٢ هـ من تصانيفه : « عوارف المعارف » و « بهجة الأبرار » وبغية البيان في تفسير القرآن » وهو غير السهروردي شهاب الدين أبو الفتوح يحيى بن حبش المقتول في حلب ومؤسس الفلسفة الإشراقية .

(**) في مطبوعة مكة : وآثار .

فيقوى عزمُه على الزهد في الدنيا ، والخروج عن دواعي الهوى ، فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة ، وهي كل الكرامة .

ولا ريب أن للقلوب من التأثير أعظَم مما للأبـدان ، لكن إن كانت صالحةً كان تأثيرُها صالحاً ، وإن كانت فاسدةً ، كان تأثيرُها فاسداً . فالأحوالُ يكون تأثيرها محبوباً لله تعالى تارةً ، ومكروهاً لله أخرى .

وقد تكلم الفقهاءُ في وجوب القوَدِ على من يقتُلُ غيره في الباطن . وهؤلاء يشهدون بواطِنَهم وقلوبهم الأمر الكوني ، ويعدُّون مجرد خرق العادة لأحدهم أنه كرامةٌ من الله له ، ولا يعلمون أنه في الحقيقة إنما الكرامة لزوم الاستقامة ، وأن الله تعالى لم يكرم عبداً بكرامة أعظم من موافقته فيما يُحبه ويرضاه ، وهو طاعتُه وطاعة رسوله ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه ، وهؤلاء هُمْ أولياءُ الله الذين قال الله فيهم : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] .

وأما ما يبتلي الله به عبده مِن السراء بخرق العادة أو بغيرها أو بالضّراء فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانِه عليه ، بل قد سَعِدَ بها قوم اذ أطاعوه ، وشقي بها قوم إذ عصوه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّـه فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا ﴾ [الفجر : ١٥ ـ ١٧] .

ولهذا كان الناسُ في هٰذه الأمور ثلاثة أقسام :

قسم ترتفع درجتُهم بخرق العادة .

وقسم يتعرضون بها لعذاب الله .

وقسم يكون في حقهم بمنزلة المباحات ، كما تقدم .

وتنوعُ الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله ، وكلمات الله نوعان : كونية ودينية .

فكلماتُهُ الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ »(*) ، قال تعالى : ﴿ إِنَّما أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] . وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام : ١١٥] . والكون كُلُّه داخل تحت هٰذه الكلمات ، وسائر الخوارق .

والنوع الثاني : الكلمات الدينية ، وهي القرآن وشرعُ الله الذي بعث به رسولَه ، وهي أمرُه ونهيُه وخبرُه ، وحظُّ العبد منها العلمُ بها ، والعمل ، والأمر بما أمر الله به ، كما أن حظَّ العبادِ عموماً وخصوصاً العلمُ بالكونيات والتأثير فيها ، أي : بموجبها ، فالأولى تدبيرية كونية ، والثانية شرعية دينية ، فكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية ، وكشف الثانية العلمُ بالمأمورات الشرعية .

وقدرة الأولى التأثيرُ في الكونيات ، إما في نفسه كمشيه على الماء ، وطيرانِه في الهواء ، وجلوسِه في النار ، وإما في غيره ، بإصحاح وإهلاك ، وإغناء وإفقار .

وقدرة الثانية التأثيرُ في الشرعيات ، إما في نفسه بطاعةِ الله ورسوله ، والتمسكِ بكتاب الله وسنة رسولِه باطناً وظاهراً ، وإما في غيرِه بأن يأمر بطاعة الله ورسوله ، فيُطاع في ذلك طاعةً شرعية .

فإذا تقرر ذلك ، فاعلم أن عدمَ الخوارق علماً وقدرةً لا تضرُّ المسلم في دينه ، فمن لم ينكشِفْ له شيء مِن المغيَّبات ، ولم يسخر له شيء من الكونيات ، لا ينقص ذلك في مرتبته عند الله ، بل قد يكونُ عدم ذلك أنفعَ

(*) وقد تقدم تخريجه ص ١٤٨ رقم ٧٢ .

٩٨/ب له ، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك/صاحبُه في الدنيا والآخرة ، فإن الخارق قد يكونُ مع الدين ، وقد يكون مع عدمه ، أو فساده ، أو نقصه .

فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له ، كما أن الرياسة النافعة هي التابعةُ للدين ، وكذلك المالُ النافع ، كما كان السلطان والمال النافع بيد النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر ، فمن جعلها هي المقصودة ، وجعل الدين تابعاً لها ، ووسيلةً إليها ، لا لأجل الدين في الأصل ، فهو شبيهٌ بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال مَنْ تديَّن خوفَ العذاب ، أو رجاء الجنة ، فإنَّ ذلك مأمور به ، وهو على سبيل نجاة ، وشريعة صحيحة .

والعجب أن كثيراً ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفاً من النار ، أو طلباً للجنة ، يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا !! ثم إن الدين إذا صح علماً وعملاً ، فلا بد أن يُوجب خرق العادة ، إذا احتاج إلى ذلك صاحبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ - ٣] . وقال تعالى : ﴿ إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾ [الأنفال : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُم فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً * وإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ [النساء : ٦٦ - ٦٨] . وقال تعالى :﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفي الإِخِرَةِ ﴾ [يونس ٦٢ - ٦٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ » ، ثم قرأ قوله : ﴿ إِنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] رواه الترمذي[٣٨٣] من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

---

(٣٨٣) رقم (٣١٢٥) في التفسير : باب ومن سورة الحجر ، وفي اسناده عطية العوفي ، وهو=

وقال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً ، فَقَدْ آذنتُهُ بالحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا زَالَ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ ، حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُه ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَه الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ المَوْتَ ، وَأَنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلاَ بُدَّ لَهُ مِنْهُ »(*) .

فظهر أن الاستقامة حظُّ الرب ، وطلب الكرامة حظُّ النفس . وبالله التوفيق .

وقول المعتزلة في إنكار الكرامة ظاهرُ البطلان ، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات .

وقوله : لو صحتْ ، لأشبهت المعجزة ، فيُؤدي إلى التباس النبي بالوليِّ ، وذلك لا يجوز ! وهٰذه الدعوى انما تَصِحُّ إذا كان الوليُّ يأتي بالخارق ، ويدَّعي النبوة ، وهٰذا لا يقع ، ولو ادعى النبوةَ ، لم يكن وليّاً ، بل كان متنبئاً كذَّاباً ، وقد تقدَّم الكلامُ في الفرق بين النبي والمتنبىء ، عند قول الشيخ : وأن محمداً عبدُه المجتبى ، ونبيُّه المصطفى(**) .

ومما ينبغي التنبيهُ عليه ها هنا : أن الفراسة ثلاثة أنواع :

إيمانية : وسببُها نور يقذِفُه الله في قلب عبده ، وحقيقتُها أنها خاطر يهجم على القلب ، يثِبُ عليه كوثوب الأسد على الفريسة .

= ضعيف ، وأورده السيوطي في « الدر المنثور » ٤/١٠٣ وزاد نسبته لابن جرير وابن أبي حاتم والبخاري في « التاريخ » وابن السني وأبي نعيم معاً في « الطب » ، وابن مردويه والخطيب .

(*) تقدم تخريجه ص ٤٠٠ رقم ٢٣٥ .

(**) انظر ص ١١٠ وما بعدها .

ومنها اشتغالها(*) ، وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان ، فمن كان أقوى إيماناً ، فهو أَحَدُّ فراسة .

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : الفِراسة مكاشفة النفس ومعاينةُ الغيب ، وهي من مقامات الإيمان . انتهى .

وفراسة رياضية : وهي التي تحصُل بالجوع والسهر والتخلي ، فإن النفس إذا تجرَّدت عن العوائق ، صار لها مِن الفراسة والكشف بحسب تجرُّدِها .

وهٰذه فِراسة مشتركة بين المؤمن والكافر ، ولا تَدُلُّ على إيمان ، ولا على ولاية ، ولا تكشف عن حقٍّ نافع ، ولا عن طريق مستقيم ، بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبارة الرؤساء والأطباء(**) ونحوهم .

وفراسة خِلقية : وهي التي صنف فيها الأطباء وغيرهم ، واستدلوا بالخَلْق على الخُلُق ، لِما بينهما من الارتباط ، الذي اقتضته حكمة الله ، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل ، وبكبره على كبره ، وسعَة الصدر على سعة الخُلق ، وبضيقه على ضيقه ، وبجمود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما ، وضعف حرارة قلبه ، ونحو ذلك .

* * *

قوله : وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ : مِنْ خُرُوجِ الدَّجَّالِ ، وَنُزُولِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ السَّمَاءِ ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، وَخُرُوجِ دَابَّةِ الأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا .

(*) هكذا في كل الأصول وقد رجح مصحح مطبوعة مكة أنها « اشتقاقها » والله أعلم .

(**) كذا في الأصل وفي مطبوعة مكة « الأظناء » والله أعلم .

عن عوف بن مالك الأشجعي ، قال : أتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوة تبوك ، وهو في قبة/من أدم ، فقال : « اعْدُدْ سِتّاً بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ : مَوْتِي ، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ المَقْدِسِ ، ثُمَّ مَوتانٌ يَأْخُذُ فِيكُم كَعُقَاصِ الغَنَمِ ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ المَـال حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مائَةَ دِينَارٍ فَيَظَلُّ سَاخِطاً ، ثُمَّ فِتْنَةٌ لا يبقى بيتٌ من العَرَب إلَّا دَخَلْتَهُ ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُم وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ ، فَيَغْدِرُونَ ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً ، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَـرَ أَلْفاً » . وروي « راية » ، بالراء والغين ، وهما بمعنى ، رواه البخاري وأبو داود ، وابن ماجة ، والطبراني(٣٨٤) .

1/99أ

وعن حُذَيفة بن أَسِيد ، قال : اطلع النبيُّ ﷺ علينا ونحنُ نتذاكَرُ الساعَةَ ، فقال : « ما تَذَاكَرُونَ » ؟ قالوا : نذكُرُ السَّاعَةَ ، فقال : « إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ » ، [فذكر](*) : « الدُّخَانَ ، والدَّجَّالَ ، والدَّابَّةَ ، وطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا ، ونُزُولَ عِيسَى بـنِ مَرْيَمَ ، وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ، وثلاثة خسوف : خسفٌ بالمشرق ، وخسفٌ بالمغرب ، وخسفٌ بجزيرة العرب ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخْرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهِمْ » . رواه مسلم(٣٨٥) .

وفي « الصحيحين »(٣٨٦) ، واللفظ للبخاري ، عن ابن عمر رضي الله

---

(٣٨٤) رواه البخاري ٦/ ١٩٨ - ١٩٩ في الجهاد : باب ما يحذر من العذر ، وأحمد في « المسند » ٦/ ٢٥ و ٢٧ وابن ماجه رقم (٤٠٤٢) ولم يروه أبو داود . انظر « جامع الأصول » رقم (٧٩٢٧) .
(*) الزيادة من « صحيح مسلم » .

(٣٨٥) رقم (٢٩٠١) في الفتن : باب ما يكون من فتوحات المسلمين قتل الدجال ، ورواه أيضاً أبو داود رقم (٤٣١١) في الملاحم : باب أمارات الساعة ، والترمذي رقم (٢١٨٤) في الفتن : باب ما جاء في الخسف ، وأحمد في « المسند » ٤/ ٦ ، وابن ماجه رقم (٤٠٥٥) في الفتن : باب الآيات .

(٣٨٦) رواه البخاري ٦/ ٣٥٠ في الأنبياء : باب ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ وفي اللباس : باب الجعد ، وفي التعبير : باب رؤيا الليل ، وباب الطواف بالكعبة في المنام و ١٣/ ٨٢ - ٨٦ في الفتن : باب ذكر الدجال ، ومسلم رقم (١٦٩) في الإيمان : باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال ، وفي الفتن : باب ذكرالدجال ، وأبو داود رقم (٤٧٥٧) في السنة : باب في الدجال ، والترمذي رقم (٢٢٣٦) =

عنهما ، قال : ذُكِرَ الدجال عند النبي ﷺ ، فقال : « إِنَّ الله لا يَخْفَى عَلَيْكُم ، وإِنَّ الله لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وأَشَارَ بِيَدِهِ إلى عَيْنِهِ ، وإِنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ عَينِ اليُمْنَى ، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْ نَبِي إِلَّا وَأَنْذَرَ قَوْمَهُ الأَعْوَرَ الدَّجَّالَ ، إلَّا إِنَّه أَعْوَرُ ، وَإِنَّ رَبَّكُم لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَ فَ رَ » ، فسره في رواية : « أي : كافر »(٣٨٧) .

وروى البخاري(٣٨٨) وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : « والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَماً عَدْلاً ، فَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ ، وَيَقْتُلُ الخِنْزِيرَ ، وَيَضَعُ الجِزْيَةَ ، وَيَفِيضُ المَالُ حَتَّى لَا يقْبَلَه أَحَدٌ ، حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنيا وَمَا فِيهَا » . ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتُم : ﴿ وإِنْ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ القِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِم شَهِيداً ﴾ [النساء : ١٥٩] .

= و (٢٢٤٢) في الفتن : باب ما جاء في علامة الدجال ، وباب ما جاء في صفة الدجال .

انظر « جامع الأصول » رقم (٧٨٤٨) .

(٣٨٧) رواه البخاري ١٣/٨٨ في الفتن : باب ذكر الدجال ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ ، ومسلم رقم (٢٩٣٣) في الفتن : باب ذكر الدجال وصفة ما معه ، وأبو داود رقم (٤٣١٦) و (٤٣١٧) و (٤٣١٨) في الملاحم : باب خروج الدجال ، والترمذي رقم (٢٢٤٦) في الفتن : باب رقم ٤ .

انظر « جامع الأصول » رقم (٧٨٤٩) .

(٣٨٨) رواه البخاري ٤/٣٤٣ في البيوع : باب قتل الخنزير ، وفي المظالم : باب كسر الصليب وقتل الخنزير ، و ٦/٣٥٥ ـ ٣٥٦ في الأنبياء : باب نزول عيسى بن مريم ، ومسلم رقم (١٥٥) في الإيمان : باب نزول عيسى بن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ ، وأبو داود رقم (٤٣٢٤) في الملاحم : باب خروج الدجال ، والترمذي رقم (٢٢٣٤) في الفتن : باب ما جاء في نزول عيسى بن مريم عليه السلام .

انظر « جامع الأصول » رقم (٧٨٣١) .

وأحاديث الدجال ، وعيسى بن مريم عليه السلام ، ينزِلُ من السماء ويقتله ، ويخرج يأجوج ومأجوج في أيامه بعد قتله الدجال ، فيُهلكهم الله أجمعين في ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم - : ويضيقُ هٰذا المختصر عن بسطها .

وأما خروجُ الدَّابَّةِ وطلوعُ الشمس من المغرب فقال تعالى : ﴿ وإذَا وَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِم أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآياتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٢] . وقال تعالى : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُهَا لَمْ تَكُن آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ في إيمَانَهَا خيْرَاً قُلِ انْتَظِرُوا إنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

وروى البخاري(٣٨٩) عند تفسير الآية ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قالَ رسول الله ﷺ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبَهَا ، فإِذَا رآها النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا ، فَذَاكَ حِينَ لا يَنْفَعُ نَفَساً إيمَانُهَا لَمْ تكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ » .

وروى مسلم(٣٩٠) ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، قال : « حَفظتُ مِن رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسَه بعد ، سمعتُ رسول الله ﷺ

---

(٣٨٩) ٨/٢٢٣ في التفسير : باب سورة الأنعام ، و١١/٣٠٣ - ٣٠٤ في الرقاق: باب قول النبي ﷺ : « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وفي الاستسقاء : باب ما قيل في الزلازل والآيات ، وفي الزكاة : باب الصدقة قبل الرد ، ومسلم رقم (١٥٧) في الإيمان : باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ، وأبو داود رقم (٤٣١٢) في الملاحم : باب أمارات الساعة .
انظر « جامع الأصول » رقم (٧٨٩٧) .

(٣٩٠) رقم (٢٩٤١) في الفتن : باب خروج الدجال ومكثه في الأرض ، وأبو داود رقم (٤٣٠٠) في الملاحم : باب أمارات الساعة .

يقول : « إِنَّ أَوَّلَ الآيَاتِ خُرُوجاً طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبَها ، وَخُروجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحىً ، وَأَيُّهما مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيباً » .

أي أول الآيات التي ليست مألوفة ، وإن كان الدجالُ ، ونزولُ عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك ، وكذلك خروجُ يأجوج ومأجوج ، كُلُّ ذلك أمور مألوفة ، لأنهم بشر ، مشاهدة مثلهم مألوفة .

وأما خروجُ الدابة بشكل غريب غيرِ مألوف ، ثم مخاطبتها الناس ، ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر ، فأمر خارجٌ عن مجاري العادات . وذلك أَوَّلُ الآيات الأرضية ، كما أن طُلوعَ الشمس مِن مغربها على خلاف عادتها المألوفة ـ أول الآيات السماوية .

وقد أفرد الناسُ أحاديثِ أشراط الساعة بمصنفات(*) مشهورة ، يضيقُ على بسطها هذا المختصر .

* * *

قوله : وَلاَ نُصَدِّقُ كَاهِناً وَلاَ عَرَّافاً ، وَلاَ مَنْ يَدَّعِي شَيئاً يُخَالِفُ الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِجْمَاعَ الأُمَّةِ .

روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبي عُبيد ، عن بعض أزواج النبي ﷺ ، عن النبي ﷺ ، /قال : « « مَنْ أَتَى عَرَّافاً فَسَأَلَهُ عَنْ شَيءٍ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةُ أَرْبَعِينَ ليلة »(٣٩١) . ٩٩/ب

(*) في الأصل مصنفات وكذا هو في مطبوعة مكة . ومن هذه المصنفات «الإذاعة لما يكون بين يدي الساعة» لصديق حسن خان و«النهاية في الفتن والملاحم» لابن كثير .

(٣٩١) رواه مسلم رقم (٢٢٣٠) في السلام : باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان ، وأحمد في « المسند » ٥/ ٣٨٠ .

وروى الإمام أحمد في « مسنده » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ أَتَى عَرَّافاً أو كَاهِناً ، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ ، فَقَدْ كَفَر بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّد »(*) .

والمنجم يدخل في اسم « العراف » عند بعض العلماء ، وعند بعضهم هو في معناه ، فإذا كانت هٰذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟

وفي «الصحيحين»[٣٩٢] و «مسند الإمام أحمد»،عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سأل رَسولَ الله ﷺ ناسٌ عن الكهان ؟ فقال : « لَيْسُوا بِشَيءٍ » ، فقالُوا : يا رسول الله ! إنهم يُحدِّثون أحياناً بالشيء فيكون حقّاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُها الجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا في أُذُنِ وَلِيِّه ، فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ » .

وفي « الصحيح »[٣٩٣] عنه ﷺ أنه قال : « ثَمَنُ الكَلْبِ خَبِيثٌ ، وَمَهْرُ البَغِيِّ خَبِيثٌ ، وحُلْوَانُ الكَاهِنِ خَبِيثٌ » .

(*) تقدم تخريجه ص ٣٤٥ رقم ١٩٤ .

(٣٩٢) رواه البخاري ١٠/١٨٥ في الطب : باب الكهانة ، وفي الأدب : باب قول الرجل للشيء : ليس بشيء ، وفي التوحيد: باب قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم ، ومسلم رقم (٢٢٢٨) في السلام : باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان .

(٣٩٣) روى البخاري ٤/٣٥٣ في البيوع : باب ثمن الكلب ، وفي الإجارة : باب كسب البغي والإماء ، وفي الطلاق : باب من البغي والنكاح الفاسد ، وفي الطب : باب الكهانة ، ومسلم رقم (١٥٦٧) في المساقاة: باب تحريم ثمن الكلب ، و « الموطأ » ٢/٦٥٦ في البيوع : باب ما جاء في ثمن الكلب ، وأبو داود رقم (٣٤٨١) في البيوع : باب في أثمان الكلب ، والترمذي رقم (١٢٧٦) في البيوع : باب ما جاء في ثمن الكلب ، والنسائي ٧/٣٠٩ في البيوع : باب بيع الكلب ،

من حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه ولفظه : « نهى رسول الله ﷺ عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن» .

وفي الباب عن رافع بن خديج وأبي جحيفة ، وأبي هريرة رضي الله عنهم انظر « جامع الأصول » رقم (٨١٦٠) و (٨١٦١) و (٨١٦٢) و (٨١٦٣) .

وحلوانه : الذي تسميه العامة حلاوته . ويدخل في هذا المعنى ما تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التي تُستقسم بها ، مثل الخشبة المكتوب عليها « أ ب ج د » والضارب بالحصى ، والذي يخطُّ في الرمل ، وما تعاطاه هؤلاء حرام .

وقد حكَى الإجماعَ على تحريمه غيرُ واحد من العلماء ، كالبغوي والقاضي عياض وغيرهما .

وفي « الصحيحين »(٣٩٤) عن زيد بن خالد ، قال : خطبنا رسولُ الله ﷺ بالحُديبية ، على إثر سماء كانت من الليل ، فقال : « أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ اللَّيْلَةَ»؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِه ، فَذٰلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، مُؤْمِنٌ بِالكَوْكَبِ » .

وفي « صحيح مسلم » و« مسند الإمام أحمد »(٣٩٥) ، عن أبي مالك الأشعري أن النَّبيَّ ﷺ قال : « أَرْبَعٌ في أُمَّتِي مِن أمر الجَاهِلِيَّةِ ، لا يَتْرُكُونَهُنَّ : الفَخْرُ في الأَحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ في الأَنْسَابِ ، وَالاسْتِسْقَاءُ بِالأَنْوَاءِ ، والنِّيَاحَةُ » .

---

(٣٩٤) رواه البخاري ٢٧٧/٢ في صفة الصلاة : باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم ، وفي الاستسقاء : باب قول الله تعالى : ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون﴾ و ٣٣٨/٧ في المغازي : باب : غزوة الحديبية ، وفي التوحيد : باب قول الله تعالى : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ ، ومسلم رقم (٧١) في الإيمان : باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء ، و « الموطأ » ١٩٢/١ في الاستسقاء : باب الاستمطار بالنجوم ، وأبو داود رقم (٣٩٠٦) في الطب : باب في النجوم ، والنسائي ١٦٥/٣ في الاستسقاء : باب كراهية الاستمطار بالكواكب .

(٣٩٥) رواه مسلم رقم (٩٣٤) في الجنائز : باب التشديد في النياحة ولكن فيه « الاستسقاء بالنجوم» بدل «الاستسقاء بالأنواء » ، وأحمد في « المسند » ٣٤٢/٥ و ٣٤٣ .

والنصوص عن النبيِّ ﷺ وأصحابِه وسائر الأئمة ، بالنهي عن ذلك ـ أكثرُ من أن يتسِعَ هذا الموضع لذكرها .

وصناعةُ التنجيم ـ التي مضمونُها الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القوى الفلكية والغوايل الأرضية ـ : صناعةٌ محرمة بالكتاب والسنة ، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ أَلَم تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نصيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : ٥١] . قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره : الجبْتُ : السحر .

وفي « صحيح البخاري »(٣٩٦) ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان لأبي بكر غُلام يأكل مِن خراجه ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام : تدري مِمَّ هٰذا ؟ قال : وما هو ؟ قال : كنت تكهنتُ لإنسان في الجاهلية ، وما أُحْسِنُ الكَهَانَة ، إلَّا أني خدعتُه ، فلقيني ، فأعطاني بذٰلك ، فهذا الذي أكلتَ منه ، فأدخل أبو بكر يده ، فقاء كل شيءٍ في بطنه .

والواجب على ولي الأمر ، وكلِّ قادر أن يسعى في إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحابِ الضرب بالرمل والحصى والقرع والفالات ، ومنعهم من الجلوس في الحوانيت والطرقات ، أو يدخلوا على الناس في منازلهم لذلك ، ويكفي من يعلم تحريم ذلك ، ولا يسعى في إزالته ، مع قدرته على ذلك قولُه تعالى : ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٩] . وهؤلاء الملاعين يقولون[الإثم](*)، ويأكلون السحتَ بإجماع المسلمين .

---

(٣٩٦) ١١٧/٧ في المغازي : باب أيام الجاهلية .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

وثبت في « السنن »[397] عن النبي ﷺ برواية الصِّدِّيق رضي الله عنه ، أنه قال : « إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوا المُنْكَرَ ، فَلَمْ يُغَيِّروهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ » .

وهٰؤلاء الذين يفعلون هٰذه الأفعالَ الخارجة عن الكتاب والسنة أنواع :

نوع منهم : أهلُ تلبيس وكذب وخداع الذين يُظهر أحدهم طاعة الجن له ، أو يَدَّعي الحال من أهل المحال ، من المشايخ النصابين ، والفقراء الكاذبين ، والطُّرقية المكَّارين ، فهٰؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التي تردعُهم وأمثالَهم عن الكذب والتلبيس ، وقد يكون في هؤلاء من يستحق القتلَ ، كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخُزعبلات ، أو يطلب تغيير شيء من الشريعة ، ونحو ذلك .

ونوعٌ : يتكلم في هٰذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة ، بأنواع السحر ، وجمهور/العلماء يُوجبون قتل الساحر ، كما هو مذهبُ أبي حنيفة ومالك وأحمد رحمهم الله في المنصوص عنه ، وهذا هو المأثورُ عن الصحابة ، كعمر وابنه وعثمان وغيرهم رضي الله عنهم . ١٠٠/أ

ثم اختلف هؤلاء : هل(*) يُستتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر ؟ أم يقتل لسعيه في الأرض بالفساد ؟ .

وقالت طائفة: إن قَتل بالسحر يقتل، وإلا عوقب بدون القتل؛ إذا لم

---

(397) رواه الترمذي رقم (٣٠٥٩) في أبواب التفسير : باب من سورة المائدة ، ورقم (٢١٦٩) في الفتن : باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر ، وأبو داود رقم (٤٣٣٨) في الملاحم : باب الأمر والنهي ، وابن ماجه رقم (٤٠٠٥) في الفتن : باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأحمد في « المسند » ١/٢ و٣ واسناده قوي .

وقد أطال الحافظ في « تهذيب التهذيب » ١/٢٦٧ ـ ٢٦٨ الكلام على هذا الحديث ، ونسبه لصحيح ابن خزيمة ، وقال : هذا الحديث جيد الاسناد .

(*) في الأصل والمطبوعة : قيل .

يكن في قوله وعمله كفر ، وهذا هو المنقول عن الشافعي ، وهو قولٌ في مذهب أحمد رحمهما الله .

وقد تنازع العلماءُ في حقيقةِ السحر وأنواعه :

والأكثرون يقولون : إنه قد يُؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه ، وزعم بعضُهم أنه مجردُ تخييل ، واتفقوا كُلُّهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة ، أو غيرها ، أو خطابها ، أو السجود لها ، والتقرب إليها بما يُناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك ـ فإنه كفرٌ ، وهو مِن أعظم أبوابِ الشرك ، فيجب غلقُه ، بل سدُّه ، وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام .

ولهذا قال ما حكى الله عنه : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً في النُّجُومِ * فَقَالَ إنِّي سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٨ ـ ٨٩] . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً ﴾ [الأنعام : ٧٦] ، الآيات ، إلى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يلْبِسُوا إيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

واتفقوا كلهم أيضاً على أن كل رقية وتعزيم أو قَسَم فيه شركٌ بالله ، فإنه لا يجوزُ التكلمُ به ، وإن أطاعته به الجن أو غيرُهم ، وكذلك كُلُّ كلام فيه كفر لا يجوزُ التكلمُ به ، وكذلك الكلامُ الذي لا يُعرف معناه لا يُتكلم به ، لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف . ولهذا قال النبيُّ ﷺ : « لَا بَأْسَ بِالرُّقَي مَا لَمْ تَكُنْ شِرْكاً »(٣٩٨) .

ولا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذمَّ الله الكافرين على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وأَنَّه كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ

(٣٩٨) رواه مسلم رقم (٢٢٠٠) في السلام : باب لا بأس بالرقي ما لم يكن فيه شرك ،من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه .

رَهَقاً ﴾ [الجن : ٦] . قالوا : كان الإنسي إذا نزل بالوادي يقول : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، فيبيتُ في أمن وجوار حتى يصبح ، ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً ﴾ يعني : الإنس للجن ، باستعاذتهم بهم ، ﴿ رهقاً ﴾ ، أي إثماً وطغياناً وجراءة وشرّاً ، وذلك ، أنهم قالوا : قد سُدْنا الجنَّ والإنس ! فالجنُّ تَعَاظم في أنفسها ، وتزداد كفراً إذا عاملتها الإنسُ بهذه المعاملة ، وقد قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلمَلائِكَةِ أَهٰؤلاءِ إِيَّاكُم كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ـ ٤١] . وهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويُخاطبونهم بهذه العزائم ، وأنها تنزَّلُ عليهم ـ : ضالون ، وإنما تنزّل عليهم الشياطين ، وقد قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُم جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُم خَالِدِين فِيها إلا مَا شَاءَ الله إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] فاستمتاعُ الإنسي بالجني : في قضاء حوائجه ، وامتثال أوامره ، وإخباره بشيء من المغيبات ، ونحو ذلك ، واستمتاع الجنِّ بالإنس : تعظيمُه إياه ، واستعانتُه به ، واستغاثتُه ، وخضوعُه له .

ونوع مهتم بالأحوال الشيطانية ، والكشوف ومخاطبته رجال الغيب ، وإن لهم خوارِقَ تقتضي أنهم أولياءُ الله ! وكان من هؤلاء من يُعين المشركين على المسلمين ! ويقول : إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين ، لكون المسلمين قد عَصَوْا !! وهٰؤلاء في الحقيقة إخوان المشركين .

والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب :

حزب يُكذبون بوجودِ رجال الغيب ، ولكن قد عاينهم الناسُ ، وثبت

عمن عاينهم أو حدثه الثقاتُ بما رأوه ، وهٰؤلاء إذا رأوهم ، وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

وحزب عرفوهم ، ورجعوا إلى القدر ، واعتقدوا أن ثَمَّ في الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء !

وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليّاً خارجاً عن دائرة الرسول ، فقالُوا : يكون الرسول هو ممدًّاً للطائفتين ، فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه .

والحق : أن هؤلاء [من] أتباع الشياطين، وأن رجالَ الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً ، كما قال تعالى : ﴿ وأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقَاً ﴾ [الجن : ٦] وإلا فالإنس يُؤنسون ، أي يشهدون ويرون، وإنما يحتجب الإنسي أحياناً ، لا يكون دائماً محتجباً عن /أبصار الإنس ، ومن ظن أنهم من « الإنس » فمن غلطه وجهله ، وسبب الضلال فيهم ، وافتراق هٰذه الأحزاب الثلاثة عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن . ١٠٠/ب

ويقول بعضُ الناس : الفقراء يُسلَّم إليهم حالهم ! وهذا كلام باطل ، بل الواجبُ عرضُ أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية ، فما وافقها قُبِلَ ، وما خالفها رُدَّ كما قال النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، فَهُوَ رَدٌّ » ، وفي رواية : « مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هذا ما لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ »(٣٩٩) .

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(٣٩٩) رواه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم ٢٩٨/٤ في البيوع : باب النجش ، ووصله في الصلح ٢٢١/٥ : باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، ومسلم رقم (١٧١٨) في الأقضية : باب نقض الأحكام الباطلة ، وأبو داود رقم (٤٦٠٦) في السنة : باب لزوم السنة . وابن ماجه رقم (١٤) في المقدمة : باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ ، من حديث عائشة رضي الله عنها .

فلا طريقةَ إلا طريقةُ الرسول ﷺ ، ولا حقيقةَ إلا حقيقتُه ، ولا شريعةَ إلا شريعتُهُ ، ولا عقيدةَ إلا عقيدتُهُ ، ولا يَصِلُ [من الخلق بعده](*) أحد إلى الله ورضوانه وجنته وكرامته إلَّا بمتابعته باطناً وظاهراً .

ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبر ، ملتزماً لطاعته فيما أمر في الأمور الباطنة التي في القلوب ، والأعمالِ الظاهرة التي على الأبدان ـ : لم يكن مؤمناً ، فضلاً عن أن يكون وليّاً لله تعالى ، ولو طار في الهواء ، ومشى على الماء ؛ وأنفق مِن الغيب ، وأخرج الذهب من الخشب ، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل !! فإنه لا يكونُ مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور ـ إلا مِن أهل الأحوال الشيطانية ، المُبْعِدَةِ لصاحبها عن الله تعالى ، المقرِّبة إلى سخطه وعذابه ، لكن مَنْ ليس يُكلَّفُ من الأطفال والمجانين ، قد رُفِعَ عنهم القلمُ، فلا يُعاقبون ، وليس لهم من الإيمانِ بالله ويقراه(*) باطناً وظاهراً ما يكونون به من أولياء الله المقرَّبين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين ، لكن يدخلون في الإسلام تبعاً لآبائهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِم مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] .

فمن اعتقد في بعض البُله أو المولهين(**) ـ مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله ـ أنَّه من أولياء الله ، ويُفضِّلُه على متبعي طريقة الرسول ﷺ ، فهو ضالٌ مبتدع ، مخطىء في اعتقاده ، فإن ذاك الأبلَه ، إما أن يكون شيطاناً زنديقاً ، أو زُوكارِيًّا(***) متحيلاً، أو مجنوناً معذوراً! فكيف يفضَّل

(*) الزيادة من مطبوعة مكة .

(*) كذا في الأصل ، وفي مطبوعة مكة « والإقرار» ولعلها « وتقواه » والله أعلم .

(**) في مطبوعة مكة « المولعين » .

(***) قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى : هذه لفظة مولدة . وفي «شرح القاموس» ٣/ ٢٤٠ : الزواكرة : من يتلبس فيظهر النسك والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد ، نقله المقري في « نفح الطيب » .

على من هو من أولياء الله ، المتبعين لرسوله ؟! أو يساوى به ؟! ولا يقال : يمكن أن يكون هذا متبعاً في الباطن وإن كان تاركاً للاتباع في الظاهر ؟ فإن هذا خطأ أيضاً ، بل الواجب متابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً .

قال يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفي(*) : قلت للشافعي : إن صاحبنا الليث كان يقول : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة ؟ فقال الشافعي : قصّر الليث رحمه الله ، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

وأما ما يقولُه بعضُ الناس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اطَّلَعْتُ عَلَى الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا البُلْهَ »(٤٠٠) فهذا لا يصح عن رسولِ الله، ولا ينبغي نسبتُه إليه ، فإنَّ الجنة إنما خلقت لأولي الألباب ، الذين أرشدتهم عقولُهم وألبابهُم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم في كتابه ، فلم يذكر في أوصافهم البَلَه الذي هو ضعفُ العقل ، وإنما قال النبيُّ ﷺ : « اطَّلَعْتُ في الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ »(٤٠١) . ولم يقل البله !

(*) هو أبو موسى يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة الصدفي ، من كبار الفقهاء ، كان عالماً بالأخبار والحديث ، صحب الشافعي وأخذ عنه ، قال الشافعي رحمه الله : ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس ، مولده بمصر سنة ١٧٠ هـ ووفاته بها سنة ٢٦٤ هـ رحمه الله تعالى .

(٤٠٠) قال العجلوني في « كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » رقم (٤٩٥) : رواه البيهقي والبزار والديلمي والخلعي بسند فيه لين عن أنس رفعه ، وله شاهد عند البيهقي مرفوعاً من حديث مصعب بن ماهان عن جابر لكن قال عقبة إنه بهذا الاسناد منكر . اهـ . والخلاصة : الحديث لا يصح كما قال الشارح .

(٤٠١) رواه البخاري ٢٣٨/١١ في الرقاق : باب فضل الفقر ، وباب صفة الجنة والنار ، وفي بدء الخلق : باب ما جاء في صفة الجنة ، وفي النكاح : باب كفران العشير ، والترمذي رقم (٢٦٠٥) و =

والطائفة الملامتية، وهم الذين يفعلون ما يلامون عليه ، ويقولون : نحن متبعون في الباطن ، ويقصدون إخفاء المرائين ! ردوا باطلهم بباطل آخر !! والصراط المستقيم بين ذلك .

وكذلك الذين يُصعقون عند سماع الأنغام الحسنة ، مبتدعون ضالون ! وليس للإنسان أن يستدعِيَ ما يكون سببَ زوال عقله ! ولم يكن في الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ، ولو عند سماع القرآن ، بل كانُوا كما وصفهم الله تعالى : ﴿ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ ايماناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون ﴾ [الأنفال : ٢] . وكما قال تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابَاً مُتَشَابَهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ الله ذٰلك هُدَى الله يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

١٠١/أ وأما الذين ذكرهم العلماءُ بخير من عقلاء المجانين ، فأولٰئك كان/فيهم خير ، ثم زالت عقولُهُم .

ومن علامة هؤلاء أنه إذا حصل في حيرتهم نوعٌ من الصَّحوِ ، تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان ، ويهذون بذٰلك في حال زوال عقلهم ، بخلاف غيرهم ممن يتكلم إذا حصل لهم نوع افاقة بالكفر والشرك ويهذون بذلك في حال زوال عقلهم ومن كان قبل جنونه كافراً أو فاسقاً ، لم يكن حدوث جنونه مزيلاً لما ثبت مِن كفره أو فسقه ، وكذلك من جن من المؤمنين المتقين ، يكونُ محشوراً مع المؤمنين المتقين ، وزوالُ العقل بجنون أو

= (٢٦٠٦) في صفة جهنم : باب ما جاء أن أكثر أهل النار النساء ، من حديث عبد الله بن عباس وعمران بن حصين رضي الله عنهم .

ورواه مسلم رقم (٢٧٣٧) في الذكر والدعاء : باب أكثر أهل الجنة الفقراء . من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وحده .

غيره ، سواء سمي صاحبه مولعاً أو متولِّهاً لا يُوجب مزيدَ حال ، بل حالُ صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر ، لا أنه يزيدُهُ أو يَنقُصُه ، ولكن جنونه يَحرِمُهُ الزيادة من الخيرِ ، كما أنه يمنع عُقُوبته على الشر ، ولا يمحو عنه ما كان عليه قَبلَه .

وما يحصُل لِبعضهم عند سماع الأنغام الطيبة مِن الهذيان ، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانه المعروف منه !! فذلك شيطانٌ يتكلم على لسانه ، كما يتكلَّم على لسان المصروع ، وذلك كُلُّه من الأحوال الشيطانية ! وكيف يكون زوالُ العقل سبباً أو شرطاً أو تقرباً إلى ولاية الله ، كما يظنُّه كثيرٌ من أهل الضلال ؟ ! حتى قال قائلهم :

هُمُ مَعْشَرٌ حَلُّوا النِّظَامَ وَخَرَّقُوا الـ ... سيَاجَ فَلاَ فَرْضٌ لَدَيْهِم وَلاَ نَفْلُ
مَجَانِينُ إلاَّ أنَّ سِرَّ جُنُونِهِمْ ... عَزِيزٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ العَقْلُ

وهذا كلام ضال ، بل كافر ، يظن أن في الجنون سرّاً يسجد العقل على بابه !! لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة ، أو تصرف عجيب خارق للعادة ، ويكونُ ذلك بسبب ما اقترن به من الشياطين ، كما يكون للسحرة والكهان! فيظن هذا الضالُّ أن كل من كاشف(*) أو خرق عادةً كان وليّاً لله !! ومن اعتقد هذا ، فهو كافر ، فقد قال تعالى : ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كَلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٢] . فكل من تنزل عليه الشياطين لا بد أن يكونَ عنده كذب وفجور .

وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات ، ويتركون الجُمَعَ

(*) في مطبوعة مكة : « خبل » .

والجماعات ، فهم الذين ضلَّ سعيُهُم في الحياة الدنيا ، وهم يَحْسَبُونَ أنهم يُحسِنُونَ صُنعَاً ، قد طبع الله على قلوبهم ، كما قد ثبت في « الصحيح »[٤٠٢] عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال : « مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُناً مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، طَبَعَ الله عَلَى قَلْبِهِ » . وكلُّ من عدل عن اتباع الرسول ﷺ ، إن كان عالماً بها ، فهوْ مغضوب عليه ، وإلا فهو ضال .

ولهذا شرع الله لنا أن نسأله في كل صلاة أن يَهديَنا الصراطَ المستقيم ، صراطَ الذين أنعم عليهم مِن النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولٰئكَ رفيقاً ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

وأما من يتعلَّقُ بقصة موسى مع الخضر عليهما السلام في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللَّدُني ، الذي يدعيه بعض من عُدِمَ التوفيق ـ : فهو ملحد زنديق ، فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته ، ولهذا قال له : أنت موسى بني إسرائيل ؟ قال : نعم[*] .

ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين ، ولو كان موسى وعيسى حيَّين ، لكانا من أتباعه .

وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض ، إنما يحكم بشريعة محمد

---

(٤٠٢) ليس هو في الصحيح كما قال الشارح رحمه الله تعالى ، وإنما هو حديث صحيح . رواه أبو داود رقم (١٠٥٢) في الصلاة : باب التشديد في ترك الجمعة ، والترمذي رقم (٥٠٠) في الصلاة : باب ما جاء في ترك الجمعة من غير عذر ، والنسائي ٣/٨٨ في الجمعة : باب التشديد في التخلف عن الجمعة ، وابن ماجه رقم (١١٢٥) في إقامة الصلاة : باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر ، من حديث أبي الجعد الضمري رضي الله عنه .

واسناده حسن ، حسنه الترمذي ، وابن حبان رقم (٥٥٤) « موارد » والحاكم في « المستدرك » ١/٢٨٠ ووافقه الذهبي . وهو حديث صحيح بشواهده .

(*) انظر ص ٣٢٥ .

ﷺ ، فمن ادَّعى أنه مع محمد ﷺ كالخَضِرِ مع موسى عليهما السلام ، أو جوَّزَ ذلك لأحد من الأمة ـ : فليجدِّدْ إسلامه ، وليشهد شهادَةَ الحق ، فإنه مفارق ديـن الإسلام بالكلية فضلاً عن أن يكون من أولياء الله ، وإنما هو من أولياء الشيطان .

وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة ، فحرِّكْ تَرَ .

وكذا من يقولُ بأن الكعبة تطوفُ برجال منهم حيث كانوا !! فهلا خرجت الكعبةُ إلى الحُديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها ، وهو يَوَدُّ منها نظرة ؟ ! وهؤلاء لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول : ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرة ﴾ [المدثّر : ٥٢] ، إلى آخر السورة .

* * *

قوله : وَنَرَى الجَمَاعَةَ حَقّاً وَصَوَاباً ، والفُرْقَةَ زَيْغاً وَعَذَاباً .

قال الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيـعاً وَلَا تَفـرَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٠٣]. وقال تعالى : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ البَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُم في شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُم إلى الله ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود : ١١٨ ـ ١١٩] . فجعل أهل الرحمة مستثنين من / الاختلاف ، وقال تعالى : ﴿ ذلِكَ بِأَنَّ الله نَزَّلَ الكِتَابَ بالحقِّ وإنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا في الكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة : ١٧٦] .

١٠١/ب

وقد تقدم قولُهُ ﷺ : « إنَّ أهْلَ الكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا في دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَينِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَإنَّ هٰذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً - يَعْنِي الأَهْوَاءَ - كُلُّهَا في النَّارِ إلَّا وَاحِدَة ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ » . وفي رواية : قالُوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : « مَا أنا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي »(*) . فبيَّنَ أن عامة المختلفين هالكون إلّا أهل السنة والجماعة ، أن الاختلاف واقع لا محالة .

وروى الإمام أحمد(٤٠٣) عن معاذ بن جبل ، أن النبي ﷺ قال : « إنَّ [الشَّيْطَانَ](**) ذِئْبُ الإنْسَانِ كَذِئْبِ الغَنَمِ يَأْخُذُ الشَّاةَ القَاصِيَة ، [والنَّاحِيَة](**) ، فإيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالجَمَاعَةِ ، وَالعَامَّةِ ، والمَسْجِدِ » .

وفي « الصحيحين »(٤٠٤) عن النبي ﷺ : أنه قال لمَّا نزل قولُه تعالى : ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ قال : أعُوذُ بِوَجْهِكَ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال : «أعُوذُ بِوَجْهِكَ» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُم شِيَعَاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام : ٦٥] قال : « هَاتَانِ أَهْوَنُ » .

فدلَّ على أنه لا بد أن يَلبسهم ويُذيق بعضَهم بأس بعض مع براءة الرسول من هذه الحال ، وهم فيها في جاهلية .

(*) تقدم تخريجه ص ٢٦٦ رقم ١٣٨ .

(٤٠٣) في « المسند » ٥/ ٢٣٢ - ٢٣٣ و٢٤٣ واسناده صحيح إلا أن العلاء بن زياد روايته عن معاذ مرسلة.و ٥/ ٢٤٣ من طريق قتادة عن العلاء بن زياد عن رجل حدثه يثق به عن معاذ بن جبل رضي الله عنه.انظر « تخريج المشكاة » رقم ١٨٤ والأحاديث الضعيفة رقم (٣٠١٦) .

(**) الزيادة من « المسند » .

(٤٠٤) رواه البخاري ٢١٨/٨ في تفسير سورة الأنعام : باب قوله تعالى ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ ، و٢٩٥/١٣ - ٢٩٦ وفي الاعتصام : باب قول الله تعالى : ﴿أويلبسكم شيعاً﴾ ، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

ولم يروه مسلم كما قال المصنف رحمه الله تعالى ، بل هو في الترمذي أيضاً رقم (٣٠٦٧) في التفسير . انظر « جامع الأصول » رقم (٦١٨) .

ولهذا قال الزهري : وقعت الفتنةُ وأصحابُ رسول الله ﷺ متوافرون ، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أُصيب بتأويل القرآن ـ : فهو هدر ، أنزلوهم منزلة الجاهلية .

وقد روى مالك[٤٠٥] بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها ، أنها كانت تقول : ترك الناسُ العملَ بهٰذِهِ الآية ، يعني قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إلى أَمْرِ الله ﴾ [الحجرات : ٩] .

فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاحَ بينهم كما أمر الله تعالى ، فلما لم يعمل بذلك ، صارت فتنةً وجاهلية ، وهكذا مسائل النزاعُ. التي تنازعُ فيها الأمة في الأصول والفروع ـ إذا لم تُردَّ إلى الله والرسول ـ لم يتبين فيها الحقُّ ، بل يصيرُ فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإن رحمهم الله ، أقرَّ بعضُهُم بعضاً ، ولم يبغ بعضُهُم على بعض ، كما كان الصحابةُ في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهم يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد ، فيُقِرُّ بعضهم بعضاً ، ولا يَعتَدِي ولا يُعتدى عليه ، وإن لم يرحموا ، وقع بينهم الاختلافُ المذموم ، فبغى بعضُهُم على بعض ، إما بالقولِ مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعلِ ، مثل حبسه وضربه وقتله . والذين امتحنوا الناسَ بخلق القرآن ، كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعةً ، وكفَّروا مَنْ خالفهم فيها ، واستحلوا منعَ حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفي عليهم بعضُ ما بعث الله به الرسول : إما عادلون وإما ظالمون ، فالعادلُ فيهم : الذي يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء ، ولا يظلم غيرَه ، والظالم : الذي يعتدي على غيره ، وأكثرهم إنما يظلمون مع

---

(٤٠٥) قال في « الدر المنثور » ٦/ ٩١ : أخرج ابن مردويه والبيهقي في سننه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما رأيت مثل ما رغبت عنه في هذه الآية ﴿ وإنْ طَائِفَتَانِ . . . ﴾ .

علمهم بأنهم يظلمون ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران : ١٩] . وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل ، أقرَّ بعضُهُم بعضاً ، كالمقلدين لأئمة العلم ، الذين يعرِفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله في تلك المسائل ، فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول ، وقالوا : هذا غايةُ ما قدرنا عليه ، فالعادلُ منهم لا يظلم الآخر ، ولا يعتدي عليه بقول ولا فعل ، مثل أن يدَّعي أن قولَ مقلَّده هو الصحيحُ بلا حجة يبديها ، ويذُمُّ من خالفه ، مع أنه معذور .

ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف في الأصل قسمان : اختلاف تنوع ، واختلاف تضاد .

واختلاف التنوع على وجوه ، منه ما يكونُ كُلُّ واحد من القولين أو الفعلين حقّاً مشروعاً ، كما في القراءات التي اختلف فيها الصحابةُ رضي الله عنهم ، حتى زجرهم النبيُّ ﷺ ، وقال : « كِلاكُما مُحْسِنٌ»(*) .

ومثله اختلاف الأنواع في صفة الأذان ، والإقامة ، والاستفتاح ، ومحلِّ سجود السهو ، والتشهد ، وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيد ، ونحو ذلك ، مما قد شُرع جميعُهُ ، وإن كان بعضُ أنواعِهِ أرجَحَ أو أفضَلَ . ثم تجد لِكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف/ما أوجَبَ اقتتَالَ طوائفَ منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ! وهذا عينُ المحرم ، وكذا تجد كثيراً منهم في قلبه من الهوى لأحد هٰذه الأنواع ، والإعراض عن الآخر والنهي عنه ـ : ما دخل به فيما نهى عنه النبي ﷺ .

١٠٢/أ

(*) تقدم تخرجه ص ٣٣٥ رقم ١٨٤ .

ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر ، لكن العبارتان مختلفتان ، كما قد يختلِفُ كثير من الناس في ألفاظ الحدود ، وصِيغ الأدلة ، والتعبير عن المسميات ، ونحو ذلك .

ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين ، وذمِّ الأخرى والاعتداء على قائلها ! ونحو ذلك .

وأما اختلاف التضادّ : فهو القولان المتنافيان ، إما في الأصول ، وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون : المصيب واحد ، والخطبُ في هذا أشدُّ ، لأن القولين يتنافيان ، لكن تجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القولُ الباطل الذي مع منازعه فيه حقٌّ ما ، أو معه دليل يقتضي حقّاً ما ، فيردُّ الحق مع الباطل ، حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض ، كما كان الأول مبطلاً في الأصل ، وهذا يجري كثيراً لأهل السنة .

وأما أهلُ البدعة ، فالأمر فيهم ظاهر، ومن جعل الله له هدايةً ونوراً رأى من هذا ما تبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه ، وإن كانت القلوبُ الصحيحة تُنْكِرُ هٰذا ، لكن نورٌ على نور .

والاختلاف الأول الذي هو اختلاف التنوع : الذمُّ فيه واقع على من بغى على الآخر فيه ، وقد دل القرآن على حمدِ كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك ، إذا لم يحصل بغيٌ ، كما في قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ الله ﴾ [الحشر : ٥] . وقد كانُوا اختلفوا في قطع الأشجار ، فقطع قومٌ ، وترك آخرون ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَدَاوِدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ في الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ❁ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وكُلًّا آتَيْنَا حُكماً وَعِلمَاً ﴾ [الأنبياء : ٧٨ ـ ٧٩] ، فخصَّ سليمان بالفهم ، وأثنى عليهما ، بالحكم والعلم .

وكما في إقرار النبيِّ ﷺ يومَ بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها ، ولمن أخَّرها إلى أن وصل إلى بني قريظة(٤٠٦) .

وكما في قوله ﷺ : « إِذَا اجْتَهَدَ الحَاكِمُ ، فَأَصَابَ ، فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ ، فَلَهُ أَجْرٌ »(٤٠٧) ونظائر ذلك .

والاختلاف الثاني : هو ما حُمِدَ فيه إحدى الطائفتين ، وذُمَّت الأخرى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] . وقوله تعالى : ﴿ هٰذانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا في رَبِّهِم فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾، الآيات [الحج : ١٩] .

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة ـ من القسم الأول ، وكذلك إلى سفك الدماء ، واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء ، لأن إحدى الطائفتين لا تعترِفُ للأخرى بما معها من الحق ، ولا تُنْصِفُها ، بل تَزِيدُ على ما مع نفسها من الحق زياداتٍ من الباطل ، والأخرى كذلك . ولذلك جعل

---

(٤٠٦) رواه البخاري ٣١٣/٧ في المغازي : باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، وفي صلاة الخوف : باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً ، ومسلم رقم (١٧٧٠) في الجهاد : باب المبادرة بالغزو ، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

ولفظه عند مسلم : قال : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف عن الأحزاب : « أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة » فتخوف ناس فوت الوقت فصلّوا دون بني قريظة ، وقال آخرون : لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ ، وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحداً من الفريقين .

(٤٠٧) رواه البخاري ٢٦٨/١٣ في الاعتصام : باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، ومسلم رقم (١٧١٦) في الأقضية : باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ، وأبو داود رقم (٣٥٧٤) في الأقضية : باب في القاضي يخطىء ، وأحمد في « المسند » ١٨٧/٢ وابن ماجه رقم (٢٣١٤) في الأحكام : باب الحاكم يجتهد فيصيب الحق ، من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ورواه الترمذي رقم (١٣٢٦) في الأحكام : باب ما جاء في القاضي يصيب ويخطىء ، والنسائي ٢٢٤/٨ في القضاء : باب الإصابة في الحكم ، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الله مصدَرَه البغي في قوله : ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغياً بَيْنَهُم ﴾ [البقرة : ٢١٣] . لأن البغي مجاوزةُ الحد ، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرةً لهٰذه الأمة .

وقريب من هذا الباب ما خرجاه في « الصحيحين »(٤٠٨) ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُم ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِم وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُم عَنْ شَيءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُم » . فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به ، معللاً بأن سببَ هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسل بالمعصية .

ثم الاختلاف في الكتاب ، من الذين يقرون به ـ على نوعين :

أحدهما : اختلاف في تنزيله .

والثاني : اختلاف في تأويله ، وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض .

فالأول كاختلافهم في تكلم الله بالقرآن وتنزيله .

فطائفة قالت : هٰذا الكلام حصل بقدرته ومشيئته لكونه مخلوقاً في غيره لم يقم به .

وطائفة قالت : بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق ، لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته .

وكل من الطائفتين جمعت في كلامها بين حق وباطل ، فآمنت ببعض الحق ، وكذَّبت بما تقوله الأخرى من الحق ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك .

---

(٤٠٨) رواه البخاري ١٣/٢٢٩ ـ ٢٣٠ في الاعتصام : باب الاقتداء بسنن المصطفى ، ومسلم رقم (١٣٣٧) في الحج : باب فرض الحج مرة في العمر ، وأحمد في « المسند » ٢/٢٤٧ و ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٣١٣ و ٤٢٨ و ٤٤٧ و ٤٥٧ و ٤٦٧ و ٤٧٢ و ٤٥ و ٥٠٨ و ٥١٧ ، وابن ماجه رقم (٢) في المقدمة : باب اتباع سنة رسول الله ﷺ، والنسائي ٥/١١٠ ـ ١١١ في الحج : باب وجوب الحج .

وأما الاختلاف في تأويله ، الذي يتضمن الإيمان ببعضه دون بعض ، فكثير ، كما في حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : خرجَ رسولُ الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصِمُون في القدر ، هذا/ينزِعُ بآية وهذا يَنْزِعُ بآية ، فكأنما فُقِئ في وجهه حَبُّ الرُّمان ، فقال : « أَبِهٰذَا أُمِرْتُمْ ؟ أَمْ بِهٰذَا وُكلتُم ؟ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ الله بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ؟ انْظُرُوا مَا أُمِرْتُم بِهِ فَاتَّبِعُوهُ ، وَمَا نُهِيتُم عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

١٠٢/ب

وفي رواية : «يَا قَوْمُ! بِهٰذَا ضَلَّتِ الأُمَمُ قَبْلَكُم، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِم الكِتَابَ بَعْضَه بِبَعْضٍ ، وإِنَّ القُرآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِتَضْرِبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ، وَلٰكِنْ نَزَلَ القُرآنُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضاً ، مَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا تَشَابَهَ فَآمِنُوا بِهِ » . وفي رواية : « فإِنَّ الأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى اخْتَلَفُوا ، وإِنَّ المِرَاءَ في القُرآنِ كُفْرٌ » . وهو حديث مشهور ، مخرج في «المسانيد» و«السنن»(*) .

وقد روى أصل الحديث مسلم في « صحيحه » ، من حديث عبد الله ابن رباح الأنصاري أن عبد الله بن عمرو قال : هجَّرْتُ إلى النبيِّ ﷺ يوماً ، فسمِعَ أصواتَ رجلين اختلفا في آية ، فخرجَ علينا رسولُ الله ﷺ يُعْرَفُ في وجهه الغضبُ ، فقال : «إنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِاخْتِلافِهِمْ في الكِتَابِ»(*) .

وجميعُ أهل البدع مختلفون في تأويله ، مؤمنون ببعضه دون بعض ، يُقرون بما يُوافق رأيهم من الآيات ، وما يُخالفه : إما أن يتأوَّلُوه تأويلاً يُحرِّفون فيه الكَلِمَ عن مواضعه ، وإما أن يقولُوا : هذا متشابهٌ لا يعلم أحدٌ معناه ، فيجحدوا ما أنزله الله من معانيه . وهو في معنى الكفر بذلك، لأن الإيمانَ باللفظ

(*) تقدم تخرجه ص ١٨٠ رقم ٩٠ .

بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب ، كما قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ [الجمعة : ٥] . وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ [البقرة : ٧٨] ، أي : إلا تلاوةً مِن غير فهم معناه . وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به ، واشتبه عليه بعضُه ، فوكل علمَه إلى الله ، كما أمره النبيُّ ﷺ بقوله : « فَما عَرَفْتُم مِنْهُ ، فَاعْمَلُوا بِهِ ، وَمَا جَهِلْتُم مِنْهُ فَرُدُّوه إلى عَالِمِهِ »(*) ، فامتثل أمره ﷺ .

* * *

قوله : وَدِينُ الله فِي الأَرْضِ وَالسَّماءِ وَاحِدٌ ، وَهُوَ دِينُ الإِسْلَامِ ، قَالَ الله تَعَالَىَ: ﴿إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وَقَالَ تَعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ [المائدة : ٣] . وَهُوَ بَيْنَ الغُلُوِّ وَالتَّقْصِيرِ ، وَبيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ ، وَبَيْنَ الجَبْرِ والقَدَرِ ، وَبيْنَ الأَمْنِ وَالإِيَاسِ .

ثبت في « الصحيح »(٤٠٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّا مَعَاشرَ الأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ » . وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرِ

(*) قطعة من الحديث السابق وهو في « المسند » ٢/١٨١ .

(٤٠٩) رواه المصنف رحمه الله تعالى بالمعنى ، وهو جزء من حديث رواه البخاري ٦/٣٥٤ في أحاديث الأنبياء : باب قول الله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها ﴾ ، ومسلم رقم (٢٣٦٥) (١٤٥) في الفضائل : باب فضائل عيسى عليه السلام ، وأحمد في « المسند » ٢/٤٠٦ و٤٣٧ وأبو داود رقم (٤٦٧٥) في السنة : باب التخيير بين الأنبياء عليهم السلام ، بلفظ : « الأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد » ، ولفظ أحمد « . . . وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم . . . » .
انظر « جامع الأصول » رقم (٦٣٢١) .

الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٨٥] عامٌّ في كل زمان ، ولكن الشرائع تتنوع ، كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [المائدة : ٤٨] .

فدين الإسلام : هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لِعباده على ألسنة رسله ، وأصول هذا الدين وفروعه وهو رواية عن الرسل ، وهو ظاهرٌ غاية الظهور، يُمكِنُ كل مميز من صغير وكبير ، وفصيح وأعجم ، وذكي وبليد ـ أن يَدْخُلَ فيه بأقصر زمان ، وإنه يقع الخروج منه بأسرعَ من ذلك ، من إنكارِ كلمة ، أو تكذيب ، أو معارضة ، أو كذب على الله ، أو ارتيابٍ في قول الله تعالى ، أو ردٍّ لما أنزل ، أو شكٍّ فيما نفي الله عنه الشك ، أو غير ذلك مما في معناه . فقد دل الكتابُ والسنة على ظهور دين الإسلام ، وسهولة تعلمه ، وأنه يتعلمه الوافد ، ثم يُولي في وقته . واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلَّم ، فإن كان بعيد الوطن ، كضِمام بن ثعلبة النجدي ، ووفد عبد القيس ، علَّمهم ما لم يسعهم جهلُه ، مع علمه أن دينَه سينشر في الآفاق ، ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه ، ومن كان قريبَ الوطن ـ يُمكنه الاتيانُ كلَّ وقت ، بحيث يتعلم على التدريج ، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لا بد منه ـ أجابه بحسب حالة وحاجته ، على ما تدل قرينةُ حال السائل ، كقوله : « قُلْ آمَنْتُ بالله ثُمَّ اسْتَقِمْ »[٤١٠] .

وأما من شرع ديناً لم يأذن به الله ، فمعلومٌ أن أصولَه المستلزمة له لا يجوزُ أن تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن غيره من المرسلين ، إذ هو باطل ، وملزوم الباطل باطل ، كما أن لازم الحق حق .

---

(٤١٠) رواه مسلم رقم (٣٨) في الإيمان : باب جامع أوصاف الإسلام ، وأحمد في « المسند » ٤١٣/٣ و ٣٨٥/٤ من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه .

وقوله : بين الغلو والتقصير . قال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُو فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَىٰ اللهِ إِلَّا الحَقَّ﴾ [النساء : ١٧١] . وقال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُو في دِينِكُم غَيْرَ الحَقِّ﴾ [المائدة : ٧٧] . وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم/اللهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة : ٨٧ ـ ٨٨] . ١٠٣/أ

وفي « الصحيحين »[٤١١] عن عائشة رضي الله عنها : أن ناساً مِن أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواجَ رسولِ الله ﷺ عن عمله في السر ؟ فقال بعضُهم : لا آكُلُ اللحمَ ، وقال بعضهم : لا أتزوجُ النساءَ ، وقال بعضُهم : لا أنامُ على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال : « مَا بَالُ أَقْوامٍ يَقُولُ أَحَدُهُم كَذَا وَكَذَا ؟! لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ ، وَآكُلُ اللَّحْمَ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي » . وفي غير « الصحيحين » : « سألُوا عن عبادته في السر ، فكأنهم تقالُّوها »[٤١٢] .

وذكر في سبب نزول الآية الكريمة : عن ابن جريج ، عن عكرمة أن عثمان بن مظعون ، وعلي بن أبي طالب ، وابن مسعود ، والمقدادَ بن الأسود ، وسالماً مولى أبي حذيفة ـ رضي الله عنهم في أصحابه ـ تبتَّلُوا ، فجلَسُوا في البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المُسوح ، وحرَّموا طيباتِ

(٤١١) رواه البخاري ١٣/١٢٥ ـ ١٢٦ في الأدب : باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، وفي الاعتصام : باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو في الدين والبدع ، ومسلم رقم (٢٣٥٦) في الفضائل : باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته .

قال الحافظ في « الفتح » ١٣/١٢٨ : وفي الحديث الحث على الاقتداء بالنبي ﷺ ، وذم التعمق والتنزه عن المباح ، وحسن العشرة عند الموعظة والانكار والتلطف في ذلك .

(٤١٢) رواه البخاري ٩/٨٩ ـ ٩٠ في النكاح : باب الترغيب في النكاح ، بلفظ « فلما أخبروا كأنهم تقالوها » ، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

الطعام واللباس ، إلا ما يأكل ويلبس أهلُ السياحة من بني إسرائيل ، وهمُّوا بالاختصاء ، وأجمعُوا لِقيام الليل ، وصيام النهار ، فنزلت ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ الله لَكُم وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٧] ، يقول : لا تسيرُوا بغير سنة المسلمين ، يُريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعُوا له مِن قيام الليل وصيام النهار ، وما همُّوا به من الاختصاء ، فنزلت فيهم ، بعث النبي ﷺ إليهم ، فقال : « إِنَّ لأَنْفِسِكُم عَلَيْكُم حَقّاً ، وإِنَّ لأَعْيُنِكُمْ حَقّاً ، صُومُوا وَأَفْطِرُوا ، وَصَلُّوا ونَامُوا ، فَلَيْسَ مِنَّا مَنْ تَرَكَ سُنَّتَنَا » ، فقالوا : اللهم سَلَّمنا واتَّبَعْنا ما أنزلتَ(*) .

وقوله : وبين التشبيه والتعطيل . تقدم أن الله سبحانه وتعالى يُحب أن يُوصف بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ، من غير تشبيه ، فلا يُقال : سمع كسمعنا ، ولا بصر كبصرنا ، ونحوه ، ومن غير تعطيل ، فلا ينفي عنه ما وصف به نفسه ، أو وصفه به أعرف الخلق به : رسوله ﷺ ، فإن ذلك تعطيلٌ ، وقد تقدم الكلامُ في هذا المعنى .

ونظيرُ هذا القول فيما تقدم : ومن لم يتوقَّ النفي والتشبيه ، زل ولم يصب التنزيه . وهذا المعنى مستفاد مِن قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] . فقولُه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ رد على المشبهة ، وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة .

وقوله : وبين الجبر والقدر . تقدم الكلامُ أيضاً على هذا المعنى ، وأن العبد غيرُ مجبور على أفعاله وأقواله ، وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش ، وحركات الأشجار بالرياح وغيرها ، وليست مخلوقةً للعباد ، بل هي فعلُ العبد وكسبه ، وخلقُ الله تعالى .

(*) انظر تفسير ابن كثير ٢/٨٧ ـ ٨٨ وتفسير الطبري ٧/٦ ـ ٩ .

وقوله : وبين الأمن والإياس . تقدَّم الكلامُ أيضاً على هذا المعنى ، وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه ، راجياً رحمته ، وأن الخوفَ والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد ، في سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة .

* * *

قوله : فَهٰذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِراً وَبَاطِنَاً ، وَنَحْنُ بُرَآءُ إلى الله تَعَالى مِنْ كُلِّ مَنْ خَالَفَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَبَيَّنَّاهُ ، وَنَسْأَلُ الله تَعَالَى أَنْ يُثَبِّتَنَا عَلَى الإِيمَانِ ، وَيَخْتِمَ لَنَا بِهِ ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الأَهْوَاءِ المُخْتَلِفَةِ ، والآرَاءِ المُتَفَرِّقَةِ ، والمَذَاهِبِ الرَّدِيَّةِ ، مِثْل المُشَبِّهَةِ ، والمُعْتَزِلَةِ ، والجَهْمِيَّةِ ، والجَبْرِيَّةِ ، والقَدَرِيَّةِ ، وغيْرِهِم ، مِنَ الَّذِينَ خَالَفُوا السُّنَّةَ والجَماعَةَ ، وحَالَفُوا الضَّلالَةَ ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآء ، وهُمْ عِنْدَنَا ضُلَّالٌ وَأَرْدِيَاءُ . وبالله العِصْمَةُ والتَّوفِيقُ .

الإشارة بقوله : « فهذا » كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا .

والمشبهة : هم الذين شبهوا الله سبحانه وتعالى بالخلق في صفاته ، وقولهم عكسُ قول النصارى ، فإن النصارى شبهوا المخلوق ـ وهو عيسى عليه السلام ـ بالخالق سبحانه وتعالى ، وجعلوه إلهاً ، وهؤلاء شبهوا الخالقَ بالمخلوق ، كداود الجواربي وأشباهه .

والمعتزلة : وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء الغَزَّال(*)

(*) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، متكلم أديب ، خطيب، ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ ونشأ بالبصرة وإليه تنسب المعتزلة لاعتزاله حلقة الحسن البصري ، وهو الذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق بعث من أصحابه إلى المغرب عبد الله بن الحارث ، وإلى خراسان حفص بن سالم، وإلى الكوفة الحسن بن ذكوان ، وإلى أرمينية عثمان الطويل ، وغيرهم ، من تصانيفه « معاني القرآن » و « أصناف المرجئة » و « السبيل إلى معرفة الحق » و « الخطب في الوحيد » وغيرها .

وأصحابهما ، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله تعالى(*) ، في أوائل المائة الثانية ، وكانوا يجلسون معتزلين ، فيقول قتادة وغيره : أولئك المعتزلة .

وقيل : إن واصل بن عطاء هو الذي وضع أصول مذهب المعتزلة ، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصري ، فلما كان زمن/هارون الرشيد ، صنف لهم أبو الهذيل كتابين ، وبيَّنَ مذهبهم ، وبنى مذهبهم على الأصول الخمسة ، التي سموها : العدل ، والتوحيد ، وإنفاذ الوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ! ولبَّسوا فيها الحقَ بالباطل ، إذْ شأنُ البدع هذا ، اشتمالها على حق وباطل . ١٠/ب

وهم مشبهة الأفعال ، لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده ، وجعلوا ما يحسُن من العباد يحسن منه ، وما يقبُح من العباد يقبح منه ! وقالُوا : يجب عليه أن يفعل كذا ، ولا يجوز له أن يفعل كذا ، بمقتضى ذلك القياس الفاسد !! فإن السيد من بني آدم لو رأى عبيدَه تزني بإمائه ولا يمنعهم من ذلك ، لعُدّ إما مستحسناً للقبيح ، وإما عاجزاً ، فكيف يَصِحُّ قياسُ أفعاله سبحانه وتعالى على أفعال عباده ؟! والكلام على هذا المعنى مبسوط في موضعه .

فأما العدل : فستروا تحتَه نفي القدر ، وقالوا : إن الله لا يخلق الشرَّ ، ولا يقضي به ، إذ لو خلقه ثم يُعذبهم عليه يكون ذلك جوراً !! والله تعالى عادل لا يجور ، ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده ، فيريد الشيء ولا يكون ، ولازمه وصفه بالعجز ! تعالى الله عن ذلك .

(*) في الهامش : صوابه اعتزلوا مجلس الحسن البصري رحمه الله لا أنهم اعتزلوا بعد موته كما في الكتاب .

وأما التوحيد : فستروا تحته القول بخلق القرآن ، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدّد القدماء !! ويلزمهم على هذا القول الفاسد أن علمَه وقدرتَه وسائرَ صفاته مخلوقةٌ ، أو التناقض !

وأما الوعيد : فقالوا : إذا أوعد بعضَ عبيده وعيداً ، فلا يجوز أن يعذبهم ويخلف وعيده ، لأنه لا يخلف الميعاد ، فلا يعفو عمن يشاء ، ولا يغفر لمن يريد ، عندهم !!

وأما المنزلة بين المنزلتين : فعندهم أن من ارتكب كبيرةً يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر !!

وأما الأمر بالمعروف : فهو أنهم قالوا : علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به ، وأن نُلزمه بما يلزمنا ، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وضمنوه أنه يجوزُ الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا !! وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في مواضعها .

وعندهم أن التوحيد والعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلَّا بعدها ، وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية ، فإنما يذكرونها للاعتضاد بها ، لا للاعتماد عليها ، فهم يقولون : لا نثبت هٰذه بالسمع ، بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل ! فمنهم من لا يذكرها في الأصول ، إذ لا فائدة فيها عندهم .

ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل ، وللإيناس الناس بها ، لا للاعتماد عليها ! والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب ، والمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم ! وبمنزلة من يتبع هواه واتفق أن الشرع ما يهواه !! كما قال عمر بن عبد العزيز : لا تكن ممن يتبع الحقَّ

إذا وافق هواه ، ويُخالفه اذا خالف هواه . فإذاً أنت لا تُثاب على ما وافقته من الحق ، وتعاقب على ما تركته منه ، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين . وكما أن الأعمال بالنيات ، وإنما لكل أمرىء ما نوى ، والعمل يتبع قصد صاحبه وإراداته ، فالاعتقاد القوي يتبع أيضاً علم ذلك وتصديقه ، فإذا كان تابعاً للإيمان ، كان من الإيمان ، كما أن العملَ الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحاً ، وإلا فلا : فقولُ أهل الإيمان التابع لغير الإيمان ، كعمل أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح .

وفي المعتزلة زنادقة كثيرة ، وفيهم من ضَلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

والجهمية : هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان الترمذي ، وهو الذي أظهر نفي الصفات والتعطيل ، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم ، الذي ضحى به خالد بن عبد الله القَسْري بواسط ، فإنه خطب الناس في يوم عيد الأضحى ، وقال : أيها الناس ، ضحوا ، تَقَبَّلَ الله ضحاياكم ، فإني مضح بالجعد بن درهم ، فإنه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلاً ولم يُكلم موسى تكليماً ، تعالى عما يقول الجعد علوّاً كبيراً ! ثم نزل فذبحه . وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه ، وهم السلف الصالح وكانوا من كبار التابعين(*) رحمهم الله تعالى .

وكان جهم بعده بخراسان ، فأظهر مقالته هناك ، وتبعه عليها ناس ، بعد أن ترك الصلاة أربعين يوماً شكّاً في ربه ! وكان ذلك/لمناظرته قوماً من المشركين ، يقال لهم السمنية، من فلاسفة الهند ، الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسيات ، قالوا له : هذا ربك الذي تعبده ، هل يُرى أو يُشم أو يُذاق

١٠٤/أ

(*) في الهامش : وكان ذلك في زمن صغار التابعين .

أو يُلمس ؟ فقال : لا ، فقالوا : هو معدوم !! فبقي أربعين يوماً لا يعبد شيئاً ، ثم لما خلا قلبه من معبود يؤلهه ، نقش الشيطان اعتقاداً نحته فكره ، فقال : إنه الوجود المطلق !! ونفى جميع الصفات ، واتصل بالجعد .

وقد قيل : إن جعداً كان قد اتصل بالصابئة الفلاسفة من أهل حَرّان ، وأنه أيضاً أخذ شيئاً عن بعض اليهود المحرفين لدينهم ، المتصلين بلبيد بن الأعصم الساحر الذي سحر النبي ﷺ ، فقتل جهم بخراسان ، قتله سَلْم بن أحْوز ، ولكن كانت قد فشت مقالتُه في الناس ، وتقلَّدها بعده المعتزلة . ولكن كان جهم أدخل ـ في التعطيل منهم . لأنه يُنكر الأسماء حقيقة ، وهم لا يُنكرون الأسماء بل الصفات .

وقد تنازع العلماء في الجهمية : هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا ؟ ولهم في ذلك قولان :

وممن قال إنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة: عبد الله بن المبارك ، ويوسف بن أسباط . وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد ابن حنبل وغيره من علماء السنة رحمهم الله ، فإنه من إمارة المأمون قُوُوا وكثروا ، فإنه قد أقام بخراسان مدةً واجتمع بهم ثم كتب بالمحنة من طَرَسُوس سنة ثمان عشرة ومائتين وفيها مات ، وردوا الإمام أحمد الى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين ، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام ، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه ، وبين أنه لا حجة لهم في شيء من ذلك ، وأن طلبهم من الناس أن يُوافقهم وامتحانهم اياهم ، جهلٌ وظلم ، وأراد المعتصم إطلاقه ، أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه ، لئلا تنكسر حرمة الخلافة مرة بَعدُ مرةً! فلما ضربوه ، قامت الشناعة في العامة، وخافوا فأطلقوه ، وقصته مذكورة في كتب التاريخ .

ومما انفرد به جهم : أن الجنة والنار تفنيان ، وأن الإيمان هو المعرفة

فقط ، والكفر هو الجهل فقط ، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده ، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالُهم على سبيل المجاز ، كما يقال: تحركت الشجرة ، ودار الفلك ، وزالت الشمس ! ولقد أحسن القائل :

عَجِبْتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا النَّـاسَ جَهْرَةً   إلى النَّـارِ وَاشْتُقَّ اسْمُهُ مِنْ جَهَنَّمِ

وقد نُقِلَ أن أبا حنيفة رضي الله عنه ، لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام ؟ فقال : لعن الله عمرو بن عبيد ، وهو فتح على الناس الكلام في هذا .

والجبرية : أصل قولهم من جهم بن صفوان ، كما تقدم ، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه ! وهم عكس القَدَرية نفاة القدر .

فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه ، كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء ، وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم . وقد تسمى الجبرية « قدرية » لأنهم غَلْوا في إثبات القدر ، وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد ، بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع ، فلا يجزمون بثواب من تاب ، كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب ، وكما لا يجزم لمعين . وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليًّا ، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر ! !

وقد ورد في ذم القدرية أحاديث في « السنن » : منها ما روى أبو داود في « سننه »(*) ، من حديث عبد العزيز بن أبي حازم ، عن أبيه ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ ، قال : « القَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هٰذِهِ الأُمَّة ، إنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ ، وَإنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُم » .

(*) تقدم تخرجه ص ٢٧٩ رقم ١٤٦ .

ورُوي في ذم القدرية أحاديثُ أخر كثيرة ، تكلم أهلُ الحديث في صحة رفعها ، والصحيح أنها موقوفة ، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج ، فإن فيهم في « الصحيح » وحده عشرةَ أحاديث ، أخرج البخاري منها ثلاثة ، وأخرج مسلم سائرَها ، ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة ، بل قولهم أردأ من قول المجوس ، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقَيْنَ ، والقدرية اعتقدوا خالِقينَ !!

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرّقة بين الأمة ، كما ذكر البخاري في « صحيحه »[٤١٣] ، عن سعيد بن المسيب ، قال : وقعت الفتنة الأولى ، يعني مقتل عثمان ، فلم تُبق من أصحاب بدر أحداً ، ثم وقعت الفتنة الثانية ، فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً ، ثم وقعت الثالثة[*] ، فلم ترتفع وللناس طَبَاخ ، أي عقل وقوة . فالخوارج والشيعة/حدثوا في الفتنة الأولى . ١٠٤/ب

والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية .

والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة[**] ، فصار هؤلاء الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم شِيَعَاً يُقابلون البدعة بالبدعة ، أولئك غَلَوْا في عليّ ، وأولئك كفَّروه ! وأولئك غلَوْا في الوعيد ، حتى خلدوا بعض المؤمنين ، وأولئك غلوا في الوعد ، حتى نَفَوْا بعض الوعيد أعني المرجئة ! وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات ، وهؤلاء غلوا في الإثبات ، حتى وقعوا في التشبيه ! وصاروا

---

(٤١٣) تعليقاً ٧/ ٢٥٠ في المغازي : باب شهود الملائكة بدراً . قال الحافظ في « الفتح » : : وصله أبو نعيم في المستخرج من طريق أحمد بن حنبل عن يحيى بن سعيد القطان عن يحيى بن سعيد الأنصاري نحوه .

(*) في الهامش : قالوا صوابه ، ولو وقعت الفتنة الثالثة لم ترتفع وللناس طباخ .

(**) في الهامش : وهي الحرة وكانت سنة ثلاث وستين .

يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع ، ويعرضون عن الأمر المشروع ، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل : اليهود والنصارى والمجوس والصابئين ، فإنهم قرؤوا كتبهم ، فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم ، وغيّروه في اللفظ تارةً ، وفي المعنى أخرى ، فلبسوا الحق بالباطل ، وكتموا حقّاً جاء به نبيُّهم ، فتفرقوا واختلفوا ، وتكلموا حينئذ في الجسم والعرض والتجسيم ، نفياً وإثباتاً .

وسببُ ضلال هذه الفرق وأمثالهم ، عُدولهم عن الصراط المستقيم ، الذي أمرنا الله باتباعه ، فقال تعالى : ﴿وأنَّ هٰذا صِراطي مُستَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . وقال تعالى : ﴿ قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعو إلى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] فوحَّد لفظ « صراطه » و« سبيله » ، جمع « السبل » المخالفة له .

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه : خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً ، « هٰذَا سَبِيلُ الله » ثُمَّ خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال: عَلَىٰ كُلِّ سَبيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣][٤١٤] .

ومن ها هنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم فوقَ كل ضرورة .

ولهذا شرع الله تعالى في الصلاة قراءة أُمِّ القران في كُلِّ ركعة ، إما فرضاً أو إيجاباً ، على حسب اختلاف العلماء في ذلك ، لاحتياج العبد إلى

---

(٤١٤) رواه الدارمي رقم (٢٠٨) في المقدمة : باب كراهية أخذ الرأي ، وأحمد في « المسند » ٤٣٥/١ و ٤٦٥ ، وهو حديث صحيح ،صححه الحاكم ٣١٨/٢ وأقره الذهبي .

هٰذا الدعاء العظيم القدر ، المشتمل على أشرف المطالب وأجلِّها . فقد أمرنا الله تعالى أن نقولَ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ـ ٧] .

وقد ثَبَتَ عَنِ النبي ﷺ أنه قال : « اليهودُ مغضوبٌ عليهم ، والنَّصَارى ضَالُّونَ »[٤١٥] .

وثبت في « الصحيح »[٤١٦] عن النبي ﷺ أنه قال : « لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّةِ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوه» ، قالوا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : «فَمَن ؟ !» .

قال طائفةٌ من السلف : من انحرف من العلماء ، ففيه شبه من اليهود ، ومن انحرف من العبَّاد ، ففيه شبه من النصارى . فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام ، من المعتزلة ونحوهم فيه شبهٌ من اليهود ، حتى إن علماء

---

(٤١٥) قطعة من حديث طويل رواه الترمذي رقم (٢٩٥٤) في التفسير : باب ومن سورة فاتحة الكتاب ، وأحمد في « المسند » ٤/٣٧٨ ـ ٣٧٩ والطبري رقم (١٩٤) و(٢٠٨) ، من حديث عدي بن حاتم، وفيه عباد بن حبيش الكوفي لم يوثقه غير ابن حبان ، ولكن تابعه مري بن قطري عند الطبري رقم (١٩٥) و(٢٠٩) فالحديث حسن .

وقد حسنه الترمذي وصححه ابن حبان رقم (١٧١٥) « موارد » .

(٤١٦) رواه البخاري ٦/ ٣٦٠ في أحاديث الأنبياء : باب ما ذكر عن نبي إسرائيل ، ومسلم رقم (٢٦٦٩) في العلم : باب اتباع سنن اليهود والنصارى ، وأحمد في « المسند » ٣/٨٤ و٨٩ و٩٤ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وليس السياق لأحدهما .

ورواه البخاري أيضاً ١٣/٢٥٥ في الاعتصام : باب قول النبي ﷺ : لتتبن سنن من كان قبلكم ، وابن ماجه رقم (٣٩٩٤) في الفتن : باب افتراق الأمم ، وأحمد في « المسند » ٢ / ٣٢٧ و ٤٥٠ و ٥١٥ و ٥٢٧ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وجملة « حذو القذة بالقذة » ليست في « الصحيحين » ، وإنما هي عند أحمد في « المسند » ٤/١٢٥ من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه ، بلفظ « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلكم أهل الكتاب ، حذو القذة بالقذة» .

اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة ، ويستحسنون طريقتهم ، وكذا شيوخُ المعتزلة يميلون إلى اليهود ، ويُرجحونهم على النصارى . وأكثر المنحرفين من العُبَّاد ، من المتصوفة ونحوهم فيهم شبه من النصارى ، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والاتحاد ونحو ذلك . وشيوخُ هٰؤلاء يذمون الكلام وأهله ، وشيوخ أولٰئك يعيبون طريقة هؤلاء ، ويُصنفون في ذم السماع والوَجْد وكثير من الزهد والعبادة التي أحدثها هؤلاء .

ولفرق الضُّلاَل في الوحي طريقتان : طريقةُ التبديل ، وطريقة التجهيل .

أما أهل التبديل ، فهم نوعان : أهل الوهم والتخييل ، وأهل التحريف والتأويل .

فأهل الوهم والتخييل : هم الذين يقولون : إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شيء عظيم كبير ، وأن الأبدان تُعاد ، وأن لهم نعيماً محسوساً ، وعقاباً محسوساً ، وإن كان الأمر ليس كذلك ، لأن مصلحة الجمهور في ذلك ، وإن كان كذباً ، فهو كذب لمصلحة الجمهور !! وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هٰذا الأصل .

وأما أهلُ التحريف والتأويل : فهم الذين يقولون : إن الأنبياء لم يقصدوا بهٰذه الأقوال ما هو الحقُّ في نفس الأمر ، وأن الحق في نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا ! ثم يجتهدون في تأويل هٰذه الأقوال إلى ما يُوافق رأيهم بأنواع التأويلات !! ولهذا كان/أكثرهم لا يجزمون بالتأويل ، بل يقولون : ‏١٠٥/أ
يجوز أن يُراد كذا . وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ .

وأما أهلُ التجهيل والتضليل ، الذين حقيقة قولهم : إن الأنبياء وأتباع

الأنبياء جاهلون ضالون ، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء ! ويقولون : يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله ، لا يعلمه جبريل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء ، فضلاً عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأن محمداً ﷺ كان يقرأ : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه :٥] . ﴿ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] . ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُد لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] - وهو لا يعرف معاني هذه الآيات ! بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى !! ويظنون أن هذه طريقة السلف !!

ثم منهم من يقول : إن المراد بهذا خلاف مدلولها الظاهر المفهوم ، ولا يعرفه أحد ، كما لا يُعلم وقتُ الساعة !

ومنهم من يقول : بل تُجرى على ظاهرها، وتحمل على ظاهرها، ومع هذا فلا يعلم تأويلها إلا الله، فيتناقضون حيث أثبتوا تأويلاً يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا إنها تحمل على ظاهرها وهؤلاء مشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلةً أو متشابهةً ، ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلاً !

ثم منهم من يقول : لم يعلم معانيها أيضاً !

ومنهم من يقول : علمها ولم يبينها ، بل أحال في بيانها على الأدلة العقلية ، وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص !! فهم مشتركون في أن الرسول لم يعلَم أو لم يُعلم ، بل نحن عرفنا الحق بعقولنا ، ثم اجتهدنا في حمل كلام الرسول على ما يُوافق معقولنا، وأن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات !! ولا يفهمون السمعيات !! وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل .

نسأل الله السلامة والعافية ، من هذه الأقوال الواهية ، المفضية بقائلها إلى الهاوية .

* * *

﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ . وحسبنا الله ونعم الوكيل(*) .

نجزت هذه النسخة من نسخة نقلت عن خط المصنف رحمه الله وقوبلت عليه في ليلة الجمعة الغراء المسفر صباحها عن السابع من شهر الله المحرم الحرام افتتاح شهور عام ثلاث وثمانين وثمانمائة ، فلله الحمد والمنة ، توفنا الله تعالى على الكتاب والسنة بمحمد وآله وصحبه وتابعيه وأزواجه وذريته وحزبه .

كتب فقير عفو الله سبحانه هبة الله أبو نصر

عبد الوهاب بن أحمد بن محمد بن

عبد الله بن إبراهيم بن أبي نصر

محمد بن عرب شاه بن أبي

بكر الصالحي الحنفي

عاملهم الله الحفي

و . . . بكرمه . . . ولطفه الخفي

آمين

* * *

(*) في هامش الأصل : الحمد لله ، قوبلت على النسخة المنقولة منها تصحت ولله الحمد والمنة . وبهامش (١٠٣ / ب) أبيات شعر زهدية لم نر ضرورة لاثباتها ، تراها في صورة المخطوط .

الدليل العام



دليل الآيات القرآنية

سورة المائدة

سورة الأنعام

سورة الأعراف

سورة الأنفال

سورة التوبة

سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف

سورة الرعد

سورة ابراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الاسراء

سورة الكهف

سورة مريم

سورة طه

سورة الأنبياء

سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور

سورة الفرقان

سورة الشعراء

سورة النمل

سورة القصص

سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الأحزاب

سورة الزمر

سورة غافر

سورة الانشقاق

سورة البروج

سورة الأعلى

سورة الفجر

سورة البلد

سورة الشمس

سورة البيّنة

سورة الفيل

سورة الكوثر

سورة الكافرون

سورة الاخلاص

سورة الفلق

دليل الأحاديث النبوية والآثار

* * *

دليل الأعلام

ـ غ ـ

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *

دليل الأمم والقبائل والأرهاط والعشائر ونحوها

دليل الملل والنحل

* * *

دليل الكتب

* * *

دليل الأماكن

* * *

دليل الأيام والغزوات

***

دليل الموضوعات*

(*) هذا الدليل مأخوذ من طبعة العلامة المرحوم أحمد شاكر ، طبعة دار المعارف بمصر .

***